مختصر

تفسير ابن كثير

مختصر لتفسير الإمام الجليل الحافظ عماد الدين
أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

المجلد الثالث

اختصار وتحقيق

محمد علي الصابوني

أستاذ التفسير بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة جامعة الملك عبد العزيز

دار القرآن الكريم

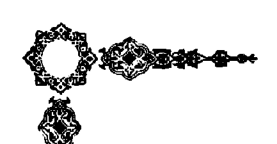
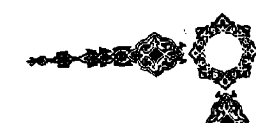
بيروت

الطبعة السابعة
(منقحة)

١٤٠٢ هـ = ١٩٨١ م

طُبِع على نفقة
المحسن الكبير
معالي السيد حسن عباس الشربتلي
وجعله وقفاً لله تعالى
فجزاه الله كل خير

يُوزع مجاناً ولا يُباع

بسم الله الرحمن الرحيم

مختصر
تفسير ابن كثير

قال الله تعالى: "إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم"

"ونُنَزِّلُ من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين".. "الإسراء"

وقال عليه الصلاة والسلام:

" أشراف أمتي حملة القرآن " "الترمذي"

"من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف." "البخاري"

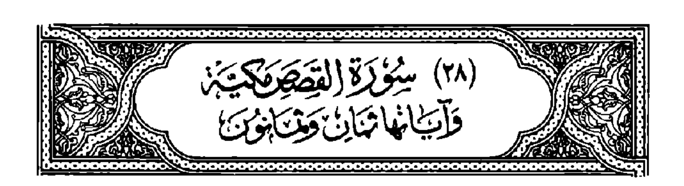
إقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه" "البخاري"

إلى كل مؤمن ومؤمنة..
يريد السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة..
أهدي كتاب الله وتفسيره..
ليكون عوناً على فهم القرآن والعمل به..
وقد قال عليه الصلاة والسلام:

"تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي". "متفق عليه"



السيد حسن عباس شربتلي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة. وقوله: ﴿تلك﴾ أي هذه ﴿آيات الكتاب المبين﴾ أي الواضح الجلي الكاشف عن حقائق الأمور وعلم ما قد كان وما هو كائن، وقوله: ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق﴾ أي نذكر لك الأمر على ما كان عليه كأنك تشاهد وكأنك حاضر، ثم قال تعالى: ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾ أي تكبر وتجبر وطغى، ﴿وجعل أهلها شيعاً﴾ أي أصنافاً قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته، وقوله تعالى: ﴿يستضعف طائفة منهم﴾ يعني بني إسرائيل، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم، هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم في أخس الأعمال، ويقتل مع هذا أبناءهم، ويستحيي نساءهم، إهانة لهم واحتقاراً وخوفاً من أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه، فاحترز فرعون من ذلك، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل، ولن ينفع حذر من قدر لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ولكل أجل كتاب، ولهذا قال تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض - إلى قوله - يحذرون﴾ وقد فعل تعالى ذلك بهم، كما قال تعالى: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون - إلى قوله - يعرشون﴾، وقال تعالى: ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾ أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى، فما نفعه ذلك مع قدرة الإله العظيم الذي لا يخالف أمره ولا يغلب، بل نفذ حكمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده وقتلت بسببه ألوفاً من الولدان، إنما منشؤه ومرباه على فراشك، وفي دارك، وغذاؤه من طعامك، وأنت تربيه وتدلله وتتفداه وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه، لتعلم أن رب السماوات العلا هو القاهر الغالب العظيم، القوي العزيز الشديد المحال الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

* ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل، خافت القبط أن يفني بني إسرائيل فيلون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة، فقالوا لفرعون: أنه يوشك إن استمر هذا الحال أن يموت شيوخهم، وغلمانهم يقتلون، ونساؤهم لا يمكن أن تقمن بما تقوم به رجالهم من الأعمال فيخلص إلينا ذلك، فأمر بقتل الولدان عاماً وتركهم عاماً، فولد هارون عليه السلام في السنة التي يتركون فيها الولدان، وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها الولدان، وكان لفرعون ناس موكلون بذلك وقوابل يدرن على النساء، فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها، فإذا كان وقت ولادتها لا يقبلها إلا نساء القبط، فإن ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن، وإن ولدت غلاماً دخل أولئك الذباحون بأيديهم الشفار المرهفة فقتلوه ومضوا، قبحهم الله تعالى، فلما حملت أم موسى به عليه السلام لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ولم تفطن لها الدايات، ولكن لما وضعته ذكراً ضاقت به ذرعاً، وخافت عليه خوفاً شديداً وأحبته حباً زائداً، وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه، قال تعالى: ﴿وألقيت عليك محبة مني﴾ فلما ضاقت به ذرعـاً ألهمت في سرها ونفث في روعها، كما قال تعالى: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل، فاتخذت تابوتاً ومهدت فيه مهداً، وجعلت ترضع ولدها، فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه ذهبت فوضعته في ذلك التابوت، وسيرته في البحر وربطته بحبل عندها، فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه، فذهبت فوضعته في ذلك التابوت، وأرسلته في البحر، وذهلت أن تربطه، فذهب مع الماء واحتمله حتى مر به على دار فرعون فالتقطه الجواري، فاحتملنه فذهبن به إلى امرأة فرعون ولا يدرين ما فيه، وخشين أن يفتئن عليها في فتحه دونها، فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها، ولهذا قال: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ الآية، قال محمد بن إسحاق: اللام هنا (لام العاقبة) لا (لام التعليل) لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك، قال تعالى: ﴿إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾، وقوله تعالى: ﴿وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك﴾ الآية، يعني أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفاً من أن يكون من بني إسرائيل فشرعت امرأته (آسية بنت مزاحم) تخاصم عنه وتذب دونه وتحببه إلى فرعون، فقالت: ﴿قرة عين لي ولك﴾، فقال فرعون: أما لك فنعم، وأما لي فلا، فكان كذلك وهداها الله بسببه وأهلكه الله على يديه، وقوله: ﴿عسى أن ينفعنا﴾ وقد حصل لها ذلك وهداها الله به وأسكنها الجنة بسببه، وقوله: ﴿أو نتخذه ولداً﴾ أي أرادت أن تتخذه ولداً وتتبناه، وذلك أنه لم يكن

لها ولد منه، وقوله تعالى: ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة والحجة القاطعة.

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر أنه أصبح فارغاً، أي من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى، قاله ابن عباس ومجاهد ﴿إن كادت لتبدي به﴾: أي إن كادت من شدة وجدها وحزنها لتظهر أنه ذهب لها ولد، وتخبر بحالها لولا أن الله ثبتها وصبرها، قال الله تعالى: ﴿لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين * وقالت لأخته قصيه﴾ أي أمرت ابنتها وكانت كبيرة تعي ما يقال لها فقالت لها ﴿قصيه﴾ أي اتبعي أثره وخذي خبره، وتطلبي شأنه من نواحي البلد فخرجت لذلك ﴿فبصرت به عن جنب﴾ قال ابن عباس: عن جانب، وقال مجاهد: بصرت به عن بعيد. وقال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده، وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون، وأحبته امرأة الملك عرضوا عليه المراضع التي في دارهم، فلم يقبل ثدياً وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك، فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته، فلما رأته بأيديهم عرفته، ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها، قال الله تعالى: ﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل﴾ أي تحريماً قدرياً وذلك لكرامته عند الله وصيانته له أن يرتضع غير ثدي أمه، ولأن الله سبحانه وتعالى جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه لترضعه وهي آمنة بعدما كانت خائفة فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه ﴿فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾؟ قال ابن عباس: فلما قالت ذلك أخذوها وشكوا في أمرها، وقالوا لها: وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه؟ فقالت لهم: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في سرور الملك ورجاء منفعته فأرسلوها، فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم ذهبوا معها إلى منزلهم، فدخلوا به على أمه، فأعطته ثديها، فالتقمه ففرحوا بذلك فرحاً شديداً وذهب البشير إلى امرأة الملك، فاستدعت أم موسى، وأحسنت إليها وأعطتها عطاء جزيلاً وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة ولكن لكونه وافق ثديها، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه فأبت عليها وقالت: إن لي بعلاً وأولاداً ولا أقدر على المقام عندك، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك وأجرت عليها النفقة والصلات والإحسان الجزيل، فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية، قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً في عز وجاه ورزق دارّ، ولهذا جاء في الحديث: «مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها»، ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل يوم وليلة، فسبحان من بيده الأمر، يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجاً، وبعد كل ضيق مخرجاً، ولهذا قال تعالى: ﴿فرددناه إلى أمه كي تقر عينها﴾ أي به ﴿ولا تحزن﴾ أي عليه ﴿ولتعلم أن وعد الله حق﴾ أي فيما وعدها من رده إليها

وجعله من المرسلين، وقوله تعالى: ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة، فربما يقع الأمر كريهاً إلى النفوس وعاقبته محمودة في نفس الأمر، كما قال تعالى: ﴿فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى عليه السلام، ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى آتاه الله حكماً وعلماً، قال مجاهد: يعني النبوة ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾، ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قدره له من النبوة والتكليم في قضية قتله ذلك القبطي، الذي كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين، فقال تعالى: ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾ قال ابن عباس: وذلك بين المغرب والعشاء، وقال ابن المنكدر عن ابن عباس: كان ذلك نصف النهار[1]، ﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان﴾ أي يتضاربان ويتنازعان، ﴿هذا من شيعته﴾ أي إسرائيلي ﴿وهذا من عدوه﴾ أي قبطي، فاستغاث الإسرائيلي بموسى عليه السلام، فوجد موسى فرصة وهي غفلة الناس فعمد إلى القبطي ﴿فوكزه موسى فقضى عليه﴾ قال مجاهد: فوكزه أي طعنه بجمع كفه، وقال قتادة: وكزه بعصا كانت معه فقضى عليه أي كان فيها حتفه فمات، ﴿قال﴾ موسى ﴿هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين * قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم * قال رب بما أنعمت عليّ﴾ أي بما جعلت لي من الجاه والعز والنعمة ﴿فلن أكون ظهيراً﴾ أي معيناً ﴿للمجرمين﴾ أي الكافرين بك، المخالفين لأمرك.

فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى عليه السلام لما قتل ذلك القبطي إنه أصبح ﴿في المدينة خائفاً﴾ أي من معرة ما فعل ﴿يترقب﴾ أي يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر، فمر في بعض الطرق فإذا ذلك الذي استنصره بالأمس على ذلك القبطي يقاتل آخر، فلما مر عليه موسى استصرخه على الآخر فقال له موسى: ﴿إنك لغوي

(١) وهو قول سعيد بن جبير، وعكرمة، والسدي، وقتادة.

مبين﴾ أي ظاهر الغواية كثير الشر، ثم عزم موسى على البطش بذلك القبطي، فاعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك، فقال يدفع عن نفسه ﴿يا موسى﴾ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس؟ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى عليه السلام، فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من فمه، ثم ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده فعلم فرعون بذلك، فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى، فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك.

۞ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾

قال تعالى: ﴿وجاء رجل﴾ وصفه بالرجولية لأنه خالف الطريق فسلك طريقاً أقرب من طريق الذين بعثوا وراءه فسبق إلى موسى، فقال له يا موسى ﴿إن الملأ يأتمرون بك﴾ أي يتشاورون فيك ﴿ليقتلوك فاخرج﴾ أي من البلد ﴿إني لك من الناصحين﴾.

۞ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾

لما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون ودولته في أمره، خرج من مصر وحده ولم يألف ذلك قبله، بل كان في رفاهية ونعمة ورياسة ﴿فخرج منها خائفاً يترقب﴾ أي يتلفت ﴿قال رب نجني من القوم الظالمين﴾ أي من فرعون وملئه، فذكروا أن الله سبحانه وتعالى بعث إليه ملكاً فأرشده إلى الطريق ﴿ولما توجه تلقاء مدين﴾ أي أخذ طريقاً سالكاً فرح بذلك، ﴿قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ أي الطريق الأقوم، ففعل الله به ذلك، وهداه إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة، فجعله هادياً مهدياً، ﴿ولما ورد ماء مدين﴾ أي لما وصل إلى مدين وورد ماءها، وكان لها بئر يرده رعاء الشاء ﴿وجد عليه أمة من الناس يسقون﴾ أي جماعة يسقون ﴿ووجد من دونهم امرأتين تذودان﴾ أي تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذيا، فلما رآهما موسى عليه السلام رق لهما ورحمهما، ﴿قال ما خطبكما﴾؟ أي ما خبركما لا تردان مع هؤلاء، ﴿قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء﴾ أي لا يحصل لنا سقي إلا بعد فراغ هؤلاء، ﴿وأبونا شيخ كبير﴾ أي فهذا الحال الملجيء لنا إلى ما ترى، قال الله تعالى: ﴿فسقى لهما﴾. روى عمرو بن ميمون الأودي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان قال: ما خطبكما؟ فحدثتاه فأتى الحجر فرفعه، ثم

لم يستق إلا ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم[1]. وقوله تعالى: ﴿ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾ قال ابن عباس: سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافياً، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه، وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة، وقوله: ﴿إلى الظل﴾ جلس تحت شجرة، قال السدي: كانت الشجرة من شجر السمر، وقال عطاء: لما قال موسى ﴿رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾ أسمع المرأة.

فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾

لما رجعت المرأتان سريعاً بالغنم إلى أبيهما أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعاً، فسألهما عن خبرهما فقصتا عليه ما فعل موسى عليه السلام، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها، قال الله تعالى: ﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء﴾ أي مشي الحرائر، جاءت مستترة بكم درعها، قال عمر رضي الله عنه جاءت ﴿تمشي على استحياء﴾ قائلة بثوبها على وجهها ليست بسَلْفَع من النساء ولَّاجة خرَّاجة[2]. ﴿قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ وهذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يوهم ريبة، بل قالت: ﴿إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ يعني ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا، ﴿فلما جاءه وقص عليه القصص﴾ أي ذكر له ما كان من أمره وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده ﴿قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ يقول: طب نفساً وقر عيناً فقد خرجت من مملكتهم فلا حكم لهم في بلادنا، ولهذا قال: ﴿نجوت من القوم الظالمين﴾. وقد اختلف المفسرون في الرجل من هو؟ **على أقوال**: **أحدها** أنه شعيب النبي عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين[3]، **وقال آخرون**: بل كان ابن أخي شعيب، **وقيل**: رجل مؤمن من قوم شعيب، **وقال آخرون**: كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة لأنه قال لقومه ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾، وعن ابن عباس قال: الذي استأجر موسى (يثرى) صاحب مدين رواه ابن جرير، **ثم قال**: **الصواب** أن هذا لا يدرك إلا بخبر ولا خبر تجب به الحجة في ذلك. وقوله تعالى: ﴿قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ أي قالت

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم واسناده صحيح، ومعنى السلفع: الجريئة من النساء السليطة الجسور كما أفاده الجوهري.

(٣) هذا هو المشهور عند كثير من العلماء وهو قول الحسن البصري.

إحدى ابنتي هذا الرجل قيل: هي التي ذهبت وراء موسى عليه السلام قالت لأبيها: ﴿يا أبت استأجره﴾ أي لرعية هذه الغنم، ﴿إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت له: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي: كوني من ورائي، فإذا اختلف عليَّ الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه[1]. وقال ابن مسعود: **أفرس الناس ثلاثة**: أبو بكر حين تفرس في عمر، وصاحب يوسف حين قال أكرمي مثواه، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾، ﴿قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين﴾ أي طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ويزوجه إحدى بنتيه.

وقوله تعالى: ﴿على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك﴾ أي على أن ترعى غنمي ثماني سنين، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك، وإلا ففي الثمان كفاية، ﴿وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾ أي لا أشاقك ولا أؤاذيك ولا أماريك. وفي الحديث: «إن موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه»[2]، وقوله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام ﴿قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليَّ والله على ما نقول وكيل﴾ يقول: إن موسى قال لصهره الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثمان سنين، فإن أتممت عشراً فمن عندي فأنا متى فعلت أقلهما، فقد برئت من العهد وخرجت من الشرط، ولهذا قال: ﴿أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليَّ﴾ أي فلا حرج عليَّ، وقد دل الدليل على أن موسى عليه السلام إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما. روى البخاري عن سعيد بن جبير قال: قال سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت لا أدري حتى أقدم على حبر العرب، فأسأله، فقدمت على (ابن عباس) رضي الله عنه فسألته، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل. وعن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: «أوفاهما وأبرهما، قال: وإن سئلت أي المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما»[3]. وروى ابن جرير عن أَنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما دعا نبي الله موسى عليه السلام صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما قال له صاحبه: كل شاة ولدت على غير لونها فلك ولدها، فعمد موسى فرفع حبالاً على الماء، فلما رأت الخيال فزعت فجالت جولة، فولدن كلهن بلقاً إلا شاة واحدة فذهب بأولادهن كلهن ذلك العام.

* ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ

(١) روي هذا القول عن عمر وابن عباس وشريح القاضي وقتادة ومحمد بن إسحاق وغيرهم.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة وابن ماجه عن (عتبة بن المنذر السلمي) مرفوعاً.

(٣) أخرجه البزار عن أبي ذر رضي الله عنه.

﴿بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قد تقدم أن موسى عليه السلام قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما[1]. قوله: ﴿وسار بأهله﴾ قالوا: كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله، فعزم على زيارتهم خفية من فرعون وقومه، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره، فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة، فنزل منزلاً فجعل كلما أورى زنده لا يضيء شيئاً فتعجب من ذلك، فبينما هو كذلك ﴿آنس من جانب الطور ناراً﴾ أي رأى ناراً تضيء على بعد ﴿فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً﴾ أي حتى أذهب إليها ﴿لعلي آتيكم منها بخبر﴾ وذلك لأنه قد أضل الطريق ﴿أو جذوة من النار﴾ أي قطعة منها ﴿لعلكم تصطلون﴾ أي تستدفئون بها من البرد، قال الله تعالى: ﴿فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن﴾ أي من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب، كما قال تعالى: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة، والجبل الغربي عن يمينه، والنار وجدها تضطرم في شجرة خضراء، في لحف الجبل مما يلي الوادي فوقف باهتاً في أمرها فناداه ربه ﴿أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين﴾ أي الذي يخاطبك ويكلمك هو ﴿رب العالمين﴾ الفعال لما يشاء، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات، في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله، وقوله: ﴿وأن ألق عصاك﴾ أي التي في يدك، كما في قوله تعالى: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى ؟ قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى﴾، والمعنى: أما هذه عصاك التي تعرفها ﴿ألقها فألقاها فإذا هي حية تسعى﴾، فعرف وتحقق أن الذي يكلمه ويخاطبه هو الذي يقول للشيء كن فيكون. ﴿فلما رآها تهتز﴾ أي تضطرب، ﴿كأنها جان ولى مدبراً﴾ أي في حركتها السريعة مع عظم خلقتها واتساع فمها، واصطكاك أنيابها بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها تنحدر في فيها، تتقعقع كأنها حادرة في واد، فعند ذلك ﴿ولى مدبراً ولم يعقب﴾ أي ولم يلتفت لأن طبع البشرية ينفر من ذلك، فلما قال الله له: ﴿يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين﴾ رجع فوقف في مقامه الأول، ثم قال الله تعالى: ﴿اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ أي إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق، ولهذا قال ﴿من غير سوء﴾: أي من غير برص. وقوله تعالى: ﴿واضمم إليك جناحك من الرهب﴾ قال مجاهد: من الفزع، وقال قتادة: من الرعب مما حصل لك من خوفك من الحية، **والظاهر** أنه أمر عليه السلام إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب، وهو يده فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف، وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤاده، فإنه يزول عنه ما يجده. عن مجاهد قال: كان موسى عليه السلام قد ملىء قلبه رعباً من فرعون، فكان إذا رآه قال: «اللهم إني أدرأ بك في نحره، وأعوذ بك من شره» فنزع الله ما كان في قلب موسى عليه السلام، وجعله في قلب فرعون فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار[2]. وقوله تعالى: ﴿فذانك

---

(١) هو عشر سنين على رأي الجمهور وقال مجاهد: عشر سنين وبعدها عشر أخر رواه عنه ابن جرير.

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن مجاهد.

برهانان من ربك﴾ يعني جعل العصا حية تسعى، وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه، ولهذا قال تعالى: ﴿إلى فرعون وملئه﴾ أي وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع، ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ أي خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ودينه.

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون ﴿قال رب إني قتلت منهم نفساً﴾ يعني ذلك القبطي، ﴿فأخاف أن يقتلون﴾ أي إذا رأوني، ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً﴾ وذلك أن موسى عليه السلام كان في لسانه لثغة بسبب ما كان تناول تلك الجمرة، فحصل فيه شدة في التعبير، ولهذا قال: ﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾ ﴿فأرسله معي ردءاً﴾ أي وزيراً ومعيناً ومقوياً لأمري، يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن الله عزَّ وجلَّ، لأن خبر الاثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد، ولهذا قال: ﴿إني أخاف أن يكذبون﴾، وقال محمد بن إسحاق: ﴿ردءاً يصدقني﴾ أي يبين لهم عني ما أكلمهم به فإنه يفهم عني ما لا يفهمون، فلما سأل ذلك موسى، قال الله تعالى: ﴿سنشد عضدك بأخيك﴾ أي سنقوي أمرك ونعز جانبك بأخيك، الذي سألت له أن يكون نبياً معك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾. ولهذا قال بعض السلف: ليس أحد أعظم منة على أخيه من (موسى) على (هارون) عليهما السلام، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً، ولهذا قال تعالى في حق موسى ﴿وكان عند الله وجيهاً﴾، وقوله تعالى: ﴿ونجعل لكما سلطاناً﴾ أي حجة قاهرة ﴿فلا يصلون إليكما بآياتنا﴾ أي لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك - إلى قوله - والله يعصمك من الناس﴾، ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما في الدنيا والآخرة فقال تعالى: ﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾، كما قال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾، وقال تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ إلى آخر الآية.

* فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه، وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة والدلالة القاهرة، على صدقهما فيما أخبرا به عن الله عزَّ وجلَّ، من توحيده واتباع أوامره، فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه، وأيقنوا أنه من عند الله، عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهتة، وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق، فقالوا: ﴿ما هذا إلا سحر مفترى﴾ أي مفتعل مصنوع، وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه، وقوله:

﴿وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ يعنون عبادة الله وحده لا شريك له، ويقولون ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى، فقال موسى عليه السلام مجيباً لهم: ﴿ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده﴾ يعني مني ومنكم، وسيفصل بيني وبينكم، ولهذا قال: ﴿ومن تكون له عاقبة الدار﴾ أي من النصرة والظفر والتأييد، ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ أي المشركون بالله عزّ وجلّ.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه، وافترائه في دعواه الإلّهية لعنه الله، كما قال الله تعالى: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ الآية، وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلّهية، فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم؛ ولهذا قال: ﴿يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري﴾، وقال تعالى إخباراً عنه ﴿فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى﴾ يعني أنه جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالي مصرحاً لهم بذلك فأجابوه سامعين مطيعين، ولهذا انتقم الله تعالى منه فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة، وحتى إنه واجه موسى الكليم بذلك، فقال: ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾، وقوله: ﴿فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى﴾ يعني أمر وزيره (هامان) مدير رعيته أن يوقد له على الطين يعني يتخذ له آجراً لبناء الصرح، وهو القصر المنيف الرفيع العالي، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب * أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً﴾ الآية. وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذي لم ير في الدنيا بناء أعلى منه إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون، ولهذا قال: ﴿وإني لأظنه من الكاذبين﴾ أي في قوله إن ثَمَّ رباً غيري، لا أنه كذبه في أن الله تعالى أرسله لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع جل وعلا، فإنه قال: ﴿وما رب العالمين﴾؟ وقال: ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾، وقال: ﴿يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري﴾ وهذا قول ابن جرير، وقوله تعالى: ﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون﴾ أي طغوا وتجبروا وأكثروا في الأرض الفساد، واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد، ﴿فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد﴾، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم﴾ أي أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة فلم يبق منهم أحد، ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾ أي لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم في تكذيب الرسل وتعطيل الصانع، ﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾ أي فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولا بذل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أهلكناهم

فلا ناصر لهم﴾، وقوله تعالى: ﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ أي وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله كما أنهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم كذلك، ﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ قال قتادة: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾.

* وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم، من إنزال التوراة عليه بعدما أهلك فرعون وملأه، وقوله تعالى: ﴿من بعدما أهلكنا القرون الأولى﴾ يعني أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين، كما قال تعالى: ﴿وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ۝ فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية﴾، وروى ابن جرير عن أبي سعيد الخدري قال: ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض، غير أهل القرية الذين مسخوا قردة بعد موسى، ثم قرأ: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾[1] الآية، وقوله: ﴿بصائر للناس وهدى ورحمة﴾ أي من العمى والغي، ﴿وهدى﴾ إلى الحق، ﴿ورحمة﴾ أي إرشاداً إلى العمل الصالح، ﴿لعلهم يتذكرون﴾ أي لعل الناس يتذكرون به ويهتدون بسببه.

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ﷺ، حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأن سامعه شاهدٌ وراءٍ لما تقدم، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئاً من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك، كما أنه لما أخبره عن مريم، قال تعالى: ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾، ولما أخبره عن نوح وإغراق قومه، قال تعالى: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ الآية. وقال بعد ذكر قصة يوسف ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ الآية، وقال في سورة طه: ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما

---

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري موقوفاً، ورواه البزار من طريق آخر عن أبي سعيد مرفوعاً بلفظ ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى ثم قرأ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعدما أهلكنا القرون الأولى﴾.

قد سبق﴾ الآية، وقال ههنا بعدما أخبر عن قصة موسى ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ يعني ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلّم الله موسى من الشجرة على شاطىء الوادي، ﴿وما كنت من الشاهدين﴾ لذلك، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك، ليكون حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدها، ونسوا حجج الله عليهم، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين، وقوله تعالى: ﴿وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا﴾ أي وما كنت مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا، حين أخبرت عن نبيها شعيب وما قاله لقومه وما ردوا عليه، ﴿ولكنا كنا مرسلين﴾ أي ولكن نحن أوحينا إليك ذلك، وأرسلناك إلى الناس رسولاً، ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ قيل: المراد أمة محمد، نودوا يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني وأجبتكم قبل أن تدعوني[1]، وقال قتادة: ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ موسى، وهذا أشبه بقوله تعالى: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾، ثم أخبر ههنا بصيغة أخرى أخص من ذلك وهو النداء، كما قال تعالى: ﴿وإذ نادى ربك موسى﴾، وقال تعالى: ﴿إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى﴾، وقال تعالى: ﴿وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا﴾، وقوله تعالى: ﴿ولكن رحمة من ربك﴾ أي ما كنت مشاهداً لشيء من ذلك، ولكن الله تعالى أوحاه إليك وأخبرك به رحمة منه بك وبالعباد بإرسالك إليهم، ﴿لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون﴾ أي لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله عزَّ وجلَّ، ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا﴾ الآية، أي وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة، ولينقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير، كما قال تعالى: ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾، وقال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير﴾ والآيات في هذه كثيرة.

فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

يقول تعالى مخبراً عن القوم أنه لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول، فلما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ، قالوا على وجه التعنت والعناد، والكفر والإلحاد: ﴿لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ الآية، يعنون مثل العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وتنقيص الزروع والثمار مما يضيق على أعداء الله، وكفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة، والحجج القاهرة، التي أجراها الله تعالى على يدي موسى عليه السلام، حجة وبرهاناً

(١) أخرجه النسائي في سننه عن أبي هريرة موقوفاً، ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم أيضاً.

له على فرعون وملئه، ومع هذا كله لم ينجع في فرعون وملئه، بل كفروا بموسى وأخيه هارون، كما قالوا لهما: ﴿أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا﴾، وقال تعالى: ﴿فكذبوهما فكانوا من المهلكين﴾، ولهذا قال ها هنا: ﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل﴾ أي أولم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة، ﴿قالوا ساحران تظاهرا﴾ أي تعاونا، ﴿وقالوا إنا بكل كافرون﴾ أي بكل منهما كافرون، قال مجاهد: أمرت اليهود قريشاً أن يقولوا لمحمد ﷺ ذلك، فقال الله: ﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا ساحران تظاهرا﴾ قال: يعني موسى وهارون صلى الله عليهما وسلم ﴿تظاهرا﴾ أي تعاونا وتناصرا وصدق كل منها الآخر؛ وهذا قول جيد قوي، وعن ابن عباس: ﴿قالوا ساحران تظاهرا﴾ قال: يعنون موسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم وهذا رواية الحسن البصري، وأما من قرأ ﴿سحران تظاهرا﴾ فروي عن ابن عباس: يعنون التوراة والقرآن، قال السدي: يعني صدّق كل واحد منهما الآخر، وقال عكرمة: يعنون التوراة والإنجيل واختاره ابن جرير، والظاهر أنهم يعنون التوراه والقرآن لأنه قال بعده: ﴿قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه﴾، وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن، كما في قوله تعالى: ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس - إلى أن قال - وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾، وقال في آخر السورة ﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن﴾ الآية، وقال: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون﴾.

وقد علم بالضرورة لذوي الألباب، أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء - فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه - أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف، من الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ، وهو القرآن، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى عليه السلام، وهو الكتاب الذي قال الله فيه: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ والإنجيل إنما أنزل متمماً للتوراة، ومحلا لبعض ما حرم على بني إسرائيل. ولهذا قال تعالى: ﴿قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين﴾ أي فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل، قال الله تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لك﴾ أي فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق ﴿فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾ أي بلا دليل ولا حجة، ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾ أي بغير حجة مأخوذة من كتاب الله، ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾، وقوله تعالى: ﴿ولقد وصلنا لهم القول﴾ قال مجاهد: فصلنا لهم القول، وقال السدي: بيّنا لهم القول، وقال قتادة، يقول تعالى: أخبرهم كيف صنع بمن مضى وكيف هو صانع ﴿لعلهم يتذكرون﴾.

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب

يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به﴾، وقال تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله﴾. قال سعيد بن جبير: نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي، فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم: ﴿يس والقرآن الحكيم﴾ حتى ختمها، فجعلوا يبكون وأسلموا، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين﴾ يعني من قبل هذا القرآن كنا مسلمين أي موحدين مخلصين لله مستجيبين له، قال الله تعالى: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ أي هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول، ثم بالثاني، ولهذا قال: ﴿بما صبروا﴾ أي على اتباع الحق، فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس، وقد ورد في الصحيح: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدّى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت له أَمَة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها»، وفي الحديث: «من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين، وله ما لنا وعليه ما علينا»[1]، وقوله تعالى: ﴿ويدرأون بالحسنة السيئة﴾ أي لا يقابلون السيء بمثله ولكن يعفون ويصفحون، ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي ومن الذي رزقهم من الحلال ينفقون على خلق الله في الزكاة المفروضة، وصدقات النفل والقربات، وقوله تعالى: ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه﴾ أي لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم، بل كما قال تعالى: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾، ﴿وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾ أي إذا سفه عليهم سفيه وكلمهم بما لا يليق أعرضوا عنه، ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب، وقالوا: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾ أي لا نريد طريق الجاهلين ولا نحبها. قال محمد بن إسحاق: ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه وكلموه وساءلوه ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مساءلة رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم إلى الله تعالى، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم (أبو جهل بن هشام) في نفر من قريش فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده، حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال، ما نعلم ركباً أحمق منكم، فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، قال ويقال: إن النفر النصارى من أهل نجران وفيهم نزلت هذه الآيات ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾، إلى قوله: ﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ قال: وسألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت؟ قال: ما زلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن في (النجاشي) وأصحابه رضي الله عنهم، والآيات اللاتي في سورة المائدة ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً - إلى قوله - فاكتبنا مع الشاهدين﴾.

* إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ

(١) أخرجه الإمام أحمد عن القاسم بن أبي أمامة.

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: إنك يا محمد ﴿لا تهدي من أحببت﴾ أي ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ والله يهدي من يشاء، كما قال تعالى: ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾، وقال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾. وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في (أبي طالب) عم رسول الله ﷺ، وقد كان يحوطه وينصره، ويقوم في صفه ويحبه حباً شديداً، فلما حضرته الوفاة دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام، فاستمر على ما كان عليه من الكفر، ولله الحكمة التامة، روى الزهري عن المسيب بن حزن المخزومي رضي الله عنه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده (أبا جهل بن هشام) و(عبدالله بن ابي أمية بن المغيرة) فقال رسول الله ﷺ: «يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان عليه بتلك المقالة، حتى كان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرن لك ما لم أنهَ عنك» فأنزل الله تعالى: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى﴾، وأنزل في أبي طالب: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾[1]، وعن أبي هريرة قال: لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه رسول الله ﷺ فقال: «يا عماه قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة» فقال: لولا أن تعيرني بها قريش يقولون ما حمله عليه إلا جزع الموت لأقررت بها عينك، لا أقولها إلا لأقر بها عينك، فأنزل الله تعالى: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾[2]

وقوله تعالى: ﴿وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ يقول تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ أي نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة، ويتخطفونا أينما كنا، قال الله تعالى مجيباً لهم: ﴿أولم نمكن لهم حرماً آمناً﴾ يعني هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل، لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين، وحرم معظم آمن منذ وضع، فكيف يكون هذا الحرم آمناً لهم في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق؟ وقوله تعالى: ﴿يجبى إليه ثمرات كل شيء﴾ أي من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿رزقاً من لدنا﴾ أي من عندنا ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ ولهذا قالوا ما قالوا.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه مسلم والترمذي.

يقول تعالى معرّضاً بأهل مكة: ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾ أي طغت وأشرت، وكفرت نعمة الله فيما أنعم به عليهم من الأرزاق، كما قال: ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان – إلى قوله – فأخذهم العذاب وهم ظالمون﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً﴾ أي دثرت ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم، وقوله تعالى: ﴿وكنا نحن الوارثين﴾ أي رجعت خراباً ليس فيها أحد، ثم قال تعالى مخبراً عن عدله، وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له، وإنما بعد قيام الحجة عليهم، ولهذا قال: ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها﴾ وهي مكة ﴿رسولاً يتلو عليهم آياتنا﴾ فيه دلالة على أن النبي الأمي رسول إلى جميع القرى من عرب وأعجام، كما قال تعالى: ﴿لتنذر أم القرى ومن حولها﴾، وقال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾، وتمام الدليل قوله تعالى: ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً﴾ الآية، فأخبر تعالى أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة، وقد قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ فجعل تعالى بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرى لأنه مبعوث إلى أمها وأصلها التي ترجع إليها، وثبت في الصحيحين عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: «بعثت إلى الأحمر والأسود» ولهذا ختم به النبوة والرسالة، فلا نبي بعده ولا رسول، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة، وقيل المراد بقوله: ﴿حتى يبعث في أمها رسولا﴾ أي أصلها وعظيمتها كأمهات الرساتيق والأقاليم[١]

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية، بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة، من النعيم العظيم المقيم، كما قال تعالى: ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾، وقال: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾، وقال: ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾، وقال رسول الله ﷺ: «والله ما الحياة الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم فلينظر ماذا يرجع إليه»[٢]، وقوله تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾؟ أي أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة، وقوله تعالى: ﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾، يقول تعالى: أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح الأعمال من الثواب، كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ووعده ووعيده فهو ممتع في الحياة الدنيا أياماً قلائل ﴿ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾؟ قال مجاهد: من المعذبين، وهذا كقوله تعالى: ﴿ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين﴾، وقال تعالى: ﴿ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون﴾.

۞ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ

(١) حكاه الزمخشري وابن الجوزي وغيرهما وليس ببعيد كما قال ابن كثير.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به المشركين يوم القيامة حيث يناديهم فيقول: ﴿أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾؟ يعني: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا، من الأصنام والأنداد هل ينصرونكم أو ينتصرون؟ وهذا على سبيل التقريع والتهديد كما قال تعالى: ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾، وقوله: ﴿قال الذين حق عليهم القول﴾ يعني الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ﴿ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون﴾ فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم، ثم تبرأوا من عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾، وقال تعالى: ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾، وقال الخليل عليه السلام لقومه ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾ الآية، وقال الله تعالى: ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا﴾ الآية، ولهذا قال: ﴿وقيل ادعوا شركاءكم﴾ أي ليخلصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا، ﴿فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب﴾، أي وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة، وقوله: ﴿لو أنهم كانوا يهتدون﴾ أي فودُّوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا، وهذا كقوله تعالى: ﴿ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقاً * ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا﴾، وقوله: ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ النداء الأول سؤال عن التوحيد، وهذا عن إثبات النبوات، ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم، وكيف كان حالكم معهم؟ وهذا كما يسأل العبد في قبره: من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأما الكافر فيقول: هاه هاه لا أدري، ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت، لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا، ولهذا قال تعالى: ﴿فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾ قال مجاهد: فعميت عليهم الحجج فهم لا يتساءلون بالأنساب، وقوله: ﴿فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ أي في الدنيا ﴿فعسى أن يكون من المفلحين﴾ أي يوم القيامة، و (عسى) من الله موجبة، فإن هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة.

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب، قال تعالى: ﴿وربك يخلق

ما يشاء ويختار﴾ أي ما يشاء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده ومرجعها إليه، وقوله: ﴿ما كان لهم الخيرة﴾ نفي على أصح القولين، كقوله تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾، ولهذا قال: ﴿سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾ أي من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً، ثم قال تعالى: ﴿وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون﴾ أي يعلم ما تكن الضمائر، وما تنطوي عليه السرائر، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾، وقوله: ﴿وهو الله لا إله إلا هو﴾ أي هو المنفرد بالإلهية، فلا معبود سواه، كما لا رب سواه، ﴿له الحمد في الأولى والآخرة﴾ أي في جميع ما يفعله هو المحمود عليه بعدله وحكمته، ﴿وله الحكم﴾ أي الذي لا معقب له لقهره وغلبته وحكمته ورحمته، ﴿وإليه ترجعون﴾ أي جميعكم يوم القيامة، فيجزي كل عامل بعمله من خير وشر، ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر الأعمال.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار اللذين لا قوام لهم بدونهما، وبين أنه لو جعل الليل دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم، ولسئمته النفوس، ولهذا قال تعالى: ﴿من إله غير الله يأتيكم بضياء﴾ أي تبصرون به وتستأنسون بسببه ﴿أفلا تسمعون﴾؟ ثم أخبر تعالى أنه لو جعل النهار ﴿سرمداً﴾ أي دائماً مستمراً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم، ولتعبت الأبدان وكلّت من كثرة الحركات والأشغال، ولهذا قال تعالى: ﴿من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه﴾؟ أي تستريحون من حركاتكم وأشغالكم، ﴿أفلا تبصرون؟ * ومن رحمته﴾ أي بكم ﴿جعل لكم الليل والنهار﴾ أي خلق هذا وهذا ﴿لتسكنوا فيه﴾ أي في الليل، ﴿ولتبتغوا من فضله﴾[1] أي في النهار بالأسفار والترحال والحركات والأشغال، وقوله: ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار، أو بالنهار استدركه بالليل، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾ والآيات في هذا كثيرة.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

وهذا أيضاً نداء ثانٍ على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله إلهاً آخر، يناديهم الرب تعالى على رؤوس

(١) هذا النوع يسمى في علم البديع (اللف والنشر المرتب) حيث جمعهما في اللفظ (الليل والنهار) ثم أعاد ما يتعلق بهما الأول على الأول، والثاني على الثاني.

الأشهاد فيقول: ﴿أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ أي في دار الدنيا، ﴿ونزعنا من كل أمة شهيداً﴾ قال مجاهد: يعني رسولاً، ﴿فقلنا هاتوا برهانكم﴾ أي على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء ﴿فعلموا أن الحق لله﴾ أي لا إله غيره فلم ينطقوا ولم يحيروا جواباً، ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي ذهبوا فلم ينفعوهم .

* إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

عن ابن عباس قال في قوله تعالى: ﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ قال: كان ابن عمه[1]، وقال ابن جريج: هو قارون بن يصهب بن قاهث، وموسى بن عمران بن قاهث، وزعم محمد بن إسحاق أن قارون كان عم موسى ابن عمران عليه السلام، وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه والله أعلم، وقال قتادة: كنا نحدث أنه كان ابن عم موسى، وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري، فأهلكه البغي لكثرة ماله، وقوله: ﴿وآتيناه من الكنوز﴾ أي الأموال ﴿ما إن مفاتحه لتنوأ بالعصبة أولي القوة﴾ أي ليثقل حملها الفِئام من الناس لكثرتها، قال الأعمش: كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود، كل مفتاح على خزانة على حدته، فإذا ركب حملت على ستين بغلا أغر محجلا، وقيل غير ذلك والله أعلم، وقوله: ﴿إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾ أي وعظه فيما هو فيه صالحو قومه، فقالوا على سبيل النصح والإرشاد: لا تفرح بما أنت فيه، يعنون لا تبطر بما أنت فيه من المال ﴿إن الله لا يحب الفرحين﴾. قال ابن عباس: يعني المرحين، وقال مجاهد: يعني الأشرين البطرين، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم، وقوله: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ أي استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك، والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة، ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ أي مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح، فإن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، ولزوجك عليك حقاً، فآت كل ذي حق حقه، ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾ أي أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك، ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾ أي لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض وتسيء إلى خلق الله ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾ .

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾

---

(١) وهو قول إبراهيم النخعي وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وغيرهم .

أي أنا لا أفتقر إلى ما تقولون، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه ولمحبته لي، فتقديره إنما أعطيته لعلم الله فيَّ أني أهل له، وهذا كقوله تعالى: ﴿وإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم﴾ أي على علم من الله بي، وقد روي عن بعضهم أنه أراد ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾ أي أنه كان يعاني علم الكيمياء وهذا القول ضعيف لأن علم الكيمياء في نفسه علم باطل، لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليه إلا الله عزَّ وجلّ[1]، وقال بعضهم: إن قارون كان يعرف الاسم الأعظم فدعا الله به فتمول بسببه، **والصحيح** المعنى الأول، ولهذا قال الله تعالى راداً عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال ﴿أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً﴾؟ أي قد كان من هو أكثر منه مالاً، وما كان ذلك عن محبة منا له، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم، ولهذا قال: ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ أي لكثرة ذنوبهم، قال قتادة ﴿على علم عندي﴾ على خيرٍ عندي، وقال السدي: على علم أني أهل لذلك، وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فإنه قال في قوله ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾ قال: لولا رضا الله عني ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال، وقرأ: ﴿أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً﴾ الآية، وهكذا يقول من قلَّ علمه إذا رأى من وسع الله عليه، لولا أنه يستحق ذلك لما أعطي.

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن قارون أنه خرج ذات يوم على قومه، في زينة عظيمة وتجمل باهر، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها وزينتها، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطي ﴿قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم﴾ أي ذو حظ وافر من الدنيا، فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم ﴿ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً﴾ أي جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون. كما في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرأوا إن شئتم: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾»، وقوله: ﴿ولا يلقاها إلا الصابرون﴾ قال السدي: ولا يُلَقَّى الجنة إلا الصابرون، كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم، وقال ابن جرير: ولا يلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا الراغبون في الدار الآخرة، وكأنه جعل ذلك مقطوعاً من كلام أولئك وجعله من كلام الله عزَّ وجلَّ وإخباره بذلك.

*** فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾**

(١) ردّ ابن كثير على هذا القول وبيّن أن من ادعى أنه يُحيل ماهية ذات إلى ماهية أُخرى فإنما هو كذب وجهل وضلال، وزغل وتمويه على الناس ثم قال: فأما ما يجريه الله سبحانه من خرق العوائد على يدي بعض الأولياء فهذا أمر لا ينكره مسلم، ولا يردّه مؤمن، وقد أجاد رحمه الله في هذا المقام وأفاد.

وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته وفخره على قومه وبغيه عليهم، عقّب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض، كما ثبت في الصحيح عند البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»، وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال، قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل ممن كان قبلكم خرج في بردين أخضرين يختال فيهما أمر الله الأرض فأخذته فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة». وقد ذكر أن هلاك قارون كان من دعوة موسى نبي الله عليه السلام، وقيل: إن قارون لما خرج على قومه في زينته تلك وهو راكب على البغال الشهب وعليه وعلى خدمه ثياب الأرجوان المصبغة، فمر في محفله ذلك على مجلس نبي الله موسى عليه السلام وهو يذكرهم بأيام الله، فلما رأى الناس قارون انصرفت وجوههم نحوه ينظرون إلى ما هو فيه، فدعاه موسى عليه السلام وقال: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا موسى أما لئن كنت فضلت عليّ بالنبوة فلقد فضلت عليك بالدنيا، فاستوت بهم الأرض، وعن ابن عباس قال: خسف بهم إلى الأرض السابعة، وقال قتادة: ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة فهم يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين﴾ أي ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله، ولا كان هو في نفسه منتصراً لنفسه فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره، وقوله تعالى: ﴿وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس﴾ أي الذين لما رأوه في زينته: ﴿قالوا يا ليت لنا مثل ما أُوتي قارون إنه لذو حظ عظيم﴾ فلما خسف به أصبحوا يقولون ﴿ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر﴾ أي ليس المال بدالٍّ على رضا الله عن صاحبه، فإن الله يعطي ويمنع، ويضيق ويوسع، ويخفض ويرفع، وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم، وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب»، ﴿لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا﴾ أي لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به لأنا وددنا أن نكون مثله، ﴿ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾ يعنون أنه كان كافراً ولا يفلح الكافرون عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة، وقد اختلف في معنى قوله ههنا ﴿ويكأن﴾ فقال بعضهم: معناه ويلك اعلم أن، ولكن خفف فقيل ويك، ودل فتح أن على حذف اعلم، وهذا القول ضعفه ابن جرير، والظاهر أنه قوي، ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها في المصاحف متصلة و يكأن، والكتابة أمر وضعي اصطلاحي والمرجع إلى اللفظ العربي والله أعلم. وقيل: معناها ﴿ويكأن﴾ أي ألم تر أن، قاله قتادة: وقيل معناها وي كأن ففصلها، وجعل حرف وي للتعجب أو للتنبيه، وكأن بمعنى أظن وأحسب. قال ابن جرير: وأقوى الأقوال في هذا قول قتادة إنها بمعنى ألم تر أن، والله أعلم.

۞ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين، الذين لا يريدون ﴿علواً في الأرض﴾ أي ترفعاً على خلق الله وتعاظماً عليهم وتجبراً بهم ولا فساداً فيهم، قال عكرمة: العلو: التجبر، وقال سعيد بن جبير: العلو البغي، وقال سفيان الثوري: العلو في الأرض التكبر بغير حق، والفساد أخذ المال بغير حق، وقال ابن جرير ﴿لا يريدون علواً في الأرض﴾ تعظماً وتجبراً، ﴿ولا فساداً﴾ عملاً بالمعاصي. وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه أوحي إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد» وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمل فهذا لا بأس به، فقد ثبت أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أحب أن يكون ردائي حسناً ونعلي حسنة أفمن الكبر ذلك؟ فقال: «لا، إن الله جميل يحب الجمال»، وقال تعالى: ﴿من جاء بالحسنة﴾ أي يوم القيامة ﴿فله خير منها﴾ أي ثواب الله خير من حسنة العبد فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة وهذا مقام الفضل، ثم قال: ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار، هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ وهذا مقام الفضل والعدل.

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى آمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد وهو يوم القيامة فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن﴾ أي افترض عليك أداءه إلى الناس ﴿لرادك إلى معاد﴾ أي إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾، وقال تعالى: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم﴾ وقال: ﴿وجيء بالنبيين والشهداء﴾. وقال ابن عباس: ﴿لرادك إلى معاد﴾ يقول: لرادك إلى الجنة ثم سائلك عن القرآن، وقال مجاهد: يحييك يوم القيامة، وقال الحسن البصري: إي والله إن له لمعاداً فيبعثه الله يوم القيامة ثم يدخله الجنة، وقد روي عن ابن عباس غير ذلك كما قال البخاري في التفسير عن ابن عباس ﴿لرادك إلى معاد﴾ قال: إلى مكة، وهكذا رواه العوفي عن ابن عباس ﴿لرادك إلى معاد﴾ أي لرادك إلى مكة كما أخرجك منها، وقال محمد بن إسحاق عن مجاهد في قوله ﴿لرادك إلى معاد﴾: إلى مولدك بمكة، وعن الضحاك قال: لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة، فأنزل الله عليه: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾ إلى مكة، وهذا من كلام الضحاك يقتضي أن هذه الآية مدنية وإن كان مجموع السورة مكياً، والله أعلم.

ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجل النبي ﷺ، كما فسر ابن عباس سورة ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ أنه أجل رسول

الله ﷺ نعي إليه، ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله: ﴿لرادك إلى معاد﴾ بالموت، وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت، وتارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله، وإبلاغها إلى الثقلين الإنس والجن، ولأنه أكمل خلق الله وأفصح خلق الله وأشرف خلق الله على الإطلاق، وقوله تعالى: ﴿قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين﴾ أي قل لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم قل: ربي أعلم بالمهتدي منكم ومني، وستعلمون لمن تكون له عاقبة الدار ولمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة، ثم قال تعالى مذكراً لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم: ﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب﴾ أي ما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك، ﴿ولكن رحمة من ربك﴾ أي إنما أنزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك، فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ﴿فلا تكونن ظهيراً﴾ أي معيناً ﴿للكافرين﴾ ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم، ﴿ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك﴾ أي لا تتأثر لمخالفتهم لك وصدهم الناس عن طريقك، فإن الله معلٍ كلمتك، ومؤيد دينك، ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان، ولهذا قال: ﴿وادع إلى ربك﴾ أي إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ولا تدع مع الله إلٰهاً آخر لا إلٰه إلا هو﴾ أي لا تليق العبادة إلا له ولا تنبغي الإلٰهية إلا لعظمته، وقوله : ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ إخبارٌ بأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت، كما قال تعالى: ﴿كل من عليها فان ۝ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ فعبر بالوجه عن الذات، وهكذا قوله ههنا: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ أي إلا إياه، وقد ثبت في الصحيح: «أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد ۝ ألا كل شيء ما خلا الله باطل ۝ »[1] ، وقال مجاهد والثوري في قوله: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ أي إلا ما أريد به وجهه، وهذا القول لا ينافي القول الأول، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة، إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدس، فإنه الأول الآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء، وكان ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخربة فيقف على بابها فينادي بصوت حزين: فيقول أين أهلك؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾[2] ، وقوله: ﴿له الحكم﴾ أي الملك والتصرف ولا معقب لحكمه ﴿وإليه ترجعون﴾ أي يوم معادكم فيجزيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

[آخر تفسير سورة القصص ، ولله الحمد والمنة]



(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر والاعتبار .



بسم الله الرحمن الرحيم

الم ﴿١﴾ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴿٢﴾ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴿٣﴾ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون ﴿٤﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقوله تعالى: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾[1] استفهام إنكار، ومعناه أن الله سبحانه وتعالى لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين، بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء» وهذه الآية كقوله: ﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾، وقال في البقرة: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ أي الذين صدقوا في دعوى الإيمان، ممن هو كاذب في قوله ودعواه. والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون. وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة. وبهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل قوله: ﴿إلا لنعلم﴾ إلا لنرى، وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود والعلم أعم من الرؤية فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود. وقوله تعالى: ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون﴾ أي لا يحسبن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم: أن ﴿آلم أحسب ...﴾ نزلت في أناس كانوا بمكة. أقروا بالإسلام فكتب إليهم أصحاب الرسول عليه السلام بالمدينة أن لا يقبل منهم حتى يهاجروا، فخرجوا إلى المدينة فردهم المشركون، وأخرج ابن سعد: أنها نزلت في عمار بن ياسر إذ كان يعذب في الله، كما في اللباب.

أغلظ من هذا وأطم، ولهذا قال: ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا﴾ أي يفوتونا ﴿ساء ما يحكمون﴾ أي بئس ما يظنون .

مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝

يقول تعالى: ﴿من كان يرجو لقاء الله﴾ أي في الدار الآخرة وعمل الصالحات، ورجا ما عند الله من الثواب الجزيل، فإن الله سيحقق له رجاءه، ويوفيه عمله كاملاً موفراً، فإن ذلك كائن لا محالة لأنه سميع الدعاء، بصير بكل الكائنات. ولهذا قال تعالى: ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم﴾، وقوله تعالى: ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه﴾، كقوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه﴾ أي من عمل صالحاً فإنما يعود نفع عمله على نفسه، فإن الله تعالى غني عن العباد ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله لغني عن العالمين﴾. قال الحسن البصري: إن الرجل ليجاهد وما ضرب يوماً من الدهر بسيف، ثم أخبر تعالى أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم، ومع بره وإحسانه بهم، يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء، وهو أنـه يكفِّر عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون، فيقبل القليل من الحسنات ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح، كما قال تعالى: ﴿ان الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾، وقال ههنا: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون﴾ .

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝

يقول تعالى آمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين، بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق، ولهذا قال تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾، ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما في مقابلة إحسانهما المتقدم، قال: ﴿وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ أي وإن حرصا أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين، فلا تطعهما في ذلك فإن مرجعكم إليّ يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصـلحين لا في زمرة والديك، ولهذا قال تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين﴾. عن مصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد قال: نزلت فيَّ أربع آيات فذكر قصته، وقال، قالت أم سعد: أليس الله قد أمرك بالبر ؟ والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها

شجروا[1] فاها، فنزلت: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ، وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾[2] الآية .

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن صفات المكذبين، الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ولم يثبت الإيمان في قلوبهم، بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا، اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم فارتدوا عن الإسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾ قال ابن عباس: يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله، وكذا قال غيره من علماء السلف، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه – إلى قوله – ذلك هو الضلال البعيد﴾، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم﴾ أي ولئن جاء نصر قريب من ربك يا محمد وفتح ومغانم، ليقولن هؤلاء لكم إنا كنا معكم أي إخوانكم في الدين، كما قال تعالى: ﴿الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم﴾ الآية، وقوله تعالى مخبراً عنهم ههنا: ﴿ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم﴾، ثم قال الله تعالى: ﴿أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين﴾ أي أوليس الله بأعلم بما في قلوبهم، وما تكنه ضمائرهم، وإن أظهروا لكم الموافقة ؟ وقوله تعالى: ﴿وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾ أي وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء، ليتميز من يطيع الله في الضراء والسراء، ومن يطيعه في حظ نفسه، كما قال تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ .

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى: ارجعوا عن دينكم إلى ديننا واتبعوا سبيلنا ﴿ولنحمل خطاياكم﴾ أي آثامكم إن كانت لكم آثام، كما يقول القائل: افعل هذا وخطيئتك في رقبتي، قال الله تعالى تكذيباً لهم: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون﴾ أي فيما قالوه إنهم يحتملون عن أولئك خطاياهم. فإنه لا يحمل أحد وزر أحد، قال الله تعالى: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾، وقال تعالى: ﴿ولا يسأل حميم حميما يبصرونهم﴾، وقوله تعالى: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ أخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة، أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزاراً أخر،

---

(١) فتحوا فمها بعود .

(٢) أخرجه الترمذي في باب التفسير في قصة (سعد بن أبي وقاص) مع أمه، ورواه أيضاً مسلم والإمام أحمد وأبو داود والنسائي .

بسبب ما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً، كما قال تعالى: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ الآية، وفي الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً»، وفي الصحيح: «ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل». وقوله تعالى: ﴿وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾ أي يكذبون ويختلقون من البهتان.

وفي الحديث: «إياكم والظلم فإن الله يعزم يوم القيامة فيقول: وعزتي وجلالي لا يجوزني اليوم ظلم ثم ينادي مناد فيقول: أين فلان بن فلان؟ فيأتي يتبعه من الحسنات أمثال الجبال، فيشخص الناس أبصارهم، حتى يقوم بين يدي الرحمن عزَّ وجلَّ، ثم يأمر المنادي، فينادي من كانت له تباعة أو ظلامة عند فلان بن فلان فهلم، فيقبلون حتى يجتمعوا قياماً بين يدي الرحمن، فيقول الرحمن: اقضوا عن عبدي، فيقولون: كيف نقضي عنه؟ فيقول: خذوا لهم من حسناته فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى منها حسنة، وقد بقي من أصحاب الظلامات، فيقول: اقضوا عن عبدي، فيقولون: لم يبق له حسنة. فيقول: خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه» ثم نزع ﷺ بهذه الآية الكريمة: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾[1] وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من غير هذا الوجه: «إن الرجل ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، وقد ظلم هذا وأخذ مال هذا، وأخذ من عرض هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا لم تبق له حسنة أخذ من سيئاتهم فطرح عليه».

* وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾

هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله ﷺ، يخبره عن نوح عليه السلام أنه مكث في قومه هذه المدة، يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً، وما آمن معه منهم إلا قليل، ولهذا قال تعالى: ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾ أي بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والإنذار، فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك ولا تحزن عليهم، فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وبيده الأمر وإليه ترجع الأمور واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك، ويذل عدوك ويكبتهم ويجعلهم أسفل السافلين. عن ابن عباس قال: بعث نوح وهو لأربعين سنة ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وعاش بعد الطوفان ستين عاماً حتى كثر الناس وفشوا، وقوله تعالى: ﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة﴾ أي الذين آمنوا بنوح عليه السلام، وقد تقدم تفسيره بما أغنى عن إعادته، وقوله تعالى: ﴿وجعلناها آية للعالمين﴾ أي وجعلنا تلك السفينة باقية؛ إما عينها - كما قال قتادة - إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي، أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان، كما قال تعالى: ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي أمامة مرفوعاً.

في الفلك المشحون﴾، وقال تعالى: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾، وقال ههنا: ﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين﴾.

وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله (إبراهيم) إمام الحنفاء، أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر فإنه المشكور على النعم لا مُسْدِي لها غيره، فقال لقومه: ﴿اعبدوا الله واتقوه﴾ أي أخلصوا له العبادة والخوف ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة، ثم أخبر تعالى أن الأصنام التي يعبدونها لا تضر ولا تنفع، وإنما هي مخلوقة مثلكم، قال ابن عباس: ﴿وتخلقون إفكاً﴾ أي تنحتونها أصناماً[1]، وهي لا تملك لكم رزقاً ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾، وهذا أبلغ في الحصر كقوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، ولهذا قال: ﴿فابتغوا﴾ أي فاطلبوا ﴿عند الله الرزق﴾ أي لا عند غيره فإن غيره لا يملك شيئاً، ﴿واعبدوه واشكروا له﴾ أي كلوا من رزقه واعبدوه وحده واشكروا له على ما أنعم به عليكم، ﴿إليه ترجعون﴾ أي يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله. وقوله تعالى: ﴿وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم﴾ أي فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل، ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ يعني إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء، وقال قتادة في قوله: ﴿وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم﴾، قال: يعزي نبيه ﷺ، **والظاهر** من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام، يحتج عليهم لإثبات المعاد لقوله بعد هذا كله ﴿فما كان جواب قومه﴾ والله أعلم.

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ * قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن الخليل عليه السلام، أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه، بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته، فإنه سهل عليه يسير لديه؛ ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله

---

(١) وبه قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة واختاره ابن جرير وهو الأظهر.

الأشياء: السماوات وما فيها من الكواكب النيرة، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبراري وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء كن فيكون، ولهذا قال: ﴿أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير﴾، كقوله تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، ثم قال تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة﴾ أي يوم القيامة، ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾، وكقوله تعالى: ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون؟ ۝ أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾، وقوله تعالى: ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء﴾ أي هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله الخلق والأمر لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة، كما جاء في الحديث: «إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم»[1]، ولهذا قال تعالى: ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون﴾ أي ترجعون يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء﴾ أي لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه، بل هو القاهر فوق عباده، فكل شيء خائف منه فقير إليه وهو الغني عما سواه ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ۝ والذين كفروا بآيات الله ولقائه﴾ أي جحدوها وكفروا بالمعاد، ﴿أولئك يئسوا من رحمتي﴾ أي لا نصيب لهم فيها، ﴿وأولئك لهم عذاب أليم﴾ أي موجع شديد في الدنيا والآخرة.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم، ودفعهم الحق بالباطل، إنهم ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان ﴿إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه﴾، وذلك لأنهم قام عليهم البرهان وتوجهت عليهم الحجة، فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم، ﴿فقالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم﴾ وذلك أنهم حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة، ثم أضرموا فيها النار، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه في كفة المنجنيق، ثم قذفوه فيها فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وخرج منها سالماً بعدما مكث فيها أياماً، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً، فإنه بذل نفسه للرحمن، وجسده للنيران، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان، وقوله تعالى: ﴿فأنجاه الله من النار﴾ أي سلمه منها بأن جعلها عليه برداً وسلاماً، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ۝ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا﴾، يقول لقومه مقرعاً لهم وموبخاً على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان، إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عباداتها في الدنيا صداقة وألفة منكم ﴿ثم يوم القيامة﴾ ينعكس هذا الحال فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضاً وشنآناً، ثم ﴿يكفر بعضكم ببعض﴾

---

(١) أخرجه أصحاب السنن.

أي تتجاحدون ما كان بينكم، ﴿ ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ أي يلعن الأتباع المتبوعين، والمتبوعون الأتباع، ﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾، وقال تعالى: ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾، وقال ههنا: ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ﴾ الآية، أي ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار، وما لكم من ناصر ينصركم، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله.

* فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه آمن له (لوط) يقال: إنه ابن أخي إبراهيم، وهو لوط بن هاران بن آزر، وهاجر معه إلى بلاد الشام، ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل سدوم وإقليمها، وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتي، وقوله تعالى: ﴿ وقال إني مهاجر إلى ربي ﴾ يحتمل عود الضمير في قوله: ﴿ وقال ﴾ على (لوط) لأنه هو أقرب المذكورين، ويحتمل عوده إلى (إبراهيم) وهو المكنى عنه بقوله: ﴿ فآمن له لوط ﴾ أي من قومه، ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم، ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك، ولهذا قال: ﴿ إنه هو العزيز الحكيم ﴾ أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين به ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله، وقال قتادة: هاجرا جميعاً من كوثى وهي من سواد الكوفة إلى الشام، روى الإمام أحمد عن قتادة عن شهر بن حوشب قال: لما جاءتنا بيعة (يزيد بن معاوية) قدمت الشام، فأخبرت بمقام يقومه (نوف البكالي) فجئته إذ جاء رجل، فانتبذ الناس وعليه خميصة، فإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص، فلما رآه نوف أمسك عن الحديث، فقال عبد الله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون هجرة بعد هجرة فينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها، فتلفظهم أرضهم تقذرهم نفس الرحمن، تحشرهم النار مع القردة والخنازير، فتبيت معهم إذا باتوا وتقيل معهم إذا قالوا، وتأكل من تخلف منهم». قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيخرج أناس من أمتي من قبل المشرق، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، كلما خرج منهم قرن قطع، كلما خرج قرن قطع - حتى عدها زيادة على عشرين مرة - حتى يخرج الدجال في بقيتهم»[1].

وقوله تعالى: ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾، كقوله: ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله، وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً ﴾ أي لما فارق قومه أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبي، وولد له ولد صالح نبي في حياة جده، وكذلك قال تعالى: ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ﴾ أي زيادة، كما قال تعالى: ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ أي يولد لهذا الولد ولد في حياتكما تقر به أعينكما، فأما ما روي عن ابن عباس في قوله: ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾ قال: هما ولدا إبراهيم، فمعناه أن ولد الولد بمنزلة الولد، فإن هذا الأمر لا يكاد يخفى على من هو دون ابن عباس، وقوله تعالى: ﴿ وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ﴾ هذه خلعة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً وجعله للناس إماماً أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، ورواه أبو داود في سننه في كتاب الجهاد.

إبراهيم عليه السلام إلا وهو من سلالته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة (يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم) حتى كان آخرهم عيسى بن مريم، فقام مبشراً بالنبي العربي سيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء، من سلالة (إسماعيل بن إبراهيم) عليهما السلام، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه عليه أفضل الصلاة والسلام، وقوله: ﴿وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أي جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني والمنزل الرحب، والمورد العذب، والزوجة الحسنة الصالحة، والثناء الجميل، والذكر الحسن وكل أحد يحبه ويتولاه، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه، كما قال تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفّى﴾ أي قام بجميع ما أمر به وكمل طاعة ربه، ولهذا قال تعالى: ﴿وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾، وكما قال تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين - إلى قوله - وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه (لوط) عليه السلام أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال، في إتباعهم الذكران من العالمين، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم، وكانوا مع هذا يكفرون بالله ويكذبون رسوله ويخالفونه ويقطعون السبيل، أي يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم، ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ أي يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك، فمن قائل: كانوا يأتون بعضهم بعضاً في الملأ قاله مجاهد، ومن قائل: كانوا يتضارطون ويتضاحكون، روى الإمام أحمد عن أم هانيء قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ قال: « يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه »[1]. وعن مجاهد ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ قال: الصفير ولعب الحمام وحل أزرار القباء، وقوله تعالى: ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قال ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم، ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال: ﴿رب انصرني على القوم المفسدين﴾.

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ

---

(١) أخرجه أحمد ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم .

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

لما استنصر (لوط) عليه السلام بالله عزَّ وجلَّ عليهم بعث الله لنصرته ملائكة، فمروا على (إبراهيم) عليه السلام في هيئة أضياف، فجاءهم بما ينبغي للضيف، فلما رأى إبراهيم أنه لا همة لهم إلى الطعام نكرهم، وأوجس منهم خيفة، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة، وكانت حاضرة فتعجبت من ذلك، كما تقدم بيانه في سورة هود والحجر، فلما جاءت إبراهيم بالبشرى وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط أخذ يدافع لعلهم ينظرون؛ لعل الله أن يهديهم، ولما قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴿قال إن فيها لوطاً، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ أي من الهالكين لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم، ثم ساروا من عنده فدخلوا على (لوط) في صورة شبان حسان، فلما رآهم كذلك ﴿سيء بهم وضاق بهم ذرعاً﴾ أي اغتم بأمرهم إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه، وإن لم يضفهم خشي عليهم منهم، ولم يعلم بأمرهم إلّا في الساعة الراهنة ﴿قالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾، وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد تركنا منها آية بينة﴾ أي واضحة ﴿لقوم يعقلون﴾، كما قال تعالى: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون﴾؟

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله (شعيب) عليه السلام أنه أنذر قومه أهل مدين فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة، فقال: ﴿يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر﴾ قال ابن جرير: معناه واخشوا اليوم الآخر، كقوله تعالى: ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾، وقوله: ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وهو السعي فيها والبغي على أهلها، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان، ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها إنه كان عذاب يوم عظيم، وقد تقدمت قصتهم مبسوطة في سورة الأعراف وهود والشعراء، وقوله: ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ قال قتادة: ميتين، وقال غيره: قد ألقي بعضهم على بعض.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟

مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع في عذابهم، وأخذهم بالانتقام منهم، فعاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون (الأحقاف) وهي قريبة من حضرموت بلاد اليمن، وثمود قوم صالح كانوا يسكنون (الحجر) قريباً من وادي القرى، وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً وتمر عليها كثيراً، وقارون صاحب الأموال الجزيلة والكنوز الثقيلة، وفرعون ووزيره (هامان) القبطيان الكافران بالله تعالى وبرسوله ﷺ ﴿فكلاً أخذنا بذنبه﴾ أي كانت عقوبته بما يناسبه ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ وهم عاد، وذلك أنهم قالوا من أشد منا قوة ؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد، عاتية شديدة الهبوب، تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقيها عليهم، وتقتلعهم من الأرض، فترفع الرجل منهم من الأرض إلى عنان السماء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى بدناً بلا رأس كأنهم أعجاز نخل منقعر، ﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ وهم ثمود قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة على تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة مثل ما سألوا سواء بسواء، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم وتهددوا نبي الله صالحاً ومن آمن معه، وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات، ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ وهو قارون الذي طغى وبغى وعتا وعصى الرب الأعلى، ومشى في الأرض مرحاً واعتقد أنه أفضل من غيره، واختال في مشيته، فخسف الله به وبداره الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، ﴿ومنهم من أغرقنا﴾ وهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم أغرقوا في صبيحة واحدة فلم ينج منهم مخبر، ﴿وما كان الله ليظلمهم﴾ أي فيما فعل بهم، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقاً بما كسبت أيديهم .

۞ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها، ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به: إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ويعلم ما يشركون به من الأنداد وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم، ثم قال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا

العالمون﴾ أي وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه. عن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني لأني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾[1]

خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه خلق السماوات والأرض بالحق، يعني لا على وجه العبث واللعب ﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾، ﴿ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾، وقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ أي لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية، ثم قال تعالى آمراً رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن وهو قراءته وإبلاغه للناس، ﴿وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾ يعني أن الصلاة تشتمل على شيئين على ترك الفواحش والمنكرات، أي مواظبتها تحمل على ترك ذلك، وقد جاء في الحديث عن ابن عباس مرفوعاً: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعداً».

(ذكر الآثار الواردة في ذلك)

روى ابن أبي حاتم عن عمران بن حصين قال: سئل النبي ﷺ عن قول الله ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ ؟ قال: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له»، وعن ابن عباس، قال رسول الله ﷺ: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً»[2]. وروى الحافظ أبو بكر البزار قال، قال رجل للنبي ﷺ: إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق، قال: «إنه سينهاه ما تقول»[3]، وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى وهو المطلوب الأكبر، ولهذا قال تعالى: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ أي أعظم من الأول ﴿والله يعلم ما تصنعون﴾ أي يعلم جميع أعمالكم وأقوالكم، وقال أبو العالية: إن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية، وذكر الله، فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله (القرآن) يأمره وينهاه، وقال ابن عون الأنصاري: إذا كنت في صلاة فأنت في معروف وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر، وعن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ولذكر الله أكبر﴾ يقول: ولذكر الله لعباده أكبر إذا ذكروه من ذكرهم إياه[4]. وعنه أيضاً قال: لها وجهان: ذكر الله عندما حرمه، قال: وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه، وعن عبد الله بن ربيعة قال، قال لي ابن

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه الطبراني بنحوه .

(٣) أخرجه البزار والإمام أحمد في مسنده .

(٤) وهو قول مجاهد وبه قال غير واحد من السلف .

عباس: هل تدري ما قوله تعالى: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ ؟ قال، قلت: نعم، قال: فما هو ؟ قلت: التسبيح والتحميد والتكبير في الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك، قال: لقد قلت قولا عجيباً وما هو كذلك، ولكنه إنما يقول: ذكر الله إياكم عندما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم إياه، وقد روي هذا من غير وجه عن ابن عباس، واختاره ابن جرير .

* وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾

قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف، وقال آخرون: بل هي باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن، ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ الآية. وهذا القول اختاره ابن جرير ، وقوله تعالى: ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ أي حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد، ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم، قال جابر : أمرنا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف، قال مجاهد: ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ يعني أهل الحرب ومن امتنع منهم من أداء الجزية، وقوله تعالى: ﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم﴾ يعني إذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه فهذا لا نقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً ولا تصديقه فلعله أن يكون باطلاً، ولكن نؤمن به إيماناً مجملاً، أخرج البخاري رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾ . وروى ابن جرير عن (عبد الله بن مسعود) قال: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية تدعوه إلى دينه كتالية المال، وروى البخاري عن ابن عباس قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث، تقرأونه محضاً لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم. وحدّث معاوية رهطاً من قريش بالمدينة وذكر كعب الأحبار، فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب[1] .

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ

(١) أخرجه البخاري موقوفاً على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال ابن كثير : معناه أنه يقع منه الكذب من غير قصد، لأنه يحدث عن صحف هو يحسن الظن فيها وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة .

﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

يقول الله تعالى كما أنزلنا الكتب على من قبلك يا محمد من الرسل، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب، وقوله تعالى: ﴿فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به﴾ أي الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته، من أحبارهم العلماء الأذكياء كـ (عبد الله بن سلام) و (سلمان الفارسي) وأشباههما، وقوله تعالى: ﴿ومن هؤلاء من يؤمن به﴾ يعني العرب من قريش وغيرهم، ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾ أي ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل، ثم قال تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ أي قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمراً لا تقرأ كتاباً ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، وهكذا صفته في الكتب المتقدمة، كما قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾ الآية، وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدين لا يحسن الكتابة ولا يخط سطراً ولا حرفاً بيده، بل كان له كتّاب يكتبون بين يده الوحي والرسائل إلى الأقاليم، وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة فضعيف لا أصل له، قال الله تعالى: ﴿وما كنت تتلو﴾ أي تقرأ ﴿من قبله من كتاب﴾ لتأكيد النفي ﴿ولا تخطه بيمينك﴾ تأكيد أيضاً وخرج مخرج الغالب، كقوله تعالى: ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ .

وقوله تعالى: ﴿إذاً لارتاب المبطلون﴾ أي لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس، فيقول: إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء، وقد قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة، ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا﴾، قال الله تعالى: ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض﴾ الآية، وقال ههنا ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾ أي هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق، يحفظه العلماء، يسره الله عليهم حفظاً وتلاوة وتفسيراً، كما قال تعالى: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ وقال رسول الله ﷺ: «ما من نبي إلا وقد أعطي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً»، وفي صحيح مسلم يقول الله تعالى: «إني مبتليك ومبتل بك، ومنزلٌ عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظاناً»، أي لأنه محفوظ في الصدور، ميسر على الألسنة، مهيمن على القلوب، معجز لفظاً ومعنى، ولهذا جاء في الكتب المتقدمة في صفة هذه الأمة (أناجيلهم في صدورهم)، وقوله تعالى: ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾ أي ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها ﴿إلا الظالمون﴾ أي المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه، كما قال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ .

وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم، وطلبهم آيات يعنون ترشدهم إلى أن محمداً رسول الله، كما أتى صالح بناقته، قال الله تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿إنما الآيات عند الله﴾ أي إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم، لأن هذا سهل عليه يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنكم إنما قصدتم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون * وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها﴾، وقوله: ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ أي إنما بعثت نذيراً لكم فعليّ أن أبلغكم رسالة الله تعالى، و﴿من يهد الله فهو المهتد﴾، ثم قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم وسخافة عقلهم، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته، بل عن معارضة سورة منه، فقال تعالى: ﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾[1] أي أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم ونبأ ما بعدهم وحكم ما بينهم، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب مما اختلفوا فيه، وبالحق الواضح البين الجلي، كما قال تعالى: ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾، وقال تعالى: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى﴾ وفي الصحيح عنه ﷺ: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[2]. وقد قال الله تعالى: ﴿إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ أي إن في هذا القرآن ﴿لرحمة﴾ أي بياناً للحق وإزاحة للباطل ﴿وذكرى﴾ بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين لقوم يؤمنون، ثم قال تعالى: ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾ أي هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه بأنه أرسلني، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني، كما قال تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به، ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات ﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾ أي لا تخفى عليه خافية، ﴿والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ أي يوم القيامة سيجزيهم على ما فعلوا ويقابلهم على ما صنعوا في تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل، كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة على صدقهم، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل، فسيجزيهم على ذلك إنه حكيم عليم.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

---

(١) أخرج ابن جرير وغيره قال: جاء أناس من المسلمين بكتب كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود، فقال النبي ﷺ: «كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم، إلى ما جاء به غيره» فنزلت ﴿أولم يكفهم ...﴾. (٢) أخرجه الشيخان والإمام أحمد.

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين، في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم، وبأس الله أن يحل عليهم، كما قال تعالى: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾، وقال ههنا: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب﴾ أي لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه، ثم قال: ﴿وليأتينهم بغتة﴾ أي فجأة، ﴿وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ أي يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لا محالة، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾، كقوله تعالى: ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش﴾، وقال تعالى: ﴿لهم من فوقهم ظلل ومن تحتهم ظلل﴾، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم وهذا أبلغ في العذاب الحسي، وقوله تعالى: ﴿ونقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ تهديد وتقريع وتوبيخ وهذا عذاب معنوي على النفوس، كقوله تعالى: ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾، وقال تعالى: ﴿يوم يدعّون إلى نار جهنم دعّا * هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾.

يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين، بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين، إلى أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾. عن الزبير بن العوام قال، قال رسول الله ﷺ: «البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، فحيثما أصبت خيراً فأقم»[1]، ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا خير المنزلين هناك (أصحمة النجاشي) ملك الحبشة رحمه الله تعالى، فآواهم وأيدهم، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ والصحابة الباقون إلى المدينة المطهرة، ثم قال تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون﴾ أي أينما كنتم يدرككم الموت، فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله فهو خير لكم، فإن الموت لا بد منه ولا محيد عنه، ثم إلى الله المرجع والمآب، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء ووافاه أتم الثواب، ولهذا قال تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار﴾ أي لنسكننهم منازل عالية في الجنة، تجري من تحتها الأنهار على اختلاف أصنافها، من ماء وخمر وعسل ولبن، يصرفونها ويجرونها حيث شاءوا، ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يبغون عنها حولا، ﴿نعم أجر العاملين﴾ نعمت هذه الغرف أجراً على أعمال المؤمنين ﴿الذين صبروا﴾ أي على دينهم وهاجروا إلى الله، ونابذوا الأعداء، وفارقوا الأهل والأقرباء، ابتغاء وجه الله ورجاء ما عنده.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن الزبير بن العوام.

وفي الحديث: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام، وأطاب الكلام، وتابع الصلاة والصيام، وقام بالليل والناس نيام»[1] ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم. ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار، ولهذا قال تعالى: ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها﴾ أي لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئاً لغد، ﴿الله يرزقها وإياكم﴾ أي الله يقيّض لها رزقها على ضعفها وييسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض، والطير في الهواء، والحيتان في الماء، قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال: خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة، فجعل يلتقط من التمر ويأكل، فقال لي: «يا ابن عمر مالك لا تأكل؟» قال، قلت: لا أشتهيه يا رسول الله، قال: «لكني أشتهيه وهذا صبح رابعةٍ منذ لم أذق طعاماً، ولم أجده، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم بضعف اليقين؟» قال فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت: ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم﴾، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله عزَّ وجلَّ لم يأمرني بكنز الدنيا، ولا باتباع الشهوات، فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية، فإن الحياة بيد الله، ألا وإني لا أكنز ديناراً ولا درهماً ولا أخبأ رزقاً لغد»[2]، وعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «سافروا تربحوا، وصوموا تصحوا واغزوا تغنموا»[3]. وقوله: ﴿وهو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوال عباده ﴿العليم﴾ بحركاتهم وسكناتهم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالى مقرراً أنه لا إله إلا هو، لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السماوات والأرض، والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده، ومقدر آجالهم وأرزاقهم فتفاوت بينهم، فمنهم الغني والفقير، وهو العليم بما يصلح كلا منهم ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك فلمَ يعبد غيره؟ ولم يتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه، فليكن الواحد في عبادته، وكثيراً ما يقرر تعالى «**مقام الإلهية**» بالاعتراف بتوحيد الربوبية، وقد كان

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي مالك الأشعري مرفوعاً.

(٢) الحديث أخرجه ابن أبي حاتم وفي إسناده ضعف كذا قال ابن كثير.

(٣) أخرجه الإمام أحمد، ورواه البيهقي عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ (سافروا تصحوا وتغنموا).

المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها وغاية ما فيها لهو ولعب ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾ أي الحياة الدائمة، الحق الذي لا زوال له ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد، وقوله تعالى: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أي لآثروا ما يبقى على ما يفنى. ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له، فلا يكون هـذا منهم دائماً ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾، كقوله تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم﴾ الآية. وقال ههنا: ﴿فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾. وقد ذكر محمد بن إسحاق عن (عكرمة بن أبي جهل) أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة، ذهب فاراً منها، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة، فقال أهلها: يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء، فإنه لا ينجي ههنا إلا هو، فقال عكرمة: والله لئن كان لا ينجي في البحر غيره فإنه لا ينجي في البر أيضاً غيره، اللهم لك عليَّ عهد لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد، فلأجدنه رؤوفاً رحيماً، فكان كذلك. وقوله تعالى: ﴿ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا﴾ هذه اللام (لام العاقبة) لأنهم لا يقصدون ذلك ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك، وتقييضه إياهم لذلك فهي لام التعليل، وقد قدمنا تقرير ذلك في قوله: ﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾.

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

يقول تعالى ممتناً على قريش فيما أحلهم من حرمه الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد، ومن دخله كان آمناً، فهو أمن عظيم، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿لإيلاف قريش﴾ إلى آخر السورة، وقوله تعالى: ﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾[1] أي أفكأن شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد، ﴿بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار﴾ فكفروا بنبي الله ورسوله فكذبوه، فقاتلوه، فأخرجوه من بين أظهرهم، ولهذا سلبهم الله تعالى ما كان أنعم

(١) في اللباب: أخرج جويبر: أنهم قالوا: يا محمد، ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس، والأعراب أكثر منا، فنزل: ﴿أولم يروا أنا ...﴾ الآية.

به عليهم، وقتل من قتل منهم ببدر؛ ثم صارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين، ففتح الله على رسوله مكة وأرغم آنافهم وأذل رقابهم، ثم قال تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه﴾ ؟ أي لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله، فقال إن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شيء، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه، فالأول مفتر والثاني مكذب، ولهذا قال تعالى: ﴿أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾. ثم قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا﴾ يعني الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ﴿لنهدينهم سبلنا﴾ أي لنبصرنهم سبلنا أي طرقنا في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾.

روى ابن أبي حاتم بسنده عن الشعبي قال، قال عيسى بن مريم عليه السلام: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك، والله أعلم.

[آخر تفسير سورة العنكبوت ، ولله الحمد والمنة]





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾

نزلت هذه الآيات حين غلب الفرس[1] على بلاد الشام، وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم، فاضطر ملك الروم حتى لجأ إلى القسطنطينية وحوصر فيها مدة طويلة، ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتي. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس، لأنهم أهل الكتاب، فذكر ذلك لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إما إنهم سيغلبون»، فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجل خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال: «ألا جعلتها إلى دون العشر؟» ثم ظهرت الروم بعد، قال فذلك قوله: ﴿آلم ۝ غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾[2]. (**حديث آخر**: عن مسروق قال، قال عبد الله: خمس قد مضين: الدخان، واللزام، والبطشة، والقمر، والروم[3]. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كانت فارس ظاهرة على الروم، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم

---

(١) آخر ملوك الفرس الذي قتل زمن عثمان بن عفان هو: يزدجر بن شهريار، وهو الذي كتب له النبي ﷺ يدعوه للإسلام، فمزق الكتاب، فدعا عليهم النبي ﷺ أن يمزقوا كل ممزق.

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجاه في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود موقوفاً.

على فارس، لأنهم أهل كتاب، وهم أقرب إلى دينهم، فلما نزلت: ﴿آلم * غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾ قالوا: يا أبا بكر إن صاحبك يقول: إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين، قال: صدق، قالوا: هل لك أن نقامرك، فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين فمضت السبع، ولم يكن شيء، ففرح المشركون بذلك، فشق على المسلمين فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «ما بضع سنين عندكم»؟ قالوا: دون العشر، قال: «اذهب فزايدهم وازدد سنتين في الأجل» قال: فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فـارس، ففرح المؤمنون بذلك وأنزل الله تعالى: ﴿آلم * غلبت الروم – إلى قوله تعالى – وعد الله لا يخلف الله وعده﴾[1] .

وقال عكرمة: لقي المشركون أصحاب النبي ﷺ وقالوا: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم، فأنزل الله تعالى: ﴿آلم * غلبت الروم في أدنى الأرض – إلى قوله – ينصر من يشاء﴾ فخرج أبو بكر الصدّيق إلى الكفار فقال: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا، فلا تفرحوا ولا يقرن الله أعينكم، فوالله ليظهرن الله الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ، فقام إليه (أبي بن خلف) فقال: كذبت يا أبا فضيل، فقال له أبو بكر: أنت أكذب يا عدو الله، فقال: أناحبك عشر قلائص مني وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت، وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين، ثم جاء أبو بكر إلى النبي ﷺ فأخبره فقال: «ما هكذا ذكرت إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده في الخطر، وماده في الأجل»، فخرج أبو بكر، فلقي أبياً فقال: لعلك ندمت؟ فقال: لا، تعال أزايدك في الخطر وأمادك في الأجل، فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين، قال: قد فعلت، فظهرت الروم على فارس قبل ذلك فغلبهم المسلمون.

ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمات، فقوله تعالى: ﴿آلم * غلبت الروم﴾ قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة، وأما الروم فهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم، ويقال لهم بنو الأصفر، وكانوا على دين اليونان، واليونان من سلالة يافث بن نوح أبناء عم الترك، وكانوا يعبدون الكواكب السيارة، وهم الذين أسسوا دمشق وبنوا معبدها، فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلثمائة سنة، وكان من ملك منهم الشام مع الجزيرة يقال له (قيصر)، فكان أول من دخل في دين النصارى من الروم (قسطنطين)، وأمه مريم الهيلانية من أرض حرّان كانت قد تنصرت قبله فدعته إلى دينها، وكان قبل ذلك فيلسوفاً، فتابعها، واجتمعت به النصارى وتناظروا في زمانه مع عبد الله بن أريوس، واختلفوا اختلافاً كثيراً لا ينضبط، إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلثمائة وثمانية عشر أسقفاً، فوضعوا لقسطنطين العقيدة، وهي التي يسمونها (الأمانة الكبيرة) وإنما هي الخيانة الحقيرة، ووضعوا له القوانين يعنون كتب الأحكام من تحريم وتحليل وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وغيّروا دين المسيح عليه السلام، وزادوا فيه ونقصوا منه، فصلوا إلى المشرق، واعتاضوا عن السبت بالأحد، وعبدوا الصليب، وأحلوا الخنزير، واتخذوا أعياداً أحدثوها، كعيد الصليب والقداس والغطاس وغير ذلك من

---

(١) أخرجه ابن جرير ورواه ابن أبي حاتم والترمذي قريباً منه.

البواعيث والشعانين، وجعلوا له الباب وهو كبيرهم، ثم البتاركة، ثم المطارنة، ثم الأساقفة والقساوسة، ثم الشمامسة؛ وابتدعوا الرهبانية، وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهي القسطنطينية، يقال: إنه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة، وبنى بيت لحم بثلاث محاريب، وبنت أمه القمامة، وهؤلاء هم الملكية، يعنون الذين هم على دين الملك؛ ثم حدثت اليعقوبية أتباع يعقوب الأسكاف ثم النسطورية أصحاب نسطورا، وهم فرق وطوائف كثيرة، كما قال رسول الله ﷺ: «إنهم افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة». **والغرض** أنهم استمروا على النصرانية كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده حتى كان آخرهم (هرقل) وكان من عقلاء الرجال، ومن أحزم الملوك وأدهاهم وأبعدهم غوراً وأقصاهم رأياً، فتملك عليهم في رياسة عظيمة وأبهة كثيرة، فناوأه كسرى ملك الفرس، وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر، وكانوا مجوساً يعبدون النار، فتقدم عن عكرمة أنه قال: بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه، والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكسره وقصره حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه، ولم يقدر كسرى على فتح البلد ولا أمكنه ذلك لحصانتها، لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر، فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هنالك، ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين وهي تسع، فإن البضع في كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع.

وقوله تعالى: ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾ أي من قبل ذلك ومن بعده، ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ أي للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى، وهم المجوس، وكانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كثيرة من العلماء كابن عباس والثوري والسدي وغيرهم، وقد ورد في الحديث عن أبي سعيد قال: لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين ففرحوا به، وأنزل الله: ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾[1]، وقال الآخرون: بل كان نصر الروم على فارس عام الحديبية[2]، والأمر في هذا سهل قريب، إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك لأن الروم أهل كتاب في الجملة فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس، كما قال تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى - إلى قوله - ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾. وقال تعالى ههنا: ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾، عن العلاء بن الزبير الكلابي عن أبيه قال: رأيت غلبة فارس الروم، ثم رأيت غلبة الروم فارس، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم كل ذلك في خمس عشرة سنة[3]. وقوله تعالى: ﴿وهو العزيز﴾ أي في انتصاره وانتقامه من أعدائه، ﴿الرحيم﴾ بعباده المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿وعد الله لا يخلف الله وعده﴾ أي هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أنا سننصر الروم على فارس وعد من الله حق، وخبر صدق لا يخلف، ولا بد من كونه ووقوعه، لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلتين إلى الحق ويجعل لها العاقبة، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي بحكم الله في كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل، وقوله تعالى: ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ أي أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا

---

(١) أخرجه الترمذي وابن أبي حاتم والبزار.

(٢) يروى هذا القول عن عكرمة والزهري وقتادة وغيرهم.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.

وأكسابها وشؤونها وما فيها، فهم حذاق أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون في أمور الدين وما ينفعهم في الدار الآخرة، كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة، قال الحسن البصري: والله ليبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه وما يحسن أن يصلي، وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ يعني الكفار يعرفون عمران الدنيا وهم في أمر الدين جهال .

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى منبهاً على التفكير في مخلوقاته الدالة على وجوده، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم ﴾ يعني به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء، من العالم العلوي والسفلي، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة، والأجناس المختلفة، فيعلموا أنها ما خلقت سدى ولا باطلاً بل بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة، ولهذا قال تعالى: ﴿ وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾، ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه، بما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحات، من إهلاك من كفر بهم، ونجاة من صدقهم، فقال تعالى: ﴿ أولم يسيروا في الأرض ﴾ أي بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين، ولهذا قال: ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة ﴾ أي كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، ومكنوا في الدنيا تمكيناً لم تبلغوا إليه، وعمروا فيها أعماراً طوالاً فعمروها أكثر منكم. واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا فلما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا أخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق، ولا حالت أموالهم وأولادهم بينهم وبين بأس الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال، ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ حيث كذبوا بآيات الله واستهزأوا بها، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم، ولهذا قال تعالى: ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾، كما قال تعالى: ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾، وقال تعالى: ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ أي كانت السوأى عاقبتهم لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون .

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ

فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى: ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أي كما هو قادر على بداءته فهو قادر على إعادته، ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ أي يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله، ثم قال: ﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ﴾ قال ابن عباس: ييأس المجرمون، وقال مجاهد: يفتضح المجرمون، وفي رواية يكتئب المجرمون، ﴿ ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء ﴾ أي ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم، ثم قال تعالى: ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾ قال قتادة: هي والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها، يعني أنه إذا رفع هذا إلى عليين وخفض هذا إلى أسفل سافلين، فذلك آخر العهد بينهما، ولهذا قال تعالى: ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون ﴾ قال مجاهد وقتادة: ينعمون.

* فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة، الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، عند المساء وهو إقبال الليل بظلامه، وعند الصباح وهو إسفار النهار بضيائه، ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح وهو التحميد، فقال تعالى: ﴿ وله الحمد في السموات والأرض ﴾ أي هو المحمود على ما خلق في السماوات والأرض، ثم قال تعالى: ﴿ وعشياً وحين تظهرون ﴾ فالعَشاء هو شدة الظلام والإظهار هو قوة الضياء، كما قال تعالى: ﴿ والنهار إذا جلاها ٭ والليل إذا يغشاها ﴾، وقال تعالى: ﴿ والليل إذا يغشى ٭ والنهار إذا تجلى ﴾، وقال تعالى: ﴿ والضحى والليل إذا سجى ﴾ والآيات في هذا كثيرة. وفي الحديث: «ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذي وفَّى، لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى: سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون»[1]. وقوله تعالى: ﴿ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ﴾ هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة، فإنه يذكر خلقه الأشياء وأضدادها ليدل على كمال قدرته، فمن ذلك إخراج النبات من الحب، والحب من النبات، والبيض من الدجاج، والدجاج من البيض، والإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. وقوله تعالى: ﴿ ويحيي الأرض بعد موتها ﴾، كقوله تعالى: ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ﴾، وقال تعالى: ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾، ولهذا قال: ﴿ وكذلك تخرجون ﴾.

* وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

يقول تعالى: ﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته، أنه خلق أباكم آدم من تراب، ﴿ ثم إذا أنتم

(١) أخرجه الإمام أحمد.

بشر تنتشرون﴾ فأصلكم من تراب، ثم من ماء مهين، ثم تصور فكان علقة، ثم مضغة، ثم صار عظاماً، شكله على شكل الإنسان ثم كسا الله تلك العظام لحماً، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته، حتى آل به الحال إلى أن صار يبني المدائن والحصون، ويدور أقطار الأرض، ويكتسب، ويجمع الأموال، وله فكرة وغور، ودهاء ومكر، ورأي وعلم، واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه، فسبحان من أقدرهم وسيّرهم وسخّرهم وصرفهم في فنون المعايش والمكاسب وفاوت بينهم في العلوم والفكر، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾.
عن أبي موسى الأشعري قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك»[1]. وقوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ أي خلق لكم من جنسكم إناثاً تكون لكم أزواجاً ﴿لتسكنوا إليها﴾، كما قال تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ يعني بذلك حواء خلقها الله من آدم من ضلعه الأيسر، ولو أنه تعالى جعل بني آدم كلهم ذكوراً، وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم، إما من جان أو حيوان، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس، ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن ﴿مودة﴾ وهي المحبة ﴿ورحمة﴾ وهي الرأفة ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى: ﴿ومن آياته﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿خلق السموات والأرض﴾ أي خلق السماوات في ارتفاعها واتساعها، وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها، ونجومها الثوابت والسيارات، وخلق الأرض في انخفاضها وكثافتها، وما فيها من جبال وأودية، وبحار وقفار وحيوان وأشجار، وقوله تعالى: ﴿واختلاف ألسنتكم﴾ يعني اللغات، فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء تتر، وهؤلاء كرج، وهؤلاء روم، وهؤلاء فرنج، وهؤلاء بربر، وهؤلاء حبشة، وهؤلاء هنود، وهؤلاء عجم، وهؤلاء صقالبة، وهؤلاء أكراد، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله من اختلاف لغات بني آدم واختلاف ألوانهم، وهي حلاهم فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة، كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان وليس يشبه واحد منهم الآخر، بل لا بد أن يفارقه بشيء من السمت أو الهيئة أو الكلام، ظاهراً كان أو خفياً يظهر عند التأمل. كل وجه منهم أسلوب بذاته، وهيئة لا تشبه أخرى، ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح، لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ﴿إن في ذلك لآيات للعالمين ۞ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله﴾ أي ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم في الليل والنهار، فيه تحصل الراحة، وسكون الحركة، وذهاب الكلال والتعب، وجعل لكم الانتشار والسعي في الأسباب والأسفار في النهار وهذا ضد النوم، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ أي يعون، روى الطبراني

(١) أخرجه أحمد والترمذي وأبو داود وقال الترمذي: حسن صحيح.

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: أصابني أرق من الليل فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: « قل: اللهم غارت النجوم، وهدأت العيون، وأنت حي قيوم، يا حي يا قيوم، أنم عيني، وأهدئ ليلي » فقلتها فذهب عني[1].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿ يريكم البرق خوفاً وطمعاً ﴾ أي تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة، وصواعق متلفة، وتارة ترجون وميضه وما يأتي به من المطر المحتاج إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿ وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها ﴾ أي بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الماء ﴿ اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾، وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة، ولهذا قال: ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾، كقوله تعالى: ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾، وقوله: ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا اجتهد في اليمين قال: والذي تقوم السماء والأرض بأمره، أي هي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيره إياها، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسماوات، وخرجت الأموات من قبورها أحياء، بأمره تعالى ودعائه إياهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ أي من الأرض، كما قال تعالى: ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً ﴾، وقال تعالى: ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾.

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وله من في السموات والأرض ﴾ أي ملكه وعبيده ﴿ كل له قانتون ﴾ أي خاضعون خاشعون طوعاً وكرهاً، وقوله: ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾، قال ابن عباس: يعني أيسر عليه، وقال مجاهد: الإعادة أهون عليه من البداءة، والبداءة عليه هينة، وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « يقول الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »[2]، وقال آخرون: كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء، وقال العوفي عن ابن عباس: كلٌّ عليه هيِّن، وقوله: ﴿ وله المثل الأعلى في السموات

(١) أخرجه الطبراني عن زيد بن ثابت.
(٢) أخرجه البخاري وأحمد.

والأرض﴾، قال ابن عباس: كقوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ وقال قتادة: مثله أنه لا إله إلا هو ولا رب غيره، قوله: ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ وهو العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد غلب كل شيء، وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه ﴿الحكيم﴾ في أقواله وأفعاله، وعن مالك في قوله تعالى ﴿وله المثل الأعلى﴾ قال: لا إله إلا الله.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩)﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين، العابدين معه غيره، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ملك له، كما كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، فقال تعالى: ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم﴾ اي تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم ﴿هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء﴾ أي أيرضى أحدكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله فهو وهو فيه على السواء؟ ﴿تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾ أي تخافون أن يقاسموكم الأموال، قال أبو مجلز: إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك وليس له ذاك، كذلك الله لا شريك له، والمعنى: أن أحدكم يأنف من ذلك فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه؟ وهذا كقوله تعالى: ﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾ فهم يأنفون من البنات، وجعلوا الملائكة بنات الله، فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم، فهذا أغلظ الكفر، وهكذا في هذا المقام جعلوا له شركاء من عبيده وخلقه، وأحدهم يأبى غاية الإباء ويأنف غاية الأنفة، من ذلك أن يكون عبده شريكه في ماله يساويه فيه ولو شاء لقاسمه عليه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ولما كان التنبيه بمثل هذا المثل على براءته تعالى ونزاهته عن ذلك بطريق الأَوْلى والأحرى، قال تعالى: ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾، ثم قال تعالى مبيناً أن المشركين إنما عبدوا غيره سفهاً من أنفسهم وجهلاً: ﴿بل اتبع الذين ظلموا﴾ أي المشركون ﴿أهواءهم﴾ أي في عبادتهم الأنداد بغير علم، ﴿فمن يهدي من أضل الله﴾؟ أي فلا أحد يهديهم إذا كتب الله ضلالهم، ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)﴾

يقول تعالى: فسدِّدْ وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية، ملة إبراهيم الذي هداك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، ولازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته

وتوحيده، وأنه لا إِلَه غيره. وقوله تعالى: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ قال بعضهم: معناه لا تبدلوا خلق الله، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها، فيكون خبراً بمعنى الطلب، كقوله تعالى: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ وهو معنى حسن صحيح، وقال آخرون هو خبر على بابه، ومعناه أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة، ولا تفاوت بين الناس في ذلك، ولهذا قال ابن عباس ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ أي لدين الله، وقال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» ثم يقول: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾[1]. وروى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع قال: أتيت رسول الله ﷺ وغزوت معه، فأصبت ظفراً. فقاتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية»؟ فقال رجل: يا رسول الله أما هم أبناء المشركين؟ فقال: «لا إنما خياركم أبناء المشركين، ثم قال: لا تقتلوا ذرية، لا تقتلوا ذرية، وقال: كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانها»[2]، وعن جابر بن عبد الله قال، قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فإذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً»[3].

وروى الإمام أحمد عن عياض بن حمار: أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته: «إن ربي عزَّ وجلَّ أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا: كل مال نحلته عبادي حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن لا يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، ثم إن الله عزَّ وجلَّ نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان، ثم إن الله أمرني أن أحرق قريشاً، فقلت: رب إذاً يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة، قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نغزك، وأنفق فسننفق عليك، وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك. قال: وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، ورجل عفيف متعفف ذو عيال. قال: **وأهل النار خمسة**: الضعيف الذي لا زِبْر[4] له، الذين هم فيكم تبع لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفى له طمع - وإن دق - إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك»، وذكر البخيل والكذاب والشِّنْظير[5] الفحَّاش. وقوله تعالى: ﴿ذلك الدين القيم﴾ أي التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي فلهذا لا يعرفه أكثر الناس فهم عنه ناكبون، كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾، وقال تعالى: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ الآية.

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة ورواه أيضاً مسلم.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده والنسائي في كتاب السير.
(٣) أخرجه أحمد عن جابر بن عبد الله مرفوعاً.
(٤) لا زِبْر: بكسر الزاي وفتحها: أي لا عقل له. (٥) أخرجه أحمد ومعنى الشنظير: السيء الخلق: البذيء اللسان.

وقوله تعالى: ﴿منيبين إليه﴾ قال ابن جريج: أي راجعين إليه ﴿واتقوه﴾ أي خافوه وراقبوه ﴿وأقيموا الصلاة﴾ وهي الطاعة العظيمة ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ أي بل كونوا من الموحدين المخلصين له العبادة لا يريدون بها سواه، قال ابن جرير: مر عمر رضي الله عنه بمعاذ بن جبل، فقال عمر: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث وهن المنجيات: الإخلاص، وهي الفطرة، فطرة الله التي فطر الناس عليها، والصلاة وهي الملة، والطاعة وهي العصمة، فقال عمر صدقت. وقوله تعالى: ﴿من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون﴾ أي لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم أي بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض؛ كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله﴾ الآية، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء، وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة، وهم أهل السنّة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه، كما رواه الحاكم في مستدركه أنه: سئل رسول الله ﷺ عن الفرقة الناجية منهم قال: «من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم في حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم يشركون بالله ويعبدون معه غيره، وقوله تعالى: ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ هي لام العاقبة عند بعضهم ولام التعليل عند آخرين، ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك، ثم توعدهم بقوله: ﴿فسوف تعلمون﴾، قال بعضهم: والله لو توعدني حارس لخفت منه، فكيف والمتوعد ههنا هو الذي يقول للشيء كن فيكون؛ ثم قال تعالى منكراً على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ولا برهان: ﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً﴾ أي حجة، ﴿فهو يتكلم﴾ أي ينطق ﴿بما كانوا به يشركون﴾؟ وهذا استفهام إنكار، أي لم يكن لهم شيء من ذلك، ثم قال تعالى: ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون﴾، هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووفقه، فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر، وإذا أصابته شدة قنط وأيس، قال تعالى: ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات﴾ أي صبروا في الضراء وعملوا الصالحات في الرخاء، كما ثبت في الصحيح: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»، وقوله تعالى: ﴿أولم يروا أن الله يبسط الرزق

لمن يشاء ويقدر﴾ أي هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله فيوسع على قوم ويضيق على آخرين، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ .

فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى آمراً بإعطاء ﴿ ذا القربى حقه﴾ أي من البر والصلة، ﴿والمسكين﴾ وهو الذي لا شيء له ينفق عليه أو له شيء لا يقوم بكفايته، ﴿وابن السبيل﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه في سفره، ﴿ ذلك خير للذين يريدون وجه الله﴾ أي النظر إليه يوم القيامة وهو الغاية القصوى، ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي في الدنيا والآخرة، ثم قال تعالى: ﴿وما آتيتم من رباً ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله﴾ أي من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم فهذا لا ثواب له عند الله، بهذا فسره ابن عباس ومجاهد والضحاك، وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه، إلا أنه قد نهي عنه بقوله تعالى: ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ أي لا تعط العطاء تريد أكثر منه، قال تعالى: ﴿ وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾ أي الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء كما جاء في الصحيح: «وما تصدق أحد بعدل تمرة من كسب طيب، إلا أخذها الرحمن بيمينه فيربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله، حتى تصير التمرة أعظم من أُحُدٍ»، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم﴾ أي هو الخالق الرازق يخرج الإنسان من بطن أمه عرياناً لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوى، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك، والرياش واللباس والمال والأملاك والمكاسب. وقوله تعالى: ﴿ ثم يميتكم﴾ أي بعد هذه الحياة، ﴿ ثم يحييكم﴾ أي يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿ هل من شركائكم﴾ أي الذين تعبدونهم من دون الله ﴿ من يفعل من ذلكم من شيء﴾ ؟ أي لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك، بل الله سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة، ولهذا قال بعد هذا كله ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي تعالى وتقدس، وتنزّه وتعاظم عن أن يكون له شريك أو نظير، أو ولد أو والد، بل هو الأحد الفرد الصمد .

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

قال ابن عباس وعكرمة: المراد بالبر ههنا الفيافي، وبالبحر الأمصار والقرى، وفي رواية عنه: البحر الأمصار والقرى ما كان منها على جانب نهر، وقال آخرون: بل المراد بالبر هو البر المعروف، وبالبحر هو البحر المعروف،

وعن مجاهد ﴿ظهر الفساد في البر والبحر﴾ قال: فساد البر قتل ابن آدم، وفساد البحر أخذ السفينة غصباً، وقال عطاء: المراد بالبر ما فيه من المدائن والقرى، وبالبحر جزائره، والقول الأول أظهر وعليه الأكثرون؛ ومعنى قوله تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾ أي بان النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي، وقال أبو العالية: من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة، ولهذا جاء في الحديث: «لَحَدٌ يقام في الأرض أحب إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحاً»[1]. والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس عن تعاطي المحرمات، وإذا تركت المعاصي كان سبباً في حصول البركات من السماء والأرض، ولهذا إذا نزل عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان، قيل للأرض: أخرجي بركتك، فيأكل من الرمانة الفئام[2] من الناس ويستظلون بقحفها، ويكفي لبن اللِّقْحة[3] الجماعة من الناس، وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة محمد ﷺ، فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير، ولهذا ثبت في الصحيحين: أن الفاجر إذا مات يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب، وقوله تعالى: ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾ الآية، أي يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختباراً منه لهم ومجازاة على صنيعهم ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي عن المعاصي، كما قال تعالى: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾، ثم قال تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل﴾ أي من قبلكم، ﴿كان أكثرهم مشركين﴾ أي فانظروا ما حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى آمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته والمبادرة إلى الخيرات ﴿فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله﴾ أي يوم القيامة إذا أراد كونه فلا راد له، ﴿يومئذ يصدعون﴾ أي يتفرقون ففريق في الجنة، وفريق في السعير، ولهذا قال تعالى: ﴿من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون * ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله﴾ أي يجازيهم مجازاة الفضل، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله ﴿إنه لا يحب الكافرين﴾ ومع هذا هو العادل فيهم الذي لا يجور.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه. (٢) الفِئَام: الجماعة الكثيرة. (٣) اللِّقْحة: الحلوب.

يذكر تعالى نعمه على خلقه، في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته، بمجيء الغيث عقبها، ولهذا قال تعالى: ﴿وليذيقكم من رحمته﴾ أي المطر الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد، ﴿ولتجري الفلك بأمره﴾ أي في البحر وإنما سيرها بالريح ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ أي في التجارات والمعايش والسير من قطر إلى قطر، ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي تشكرون الله على ما أنعم به عليكم، من النعم الظاهرة والباطنة التي لا تعد ولا تحصى، ثم قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا﴾ هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ، بأنه وإن كذبه كثير من قومه، فقد كذبت الرسل المتقدمون، مع ما جاءوا أممهم من الدلائل الواضحات، ولكن انتقم الله ممن كذبهم وخالفهم، وأنجى المؤمنين بهم، ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ أي هو حق أوجبه على نفسه الكريمة تكرماً وتفضلاً، كقوله تعالى: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾. عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من امرىء مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة» ثم تلا هذه الآية: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾[١]

ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾

يبين تعالى كيف يخلق السحاب، الذي ينزل منه الماء، فقال تعالى: ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً﴾ إما من البحر أو مما يشاء الله عزَّ وجلَّ، ﴿فيبسطه في السماء كيف يشاء﴾ أي يمده فيكثره وينميه، ينشيء سحابة ترى في رأي العين مثل الترس، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقالاً مملوءة كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت - إلى قوله - كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾، وكذلك قال ههنا: ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً﴾، قال مجاهد: يعني قطعاً، وقال الضحاك: متراكماً، وقال غيره: أسود من كثرة الماء تراه مدلهماً ثقيلاً قريباً من الأرض، وقوله تعالى: ﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾ أي فترى المطر وهو القطر، يخرج من بين ذلك السحاب ﴿فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾ أي لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم، وقوله تعالى: ﴿وإن كانوا من قبل أن ينزّل عليهم من قبله لمبلسين﴾ معنى الكلام: أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر، كانوا قانطين من نزول المطر إليهم، فلما جاءهم، جاءهم على فاقة فوقع منهم موقعاً عظيماً، فبعدما كانت أرضهم مقشعرة هامدة، أصبحت وقد اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، ولهذا قال تعالى: ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله﴾ يعني المطر ﴿كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء مرفوعاً.

ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها، فقال تعالى: ﴿إن ذلك لمحيي الموتى﴾ أي إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ .

ثم قال تعالى: ﴿ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون﴾، يقول تعالى: ﴿ولئن أرسلنا ريحاً﴾ يابسة على الزرع الذي زرعوه، ونبت وشب واستوى على سوقه ﴿فرأوه مصفراً﴾ أي قد اصفر وشرع في الفساد ﴿لظلوا من بعده﴾ أي بعد هذا الحال ﴿يكفرون﴾ أي يجحدون ما تقدم إليهم من النعم، كقوله تعالى: ﴿أفرأيتم ما تحرثون – إلى قوله – بل نحن محرومون﴾، قال ابن أبي حاتم عن عبيد الله بن عمرو قال: الرياح ثمانية: أربعة منها رحمة، وأربعة منها عذاب، فأما الرحمة: فالناشرات، والمبشرات، والمرسلات، والذاريات، وأما العذاب: فالعقيم، والصرصر – وهما في البر – والعاصف والقاصف وهما في البحر، فإذا شاء سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة، فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته ولاقحاً للسحاب تلقحه بحمله الماء كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل، وإن شاء حركه بحركة العذاب، فجعله عقيماً وأودعه عذاباً أليماً وجعله نقمة على من يشاء من عباده، فيجعله صرصراً وعاتياً ومفسداً لما يمر عليه؛ والرياح مختلفة في مهابها، صَبا ودَبُور وجَنوب وشَمال، وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف، فريح لينة رطبة تغذي النبات وأبدان الحيوان، وأخرى تجففه، وأخرى تهلكه وتعطبه، وأخرى تسيره وتصلبه، وأخرى توهنه وتضعفه[1]

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

يقول تعالى: كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجداثها، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق وردهم عن ضلالتهم، بل ذلك إلى الله فإنه تعالى بقدرته يسمع الأموات إذا شاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وليس ذلك لأحد سواه، ولهذا قال تعالى: ﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ أي خاضعون مستجيبون مطيعون، فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه، وهذا حال المؤمنين، والأول مثل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾، وقد تواترت الآثار[2] بأن الميت يعرف بزيارة الحي له ويستبشر؛ فروى ابن أبي الدنيا عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم»، وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إذا مر الرجل بقبر يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام» وقد شرع السلام على الموتى، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسلِّم محال، وقد علّم النبي ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا: سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية، فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد وإن لم يسمع المسلِّم الرد، والله أعلم .

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن عبيد بن عمرو موقوفاً .

(٢) أورد ابن كثير عن ابن أبي الدنيا آثاراً كثيرة عن السلف الصالح تدل على اجتماع أرواح الموتى واستبشارهم بزيارة إخوانهم=

* ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾

ينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق، حالا بعد حال، فأصله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم يصير عظاماً، ثم تكسى العظام لحماً، وينفخ فيه الروح، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن القوى، ثم يشب قليلاً قليلاً حتى يكون صغيراً، ثم حدثاً، ثم مراهقاً، ثم شاباً وهو – القوة بعد الضعف – ثم يشرع في النقص فيكتهل، ثم يشيخ ثم يهرم وهو – الضعف بعد القوة – فتضعف الهمة والحركة والبطش، وتشيب اللمة وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء﴾ أي يفعل ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد ﴿وهو العليم القدير﴾ .

* ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً، فمنه: إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم، قال الله تعالى: ﴿كذلك كانوا يؤفكون * وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث﴾ أي فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا، فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة ﴿لقد لبثتم في كتاب الله﴾ أي في كتاب الأعمال ﴿إلى يوم البعث﴾ أي من يوم خلقتم إلى أن بعثتم، ﴿ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾، قال الله تعالى: ﴿فيومئذ﴾ أي يوم القيامة ﴿لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم﴾ أي اعتذارهم عما فعلوا، ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي ولا هم يرجعون إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾ .

* ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ أي قد بينا لهم الحق ووضحناه لهم، وضربنا

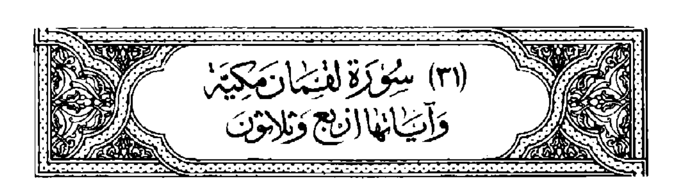
= وأقربائهم لهم، وأنهم يحسون ويشعرون بذلك ويأنسون بزيارة الأحياء، وقد ضربنا صفحاً عنها خشية الإطالة .

لهم فيه الأمثال ليستبينوا الحق ويتبعوه، ﴿ ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾ أي لو رأوا أي آية كانت، سواء كانت باقتراحهم أو غيره لا يؤمنون بها، ويعتقدون أنها سحر وباطل، كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه، ولهذا قال تعالى: ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون * فاصبر إن وعد الله حق﴾ أي اصبر على مخالفتهم وعنادهم، فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك، من نصره إياك عليهم، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾ أي بل اثبت على ما بعثك الله به، فإنه الحق الذي لا مرية فيه، قال ابن أبي حاتم عن أبي يحيى: صلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه صلاة الفجر فناداه رجل من الخوارج ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ فأجابه علي رضي الله عنه وهو في الصلاة ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾[1].

[آخر تفسير سورة الروم، ولله الحمد والمنة]



(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير.



(٣١) سورة لقمان مكية وآياتها أربع وثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

تقدم في أول سورة البقرة عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه الآية، وهو أنه سبحانه وتعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها، ووصلوا أرحامهم وقراباتهم، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة، فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك، لم يراؤوا ولا أرادوا جزاء من الناس ولا شكوراً، فن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله تعالى: ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ أي على بصيرة وبينة ومنهج واضح جلي ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي في الدنيا والآخرة.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء، وهم الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه، عطف بذكر حال الأشقياء، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء، بالألحان وآلات الطرب[1]. روى ابن جرير عن أبي الصهباء البكري أنه سمع عبد الله بن مسعود وهو يسأل عن هذه الآية: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله﴾ فقال عبد الله بن مسعود: الغناء، والله الذي لا إله إلا هو، يرددها ثلاث

(١) قال السيوطي: أخرج ابن جويبر: نزلت في النضر بن الحارث، اشترى قينة، وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه، هذا خير مما يدعوك إليه محمد، وقيل: إن النضر هذا كان من بني عبد الدار، وكان قد تعلم أخبار فارس في الجاهلية.

مرات، وقال الحسن البصري: نزلت هذه الآية ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم﴾ في الغناء والمزامير، وقيل: أراد بقوله: ﴿يشتري لهو الحديث﴾ اشتراء المغنيات من الجواري، قال ابن أبي حاتم عن أبي أمامة عن النبي ﷺ، قال: «لا يحل بيع المغنيات، ولا شراؤهن، وأكل أثمانهن حرام، وفيهن أنزل الله عزَّ وجلَّ عليَّ: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله﴾»[١]، قال الضحّاك: ﴿لهو الحديث﴾ يعني الشرك، وبه قال ابن أسلم، واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله، وقوله: ﴿ليضل عن سبيل الله﴾ أي إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله، وقوله تعالى: ﴿ويتخذها هزواً﴾ قال مجاهد: ويتخذ سبيل الله هزواً يستهزئ بها، وقال قتادة: يعني ويتخذ آيات الله هزواً. وقول مجاهد أولى. وقوله: ﴿أولئك لهم عذاب مهين﴾ أي كما استهانوا بآيات الله وسبيله، أهينوا يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر، ثم قال تعالى: ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً﴾ أي هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب، إذا تليت عليه الآيات القرآنية، ولى عنها وأعرض وأدبر، وتصامم وما به من صمم، كأنه ما سمعها لأنه يتأذى بسماعها، إذ لا انتفاع له بها ولا أرب له فيها، ﴿فبشره بعذاب أليم﴾ أي يوم القيامة يؤلمه كما تألم بسماع كتاب الله وآياته.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾

هذا ذكر مآل الأبرار، من السعداء في الدار الآخرة، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وعملوا الأعمال الصالحة التابعة لشريعة الله ﴿لهم جنات النعيم﴾ أي يتنعمون فيها بأنواع الملاذ، من المآكل والمشارب والملابس والمساكن، والمراكب، والنساء، والنضرة، والسماع، الذي لم يخطر ببال أحد، وهم في ذلك مقيمون دائماً لا يظعنون ولا يبغون عنها حولاً. وقوله تعالى: ﴿وعد الله حقاً﴾ أي هذا كائن لا محالة، لأنه وعد الله، والله لا يخلف الميعاد لأنه الكريم المنان، الفعال لما يشاء، القادر على كل شيء، ﴿وهو العزيز﴾ الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء، ﴿الحكيم﴾ في أقواله وأفعاله الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين، ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾.

۞ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

يبين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السماوات والأرض، وما فيهما وما بينهما، فقال تعالى: ﴿خلق السموات بغير عمد﴾ قال الحسن وقتادة: ليس لها عمد، وقال ابن عباس: لها عمد لا ترونها، وقد تقدم تقرير هذه المسألة في أول سورة الرعد، ﴿وألقى في الأرض رواسي﴾ يعني الجبال أرست الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء، ولهذا قال: ﴿أن تميد بكم﴾ أي لئلا تميد بكم، وقوله تعالى: ﴿وبث فيها من كل دابة﴾

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه الترمذي وابن جرير.

أي وذرأ فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها، ولما قرر سبحانه أنه الخالق نبه على أنه الرازق، بقوله: ﴿وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ أي من كل زوج من النبات ﴿كريم﴾ أي حسن المنظر، وقال الشعبي: من دخل الجنة فهو كريم ومن دخل النار فهو لئيم، وقوله تعالى: ﴿هذا خلق الله﴾ أي هذا الذي ذكره تعالى من خلق السماوات والأرض وما بينهما صادر عن فعل الله وخلقه وتقديره وحده لا شريك له في ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾ أي مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد، ﴿بل الظالمون﴾ يعني المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿في ضلال﴾ أي جهل وعمى ﴿مبين﴾ أي واضح ظاهر لا خفاء به.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

اختلف السلف في لقمان: هل كان نبياً أو عبداً صالحاً؟ على قولين: الأكثرون على الثاني، قال ابن عباس: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً، وقال سعيد بن المسيب: كان لقمان من سودان مصر ذا مشافر، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة، وقال ابن جرير عن خالد الربعي قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً، فقال له مولاه: اذبح لنا هذه الشاة فذبحها، قال أخرج أطيب مضغتين فيها، فأخرج اللسان والقلب، ثم مكث ما شاء الله، ثم قال اذبح لنا هذه الشاة فذبحها فقال: أخرج أخبث مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب، فقال له مولاه: أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها فأخرجتهما، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما: فقال لقمان، إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا، وقال مجاهد: كان لقمان عبداً صالحاً ولم يكن نبياً، غليظ الشفتين مصفح القدمين قاضياً على بني إسرائيل. وقوله: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ أي الفهم والعلم والتعبير، ﴿أن اشكر لله﴾ أي أمرناه أن يشكر الله عزَّ وجلَّ على ما آتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل الذي خصصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه، ثم قال تعالى: ﴿ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه﴾ أي إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين، لقوله تعالى: ﴿ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون﴾، وقوله: ﴿ومن كفر فإن الله غني حميد﴾ أي غني عن العباد لا يتضرر بذلك ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً، فإنه الغني عما سواه، فلا إلـه إلا الله ولا نعبد إلا إياه.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده، وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذكر، وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف، ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ولا

يشرك به شيئاً، ثم قال محذراً له ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ أي هو أعظم الظلم. عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس بذلك، ألا تسمع إلى قول لقمان ﴿يا بنيَّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾»[1]، ثم قرن بوصيته إياه بعبادة الله وحده، البر بالوالدين كما قال تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾ وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن؛ وقال ههنا: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن﴾، قال مجاهد: مشقة وهن الولد؛ وقال قتادة: جهداً على جهد؛ وقال عطاء الخراساني: ضعفاً على ضعف، وقوله: ﴿وفصاله في عامين﴾ أي تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين، كما قال تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ الآية، ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأنه قال في الآية الأخرى: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾، وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة، وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً، ليذكّر الولد بإحسانها المتقدم إليه، كما قال تعالى: ﴿وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾، ولهذا قال: ﴿أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير﴾ أي فإني سأجزيك على ذلك أوفر جزاء. عن سعيب بن وهب قال: قدم علينا معاذ بن جبل وكان بعثه النبي ﷺ، فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إني رسول رسول الله ﷺ إليكم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تطيعوني لا آلوكم خيراً، وإن المصير إلى الله إلى الجنة أو إلى النار، إقامة فلا ظعن، وخلود فلا موت[2].

وقوله تعالى: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ أي إن حرصا عليك كل الحرص، على أن تتابعهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك، ولا يمنعك ذلك أن تصاحبهما في الدنيا ﴿معروفاً﴾ أي محسناً إليهما، ﴿واتبع سبيل من أناب إليّ﴾ يعني المؤمنين، ﴿ثم إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾، روى الطبراني عن داود بن أبي هند أن سعد بن مالك[3] قال: أنزلت فيّ هذه الآية: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ الآية، قال: كنت رجلاً براً بأمي، فلما أسلمت قالت: يا سعد ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لتدعنَّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتعيّر بي، فيقال: يا قاتل أمه، فقلت: لا تفعلي يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء؛ فمكثت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت، فكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نَفْساً نَفْساً ما تركت ديني هذا لشيء؛ فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي، فأكلت.

يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، وهذا القول من كلام معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٣) سعد بن مالك هو سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنه.

عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

هذه وصايا نافعة حكاها الله سبحانه عن (لقمان الحكيم) ليمتثلها الناس ويقتدوا بها، فقال: ﴿ يا بنيّ إنها إن تك مثقال حبة من خردل ﴾ أي إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة خردل، وكانت مخفية في السماوات أو في الأرض ﴿ يأت بها الله ﴾ أي أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط، وجازى عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً﴾ الآية، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء، أو ذاهبة في أرجاء السماوات والأرض، فإن الله يأتي بها لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله لطيف خبير﴾ أي لطيف العلم فلا تخفى عليه الأشياء، وإن دقّت ولطفت وتضاءلت، ﴿ خبير ﴾ بدبيب النمل في الليل البهيم، وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله ﴿ فتكن في صخرة ﴾ أنها صخرة تحت الأرضين السبع ، والظاهر – والله أعلم – أن المراد أن هذه الحبة في حقارتها لو كانت داخل صخرة فإن الله سيبديها ويظهرها بلطيف علمه، كما قال رسول الله ﷺ: « لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لخرج عمله للناس كائناً ما كان »[1] ، ثم قال: ﴿ يا بنيَّ أقم الصلاة ﴾ أي بحدودها وفروضها وأوقاتها، ﴿ وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ﴾ أي بحسب طاقتك وجهدك، ﴿ واصبر على ما أصابك ﴾ لأن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، لا بد أن يناله من الناس أذى فأمره بالصبر ، وقوله: ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ أي إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور .

وقوله تعالى: ﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾ يقول: لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك، احتقاراً منك لهم واستكباراً عليهم، ولكن أَلِنْ جانبك وابسط وجهك إليهم، كما جاء في الحديث: « ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط »، قال ابن عباس يقول: لا تتكبر فتحتقر عباد الله وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك، وقال زيد بن أسلم ﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾: لا تتكلم وأنت معرض، وقال إبراهيم النخعي: يعني بذلك التشدق في الكلام، والصواب القول الأول، قال الشاعر[2] :

وكنا إذا الجبــار صعَّر خــده   أقمنا لــه مــن ميله فتقومـا

وقوله تعالى: ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ أي خيلاء متكبراً جباراً عنيداً، لا تفعل ذلك يبغضك الله، ولهذا قال: ﴿ إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ أي مختال معجب في نفسه ﴿ فخور ﴾ أي على غيره، وقال تعالى: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً﴾. عن ثابت بن قيس بن شماس قال: ذكر الكبر عند رسول الله ﷺ فشدد فيه فقال: « إن الله لا يحب كل مختال فخور » فقال رجل

---

(١) أخرجه أحمد عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً .

(٢) هو عمرو بن حي التغلبي .

من القوم: والله يا رسول الله إني لأغسل ثيابي فيعجبني بياضها ويعجبني شراك نعلي وعلاقة سوطي، فقال: «ليس ذلك الكبر، إنما الكبر أن تسفه الحق، وتغمط الناس»[1]، وقوله: ﴿واقصد في مشيك﴾ أي امش مقتصداً مشياً ليس بالبطيء المتثبط، ولا بالسريع المفرط بل عدلاً وسطاً بين بين، وقوله: ﴿واغضض من صوتك﴾ أي لا تبالغ في الكلام ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه، ولهذا قال: ﴿إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ قال مجاهد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير، أي غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعه، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى، وهذا التشبيه بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم، لأن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه»، وروى النسائي عند تفسير هذه الآية عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطاناً»[2]. فهذه وصايا نافعة جداً، وهي من قصص القرآن العظيم، عن لقمان الحكيم، وقد روي عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة.

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى منبهاً خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة، بأنه سخر لهم ما في السماوات، من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما يخلق فيها من سحاب وأمطار، وما خلق لهم في الأرض من أنهار وأشجار وزروع وثمار، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم، بل منهم من يجادل في الله أي في توحيده وإرساله الرسل، ومجادلته في ذلك بغير علم ولا مستند، من حجة صحيحة ولا كتاب مأثور صحيح، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ أي مبين مضيئ ﴿وإذا قيل لهم﴾ أي لهؤلاء المجادلين في توحيد الله ﴿اتبعوا ما أنزل الله﴾ أي على رسوله من الشرائع المطهرة، ﴿قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا﴾ أي لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين، قال الله تعالى: ﴿أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ أي فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾.

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

(١) أخرجه الطبراني عن ثابت بن قيس وفيه قصة طويلة. (٢) أخرجه النسائي وبقية الجماعة سوى ابن ماجة.

يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله أي أخلص له العمل، وانقاد لأمره واتبع شرعه، ولهذا قال: ﴿وهو محسن﴾ أي في عمله باتباع ما به أمر، وترك ما عنه زجر ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أي فقد أخذ موثقاً من الله متيناً أنه لا يعذبه، ﴿وإلى الله عاقبة الأمور * ومن كفر فلا يحزنك كفره﴾ أي لا تحزن عليهم يا محمد في كفرهم بالله وبما جئت به، فإن قدر الله نافذ فيهم، وإلى الله مرجعهم ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ أي فيجزيهم عليه، ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ فلا تخفى عليه خافية، ثم قال تعالى: ﴿نمتعهم قليلاً﴾ أي في الدنيا، ﴿ثم نضطرهم﴾ أي نلجئهم ﴿إلى عذاب غليظ﴾ أي فظيع صعب شاق على النفوس، كما قال تعالى: ﴿متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ .

۞ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين، أنهم يعرفون أن الله خالق السماوات والأرض، وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له، ولهذا قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله﴾ أي إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾، ثم قال تعالى: ﴿لله ما في السموات والأرض﴾ أي هي خلقه وملكه، ﴿إن الله هو الغني الحميد﴾ أي الغنى عما سواه وكل شيء فقير إليه، ﴿الحميد﴾ في جميع ما خلق له الحمد في السماوات والأرض، وهو المحمود في الأمور كلها .

وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه، وجلاله وأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، كما قال سيد البشر: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»، فقال تعالى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾ أي ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً، وجعل البحر مداداً وأمده سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله، لتكسرت الأقلام ونفد ماء البحر ولو جاء أمثالها مدداً، وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة ولم يرد الحصر، فقد قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾، فليس المراد بقوله: ﴿بمثله﴾ آخر فقط، بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله، ثم هلم جرا، لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته، قال الحسن البصري: لو جعل شجر الأرض أقلاماً وجعل البحر مداداً، وقال الله: إن من أمري كذا ومن أمري كذا لنفد ماء البحر وتكسرت الأقلام، وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ أي ما خلق جميع الناس، وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته، إلا كنسبة خلق نفس واحدة،

الجميع هيّن عليه، ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾، ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ أي لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة فيكون ذلك الشيء لا يحتاج إلى تكرره وتوكيده، ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة﴾، وقوله: ﴿إن الله سميع بصير﴾ أي كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم، كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة، كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة، ولهذا قال تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ الآية.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾

يخبر تعالى أنه ﴿يولج الليل في النهار﴾ يعني يأخذ منه في النهار فيطول ذاك ويقصر هذا، وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية، ثم يشرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار وهذا يكون في الشتاء ﴿وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى﴾ قيل إلى غايه محدودة، وقيل إلى يوم القيامة، وكلا المعنيين صحيح ويستشهد للقول الأول بحديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» قلت الله ورسوله أعلم؟ قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ثم تستأذن ربها فيوشك أن يقال لها ارجعي من حيث جئت»[1]، وعن ابن عباس أنه قال: الشمس بمنزلة الساقية تجري بالنهار في السماء في فلكها، فإذا غربت جرت بالليل في فلكها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها، قال: وكذلك القمر[2]، وقوله: ﴿وإن الله بما تعملون خبير﴾ المعنى أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء، وقوله تعالى: ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل﴾ أي إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق أي الإلّه الحق، وأن كل ما سواه باطل، فإنه الغني عما سواه وكل شيء فقير إليه، الجميع خلقه وعبيده، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذباباً لعجزوا عن ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير﴾ أي العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء، فالكل خاضع حقير بالنسبة إليه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

يخبر تعالى أنه هو الذي سخر البحر، لتجري فيه الفلك بأمره، أي بلطفه وتسخيره، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت، ولهذا قال: ﴿ليريكم من آياته﴾ أي من قدرته ﴿إن في ذلك لآيات

(١) أخرجه الشيخان عن أبي ذر الغفاري مرفوعاً. (٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس موقوفاً.

لكل صبار شكور﴾ أي صبار في الضراء، شكور في الرخاء، ثم قال تعالى: ﴿وإذا غشيهم موج كالظلل﴾ أي كالجبال والغمام ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾، كما قال تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضلّ من تدعون إلا إياه﴾، وقال تعالى: ﴿فإذا ركبوا في الفلك﴾ الآية، ثم قال تعالى: ﴿فلما نجاهم إلى البر فنهم مقتصد﴾ قال مجاهد: أي كافر، كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد، كما قال تعالى: ﴿فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾، وقال ابن زيد، هو المتوسط في العمل، وهذا الذي قاله ابن زيد هو المراد في قوله تعالى: ﴿فنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد﴾ الآية، فالمقتصد ههنا هو المتوسط في العمل، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال، والأمور العظام، والآيات الباهرات في البحر؛ ثم بعدما أنعم الله عليه بالخلاص، كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام، والدؤوب في العبادة، والمبادرة إلى الخيرات، فن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور﴾ الختار: هو الغدّار، قاله مجاهد والحسن وهو الذي كلما عاهد نقض عهده، والختر أتم الغدر وأبلغه. قال عمرو بن معد يكرب:

وإنك لو رأيت أبا عمير ملأت يديك من غدر وختر

وقوله: ﴿كفور﴾ أي جحود للنعم لا يشكرها بل يتناساها ولا يذكرها.

* ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى منذراً للناس يوم المعاد، وآمراً لهم بتقواه والخوف منه، والخشية من يوم القيامة حيث ﴿لا يجزي والد عن ولده﴾ أي لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه، وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يقبل منه، ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله: ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ أي لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة، ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ يعني الشيطان[1]، فإنه يغر ابن آدم ويعده ويمنيه، وليس من ذلك شيء، بل كان كما قال تعالى: ﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾، قال وهب بن منبه: قال عزير عليه السلام: لما رأيت بلاء قومي اشتد حزني وكثر همي وأرق نومي، فتضرعت إلى ربي وصليت وصمت، فأنا في ذلك التضرع أبكي إذ أتاني الملَك، فقلت له: خبرني هل تشفع أرواح الصديقين للظلمة، أو الآباء لأبنائهم؟ قال: إن القيامة فيها فصل القضاء، وملك ظاهر ليس فيه رخصة لا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الرحمن، ولا يؤخذ فيه والد عن ولده ولا ولد عن والده، ولا أخ عن أخيه، ولا عبد عن سيده، ولا يهتم أحد به بغيره، ولا يحزن لحزنه ولا أحد يرحمه، كل مشفق على نفسه، ولا يؤخذ إنسان عن إنسان، كل يهمه همه ويبكي ذنبه، ويحمل وزره ولا يحمل وزره معه غيره[2].

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى

(١) قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه.

نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾، وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك، ومن يشاء الله من خلقه، وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى، شقياً أو سعيداً، علم الملائكة الموكلون بذلك، وكذا لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخراها، ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان، لا علم لأحد بذلك وهذه شبيهة بقوله تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ الآية، وقد وردت السنّة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب، روى الإمام أحمد عن أبي بريدة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خمسٌ لا يعلمهن إلا الله عزَّ وجلَّ: ﴿إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير﴾»، عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير﴾»[1]

وعن مجاهد قال: جاء رجل من أهل البادية فقال: إن امرأتي حبلى فأخبرني ما تلد؟ وبلادنا مجدبة، فأخبرني متى ينزل الغيث؟ وقد علمت متى ولدت فأخبرني متى أموت؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿إن الله عنده علم الساعة - إلى قوله - عليم خبير﴾ قال مجاهد وهي مفاتيح الغيب التي قال الله تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾[2]، وروى مسروق عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: من حدثك أنه يعلم ما في غد، فقد كذب، ثم قرأت ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً﴾. وقوله تعالى: ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ قال قتادة: أشياء استأثر الله بهن فلن يطلع عليهن ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة في أي سنة أو في أي شهر أو ليل أو نهار، ﴿وينزل الغيث﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ليلاً أو نهاراً، ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ فلا يعلم أحد ما في الأرحام أذكر أم أنثى، أحمر أو أسود وما هو، ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً﴾ أخير أم شر، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت لعلك الميت غداً لعلك المصاب غداً، ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ أي ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض، أفي بحر أم بر، أو سهل أو جبل. وقد جاء في الحديث: «إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة»[3]. وروي مثله عن ابن مسعود، وبمعناه عن أسامة.

[آخر تفسير سورة لقمان، والحمد لله رب العالمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل]



(١) أخرجه البخاري والإمام أحمد.
(٢) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير.



روى البخاري عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة (ألم تنزيل) السجدة و ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ ، وروى الإمام أحمد عن جابر قال: كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ ألم تنزيل السجدة وتبارك الذي بيده الملك .

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا، وقوله: ﴿ تنزيل الكتاب لا ريب فيه ﴾ أي لا شك فيه ولا مرية أنه منزل ﴿ من رب العالمين ﴾ ، ثم قال تعالى مخبراً عن المشركين ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ بل يقولون افتراه أي اختلقه من تلقاء نفسه، ﴿ بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ﴾ أي يتبعون الحق .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء، فخلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش، وقد تقدم الكلام على ذلك، ﴿ ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع ﴾ أي بل هو المالك لأزمة الأمور، الخالق لكل شيء، المدبر لكل شيء، القادر على كل شيء، فلا ولي لخلقه سواه، ولا شفيع إلا من بعد إذنه، ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ يعني أيها العابدون غيره، المتوكلون على من عداه، تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو وزير، لا إله إلا هو ولا رب سواه. وقوله تعالى: ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴾ أي يتنزل أمره

من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة، كما قال تعالى: ﴿الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن﴾ الآية، وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا، ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة، وسمك السماء خمسمائة سنة، وقال مجاهد والضحاك: النزول من الملك في مسيرة خمسمائة عام، وصعوده في مسيرة خمسمائة عام، ولكنه يقطعها في طرفة عين، ولهذا قال تعالى: ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون * ذلك عالم الغيب والشهادة﴾ أي المدبر لهذه الأمور الذي هو شهيد على أعمال عباده، يرفع إليه جليلها وحقيرها وصغيرها وكبيرها، هو العزيز الذي قد عز كل شيء فقهره وغلبه، ودانت له العباد والرقاب، ﴿الرحيم﴾ بعباده المؤمنين.

ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى مخبراً أنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها، قال زيد بن أسلم: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ قال: أحسن خلق كل شيء، كأنه جعله من المقدم والمؤخر؛ ثم لما ذكر تعالى خلق السماوات والأرض، شرع في ذكر خلق الإنسان، فقال تعالى: ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾ يعني خلق أبا البشر آدم من طين، ﴿ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾ أي يتناسلون كذلك من نطفة، تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة، ﴿ثم سوّاه﴾ يعني آدم لما خلقه من تراب خلقه سوياً مستقيماً، ﴿ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ يعني العقول، ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أي بهذه القوى التي رزقكموها الله عزَّ وجلَّ، فالسعيد من استعملها في طاعة ربه عزَّ وجلَّ.

وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا ﴿أئذا ضللنا في الأرض﴾ أي تمزقت أجسامنا، وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت، ﴿أئنا لفي خلق جديد﴾ أي أئنا لنعود بعد تلك الحال؟ يستبعدون ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿بل هم بلقاء ربهم كافرون﴾، ثم قال تعالى: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾، الظاهر أن ملك الموت شخص معين، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل وهو المشهور[1]، وله أعوان؛ وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت، قال مجاهد: حويت له الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها متى يشاء، وقال كعب الأحبار: والله ما من بيت فيه أحد من أهل الدنيا إلا وملك الموت يقوم على بابه كل يوم سبع مرات ينظر هل فيه أحد أمر أن يتوفاه[2]، وقوله تعالى: ﴿ثم إلى ربكم ترجعون﴾ أي يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم.

(١) قاله قتادة وغير واحد من علماء السلف.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة، حين عاينوا البعث وقاموا بين يدي الله عزَّ وجلَّ، حقيرين ذليلين ناكسي رؤوسهم أي من الحياء والخجل، يقولون ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾ أي نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك كما قال تعالى: ﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾ وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم: ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾، وهكذا هؤلاء يقولون ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا﴾ أي إلى دار الدنيا ﴿نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ أي قد أيقنا وتحققنا فيها أن وعدك حق ولقاءك حق، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى الدنيا لكانوا كفاراً يكذبون بآيات الله، ويخالفون رسله، كما قال تعالى: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا﴾ الآية، وقال ههنا: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾، كما قال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾، ﴿ولكن حقَّ القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ أي من الصنفين فدارهم النار لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك ﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ أي يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ، ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به، واستبعادكم وقوعه، ﴿إنا نسيناكم﴾ أي سنعاملكم معاملة الناسي، لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة، كما قال تعالى: ﴿فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾، وقوله تعالى: ﴿وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون﴾ أي بسبب كفركم وتكذيبكم، كما قال تعالى: ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾ .

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿إنما يؤمن بآياتنا﴾ أي إنما يصدق بها ﴿الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً﴾ أي استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً، ﴿وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾ أي عن اتباعها والانقياد لها، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة، قال الله تعالى: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾، ثم قال تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ يعني بذلك قيام الليل وترك النوم، والاضطجاع على الفرش الوطيئة، قال مجاهد والحسن: يعني بذلك قيام الليل، وعن أنس وعكرمة: هو الصلاة بين العشاءين، وعن أنس أيضاً: هو انتظار صلاة العتمة، وقال الضحاك: هو صلاة العشاء في جماعة وصلاة الغداة في جماعة ﴿يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾ أي خوفاً من وبال عقابه، وطمعاً في جزيل ثوابه ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ فيجمعون بين فعل القربات اللازمة

والمتعدية، عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال: «لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفيء الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل - ثم قرأ - ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ حتى بلغ ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾، ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» فقلت: بلى يا رسول الله، فقال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله»؟ فقلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه ثم قال: «كفَّ عليك هذا» فقلت: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به، فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم»[1].

وروى ابن أبي حاتم، عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في غزوة تبوك فقال: «إن شئت نبأتك بأبواب الخير، الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة وقيام الرجل في جوف الليل» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ الآية؛ وعن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق «سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم» ثم يرجع فينادي: ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع - الآية - فيقومون وهم قليل»، وقال بلال: لما نزلت هذه الآية ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ الآية، كنا نجلس في المجلس وناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء، فنزلت هذه الآية ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ أي فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات، من النعيم المقيم، واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد، لما أخفوا أعمالهم، كذلك أخفى الله لهم من الثواب، جزاء وفاقاً، فإن الجزاء من جنس العمل، قال الحسن البصري: أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين ولم يخطر على قلب بشر، قال البخاري: قوله تعالى ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ الآية، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» قال أبو هريرة اقرأوا إن شئتم ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾[3]. وفي الحديث: «من يدخل الجنة ينعم لا ييأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[4]، وروى مسلم عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى النبي ﷺ قال: سأل موسى عليه السلام ربه عزَّ وجلَّ ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعدما أُدخِلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب كيف وقد أخذ الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه.

(٢) أخرجه البزار عن زيد بن أسلم عن أبيه.

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي والإمام أحمد.

(٤) أخرجه مسلم من حديث حماد بن سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً.

رب، فيقول لك ذلك ومثله ومثله ومثله، فقال في الخامسة: رضيت ربي، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله معه، ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك فيقول: رضيت رب، قال رب فأعلاهم منزلة، قال: أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر. قال: ومصداقه من كتاب الله عزَّ وجلَّ ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ الآية(١) .

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى عن عدله وكرمه، أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة، من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسله بمن كان فاسقاً، أي خارجاً عن طاعة ربه، مكذباً رسل الله، كما قال تعالى: ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾، وقال تعالى: ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾؟ وقال تعالى: ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ الآية، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾ أي عند الله يوم القيامة، وقد ذكر عطاء والسدي أنها نزلت في (علي بن أبي طالب) و (عقبة بن أبي معيط) ولهذا فصل حكمهم فقال: ﴿ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي صدقت قلوبهم بآيات الله، وعملوا بمقتضاها وهي الصالحات، ﴿ فلهم جنات المأوى ﴾ أي التي فيها المساكن والدور والغرف العالية ﴿ نزلاً ﴾ أي ضيافة وكرامة، ﴿ بما كانوا يعملون ۝ وأما الذين فسقوا ﴾ أي خرجوا عن الطاعة، ﴿ فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾، كقوله: ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ الآية، قال الفضيل بن عياض: والله إن الأيدي لموثقة، وإن الأرجل لمقيدة، وإن اللهب ليرفعهم، والملائكة تقمعهم، ﴿ وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، وقوله تعالى: ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾، قال ابن عباس: يعني بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها، وما يحل بأهلها مما يبتلي الله به عباده ليتوبوا إليه، وقال مجاهد: يعني به عذاب القبر، وقال عبد الله بن مسعود: العذاب الأدنى ما أصابهم من القتل والسبي يوم بدر، قال السدي: لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير فأصيبوا أو غرموا، ومنهم من جمع له الأمران، وقوله تعالى: ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴾ أي لا أظلم ممن ذكره الله بآياته وبينها له ووضحها، ثم بعد ذلك تركها وجحدها، وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها، قال قتادة: إياكم والإعراض عن ذكر الله، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرة وأعوز أشد العوز، ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك: ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ أي سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام

(١) أخرجه مسلم عن المغيرة بن شعبة مرفوعاً ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح .

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله (موسى) عليه السلام، أنه آتاه الكتاب وهو التوراة، وقوله تعالى: ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾ قال قتادة: يعني به ليلة الإسراء، وفي الحديث: «رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلاً آدم جعداً كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى رجلاً مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس، ورأيت مالكاً خازن النار، والدجال» في آيات أراهن الله إياها ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾ أنه قد رأى موسى ولقي موسى ليلة أسري به. وروى ابن عباس عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾ قال من لقاء موسى ربه عزَّ وجلّ[1]، وقوله تعالى: ﴿وجعلناه﴾ أي الكتاب الذي آتيناه ﴿هدى لبني إسرائيل﴾، كما قال تعالى في الإسراء: ﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل أن لا تتخذوا من دوني وكيلا﴾. وقوله تعالى: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ أي لما كانوا صابرين على أوامر الله، وترك زواجره، وتصديق رسله، واتباعهم فيما جاؤوهم به، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ثم لما بدّلوا وحرّفوا سلبوا ذلك المقام، وصارت قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، فلا عمل صالحاً ولا اعتقاداً صحيحاً، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب﴾ قال قتادة: لما صبروا عن الدنيا، وقال سفيان: هكذا كان هؤلاء، ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يقتدى به حتى يتحامى عن الدنيا، وسئل سفيان عن قول علي رضي الله عنه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ألم تسمع قوله: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا﴾؟ قال: لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤساء، قال بعض العلماء: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين﴾، كما قال ههنا: ﴿إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي من الاعتقادات والأعمال.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى أولم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسل، ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية، بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر ﴿هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً﴾، ولهذا قال: ﴿يمشون في مساكنهم﴾ أي وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين، فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها ذهبوا منها كأن لم يغنوا فيها، كما قال: ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾، وقال: ﴿وكأين

(١) أخرجه الطبراني.

من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿إن في ذلك لآيات﴾ أي إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم، وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم، لآيات وعبراً ومواعظ ودلائل ﴿أفلا يسمعون﴾ أي أخبار من تقدم كيف كان من أمرهم. وقوله تعالى: ﴿أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجزر﴾ يبين تعالى لطفه بخلقه وإحسانه إليهم، في إرساله الماء من السماء أو من السيح، وهو ما تحمله الأنهار ويتحدر من الجبال، إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته، ولهذا قال تعالى: ﴿إلى الأرض الجزر﴾ وهي التي لا نبات فيها، كما قال تعالى: ﴿وأنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾، وأرض مصر رخوة تحتاج من الماء مالو نزل عليها مطراً لتهدمت أبنيتها فيسوق الله تعالى إليها النيل، بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور في غير بلادهم، وطين جديد من غير أرضهم فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود أبداً. روى قيس بن حجاج قال: لما فتحت مصر أتى أهلها (عمرو بن العاص) وكان أميراً بها، فقالوا أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها، قال وما ذاك؟ قالوا ذا كانت ثنتا عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل، فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون في الإسلام، إن الإسلام يهدم ما كان قبله، فأقاموا والنيل لا يجري حتى هموا بالجلاء، فكتب (عمرو) إلى (عمر بن الخطاب) بذلك فكتب إليه عمر إنك قد أصبت بالذي فعلت، قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي هذا فألقها في النيل، فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر، أما بعد: فإنك إن كنت إنما تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله أن يجريك، قال فألقى البطاقة في النيل فأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة، وقد قطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم[1]. ولهذا قال تعالى: ﴿أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾، كما قال تعالى: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صباً﴾ الآية، ولهذا قال ههنا: ﴿أفلا يبصرون﴾؟ وقال ابن عباس في قوله ﴿إلى الأرض الجرز﴾ قال: هي التي لا تمطر إلا مطراً لا يغني عنها شيئاً إلا ما يأتيها من السيول، وقال عكرمة والضحاك: الأرض الجرز التي لا نبات فيها وهي مغبرة، قلت وهذا كقوله تعالى: ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها﴾ الآيتين.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

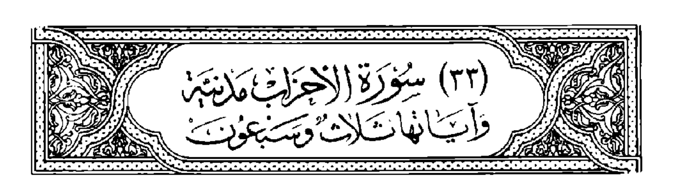
يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار ووقوع بأس الله بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم، استبعاداً وتكذيباً وعناداً ﴿ويقولون متى هذا الفتح﴾ أي متى تنصر علينا يا محمد؟ كما تزعم أن لك وقتاً تدال علينا وينتقم لك منا، فمتى يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين، قال الله تعالى: ﴿قل يوم الفتح﴾

(١) رواه الحافظ أبو القاسم اللالكائي في كتاب السنّة.

أي إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا وفي الأخرى ﴿لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون﴾، كما قال تعالى: ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم﴾ الآيتين. والمراد بالفتح القضاء والفصل، كقوله: ﴿فافتح بيني وبينهم فتحاً﴾ الآية، وكقوله: ﴿قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق﴾ الآية، ثم قال تعالى: ﴿فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون﴾ أي أعرض عن هؤلاء المشركين، وبلّغ ما أنزل إليك من ربك، كقوله تعالى: ﴿اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو﴾ الآية، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك، وسينصرك على من خالفك، إنه لا يخلف الميعاد، وقوله: ﴿إنهم منتظرون﴾ أي أنت منتظر وهم منتظرون، ويتربصون بكم الدوائر ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾ وسترى عاقبة صبرك عليهم، وعلى أداء رسالة الله في نصرتك وتأييدك، وسيجدون غب ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك، من وبيل عقاب الله لهم، وحلول عذابه بهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

[آخر تفسير سورة السجدة، ولله الحمد والمنة]





(٣٣) سورة الأحزاب مدنية وآياتها ثلاث وسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣)﴾

قال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله، وقوله تعالى: ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾[1] أي لا تسمع منهم ولا تستشرهم ﴿إن الله كان علیماً حكيماً﴾ أي فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه، فإنه عليم بعواقب الأمور، حكيم في أقواله وأفعاله، ولهذا قال تعالى: ﴿واتبع ما يوحى إليك من ربك﴾ أي من قرآن وسنّة، ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ أي فلا تخفى عليه خافية، ﴿وتوكل على الله﴾ أي في جميع أمورك وأحوالك، ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ أي وكفى به وكيلا لمن توكل عليه وأناب إليه.

﴿۞ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥)﴾

يقول تعالى موطئاً قبل المقصود المعنوي، أمراً معروفاً حسياً، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ولا تصير زوجته التي يظاهر منها بقوله أنت عليَّ كظهر أمي أماً له، كذلك لا يصير الدعيُّ ولداً للرجل

---

(١) دعا أهل مكة النبي ﷺ أن يرجع عن قوله، على أن يعطوه شطراً من أموالهم، وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة، فأنزل الله ﴿يا أيها النبي ...﴾ الآية. أخرجه جويبر، وذكره في اللباب.

إذا تبناه فدعاه ابناً له، فقال: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم﴾، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ما هنّ أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾ هذا هو المقصود بالنفي، فإنها نزلت في شأن (زيد بن حارثة) رضي الله عنه مولى النبي ﷺ، كان النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوة، فكان يقال له (زيد بن محمد) فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله تعالى: ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾، كما قال تعالى: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾، وقال ههنا: ﴿ذلكم قولكم بأفواهكم﴾ يعني تبنِّيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابناً حقيقياً فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فما يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان، ﴿والله يقول الحق﴾ أي العدل، ﴿وهو يهدي السبيل﴾ أي الصراط المستقيم. وقد ذكر غير واحد أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش كان يقال له ذو القلبين[1]، وأنه كان يزعم أن له قلبين كل منهما بعقل وافر، فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً عليه. وقال عبد الرزاق عن الزهري في قوله: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾، قال: بلغنا أن ذلك كان في (زيد بن حارثة) ضرب له مثل، يقول ليس ابن رجل آخر ابنك، وكذا قال مجاهد وقتادة وابن زيد: أنها نزلت في زيد بن حارثة رضي الله عنه، وهذا يوافق ما قدمناه من التفسير والله سبحانه وتعالى أعلم، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام، من جواز ادعاء الأبناء الأجانب، وهم الأدعياء، فأمر تبارك وتعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة، وأن هذا هو العدل والقسط والبر.

روى **البخاري** عن عبد الله بن عمر قال: إن زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾[2]. وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه في الخلوة بالمحارم وغير ذلك، ولهذا لما نسخ هذا الحكم أباح تبارك وتعالى زوجة الدعي، وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة رضي الله عنه، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً﴾، وقال تبارك وتعالى في آية التحريم: ﴿وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾ احترازاً عن زوجة الدعي فإنه ليس من الصلب، فأما دعوة الغير ابناً على سبيل التكريم والتحبيب، فليس مما نهي عنه في هذه الآية، بدليل ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدمنا على رسول الله ﷺ - أغيلمة بني عبد المطلب - على جمرات لنا من جمع، فجعل يلطخ أفخاذنا ويقول: «أبنيّ لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس»[3] وعن أَنَس بن مالك رضي الله عنه قال، قال لي رسول الله ﷺ: «يا بني»، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾ أمر تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم إن عرفوا، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم أي عوضاً عما فاتهم من النسب، ولهذا قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «أنت مني وأنا منك» وقال لجعفر رضي الله عنه: «أشبهتَ خَلْقي وخُلُقي»، وقال لزيد رضي الله عنه: «أنت أخونا ومولانا». كما قال تعالى: ﴿فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾.

---

(١) هو جميل بن معمر الجمحي

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

(٣) أخرجه أحمد وأهل السنن إلا الترمذي.

وقد جاء في الحديث: «ليس من رجل ادعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلا كفر»[1]؛ وهذا تشديد وتهديد، ووعيد أكيد، في التبري من النسب المعلوم، ولهذا قال تعالى: ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾، ثم قال تعالى: ﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به﴾ أي إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ، بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع، فإن الله تعالى قد وضع الحرج في الخطأ، ورفع إثمه كما أرشد إليه في قوله تبارك وتعالى: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾، وفي الحديث: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر»[2]، وفي الحديث الآخر: «إن الله تعالى رفع عن أمتي الخطأ والنسيان والأمر الذي يكرهون عليه»، وقال تبارك وتعالى ههنا: ﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي إنما الإثم على من تعمد الباطل، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ الآية، وروى الإمام أحمد عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل معه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، ثم قال: قد كنا نقرأ: [ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم][3]، وفي الحديث الآخر: «ثلاث في الناس كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت، والاستسقاء بالنجوم».

* ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾

علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته ونصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم مقدمٌ على اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾، وفي الصحيح: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين». وفي الصحيح أيضاً أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال ﷺ: «لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال: يا رسول الله والله لأنت أحب إليَّ من كل شيء حتى من نفسي، فقال ﷺ: «الآن يا عمر»؛ ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾، وقال البخاري عند هذه الآية الكريمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، إقرأوا إن شئتم: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾. فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا، وإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه»[4].

وقال تعالى: ﴿وأزواجه أمهاتهم﴾ أي في الحرمة والاحترام، والتوقير والإكرام والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع.

وقوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ أي في حكم الله ﴿من المؤمنين والمهاجرين﴾

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه البخاري عن عمرو بن العاص مرفوعاً.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

(٤) أخرجه البخاري ورواه أحمد وابن أبي حاتم.

أي القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار، وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم، كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ، عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: أنزل الله عزَّ وجلَّ فينا خاصة معشر قريش والأنصار: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾، وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا من المدينة قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان فواخيناهم وورثناهم، فآخى أبو بكر رضي الله عنه (خارجة بن زيد)، وآخى عمر رضي الله عنه فلاناً، وآخى عثمان رضي الله عنه رجلاً من بني زريق (ابن سعد الزرقي) ويقول بعض الناس غيره، قال الزبير رضي الله عنه: وواخيت أنا (كعب بن مالك) فجئته فابتعلته، فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى، فوالله يا بني لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري، حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فينا معشر قريش، والأنصار خاصة، فرجعنا إلى مواريثنا. وقوله تعالى: ﴿إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾ أي ذهب الميراث وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية، وقوله تعالى: ﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ أي هذا الحكم، وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض، حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يبدل ولا يغير، وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت، لما له في ذلك من الحكمة البالغة وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار في قدره الأزلي وقضائه القدري الشرعي والله أعلم.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن أولي العزم الخمسة وبقية الأنبياء، أنه أخذ عليهم العهد والميثاق، في إقامة دين الله تعالى وإبلاغ رسالته، والتعاون والتناصر والاتفاق، كما قال تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾ الآية، فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم، وكذلك هذا، ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة وهم أولو العزم، وقد صرح بذكرهم أيضاً في قوله تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك. وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها، كما قال تعالى: ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم﴾ فبدأ في هذه الآية بالخاتم لشرفه صلوات الله عليه، ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم، وقد قيل: إن المراد بهذا الميثاق الذي أخذ منهم حين أخرجوا في صورة الذر من صلب آدم عليه الصلاة والسلام، كما قال أبي بن كعب: ورفع أباهم آدم فنظر إليهم يعني ذريته، وأن فيهم الغني والفقير، وحسن الصورة ودون ذلك فقال: رب لو سويت بين عبادك فقال: إني أحببت أن أشكر، ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة وهو الذي يقول الله تعالى: ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم﴾ وقال ابن عباس: الميثاق الغليظ العهد، **وقوله تعالى:** ﴿ليسأل الصادقين عن صدقهم﴾ قال مجاهد: المبلغين المؤدين عن الرسل، وقوله تعالى: ﴿وأعد

للكافرين﴾ أي من أممهم ﴿عذاباً أليماً﴾ أي موجعاً، فنحن نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ونصحوا الأمم، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين، والمارقين والقاسطين.

* يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن نعمته وفضله وإحسانه، إلى عباده المؤمنين في صرفه أعداءهم وهزمه إياهم، عام تألبوا عليهم وتحزبوا، وذلك عام الخندق، وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفراً من أشراف يهود بني النضير، الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر، منهم (سلام بن أبي الحقيق) و (سلام بن مشكم) و (كنانة ابن الربيع) خرجوا إلى مكة، فاجتمعوا بأشراف قريش، وألبوهم على حرب النبي ﷺ، ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة، فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضاً، وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها وقائدهم (أبو سفيان) صخر بن حرب، وعلى غطفان عيينة بن حصن بن بدر، والجميع قريب من عشرة آلاف، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق، وذلك بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفر، وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة قريباً من أحد، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة، كما قال الله تعالى: ﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم﴾، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين وهم نحو من ثلاثة آلاف، فأسندوا ظهورهم إلى سلع ووجوههم نحو العدو، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم، يحجب الخيالة والرجالة أن تصل إليهم وجعل النساء والذراري في آطام المدينة، وكانت بنو قريظة وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقي المدينة، ولهم عهد من النبي ﷺ وذمة، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل، فذهب إليهم (حيي بن أخطب) فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد، ومالأوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فعظم الخطب واشتد الأمر، وضاق الحال، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾ ومكثوا محاصرين للنبي ﷺ وأصحابه قريباً من شهر، إلا أنهم لا يصلون إليهم، ولم يقع بينهم قتال، ثم أرسل الله عزَّ وجلَّ على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء، ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار، حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً﴾ قال مجاهد: وهي الصَّبا، ويؤيده الحديث الشريف: «نصرت بالصَّبا وأهلكت عاد بالدبور».

وقوله تعالى: ﴿وجنوداً لم تروها﴾ هم الملائكة زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف، فكان رئيس كل قبيلة يقول: يا بني فلان إليّ فيجتمعون إليه فيقول: النجاء لما ألقى الله عزَّ وجلَّ في قلوبهم من الرعب، روى مسلم في صحيحه عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: كنا عند حذيفة بن اليمان رضي الله عنه فقال له رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت، فقال له حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة

الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقر، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يأتي بخبر القوم يكون معي يوم القيامة» فلم يجبه منّا أحد، ثم الثانية، ثم الثالثة مثله، ثم قال ﷺ: «يا حذيفة قم فأتنا بخبر من القوم» فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم فقال: «ائتني بخبر القوم ولا تذعرهم عليّ»، قال فمضيت كأنما أمشي في حمّام حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كبد قوسي وأردت أن أرميه، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ: لا تذعرهم عليّ ولو رميته لأصبته، قال: فرجعت كأنما أمشي في حمّام فأتيت رسول الله ﷺ، ثم أصابني البرد حين فرغت وقررت، فأخبرت رسول الله ﷺ وألبسني من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها فلم أزل نائماً حتى الصبح، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ: «قم يا نومان»[1].

وأخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة قال: ذكر حذيفة رضي الله عنه مشاهدهم مع رسول الله ﷺ، فقال جلساؤه: أما والله لو شهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا، فقال حذيفة: لا تمنوا ذلك لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعوداً وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة لليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا قط أشد ظلمة ولا أشد ريحاً في أصوات ريحها أمثال الصواعق وهي ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون: إن بيوتنا عورة وما هي بعورة، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، ويأذن لهم فيتسللون ونحن ثلثمائة أو نحو ذلك إذا استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً، حتى أتى علي وما عليّ جنة من العدو ولا من البرد إلا مرط لامرأتي ما يجاوز ركبتي، قال فأتاني ﷺ، وأنا جاث على ركبتي فقال: «من هذا؟» فقلت: حذيفة، قال: «حذيفة؟» فتقاصرت الأرض فقلت: بلى يا رسول الله كراهية أن أقوم فقمت، فقال: «إنه كائن في القوم خبر فأتني بخبر القوم» قال: وأنا من أشد الناس فزعاً وأشدهم قراً قال: فخرجت فقال رسول الله ﷺ: «اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته»، قال: فوالله ما خلق الله تعالى فزعاً ولا قراً في جوفي إلا خرج من جوفي، فما أجد فيه شيئاً، قال: فلما وليت قال ﷺ: «يا حذيفة لا تحدثن في القوم شيئاً حتى تأتيني» قال: فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم توقد، فإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار ويمسح خاصرته ويقول: الرحيل الرحيل ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك، فانتزعت سهماً من كنانتي أبيض الريش، فأضعه في كبد قوسي لأرميه به في ضوء النار، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «لا تحدثن فيهم شيئاً حتى تأتيني»، قال: فأمسكت ورددت سهمي إلى كنانتي ثم إني شجعت نفسي حتى دخلت المعسكر، فإذا أدنى الناس مني بنو عامر يقولون: يا آل عامر الرحيل الرحيل لا مقام لكم، وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبراً، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم الريح تضربهم بها، ثم خرجت نحو النبي ﷺ، فلما انتصفت في الطريق أو نحواً من ذلك، إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك معتمين فقالوا: أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم، فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو مشتمل في شملة يصلي فوالله ما عدا أن رجعت راجعني القر وجعلت أقرقف، فأومأ إلي رسول الله ﷺ بيده وهو يصلي، فدنوت منه، فأسبل علي شملة، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. فأخبرته خبر القوم وأخبرته أني تركتهم يرتحلون، وأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً﴾[١] ولأبي داود : وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى[٢] ؛ وقوله تعالى: ﴿إذ جاءوكم من فوقكم﴾ أي الأحزاب ﴿ومن أسفل منكم﴾ تقدم عن حذيفة رضي الله عنه أنهم بنو قريظة، ﴿وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر﴾ أي من شدة الخوف والفزع، ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين، وقال محمد بن إسحاق: ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق، حتى قال (معتب بن قشير): كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط، وقال الحسن في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ ظنون مختلفة ظن المنافقون أن محمداً ﷺ وأصحابه يستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال، قلنا يوم الخندق: يا رسول الله هل من شيء نقول، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال ﷺ: «نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا» قال: فضرب وجوه أعدائه بالريح، فهزمهم بالريح[٣]

هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال حين نزلت الأحزاب حول المدينة، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، أنهم ابتلوا واختبروا وزلزلوا زلزالاً شديداً، فحينئذ ظهر النفاق وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم، ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾، أما المنافق فنجم نفاقه، والذي في قلبه شبهة تنفس بما يجده من الوسواس في نفسه، لضعف إيمانه وشدة ما هو فيه من ضيق الحال، قال الله تعالى: ﴿وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب﴾ يعني المدينة كما جاء في الصحيح: «أريت في المنام دار هجرتكم أرض بين حرتين فذهب وَهْلي[٤] أنها هجر فإذا هي يثرب» وفي لفظ المدينة، وقوله: ﴿لا مقام لكم﴾ أي ههنا يعنون عند النبي ﷺ في مقام المرابطة، ﴿فارجعوا﴾ أي إلى بيوتكم ومنازلكم ﴿ويستأذن فريق منهم النبي﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم بنو حارثة، قالوا: بيوتنا نخاف عليها السراق، يعني اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة، أي ليس دونها ما يحجبها من العدو، فهم يخشون عليها منهم، قال الله تعالى: ﴿وما هي بعورة﴾ أي ليست كما يزعمون ﴿إن يريدون إلا فراراً﴾ أي هرباً من الزحف.

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ

(١) أخرجه الحاكم والبيهقي في دلائل النبوة.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه الإمام أحمد بمثله.

(٤) وَهْلي : أي ظني.

مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً﴾ أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة وقطر من أقطارها، ثم سئلوا الفتنة وهي الدخول في الكفر لكفروا سريعاً، وهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع[1]، وهذا ذم لهم في غاية الذم، ثم قال تعالى يذكرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف أن لا يولوا الأدبار ولا يفروا من الزحف: ﴿وكان عهد الله مسئولاً﴾ أي وإن الله سيسألهم عن ذلك العهد لا بد من ذلك، ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ولا يطول أعمارهم، بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وإذاً لا تمتعون إلا قليلاً﴾ أي بعد هربكم وفراركم، ثم قال تعالى: ﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله﴾ أي يمنعكم، ﴿إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ أي ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث.

* قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم من شهود الحرب، والقائلين لإخوانهم أي أصحابهم وعشرائهم وخلطائهم ﴿هلم إلينا﴾ أي إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والثمار وهم مع ذلك ﴿لا يأتون البأس إلا قليلاً * أشحة عليكم﴾ أي بخلاء بالمودة والشفقة عليكم، وقال السدي ﴿أشحة عليكم﴾ أي في الغنائم، ﴿فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت﴾ أي من شدة خوفه وجزعه، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال ﴿فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد﴾ أي فإذا كان الأمن تكلموا كلاماً فصيحاً عالياً، وادعوا لأنفسهم الشجاعة والنجدة، وهم يكذبون في ذلك، قال ابن عباس: ﴿سلقوكم﴾ أي استقبلوكم، وقال قتادة: أما عند الغنيمة فأشح قوم وأسوأه مقاسمة أعطونا أعطونا، قد شهدنا معكم، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق، وهم مع ذلك ﴿أشحة على الخير﴾ أي ليس فيهم خير قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير، فهم كما قال في أمثالهم الشاعر

أفي السلم أعيار[1] جفاء وغلظة وفي الحرب أمثال النساء العوارك؟

---

(١) هكذا فسرها قتادة وعبد الرحمن بن زيد وابن جرير. (١) الأعيار: جمع عير وهو الحمار.

أي في حال المسالمة كأنهم الحمر، وفي الحرب كأنهم النساء الحيض، ولهذا قال تعالى: ﴿ أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي سهلاً هيناً عنده .

يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

وهذا أيضاً من صفاتهم القبيحة في الجبن والخور والخوف، ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا﴾ بل هم قريب منهم وإن لهم عودة إليهم، ﴿ وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم﴾ أي ويودون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة، بل في البادية يسألون عن أخباركم وما كان من أمركم مع عدوكم، ﴿ ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً﴾ أي ولو كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم إلا قليلاً، لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم والله سبحانه وتعالى العالم بهم .

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ، في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته، ولهذا قال تعالى للذين تضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ أي هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿ لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين، المصدقين بموعود الله لهم، وجعله العاقبة لهم في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله﴾ قال ابن عباس: يعنون قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب﴾ أي هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب، ولهذا قال تعالى: ﴿ وصدق الله ورسوله﴾، وقوله تعالى: ﴿ وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾ دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم، ومعنى قوله جلت عظمته: ﴿ وما زادهم﴾ أي ذلك الحال والضيق والشدة ﴿ إلا إيماناً﴾ بالله، ﴿ وتسليماً﴾ أي انقياداً لأوامره وطاعة لرسوله ﷺ .

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾

لما ذكر عز وجل عن المنافقين أنهم نقضوا العهد، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق، و ﴿ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه﴾ قال بعضهم: أجله، وقال البخاري: عهده، وهو يرجع إلى الأول

﴿ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾ أي وما غيروا عهد الله ولا نقضوه ولا بدلوه. روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نرى هذه الآيات نزلت في أنس بن النضر رضي الله عنه ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ الآية، وروى الإمام أحمد عن ثابت قال: قال أنس عمي (أنس بن النضر) رضي الله عنه، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر فشق عليه، وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، لئن أراني الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله عزَّ وجلَّ ما أصنع، قال: فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أُحد، فاستقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه، فقال له أنس رضي الله عنه: يا أبا عمرو أين، واهاً لريح الجنة إني أجده دون أحد، قال: فقاتلهم حتى قتل رضي الله عنه، قال: فوجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته عمتي الربيع ابنة النضر: فما عرفت أخي إلا ببنانه، قال: فنزلت هذه الآية ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾ قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه رضي الله عنهم[1]. وعن طلحة رضي الله عنه قال: لما رجع رسول الله ﷺ من أحد صعد المنبر، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وعزّى المسلمين بما أصابهم، وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر، ثم قرأ هذه الآية: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه﴾ الآية كلها، فقام إليه رجل من المسلمين فقال: يا رسول الله من هؤلاء؟ فأقبلتُ وعليَّ ثوبان أخضران حضرميان فقال: «أيها السائل هذا منهم»[2].

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿فمنهم من قضى نحبه﴾ يعني عهده ﴿ومنهم من ينتظر﴾ يوماً فيه القتال فيصدق في اللقاء، وقال الحسن: ﴿فمنهم من قضى نحبه﴾ يعني موته على الصدق والوفاء، ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك، ومنهم من لم يبدل تبديلاً، وقال بعضهم: نحبه نذره، وقوله تعالى: ﴿وما بدلوا تبديلاً﴾ أي وما غيروا عهدهم وبدلوا الوفاء بالغدر، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه وما نقضوه كفعل المنافقين الذين ﴿عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار﴾، وقوله تعالى: ﴿ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم﴾ أي إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال، ليميز الخبيث من الطيب، فيظهر أمر هذا بالفعل وأمر هذا بالفعل، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم، حتى يعملوا بما يعلمه منهم، كما قال تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾، فهذا علم بالشيء بعد كونه وإن كان العلم السابق حاصلاً به قبل وجوده، وكذا قال الله تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿ليجزي الله الصادقين بصدقهم﴾ أي بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه، وقيامهم به ومحافظتهم عليه ﴿ويعذب المنافقين﴾ وهم الناقضون لعهد الله المخالفون لأوامره، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه، ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى بخلقه هي الغالبة لغضبه قال: ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾.

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم والترمذي والنسائي عن أنس رضي الله عنه بنحوه.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه ابن جرير عن موسى بن طلحة.

۞ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلّهية، ولولا أن الله جعل رسوله رحمة للعالمين لكانت هذه الريح عليهم أشد من الريح العقيم التي أرسلها على عاد، ولكن قال تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ فسلط عليهم هواء فرّق شملهم، وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحنقهم ﴿لم ينالوا خيراً﴾ لا في الدنيا من الظفر والمغنم، ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول ﷺ بالعداوة وهمهم بقتله، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾ أي لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم؛ بل كفى الله وحده ونصر عبده وأعز جنده، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «لا إلّه إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده فلا شيء بعده»[1]، وفي الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم». وفي قوله عزّ وجلّ: ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾، إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش، وهكذا وقع بعدها لم يغزهم المشركون بل غزاهم المسلمون في بلادهم، قال محمد بن إسحاق: لما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ فيما بلغنا: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم»، فلم تغز قريش بعد ذلك، وكان رسول الله ﷺ هو يغزوهم بعد ذلك حتى فتح الله تعالى مكة، وقوله تعالى: ﴿وكان الله قوياً عزيزاً﴾ أي بحوله وقوته ردّهم خائبين لم ينالوا خيراً، وأعز الله الإسلام وأهله، فله الحمد والمنة.

وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

قد تقدم أن (بني قريظة) لما قدمت الأحزاب، ونزلوا على المدينة نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد، وكان ذلك بسفارة (حيي بن أخطب) لعنه الله دخل حصنهم، ولم يزل بسيدهم (كعب بن أسد) حتى نقض العهد، وقال له فيما قال: ويحك قد جئتك بعز الدهر، أتيتك بقريش وأحابيشها، وغطفان وأتباعها، ولا يزالون ههنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه، فقال له كعب: بل والله أتيتني بذل الدهر، فلم يزل يفتل في الذروة والغارب، حتى أجابه، فلما نقضت قريظة وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ساءه وشق عليه وعلى المسلمين جداً، فلما أيده الله تعالى ونصره، وكبت الأعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً، ووضع الناس السلاح، فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعثاء تلك المرابطة، في بيت أم سلمة رضي الله عنها، إذ تبدى له جبريل عليه الصلاة والسلام متعجراً بعمامة من إستبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج، فقال: أوضعت السلاح يا رسول الله؟ قال ﷺ: «نعم»، قال: لكن الملائكة لم تضع أسلحتها، وهذا الآن رجوعي من طلب القوم، ثم قال: إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة، فنهض رسول الله ﷺ

(١) أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي هريرة.

من فوره، وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة وكانت على أميال من المدينة وذلك بعد صلاة الظهر، وقال ﷺ: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة»، فسار الناس فأدركتهم الصلاة في الطريق، فصلى بعضهم في الطريق، وقالوا: لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل المسير، وقال آخرون: لا نصليها إلا في بني قريظة، فلم يعنف واحداً من الفريقين، وتبعهم رسول الله ﷺ،

وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم (سعد بن معاذ) سيد الأوس رضي الله عنه، لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطئوا له عليه جعل الأوس يلوذون به ويقولون: يا سعد إنهم مواليك فأحسن فيهم، ويرققونه عليهم ويعطفونه، وهو ساكت لا يرد عليهم، فلما أكثروا عليه قال رضي الله عنه: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فعرفوا أنه غير مستبقيهم، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم» فقام إليه المسلمون، فأنزلوه إعظاماً وإكراماً واحتراماً له في محل ولايته ليكون أنفذ لحكمه فيهم، فلما جلس قال له رسول الله ﷺ: «إن هؤلاء - وأشار إليهم - قد نزلوا على حكمك فاحكم فيهم بما شئت» فقال رضي الله عنه: وحكمي نافذ عليهم؟ قال ﷺ: «نعم»، قال: وعلى من في هذه الخيمة؟ قال: «نعم»، قال: وعلى من ههنا، وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «نعم»، فقال رضي الله عنه: إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذريتهم وأموالهم، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة»، ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد، فخدت في الأرض وجيء بهم مكتفين، فضرب أعناقهم، وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة، وسبي من لم ينبت منهم مع النساء وأموالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وأنزل الذين ظاهروهم﴾ أي عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿من أهل الكتاب﴾ يعني بني قريظة من اليهود من بعض أسباط بني إسرائيل، كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديماً طمعاً في اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ فعليهم لعنة الله، وقوله تعالى: ﴿من صياصيهم﴾ يعني حصونهم[1]، ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾ وهو الخوف لأنهم كانوا مالأوا المشركين على حرب النبي ﷺ، وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم فانعكس عليهم الحال، ولهذا قال تعالى: ﴿فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً﴾ فالذين قتلوا هم المقاتلة، والأسراء هم الصغار والنساء، ﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم﴾ أي جعلها لكم من قتلكم لهم ﴿وأرضاً لم تطؤوها﴾ قيل: خيبر، وقيل: مكة، وقيل: فارس والروم، قال ابن جرير: يجوز أن يكون الجميع مراداً ﴿وكان الله على كل شيء قديراً﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

(١) وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة والسدي وغير واحد من السلف.

هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسول الله ﷺ، بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره، ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن، الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخيِّر أزواجه، قالت: فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال: «إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك - وقد علم أن أبويَّ لم يكونا يأمراني بفراقه - قالت: ثم قال: «إن الله تعالى قال: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك﴾ » إلى تمام الآيتين، فقلت له: في أي هذا استأمر أبويّ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة[1]. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قالت عائشة رضي الله عنها: أنزلت آية التخيير فبدأ بي أول امرأة من نسائه، فقال ﷺ: «إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك» قالت وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه قالت ثم قال: «إن الله تبارك وتعالى قال: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك﴾ الآيتين، قالت عائشة رضي الله عنها فقلت أفي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. ثم خير نساءه كلهن، فقلن مثل ما قالت عائشة رضي الله عنهن[2].

وروى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال: أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن رسول الله ﷺ، والناس ببابه جلوس، والنبي ﷺ جالس فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر رضي الله عنه، فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه، وهو ﷺ ساكت، فقال عمر رضي الله عنه: لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتني النفقة آنفاً فوجأت عنقها، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال: «هن حولي يسألنني النفقة»، فقام أبو بكر رضي الله عنه إلى عائشة ليضربها، وقام عمر رضي الله عنه إلى حفصة كلاهما يقولان: تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده، فنهاهم رسول الله ﷺ فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده، قال: وأنزل الله عزَّ وجلَّ الخيار، فبدأ بعائشة رضي الله عنها فقال: «إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك» قالت وما هو؟ قال فتلا عليها: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك﴾ الآية. قالت عائشة رضي الله عنها أفيك أستأمر أبوي؟ بل أختار الله تعالى ورسوله، وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت، فقال ﷺ: «إن الله تعالى لم يبعثني معنفاً ولكن بعثني معلماً ميسراً، لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها»[3]، قوله تعالى: ﴿فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً﴾ أي أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن، قال عكرمة: وكان تحته يومئذ تسع نسوة، خمس من قريش (عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة) رضي الله عنهن، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حيي النضيرية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية رضي الله عنهن وأرضاهن أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري وفي بعض رواياته عن عائشة قالت: ثم فعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه البخاري ومسلم عن الزهري عن عائشة بمثله.

(٣) أخرجه مسلم والإمام أحمد.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى واعظاً نساء النبي ﷺ، اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، بأن من يأت منهن ﴿بفاحشة مبينة﴾ قال ابن عباس: هي النشوز وسوء الخلق، وهذا شرط والشرط لا يقتضي الوقوع، كقوله تعالى: ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾، وكقوله ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾، فلما كانت منزلتهن رفيعة ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظاً، ولهذا قال تعالى: ﴿من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ يعني في الدنيا والآخرة[1]، ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي سهلاً هيناً؛ ثم ذكر عدله وفضله في قوله: ﴿ومن يقنت منكن لله ورسوله﴾ أي تطع الله ورسوله وتستجب ﴿نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾ أي في الجنة، فإنهن في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين، فوق منازل جميع الخلائق، في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ[2]، بأنهن إذا اتقين الله عزَّ وجلَّ كما أمرهن، فإنه لا يشبههن أحد من النساء ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة، ثم قال تعالى: ﴿فلا تخضعن بالقول﴾ قال السدي: يعني بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال، ولهذا قال تعالى: ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ أي دغل، ﴿وقلن قولاً معروفاً﴾ قال ابن زيد: قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير، ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها، وقوله تعالى: ﴿وقرن في بيوتكن﴾ أي إلزمن بيوتكن، فلا تخرجن لغير حاجة، ومن الحوائج الشرعية، الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجن وهنّ تَفِلات»[3]، وفي رواية: «وبيوتهن خير لهن» وروى الحافظ البزار عن أنس رضي الله عنه قال: جئن النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن: يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله تعالى، فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى؟ فقال رسول الله ﷺ: «من قعدت - أو كلمة نحوها - منكن في بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى»، وعن النبي ﷺ قال: «إن المرأة عورة

---

(١) قاله زيد بن أسلم ومجاهد.

(٢) ونساء الأمة تبع لهن في ذلك.

(٣) تَفِلات: أي غير متطيبات.

فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون بروحة ربها وهي في قعر بيتها »[1] ، وفي الحديث: « صلاة المرأة في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها »[2] ، وقوله تعالى: ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال فذلك تبرج الجاهلية، وقال قتادة: كانت لهن مشية وتكسر وتغنج فنهى الله تعالى عن ذلك، وقال مقاتل: التبرج أنها تلقي الخمار على رأسها ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعنقها ويبدو ذلك كله منها وذلك التبرج، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج .

وقوله تعالى: ﴿وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله﴾ نهاهن أولاً عن الشر ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة وهي عبادة الله وحده، وإيتاء الزكاة وهي الإحسان إلى المخلوقين، ﴿وأطعن الله ورسوله﴾، وهذا من باب عطف العام على الخاص، وقوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ههنا، لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً، روى ابن جرير عن عكرمة أنه كان ينادي في السوق: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة، وليس المراد أنهن المراد فقط دون غيرهن، فقد روى ابن أبي حاتم عن العوام بن حوشب رضي الله عنه عن ابن عم له قال: دخلت مع أبي على عائشة رضي الله عنها فسألتها عن علي رضي الله عنه، فقالت رضي الله عنها: تسألني عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وكانت تحته ابنته وأحب الناس إليه؟ لقد رأيت رسول الله ﷺ دعا علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً رضي الله عنهم فألقى عليهم ثوباً فقال: « اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » قالت: فدنوت منهم فقلت يا رسول الله وأنا من أهل بيتك؟ فقال ﷺ: « تنحي فإنك على خير »[3] .

وروى مسلم في صحيحه عن يزيد بن حبان قال: انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن سلمة إلى (زيد ابن أرقم) رضي الله عنه، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً، رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخي والله لقد كبرت سني وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ، فما حدثتكم فاقبلوا وما لا، فلا تكلفوا فيه، ثم قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بماء يدعى خماً بين مكة والمدينة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: « أما بعد ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله عزَّ وجلَّ ورغب فيه، ثم قال: « وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي » فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل

---

(١) أخرجه الحافظ البزار والترمذي .

(٢) أخرجه الحافظ البزار عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً وإسناده جيد .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم .

عباس رضي الله عنهم، قال: كل هؤلاء حرم الصدقة بعده؟ قال: نعم[1]. والذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ فإن سياق الكلام معهن، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ أي واعملن بما ينزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ في بيوتكن من الكتاب والسنّة، واذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس، وعائشة الصديقة بنت الصديق رضي عنهما أولاهن بهذه النعمة، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها، كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه، فناسب أن تخصص بهذه المزية، وأن تفرد بهذه المرتبة العلية، ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته فقرابته أحق بهذه التسمية كما تقدم في الحديث: «وأهل بيتي أحق»، وهذا يشبه ما ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم فقال: «هو مسجدي هذا»، فهذا من هذا القبيل، فإن الآية إنما نزلت في مسجد قباء، كما ورد في الأحاديث الأخر، ولكن إذا كان ذاك أُسس على التقوى من أول يوم فمسجد رسول الله ﷺ أولى بتسميته بذلك والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾ أي بلطفه بكن بلغتن هذه المنزلة، وبخبرته أعطاكن ذلك وخصكن بذلك، قال ابن جرير: واذكروا نعمة الله عليكن بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله تعالى على ذلك واحمدنه ﴿إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾ أي ذا لطف بكن إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والحكمة وهي (السنّة) خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجاً.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾

عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ يا نبي الله: ما لي أسمع الرجال يذكرون في القرآن، والنساء لا يذكرن؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات﴾[2]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال النساء للنبي ﷺ: ما له يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ الآية[3]. وقوله تعالى: ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام وهو أخص منه لقوله تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ وفي الصحيحين: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» فيسلبه الإيمان ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين، فدل على أنه أخص منه. وقوله تعالى: ﴿والقانتين والقانتات﴾ القنوت هو الطاعة في سكون، قال تعالى: ﴿أمن هو قانت آناء

(١) رواه مسلم في صحيحه.
(٢) رواه النسائي في سننه عن أم سلمة رضي الله عنها.
(٣) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الليل ساجداً وقائماً﴾، وقال تعالى: ﴿ كل له قانتون﴾ فالإسلام بعده مرتبة يرتقي إليها وهو ﴿ الإيمان﴾ ثم القنوت ناشيء عنهما ﴿والصادقين والصادقات﴾ هذا في الأقوال فإن الصدق خصلة محمودة، وهو علامة على الإيمان كما أن الكذب أمارة على النفاق؛ ومن صدق نجا، « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر » الحديث. ﴿ والصابرين والصابرات﴾ هذه سجية الأثبات، وهي الصبر على المصائب، والعلم بأن المقدر كائن لا محالة، وتلقي ذلك بالصبر والثبات وإنما الصبر عند الصدمة الأولى، أي أصعبه في أول وهلة ثم ما بعده أسهل منه وهو صدق السجية وثباتها ﴿ والخاشعين والخاشعين﴾ الخشوع هو السكون والطمأنينة والتؤدة والوقار والتواضع، والحامل عليه الخوف من الله تعالى ومراقبته كما في الحديث: « اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ﴿والمتصدقين والمتصدقات﴾ الصدقة هي الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء الذين لا كسب لهم، وقد ثبت في الصحيحين: « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله – فذكر منهم – ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ». وفي الحديث الآخر: « والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار » والأحاديث في الحث عليها كثيرة جداً .

﴿ والصائمين والصائمات﴾ والصوم زكاة البدن، يزكيه ويطهره وينقيه من الأخلاط الرديئة، كما قال سعيد ابن جبير: من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر دخل في قوله تعالى: ﴿والصائمين والصائمات﴾ ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة، كما قال رسول الله ﷺ: « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » ناسب أن يذكر بعده ﴿ والحافظين فروجهم والحافظات﴾ أي عن المحارم والمآثم إلا عن المباح، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾، وقوله تعالى: ﴿والذاكرين الله كثيراً والذاكرات﴾، روى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: « إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات »[1]. وفي الحديث: « ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من تعاطي الذهب والفضة، ومن أن تلقوا عدوكم غداً فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ » قالوا: بلى يا رسول الله، قال ﷺ: « ذكر الله عزَّ وجلَّ »[2]، وروي ان رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: أي المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله؟ قال ﷺ: « أكثرهم لله تعالى ذكراً »، قال: فأي الصائمين أكثر أجراً؟ قال ﷺ: « أكثرهم لله عزَّ وجلَّ ذكراً » ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة، كل ذلك يقول رسول الله ﷺ: « أكثرهم لله ذكراً » فقال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما: ذهب الذاكرون بكل خير، فقال رسول الله ﷺ: « أجل »[3]. وقوله تعالى: ﴿ أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾ خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم، أي أن الله تعالى قد أعد لهم أي هيأ لهم ﴿ مغفرة﴾ منه لذنوبهم و ﴿ أجراً عظيماً﴾ وهو الجنة .

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه بمثله .

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن معاذ بن جبل مرفوعاً .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خطب رسول الله ﷺ (زينب بنت جحش) لزيد بن حارثة رضي الله عنه، فاستنكفت منه، وقالت: أنا خير منه حسباً، وكانت امرأة فيها حدة، فأنزل الله تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة﴾ الآية كلها[1]، وقال عبد الرحمن بن أسلم: نزلت في (أم كلثوم) بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها، وكانت أول من هاجر من النساء يعني بعد صلح الحديبية فوهبت نفسها للنبي ﷺ فقال: قد قبلت، فزوجها زيد بن حارثة رضي الله عنه يعني - والله أعلم - بعد فراقه زينب، فسخطت هي وأخوها، وقالا: إنما أردنا رسول الله ﷺ، فزوجنا عبده، قال، فنزل القرآن: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً﴾ إلى آخر الآية، وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال: خطب النبي ﷺ على (جليبيب) امرأة من الأنصار إلى أبيها فقال: حتى أستأمر أمها، فقال ﷺ: « نعم إذاً » قال، فانطلق الرجل إلى امرأته، فذكر لها، فقالت: لاها الله إذن ما وجد رسول الله ﷺ إلا جليبيباً، وقد منعناها من فلان وفلان، قال: والجارية في سترها تسمع، قال فانطلق الرجل يريد أن يخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقالت الجارية: أتريدون أن تردوا على رسول الله ﷺ أمره، إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه، قال: فكأنها جلت عن أبويها، وقالا: صدقت، فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: إن كنت رضيته فقد رضيناه، قال ﷺ: « فإني قد رضيته »، قال: فزوجها، ثم فزع أهل المدينة فركب جليبيب فوجدوه قد قتل، وحوله ناس من المشركين قد قتلهم، قال أنس رضي الله عنه: فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق بيت بالمدينة[2]. وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر في (الاستيعاب) أن الجارية لما قالت في خدرها: أتردون على رسول الله ﷺ أمره ؟ نزلت هذه الآية: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ وقال ابن جريج عن طاووس قال: إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد العصر، فنهاه وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ههنا ولا رأي ولا قول، كما قال تبارك وتعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾، وفي الحديث: « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »، ولهذا شدد في خلاف ذلك فقال: ﴿ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً﴾، كقوله تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾.

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ

(١) وهكذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل أنها نزلت في (زينب بنت جحش) حين خطبها رسول الله ﷺ لمولاه زيد بن حارثة.

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه.

فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه ﷺ، أنه قال لمولاه (زيد بن حارثة) رضي الله عنه، وهو الذي (أنعم الله عليه) أي بالإسلام ومتابعة الرسول ﷺ ﴿وأنعمت عليه﴾ أي بالعتق من الرق، وكان سيداً كبير الشأن جليل القدر، حبيباً إلى النبي ﷺ يقال له (الحب) ويقال لابنه أسامة (الحب ابن الحب) قالت عائشة رضي الله عنها: ما بعثه رسول الله ﷺ في سرية إلا أمّره عليهم، ولو عاش بعده لاستخلفه[1]، وكان رسول الله ﷺ قد زوّجه بابنة عمته (زينب بنت جحش) الأسدية رضي الله عنها، وأصدقها عشرة دنانير وستين درهماً وخماراً وملحفة ودرعاً؛ فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: « أمسك عليك زوجك واتق الله » قال الله تعالى: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾. روى ابن أبي حاتم عن علي بن زيد بن جدعان قال: سألني علي بن الحسين رضي الله عنهما ما يقول الحسن في قوله تعالى: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾، فذكرت له، فقال: لا، ولكن الله تعالى أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد رضي الله عنه ليشكوها إليه قال: « اتق الله وأمسك عليك زوجك » فقال: قد أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه .

وروى ابن جرير عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لو كتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحي إليه من كتاب الله تعالى لكتم ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾، وقوله تعالى: ﴿فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها﴾ الوطر: هو الحاجة والأرب، أي لما فرغ منها وفارقها زوجناكها، وكان الذي ولي تزويجها منه الله عزَّ وجلَّ، بمعنى أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر، عن أنس رضي الله عنه قال: لما انقضت عدة زينب رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: « اذهب فاذكرها عليَّ » فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجينها قال: فلما رأيتها عظمت في صدري، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول: إن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي، وقلت: يا زينب أبشري أرسلني رسول الله ﷺ بذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤمر ربي عزَّ وجلَّ، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ، فدخل عليها بغير إذن، ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله ﷺ وأطعمنا عليها الخبز واللحم، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته، فجعل ﷺ يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن: يا رسول الله كيف وجدت أهلك ؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر، فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه، فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب ووعظ القوم بما وعظوا به ﴿لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم﴾ الآية كلها[2]، وقد روى البخاري رحمه الله عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: « إن زينب بنت جحش رضي الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ، فتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات »[3] وقوله تعالى: ﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج

(١) أخرجه الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ورواه مسلم والنسائي بنحوه .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك .

أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً﴾ أي إنما أبحنا لك تزويجها وفعلنا ذلك لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنّى (زيد بن حارثة) رضي الله عنه، فكان يقال له (زيد بن محمد) فلما قطع الله تعالى هذه النسبة بقوله تعالى: ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾ زاد ذلك بياناً وتأكيداً بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها لما طلقها زيد بن حارثة، ولهذا قال تعالى في آية التحريم ﴿وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾ ليحترز من الابن الدعي، فإن ذلك كان كثيراً فيهم، وقوله تعالى: ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ أي وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحتمه، وهو كائن لا محالة، كانت زينب رضي الله عنها في علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له﴾ أي فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب رضي الله عنها التي طلقها دعيه زيد بن حارثة رضي الله عنه، وقوله تعالى: ﴿سنّة الله في الذين خلوا من قبل﴾ أي هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا رد من توهم من المنافقين نقصاً في تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذي كان قد تبناه، ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ أي وكان أمره الذي يقدره كائناً لا محالة، وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

يمدح تبارك وتعالى ﴿الذين يبلغون رسالات الله﴾ أي إلى خلقه ويؤدونها بأماناتها ﴿ويخشونه﴾ أي يخافونه ولا يخافون أحداً سواه، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله تعالى ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ أي وكفى الله ناصراً ومعيناً، وسيد الناس في هذا المقام، بل وفي كل مقام (محمد) رسول الله ﷺ، فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه رضي الله عنهم، بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره، وحضره وسفره، وسره وعلانيته، فرضي الله عنهم وأرضاهم، ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنورهم يقتدي المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون، قال رسول الله ﷺ: «لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه مقال ثم لا يقوله، فيقول الله: ما يمنعك أن تقول منه، فيقول رب خشيت الناس فيقول فأنا أحق أن يخشى»[1]. وقوله تعالى: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾ نهى أن يقال بعد هذا (زيد بن محمد) أي لم يكن أباه وإن كان قد تبناه، فإنه ﷺ لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم، فإنه ﷺ ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة رضي الله عنها فماتوا صغاراً، وولد له ﷺ إبراهيم من مارية القبطية، فمات أيضاً رضيعاً، وكان له ﷺ من خديجة أربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة رضي الله عنهم أجمعين، فمات في حياته ﷺ ثلاث، وتأخرت فاطمة

(١) أخرجه أحمد ورواه ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري.

رضي الله عنها حتى أصيبت به ﷺ ثم ماتت بعده لستة أشهر، وقوله تعالى: ﴿ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً﴾ فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأحرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة.

وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ. روى الإمام أحمد عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة؟ فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة»[1]. **حديث آخر**: روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي» قال فشق ذلك على الناس فقال: «ولكن المبشرات» قالوا: يا رسول الله وما المبشرات؟ قال: «رؤيا الرجل المسلم وهي جزء من أجزاء النبوة»[2]، **حديث آخر**: روى أبو داود الطيالسي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة، فأنا موضع اللبنة ختم بي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»[3]. **حديث آخر**: قال الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابتنى بيوتاً فأكملها وأحسنها وأجملها إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان ويقولون ألا وضعت ههنا لبنة فيتم بنيانك قال رسول الله ﷺ فكنت أنا اللبنة». **حديث آخر**: قال الإمام أحمد عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال، قال لي النبي ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته». **حديث آخر**: عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله تعالى به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي»[4]. فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد ﷺ إليهم، ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له، وقد أخبر تبارك وتعالى في كتابه العزيز أنه لا نبي بعده ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال، ضال مضل.

* يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بكثرة الذكر لربهم تبارك وتعالى، المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن، لما

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح.
(٢) أخرجه أحمد والترمذي.
(٣) أخرجه الطيالسي ورواه البخاري ومسلم والترمذي بنحوه. (٤) أخرجاه في الصحيحين عن طريق الزهري.

لهم في ذلك من جزيل الثواب، وجميل المآب، روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم»؟ قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال ﷺ: «ذكر الله عزَّ وجلَّ»[1]. وعن عبدالله بن بشر قال: جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال ﷺ: «من طال عمره وحسن عمله»، وقال الآخر: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا فرني بأمر أتشبث به، قال ﷺ: «لا يزال لسانك رطباً بذكر الله تعالى»[2]. وفي الحديث: «أكثروا ذكر الله تعالى حتى يقولوا مجنون»[3]، وقال رسول الله ﷺ: «ما من قوم جلسوا مجلساً لم يذكروا الله تعالى فيه إلا رأوه حسرة يوم القيامة»[4]، وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿اذكروا الله ذكراً كثيراً﴾ إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة، إلا جعل لها حداً معلوماً، ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر، فإن الله تعالى لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على تركه فقال: ﴿اذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾ بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته، والأحاديث والآيات والآثار في الحث على ذكر الله تعالى كثيرة جداً[5].

وقوله تعالى: ﴿وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ أي عند الصباح والمساء، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾، وقوله تعالى: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ هذا تهييج إلى الذكر، أي أنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾، وقال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه» والصلاة من الله تعالى: ثناؤه على العبد عند الملائكة، حكاه البخاري عن أبي العالية، وقال غيره: الصلاة من الله عزَّ وجلَّ: الرحمة، وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار، كقوله تبارك وتعالى: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم﴾، وقوله تعالى: ﴿ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ أي بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم ودعاء ملائكته لكم، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين، ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ أي في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإنه هداهم إلى الحق وبصّرهم الطريق، الذي ضل عنه الدعاة إلى الكفر أو البدعة، وأما رحمته بهم في الآخرة فآمنهم من الفزع الأكبر، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم. روى الإمام البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد وروى الترمذي وابن ماجه الفصل الأخير منه .

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً .

(٤) أخرجه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً .

(٥) صنف العلماء في الأذكار كتباً كثيرة ومن أحسنها كتاب (الأذكار) للإمام النووي .

عنه أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي، قد أخذت صبياً لها، فألصقته إلى صدرها وأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه تلقي ولدها في النار وهي تقدر على ذلك؟» قالوا: لا، قال رسول الله ﷺ: «فوالله، لله أرحم بعباده من هذه بولدها»، وقوله تعالى: ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾ أي تحيتهم من الله تعالى يوم يلقونه سلام، أي يوم يسلم عليهم، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ وقال قتادة: المراد أنهم يحيي بعضهم بعضاً بالسلام يوم يلقون الله في الدار الآخرة، واختاره ابن جرير. (**قلت**): وقد يستدل بقوله تعالى: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾، وقوله تعالى: ﴿وأعد لهم أجراً كريماً﴾ يعني الجنة وما فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح والملاذ والمناظر مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخَّاب[1] في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً[2]. وقال وهب بن منبه: إن الله تعالى أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له (شعياء) أن قم في قومك بني إسرائيل، فإني منطق لسانك بوحي، وأبعث أمياً من الأميين، أبعثه ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه من سكينته، ولو يمشي على القصب لم يسمع من تحت قدميه، أبعثه مبشراً ونذيراً، لا يقول الخنا، أفتح به أعيناً كمها وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً، أسدده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبرَّ شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة منطقه، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلال، وأعلِّم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأعرف به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين أمم متفرقة وقلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأستنقذ به فئاماً من الناس عظيمة من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، موحدين مؤمنين مخلصين، مصدقين لما جاءت به رسلي، ألهمهم التسبيح والتحميد، والثناء والتكبير والتوحيد، في مساجدهم ومجالسهم ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم، يصلون

(١) سخَّاب: أي كثير الصخب وهو الذي يرفع صوته في الأسواق.

(٢) أخرجه البخاري والإمام أحمد عن عطاء بن يسار.

لي قياماً وقعوداً، ويقاتلون في سبيل الله صفوفاً وزحوفاً، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتي ألوفاً، يطهرون الوجوه والأطراف، ويشدون الثياب في الأنصاف، قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم في صدورهم، رهبان بالليل، ليوث بالنهار، وأجعل في أهل بيته وذريته السابقين والصديقين، والشهداء الصالحين، أمته من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون، وأعز من نصرهم وأؤيد من دعا لهم، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم، أو بغى عليهم، أو أراد أن ينتزع شيئاً مما في أيديهم، أجعلهم ورثة لنبيهم، والداعية إلى ربهم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويوفون بعهدهم، أختم بهم الخير الذي بدأته بأولهم، ذلك فضلي أوتيه من أشاء، وأنا ذو الفضل العظيم[1].

وقال ابن عباس: لما نزلت ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ وقد كان أمر علياً ومعاذاً رضي الله عنهما أن يسيرا إلى اليمن، فقال: « انطلقا فبشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، إنه قد أنزل عليّ: ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾[2]». فقوله تعالى: ﴿ شاهداً ﴾ أي لله بالوحدانية، وأنه لا إلّه غيره وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة، ﴿ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾، كقوله: ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾، وقوله عزَّ وجلَّ ﴿ ومبشراً ونذيراً ﴾ أي بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب، ونذيراً للكافرين من وبيل العقاب، وقوله جلت عظمته ﴿ وداعياً إلى الله بإذنه ﴾ أي داعياً للخلق إلى عبادة ربهم، ﴿ وسراجاً منيراً ﴾ أي وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق كالشمس في إشراقها وإضاءتها لا يجحدها إلا معاند. وقوله جلَّ وعلا: ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم ﴾ أي لا تطعهم وتسمع منهم في الذي يقولونه، ﴿ ودع أذاهم ﴾ أي اصفح وتجاوز عنهم وكل أمرهم إلى الله تعالى، ولهذا قال جلَّ جلاله: ﴿ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾.

* يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾

هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة، منها إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها، لقوله تبارك وتعالى: ﴿ من قبل أن تمسوهن ﴾ وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها، وقوله تعالى: ﴿ المؤمنات ﴾ خرج مخرج الغالب، إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق، وقد استدل ابن عباس وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح، لأن الله تعالى قال: ﴿ إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن ﴾ فعقب النكاح بالطلاق، وهذا مذهب الشافعي وأحمد بن حنبل، وذهب مالك وأبو حنيفة إلى صحة الطلاق قبل النكاح، فيما إذا قال: إن تزوجت فلانة فهي طالق، فعندهما متى تزوجها طلقت منه، فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية، قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: إذا قال (كل امرأة أتزوجها فهي طالق) ليس بشيء، من أجل أن الله تعالى يقول: ﴿ يا أيها الذين

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه رحمه الله.

(٢) رواه ابن أبي حاتم والطبراني.

آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن﴾ ألا ترى أن الطلاق بعد النكاح؟ وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال، قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك»[1] وفي رواية: «لا طلاق قبل النكاح»[2]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾ هذا أمر مجمع عليه بين العلماء أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتتزوج في فورها من شاءت، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً. وقوله تعالى: ﴿فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً﴾ المتعة ههنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمى لها، قال الله تعالى: ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾. وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ تزوج (أميمة بنت شراحيل) فلما أن دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين زارقيين. قال علي بن أبي طلحة: إن كان سمى لها صداقاً فليس لها إلا النصف، وإن لم يكن سمى لها صداقاً أمتعها على قدر عسره ويسره وهو السراح الجميل.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى مخاطباً نبيه ﷺ، بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن وهي الأجور ههنا كما قاله مجاهد وغير واحد، وقد كان مهره لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونصف، فالجميع خمسمائة درهم إلا (أم حبيبة بنت أبي سفيان) فإنه أمهرها عنه النجاشي رحمه الله تعالى أربعمائة دينار، وإلا (صفية بنت حيي) فإنه اصطفاها من سبي خيبر، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها، وكذلك (جويرية بنت الحارث) المصطلقية أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها – رضي الله عنهن أجمعين – وقوله تعالى: ﴿وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك﴾ أي وأباح لك التسري مما أخذت من المغانم، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليهما السلام، وكانتا من السراري رضي الله عنهما. وقوله تعالى: ﴿وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك﴾ الآية، كان النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى، فأباح بنت العم والعمة، وبنت الخال والخالة، وحرم

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حديث حسن وهو أحسن شيء في هذا الباب.

(٢) أخرجه ابن ماجه عن المسور بن مخرمة.

ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت وهذا شنيع فظيع، روى ابن أبي حاتم عن أم هانيء قالت: خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعذرني، ثم أنزل الله تعالى: ﴿ إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك﴾ قالت: فلم أكن أحل له، ولم أكن ممن هاجر معه، كنت من الطلقاء، وقال قتادة: المراد من هاجر معه إلى المدينة، وفي رواية عنه ﴿ اللاتي هاجرن معك﴾ أي أسلمن، وقوله تعالى: ﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك﴾ أي ويحل لك أيها النبي المرأة المؤمنة، إن وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك، عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله إني قد وهبت نفسي لك، فقامت قياماً طويلاً، فقام رجل فقال: يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة، فقال رسول الله ﷺ: « هل عندك من شيء تصدقها إياه؟ » فقال: ما عندي إلا إزاري هذا، فقال رسول الله ﷺ: « إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك فالتمس شيئاً » فقال: لا أجد شيئاً، فقال: « التمس ولو خاتماً من حديد » فالتمس فلم يجد شيئاً، فقال له النبي ﷺ: « هل معك من القرآن شيء؟ » قال: نعم سورة كذا وسورة كذا - السور يسميها - فقال له النبي ﷺ: « زوجتكها بما معك من القرآن »[1] .

وعن ثابت قال: كنت مع أنس جالساً وعنده ابنة له، فقال أنس: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله هل لك فيَّ حاجة؟ فقالت ابنته: ما كان أقل حياءها فقال: « هي خير منك، رغبت في النبي فعرضت عليه نفسها »[2] . وقال ابن أبي حاتم عن عائشة قالت: التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت الحكيم، وعن عروة كنا نتحدث أن خولة بنت الحكيم كانت وهبت نفسها لرسول الله ﷺ، وكانت امرأة صالحة، **والغرض** من هذا أن اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ كثير، كما روى البخاري عن عائشة قالت: كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله تعالى: ﴿ ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾ قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك. وقد قال ابن عباس: لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له، أي أنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له، وإن كان ذلك مباحاً له ومخصوصاً به لأنه مردود إلى مشيئته، كما قال الله تعالى: ﴿ إن أراد النبي أن يستنكحها﴾ أي إن اختار ذلك[3] . وقوله تعالى: ﴿ خالصة لك من دون المؤمنين﴾ قال عكرمة: أي لا تحل الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئاً، أي أنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل فإنه متى دخل بها وجب عليه لها مهر مثلها، ولهذا قال قتادة في قوله: ﴿ خالصة لك من دون المؤمنين﴾ يقول: ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر إلا للنبي ﷺ، وقوله تعالى: ﴿ قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد .

(٢) أخرجه البخاري والإمام أحمد .

(٣) أخرج ابن سعد: أن أم شريك غزية بنت جابر الدوسية عرضت نفسها على النبي ﷺ وكانت جميلة فقبلها، فقالت عائشة: ما في امرأة حين تهب نفسها لرجل خير، قالت أم شريك: فأنا تلك فسماها الله: مؤمنة، فقال ﴿ وامرأة مؤمنة ...﴾ الآية، فلما نزلت قالت عائشة: إن الله يسرع لك في هواك .

أيمانهم﴾ أي من حصرهم في أربع نسوة حرائر، وما شاءوا من الإماء، واشتراط الولي والمهر والشهود عليهم، وقد رخصنا لك في ذلك فلم نوجب عليك شيئاً منه[١] ﴿لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً﴾ .

* تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾

﴿ترجي﴾ أي تؤخر ﴿من تشاء منهن﴾ أي من الواهبات، ﴿وتؤوي إليك من تشاء﴾ أي من شئت رددتها، ومن رددتها فأنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك إن شئت عدت فيها فأويتها، ولهذا قال: ﴿ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾، قال الشعبي: كن نساءاً وهبن أنفسهن للنبي ﷺ فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن لم ينكحن بعده، منهن أم شريك، وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿ترجي من تشاء منهن﴾ الآية، أي من أزواجك لا حرج عليك أن تترك القسم لهن، فتقدم من شئت، وتؤخر من شئت، وتجامع من شئت، وتترك من شئت؛ ومع هذا كان النبي ﷺ يقسم لهن، ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجباً عليه ﷺ، واحتجوا بهذه الآية الكريمة، وروى البخاري عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في اليوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾ فقلت لها: ما كنت تقولين؟ فقالت: كنت أقول: إن كان ذلك إليَّ فإني لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحداً[٢] ، ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن﴾ أي إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم، فإن شئت قسمت وإن شئت لم تقسم، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت، ثم مع هذا أن تقسم لهن اختياراً منك، لا أنه على سبيل الوجوب، فرحن بذلك واستبشرن واعترفن بمنتك عليهن، في قسمتك وإنصافك لهن وعدلك فيهن، وقوله تعالى: ﴿والله يعلم ما في قلوبكم﴾ أي من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه، كما روي عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: «اللهم هذا فعلي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»[٣] ، زاد أبو داود: يعني القلب. ولهذا عقب ذلك بقوله تعالى: ﴿وكان الله عليماً﴾ أي بضمائر السرائر، ﴿حليماً﴾ أي يحلم ويغفر[٤]

لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾

---

(١) قاله مجاهد والحسن وقتادة وابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم﴾ .

(٢) اختار ابن جرير أن الآيـة عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده أنه مخير فيهن جميعاً وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي.

(٣) أخرجه أصحاب السنن الأربعة وإسناده صحيح ورجاله ثقات .

(٤) أخرج ابن سعد عن أبي رزين قال: همَّ رسول الله ﷺ أن يطلق نساءه، فلما رأين ذلك جعلنه في حل من أنفسهن، يؤثر من يشاء على من يشاء، فأنزل الله: ﴿إنا أحللنا لك أزواجك – إلى قوله – ترجي من تشاء﴾ ذكره السيوطي .

هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ على حسن صنيعهن، في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة، لما خيرهن رسول الله ﷺ كما تقدم، فلما اخترن رسول الله ﷺ كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن، وحرّم عليه أن يتزوج بغيرهن أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن، ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج في ذلك وأباح له التزوج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج، لتكون المنة لرسول الله ﷺ عليهن، روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء[1]. وروى ابن أبي حاتم عن أم سلمة أنها قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم، وذلك قول الله تعالى: ﴿ترجي من تشاء منهن﴾[2] فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة كآيتي عدة الوفاة في البقرة، الأولى ناسخة للتي بعدها والله أعلم. وقال آخرون: بل معنى الآية ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ أي من بعدما ذكرنا لك من صفة النساء، اللاتي أحللنا لك من نسائك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك، وبنات العم والعمات، والخال والخالات، والواهبة، وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك.

قال ابن جرير عن زياد عن رجل من الأنصار قال، قلت لأبي بن كعب: أرأيت لو أن أزواج النبي ﷺ توفين أما كان له أن يتزوج؟ فقال: وما يمنعه من ذلك؟ قال، قلت: قول الله تعالى: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ فقال: إنما أحل الله له ضرباً من النساء، فقال تعالى: ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك - إلى قوله تعالى - إن وهبت نفسها للنبي﴾ ثم قيل له: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾، وروى الترمذي عن ابن عباس قال نهي رسول الله ﷺ عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات بقوله تعالى: ﴿لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك﴾، فأحل الله فتياتكم المؤمنات، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي، وحرم كل ذات دين غير الإسلام، ثم قال: ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن - إلى قوله تعالى - خالصة لك من دون المؤمنين﴾ وحرم ما سوى ذلك من أصناف النساء[3]. وقال مجاهد: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ أي من بعد ما سمى لك، لا مسلمة ولا يهودية، ولا نصرانية، ولا كافرة، وقال عكرمة ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾: أي التي سمى الله، واختار ابن جرير رحمه الله أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء، وفي النساء اللواتي في عصمته وكن تسعاً، وهذا الذي قاله جيد ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف فإن كثيراً منهم روى عنه هذا وهذا ولا منافاة والله أعلم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

هذه آية الحجاب، وفيها أحكام وآداب شرعية، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنه قال: وافقت ربي عزَّ وجلَّ في ثلاث: قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله تعالى: ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾، وقلت: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهن فأنزل الله آية الحجاب، وقلت لأزواج النبي ﷺ، لمَّا تمالأن عليه في الغيرة ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾ فنزلت كذلك، وفي رواية لمسلم: ذكر أسارى بدر وهي قضيه رابعة. وفي البخاري عن أنس بن مالك قال، قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب، وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة في قول قتادة والواقدي وغيرهما، قال البخاري عن أنس بن مالك: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام، قام من قام، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقوا، فجئت، فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا﴾الآية[١] .

وروى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك قال: أعرس رسول الله ﷺ ببعض نسائه، فصنعت أم سليم حيساً ثم جعلته في تَوْر[٢]، فقالت: اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ وأقرئه مني السلام وأخبره أن هذا منا له قليل، - قال أنس: والناس يومئذ في جَهْد - فجئت به، فقلت: يا رسول الله بَعثتْ بهذا أم سليم إليك، وهي تقرئك السلام وتقول أخبره أن هذا منا له قليل، فنظر إليه ثم قال: «ضعه» فوضعه في ناحية البيت ثم قال: «اذهب فادع لي فلاناً وفلاناً» فسمى رجالاً كثيراً، وقال: «ومن لقيت من المسلمين»، فدعوت من قال لي ومن لقيت من المسلمين فجئت والبيت والصفة والحجرة ملأى من الناس، فقلت: يا أبا عثمان كم كانوا؟ فقال: كانوا زهاء ثلاثمائة، قال أنس: فقال لي رسول الله ﷺ: «جئْ به» فجئت به إليه فوضع يده عليه ودعا، وقال: «ما شاء الله» ثم قال: «ليتحلق عشرة عشرة وليسموا، وليأكل كل إنسان مما يليه» فجعلوا يسمون ويأكلون حتى أكلوا كلهم، فقال لي رسول الله ﷺ: «ارفعه» قال: فجئت فأخذت التور، فنظرت فيه فما أدري أهو حين وضعت أكثر أم حين أخذت، قال: وتخلف رجال يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ وزوج رسول الله ﷺ التي دخل

(١) رواه البخاري عن أنس بن مالك وأخرجه مسلم والنسائي بنحوه .

(٢) الحيس: طعام خليط من تمر وسمن وأَقِط. التور: وعاء صغير للشرب .

بها معهم مولية وجهها إلى الحائط فأطالوا الحديث، فشقوا على رسول الله ﷺ وكان أشد الناس حياء، ولو أعلموا كان ذلك عليهم عزيزاً، فقام رسول الله ﷺ على حجره وعلى نسائه، فلما رأوه قد جاء ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه ابتدروا الباب، فخرجوا، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر ودخل البيت وأنا في الحجرة فمكث رسول الله ﷺ في بيته يسيراً وأنزل الله عليه القرآن فخرج وهو يتلو هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي﴾ الآيات، قال أنس: فقرأهن عليَّ قبل الناس فأنا أحدث الناس بهن عهداً[1] .

فقوله تعالى: ﴿لا تدخلوا بيوت النبي﴾ حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام، حتى غار الله لهذه الأمة فأمرهم بذلك، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة، ثم استثنى من ذلك فقال تعالى: ﴿إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه﴾ أي غير متحينين نضجه واستواءه، أي لا ترقبوا الطعام إذا طبخ حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول، فإن هـذا مما يكرهه الله ويذمه؛ وهذا دليل على تحريم التطفيل وهو الذي تسميه العرب الضيفن[2] ، ثم قال تعالى: ﴿ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا﴾، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرساً كان أو غيره»[3] ، وفي الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ: «لو دعيت إلى ذراع لأجبت، ولو أهدي إليّ كراع لقبلت، فإذا فرغتم من الذي دعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل وانتشروا في الأرض»، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا مستأنسين لحديث﴾ أي كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث، ﴿إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم﴾ وقيل: المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به، ولكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك، من شدة حيائه عليه السلام، حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿والله لا يستحيي من الحق﴾ أي ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه، ثم قال تعالى: ﴿وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب﴾ أي وكما نهيتكم عن الدخول عليهن كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب. ﴿ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن﴾ أي هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب، وقوله تعالى: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً﴾ قال ابن عباس: نزلت في رجل همَّ أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ بعده، قال رجل لسفيان: أهي عائشة؟ قال: قد ذكروا ذلك، وقال السدي: إن الذي عزم على ذلك (طلحة بن عبيد الله) رضي الله عنه، حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك، ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده، لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين كما تقدم، وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك وشدد فيه وتوعد عليه بقوله: ﴿إن ذلكم كان عند الله عظيماً﴾، ثم قال تعالى: ﴿إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً﴾

---

(١) رواه ابن أبي حاتم واللفظ له وأخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي بنحوه .

(٢) صنّف الخطيب البغدادي كتاباً في ذم الطفيليين وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن عمر

أي مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم، فإن الله يعلمه فإنه لا تخفى عليه خافية ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾(١)

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾

لما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب، بيّن أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم كما استثناهم في سورة النور عند قوله تعالى: ﴿ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن﴾ الآية، وفيها زيادات على هذه، وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته ههنا، وقوله تعالى: ﴿ولا نسائهن﴾ يعني بذلك عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات، وقوله تعالى: ﴿وما ملكت أيمانهن﴾ يعني به أرقاءهن من الإناث كما تقدم التنبيه عليه، قال سعيد بن المسيب: إنما يعني به الإماء فقط، وقوله تعالى: ﴿واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾ أي واخشينه في الخلوة والعلانية، فإنه شهيد على كل شيء، لا تخفى عليه خافية، فراقبن الرقيب.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾

قال البخاري: قال أبو العالية: صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء، وقال ابن عباس: يصلون يبرّكون، وقال سفيان الثوري: صلاة الرب الرحمة، وصلاة الملائكة الاستغفار، والمقصود من هذه الآية، أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين (العلوي) و (السفلي) جميعاً، قال ابن عباس: أن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام: هل يصلي ربك؟ فناداه ربه عزَّ وجلَّ: يا موسى سألوك هل يصلي ربك فقل نعم، أنا أصلي وملائكتي على أنبيائي ورسلي، فأنزل الله عزَّ وجلَّ على نبيه ﷺ: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾(٢).
وقد أخبر سبحانه وتعالى بأنه يصلي على عباده المؤمنين في قوله تعالى: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم﴾ الآية، وفي الحديث: «إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف»، وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه، ونحن نذكر منها إن شاء الله ما تيسر، روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن كعب بن عجرة قال: قيل يا رسول الله أما السلام عليك

(١) نزلت الآية في طلحة بن عبيد الله، قال: أيحجبنا محمد عن بنات عمنا ويتزوج نساءنا، لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه بعده، فأنزل الله هذه الآية. أخرجه ابن أبي حاتم وأخرج جويبر عن ابن عباس: أن رجلاً أتى بعض أزواج الرسول فكلمها، وهو ابن عم لها، فكره الرسول ذلك، فقال الرجل: يمنعني من كلام ابنة عمي، لأتزوجنها من بعده فنزلت الآية، قال ابن عباس: فأعتق ذلك الرجل رقبة، وحمل على عشرة أبعرة في سبيل الله وحج ماشياً، توبة من كلمته.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس.

فقد عرفناه فكيف الصلاة؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد». وروى ابن أبي حاتم عن كعب بن عجرة قال: لما نزلت ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ قال: قلنا يا رسول الله قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»، ومعنى قولهم: أما السلام عليك فقد عرفناه هو الذي في التشهد وفيه: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. **حديث آخر**: وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال، قلنا: يا رسول الله هذا السلام عليك فكيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم». **حديث آخر**: قال مسلم عن أبي مسعود الأنصاري قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد ابن عبادة فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله فكيف نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم»[1]. ومن ههنا ذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجب على المصلي أن يصلي على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير، فإن تركه لم تصح صلاته، على أن الجمهور على خلافه وحكوا الإجماع على خلافه وللقول بوجوبه ظواهر الحديث، فلا إجماع في هذه المسألة لا قديماً ولا حديثاً، والله أعلم.

(فضائل الصلاة على النبي ﷺ)

روى أبو عيسى الترمذي عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاةً»[2]. **حديث آخر**: وروى الترمذي عن أبي بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «يا أيها الناس اذكروا الله اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه» قال أبي: قلت يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «ما شئت» قلت الربع، قال: «ما شئت فإن زدت فهو خير لك» قلت فالنصف قال: «ما شئت فإن زدت فهو خير لك» قلت: فالثلثين، قال: «ما شئت فإن زدت فهو خير لك» قلت أجعل لك صلاتي كلها، قال: «إذن تُكفى همك ويغفر لك ذنبك». **طريق أخرى**: روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن عوف قال: قام رسول الله ﷺ فتوجه نحو صدقته فدخل فاستقبل القبلة فخر ساجداً فأطال السجود حتى ظننت أن الله قد قبض نفسه فيها فدنوت منه ثم جلست فرفع رأسه فقال: «من هذا» قلت: عبد الرحمن، قال: «ما شأنك؟» قلت: يا رسول الله سجدت سجدة خشيت أن يكون الله قبض روحك فيها، فقال: «إن جبريل أتاني فبشرني أن الله عزَّ وجلَّ يقول لك من

(١) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

(٢) تفرد بروايته الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

صلى عليك صليت عليه ومن سلم عليك سلمت فسجدت لله عزَّ وجلَّ شكراً ». **حديث آخر** : قال الإمام أحمد عن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه: أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يرى في وجهه، فقالوا يا رسول الله إنا لنرى السرور في وجهك، فقال: « إنه أتاني الملك فقال: يا محمد أما يرضيك أن ربك عزَّ وجلَّ يقول: إنه لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً قلت: بلى »[1]. **حديث آخر** : روى مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : « من صلى عليَّ واحدة صلى الله عليه بها عشراً ». **حديث آخر** : قال الإمام أحمد عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: من صلى على رسول الله ﷺ صلاة صلى الله عليه وملائكته لها سبعين صلاة، فليقلَّ عبد من ذلك أو ليكثر، وسمعت عبد الله بن عمرو يقول: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودع، فقال: « أنا محمد النبي الأمي - قاله ثلاث مرات - ولا نبي بعدي، أوتيت فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه، وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش، وتجوز بي عوفيت وعوفيت أمتي، فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم، فإذا ذهب بي فعليكم بكتاب الله أحلوا حلاله وحرموا حرامه ». **حديث آخر** : قال الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : « من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات وحط عنه عشر خطيئات ». **حديث آخر** : قال الإمام أحمد عن علي بن الحسين عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: « البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصل عليَّ ». **حديث آخر** : قال إسماعيل القاضي عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « إن أبخل الناس من ذكرت عنده فلم يصل عليّ »، وروي عن الحسن البصري أن رسول الله ﷺ قال: « بحسب امرىء من البخل أن أذكر عنده فلا يصليّ عليّ ».

حديث آخر : قال الترمذي عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ : « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليَّ، ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة »[2]. وهذا الحديث والذي قبله دليل على وجوب الصلاة على النبي ﷺ كلما ذكر، وهو مذهب طائفة من العلماء منهم الطحاوي والحليمي؛ وذهب آخرون إلى أنه تجب الصلاة عليه في المجلس مرة واحدة، ثم لا تجب في بقية ذلك المجلس، بل تستحب، ويتأيد بالحديث الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم تِرَةً[3] يوم القيامة، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم »، وحكي عن بعضهم: أنه إنما تجب الصلاة عليه - عليه الصلاة والسلام - في العمر مرة واحدة امتثالاً لأمر الآية، ثم هي مستحبة في كل حال، وهذا هو الذي نصره القاضي عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ في الجملة.

فصل

وأما الصلاة على غير الأنبياء، فإن كانت على سبيل التبعية كما تقدم في الحديث : اللهم صل على

---

(١) أخرجه أحمد ورواه النسائي بنحوه.

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب ورواه البخاري بنحوه.

(٣) ترة : مكروهاً وحسرة عليهم.

محمد وآله وأزواجه وذريته، فهذا جائز بالإجماع، وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم، فقال قائلون: يجوز ذلك، واحتجوا بقول الله تعالى: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾، وبقوله: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾، وبقوله: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم﴾ الآية. وبحديث عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «اللهم صلِّ عليهم» فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى»[1]، **وقال الجمهور من العلماء**: لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة، لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا، فلا يلحق بهم غيرهم، فلا يقال: قال أبو بكر صلى الله عليه، أو قال علي صلى الله عليه، وإن كان المعنى صحيحاً، كما لا يقال: قال محمد عزَّ وجلَّ، وإن كان عزيزاً جليلاً، لأن هذا من شعار ذكر الله عزَّ وجلَّ، وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنّة على الدعاء لهم، ولهذا لم يثبت شعاراً لآل أبي أوفى ولا لجابر وامرأته، وهذا مسلك حسن. وأما السلام، فقال الجويني من أصحابنا: هو في معنى الصلاة فلا يستعمل في الغائب ولا يفرد به غير الأنبياء، فلا يقال: علي عليه السلام، وسواء في هذا الأحياء والأموات، وأما الحاضر فيخاطب به فيقال: سلام عليك وسلام عليكم أو السلام عليك أو عليكم، وهذا مجمع عليه، انتهى ما ذكره.

(**قلت**): وقد غلب هذا في عبارة كثير من النساخ للكتب أن يفرد علي رضي الله عنه بأن يقال عليه السلام من دون سائر الصحابة أو كرم الله وجهه؛ وهذا وإن كان معناه صحيحاً لكن ينبغي أن يسوى بين الصحابة في ذلك فإن هذا من باب التعظيم والتكريم، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك منه رضي الله عنهم أجمعين، قال عكرمة عن ابن عباس: لا تصح الصلاة على أحد إلا على النبي ﷺ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة، وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أما بعد فإن ناساً من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة، وإن ناساً من القصاص قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عَدْلَ الصلاة على النبي ﷺ، فإذا جاءك كتابي هذا، فرهم أن تكون صلاتهم على النبيين، ودعاؤهم للمسلمين عامة ويدعوا ما سوى ذلك[2]

فرع: قال النووي: إذا صلى على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم، فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول: صلى الله عليه فقط، ولا عليه السلام فقط. وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾ فالأولى أن يقال ﷺ تسليماً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾

يقول تعالى متهدداً ومتوعداً من آذاه، بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره، وإيذاء رسوله بعيب أو بنقص – عياذاً بالله من ذلك – قال عكرمة ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله﴾ نزلت في المصورين، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلَّ: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر أقلب ليله ونهاره»

---

(١) أخرجاه في الصحيحين. (٢) قال ابن كثير: أثر حسن.

ومعنى هذا أن الجاهلية كانوا يقولون: يا خيبة الدهر، فعل بنا كذا وكذا، فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ويسبونه، وإنما الفاعل لذلك هو الله عزَّ وجلَّ فنهى عن ذلك، وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله﴾ نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حيي بن أخطب، والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء، ومن آذاه فقد آذى الله كما أن من أطاعه فقد أطاع الله، كما قال رسول الله ﷺ: «الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»[1]. وقوله تعالى: ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا﴾ أي ينسبون إليهم ما هم برآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه ﴿فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ وهذا هو البهت الكبير أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه، على سبيل العيب والتنقص لهم، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الرافضة الذين يتنقصون الصحابة، ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم، فإن الله عزَّ وجلَّ قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم ويتنقصونهم، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً، فهم في الحقيقة منكسو القلوب، يذمون الممدوحين ويمدحون المذمومين، وقد روي عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أي الربا أربى عند الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أربى الربا عند الله استحلال عرض امرىء مسلم» ثم قرأ: ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾[2].

* يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ * لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٠﴾ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات - خاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدنين عليهن من جلابيبهن، ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية، والجلباب هو الرداء فوق الخمار، وهو بمنزلة الإزار اليوم، قال الجوهري: الجلباب الملحفة، قالت امرأة من هذيل ترثي قتيلاً لها:

تمشي النسور إليه وهي لاهية مشي العذارى عليهن الجلابيب

قال ابن عباس: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عيناً واحدة، وقال محمد بن سيرين: سألت عبيدة السلماني عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يدنين عليهن من جلابيبهن﴾ فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى، وقال عكرمة: تغطي ثغرة نحرها بجلبابها تدنيه عليها،

(١) أخرجه أحمد والترمذي.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها[1]. وسئل الزهري هل على الوليدة خمار، متزوجة أو غير متزوجة؟ قال: عليها الخمار إن كانت متزوجة، وتنهى عن الجلباب، لأنه يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر المحصنات، وقد قال الله تعالى: ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾.

وروي عن سفيان الثوري أنه قال: لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة وإنما نهي عن ذلك لخوف الفتنة لا لحرمتهن، واستدل بقوله تعالى: ﴿ ونساء المؤمنين ﴾، وقوله: ﴿ ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ﴾ أي إذا فعلن ذلك عرفن أنهن حرائر، لسن بإماء ولا عواهر، قال السدي: كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة، فيعرضون للنساء وكان مساكن أهل المدينة ضيقة، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن، فإذا رأوا المرأة عليها جلباب قالوا: هذه حرة فكفوا عنها، وإذا رأو المرأة ليس عليها جلباب قالوا: هذه أمة فوثبوا عليها، وقال مجاهد: يتجببن فيعلم أنهن حرائر فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة، وقوله تعالى: ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ أي لما سلف في أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك، ثم قال تعالى متوعداً للمنافقين وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ﴿ والذين في قلوبهم مرض ﴾ قال عكرمة وغيره: هم الزناة ههنا، ﴿ والمرجفون في المدينة ﴾ يعني الذين يقولون جاء الأعداء وجاءت الحروب، وهو كذب وافتراء، لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿ لنغرينك بهم ﴾ قال ابن عباس: أي لنسلطنك عليهم، وقال قتادة: لنحرشنك بهم، وقال السدي: لنعلمنك بهم، ﴿ ثم لا يجاورونك فيها ﴾ أي في المدينة ﴿ إلا قليلاً ملعونين ﴾ حال منهم في مدة إقامتهم في المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين ﴿ أينما ثقفوا ﴾ أي وجدوا، ﴿ أخذوا ﴾ لذلتهم وقلتهم، ﴿ وقتّلوا تقتيلاً ﴾. ثم قال تعالى: ﴿ سنّة الله في الذين خلوا من قبل ﴾ أي هذه سنته في المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم، ولم يرجعوا عما هم فيه أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم، ﴿ ولن تجد لسنّة الله تبديلاً ﴾ أي وسنّة الله في ذلك لا تبدل ولا تغير.

يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

يقول تعالى مخبراً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه أنه لا علم له بالساعة، وأرشده أن يرد علمها إلى الله عزَّ وجلَّ، لكن أخبره أنها قريبة بقوله: ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ﴾، كما قال تعالى: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾، وقال: ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾، وقال: ﴿ أتى أمر الله فلا

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أم سلمة.

تستعجلوه﴾، ثم قال: ﴿إن الله لعن الكافرين﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿وأعد لهم سعيراً﴾ أي في الدار الآخرة ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي ماكثين مستمرين فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها، ﴿لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ أي ليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه، ثم قال: ﴿يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول﴾ أي يسحبون في النار على وجوههم، وتلوى وجوههم على جهنم، يتمنون أن لو كانوا في الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا﴾، وقال تعالى: ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾، وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا، ﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلَ﴾ قال طاووس: ﴿سادتنا﴾يعني الأشراف و﴿كبراءنا﴾ يعني العلماء، أي اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا الرسل ﴿ربنا آتهم ضعفين من العذاب﴾ أي بكفرهم وإغوائهم إيانا ﴿والعنهم لعناً كبيراً﴾ قرىء (كبيراً) وقرىء (كثيراً) وهما متقاربان في المعنى.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾

أخرج الإمام البخاري عند تفسير هذه الآية عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «إن موسى عليه السلام كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يتستر هذا التستر إلا من عيب في جلده إما برص وإما أدرة وإما آفة، وإن الله عزَّ وجلَّ أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى عليه السلام، فخلا يوماً وحده، فخلع ثيابه على حجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله عزّ وجلّ، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه، فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لَنَدَباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً - قال - فذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً﴾»[1]. وعن ابن عباس في قوله: ﴿لا تكونوا كالذين آذوا موسى﴾ قال، قال قومه له: إنك آدر، فخرج ذات يوم يغتسل فوضع ثيابه على صخرة فخرجت الصخرة تشتد بثيابه، وخرج يتبعها عرياناً، حتى انتهت به إلى مجالس بني إسرائيل. قال: فرأوه ليس بآدر فذلك قوله: ﴿فبرأه الله مما قالوا﴾، وروى الإمام أحمد، عن عبد الله بن مسعود قال: قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسماً فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، قال. فقلت: يا عدو الله أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه ثم قال: «رحمة الله على موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[2]. وقوله تعالى: ﴿وكان عند الله وجيهاً﴾ أي له وجاهة وجاه عند ربه عزَّ وجلَّ، قال الحسن البصري: كان مستجاب الدعوة عند الله، وقال غيره من السلف: لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، ولكن منع الرؤية لما يشاء عزَّ وجلَّ، وقال بعضهم: من وجاهته العظيمة عند الله أنه شفع في

(١) أخرجه البخاري مطولاً في أحاديث الأنبياء ورواه في باب التفسير مختصراً.

(٢) أخرجاه في الصحيحين واللفظ لأحمد.

أخيه هارون أن يرسله[1] الله معه فأجاب الله سؤاله فقال: ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه، وأن يقولوا ﴿ قولاً سديداً ﴾ أي مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه، بأن يصلح لهم أعمالهم أن يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية، ثم قال تعالى: ﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ وذلك أنه يجار من نار الجحيم، ويصير إلى النعيم المقيم، عن أبي موسى الأشعري قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر فلما انصرف أومأ إلينا بيده فجلسنا فقال: « إن الله تعالى أمرني أن آمركم أن تتقوا الله وتقولوا قولاً سديداً » ثم أتى النساء فقال: « إن الله أمرني أن آمركن أن تتقين الله وتقلن قولاً سديداً ». وعن ابن عباس موقوفاً: « من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله، قال عكرمة: القول السديد لا إله إلا الله، وقال غيره: السديد الصدق، وقال مجاهد: هو السداد، وقال غيره: هو الصواب، والكل حق .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾ ﴾

قال ابن عباس: يعني بالأمانة (الطاعة) عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها، فقال لآدم: إني قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم يطقنها، فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال: يا رب وما فيها ؟ قال: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت، فأخذها آدم فحملها، فذلك قوله تعالى: ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ وعنه الأمانة (الفرائض) عرضها الله على السماوات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم فكرهوا ذلك وأشفقوا عليه من غير معصية، ولكن تعظيماً لدين الله أن لا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها، وهو قوله تعالى: ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ يعني غراً بأمر الله. وهكذا قال مجاهد والضحاك والحسن البصري: إن الأمانة هي الفرائض، وقال آخرون: هي الطاعة، وقال أبي بن كعب من الأمانة أن المرأة اؤتمنت على فرجها، وقال قتادة: الأمانة الدين والفرائض والحدود، وقال زيد بن أسلم: الأمانة ثلاثة: الصلاة والصوم والاغتسال من الجنابة؛ وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عوقب، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه، إلا من وفق الله وبالله المستعان. عن الحسن البصري أنه تلا هذه الآية: ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ﴾ قال: عرضها على السبع الطباق الطرائق التي زينت بالنجوم، وحملة

(١) أي يجعله رسولاً معه .

العرش العظيم، فقيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت: وما فيها ؟ قال: قيل لها إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت، قالت: لا، ثم عرضها على الأرضين السبع الشداد التي شدت بالأوتاد، وذللت بالمهاد، قال، فقيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت: وما فيها ؟ قال، قيل لها: إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت، قالت: لا، ثم عرضها على الجبال الشم الشوامخ الصعاب الصلاب، قال، قيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت: وما فيهن ؟ قال لها: إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت، قالت: لا[1]. وقال مقاتل بن حيان: إن الله تعالى حين خلق خلقه جمع بين الإنس والجن والسماوات والأرض والجبال، فبدأ بالسماوات فعرض عليهن الأمانة وهي الطاعة، فقال لهن أتحملن هذه الأمانة، وَلَكُنَّ عليَّ الفَضْلُ والكرامة والثواب في الجنة ؟ فقلن: يا رب إنا لا نستطيع هذا الأمر، وليس بنا قوة ولكنا لك مطيعون، ثم عرض الأمانة على الأرضين فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة وتقبلنها مني وأعطيكن الفضل والكرامة في الدنيا ؟ فقلن: لا صبر لنا على هذا يا رب ولا نطيق ولكنا لك سامعون مطيعون لا نعصيك في شيء أمرتنا به، ثم قرب آدم فقال له: أتحمل هذه الأمانة وترعاها حق رعايتها ؟ فقال عند ذلك آدم: مالي عندك ؟ قال: يا آدم إن أحسنت وأطعت ورعيت الأمانة فلك عندي الكرامة والفضل وحسن الثواب في الجنة، وإن عصيت ولم ترعها حق رعايتها وأسأت فإني معذبك ومعاقبك وأنزلك النار، قال: رضيت يا رب، وتحملها فقال الله عزَّ وجلَّ عند ذلك: قد حملتكها فذلك قوله تعالى: ﴿ وحملها الإنسان ﴾[2].

وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها - أو قال - يكفر كل شيء إلا الأمانة، يؤتى بصاحب الأمانة فيقال له: أدِّ أمانتك فيقول: أنى يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له: أد أمانتك، فيقول: أنَّى يا رب، وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له: أد أمانتك، فيقول: أنَّى يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقول: اذهبوا به إلى أمه الهاوية، فيذهب به إلى الهاوية، فيهوي فيها حتى ينتهي إلى قعرها فيجدها هنالك كهيئتها فيحملها فيضعها على عاتقه، فيصعد بها إلى شفير جهنم، حتى إذا رأى أنه قد خرج زلت قدمه فهوى في أثرها أبد الآبدين» **قال: والأمانة في الصلاة، والأمانة في الصوم، والأمانة في الوضوء، والأمانة في الحديث، وأشد ذلك الودائع**، فلقيت البراء فقلت: ألا تسمع ما يقول أخوك عبد الله ؟ فقال: صدق[3]، ومما يتعلق بالأمانة ما روي عن حذيفة رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنّة، ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المَجْل كجمر دحرجته على رجلك، تراه مُنْتَبِراً[4]، وليس فيه شيء - قال: ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله - قال: فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال: للرجل ما أجلده وأظرفه وأعقله وما في قلبه حبة خردل من إيمان، ولقد أتى عليَّ زمان، وما أبالي أيكم

(١) ذكره ابن أبي حاتم من كلام الحسن البصري رضي الله عنه.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان موقوفاً.
(٣) أخرجه ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٤) المَجْل: انتفاخ في اليد من العمل الشاق أو النار، منتبراً: متورماً.

بايعت إن كان مسلماً ليردنّه عليّ دينه، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه عليّ ساعيه، فأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً»[1]. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا، حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة طِعمة»[2].

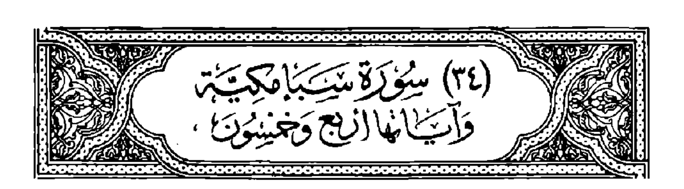
وقوله تعالى: ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات﴾ أي إنما حمّل بني آدم الأمانة وهي التكاليف ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات﴾ وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله ﴿والمشركين والمشركات﴾ وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة رسله، ﴿ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات﴾ أي وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته، ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

[آخر تفسير سورة الأحزاب ، ولله الحمد والمنة]



(١) أخرجه الشيخان والإمام أحمد .

(٢) أخرجه أحمد والطبراني. و (الطِعمة): الجهة التي يُرتزق منها .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة، لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي الجميع ملكه وعبيده وتحت تصرفه وقهره، كما قال تعالى: ﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾، ثم قال تعالى: ﴿وله الحمد في الآخرة﴾ فهو المعبود أبداً، المحمود على طول المدى، وقوله تعالى: ﴿وهو الحكيم﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، ﴿الخبير﴾ الذي لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه شيء، وقال الزهري: خبير بخلقه حكيم بأمره، ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها﴾ أي يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض، والحب المبذور والكامن فيها، ويعلم ما يخرج من ذلك عدده وكيفيته وصفاته ﴿وما ينزل من السماء﴾ أي من قطر ورزق، ﴿وما يعرج فيها﴾ أي من الأعمال الصالحة وغير ذلك، ﴿وهو الرحيم الغفور﴾ أي الرحيم بعباده فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة ﴿الغفور﴾ عن ذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن، مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد، لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد، فإحداهن في سورة يونس، وهي قوله تعالى: ﴿ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين﴾، **والثانية هذه**: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم﴾، **والثالثة** في سورة التغابن وهي قوله تعالى: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾، فقال تعالى: ﴿قل بلى وربي لتأتينكم﴾، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره فقال: ﴿عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ قال مجاهد وقتادة: ﴿لا يعزب عنه﴾ لا يغيب عنه، أي الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شيء، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة فإنه بكل شيء عليم. ثم بيَّن حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله تعالى: ﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم ● والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ أي سعوا في الصد عن سبيل الله تعالى وتكذيب رسله ﴿أولئك لهم عذاب من رجز أليم﴾ أي لينعم السعداء من المؤمنين ويعذب الأشقياء من الكافرين، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾. وقال تعالى: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾؟ وقوله تعالى: ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق﴾ هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها، وهي أن المؤمنين إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار رأوه حينئذ عين اليقين، ويقولون يومئذ ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾، ﴿ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ العزيز هو المنيع الجناب الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء وغلبه، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وهو المحمود في ذلك كله جلَّ وعلا.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

هذا إخبار من الله عزَّ وجلَّ عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة، واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك، ﴿وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق﴾ أي تفرقت أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق، ﴿إنكم﴾ أي بعد هذا الحال ﴿لفي خلق جديد﴾ أي تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك؟ ﴿أفترى على الله كذباً أم به جنة﴾؟ قال الله عزَّ وجلَّ راداً عليهم: ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾ أي ليس الأمر كما زعموا، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذي جاء بالحق، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء، ﴿في العذاب﴾ أي الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله تعالى، ﴿والضلال

البعيد﴾ من الحق في الدنيا، ثم قال تعالى منبهاً لهم على قدرته في خلق السماوات والأرض، ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾، أي حيثما توجهوا وذهبوا، فالسماء مطلة عليهم والأرض تحتهم، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ۝ والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾ قال قتادة: إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك أو من بين يديك أو من خلفك رأيت السماء والأرض، وقوله تعالى: ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾ أي لو شئنا لفعلنا بهم ذلك بظلمهم وقدرتنا عليهم، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا، ثم قال: ﴿إن في ذلك لآية لكل عبد منيب﴾، قال قتادة: ﴿منيب﴾ تائب، وعنه: المنيب المقبل إلى الله تعالى، أي إن في النظر إلى خلق السماوات والأرض، لدلالة لكل عبد فطن لبيب رجَّاع إلى الله، على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد ووقوع المعاد، لأن من قدر على خلق هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها، وأطوالها وأعراضها إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام، كما قال تعالى: ﴿أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى﴾، وقال تعالى: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ .

* وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام مما آتاه من الفضل المبين وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العدد والعدد، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات، الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات، والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته، ثم قال ﷺ: «لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود». ومعنى قوله تعالى: ﴿أوبي﴾ أي سبحي[1]، والتأويب في اللغة الترجيع، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها، وقوله تعالى: ﴿وألنا له الحديد﴾ قال الحسن البصري وقتادة: كان لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط، ولهذا قال تعالى: ﴿أن اعمل سابغات﴾ وهي الدروع، قال قتادة: وهو أول من عملها من الخلق، وإنما كانت قبل ذلك صفائح، وقال ابن شوذب: كان داود عليه السلام يرفع في كل يوم درعاً فيبيعها بستة آلاف درهم، ألفين له ولأهله وأربعة آلاف درهم يطعم بها بني إسرائيل خبز الحواري[2]، ﴿وقدّر في السرد﴾ هذا إرشاد من الله تعالى لنبيه داود عليه السلام في تعليمه صنعة الدروع، قال مجاهد ﴿وقدر في السرد﴾ لا تدق المسمار فيقلق في الحلقة، ولا تغلظه فيقصمها واجعله بقدر، وقال الحكم بن عيينة: لا تغلظه فيقصم ولا تدقه فيقلق، وقال ابن عباس: السرد حلق الحديد. وقال بعضهم: يقال درع مسرودة إذا كانت مسمورة الحلق، واستشهد بقول الشاعر

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من حديث ابن شوذب .

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبع

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر عن وهب بن منبه أن داود عليه السلام كان يخرج متنكراً، فيسأل الركبان عنه وعن سيرته، فلا يسأل أحداً إلا أثنى عليه خيراً في عبادته وسيرته وعدله عليه السلام. قال وهب: حتى بعث الله تعالى ملَكاً في صورة رجل فلقيه داود عليه الصلاة والسلام، فسأله كما كان يسأل غيره، فقال: هو خير الناس لنفسه ولأمته، إلا أن فيه خصلة لو لم تكن فيه كان كاملاً، قال: ما هي؟ قال: يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين يعني بيت المال، فعند ذلك نصب داود عليه السلام إلى ربه عزَّ وجلَّ في الدعاء أن يعلمه عملاً بيده يستغني به ويغني به عياله فألان الله عزَّ وجلَّ له الحديد وعلمه صنعة الدروع فعمل الدروع وهو أول من عملها، فقال الله تعالى: ﴿أن اعمل سابغات وقدر في السرد﴾ يعني مسامير الحلق، قال: وكان يعمل الدرع فإذا ارتفع من عمله درع باعها فتصدق بثلثها واشترى بثلثها ما يكفيه وعياله، وأمسك الثلث يتصدق به يوماً بيوم إلى أن يعمل غيرها، وقال: إن الله تعالى أعطى داود شيئاً لم يعطه غيره من حسن الصوت، إنه كان إذا قرأ الزبور تجتمع الوحوش إليه حتى يؤخذ بأعناقها وما تنفر، وما صنعت الشياطين المزامير والبرابط والصنوج إلا على أصناف صوته عليه السلام، وكان شديد الاجتهاد، وكان إذا افتتح الزبور بالقراءة كأنما ينفخ في المزامير، وكان قد أعطي سبعين مزماراً في حلقه، وقوله تعالى: ﴿واعملوا صالحاً﴾ أي في الذي أعطاكم الله تعالى من النعم ﴿إني بما تعملون بصير﴾ أي مراقب لكم بصير بأعمالكم وأقوالكم لا يخفى عليّ من ذلك شيء.

وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به على (داود) عطف بذكر ما أعطى ابنه (سليمان) عليهما الصلاة والسلام، من تسخير الريح له تحمل بساطه غدوها شهر ورواحها شهر، قال الحسن البصري: كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغدى بها، ويذهب رائحاً من إصطخر فيبيت بكابل، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع، وقوله تعالى: ﴿وأسلنا له عين القطر﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وغير واحد: القطر النحاس، قال قتادة: وكانت باليمن فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان عليه السلام، قال السدي: وإنما أسيلت له ثلاثة أيام، وقوله تعالى: ﴿ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه﴾ أي وسخرنا له الجن يعملون بين يديه ﴿بإذن ربه﴾ أي بقدره وتسخيره لهم بمشيئته، ما يشاء من البنايات وغير ذلك ﴿ومن يزغ منهم عن أمرنا﴾ أي ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿نذقه من عذاب السعير﴾ وهو الحريق، وقوله تعالى: ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل﴾ أما المحاريب فهي البناء الحسن وهو أشرف شيء في المسكن وصدره، وقال مجاهد: المحاريب بنيان دون القصور، وقال الضحاك: هي المساجد، وقال قتادة: هي القصور والمساجد، وقال ابن زيد: هي المساكن، وأما التماثيل، فقال الضحاك والسدي: التماثيل الصور، قال مجاهد:

وكانت من نحاس، وقال قتادة: من طين وزجاج. وقوله تعالى: ﴿وجفان كالجواب وقدور راسيات﴾ الجواب جمع جابية وهي الحوض الذي يجبى فيه الماء، قال الأعشى:

تروح على آل المحلق جفنة كجابية الشيخ العراقي تفهق

وقال ابن عباس ﴿كالجواب﴾ كالحياض[1]، والقدور الراسيات أي الثابتات في أماكنها لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمها، وقال عكرمة: أثافيها منها، وقوله تعالى: ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ أي وقلنا لهم اعملوا شكراً على ما أنعم به عليكم في الدين والدنيا، قال السلمي: الصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير تعمله لله عزَّ وجلَّ شكر، وأفضل الشكر الحمد[2]. وقال القرظي: الشكر تقوى الله تعالى والعمل الصالح. وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل، وقد كان آل داود عليهم السلام كذلك قائمين بشكر الله تعالى قولاً وعملاً، قال ابن أبي حاتم عن ثابت البناني قال: كان داود عليه السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي فغمرتهم هذه الآية ﴿اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور﴾. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة دلود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سدسه، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى». وقد روي عن جابر رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «قالت أم سليمان بن داود عليهم السلام لسليمان: يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيراً يوم القيامة»[3]. وقال فضيل في قوله تعالى: ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ قال: داود يا رب كيف أشكرك والشكر نعمة منك؟ قال: «الآن شكرتني حين علمت أن النعمة مني»، وقوله تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ إخبار عن الواقع.

* ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

يذكر تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام، وكيف عمّى الله موته على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئاً على عصاه وهي منسأته مدة طويلة نحواً من سنة، فلما أكلتها دابة الأرض وهي (الأرضة) ضعفت وسقط إلى الأرض وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة، وتبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك[4]. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال سليمان عليه السلام لملك الموت: إذا أمرت بي فأعلمني، فأتاه فقال: يا سليمان قد أمرت بك قد بقيت لك سويعة، فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير، وليس له باب، فقام يصلي فاتكأ على عصاه، قال: فدخل عليه ملك الموت فقبض

---

(١) وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم.
(٢) رواه ابن جرير عن أبي عبد الرحمن السلمي.
(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه.
(٤) ذكر عند تفسير هذه الآية أخبار غريبة من الإسرائيليات ضربنا صفحاً عنها.

روحه وهو متكيء على عصاه، ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت، قال: والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حي. قال: فبعث الله عزَّ وجلَّ دابة الأرض، قال: والدابة تأكل العيدان يقال لها: القادح، فدخلت فيها فأكلتها، حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر ميتاً، فلما رأت الجن ذلك انفضوا وذهبوا، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته﴾ قال أصبغ: بلغني أنها قامت سنة تأكل منها قبل أن يخر، وذكر غير واحد من السلف نحواً من هذا، والله أعلم.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم، واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى، ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ شذر مذر، كما سيأتي قريباً، روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن وعلة قال: سمعت ابن عباس يقول: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو أرجل أم امرأة أم أرض؟ قال ﷺ: «بل هو رجل ولد له عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، والشام منهم أربعة، فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير، وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان»[1]، قال علماء النسب: اسم سبأ (عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان) وإنما سمي سبأ، لأنه أول من سبأ في العرب، ومعنى قوله ﷺ: «كان رجلاً من العرب» يعني من سلالة الخليل عليه السلام، وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ مر بنفر من أسلم ينتضلون فقال: «ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً»[2]، فأسلم قبيلة من (الأنصار) والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ، نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ في البلاد حين بعث الله عزَّ وجلَّ عليهم سيل العرم، ونزلت طائفة منهم بالشام، وإنما قيل لهم غسان بماء نزلوا عليه قريب من المشلل، كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

إما سألت فإنا معشر نجب ... الأزد نسبتنا والماء غسان

ومعنى قوله ﷺ: «ولد له عشرة» أي كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن، لا أنهم ولدوا من صلبه، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب، ومعنى قوله ﷺ: «فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة» أي بعد ما أرسل

(١) رواه الإمام أحمد وابن جرير والترمذي وقال: حسن غريب، قال ابن كثير: ورواه ابن عبد البر عن تميم الداري مرفوعاً فذكر مثله فقوي هذا الحديث وحسن.

(٢) أخرجه البخاري.

الله تعالى عليهم سيل العرم، منهم من أقام ببلادهم، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها، وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين، وتجتمع إليه أيضاً سيول أمطارهم وأوديتهم، فعمد ملوكهم الأقادم، فبنوا بينهما سداً عظيماً محكماً، حتى ارتفع الماء، وحكم على حافات ذينك الجبلين، فغرسوا الأشجار، واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن، كما ذكر غير واحد من السلف، أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل – وهو الذي تخترف فيه الثمار – فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه، من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف، لكثرته ونضجه واستوائه، وكان هذا السد بمأرب[1]. ويذكر أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ولا شيء من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج، وعناية الله بهم ليوحدوه ويعبدوه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية﴾ ثم فسرها بقوله عزَّ وجلَّ ﴿جنتان عن يمين وشمال﴾ أي من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك، ﴿كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور﴾ أي غفور لكم إن استمررتم على التوحيد، وقوله تعالى: ﴿فأعرضوا﴾ أي عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله كما قال الهدهد لسليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿وجئتك من سبأ بنبأ يقين * إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾ قال السدي: أرسل الله عزَّ وجلَّ إليهم اثني عشر ألف نبي والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم سيل العرم﴾ المراد بالعرم المياه، وقيل: الوادي، وقيل: الماء الغزير. وذكر غير واحد منهم ابن عباس وقتادة والضحاك: أن الله عزَّ وجلَّ لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم بعث على السد دابة من الأرض، يقال لها الجرذ، نقبته، وانساب الماء في أسفل الوادي، وخرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال، فيبست وتحطمت، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو الأراك وأكلة البربر (وأثل) هو الطرفاء، وقال غيره: هو شجر يشبه الطرفاء، وقيل: هو السمر والله أعلم، وقوله: ﴿وشيء من سدر قليل﴾ لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر، قال ﴿وشيء من سدر قليل﴾ فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل، ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور﴾ أي عاقبناهم بكفرهم، قال مجاهد: ولا يعاقب إلا الكفور. وقال الحسن البصري: صدق الله العظيم لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور، وقال ابن أبي حاتم عن ابن خيرة وكان من أصحاب علي رضي الله عنه قال: جزاء المعصية الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والتعسر في اللذة، قيل: وما التعسر في اللذة؟ قال: لا يصادف لذة حلال إلا جاءه من ينغصه إياها[2].

(١) مأرب بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ويعرف هذا السد بسد مأرب.

(٢) ذكره ابن أبي حاتم.

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والعيش الهني الرغيد، والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمراً، ويقيل في قرية ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها﴾ قال وهب بن منبه: هي قرى بصنعاء، وقال مجاهد والحسن: هي قرى الشام، يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة، وقال ابن عباس: القرى التي باركنا فيها بيت المقدس، وعنه: هي قرى عربية بين المدينة والشام ﴿قرى ظاهرة﴾ أي بينة واضحة يعرفها المسافرون، يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى، ولهذا قال تعالى: ﴿وقدرنا فيها السير﴾ أي جعلنا بحسب ما يحتاج المسافرون إليه، ﴿سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين﴾ أي الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلاً ونهاراً، ﴿فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم﴾ وذلك أنهم بطروا هذه النعمة، وأحبوا مفاوز ومهامه، يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في المخاوف، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض ﴿من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾ مع أنهم كانوا في عيش رغيد، في مَنٍّ وسلوى وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة، قال تعالى: ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾، وقال تعالى في حق هؤلاء ﴿فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم﴾ أي بكفرهم، ﴿فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق﴾ أي جعلناهم حديثاً للناس، وسمراً يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء تفرقوا في البلاد ههنا وههنا، ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: تفرقوا أيدي سبأ، وأيادي سبأ، وتفرقوا شذر مذر، قال الشعبي: أما غسان فلحقوا بعمان فرقهم الله كل ممزق بالشام، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة، وأما الأزد فلحقوا بعمان فمزقهم الله كل ممزق[1].

وقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أي إن في هذا الذي حل بهؤلاء من النقمة والعذاب، وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام، لعبرة لكل عبد صبار على المصائب، شكور على النعم، روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «عجبت من قضاء الله تعالى للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر، يؤجر المؤمن في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى امرأته»[2]، وهذا الحديث له شاهد في الصحيحين من حديث أبي هريرة

---

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير عن الشعبي.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ورواه النسائي وهو حديث عزيز من رواية عمر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه رضي الله عنهما.

رضي الله عنه: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله تعالى له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»، قال قتادة ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ كان مطرف يقول: نعم العبد الصبار الشكور الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى وخالف الرشاد والهدى فقال: ﴿ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه﴾، قال ابن عباس: هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس ﴿أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾، وقال ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ والآيات في هذا كثيرة، وقال الحسن البصري: لما أهبط الله آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة ومعه حواء، هبط إبليس فرحاً بما أصاب منهما، وقال: إذا أصبت من الأبوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف، وكان ذلك ظناً من إبليس، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين﴾، فقال عند ذلك إبليس: لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح، أعده وأمنيه وأخدعه، فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أحجب عنه التوبة ما لم يغرغر بالموت، ولا يدعوني إلا أجبته، ولا يسألني إلا أعطيته، ولا يستغفرني إلا غفرت له[1]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما كان له عليهم من سلطان﴾ قال ابن عباس: أي من حجة، وقال الحسن البصري: والله ما ضربهم بعصا ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غروراً وأماني، دعاهم إليها فأجابوه، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك﴾ أي إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة والحساب والجزاء، فيحسن عبادة ربه عزَّ وجلَّ في الدنيا ممن هو منها في شك، وقوله تعالى: ﴿وربك على كل شيء حفيظ﴾ أي ومع حفظه ضل من ضل من أتباع إبليس، وبحفظه وكلاءته سلم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

بيّن تبارك وتعالى أنه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا نظير له ولا شريك، بل هو المستقل بالأمر وحده من غير مشارك ولا منازع ولا معارض، فقال: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله﴾ أي من الآلهة التي عبدت من دونه، ﴿لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾، كما قال تعالى: ﴿والذين يدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾، وقوله تعالى: ﴿وما لهم فيهما من شرك﴾ أي لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل

(١) رواه ابن أبي حاتم عن الحسن البصري.

الشركة ﴿ وما له منهم من ظهير ﴾ أي وليس لله من هذه الأنداد من معين يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه عبيد لديه، قال قتادة في قوله عزَّ وجلَّ ﴿ وما له منهم من ظهير ﴾ من عون يعينه بشيء، ثم قال تعالى: ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ أي لعظمته وجلاله وكبريائه، لا يجترىء أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء، إلا بعد إذنه له في الشفاعة، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾؟ وقال جلَّ وعلا: ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾، وقال تعالى: ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ ولهذا ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم، وأكبر شفيع عند الله تعالى، أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم، قال: « فأسجد لله تعالى فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ويفتح عليَّ بمحامد لا أحصيها الآن. ثم يقال يا محمد ارفع رأسك، وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع » الحديث بتمامه. وقوله تعالى: ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق ﴾، وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة. وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السماوات كلامه أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي، قال ابن مسعود ﴿ فزّع عن قلوبهم ﴾ أي زال الفزع عنها، وقال ابن عباس والضحاك والحسن وقتادة في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق ﴾ يقول: خلي عن قلوبهم، فإذا كان كذلك سأل بعضهم بعضاً: ماذا قال ربكم؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا، ولهذا قال تعالى: ﴿ قالوا الحق ﴾ أي أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ﴿ وهو العلي الكبير ﴾.

وقال آخرون: بل معنى قوله تعالى: ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾ يعني المشركين عند الاحتضار ويوم القيامة، إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة في الدنيا، قالوا: ماذا قال ربكم؟ فقيل لهم: الحق، وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين في الدنيا، قال مجاهد ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾ كشف عنها الغطاء يوم القيامة، وقال الحسن ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾ يعني ما فيها من الشك والتكذيب، وقال ابن أسلم ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾ يعني ما فيها من الشك قال فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانيهم وما كان يضلهم ﴿ قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير ﴾ قال: وهذا في بني آدم - هذا عند الموت - أقروا حين لا ينفعهم الإقرار؛ وقد اختار ابن جرير القول الأول أن الضمير عائد على (الملائكة) وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه لصحة الأحاديث فيه والآثار، قال البخاري عند تفسير هذه الآية الكريمة في صحيحه عن سفيان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: « إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بيده فحرفها ونشر بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا، كذا وكذا، فيصدّق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء »[1]. وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال، قال رسول

(١) أخرجه البخاري ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

الله ﷺ: «إذا أراد الله تبارك وتعالى أن يوحي بأمره تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السماوات منه رجفة - أو قال رعدة - شديدة من خوف الله تعالى، فإذا سمع بذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه (جبريل) عليه الصلاة والسلام، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فيمضي به جبريل عليه الصلاة والسلام على الملائكة، كلما مر بسماء سماء يسأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل، فيقول عليه السلام: قال الحق وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله تعالى من السماء والأرض»[1]

* قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى مقرراً تفرده بالخلق والرزق، وانفراده بالإلهية أيضاً، فكما كانوا يعترفون بأنهم لا يرزقهم من السماء والأرض إلا الله، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره، وقوله تعالى: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ أي واحد من الفريقين مبطل، والآخر محق، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى، ولهذا قال: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ قال قتادة قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين، والله ما نحن وإياكم على أمر واحد، إنَّ أحد الفريقين لمهتد. وقال عكرمة: معناها إنا نحن لعلى هدى وإنكم لفي ضلال مبين، وقوله تعالى: ﴿قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون﴾ معناه التبري منهم أي لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيده وإفراد العبادة له، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا كما قال تعالى: ﴿فإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم، أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾، وقوله تعالى: ﴿قل يجمع بيننا ربنا﴾ أي يوم القيامة يجمع بين الخلائق في صعيد واحد ﴿ثم يفتح بيننا بالحق﴾ أي يحكم بيننا بالعدل، فيجزي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية، كما قال تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾، ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وهو الفتاح العليم﴾ أي الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور، وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل أروني الذين ألحقتم به شركاء﴾ أي أروني هذه الآلهة التي جعلتموها لله أنداداً وصيرتموها له عدلاً، (كلا) أي ليس له نظير ولا نديد ولا شريك ولا عديل، ولهذا قال تعالى: ﴿بل هو الله﴾ أي الواحد الأحد الذي لا شريك له، ﴿العزيز الحكيم﴾ أي ذو العزة الذي قد قهر بها كل شيء، وغلبت كل شيء، (الحكيم) في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، تبارك وتعالى وتقدس عما يقولون علواً كبيراً.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن خزيمة عن النواس بن سمعان مرفوعاً.

وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ تسليماً ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ أي إلى جميع الخلائق من المكلفين كقوله تبارك وتعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾، ﴿بشيراً ونذيراً﴾ أي تبشر من أطاعك بالجنة، وتنذر من عصاك بالنار، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾، ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾، قال محمد ابن كعب: يعني إلى الناس عامة، وقال قتادة: أرسل الله تعالى محمداً ﷺ إلى العرب والعجم، فأكرمهم على الله تبارك وتعالى أطوعهم لله عزَّ وجلَّ، وقال ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: إن الله تعالى فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء، قالوا: يا ابن عباس فيم فضله على الأنبياء؟ قال رضي الله عنه إن الله تعالى قال: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ وقال للنبي ﷺ: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾ فأرسله الله تعالى إلى الجن والإنس، وهذا كما ثبت في الصحيحين، قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[1]، وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت إلى الأسود والأحمر» قال مجاهد: يعني الجن والإنس، وقال غيره يعني العرب والعجم، والكل صحيح، ثم قال عزَّ وجلَّ مخبراً عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ وهذه الآية، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾ الآية، ثم قال تعالى: ﴿قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ أي لكم ميعاد مؤجل، لا يزاد ولا ينقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم، كما قال تعالى: ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر﴾، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وما نؤخره إلا لأجل معدود * يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد﴾.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

(١) أخرجاه في الصحيحين عن جابر بن عبد الله مرفوعاً.

يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم، وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم، وبما أخبر به من أمر المعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه﴾ قال الله عزَّ وجلَّ متهدداً لهم ومتوعداً ومخبراً عن مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجهم، ﴿يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا﴾ وهم الأتباع ﴿للذين استكبروا﴾ منهم وهم قادتهم وسادتهم: ﴿لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾ أي لولا أنتم تصدونا لكنا اتبعنا الرسل، وآمنا بما جاءونا به، فقال لهم القادة والسادة وهم الذين استكبروا ﴿أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم﴾، أي نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك، ولهذا قالوا: ﴿بل كنتم مجرمين ۞ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار﴾ أي بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً، وتغرّونا وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكذب ومين، قال قتادة وابن زيد ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ يقول: بل مكركم بالليل والنهار، ﴿إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾ أي نظراء وآلهة معه وتقيموا لنا شبهاً وأشياء تضلونا بها، ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾ أي الجميع من السادة والأتباع كل ندم على ما سلف منه، ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم، ﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ أي إنما نجازيكم بأعمالكم، كلٌّ بحسبه للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم، ﴿قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾ قال ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقاهم لهبها، ثم لفحتهم لفحة فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب»[1]

۞ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ، وآمراً له بالتأسي بمن قبله من الرسل، ومخبراً له بأنه ما بعث نبياً في قرية إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤهم، كما قال قوم نوح: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾، وقال الكبراء من قوم صالح: ﴿للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه؟ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ۞ قال

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾، وقال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾، وقال جلَّ وعلا: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾، وقال جلَّ وعلا ههنا: ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير﴾ أي نبي أو رسول ﴿إلا قال مترفوها﴾ وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة، قال قتادة: هم جبابرتهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر ﴿إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ أي لا نؤمن به ولا نتبعه، عن أبي رزين قال: كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر، فلما بعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل، فكتب إليه إنه لم يتبعه أحد من قريش إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم، قال: فترك تجارته ثم أتى صاحبه، فقال: دلني عليه، وكان يقرأ الكتب أو بعض الكتب، قال: فأتى النبي ﷺ فقال: إلامَ تدعو؟ قال: «أدعو إلى كذا وكذا» قال: أشهد أنك رسول الله، قال ﷺ: «وما علمك بذلك؟» قال: إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه أراذل الناس ومساكينهم، قال: فنزلت هذه الآية؛ ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾[1]، وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل قال فيها: وسألتك أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم، فزعمت بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل[2]. وقال تبارك وتعالى إخباراً عن المترفين المكذبين: ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ أي افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك، قال الله تعالى: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات؟ بل لا يشعرون﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾، ولهذا قال عزَّ وجلَّ ها هنا: ﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب، فيفقر من يشاء ويغني من يشاء، وله الحكمة التامة البالغة، والحجة القاطعة الدامغة ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾، ثم قال تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى﴾ أي ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم ولا اعتنائنا بكم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إلا من آمن وعمل صالحاً﴾ أي إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمانُ والعمل الصالح ﴿فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا﴾ أي تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿وهم في الغرفات آمنون﴾ أي في منازل الجنة العالية ﴿آمنون﴾ من كل بأس وخوف وأذى، ومن كل شر يحذر منه.

عن علي رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً ترى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها» فقال أعرابي: لمن هي؟ قال ﷺ: «لمن طيَّب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام»[3]. ﴿والذين يسعون في آياتنا معاجزين﴾ أي يسعون في الصد عن سبيل الله واتباع رسله والتصديق بآياته، ﴿أولئك في العذاب محضرون﴾ أي جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها بحسبهم، وقوله تعالى: ﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾ أي بحسب ما له في ذلك من الحكمة، يبسط على هذا من المال

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) هذا جزء من حديث طويل رواه الشيخان.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.

كثيراً، ويضيّق على هذا ويقتر عليه رزقه جداً، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره، كما قال تعالى: ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ أي كما هم متفاوتون في الدنيا هذا فقير مدقع وهذا غني موسع عليه، فكذلك هم في الآخرة، هذا في الغرفات في أعلى الدرجات، وهذا في الغمرات في أسفل الدركات، وأطيب الناس في الدنيا، كما قال ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه»[1]، وقوله تعالى: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ أي مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبذل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب، كما ثبت في الحديث: «يقول الله تعالى أنفقْ أُنفقْ عليك»، وقال رسول الله ﷺ: «أنفقْ بلالاً، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً»، وعن حذيفة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض يعض الموسر على ما في يده حذار الإنفاق»، ثم تلا هذه الآية ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾[2]، وفي الحديث: «شرار الناس يبايعون كل مضطر، ألا إن بيع المضطرين حرام، ألا إن بيع المضطرين حرام، المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، إن كان عندك معروف فعد به على أخيك، وإلا فلا تزده هلاكاً إلى هلاكه»[3]، وقال مجاهد: لا يتأولن أحدكم هذه الآية ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه، فإن الرزق مقسوم.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

يخبر تعالى أنه يقرّع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم ليقربوهم إلى الله زلفى، فيقول للملائكة ﴿أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ أي أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم، كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾، وكما يقول لعيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلٰهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾، وهكذا تقول الملائكة: ﴿سبحانك﴾ أي تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إلٰه ﴿أنت ولينا من دونهم﴾ أي نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء، ﴿بل كانوا يعبدون الجن﴾ يعنون الشياطين لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم ﴿أكثرهم بهم مؤمنون﴾، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً * لعنه الله﴾، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً﴾ أي لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم، من الأنداد والأوثان التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم، اليوم لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً، ﴿ونقول للذين ظلموا﴾ وهم المشركون ﴿ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً.

---

(١) أخرجه مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الحافظ الموصلي وفي إسناده ضعف.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون العقوبة والأليم من العذاب، لأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آياته بينات، يسمعونها غضة طرية من لسان رسوله ﷺ ﴿قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم﴾ يعنون أن دين آبائهم هو الحق، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل، ﴿وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى﴾ يعنون القرآن، ﴿وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا سحر مبين﴾، قال الله تعالى: ﴿وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾ أي ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن، وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد ﷺ، وقد كانوا يودون ذلك ويقولون: لو جاءنا نذير، أو أنزل علينا كتاب، لكنا أهدى من غيرنا، فلما منَّ الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه، ثم قال تعالى: ﴿وكذب الذين من قبلهم﴾ أي من الأمم ﴿وما بلغوا معشار ما آتيناهم﴾، قال ابن عباس: أي من القوة في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم أكثر منهم وأشد قوة﴾ أي وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله، ولهذا قال: ﴿فكذبوا رسلي فكيف كان نكير﴾ أي فكيف كان عقابي ونكالي وانتصاري لرسلي.

* قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾

يقول تبارك وتعالى: قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون: ﴿إنما أعظكم بواحدة﴾ أي إنما آمركم بواحدة، وهي ﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة﴾ أي تقوموا قياماً خالصاً لله عزَّ وجلَّ من غير هوى ولا عصبية فيسأل بعضكم بعضاً: هل بمحمد من جنون؟ فينصح بعضكم بعضاً، ﴿ثم تتفكروا﴾ أي ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ويتفكر في ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾، قال البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال: «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش فقالوا: مالك؟ فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم

---

(١) هذا معنى ما ذكره مجاهد ومحمد بن كعب والسدي وقتادة وغيرهم، وتفسير الآية بالقيام في الصلاة في جماعة وفرادى بعيد كما ذكر ابن كثير.

أن العدو يصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقوني » قالوا: بلى ؟ قال ﷺ: « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد »، فقال أبو لهب: تباً لك ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾. وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ يوماً فنادى ثلاث مرات فقال: « أيها الناس تدرون ما مثلي ومثلكم ؟ » قالوا: الله تعالى ورسوله أعلم، قال ﷺ: « إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً يأتيهم، فبعثوا رجلاً يتراءى لهم، فبينما هو كذلك أبصر العدو، فأقبل لينذرهم وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه فأهوى بثوبه: أيها الناس أوتيتم، أيها الناس أوتيتم » ثلاث مرات .

قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿ ما سألتكم من أجر فهو لكم ﴾، أي لا أريد منكم جعلاً ولا عطاء على أداء رسالة الله عزَّ وجلَّ إليكم، ونصحي إياكم وأمركم بعبادة الله ﴿ إن أجري إلا على الله ﴾، أي إنما أطلب ثواب ذلك من عند الله ﴿ وهو على كل شيء شهيد ﴾ أي عالم بجميع الأمور بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إياي إليكم وما أنتم عليه، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب ﴾، كقوله تعالى: ﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ أي يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض، وهو علام الغيوب، فلا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ قل جاء الحق وما يبديء الباطل وما يعيد ﴾ أي جاء الحق من الله والشرع العظيم، وذهب الباطل واضمحل، كقوله تعالى: ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة، جعل يطعن الصنم منها ويقرأ: ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾، ﴿ قل جاء الحق وما يبديء الباطل وما يعيد ﴾[1]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أي لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة، وزعم قتادة والسدي أن المراد بالباطل ها هنا إبليس أي أنه لا يخلق أحداً ولا يعيده ولا يقدر على ذلك، وهذا وإن كان حقاً، ولكن ليس هو المراد ههنا والله أعلم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي ﴾ أي الخير كله من عند الله وفيما أنزل الله عزَّ وجلَّ، من الوحي والحق المبين، فيه الهدى والبيان والرشاد، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه، وقوله تعالى: ﴿ إنه سميع قريب ﴾ أي سميع لأقوال عباده ﴿ قريب ﴾ يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وقد روي في الصحيحين: « إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً قريباً مجيباً » .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي .

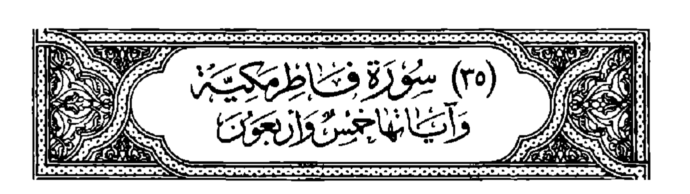
﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول تبارك وتعالى: ولو ترى يا محمد إذا فزع هؤلاء المكذبون يوم القيامة ﴿فلا فوت﴾ أي فلا مفر لهم ولا وزر لهم ولا ملجأ ﴿وأخذوا من مكان قريب﴾ أي لم يمكنوا أن يمعنوا في الهرب، بل أخذوا من أول وهلة، قال الحسن البصري: حين خرجوا من قبورهم، وقال مجاهد وقتادة: من تحت أقدامهم، وعن ابن عباس والضحاك: يعني عذابهم في الدنيا، وقال عبد الرحمن بن زيد: يعني قتلهم يوم بدر، والصحيح أن المراد بذلك يوم القيامة وهو الطامة العظمى، وإن كان ما ذكر متصلاً بذلك، ﴿وقالوا آمنا به﴾ أي يوم القيامة يقولون آمنا بالله ورسله كما قال تعالى: ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿وأنى لهم التناوش من مكان بعيد﴾ أي وكيف لهم تعاطي الإيمان، وقد بعدوا عن محل قبوله منهم، وصاروا إلى الدار الآخرة، وهي (دار الجزاء) لا دار الابتلاء؟ فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان، قال مجاهد: ﴿وأنى لهم التناوش﴾ قال: التناول لذلك، وقال الزهري: التناوش تناولهم الإيمان وهم في الآخرة، وقد انقطعت عنهم الدنيا، وقال الحسن البصري: أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد، وقال ابن عباس: طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه وليس بحين رجعة ولا توبة.

وقوله تعالى: ﴿وقد كفروا به من قبل﴾ أي كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة، وقد كفروا بالحق في الدنيا وكذبوا الرسل، ﴿ويقذفون بالغيب من مكان بعيد﴾ يعني بالظن، كما قال تعالى: ﴿رجماً بالغيب﴾ فتارة يقولون شاعر، وتارة يقولون كاهن، وتارة يقولون ساحر، وتارة يقولون مجنون، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذبون بالبعث والنشور والمعاد، ﴿ويقولون إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين﴾ قال قتادة ومجاهد: يرجمون بالظن، لا بعث ولا جنة ولا نار، وقوله تعالى: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ قال الحسن البصري والضحاك وغيرهما: يعني الإيمان، وقال السدي ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾: وهي التوبة، وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله، وقال مجاهد: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ من هذه الدنيا من مال وزهرة وأهل[1]، والصحيح أنه لا منافاة بين القولين فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ما طلبوه في الآخرة فمنعوا منه. وقوله تعالى: ﴿كما فعل بأشياعهم من قبل﴾ أي كما جرى للأمم الماضية المكذبة بالرسل لما جاءهم بأس الله، تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنهم كانوا في شك مريب﴾ أي كانوا في الدنيا في شك وريبة فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب، قال قتادة: إياكم والشك والريبة، فإن من مات على شك بعث عليه، ومن مات على يقين بعث عليه.

[آخر تفسير سورة سبأ والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب]

(١) وروي نحوه عن ابن عمر وابن عباس والربيع بن أنس وهو قول البخاري وجماعة من العلماء.



(٣٥) سورة فاطر مكية وآياتها خمس وأربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها أي بدأتها، وقال ابن عباس: ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾: أي بديع السماوات والأرض، وقال الضحاك: كل شيء في القرآن فاطر السماوات والأرض: فهو خالق السماوات والأرض، وقوله تعالى: ﴿ جاعل الملائكة رسلاً ﴾ أي بينه وبين أنبيائه، ﴿ أولي أجنحة ﴾ أي يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعاً ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ أي منهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام (ليلة الإسراء) وله ستمائة جناح بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب، ولهذا قال جلَّ وعلا: ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ قال السدي: يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء، وقال الزهري: ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ يعني حسن الصوت[1]

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، روي أن رسول الله ﷺ، كان يقول إذا انصرف من الصلاة « لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد »[2]، وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: « سمع الله لمن

---

(١) رواه البخاري في الأدب، وقرىء في الشاذ (يزيد في الحلق) بالحاء المهملة .

(٢) أخرجاه في الصحيحين عن المغيرة بن شعبة .

حمده، اللهم ربنا لك الحمد ملء السماء والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، اللهم أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد». وهذه الآية كقوله تبارك وتعالى: ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله﴾ ولها نظائر كثيرة .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده، في إفراد العبادة له، كما أنه المستقل بالخلق والرزق، فكذلك فليفرد بالعبادة ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ولهذا قال تعالى: ﴿لا إله إلا هو فأنّى تؤفكون﴾ أي فكيف تؤفكون بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان ؟ والله أعلم .

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾

يقول تبارك وتعالى: وإن يكذبوك يا محمد – هؤلاء المشركون بالله – ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة، فإنهم كذلك جاءوا قومهم بالبينات، وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم، ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي وسنجزيهم على ذلك أوفر الجزاء، ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق﴾ أي المعاد كائن لا محالة، ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ أي العيشة الدنيئة، بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم، فلا تتلهوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية، ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ وهو الشيطان، أي لا يفتننكم الشيطان ويصرفكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته، فإنه غرار كذاب أفاك. وهذه كالآية التي في آخر لقمان: ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾، وقال زيد بن أسلم: هو الشيطان، كما قال المؤمنون للمنافقين يوم القيامة ﴿وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور﴾ ثم بيَّن تعالى عداوة إبليس لابن آدم، فقال: ﴿إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدواً﴾ أي هو مبارز لكم بالعداوة. فعادوه أنتم أشد العداوة وخالفوه، وكذبوه فيما يغركم به، ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ أي إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير، فهذا هو العدو المبين، وهذه كقوله تعالى: ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو ؟ بئس للظالمين بدلا﴾ .

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ

سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن، وأن الذين آمنوا بالله ورسله ﴿وعملوا الصالحات لهم مغفرة﴾ أي لما كان منهم من ذنب ﴿وأجر كبير﴾ على ما عملوه من خير. ثم قال تعالى: ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ يعني كالكفار والفجار، يعملون أعمالاً سيئة وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، أي فمن كان هكذا قد أضله الله، ألك فيه حيلة؟ ﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ أي بقدره كان ذلك، ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ أي لا تأسف على ذلك، فإن الله حكيم في قدره، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله عليم بما يصنعون﴾[1]، روى ابن أبي حاتم عند هذه الآية عن عبد الله بن الديلمي قال: أتيت عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وهو في حائط بالطائف يقال له الوهط، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى، ومن أخطأه منه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على ما علم الله عزَّ وجلَّ».

وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

كثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها، ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها، ﴿اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾، كذلك الأجساد إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها أنزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميعاً، ونبتت الأجساد في قبورها كما تنبت الحبة في الأرض، ولهذا جاء في الصحيح: «كل ابن آدم يبلى إلا عَجْبَ الذنب، منه خلق ومنه يركب»، ولهذا قال تعالى: ﴿كذلك النشور﴾. وتقدم في الحج حديث أبي رزين، قلت: يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال ﷺ: «يا أبا رزين أما مررت بوادي

---

(١) في اللباب: أخرج جويبر: نزلت ﴿أفمن زين﴾ حين قال النبي ﷺ اللهم أعز دينك بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل فهدى الله عمر وأضل أبا جهل.

قومك ممحلاً ثم مررت به يهتز خضراً» قلت: بلى، قال ﷺ: «فكذلك يحيي الله الموتى»، وقوله تعالى: ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً﴾ أي من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله تعالى فإنه يحصل له مقصوده، لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة، وله العزة جميعاً، كما قال تعالى: ﴿أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً﴾، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ قال مجاهد: ﴿من كان يريد العزة﴾ بعبادة الأوثان ﴿فإن العزة لله جميعاً﴾، وقال قتادة: ﴿من كان يريد العزة فإن العزة لله جميعاً﴾ أي فليتعزز بطاعة الله عزَّ وجلَّ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ يعني الذكر والتلاوة والدعاء؛ روى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله تعالى، إن العبد المسلم إذا قال: سبحان الله وبحمده والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر تبارك الله، أخذهن ملَك فجعلهن تحت جناحه، ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن، حتى يجيء بهن وجه الله عزَّ وجلَّ، ثم قرأ عبد الله رضي الله عنه: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾. وقال كعب الأحبار: إن لسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لدوياً حول العرش كدوي النحل، يذكرن لصاحبهن، والعمل الصالح في الخزائن.

وقوله تعالى: ﴿والعمل الصالح يرفعه﴾ قال ابن عباس: الكلم الطيب ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله عزَّ وجل، والعمل الصالح أداء الفريضة، فمن ذكر الله تعالى في أداء فرائضه حمل عمله ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله عزَّ وجلَّ، ومن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله فكان أولى به، وكذا قال مجاهد: العمل الصالح يرفع الكلام الطيب، وقال إياس بن معاوية: لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام، وقال الحسن وقتادة: لا يقبل قول إلا بعمل، وقوله تعالى: ﴿والذين يمكرون السيئات﴾ قال مجاهد: هم المراؤون بأعمالهم، يعني يمكرون بالناس، يوهمون أنهم في طاعة الله تعالى وهم بغضاء إلى الله عزَّ وجلَّ يراؤون بأعمالهم ﴿ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾، وقال ابن أسلم: هم المشركون، والصحيح أنها عامة، والمشركون داخلون بطريق الأولى، ولهذا قال تعالى: ﴿لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور﴾ أي يفسد ويبطل، ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنُّهَى، فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى رداءها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على غبي، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم بل ينكشف لهم عن قريب، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية، وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة﴾ أي ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾ أي ذكراً وأنثى لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجاً من جنسكم لتسكنوا إليها، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعمله﴾ أي هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء بل ﴿ما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾، وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار﴾ وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ أي ما يعطى بعض النطف من العمر

---

(١) رواه ابن جرير، وإسناده صحيح إلى كعب الأحبار.

الطويل يعلمه وهو عنده في الكتاب الأول ﴿وما ينقص من عمره﴾ الضمير عائد على الجنس، لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله تعالى لا ينقص من عمره، وإنما عاد الضمير على الجنس. قال ابن جرير: وهذا كقولهم عندي ثوب ونصفه، أي ونصف ثوب آخر.

وروي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره﴾ الآية، يقول: ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر، وقد قضيت ذلك له، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزاد عليه، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر، والحياة ببالغ العمر، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له، فذلك قوله تعالى: ﴿ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾ يقول: كل ذلك في كتاب عنده، وقال زيد بن أسلم ﴿ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ قال: ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام. وقال عبد الرحمن في تفسيرها: ألا ترى الناس يعيش الإنسان مائة سنة وآخر يموت حين يولد فهذا هذا. وقال قتادة: والذي ينقص من عمره فالذي يموت قبل ستين سنة. وقال مجاهد ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ أي في بطن أمه يكتب له ذلك لم يخلق الخلق على عمر واحد، بل لهذا عمر، ولهذا عمر، فكل ذلك مكتوب لصاحبه بالغ ما بلغ، وقال بعضهم: بل معناه ﴿وما يعمر من معمر﴾ أي ما يكتب من الأجل ﴿ولا ينقص من عمره﴾ وهو ذهابه قليلاً قليلاً الجميع معلوم عند الله تعالى سنة بعد سنة وشهراً بعد شهر، وجمعة بعد جمعة، وساعة بعد ساعة الجميع مكتوب عند الله تعالى في كتابه، نقله ابن جرير عن أبي مالك، واختار ابن جرير الأول، ويؤيده عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»[1]، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال: «إن الله تعالى لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم في قبره فذلك زيادة العمر»، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ أي سهل عليه يسير لديه، فإن علمه شامل للجميع لا يخفى عليه شيء منها.

۞ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة، خلق البحرين العذب الزلال، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ﴿وهذا ملح أجاج﴾ أي مر وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار، وإنما تكون مالحة زُعاقاً مرة، ولهذا قال: ﴿وهذا ملح أجاج﴾ أي مر، ثم قال تعالى: ﴿ومن كل تأكلون لحماً طرياً﴾ يعني السمك ﴿وتستخرجون حلية تلبسونها﴾، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾، وقوله جلَّ وعلا: ﴿وترى الفلك فيه مواخر﴾ أي تمخره وتشقه بحيزومها وهو مقدمها المسنم الذي يشبه جؤجؤ الطير وهو صدره، وقال

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي واللفظ له.

مجاهد: تمخر الريح السفن ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام، وقوله جلَّ وعلا: ﴿لتبتغوا من فضله﴾ أي بأسفاركم بالتجارة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم، ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم وهو البحر، تتصرفون فيه كيف شئتم وتذهبون أين أردتم، ولا يمتنع عليكم شيء منه، الجميع من فضله ورحمته

يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم، في تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه، ويأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتدلان، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفاً وشتاء ﴿وسخر الشمس والقمر﴾ أي والنجوم السيارات، الجميع يسيرون بمقدار مبين، وعلى منهاج مقنن محرر، تقديراً من عزيز عليم، ﴿كل يجري لأجل مسمى﴾ أي إلى يوم القيامة، ﴿ذلكم الله ربكم﴾ أي الذي فعل هذا هو الرب العظيم الذي لا إله غيره، ﴿والذين تدعون من دونه﴾ أي من الأصنام والأنداد التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين، ﴿ما يملكون من قطمير﴾ قال ابن عباس: القطمير هو اللفافة التي تكون على نواة التمرة، أي لا يملكون من السماوات والأرض شيئاً ولا بمقدار هذا القطمير، ثم قال تعالى: ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم﴾ يعني الآلهة التي تدعونها من دون الله لا تسمع دعاءكم لأنها جماد لا أرواح فيها، ﴿ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾ أي لا يقدرون على شيء مما تطلبون منها، ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ أي يتبرأون منكم، كما قال تعالى: ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾، وقال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾، وقوله تعالى: ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾ أي ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه، مثل خبير بها، قال قتادة: يعني نفسه تبارك وتعالى فإنه أخبر بالواقع لا محالة.

* يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

يخبر تعالى بغنائه عما سواه وبافتقار المخلوقات كلها إليه، وتذللها بين يديه، فقال تعالى: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله﴾ أي هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو تعالى الغني عنهم بالذات، ولهذا

قال عزَّ وجلَّ: ﴿والله هو الغني الحميد﴾ أي هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشرعه، وقوله تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ أي لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع، ولهذا قال تعالى: ﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾، وقوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أي يوم القيامة، ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها﴾ أي وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ﴿لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ أي وإن كان قريباً إليها حتى ولو كان أباها أو ابنها، كل مشغول بنفسه وحاله، قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها﴾ الآية، قال: هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة، فيقول: يا رب سل هذا لم كان يغلق بابه دوني، وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة فيقول له: يا مؤمن إن لي عندك يداً قد عرفت كيف كنت لك في الدنيا، وقد احتجت إليك اليوم، فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه، حتى يرده إلى منزل دون منزله، وهو في النار، وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة فيقول يا بني أي والد كنت لك فيثني خيراً، فيقول له يا بني إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى، فيقول له ولده: يا أبت ما أيسر ما طلبت، ولكني أتخوف مثل ما تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً، ثم يتعلق بزوجته فيقول: يا فلانة أو يا هذه، أي زوج كنت لك فتثني خيراً، فيقول لها: إني أطلب إليك حسنة واحدة تهبين لي لعلي أنجو بها مما ترين، قال، فتقول: ما أيسر ما طلبت، ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئاً إني أتخوف مثل الذي تتخوف، يقول الله تعالى: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها﴾ الآية. ويقول تبارك وتعالى: ﴿لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً﴾، ويقول تعالى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة﴾ أي إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهى، الخائفون من ربهم الفاعلون ما أمرهم به، ﴿ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه﴾ أي ومن عمل صالحاً فإنما يعود على نفسه، ﴿وإلى الله المصير﴾ أي وإليه المرجع والمآب وهو سريع الحساب، وسيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى: كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة كالأعمى والبصير، لا يستويان بل بينهما فرق وبون كثير، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات، وهذا

مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين وهم الأحياء، وللكافرين وهم الأموات، كقوله تعالى: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي بة في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً﴾؟ فالمؤمن بصير سميع في نور يمشي على صراط مستقيم، في الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى وأصم في ظلمات يمشي لا خروج له منها، بل هو يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة، حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ﴿وظل من يحموم لا بارد ولا كريم﴾، وقوله تعالى: ﴿إن الله يسمع من يشاء﴾ أي يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ﴿وما أنت بمسمع من في القبور﴾ أي كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم، ولا تستطيع هدايتهم ﴿إن أنت إلا نذير﴾، أي إنما عليك البلاغ والإنذار والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾ أي بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ أي وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر وأزاح عنهم العلل، كما قال تعالى: ﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾، وكما قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ الآية، والآيات في هذا كثيرة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ وهي المعجزات الباهرات والأدلة القاطعات، ﴿وبالزبر﴾ وهي الكتب، ﴿وبالكتاب المنير﴾ أي الواضح البين، ﴿ثم أخذت الذين كفروا﴾، أي ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاءوهم به فأخذتهم أي بالعقاب والنكال، ﴿فكيف كان نكير﴾ أي فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً؟ والله أعلم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى منبهاً على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السماء، يخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض، إلى غير ذلك من ألوان الثمار، كما هو الشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها﴾ أي وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحمر، وفي بعضها طرائق وهي الجدد جمع جدة مختلفة الألوان أيضاً، قال ابن عباس: الجدد الطرائق، ومنها غرابيب سود، قال عكرمة: الغرابيب الجبال الطوال السود، وقال ابن جرير: والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد، قالوا: أسود غربيب، ولهذا قال بعض المفسرين في هذه الآية: هذا من المقدم والمؤخر في قوله تعالى: ﴿وغرابيب سود﴾ أي سود غرابيب، وفيما قاله نظر. وقوله تعالى: ﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك﴾ أي كذلك

الحيوانات من الأناسي (والدواب) وهو كل ما دب على القوائم (والأنعام) من باب عطف الخاص على العام كذلك هي مختلفة أيضاً، فالناس منهم بربر وحبوش في غاية السواد، وصقالبة وروم في غاية البياض، والعرب بين ذلك، والهنود دون ذلك، وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان، حتى في الجنس الواحد بل النوع الواحد، بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون، وهذا اللون، فتبارك الله أحسن الخالقين، وقد روى الحافظ البزار في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أيصبغ ربك ؟ قال ﷺ: « نعم صبغاً لا ينفض أحمر وأصفر وأبيض »[١]، ولهذا قال تعالى بعد هذا ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر .

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير ، وعنه قال: العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك به شيئاً، وأحل حلاله وحرم حرامه، وحفظ وصيته، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله، وقال سعيد بن جبير : الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله عزَّ وجلَّ، وقال الحسن البصري: العالم من خشي الرحمن بالغيب ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه، ثم تلا الحسن: ﴿إنما يخشى من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾ وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ليس العلم عن كثرة الحديث ولكن العلم عن كثرة الخشية، وقال مالك: إن العلم ليس بكثرة الرواية وإنما العلم نور يجعله الله في القلب، وقال سفيان الثوري: كان يقال: العلماء ثلاثة، عالم بالله عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله، فالعالم بالله وبأمر الله الذي يخشى الله تعالى ويعلم الحدود والفرائض، والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود والفرائض، والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله عزَّ وجلَّ .

۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين، الذين يتلون كتابه ويؤمنون به، ويعملون بما فيه من إقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله تعالى سراً وعلانية بأنهم ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾ أي يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله، ولهذا قال تعالى: ﴿ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ أي ليوفيهم ثواب ما عملوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم، ﴿إنه غفور﴾ أي لذنوبهم، ﴿شكور﴾ للقليل من أعمالهم، قال قتادة: كان مطرف رحمه الله إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القرآء .

وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾

---

(١) قال ابن كثير: روي مرسلاً وموقوفاً والله أعلم .

يقول تعالى: ﴿ والذي أوحينا إليك ﴾ يا محمد من الكتاب وهو القرآن ﴿ هو الحق مصدقاً لما بين يديه ﴾ أي من الكتب المتقدمة يصدقها، كما شهدت هي له بالتنويه وأنه منزل من رب العالمين ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ أي هو خبير بهم بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه، ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر، وفضل النبيين بعضهم على بعض ورفع بعضهم درجات، وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم، المصدق لما بين يديه من الكتب ﴿ الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ وهم هذه الأمة ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع فقال تعالى: ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ وهو المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات، ﴿ومنهم مقتصد﴾ وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات، ﴿ ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات، قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ قال: هم أمة محمد ﷺ ورثهم الله تعالى كل كتاب أنزله، فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب، روى الطبراني عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم: « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » قال ابن عباس: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ، وكذا روي عن غير واحد من السلف: أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين على ما فيه من عوج وتقصير. وقال آخرون: بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ولا من المصطفين الوارثين للكتاب. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ قال: هو الكافر، وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ قال: هم أصحاب المشأمة، وقال الحسن وقتادة: هو المنافق، ثم قد قال ابن عباس والحسن وقتادة: وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام المذكورة في أول سورة الواقعة وآخرها. والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة، وهذا اختيار ابن جرير، كما هو ظاهر الآية، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضاً، ونحن إن شاء الله تعالى نورد منها ما تيسر

الحديث الأول: قال الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: في هذه الآية ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ قال: « هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم في الجنة »[1]، ومعنى قوله بمنزلة واحدة: أي في أنهم من هذه الأمة وأنهم من أهل الجنة، وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة. **الحديث الثاني:** قال الإمام أحمد عن أبي

(١) الحديث غريب من هذا الوجه وفي إسناده من لم يسم، ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير من طريق أخرى يتقوى بها هذا الحديث.

الدرداء رضي الله عنه قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « قال الله تعالى: ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حساباً يسيراً، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾ » . **الحديث الثالث** : قال الحافظ الطبراني عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما: ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ الآية، قال، قال رسول الله ﷺ: « كلهم من هذه الأمة » ، **الحديث الرابع** : قال ابن أبي حاتم عن عوف بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « أمتي ثلاثة أثلاث، فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة، وثلث يمحصون ويكشفون، ثم تأتي الملائكة فيقولون: وجدناهم يقولون لا إله إلا الله وحده، يقول الله تعالى: صدقوا، لا إله إلا أنا أدخلوهم الجنة، بقولهم لا إله إلا الله وحده واحملوا خطاياهم على أهل النار، وهي التي قال الله تعالى: ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾[1]

(أثر عن ابن مسعود رضي الله عنه)

قال ابن جرير عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة، ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول الله عزّ وجلّ ما هؤلاء؟ وهو أعلم تبارك وتعالى، فتقول الملائكة: هؤلاء جاءوا بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا بك شيئاً، فيقول الرب عزّ وجلّ: أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي، وتلا عبدالله رضي الله عنه هذه الآية: ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ الآية. **أثر آخر** : قال أبو داود الطيالسي، عن عقبة بن صهبان الهناني قال: سألت عائشة رضي الله عنها عن قول الله تعالى ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه﴾ الآية، فقالت لي: « يا بني، هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ، شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثراً من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم ، قال: فجعلت نفسها رضي الله عنها معنا »، وهذا منها رضي الله عنها من باب الهضم والتواضع، وإلا فهي من أكبر السابقين بالخيرات لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. وقال عوف الأعرابي، عن كعب الأحبار رحمه الله قال: إن الظالم لنفسه من هذه الأمة، والمقتصد، والسابق بالخيرات كلهم في الجنة، ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير * جنات عدن يدخلونها - إلى قوله عزّ وجلّ - والذين كفروا لهم نار جهنم﴾ قال: فهؤلاء أهل النار[2]، وعن محمد بن الحنفية رضي الله عنه قال: إنها أمة مرحومة، الظالم مغفور له،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وهو غريب جداً كما قال ابن كثير .

(٢) رواه ابن جرير من طرق عن عوف عن كعب الأحبار .

والمقتصد في الجنان عند الله، والسابق بالخيرات في الدرجات عند الله . فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام، وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة في هذه الأمة، والعلماء أغبط الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة، فإنهم كما روى الإمام أحمد رحمه الله عن قيس بن كثير قال: قدم رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء رضي الله عنه وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك أي أخي؟ قال: حديث بلغني أنك تحدث بـه عن رسول الله ﷺ، قال: أما قدمت لتجارة؟ قال: لا، قال: أما قدمت لحاجة؟ قال: لا. قال: أما قدمت الا في طلب هذا الحديث؟ قال: نعم، قال رضي الله عنه، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يطلب فيها علماً سلك الله تعالى بـه طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإنه ليستغفر للعالم من في السماوات والأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ بـه أخذ بحظ وافر»[1]. وقد تقدم في أول (سورة طه) حديث ثعلبة بن الحكم عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء إني لم أضع علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريـد أن أغفر لكم على ما كـان منكم ولا أبالي».

جَنَّـٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾

يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة، مأواهم جنات عدن، أي جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على الله عزّ وجلّ ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً﴾ كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» ﴿ولباسهم فيهـا حرير﴾، ولهـذا كان محظوراً عليهم في الدنيا فأباحه الله تعالى لهم في الآخرة، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة». وقال: «هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة». وقال ابن أبي حاتم، عن أبي أمامة رضي الله عنه حدَّث أن رسول الله ﷺ ذكر حلي أهل الجنة فقال: «مسورون بالذهب والفضة، مكللة بالدر، وعليهم أكاليل من در وياقوت متواصلة، وعليهم تاج كتاج الملوك، شباب جرد مرد مكحولون». ﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ وهو الخوف من المحذور أزاحه عنا وأراحنا مما كنا نتخوفه ونحذره من هموم الدنيا والآخرة، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا نشورهم، وكأني بأهل (لا إله إلا الله) ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن»[2]. وروى الطبراني، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ولا في

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ورواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه. (٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عمر مرفوعاً.

القبور ولا في النشور، وكأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور »، قال ابن عباس: غفر لهم الكثير من السيئات، وشكر لهم اليسير من الحسنات ﴿ الذي أحلنـا دار المقامة من فضله﴾ يقولون: الذي أعطانا هذه المنزلة، وهذا المقام من فضله ومنّه ورحمته، لم تكن أعمالنا تساوي ذلك، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « لن يدخل أحداً منكم عملُه الجنةَ » قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمة منه وفضل » ﴿ لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾ أي لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء، والنصَب واللغوب كل منهما يستعمل في التعب، وكأن المراد بنفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم والله أعلم، فمن ذلك أنهم كانوا يدئبون أنفسهم في العبادة في الدنيا، فسقط عنهم التكليف بدخولها، وصاروا في راحة دائمة مستمرة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء شرع في بيان ما للأشقياء، فقال: ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا﴾، كما قال تعالى: ﴿ لا يموت فيها ولا يحيى﴾، وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: « أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون »، وقال عزّ وجلّ: ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾ فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك، قال الله تعالى: ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهـم من عذابها ﴾ ، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون ٭ لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون﴾، وقال جلّ وعلا: ﴿ كلما خبت زدناهم سعيراً﴾، ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾، ثم قال تعالى: ﴿ كذلك نجزي كل كفور﴾ أي هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق، وقوله جلت عظمته: ﴿وهم يصطرخون فيها﴾ أي ينادون فيها يجأرون إلى الله عزّ وجلّ بأصواتهم: ﴿ ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾ أي يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول، وقـد علم الرب جل جلاله أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا ﴿ لعادوا لمـا نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم، ولذا قال ههنا: ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير﴾ ؟ أي أو ما عشتم في الدنيا أعماراً، لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم بـه في مـدة عمركم ؟ وقـد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد ههنا، فروي أنه مقـدار سبع عشرة سنة[1] ، وقال قتادة: اعلموا أن طول العمر حجة فنعوذ بالله أن نعير بطول العمر ، قد نزلت هـذه الآية : ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ وإن فيهم لابن ثماني عشرة سنة، وقال وهب بن منبه ﴿ أو لم

(١) هذا قول علي بن الحسين زين العابدين رضي الله عنهما .

نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ قال: عشرين سنة، وقال الحسن: أربعين سنة، وقال مسروق: إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فليأخذ حذره من الله عزّ وجلّ[١] . وروى ابن جرير عن مجاهد قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: العمر الذي أعذر الله تعالى لابن آدم ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ أربعون سنة، وهذا هو اختيار ابن جرير، ثم روي عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله: ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ ستون سنة، فهذه الرواية أصح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضاً، لما ثبت في ذلك من الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « لقد أعذر الله تعالى إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة، لقد أعذر الله تعالى إليه، لقد أعذر الله تعالى إليه »[٢] . وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « أعذر الله عزّ وجلّ إلى امرئ أخر عمره حتى بلغ ستين سنة » ، وفي رواية: « من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله عزّ وجلّ إليه في العمر »[٣] . وذكر بعضهم أن العمر الطبيعي عند الأطباء مائة وعشرون سنة، فالإنسان لا يزال في ازدياد إلى كمال الستين، ثم يشرع بعد هذا في النقص والهرم، كما قال الشاعر :

إذا بلغ الفتى ستين عاماً فقد ذهب المسرة والفتاء

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله تعالى إلى عباده به، ويزيح به عنهم العلل، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة، كما ورد بذلك الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك »[٤] . وقوله تعالى: ﴿ وجاءكم النذير ﴾ روي عن ابن عباس وعكرمة وقتادة أنهم قالوا: يعني الشيب، وقال السدي وعبدالرحمن بن زيد: يعني به رسول الله ﷺ، وقرأ ابن زيد: ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ وهذا هو الصحيح عن قتادة أنه قال: احتج عليهم بالعمر والرسل، وهذا اختيار ابن جرير وهو الأظهر، لقوله تعالى ﴿ لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ أي لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل فأبيتم وخالفتم، وقال تعالى: ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير * فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ أي فذوقوا عذاب النار، جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعمالكم، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه، من العذاب والنكال والأغلال » .

* إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي

---

(١) وهذه رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه الإمام أحمد وفي لفظ للنسائي « من عمّره الله تعالى ستين سنة فقد أعذر إليه في العمر » .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم والإمام أحمد .

(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حديث حسن غريب .

ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾

يخبر تعالى بعلمه غيب السماوات والأرض، وأنه يعلم ما تكنه السرائر، وما تنطوي عليه الضمائر، وسيجازي كل عامل بعمله، ثم قال عزّ وجلّ ﴿هو الذي جعلكم خلائف في الأرض﴾ أي يخلف قوم لآخرين وجيل لجيل قبلهم، ﴿فمن كفر فعليه كفره﴾ أي فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً﴾ أي كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بخلاف المؤمنين، فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله، ارتفعت درجته ومنزلته في الجنة وزاد أجره، وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله﴾ أي من الأصنام والأنداد، ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات﴾ أي ليس لهم شيء من ذلك، ما يملكون من قطمير، وقوله: ﴿أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه﴾ أي أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولونه من الشرك والكفر، ليس الأمر كذلك ﴿بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً﴾ أي بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وأمانيهم التي تمنوها لأنفسهم، وهي غرور وباطل وزور، ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة، التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما فقال: ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾ أي أن تضطربا عن أماكنهما كما قال عزّ وجلّ ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾، وقال تعالى: ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾، ﴿ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده﴾ أي لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو، وهو مع ذلك حليم غفور، أي يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه، وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل، ويستر آخرين ويغفر، ولهذا قال تعالى: ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ

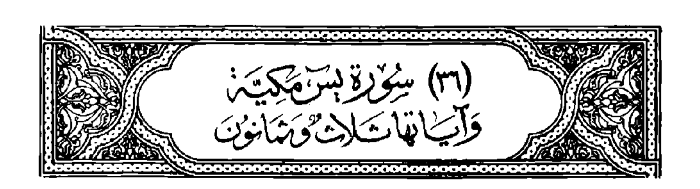
فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله ﴿ جهد أيمانهم ﴾ قبل إرسال الرسول إليهم ﴿ لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ﴾ أي من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل، كقوله تعالى: ﴿ أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴾ ، وكقوله تعالى: ﴿ وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين . فكفروا بـه فسوف يعلمون ﴾، قال الله تعالى : ﴿ فلما جاءهم نذير ﴾ وهو محمد ﷺ بما أنزل معه من الكتاب العظيم وهو القرآن المبين ﴿ ما زادهم إلا نفوراً ﴾ أي ما ازدادوا إلا كفراً إلى كفرهم، ثم بيَّن ذلك بقوله: ﴿ استكباراً في الأرض ﴾ أي استكبروا عن اتباع آيات الله، ﴿ ومكر السيء ﴾ أي ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله، ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ أي وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم، قال محمد بن كعب القرظي: ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به، من مكر، أو بغي، أو نكث، وتصديقها في كتاب الله تعالى: ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾، ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾، ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾، وقوله عزّ وجلّ : ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴾ يعني عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره، ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ أي لا تغير ولا تبدل بل هي جارية كذلك في كل مكذب ﴿ ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ أي ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ﴾ ولا يكشف ذلك عنهم ولا يتولهم عنهم أحد، والله أعلم .

۞ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين، بما جئتهم بـه من الرسالة، سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل، كيف دمر الله عليهم فخلت منهم منازلهم، وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم، بعد كمال القوة وكثرة العدد والعدد، وكثرة الأموال والأولاد، فما أغنى ذلك شيئاً ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء ، لأنه تعالى لا يعجزه شيء في السماوات والأرض، ﴿ إنه كان عليماً قديراً ﴾ أي عليم بجميع الكائنات، قدير على مجموعها، ثم قال تعالى: ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ أي لو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل السماوات والأرض، وما يملكونه من دواب وأرزاق، قال سعيد بن جبير والسدي في قوله تعالى: ﴿ ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ أي لما سقاهم المطر فماتت جميع الدواب ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ أي ولكن ينظرهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ، ويوفي كل عامل بعمله، فيجازي بالثواب أهل الطاعة، وبالعقاب أهل المعصية، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ فإذا جاء أجلهم، فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾ .

[آخر تفسير سورة فاطر ، ولله الحمد والمنة]



روى الترمذي عن أَنَس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « **إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن يس، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات** »[1]، وروى الحافظ أبو يعلى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « من قرأ يس في ليلة أصبح مغفوراً له، ومن قرأ حم التي يذكر فيها الدخان أصبح مغفوراً له »[2]. وقال ابن حيان في صحيحه عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله عزّ وجلّ غفر له ». وروى الإمام أحمد: عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « اقرأوها على موتاكم » يعني يس[3]. ولهذا قال بعض العلماء: من خصائص هذه السورة أنها **لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره الله تعالى**، وكأن قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة، وليسهل عليه خروج الروح والله تعالى أعلم، قال الإمام أحمد رحمه الله: كان المشيخة يقولون: إذا قرئت - يعني يس - عند الميت خفف الله عنه بها، وروى البزار عن ابن عباس قال، قال النبي ﷺ: « **لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي** »[4] **يعني يس**.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب.

(٢) أخرجه الحافظ الموصلي وإسناده جيد كذا قال ابن كثير.

(٣) أخرجه أحمد ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه.

(٤) أخرجه الحافظ البزار.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة، وروي عن ابن عباس[1] أن ﴿ يس ﴾ بمعنى يا إنسان، وقال سعيد بن جبير: هو كذلك في لغة الحبشة، وقال زيد بن أسلم: هو اسم من أسماء الله تعالى، ﴿ والقرآن الحكيم ﴾ أي المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ﴿ إنك ﴾ أي يا محمد ﴿ لمن المرسلين ۝ على صراط مستقيم ﴾ أي على منهج ودين قويم وشرع مستقيم، ﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ أي هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت بـه، تنزيل من رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ۝ صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾، وقوله تعالى: ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ يعني بهم العرب، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله، وقوله تعالى ﴿ لقد حق القول على أكثرهم ﴾، قال ابن جرير: لقد وجب العذاب على أكثرهم، بأن الله تعالى قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون، ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ بالله ولا يصدقون رسله.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾

يقول تعالى: إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء، كمن جعل في عنقه غل، فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه، فارتفع رأسه فصار مقمحاً، ولهذا قال تعالى: ﴿ فهم مقمحون ﴾ والمقمح هو الرافع رأسه، كما قالت أم زرع في كلامها: وأشرب فأتقمح، أي أشرب فأروى وأرفع رأسي تهنيئاً وترويًا، واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين وإن كانتا مرادتين، كما قال الشاعر:

فما أدري إذا يممت أرضاً أريد الخير أيهما يليني

فاكتفى بذكر الخير عن ذكر الشر، لما دل الكلام والسياق عليه، وهكذا هذا، لما كان الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق اكتفى بذكر العنق عن اليدين، قال ابن عباس: هو كقوله عزّ وجلّ: ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ يعني بذلك أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم لا يستطيعون أن يبسطوها بخير، وقال مجاهد: ﴿ فهم مقمحون ﴾ قال: رافعي رؤوسهم وأيديهم موضوعة على أفواههم، فهم مغلولون عن كل خير، وقوله تعالى: ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ﴾، قال مجاهد عن الحق: ﴿ ومن خلفهم سداً ﴾ عن الحق فهم يترددون، وقال قتادة: في الضلالات، وقوله تعالى: ﴿ فأغشيناهم ﴾ أي أغشينا أبصارهم عن الحق ﴿ فهم لا يبصرون ﴾ أي لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه، قال عبد الرحمن بن زيد: جعل الله تعالى هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان، فهم لا يخلصون إليه، وقرأ: ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب

(١) وهو قول عكرمة والضحاك والحسن وسفيان بن عيينة كذلك.

الأليم﴾، ثم قال: من منعه الله تعالى لا يستطيع، وقال عكرمة، قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً لأفعلن ولأفعلن فأنزلت: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً - إلى قوله - فهم لا يبصرون﴾ قال: وكانوا يقولون هذا محمد، فيقول: أين هو أين هو؟ لا يبصره[١].

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب قال، قال أبو جهل وهم جلوس: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكاً فإذا متم بعثتم بعد موتكم، وكانت لكم جنان خير من جنان الأردن، وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تعذبون بها، وخرج عليهم رسول الله ﷺ عند ذلك وفي يده حفنة من تراب، وقد أخذ الله تعالى على أعينهم دونه، فجعل يذروها على رؤوسهم ويقرأ: ﴿يس * والقرآن الحكيم - حتى انتهى إلى قوله تعالى - وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾، وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته وباتوا رصداء على بابه حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار، فقال: ما لكم؟ قالوا: ننتظر محمداً، قال: قد خرج عليكم، فما بقي منكم من رجل إلا وضع على رأسه تراباً، ثم ذهب لحاجته، فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب، قال: وقد بلغ النبي ﷺ قول أبي جهل فقال: «وأنا أقول ذلك إن لهم مني لذبحاً وإنه لآخذهم». وقوله تبارك وتعالى: ﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ أي قد ختم الله عليهم بالضلالة، فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به، ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر﴾ أي إنما ينتفع بانذارك المؤمنون الذين يتبعون ﴿الذِّكْر﴾ وهو القرآن العظيم، ﴿وخشي الرحمن بالغيب﴾ أي حيث لا يراه أحد إلا الله تبارك وتعالى، يعلم أن الله مطلع عليه وعالم بما يفعل، ﴿فبشره بمغفرة﴾ أي لذنوبه ﴿وأجر كريم﴾ أي كثير واسع حسن جميل كما قال تعالى: ﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾[١].

ثم قال عزّ وجلّ: ﴿إنا نحن نحيي الموتى﴾ أي يوم القيامة، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب من يشاء من الكفار، الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق، كما قال تعالى بعد ذكر قسوة القلوب: ﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾، وقوله تعالى: ﴿ونكتب ما قدموا﴾ أي من الأعمال، وفي قوله تعالى: ﴿وآثارهم﴾ قولان: **أحدهما**: نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم، وآثارهم التي أثروها من بعدهم، فنجزيهم على ذلك أيضاً إن خيراً فخير وإن شراً فشر، كقوله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً»[٢]. وهكذا **الحديث الآخر**: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: من علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده»[٣]. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ قال: ما أورثوا من الضلالة، وقال سعيد بن جبير: ﴿وآثارهم﴾ يعني ما أثروا، يقول: ما سنوا من سنة فعمل بها قوم من بعد

---

(١) أخرجه ابن جرير.

(٢) أخرجه مسلم عن جرير بن عبد الله البجلي وهو طويل وفيه قصة مجتابي النمار المضريين.

(٣) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

موتهم، وهذا القول هو اختيار البغوي. **والقول الثاني**: أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية، قال مجاهد: ﴿ما قدموا﴾ أعمالهم ﴿وآثارهم﴾ قال: خطاهم بأرجلهم[1]. وقال قتادة: لو كان الله عزّ وجلّ مغفلاً شيئاً من شأنك يا ابن آدم أغفل ما تعفي الرياح من هذه الآثار، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله، حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله تعالى أو من معصيته، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله تعالى فليفعل، وقد وردت في هذا المعنى أحاديث.

الحديث الأول: عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: خلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم: «إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد»، قالوا: نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك، فقال ﷺ: «يا بني سلمة: دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم»[2]. **الحديث الثاني**: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كانت بنو سلمة في ناحية من المدينة فأرادوا أن ينتقلوا إلى قريب من المسجد فنزلت: ﴿إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ فقال لهم النبي ﷺ: «إن آثاركم تكتب» فلم ينتقلوا[3]. وروى الحافظ البزار، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: إن بني سلمة شكوا إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد فنزلت: ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ فأقاموا في مكانهم. **الحديث الثالث**: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت الأنصار بعيدة منازلهم من المسجد فأرادوا أن يتحولوا إلى المسجد فنزلت ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ فثبتوا في منازلهم[4]. **الحديث الرابع**: عن عبدالله ابن عمرو رضي الله عنهما قال: توفي رجل بالمدينة فصلى عليه النبي ﷺ، وقال: «يا ليته مات في غير مولده» فقال رجل من الناس: ولم يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل إذا توفي في غير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره في الجنة»[5]. وروى ابن جرير عن ثابت قال: مشيت مع أَنَس رضي الله عنه فأسرعت المشي فأخذ بيدي فمشينا رويداً، فلما قضينا الصلاة قال أَنَس: مشيت مع زيد بن ثابت فأسرعت المشي، فقال: يا أَنَس أما شعرت أن الآثار تكتب؟ وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأَوْلى والأحرى، فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب فلأن تكتب تلك التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ أي وجميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ، ﴿والإمام المبين﴾ ههنا هو أم الكتاب، قاله مجاهد وقتادة وكذا في قوله تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ أي بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير أو شر كما قال عزّ وجلّ: ﴿ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء﴾، وقال تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه، ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾.

---

(١) وهو قول الحسن وقتادة.

(٢) أخرجه أحمد والإمام مسلم.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم والترمذي وقال الترمذي: حسن غريب.

(٤) أخرجه الطبراني وهو حديث موقوف.

(٥) أخرجه الإمام أحمد والنسائي.

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾

يقول تعالى واضرب يا محمد لقومك الذين كذبوك ﴿ مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون﴾. قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار : إنها مدينة انطاكية، وكان بها ملك يقال له (انطيقس) كان يعبد الأصنام، فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل وهم (صادق) و (صدوق) و (شلوم) فكذبهم .

وقوله تعالى: ﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما﴾ أي بادروهما بالتكذيب، ﴿فعززنا بثالث﴾ أي قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث[1] ، ﴿فقالوا﴾ أي لأهل تلك القرية ﴿إنا إليكم مرسلون﴾ أي من ربكم الذي خلقكم يأمركم بعبادته وحده لا شريك له ، ﴿ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ أي فكيف أوحي إليكم وأنتم بشر ونحن بشر ! فلم لا أوحي إلينا مثلكم ؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة ، وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة، كما أخبر الله تعالى عنهم ﴿ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا﴾ ! أي استعجبوا من ذلك وأنكروه، كما قال تعالى : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً﴾ ! ولهذا قال هؤلاء : ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون ۔ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون﴾ أي أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار كقوله تعالى: ﴿ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾، ﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين﴾ يقولون: إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، فإذا أطعتم كانت السعادة في الدنيا والأخرى، وإن لم تجيبوا فستعلمون غب ذلك ، والله أعلم .

قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

فعند ذلك قال لهم أهل القرية: ﴿ إنا تطيرنا بكم﴾ أي لم نر على وجوهكم خيراً في عيشنا، وقال قتادة : يقولون إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم، وقال مجاهد : يقولون : لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها ﴿ لئن لم تنتهوا لنرجمنكم﴾، قال قتادة: بالحجارة، وقال مجاهد: بالشتم ﴿وليمسنكم منا عذاب أليم﴾ أي عقوبة شديدة، فقالت لهم رسلهم: ﴿ طائركم معكم ﴾ أي مردود عليكم، كقوله تعالى في قوم فرعون: ﴿ وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله﴾، وقال قوم صالح: ﴿ اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله﴾، وقال قتادة ووهب بن منبه : أي أعمالكم معكم ، وقوله تعالى : ﴿ أئن ذكّرتم بل أنتم قوم مسرفون﴾

---

(١) قال ابن جريج: كان اسم الرسولين (شمعون) و (يوحنا) واسم الثالث (بولص) والقرية انطاكية، وقال ابن كثير: وزعم قتادة أنهم كانوا رسل المسيح عليه السلام إلى أهل أنطاكية .

أي من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له، قابلتمونا بهذا الكلام وتوعدتمونا وتهددتمونا، ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾، وقال قتادة: أي إن ذكرناكم بالله تطيرتم منا بل أنتم قوم مسرفون.

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾

قال وهب بن منبه: إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى لينصرهم من قومه، قالوا: وهو (حبيب) وكان يعمل الحرير وهو الحباك، وكان رجلاً سقيماً قد أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه مستقيم الفطرة[1]، وقال ابن عباس: اسم صاحب يس (حبيب النجار) فقتله قومه، وقال السدي: كان قصاراً، وقال قتادة: كان يتعبد في غار هناك، ﴿ قال يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ﴿ اتبعوا من لا يسألكم أجراً ﴾ أي على إبلاغ الرسالة ﴿ وهم مهتدون ﴾ فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿ ومالي لا أعبد الذي فطرني ﴾ أي وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له، ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ﴿ أأتخذ من دونه آلهة ﴾؟ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ﴿ إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ﴾ أي هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه، لا يملكون من الأمر شيئاً، فإن الله تعالى لو أرادني بسوء، ﴿ فلا كاشف له إلا هو ﴾، وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه، ولا ينقذونني مما أنا فيه ﴿ إني إذاً لفي ضلال مبين ﴾ أي إن اتخذتها آلهة من دون الله، وقوله تعالى: ﴿ إني آمنت بربكم فاسمعون ﴾ قال ابن إسحاق: يقول لقومه ﴿ إني آمنت بربكم ﴾ الذي كفرتم به ﴿ فاسمعون ﴾ أي فاسمعوا قولي. ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله ﴿ إني آمنت بربكم ﴾ أي الذي أرسلكم ﴿ فاسمعون ﴾ أي فاشهدوا لي بذلك عنده، وقد حكاه ابن جرير فقال: وقال آخرون: بل خاطب بذلك الرسل وقال لهم: اسمعوا قولي لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي، إني آمنت بربكم واتبعتكم، وهذا القول أظهر في المعنى والله أعلم، قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس: فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنع عنه، وقال قتادة: جعلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، فلم يزالوا به حتى أقعصوه، وهو يقول كذلك، فقتلوه رحمه الله.

﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ * وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ

(١) ذكره ابن إسحاق عن كعب الأحبار ووهب بن منبه.

قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾

قال ابن مسعود: إنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قصه من دبره وقال الله له: ﴿ادخل الجنة﴾ فدخلها، فهو يرزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها، وقال مجاهد: قيل لحبيب النجار: ادخل الجنة، وذلك أنه قتل فوجبت له، فلما رأى الثواب ﴿قال يا ليت قومي يعلمون﴾ قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً لا تلقاه غاشاً، لما عاين ما عاين من كرامة الله تعالى ﴿قال يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾ تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هجم عليه، وقال ابن عباس: نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يا قوم اتبعوا المرسلين﴾، وبعد مماته في قوله: ﴿يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾[1]، وقال سفيان الثوري عن أبي مجلز: ﴿بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾ بإيماني بربي وتصديقي المرسلين، ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل لي من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل، فرحمه الله ورضي عنه، فلقد كان حريصاً على هداية قومه. وقال محمد بن إسحاق، عن كعب الأحبار أنه ذكر له (حبيب بن زيد) الذي كان مسيلمة الكذاب قطعه باليمامة، حين جعل يسأله عن رسول الله ﷺ، فجعل يقول له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم، ثم يقول: أتشهد أني رسول الله، فيقول: لا أسمع، فيقول له مسيلمة لعنه الله: أتسمع هذا ولا تسمع ذاك؟ فيقول: نعم، فجعل يقطعه عضواً عضواً كلما سأله لم يزده على ذلك حتى مات في يديه، فقال كعب حين قيل له اسمه حبيب: وكان والله صاحب يس اسمه حبيب. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين﴾ يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه، غضباً منه تبارك وتعالى عليهم، لأنهم كذبوا رسله وقتلوا وليه، ويذكر عزّ وجلّ أنه ما أنزل عليهم وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم، بل الأمر كان أيسر من ذلك[2]، ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾ فأهلك الله تعالى ذلك الملك، وأهلك أهل انطاكية فبادوا عن وجه الأرض، فلم يبق منهم باقية، وقيل: ﴿وما كنا منزلين﴾ أي وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم، بل نبعث عليهم عذاباً يدمرهم، وقيل: المعنى في قوله تعالى ﴿وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء﴾ أي من رسالة أخرى إليهم[3] قال قتادة: فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾ قال ابن جرير: والأول أصح لأن الرسالة لا تسمى جنداً.

قال المفسرون: بعث الله تعالى إليهم جبريل عليه الصلاة والسلام، فأخذ بعضادتي باب بلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم لم تبق بهم روح تتردد في جسد، وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي (أنطاكية) وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام كما نص عليه قتادة وغيره، وفي ذلك نظر من وجوه: **أحدها**: أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عزّ وجلّ لا من جهة المسيح عليه السلام كما قال تعالى: ﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) قاله ابن مسعود والمعنى ما كاثرناهم بالجموع، الأمر كان أيسر علينا من ذلك.

(٣) قاله مجاهد وقتادة وقول ابن مسعود أظهر والله أعلم.

إنا إليكم مرسلون ﴾، ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ . **الثاني** : أن أهل انطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، وكانت أول مدينة آمنت بالمسيح ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربع اللاتي فيهن بتاركة، وهن (القدس) لأنها بلد المسيح و (انطاكية) لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها، و (الاسكندرية) لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البتاركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة ، ثم (رومية) لانها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم وأوطده، فإذا تقرر أن انطاكية أول مدينة آمنت، فأهل هـذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم، والله أعلم . **الثالث** : أن قصة انطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة، وقد ذكر غير واحد من السلف أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة، لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين، ذكروه عند قوله تبارك وتعالى ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾، فعلى هـذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أُخرى غير (انطاكية) كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضاً، أو تكون انطاكية إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة مدينة أُخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هـذه لم يعرف أنهـا أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم .

يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

قال ابن عباس ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ أي يا ويل العباد، وقال قتادة: ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ أي يا حسرة العباد على أنفسهم، على ما ضيعت من أمر الله وفرطت في جنب الله، والمعنى: يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب، كيف كذبوا رسل الله وخالفوا أمر الله ؟ فإنهم كانوا ﴿ ما يأتيهم من رسول إلا كـانوا بـه يستهزئون ﴾ أي يكذبونه ويستهزئون بـه ويجحدون ما أرسل بـه من الحق، ثم قال تعالى ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ أي ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل، كيف لم يكن لهم إلى هـذه الدنيا كرة ولا رجعة، وقوله عزّ وجلّ : ﴿ وإن كل لمّا جميع لدينا محضرون ﴾ أي وإن جميع الأمم الماضية والآتية، ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله جلّ وعلا، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها، ومعنى هذا كقوله جلّ وعلا ﴿ وإنَّ كلاً لمّا ليوفينهم ربك أعمالهم ﴾ .

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

يقول تبارك وتعالى : ﴿ وآية لهم ﴾ أي دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى ﴿ الأرض

الميتة ﴾ إي إذا كانت ميتة هامدة لا شيء فيها من النبات، فإذا أنزل الله تعالى عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ولهذا قال تعالى: ﴿ أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ﴾ أي جعلنا رزقاً لهم ولأنعامهم، ﴿ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ﴾ أي جعلنا فيها أنهاراً سارحة في أمكنة يحتاجون إليها، ﴿ ليأكلوا من ثمره ﴾ لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم، عطف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها، وقوله جلّ وعلا: ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ أي وما ذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم، لا بسعيهم ولا كدهم ولا بحولهم وقوتهم[١]، ولهذا قال تعالى: ﴿ أفلا يشكرون ﴾ أي فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى، واختار ابن جرير[٢] أن (ما) في قوله تعالى: ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ بمعنى (الذي) تقديره: ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم، أي غرسوه ونصبوه، قال: وهي كذلك في قراءة ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: ﴿ ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ﴾ أي من زروع وثمار ونبات، ﴿ ومن أنفسهم ﴾ فجعلهم ذكراً وأنثى ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ أي من مخلوقات شتى لا يعرفونها كما قال جلت عظمته: ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾.

* وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى: ومن الدلالة لهم على قدرته تبارك وتعالى العظيمة، خلق الليل والنهار، هذا بظلامه وهذا بضيائه، وجعلهما يتعاقبان، يجيء هذا فيذهب هذا، ويذهب هذا فيجيء هذا، كما قال تعالى: ﴿ يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾، ولهذا قال عزّ وجلّ ههنا: ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ أي نصرمه منه فيذهب فيقبل الليل، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ فإذا هم مظلمون ﴾ كما جاء في الحديث: « إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم » هذا هو الظاهر من الآية؛ وقوله جل جلاله: ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ في معنى قوله: ﴿ لمستقر لها ﴾ قولان: **أحدهما**: أن المراد مستقرها المكاني، وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب، وهي أينما كانت فهي تحت العرش، هي وجميع المخلوقات لأنه سقفها، فحينئذ تسجد وتستأذن في الطلوع كما جاءت بذلك الأحاديث، روى البخاري عن أبي ذر رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال ﷺ: « يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس »؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: « فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله تعالى: ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ »، وروى البخاري أيضاً عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تبارك وتعالى: ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ قال ﷺ: « مستقرها تحت

---

(١) قاله ابن عباس وقتادة فتكون (ما) في قوله: ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ للنفي.

(٢) قوله (واختار ابن جرير) بل جزم بأن (ما) اسم موصول بمعنى (الذي) ولم يحك غيره إلا احتمالاً.

العرش » ، وعنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد حين غربت الشمس، فقال ﷺ: « يا أبا ذر أتدري أين تذهب الشمس » ؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: « فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها عزّ وجلّ، فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها ارجعي من حيث جئت فترجع إلى مطلعها وذلك مستقرها — ثم قرأ — ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾ »[1]. **والقول الثاني** : أن المراد بمستقرها هو منتهى سيرها وهو يوم القيامة، يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكوّر وينتهي هذا العالم إلى غايته، وهذا هو مستقرها الزماني ، قال قتادة : ﴿لمستقر لها﴾ أي لوقتها ولأجلٍ لا تعدوه ، وقيل: المراد أنها لا تزال تنتقل في مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها، ثم تنتقل في مطلع الشتاء إلى مدة لا تزيد عليها[2] ، وقرأ ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم (والشمس تجري لا مستقر لها) اي لا قرار لها ولا سكون، بل هي سائرة ليلاً ونهاراً لا تفتر ولا تقف، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ أي لا يفتران ولا يقفان إلى يوم القيامة، ﴿وذلك تقدير العزيز﴾ أي الذي لا يخالف ولا يمانع ﴿العليم﴾ بجميع الحركات والسكنات، وقد قدَّر ذلك ووقَّته على منوال، لا اختلاف فيه ولا تعاكس، كما قال عزّ وجلّ: ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم﴾، ثم قال جلّ وعلا : ﴿والقمر قدرناه منازل﴾ أي جعلناه يسير سيراً آخر ، يستدل به على مضي الشهور ، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار ، كما قال عزّ وجلّ: ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ .

وقال تعالى : ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ الآية ، وقال تبارك وتعالى : ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيءٍ فصلناه تفصيلاً﴾، فجعل الشمس لها ضوء يخصها، والقمر له نور يخصه، وفاوت بين سير هذه وهذا، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوء واحد، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاء، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، وجعل سلطانها بالنهار فهي كوكب نهاري، وأما القمر فقدره منازل يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور ، ثم يزداد نوراً في الليلة الثانية ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياء وإن كان مقتبساً منْ الشمس ، حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر ، حتى يصير ﴿كالعرجون القديم﴾ قال ابن عباس: وهو أصل العذق، وقال مجاهد ﴿العرجون القديم﴾ : أي العذق اليابس، يعني ابن عباس أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى ، ثم بعد هذا يبديه الله تعالى جديداً في أول الشهر الآخر . وقوله تبارك وتعالى: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر﴾ قال مجاهد: لكل منهما حد لا يعدوه ولا يقصر دونه ، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا، وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر﴾ قال: ذلك ليلة الهلال، وقال الثوري: لا يدرك هذا ضوء هذا ولا هذا ضوء هذا، وقال عكرمة في قوله عزّ وجلّ : ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر﴾ يعني أن لكل منهما سلطاناً فلا ينبغي للشمس

(١) أخرجه الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه .

(٢) هذه رواية عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

أن تطلع بالليل، وقوله تعالى: ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ يقول: لا ينبغي إذا كان الليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار ، فسلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل، وقال الضحّاك: لا يذهب الليل من ههنا حتى يجيء النهار من ههنا وأومأ بيده إلى المشرق، وقال مجاهد: ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ المعنى أنه لا فترة بين الليل والنهار ، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ، لأنهما مسخران دائبين يتطالبان طلباً حثيثاً، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ يعني الليل والنهار والشمس والقمر كلهم ﴿ يسبحون ﴾ أي يدورون في فلك السماء[1] ، قال ابن عباس: في فلكة كفلكة المغزل، وقال مجاهد: الفلك كحديدة الرحى أو كفلكة المغزل، لا يدور المغزل إلا بها ولا تدور إلا به .

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

يقول تبارك وتعالى : ودلالة لهم أيضاً على قدرته تبارك وتعالى، تسخيره البحر ليحمل السفن، فمن ذلك بل أوله سفينة نوح عليه الصلاة والسلام، التي أنجاه الله تعالى فيها بمن معه من المؤمنين، ولهذا قال عزّ وجلّ ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم ﴾ أي آباءهم ﴿ في الفلك المشحون ﴾ أي في السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات، التي أمره الله تبارك وتعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، قال ابن عباس ﴿ المشحون ﴾ الموقر ، وقال الضحّاك وقتادة : هي سفينة نوح عليه الصلاة والسلام، وقوله جلّ وعلا : ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك الإبل، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها ؛ وقال السدي في رواية: هي الأنعام، وقال ابن جرير : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أتدرون ما قوله تعالى: ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ ؟ قلنا: لا ، قال: هي السفن جعلت من بعد سفينة نوح عليه الصلاة والسلام على مثلها، وكذا قال الضحّاك وقتادة: المراد بقوله تعالى: ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ أي السفن ، ويقوي هذا المذهب في المعنى قوله جلّ وعلا : ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ۝ لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾، وقوله عزّ وجل: ﴿ وإن نشأ نغرقهم ﴾ يعني الذين في السفن، ﴿ فلا صريخ لهم ﴾ أي فلا مغيث لهم مما هم فيه ، ﴿ ولا هم ينقذون ﴾ أي مما أصابهم ، ﴿ إلا رحمة منا ﴾ وهذا استثناء منقطع تقديره : ولكن برحمتنا نسيركم في البر والبحر ونسلمكم إلى أجل مسمى ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ومتاعاً إلى حين ﴾ أي إلى وقت معلوم عند الله عزّ وجلّ .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾

(١) قاله ابن عباس وعكرمة والضحاك والحسن وقتادة وعطاء الخراساني ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ في فلك يسبحون ﴾ في فلك بين السماء والأرض .

يقول تعالى مخبراً عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم، وعدم اكتراثهم بذنوبهم التي أسلفوها ، وما يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة : ﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم﴾ قال مجاهد: من الذنوب، ﴿ لعلكم ترحمون﴾ أي لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه، وتقدير الكلام أنهم لا يجيبون إلى ذلك بل يعرضون عنه، واكتفى عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم﴾ : أي على التوحيد وصدق الرسل، ﴿ إلا كانوا عنها معرضين﴾ أي لا يتأملونها ولا يقبلونها ولا ينتفعون بها، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله﴾ أي وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿ قال الذين كفروا للذين آمنوا﴾ أي قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق، محاجين لهم فيما أمروهم به: ﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه﴾ أي هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم، لو شاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه، فنحن نوافق مشيئة الله تعالى فيهم ﴿ إن أنتم إلا في ضلال مبين﴾ أي في أمركم لنا بذلك .

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم : ﴿ متى هذا الوعد﴾، كما قال تعالى: ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون﴾ أي ما ينتظرون إلا صيحة واحدة ، وهذه والله أعلم « نفخة الفزع » ينفخ في الصور نفخة الفزع ، والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم، فبينما هم كذلك إذ أمر الله عز وجل إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدّها ، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً، وهي صفحة العنق يتسمع الصوت من قبل السماء ، ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار تحيط بهم من جوانبهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ فلا يستطيعون توصية﴾ أي على ما يملكونه، الأمر أهم من ذلك، ﴿ ولا إلى أهلهم يرجعون﴾، وقد وردت ههنا آثار وأحاديث ذكرناها في موضع آخر، ثم يكون بعد هذا « **نفخة الصعق** » لتي تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحي القيوم، ثم بعد ذلك « **نفخة البعث** » والله أعلم .

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

هذه هي النفخة الثالثة وهي نفخة (البعث والنشور) للقيام من الأجداث والقبور ، ولهذا قال تعالى: ﴿ فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾ والنسلان هو المشي السريع، كما قال تعالى: ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعاً﴾ الآية، ﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾ ؟ يعنون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها، فلما عاينوا ما كذبوا به في محشرهم ﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾ ؟ وهذا لا ينفي

عذابهم في قبورهم، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقـاد، قال أبي بن كعب ومجاهد والحسن : ينامون نومة قبل البعث، قال قتادة: وذلك بين النفختين، فلذلك يقولون: ﴿ من بعثنا من مرقدنا﴾ فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون: ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ وقال الحسن: إنما يجيبهم بذلك الملائكة[1] ، وقال عبدالرحمن ابن زيد: الجميع من قول الكفار ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ نقـله ابن جرير ، واختار الأول وهو أصح، وذلك كقوله تبارك وتعالى في الصافات: ﴿ وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين * هذا يوم الفصل الذي كنتم بـه تكذبون﴾، وقوله تعالى: ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينـا محضرون﴾، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة﴾، وقال جلّت عظمته: ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾، وقال جل جلاله ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾ أي إنما نأمرهم أمراً واحداً فإذا الجميع محضرون، ﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئاً﴾ أي من عملها ﴿ ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ .

إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة : أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات، فنزلوا في روضات الجنات، أنهم في شغل عن غيرهم، بمـا هم فيه من النعيم المقيم، والفوز العظيم، قال الحسن البصري: في شغل عما فيه أهل النار من العذاب، وقال مجاهد: ﴿ في شغل فاكهون﴾ أي في نعيم معجبون به، وقال ابن عباس: ﴿ فاكهون﴾ أي فرحون، قال ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة في قوله تبارك وتعالى: ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون﴾ قالوا: شغلهم افتضاض الأبكار، وقال ابن عباس في رواية عنه: ﴿ في شغل فاكهون﴾ أي بسماع الأوتار[2] ، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ هم وأزواجهم﴾ قال مجاهد: وحلائلهم ﴿ في ظلال﴾ أي في ظلال الأشجار ﴿ على الأرائك متكئون﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ﴿ الأرائك﴾ هي السرر تحت الحجال، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ لهم فيها فاكهة﴾ أي من جميع أنواعها ﴿ ولهم ما يدعون﴾ أي مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ. عن أسامة ابن زيد رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: « ألا هل مشمر إلى الجنة ! فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور كلها يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سلامة، وفاكهة خضرة، وخير ونعمة في محلة عالية بهية »، قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمرون لهـا، قال ﷺ: « قولوا إن شاء الله »، فقال القوم: إن شاء الله »[3] . وقوله تعالى: ﴿ سلام قولاً من رب رحيم﴾ قال ابن عباس: فإن الله تعالى نفسه سلام على أهل الجنة، وهذا كقوله تعالى: ﴿ تحيتهم يوم يلقونه

---

(١) قال ابن كثير : ولا منافاة بين القولين إذ الجمع ممكن والقول الأول قاله غير واحد من السلف والله أعلم .

(٢) قال أبو حاتم: لعله غلط من المستمع وإنما هو افتضاض الأبكار .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه ابن ماجه في كتاب الزهد من سننه .

سلام﴾، وقد روي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾، قال: فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته عليهم وفي ديارهم»[1].

* وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة، من أمره لهم (أن يمتازوا) بمعنى يتميزوا عن المؤمنين في موقفهم، كقوله تعالى: ﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾، وقال ﴿يومئذ يصّدعون﴾ أي يصيرون صدعين فرقتين، وقوله تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوّ مبين﴾ هذا تقريع من الله تعالى للكفرة من بني آدم، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدوّ لهم مبين، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم، ولهذا قال تعالى ﴿وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾ أي قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان وأمرتكم بعبادتي، وهذا هو الصراط المستقيم، فسلكتم غير ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً﴾ يقال: جبلا بكسر الجيم وتشديد اللام، والمراد بذلك الخلق الكثير، وقوله تعالى: ﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾ أي أفما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به وعدولكم إلى اتباع الشيطان؟ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة أمر الله تعالى جهنم فيخرج منها عنق ساطع مظلم يقول: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ فيتميز الناس ويجثون، وهي التي يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾»[2].

* هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

يقال للكفرة من بني آدم يوم القيامة وقد برزت الجحيم لهم تقريعاً وتوبيخاً ﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ أي هذه التي حذرتكم الرسل فكذبتموهم، ﴿اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون﴾، كما قال تعالى: ﴿يوم يدّعون

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، قال ابن كثير: وفي إسناده نظر، ورواه ابن ماجه في كتاب السنّة من سننه.
(٢) أخرجه ابن جرير عن أبي هريرة مرفوعاً.

إلى نار جهنم دعّاً هـذه النار التي كنتم بهـا تكذبون﴾، وقوله تعالى: ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بمـا كانوا يكسبون﴾، هذا حـال الكفار والمنافقين يوم القيامة حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا ويحلفون ما فعلوه، فيختم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم بمـا عملت، عن أَنَس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال ﷺ: «أتدرون مم أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز عليَّ إلا شاهداً من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنطق بعمله، ثم يخلى بينه وبـين الكلام، فيقول: بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنـت أناضل»[1]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ في حديث القيامة الطويل قال فيه: «ثم يلقى الثالث فيقول: ما أنت؟ فيقول: أنا عبدك آمنت بك وبنبيك وبكتابك، وصمت وصلّيت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع - قال - فيقال له ألا نبعث عليك شاهدنا؟ - قال: فيفكر في نفسه من الذي يشهد عليه، فيختم على فيه، ويقال: لفخذه انطقي - قال - فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بمـا كان يعمل، وذلك المنافق، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك الذي يسخط الله تعالى عليه»[2].

وروى ابن جرير عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة، فيعرض عليه ربه عمله فيما بينه وبينه فيعترف فيقول: نعم أي رب عملت عملت عملت، قال: فيغفر الله تعالى له ذنوبه ويستره منها، قال: فما على الأرض خليقة ترى من تلك الذنوب شيئاً، وتبدو حسناته فود النـاس كلهم يرونها، ويدعى الكافر والمنافق للحساب فيعرض عليه ربه عمله فيجحد، ويقول: أي رب وعزتك، لقد كتب عليَّ هذا الملك ما لم أعمل، فيقول له الملك: أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك أي رب ما عملته، فإذا فعل ذلك ختم الله تعالى على فيه، قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: فإني أحسب أول ما ينطق منه الفخذ اليمنى، ثم تلا: ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بمـا كانوا يكسبون﴾[3]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون﴾، قال ابن عباس في تفسيرها يقول: ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى فكيف يهتدون؟ وقال مرة: أعميناهم، وقال الحسن البصري: لو شاء الله لطمس على أعينهم، فجعلهم عمياً يترددون، وقال السدي: ولو نشاء أعمينا أبصارهم، وقال مجاهد وقتادة والسدي: ﴿فاستبقوا الصراط﴾ يعني الطريق، وقال ابن زيد يعني بالصراط ههنا الحق فأنى يبصرون وقـد طمسنا على أعينهم؟ وقال ابن عباس ﴿فأنى يبصرون﴾ لا يبصرون الحق، وقوله عزّ وجل: ﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم﴾ قال ابن عباس: أهلكناهم، وقال السدي: يعني لغيرنا خلقهم، وقال أبو صالح: لجعلناهم حجارة، وقال الحسن البصري وقتادة: لأقعدهم على أرجلهم، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فما استطاعوا مضياً﴾ أي إلى الأمام ﴿ولا يرجعون﴾ إلى وراء، بل يلزمون حالاً واحداً لا يتقدمون ولا يتأخرون.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه مسلم والنسائي بنحوه.

(٢) أخرجه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة بطوله.

(٣) أخرجه ابن جرير وهو حديث موقوف على أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره، ردّ إلى الضعف بعد القوة، والعجز بعد النشاط، كما قال تعالى ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾، والمراد من هذا - والله أعلم - الإخبار عن هذه الدار، بأنها دار زوال وانتقال، لا دار دوام واستقرار، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿أفلا يعقلون﴾؟ أي يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم، ثم صيرورتهم إلى سن الشيبة، ثم إلى الشيخوخة، ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى، لا زوال لها ولا انتقال منها، ولا محيد عنها وهي الدار الآخرة، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾، يقول عز وجل مخبراً عن نبيّه محمد ﷺ: أنه ما علمه الشعر ﴿وما ينبغي له﴾ أي ما هو في طبعه فلا يحسنه ولا يحبه ولا تقتضيه جبلته، ولهذا ورد أنه ﷺ كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم، بل إن أنشده زحفه أو لم يتمه، قال الشعبي: ما ولد عبد المطلب ذكراً ولا أنثى إلا يقول الشعر، إلا رسول الله ﷺ[1]. وعن الحسن البصري قال: إن رسول الله ﷺ كان يتمثل بهذا البيت: (كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً)، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا قال أبو بكر أو عمر رضي الله عنهما: أشهد أنك رسول الله، يقول تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾[2]. وروى الأموي في مغازيه أن رسول الله ﷺ جعل يمشي بين القتلى يوم بدر، وهو يقول: «نَفْلَق هاما»، فيقول الصدّيق رضي الله عنه متمماً للبيت:

من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا استراب الخبر تمثل فيه ببيت طرفة:

«ويأتيك بالأخبار من لم تزود»[3]

وهو في شعر (طرفة بن العبد) في معلقته المشهورة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً «ويأتيك بالأخبار من لم تزود»

وثبت في الصحيح أنه ﷺ تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، ولكن تبعاً لقول أصحابه رضي الله عنهم، فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون فيقولون:

لا هم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

---

(١) ذكره ابن عساكر عن الشعبي.
(٢) ذكره ابن أبي حاتم عن الحسن البصري.
(٣) أخرجه الإمام أحمد والنسائي والترمذي وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

إن أولاء قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

ويرفع ﷺ صوته بقوله: أبينا، ويمدها، وقد روى هذا بزحاف في الصحيحين أيضاً، وكذا ثبت أنه ﷺ قال يوم حنين وهو راكب البغلة يقدم بها في نحور العدو :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

لكن قالوا: هذا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن شعر، بل جرى على اللسان من غير قصد إليه، وكذلك ما ثبت في الصحيحين عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غار، فنكبت إصبعه، فقال ﷺ :

هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

وكل هذا لا ينافي كونه ﷺ ما علم شعراً وما ينبغي له، فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم ﴿ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾، وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش، ولا كهانة ولا سحر يؤثر ، كما تنوعت فيه أقوال الضلال وآراء الجهال، وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً. قال ﷺ: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً»[1]. على أن الشعر فيه ما هو مشروع وهو هجاء المشركين ، الذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام، كحسان بن ثابت وكعب ابن مالك وعبدالله بن رواحة وأمثالهم وأضرابهم رضي الله عنهم أجمعين، ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب، كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية، ومنهم (أمية بن أبي الصلت) الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «آمن شعره وكفر قلبه»، وقد أنشد بعض الصحابة رضي الله عنهم للنبي ﷺ مائة بيت يقول ﷺ عقب كل بيت: «هيه»، يعني يستطعمه فيزيده من ذلك، وفي الحديث: «إن من البيان سحراً وإن من الشعر حكماً»[2]، ولهذا قال تعالى: ﴿ وما علمناه الشعر ﴾ يعني محمداً ﷺ ما علمه الله الشعر ، ﴿ وما ينبغي له ﴾ أي وما يصلح له ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ أي ما هذا الذي علمناه ﴿ إلا ذكر وقرآن مبين﴾ أي بين واضح جلي لمن تأمله وتدبره، ولهذا قال تعالى ﴿ لينذر من كان حياً ﴾ أي لينذر هذا القرآن المبين كل حي على وجه الأرض، كقوله: ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ ، وإنما ينتفع بنذارته من هو حي القلب مستنير البصيرة ، كما قال قتادة : حي القلب، حي البصر ، وقال الضحاك: يعني عاقلاً ، ﴿ ويحق القول على الكافرين ﴾ أي وهو رحمة للمؤمنين وحجة على الكافرين .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم ﴿ فهم لها مالكون﴾ قال قتادة: مطيقون أي جعلهم يقهرونها وهي ذليلة لهم، لا تمتنع منهم بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه ، ولو شاء لأقامه وساقه

(١) أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً، قال ابن كثير : وإسناده على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٢) أخرجه أبو داود من حديث أبي بن كعب وابن عباس رضي الله عنهما .

وذاك ذليل منقاد معه، وكذا لو كان القطار مائة بعير أو أكثر لسار الجميع بسير الصغير، وقوله تعالى: ﴿ فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ أي منها ما يركبون في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار، ﴿ ومنها يأكلون ﴾ إذا شاءوا نحروا واجتزروا، ﴿ ولهم فيها منافع ﴾ أي من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴿ ومشارب ﴾ أي من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى ونحو ذلك، ﴿ أفلا يشكرون ﴾ ؟ أي أفلا يوحدون خالق ذلك ومسخره ولا يشركون به غيره ؟

وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله، يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة، وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى، قال الله تعالى: ﴿ لا يستطيعون نصرهم ﴾ أي لا تقدر الآلهة على نصر عابديها، بل هي أضعف من ذلك وأقل وأذل، وأحقر وأدحر، بل لا تقدر على الاستنصار لأنفسها ولا الانتقام ممن أرادها بسوء، لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وهم لهم جند محضرون ﴾، قال مجاهد: يعني عند الحساب يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة محضرة عند حساب عابديها، ليكون ذلك أبلغ في حزنهم وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم، وقال قتادة: ﴿ لا يستطيعون نصرهم ﴾ يعني الآلهة، ﴿ وهم لهم جند محضرون ﴾ والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا، وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تدفع عنهم شراً إنما هي أصنام[1]، وهذا القول حسن، وهو اختيار ابن جرير، وقوله تعالى: ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ أي تكذيبهم لك وكفرهم بالله، ﴿ إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ أي نحن نعلم جميع ما هم فيه وسنجزيهم وصفهم، يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً، ولا صغيراً ولا كبيراً، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً.

أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾

قال مجاهد وعكرمة: جاء (أبي بن خلف) لعنه الله، إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم، وهو يفته ويذروه في الهواء، وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ قال ﷺ: « نعم، يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار »، ونزلت هذه الآيات من آخر يس: ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة ﴾ إلى آخرهن، وقال ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففته بيده ثم قال لرسول الله ﷺ: أيحيي الله هذا بعد ما أرى ؟ فقال رسول الله ﷺ: « نعم، يميتك الله ثم

(١) وهكذا قال الحسن البصري وهو اختيار ابن جرير رحمه الله.

يحييك ثم يدخلك جهنم »، قال: ونزلت الآيات من آخر يس، وعلى كل تقدير سواء كانت هـذه الآيات قد نزلت في (أبي بن خلف) أو (العاص بن وائل) أو فيهما، فهي عـامة في كل من أنكر البعث، والألف واللام في قوله تعالى: ﴿أو لم ير الإنسان﴾ للجنس يعم كل منكر للبعث، ﴿أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ أي أو لم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة، فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين، فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾، وقال تعالى: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج﴾ أي من نطفة من أخلاط متفرقة، فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته؟ كما قال الإمام أحمد في مسنده عن بشر بن جحاش قال: إن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه فوضع عليها إصبعه، ثم قال رسول الله ﷺ: « قال الله تعالى: ابن آدم أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق وأنّى أوان الصدقة؟ »[1]، ولهذا قال تعالى: ﴿وضرب لنـا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم﴾؟ أي استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة، للأجساد والعظام الرميمة، ونسي نفسه وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود، فعلم من نفسـه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ أي يعلم العظـام في سائر أقطار الأرض وأرجائها، أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت.

قال الإمام أحمد، قال عقبة بن عمرو لحذيفة رضي الله عنهما: ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعته ﷺ يقول: « إن رجلاً حضره الموت فلما أيس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مت فاجمعوا لي حطباً كثيراً جزلاً، ثم أوقدوا فيه ناراً، حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي، فامتحشت[2] فخذوها فدقوهـا فذروها في اليم، ففعلوا، فجمعه الله تعالى إليه، ثم قال له: لم فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك، فغفر الله عزّ وجلّ له »، وفي الصحيحين بأنه أمر بنيه أن يحرقوه، ثم يسحقوه، ثم يذروا نصفه في البر ونصفه في البحر في يوم رائح، أي كثير الهواء، ففعلوا ذلك، فأمر الله تعالى البحر فجمع ما فيه وأمر البر فجمع ما فيه، ثم قال له: كن فإذا هو رجل قائم، فقال له: مـا حملك على ما صنعت؟ قال: مخافتك وأنت أعلم، فما تلافاه أن غفر له. وقوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون﴾ أي الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء، حتى صار خضراً نضراً ذا ثمر وينع، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً توقد به النار، كذلك هو فعال لما يشاء قادر على ما يريد لا يمنعه شيء، قال قتادة: يقول: هذا الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر على أن يبعثه، وقيل: المراد بذلك شجر المرخ والعفار ينبت في أرض الحجاز فيأتي من أراد قدح نار وليس معـه زناد، فيأخذ منه عودين أخضرين، ويقدح أحدهما بالآخر، فتتولد النار بينهما كالزناد سواء، وفي المثل: لكل شجر نار واستمجد المرخ والعفار. وقال الحكماء: في كل شجر نار إلا العنّاب.

أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ

(١) أخرجه الإمام أحمد ورواه ابن ماجه في سننه.

(٢) فامتحشت أي: فاحترقت.

أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى مخبراً منبهاً على قدرته العظيمة، في خلق السماوات السبع بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار وما بين ذلك، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة كقوله تعالى: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ وقال عزّ وجلّ ههنا ﴿أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟﴾ أي مثل البشر فيعيدهم كما بدأهم، وهذه الآية الكريمة كقوله عزّ وجلّ : ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى إنه على كل شيء قدير﴾، وقال تبارك وتعالى ههنا : ﴿بلى وهو الخلاق العليم ۝ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ أي إنما يأمر بالشيء أمراً واحداً لا يحتاج إلى تكرار وتأكيد كما قيل :

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له ﴿كن﴾ قولةً ﴿فيكون﴾

عن أبي ذر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله تعالى يقول يا عبادي كلكم مذنب إلا من عافيت، فاستغفروني أغفر لكم، وكلكم فقير إلا من أغنيت، إني جوّاد ماجد واجد أفعل ما أشاء، عطائي كلام، وعذابي كلام، إذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون»[1] ، وقوله تعالى: ﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾ أي تنزيه وتقديس للحي القيوم، الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، وإليه ترجع العباد يوم المعاد فيجازي كل عامل بعمله ، وهو العادل المنعم المتفضل، ومعنى قوله سبحانه : ﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء﴾ كقوله عزّ وجلّ : ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ فالملك والملكوت واحد في المعنى كرحمة ورحموت، ورهبة ورهبوت، ومن الناس من زعم أن ﴿الملك﴾ هو عالم الأجساد ، و (الملكوت) هو عالم الأرواح ، والصحيح الأول، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم . روى الإمام أحمد ، عن حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه قال : قمت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فقرأ السبع الطوال في ركعات، وكان ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال : «سمع الله لمن حمده ، ثم قال: الحمد لله ، ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة ، وكان ركوعه مثل قيامه ، وسجوده مثل ركوعه، فانصرف وقد كادت تنكسر رجلاي»[2] . عن عوف ابن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: قمت مع رسول الله ﷺ ليلة فقام، فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ، قال: ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة» ، ثم سجد بقدر قيامه ، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورة[3] .

[آخر تفسير سورة (يس) ولله الحمد والمنة]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن أبي ذر مرفوعاً . (٢) أخرجه أحمد ورواه أبو داود والترمذي والنسائي بنحوه .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، والترمذي في الشمائل والنسائي عن عوف بن مالك الأشجعي .



روى النسائي، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ويؤمنا بالصافات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾

قال ابن مسعود رضي الله عنه ﴿والصافات صفاً﴾، ﴿فالزاجرات زجراً﴾، ﴿فالتاليات ذكراً﴾: هي الملائكة[1]؛ وقال قتادة: الملائكة صفوف في السماء، روى مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ألا تصفّون كما تصف الملائكة عند ربهم؟» قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال ﷺ: «يتمون الصفوف المتقدمة، ويتراصّون في الصف»[2]. وقال السدي معنى قوله تعالى ﴿فالزاجرات زجراً﴾: أنها تزجر السحاب، وقال الربيع بن أنَس ﴿فالزاجرات زجراً﴾: ما زجر الله تعالى عنه في القرآن، ﴿فالتاليات ذكراً﴾ قال السدي: الملائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس، كقوله تعالى: ﴿فالملقيات ذكراً * عذراً أو نذراً﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إن إلهكم لواحد رب السماوات والأرض﴾، هذا هو المقسم عليه أنه تعالى لا إله إلا هو رب السماوات والأرض ﴿وما بينهما﴾ أي من المخلوقات، ﴿ورب المشارق﴾ أي هو المالك المتصرف في الخلق، بتسخيره بما فيه من كواكب تبدو من المشرق وتغرب من المغرب، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه، وقد صرح بذلك في قوله عزّ وجلّ: ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون﴾، وقال تعالى ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ يعني في الشتاء والصيف، للشمس والقمر.

---

(١) وهو قول ابن عباس ومسروق وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والسدي وقتادة وغيرهم.

(٢) وفي صحيح مسلم أيضاً «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة» الحديث.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾

يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض بزينة الكواكب، فالكواكب السيارة والثوابت تضيء لأهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾، فقوله جلّ وعلا ههنا ﴿وحفظاً﴾ تقديره: وحفظناها حفظاً ﴿من كل شيطان مارد﴾ يعني المتمرد العاتي، إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهاب ثاقب فأحرقه، ولهذا قال جلّ جلاله: ﴿لا يسّمعون إلى الملأ الأعلى﴾ أي لئلا يصلوا إلى ﴿الملأ الأعلى﴾ وهي السماوات ومن فيها من الملائكة، كما تقدم بيان ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ويقذفون﴾ أي يرمون ﴿من كل جانب﴾ أي من كل جهة يقصدون السماء منها، ﴿دحوراً﴾ أي رجماً يدحرون به ويزجرون، ويمنعون من الوصول إلى ذلك ويرجمون، ﴿ولهم عذاب واصب﴾ أي في الدار الآخرة، لهم عذاب دائم موجع مستمر، كما قال جلّت عظمته: ﴿وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾، وقوله تبارك وتعالى ﴿إلا من خطف الخطفة﴾ أي إلا من اختطف من الشياطين الخطفة، وهي الكلمة يسمعها من السماء، فيلقيها إلى الذي تحته، ويلقيها الآخر إلى الذي تحته، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن، كما تقدم في الحديث، ولهذا قال: ﴿إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ أي مستنير، قال ابن عباس: كان للشياطين مقاعد في السماء، فكانوا يستمعون الوحي، وكانت النجوم لا تجري، وكانت الشياطين لا ترمى، فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض، فزادوا في الكلمة تسعاً، فلما بعث رسول الله ﷺ، جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاءه شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه، فشكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله، فقال: ما هو إلا من أمرٍ حدَث، فبعث جنوده فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي بين جبلي نخلة، قال وكيع: يعني بطن نخلة، قال: فرجعوا إلى إبليس، فأخبروه، فقال: هذا الذي حدث[1].

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝١٧ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ۝١٨ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝١٩﴾

يقول تعالى: فسل هؤلاء المنكرين للبعث أيما أشد خلقاً هم أم السماوات والأرض، وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ فإنهم يقرون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم، وإذا كان الأمر كذلك فلم

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ينكرون البعث؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا، كما قال عزّ وجلّ: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ ثم بيَّن أنهم خلقوا من شيء ضعيف فقال: ﴿إنا خلقناهم من طين لازب﴾ قال مجاهد والضحّاك: هو الجيد الذي يلتزق بعضه ببعض، وقال ابن عباس وعكرمة: هو اللزج الجيد، وقال قتادة: هو الذي يلزق باليد، وقوله عزّ وجلّ: ﴿بل عجبت ويسخرون﴾ أي بل عجبت يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله تعالى من الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها، وهم بخلاف أمرك من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك، قال قتادة: عجب محمد ﷺ وسخر ضلّال بني آدم، ﴿وإذا رأوا آية﴾ أي دلالة واضحة على ذلك ﴿يستسخرون﴾، قال مجاهد: يستهزئون، ﴿وقالوا إن هذا إلا سحر مبين﴾ أي ما هذا الذي جئت به إلا سحر مبين، ﴿أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ۝ أو آباؤنا الأولون﴾؟ يستبعدون ذلك ويكذبون به ﴿قل نعم وأنتم داخرون﴾، أي قل لهم يا محمد: نعم تبعثون يوم القيامة، بعدما تصيرون تراباً وعظاماً، ﴿وأنتم داخرون﴾ أي حقيرون تحت القدرة العظيمة، كما قال تعالى: ﴿وكل أتوه داخرين﴾، وقال تعالى: ﴿سيدخلون جهنم داخرين﴾، ثم قال جلت عظمته: ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون﴾ أي فإنما هو أمر واحد من الله عزّ وجلّ، يدعوهم أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم قيام بين يديه ينظرون إلى أهوال يوم القيامة.

وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ * ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾

يخبر تعالى عن قيل الكفار يوم القيامة، أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم، فإذا عاينوا أهوال القيامة، ندموا كل الندامة حيث لا ينفعهم الندم، ﴿وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين﴾، فتقول لهم الملائكة والمؤمنون: ﴿هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون﴾ على وجه التقريع والتوبيخ، ويأمر الله تعالى الملائكة أن تميز الكفار من المؤمنين، في الموقف في محشرهم ومنشرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾، قال النعمان بن بشير: يعني بأزواجهم أشباههم وأمثالهم[1]؛ وعن عمر بن الخطاب: ﴿وأزواجهم﴾ قال: إخوانهم، وقال النعمان: سمعت عمر يقول: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ قال: أشباههم، قال: يجيء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر، وقال ابن عباس: ﴿أزواجهم﴾ قرناءهم، ﴿وما كانوا يعبدون من دون الله﴾ أي من الأصنام والأنداد تحشر معهم في أماكنهم، وقوله تعالى: ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ أي أرشدوهم إلى طريق جهنم، وهذا كقوله تعالى: ﴿مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً﴾، وقوله تعالى: ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾ أي قفوهم

---

(١) وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والسدي وأبو العالية وغيرهم. وروي عن ابن عباس أنه قال ﴿أزواجهم﴾ نساؤهم، وهو غريب والمعروف عنه الأول.

حتى يسألوا عن أعمالهم وأقوالهم، التي صدرت عنهم في الدار الدنيا، قال ابن عباس: يعني احبسوهم إنهم محاسبون، وقد قال رسول الله ﷺ: «أيما داع دعا إلى شيء كان موقوفاً معه إلى يوم القيامة لا يغادره ولا يفارقه، وإن دعا رجل رجلاً» ثم قرأ: ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾[1]، وقال ابن المبارك: «إن أول ما يسأل عنه الرجل جلساؤه» ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ ﴿ما لكم لا تناصرون؟﴾ أي كما زعمتم أنكم جميع منتصر؟ ﴿بل هم اليوم مستسلمون﴾ أي منقادون لأمر الله لا يخالفونه ولا يحيدون عنه، والله أعلم.

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾

يذكر تعالى: أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة، كما يتخاصمون في دركات النار، ﴿فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار﴾؟كما قال تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾ وهكذا قالوا لهم ههنا: ﴿إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين﴾، قال ابن عباس، يقولون: كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا، لأنا كنا أذلاء وكنتم أعزاء، وقال مجاهد: يعني عن الحق، تقوله الكفار للشياطين، وقال قتادة: قالت الإنس للجن: ﴿إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين﴾، قال: من قبل الخير فتنهونا عنه وتبطئونا عنه، وقال السدي: تأتوننا من قبل الحق وتزينوا لنا الباطل، وتصدونا عن الحق، قال الحسن: أي والله يأتيه عند كل خير يريده فيصده عنه، وقال ابن زيد: معناه تحولون بيننا وبين الخير، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذي أمرنا به.

وقوله تعالى: ﴿قالوا بل لم تكونوا مؤمنين﴾ تقول القادة من الجن والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان، ﴿وما كان لنا عليكم من سلطان﴾ أي من حجة على صحة ما دعوناكم إليه، ﴿بل كنتم قوماً طاغين﴾ أي بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق، فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذي جاءتكم به الأنبياء، ﴿فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون * فأغويناكم إنا كنا غاوين﴾، يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله إنا من الأشقياء الذائقين للعذاب يوم القيامة، ﴿فأغويناكم﴾ أي دعوناكم إلى الضلالة ﴿إنا كنا غاوين﴾، أي فدعوناكم إلى ما نحن فيه فاستجبتم لنا، قال تعالى: ﴿فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون﴾ أي الجميع في النار كل بحسبه، ﴿إنا كذلك نفعل بالمجرمين * إنهم كانوا﴾ أي في الدار الدنيا ﴿إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾ أي يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير والترمذي عن أنس بن مالك مرفوعاً.

وفي الحديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلّه إلا الله، فمن قال لا إلّه إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عزّ وجلّ»[١]. وروى ابن أبي حاتم عن أبي العلاء قال: يؤتى باليهود يوم القيامة فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: نعبد الله وعزيراً، فيقال لهم: خذوا ذات الشمال، ثم يؤتى بالنصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: نعبد الله والمسيح، فيقال لهم: خذوا ذات الشمال، ثم يؤتى بالمشركين فيقال لهم: لا إلّه إلا الله، فيستكبرون، ثم يقال لهم لا إلّه إلا الله، فيستكبرون، ثم يقال لهم: لا إلّه إلا الله، فيستكبرون، فيقال لهم: خذوا ذات الشمال، قال أبو نضرة: فينطلقون أسرع من الطير، قال أبو العلاء: ثم يؤتى بالمسلمين فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد الله تعالى، فيقال لهم: هل تعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون: نعم، فيقال لهم: فكيف تعرفونه ولم تروه؟ فيقولون: نعلم أنه لا عدل له، قال: فيتعرف لهم تبارك وتعالى وتقدس وينجي الله المؤمنين[٢]. ﴿ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾ أي أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون؟ يعنون رسول الله ﷺ، قال الله تعالى تكذيباً لهم ورداً عليهم: ﴿بل جاء بالحق﴾ يعني رسول الله ﷺ جاء بالحق، ﴿وصدّق المرسلين﴾ أي صدّقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة، وأخبر عن الله تعالى في شرعه وأمره، كما أخبروا ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ الآية.

إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى مخاطباً للناس: ﴿إنكم لذائقوا العذاب الأليم * وما تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾، ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين، كما قال تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً * ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾، وقال تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين﴾، ولهذا قال جلّ وعلا ههنا ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ أي ليسوا يذوقون العذاب الأليم، ولا يناقشون في الحساب، بل يتجاوز عن سيئاتهم إن كان لهم سيئات، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وقوله جل وعلا ﴿أولئك لهم رزق معلوم﴾ قال السدي: يعني الجنة، ثم فسره بقوله تعالى: ﴿فواكه﴾ أي متنوعة ﴿وهم مكرمون﴾ أي يخدمون ويرفهون وينعّمون ﴿في جنات النعيم * على سرر متقابلين﴾، قال مجاهد: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، وقوله تعالى: ﴿يطاف عليهم بكأس من معين * بيضاء لذة للشاربين * لا فيها غول ولا هم عنها

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي العلاء موقوفاً.

ينزفون﴾، كما قال تعالى: ﴿لا يصدّعون عنها ولا ينزفون﴾ نزّه الله سبحانه وتعالى خمر الجنة عن الآفات التي في خمر الدنيا، من صداع الرأس، ووجع البطن، وهو (الغول) وذهابها بالعقل جملة، فقال تعالى ﴿يطاف عليهم بكأس من معين﴾ أي بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها، قال زيد بن أسلم: خمر جارية بيضاء، أي لونها مشرق حسن بهي، لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم، وقوله عزّ وجلّ: ﴿لذة للشاربين﴾ أي طعمها طيب كلونها، وطيب الطعم دليل على طيب الريح، بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك، وقوله تعالى: ﴿لا فيها غول﴾ يعني وجع البطن[1]، كما تفعله خمر الدنيا، وقيل: المراد بالغول ههنا صداع الرأس، وروي عن ابن عباس، وقال قتادة: هو صداع الرأس ووجع البطن؛ وقال السدي: لا تغتال عقولهم، كما قال الشاعر:

فما زالت الكأس تغتالنا وتذهب بالأول الأول

وقال سعيد بن جبير: لا مكروه فيها ولا أذى، والصحيح قول مجاهد: أنه وجع البطن، وقوله تعالى ﴿ولا هم عنها ينزفون﴾ قال مجاهد: لا تذهب عقولهم[2]، وقال ابن عباس: في الخمر أربع خصال: (السكر، والصداع، والقيء، والبول)، فذكر الله تعالى خمر الجنة، فنزّهها عن هذه الخصال، وقوله تعالى: ﴿وعندهم قاصرات الطرف﴾ أي عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن، كذا قال ابن عباس ومجاهد، وقوله تبارك وتعالى: ﴿عين﴾ أي حسان الأعين، وقيل: ضخام الأعين، وهي النجلاء العيناء، فوصف عيونهن بالحسن والعفة، كقول زليخا في يوسف عليه السلام ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ أي هو مع هذا الجمال عفيف تقي نقي، وهكذا الحور العين ﴿خيرات حسان﴾، ولهذا قال عزّ وجل: ﴿وعندهم قاصرات الطرف عين﴾. وقوله جل جلاله: ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان، قال ابن عباس ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ يقول: اللؤلؤ المكنون، وأنشد قول الشاعر

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغوا ص ميزت من جوهر مكنون

وقال الحسن: ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ يعني مصون لم تمسه الأيدي، وقال سعيد بن جبير: ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ يعني بطن البيض، وقال السدي ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ يقول: بياض البيض حين ينزع قشره، واختاره ابن جرير لقوله ﴿مكنون﴾ قال: والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش، وتنالها الأيدي بخلاف داخلها، وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا حزنوا، وأنا شفيعهم إذا حبسوا، لواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على الله عزّ وجلّ ولا فخر، يطوف علي ألف خادم كأنهن البيض المكنون - أو اللؤلؤ المكنون -»[3].

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد.

(٢) وكذا قال ابن عباس والحسن وعطاء والسدي.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وروى بعضه الترمذي.

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه ﴿أقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ أي عن أحوالهم وكيف كانوا في الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها، وذلك من حديثهم على شرابهم، واجتماعهم في تنادمهم، ومعاشرتهم في مجالسهم، وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم، يسعون ويجيئون بكل خير عظيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿قال قائل منهم إني كان لي قرين﴾ قال مجاهد: يعني شيطاناً، وقال ابن عباس: هو الرجل المشرك يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا[1]، ولا تنافي بين كلام مجاهد وابن عباس رضي الله عنهما، فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس في النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاماً تسمعه الأذنان، وكلاهما يتعاونان، قال الله تعالى: ﴿يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ وكل منهما يوسوس، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿من شر الوسواس الخناس * الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس﴾، ولهذا: ﴿قال قائل منهم إني كان لي قرين * يقول أئنك لمن المصدّقين﴾ أي أأنت تصدّق بالبعث والنشور، والحساب والجزاء؟ يعني يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد، والكفر والعناد ﴿أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون﴾؟ قال مجاهد والسدي: لمحاسبون، وقال ابن عباس: لمجزيون بأعمالنا، قال تعالى: ﴿قال هل أنتم مطلعون﴾ أي مشرفون، يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة ﴿فاطلع فرآه في سواء الجحيم﴾ قال ابن عباس والسدي: يعني في وسط الجحيم، وقال الحسن البصري: في وسط الجحيم كأنه شهاب يتقدم، وقال قتادة: ذكر أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلي، وقال كعب الأحبار: في الجنة كوى، إذا أراد أحد من أهلها أن ينظر إلى عدوه في النار، اطّلع فيها فازداد شكراً لله، ﴿قال تالله إن كدت لتردين﴾ يقول المؤمن مخاطباً للكافر: والله إن كدت لتهلكني لو أطعتك، ﴿ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين﴾ أي ولولا فضل الله عليّ لكنت مثلك في سواء الجحيم، محضر معك في العذاب، ولكنه رحمني فهداني للإيمان، وأرشدني إلى توحيده ﴿وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾. وقوله تعالى: ﴿أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين﴾؟ هذا من كلام المؤمن، مغتبطاً نفسه بما أعطاه الله تعالى، من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة، بلا موت فيها ولا عذاب، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿إن هذا لهو الفوز العظيم﴾. قال الحسن البصري: علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه، فقالوا: ﴿أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن

---

(١) القائل: هو أحد الرجلين اللذين قال الله فيهما: ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين﴾ والقرين: الرجل الذي دخل جنته وهو ظالم لنفسه، وقد وردت قصتهما في سورة الكهف.

بمعذبين﴾ ؟ قيل: لا ، ﴿ قالوا إن هذا لهو الفوز العظيم﴾. وقوله جل جلاله: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ قال قتادة هذا من كلام أهل الجنة، وقال ابن جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه: لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا ليصيروا إليه في الآخرة.

قال السدي: كان شريكان في بني إسرائيل، أحدهما مؤمن والآخر كافر، فافترقا على ستة آلاف دينار، لكل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، ثم افترقا فمكثا ما شاء الله تعالى أن يمكثا، ثم التقيا، فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك؟ أضربت بـه شيئاً، اتجرت به في شيء؟ قال له المؤمن: لا، فما صنعت أنت؟ فقال اشتريت به أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً بألف دينار – قال – فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم، قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله تعالى أن يصلي، فلما انصرف أخـذ ألف دينار فوضعها بين يديه، ثم قال: اللهم إن فلاناً – يعني شريكه الكافر – اشترى أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً بألف دينار ثم يموت غداً ويتركها. اللهم إني اشتريت منك بهذه الألف دينار أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً في الجنة، قال: ثم أصبح فقسمها في المساكين، قال: ثم مكثا ما شاء الله تعالى أن يمكثا، ثم التقيا، فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك أضربت به في شيء؟ أتجرت به في شيء؟ قال: لا، قال: فما صنعت أنت؟ قال: كانت ضيعتي قـد اشتد عليَّ مؤنتها، فاشتريت رقيقاً بألف دينار، يقومون لي فيها ويعملون لي فيها، فقال له المؤمن: أوفعلت؟ قال: نعم، قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله تعالى أن يصلي، فلما انصرف أخـذ ألف دينار فوضعها بين يديه ثم قال: اللهم إن فلاناً – يعني شريكه الكافر – اشترى رقيقاً من رقيق الدنيا بألف دينار يموت غداً فيتركهم أو يموتون فيتركونه، اللهم إني اشتريت منك بهذه الألف دينار رقيقاً في الجنة، قال: ثم أصبح، فقسمها في المساكين قال: ثم مكثا ما شاء الله تعالى أن يمكثا، ثم التقيا، فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك أضربت بـه في شيء، أتجرت بـه في شيء؟ قال: لا، فما صنعت أنت؟ قال: كان أمري كله قـد تم إلا شيئاً واحداً، فلانة قـد مات عنها زوجها فأصدقتها ألف دينار، فجاءتني بهـا ومثلها معها، فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم، قال، فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله تعالى أن يصلي، فلمـا انصرف أخذ الألف دينار البـاقية فوضعها بـين يديه، وقال: اللهم إن فلاناً – يعني شريكه الكافر – تزوج زوجة من أزواج الدنيا بألف دينار، فيموت غداً فيتركها أو تموت غداً فتتركه، اللهم وإني أخطب إليك بهذه الألف دينار حوراء عيناء في الجنة – قال – ثم أصبح فقسمهـا بـين المساكين – قال – فبقي المؤمن ليس عنده شيء، فخرج شريكه الكافر وهو راكب، فلما رآه عرفه، فوقف عليه وسلم عليه وصافحه، ثم قـال له: ألم تأخذ من المال مثل مـا أخذت؟ قال: بلى، قال: وهذه حـالي وهذه حالك؟ قال: أخبرني ما صنعت في مالك؟ قال: أقرضته، قال: من؟ قال: المليء الوفي، قال: من؟ قال: الله ربي، قال، فانتزع يده من يده، ثم قـال: ﴿ أئنك لمن المصدقين * أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون﴾؟ قال السدي: محاسبون، قال: فانطلق الكافر وتركه، فلمـا رآه المؤمن وليس يلوي عليه رجع وتركه وجعل يعيش المؤمن في شدة من الزمان، ويعيش الكافر في رخـاء من الزمان، قال: فإذا كان يوم القيـامة وأدخل الله تعالى المؤمن الجنة، يمر فإذا هو بأرض ونخل وثمـار وأنهـار فيقول: لمن هـذا؟ فيقال: هذا لك، فيقول: يا سبحان الله، أو بلغ من فضل عملي أن أثاب بمثل هذا؟ قال، ثم يمر، فإذا هو برقيق لا تحصى عدتهم، فيقول: لمن

هذا ؟ فيقال: هؤلاء لك، فيقول: يا سبحان الله أو بلغ من فضل عملي أن أثاب بمثل هذا ؟ قال: ثم يمر ، فإذا هو بقبة من ياقوتة حمراء مجوفة فيها حوراء عيناء، فيقول: لمن هـذه ؟ فيقال: هذه لك، فيقول: يا سبحان الله أو بلغ من فضل عملي أن أثاب بمثل هذا ؟ قال: ثم يذكر المؤمن شريكه الكافر ، فيقول: ﴿إني كان لي قرين * يقول أئنك لمن المصدقين * أئذا متنا وكنا تراباً وعظامـاً أئنا لمدينون﴾، قال، فالجنة عالية، والنار هاوية، قال: فيريه الله تعالى شريكه في وسط الجحيم من بـين أهل النـار ، فإذا رآه المؤمن عرفـه ، فيقول : ﴿تالله إن كدت لتردين * ولولا نعمـة ربي لكنت من المحضرين * أفـا نحن بميتين إلا موتتنـا الأولى ومـا نحن بمعـذبين * إن هـذا لهو الفوز العظيم * لمثل هـذا فليعمل العاملون﴾ بمثل ما قد مُنَّ عليه ، قال: فيتذكر المؤمن ما مر عليه في الدنيا من شدة، فلا يذكر مما مر عليه في الدنيا من الشدة أشد عليه من الموت[1] .

أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾

يقول الله تعالى: أهذا الذي ذكر من نعيم الجنة، وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح، وغير ذلك من الملاذ خير ضيافةً وعطاءً ﴿أم شجرة الزقوم﴾ أي التي في جهنم ؟ وقوله عزّ وجلّ: ﴿إنا جعلناها فتنة للظالمين﴾، قال قتادة: ذكرت شجرة الزقوم، فافتتن بها أهل الضلالة، وقالوا: صاحبكم ينبئكم أن في النار شجرة والنار تأكل الشجر ، فأنزل الله تعالى: ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم﴾ غذيت من النار ومنها خلقت، وقال مجاهـد : ﴿إنا جعلناها فتنة للظالمين﴾. قال أبو جهل لعنه الله : إنمـا الزقوم التمر والزبد أتزقمه ؟ **قلت**: ومعنى الآية: إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم، اختباراً نختبر بـه الناس، من يصدق منهم ممن يكذب ، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وما جعلنـا الرؤيا التي أرينـاك إلا فتنة للنـاس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾ وقوله تعالى: ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم﴾ أي أصل منبتها في قرار النار : ﴿طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾ تبشيع لهـا وتكريه لذكرها، وإنمـا شبّهها برؤوس الشياطين، وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين، لأنه قـد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر ، وقوله تعالى: ﴿فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون﴾، ذكر تعالى أنهم يأكلون من هـذه الشجرة، التي لا أبشع منها ولا أقبح من منظرها، مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع ، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها وما هو في معناها، كما قال تعالى: ﴿ليس لهم طعـام إلا من ضريع * لا يسمن ولا يغني من جوع﴾، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ تلا هـذه الآية وقال: « اتقوا الله حق تقاته ، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامه ؟ »[2]

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجة ،وقال الترمذي : حسن صحيح.

وقوله تعالى : ﴿ ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم ﴾، قال ابن عباس: يعني شرب الحميم على الزقوم، وعنه: ﴿ شوباً من حميم ﴾ مزجاً من حميم، وقال غيره: يعني يمزج لهم الحميم بصديد وغساق، مما يسيل من فروجهم وعيونهم، عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: « يقرب - يعني إلى أهل النار - ماء فيتكرهه، فإذا أدني منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه فيه، فإذا شربه قطّع أمعاءه، حتى تخرج من دبره »[1]، وروى ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير قال: « إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم، فلو أن ماراً مر بهم يعرفهم لعرفهم بوجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش، فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل، وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم، التي سقطت عنها الجلود ويصهر ما في بطونهم، فيمشون تسيل أمعاؤهم، وتتساقط جلودهم ثم يضربون بمقامع من حديد، فيسقط كل عضو على حياله يدعون بالثبور »[2]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ﴾ أي ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، كما قال تعالى: ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية، وهو تفسير حسن قوي، وكان عبدالله[3] رضي الله عنه يقول : والذي نفسي بيده لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار . ثم قرأ : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾. وقوله تعالى: ﴿ إنهم ألفوا آباءهم ضالين ﴾ أي إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة، فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك من غير دليل ولا برهان؛ ولهذا قال: ﴿ فهم على آثارهم يهرعون ﴾ قال مجاهد : شبَّهة بالهرولة، وقال سعيد بن جبير : يسفهون .

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى . وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين ينذرونهم بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم، فأهلك الله المكذبين ودمرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين إلا عباد الله المخلصين ﴾ .

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) هذا حديث موقوف أخرجه ابن أبي حاتم .

(٣) المراد به ابن مسعود رضي الله عنه وهي رواية السدي عنه .

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة شرع يبين ذلك مفصلاً، فذكر نوحاً عليه الصلاة والسلام وما لقي من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة، لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نُفْرة ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾، فغضب الله تعالى لغضبه عليهم، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ﴾ له، ﴿ ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ وهو التكذيب والأذى، ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ قال ابن عباس: لم تبق إلا ذرية نوح عليه السلام، وقال قتادة: الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام، وقد روى الترمذي عن سمرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ قال: سام وحام ويافث، وروى الإمام أحمد، عن سمرة رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم»[1]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ قال ابن عباس: يذكر بخير، وقال مجاهد: يعني لسان صدق للأنبياء كلهم، وقال قتادة والسدي: أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرين، قال الضحّاك: السلام والثناء الحسن، وقوله تعالى: ﴿ سلام على نوح في العالمين ﴾ مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن، أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم، ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ أي هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله تعالى، نجعل له لسان صدق يذكر به بعده، ثم قال تعالى: ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ أي المصدقين الموحدين الموقنين، ﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ أي أهلكناهم فلم تبق منهم عين تطرف، ولا ذكر ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

* وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾

قال ابن عباس: ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾ يقول: من أهل دينه، وقال مجاهد: على منهاجه وسنته ﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾، قال ابن عباس: يعني شهادة أن لا إله إلا الله، روى ابن أبي حاتم، عن عوف قال: قلت لمحمد بن سيرين «ما القلب السليم؟ قال: يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور»[2]، وقال الحسن: سليم من الشرك، ثمّ قال تعالى: ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ﴾؟ أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿ أئفكاً آلهة دون الله تريدون * فما ظنكم برب العالمين ﴾؟ قال قتادة: يعني ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لاقيتموه وقد عبدتم معه غيره؟

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ورواه الترمذي في السنن.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من كلام ابن سيرين.

مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾

إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك، ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيدهم، فأحب أن يختلي بآلهتهم ليكسرها، فقال لهم كلاماً هو حق في نفس الأمر، فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه، ﴿ فتولوا عنه مدبرين ﴾. قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم، يعني قتادة أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يلهيهم به، فقال: ﴿ إني سقيم ﴾ أي ضعيف، فأما قوله عليه السلام: « لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله تعالى، قوله: [﴿ إني سقيم ﴾، وقوله: ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾، وقوله في سارة: (هي أختي)] فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن، ولكن ليس من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله حاشا وكلا، وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني كما جاء في الحديث: « إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب » . قال ابن المسيب: رأى نجماً طلع فقال: ﴿ إني سقيم ﴾ كابد نبي الله عن دينه ﴿ فقال إني سقيم ﴾، وقيل: أراد ﴿ إني سقيم ﴾ أي مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله تعالى، وقال الحسن البصري: خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم فأرادوه على الخروج، فاضطجع على ظهره وقال: ﴿ إني سقيم ﴾ وجعل ينظر في السماء، فلما خرجوا أقبل إلى آلهتهم فكسرها[1]، ولهذا قال تعالى: ﴿ فتولوا عنه مدبرين ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فراغ إلى آلهتهم ﴾ أي ذهب إليها بعد ما خرجوا في سرعة واختفاء، ﴿ فقال ألا تأكلون ﴾؟ وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاماً قرباناً لتبرّك لهم فيه، قال السدي: دخل إبراهيم عليه السلام إلى بيت الآلهة، فإذا هم في بهو عظيم، وإذا مستقبل باب البهو صنم عظيم، إلى جنبه أصغر منه، بعضها إلى جنب بعض، كل صنم يليه أصغر منه حتى بلغوا باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعاماً ووضعوه بين أيدي الآلهة، وقالوا: إذا كان حين نرجع وقد برّكت الآلهة في طعامنا أكلناه، فلما نظر إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ﴿ ألا تأكلون * ما لكم لا تنطقون ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ قال الفراء: معناه مال عليهم ضرباً باليمين، وقال قتادة والجوهري: فأقبل عليهم ضرباً باليمين، وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى، ولهذا تركهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون، كما تقدم في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تفسير ذلك. وقوله تعالى ههنا: ﴿ فأقبلوا إليه يزفّون ﴾ قال مجاهد: أي يسرعون، فلما جاءوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعيبهم فقال: ﴿ أتعبدون ما تنحتون ﴾؟ أي أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم؟ ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ يحتمل أن تكون (ما) مصدرية، فيكون الكلام: خلقكم وعملكم، ويحتمل أن تكون بمعنى (الذي) تقديره والله خلقكم والذي تعملونه، وكلا القولين متلازم، والأول أظهر، لما رواه البخاري عن حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً قال: « إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته » فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر فقالوا ﴿ ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم ﴾، وكان من أمرهم ما تقدم بيانه

---

(١) رواه ابن أبي حاتم عن الحسن البصري .

في سورة الأنبياء، ونجّاه الله من النار، وأظهره عليهم، وأعلى حجته ونصرها، ولهذا قال تعالى: ﴿وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين﴾.

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أنه بعدما نصره الله تعالى على قومه، وأيس من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم وقال: ﴿إني ذاهب إلى ربي سيهدين ٭ رب هب لي من الصالحين﴾ يعني أولاداً مطيعين يكونون عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم، قال الله تعالى: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ هذا الغلام هو (إسماعيل) عليه السلام، فإنه أول ولد بشر بـه إبراهيم عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل عليه السلام ولد ولإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة، وعندهم أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة أخرى: بكره، فأقحموا ههنا كذباً وبهتاناً (إسحاق) ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو (إسحاق) وحكي ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أيضاً، وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تلقي إلا عن أحبار أهل الكتاب وأخذ ذلك مُسَلَّماً من غير حجة، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بغلام حليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾، ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا ﴿إنا نبشرك بغلام عليم﴾، وقال تعالى: ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ أي يولد في حياتهما ولد يسمى يعقوب فيكون من ذريته عقب ونسل، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيراً؟ وإسماعيل وصف ههنا بالحليم لأنه مناسب لهذا المقام، وقوله تعالى: ﴿فلما بلغ معه السعي﴾ أي كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه، قال ابن عباس ومجاهد: ﴿فلما بلغ معه السعي﴾ بمعنى شب وارتحل، وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل ﴿قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى﴾ قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحي، ثم تلا هذه الآية: ﴿قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى﴾؟، وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه في صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه ﴿قال يا أبت افعل ما تؤمر﴾ أي امض

لما أمرك الله من ذبحي، ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ أي سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عزّ وجلّ، وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد، ولهذا قال الله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً﴾، قال تعالى: ﴿فلما أسلما وتله للجبين﴾ أي فلما تشهدا وذكرا الله تعالى (إبراهيم) على الذبح و (الولد) شهادة الموت، وقيل: ﴿أسلما﴾ يعني استسلما وانقادا، إبراهيم امتثل أمر الله تعالى وإسماعيل طاعة لله ولأبيه[1]، ومعنى ﴿تلّه للجبين﴾: أي صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه، قال ابن عباس: ﴿وتله للجبين﴾ أكبه على وجهه[2].

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما أمر إبراهيم عليه السلام بالمناسك عرض له الشيطان عند السعي فسابقه، فسبقه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ثم ذهب به جبريل عليه السلام إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات، حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى، فرماه بسبع حصيات، وثم تلّه للجبين، وعلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام قميص أبيض: فقال له: يا أبت إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره، فاخلعه حتى تكفنني فيه، فعالجه ليخلعه، فنودي من خلفه: ﴿أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾ فالتفت إبراهيم، فإذا بكبش أبيض أقرن أعين»[3].

وقوله تعالى: ﴿وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾ أي قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح، وذكر السدي وغيره أنه أمرّ السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً، بل حال بينها وبينه صفحة من نحاس، ونودي إبراهيم عليه الصلاة والسلام عند ذلك ﴿قد صدقت الرؤيا﴾، وقوله تعالى: ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ أي هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً كقوله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾، قال تعالى: ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ أي الاختبار الواضح الجلي حيث أمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك، مستسلماً لأمر الله تعالى منقاداً لطاعته ولهذا قال تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾، وقوله تعالى: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ عن علي رضي الله عنه قال: بكبش أبيض أعين أقرن قد ربط بسمرة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً، وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: كان الكبش يرتع في الجنة، حتى شقق عنه ثبير، وكان عليه عهن أحمر[4]، قال مجاهد: ذبحه بمنى عند النحر، وقال الثوري، عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ قال: وعل، وقال الحسن: ما فدي إسماعيل عليه السلام إلا بتيس من الأروى، أهبط عليه من ثبير.

(ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو الصحيح المقطوع به)

تقدمت الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق عليه الصلاة والسلام، وروى مجاهد وعطاء وغير

---

(١) قاله مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وهو الأظهر.

(٢) وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير والضحّاك وقتادة. (٣) هذا جزء من حديث رواه الإمام أحمد عن ابن عباس موقوفاً.

(٤) ذكر أن الكبش هو الذي قربه ابن آدم وكان في الجنة حتى فدي به إسماعيل وهو منقول عن بعض السلف.

واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه (إسماعيل) عليه الصلاة والسلام، وروى ابن جرير عن عطاء ابن أبي رباح، عن ابن عباس أنه قال: المفدى إسماعيل عليه السلام، وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود، وروى مجاهد، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: الذبيح إسماعيل، وقال مجاهد: هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وقد رأيت قرني الكبش في الكعبة، وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن البصري: أنه كان لا يشك في ذلك أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم (إسماعيل) عليه السلام، قال ابن إسحاق: وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول: إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه (إسماعيل) وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى، وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابنَيْ إبراهيم قال تعالى: ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾، ويقول الله تعالى: ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ يقول: بابن، وابن ابن، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل، قال ابن إسحاق: سمعته يقول ذلك كثيراً. وقال ابن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي: أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه وهو خليفة إذ كان معه بالشام، فقال له عمر: إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه، وإني لأراه كما قلت، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهودياً، فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، فسأله عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه عن ذلك، قال محمد بن كعب: وأنا عند عمر بن عبد العزيز فقال له عمر: أيُّ ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق، لأن إسحاق أبوهم، والله أعلم أيهما كان، وكل قد كان طاهراً طيباً مطيعاً لله عزَّ وجلَّ[1]، وقال عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: سألت أبي عن الذبيح، هل هو إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: إسماعيل[2].

وقال ابن أبي حاتم، وسمعت أبي يقول: الصحيح أن الذبيح إسماعيل عليه الصلاة والسلام، قال: وروي عن علي، وابن عمر، وأبي هريرة، وأبي الطفيل، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، والشعبي، ومحمد بن كعب القرظي، وأبي جعفر محمد بن علي، وابي صالح رضي الله عنهم أنهم قالوا: الذبيح إسماعيل، وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى: ﴿وبشروه بغلام عليم﴾، وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم، بل هو بعيد جداً، والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه (إسماعيل) أثبت وأصح وأقوى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ لما تقدمت البشارة بالذبيح وهو إسماعيل عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق وقد ذكرت في سورتي هود والحجر، وقوله تعالى: ﴿نبياً﴾ أي سيصير منه نبي صالح، قال

---

(١) ذهب ابن جرير الطبري إلى أن الذبيح هو (إسحاق) وهو قول لبعض علماء السلف وإحدى الروايات عن ابن عباس رضي الله عنهما ورواية عن كعب الأحبار، والصحيح كما قال ابن كثير أن الذبيح هو (إسماعيل) للآثار الكثيرة الواردة وظاهر القرآن الكريم كما في رواية ابن إسحاق، والله أعلم.

(٢) ذكره ابن حنبل في كتاب الزهد.

ابن عباس: بشر بنبوته، حين ولد، وحين نبئ، وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ قال: بعد ما كان من أمره لما جاد لله تعالى بنفسه، وقوله تعالى: ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ كقوله تعالى: ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾ .

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

يذكر تعالى ما أنعم بـه على (موسى) و (هارون) من النبوة، والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمد في حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم في أخس الأشياء، ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم وأقر أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم، وما كانوا جمعوه طول حياتهم، ثم أنزل الله عزّ وجلّ على موسى الكتاب العظيم، الواضح الجلي المستبين وهو (التوراة) كما قال تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء﴾. وقال عزّ وجلّ ههنا: ﴿ وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم﴾ أي في الأقوال والأفعـال، ﴿ وتركنا عليهما في الآخرين﴾ أي أبقينـا لهما من بعدهمـا ذكراً جميلاً، وثنـاء حسناً. ثم فسره بقوله تعالى: ﴿ سلام على موسى وهارون ۞ إنا كذلك نجزي المحسنين ۞ إنهما من عبادنا المؤمنين﴾ .

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

قال قتادة: يقال إلياس هو إدريس، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إلياس هو إدريس، وكذا قـال الضحّاك، وقال وهب بن منبه: هو إلياس بن نسي بن فنحاص، بعثه الله تعالى في بني إسرائيل بعـد (حزقيل) عليهما السلام، وكانوا قـد عبدوا صنماً يقـال له بعل، فدعـاهم إلى الله تعالى، ونهـاهم عن عبادة مـا سواه، وكان قـد آمن بـه ملكهم، ثم ارتد، واستمروا على ضلالتهم، ولم يؤمن بـه منهم أحد، فدعا الله عليهم فحبس عنهم القطر ثلاث سنين، ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم ووعدوه بالإيمان بـه إن هم أصابهم المطر، فدعـا الله تعالى لهم، فجاءهم الغيث، فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر، فسأل الله أن يقبضه إليه، وكان قد نشأ على يديه (اليسع بن أخطوب) عليهما السلام .

﴿إذ قال لقومه ألا تتقون﴾ أي ألا تخافون الله عزّ وجلّ في عبادتكم غيره، ﴿أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين﴾؟ قال ابن عباس ومجاهد: ﴿بعلاً﴾ يعني رباً، قال عكرمة وقتادة: وهي لغة أهل اليمن، وقال ابن إسحاق: أخبرني بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها بعل، وقال عبد الرحمن بن زيد: هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها بعلبك غربي دمشق، وقال الضحّاك: هو صنم كانوا يعبدونه، وقوله تعالى: ﴿أتدعون بعلاً﴾؟ أي أتعبدون صنماً، ﴿وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ أي هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، قال الله تعالى: ﴿فكذبوه فإنهم لمحضرون﴾ أي للعذاب يوم الحساب، ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ أي الموحدين منهم، وهذا استثناء منقطع، وقوله تعالى: ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ أي ثناء جميلاً ﴿سلام على إلياسين﴾، كما يقال في إسماعيل إسماعين، وهي لغة بني أسد، وقوله تعالى: ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين﴾ قد تقدم تفسيره، والله أعلم.

وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله (لوط) عليه السلام أنه بعثه إلى قومه فكذبوه، فنجاه الله تعالى من بين أظهرهم هو وأهله إلا امرأته، فإنها هلكت مع من هلك من قومها، فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات، وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح[1]، وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلاً ونهاراً، ولهذا قال تعالى: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون﴾؟ أي أفلا تعتبرون بهم كيف دمر الله عليهم وتعلمون أن للكافرين أمثالها..؟

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ * فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

قد تقدمت قصة يونس عليه الصلاة والسلام في سورة الأنبياء، وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى» ونسبه إلى أمه، وفي رواية إلى أبيه، وقوله تعالى: ﴿إذ أبق إلى الفلك المشحون﴾ قال ابن عباس: هو الموقر أي المملوء بالأمتعة، ﴿فساهم﴾ أي قارع ﴿فكان من المدحضين﴾ أي المغلوبين، وذلك أن السفينة تلعبت بها الأمواج من كل جانب، وأشرفوا على الغرق، فساهموا

(١) اشتهرت بتسميتها (بحيرة لوط) وهي قريبة من شرق الأردن.

على أنّ من تقع عليه القرعة يلقى في البحر ، لتخف بهم السفينة، فوقعت القرعة على نبي الله (يونس) عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات، وهم يضنّون بـه أن يلقى من بينهم، فتجرد من ثيـابه ليلقي نفسه، وهم يأبون عليه ذلك ، وأمر الله تعالى حوتاً أن يلتقم يونس عليه السلام، فلا يهشم له لحماً، ولا يكسر له عظماً، فجـاء ذلك الحوت وألقي يونس عليه السلام، فالتقمه الحوت وذهب بـه فطاف بـه البحار كلها، ولمـا استقر يونس في بطن الحوت حسب أنه قـد مات، ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه، فإذا هو حي، فقـام فصلى في بطن الحوت، وكان من جملة دعائه: « يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحـد من الناس »، واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت، فقيل: ثلاثة أيام، وقيل: سبعة، وقيل: أربعين يوماً، وقال مجاهد: التقمه ضحى ولفظه عشية، والله تعالى أعلم بمقدار ذلك . وقوله تعالى: ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين * للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ قيل: لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء، قاله الضحّاك واختاره ابن جرير. وفي الحديث: « تعرّف إلى الله في الرخـاء يعرفك في الشدة »[1] . وقال ابن عباس والحسن وقتادة: ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين﴾ يعني المصلين، وقال بعضهم كان من المسبحين في جوف أبويه، وقيل: المراد ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين﴾ هو قوله عزّ وجلّ: ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾. روى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك رضي الله عنه – يرفعه – : « إن يونس النبي عليه الصلاة والسلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت، فقال: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فأقبلت الدعوة تحن بالعرش، قالت الملائكة: يا رب هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة، فقال الله تعالى: أما تعرفون ذلك ؟ قالوا: يا رب ومن هو ؟ قال عزّ وجلّ: عبدي يونس، قـالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة، قالوا: يا رب أو لا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه في البلاء ؟ قال: بلى، فأمر الحوت فطرحه بالعراء »[2] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فنبذناه﴾ أي ألقيناه ﴿ بالعراء﴾، قال ابن عباس: وهي الأرض التي ليس بها نبت ولا بناء، قيل: على جانب دجلة، وقيل: بأرض اليمن، فالله أعلم، ﴿وهو سقيم﴾ أي ضعيف البدن، قال ابن مسعود رضي الله عنه: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش، وقال السدي: كهيئة الصبي حين يولد، وهو المنفوس، ﴿ وأنبتنا عليه شجرة من يقطين﴾ قال ابن مسعود وابن عباس: (اليقطين) هو القرع[3] ، وقال سعيد بن جبير : كل شجرة لا ساق لهـا فهي من اليقطين، وفي رواية عنه : كل شجرة تهلك من عامها فهي من اليقطين، وذكر بعضهم في القرع فوائد: منها سرعة نباته، وتظليل ورقه لكبره ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة تغذية ثمره ، وأنـه يؤكل نيئاً ومطبوخاً بلبه وقشره أيضاً ، وقـد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب الدباء، ويتبعه من حواشي الصفحة، وقوله تعالى: ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾، روي عن ابن عباس أنه قـال: إنمـا كانت رسالة يونس عليه الصلاة والسلام بعد ما نبذه الحوت[4] ، وقال مجاهد: أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت . **قلت** : ولا مانـع أن يكون الذين أرسل إليهم أولاً أمر بالعودة إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدقوه كلهم وآمنوا بـه، وحكى البغوي:

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه . (٢) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه ابن جرير عن ابن وهب .

(٣) وهو قول جمهور السلف .

(٤) رواه ابن جرير عن ابن عباس .

أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت كانوا مائة ألف أو يزيدون، وقوله تعالى: ﴿أو يزيدون﴾ قال ابن عباس: بل يزيدون، وكانوا مائة وثلاثين ألفاً، وقال سعيد بن جبير: يزيدون سبعين ألفاً، وقال مكحول: كانوا مائة ألف وعشرة آلاف، وقال ابن جرير، عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ قال: يزيدون عشرين ألفاً[1]. وقد سلك ابن جرير ههنا ما سلكه عند قوله تعالى: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾، المراد ليس أنقص من ذلك بل أزيد، وقوله تعالى ﴿فآمنوا﴾ أي فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس عليه السلام جميعهم، ﴿فمتعناهم إلى حين﴾ أي إلى وقت آجالهم، كقوله جلت عظمته ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾.

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾

يقول تعالى منكراً على هؤلاء المشركين في جعلهم لله تعالى البنات ﴿سبحانه ولهم ما يشتهون﴾ أي من الذكور، أي يودون لأنفسهم الجيد، ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾ أي يسوؤه ذلك ولا يختار لنفسه إلا البنين. يقول عزّ وجلّ فكيف نسبوا إلى الله تعالى القسم الذي لا يختارونه لأنفسهم، ولهذا قال تعالى ﴿فاستفتهم﴾ أي سلهم على سبيل الإنكار عليهم ﴿ألربك البنات ولهم البنون﴾؟ كقوله عزّ وجلّ: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذاً قسمة ضيزى﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون﴾ أي كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم كقوله جل وعلا ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون﴾ أي يسألون عن ذلك يوم القيامة، وقوله جلت عظمته ﴿ألا إنهم من إفكهم﴾ أي من كذبهم ﴿ليقولون ولد الله﴾ أي صدر منه الولد ﴿وإنهم لكاذبون﴾، فذكر الله تعالى عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب: فأولاً جعلوهم (بنات الله) فجعلوا لله ولداً تعالى وتقدس، ثُمّ جعلوا ذلك الولد (أنثى) ثم عبدوهم من دون الله تعالى وتقدس وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم، ثم قال تعالى منكراً عليهم: ﴿أصطفى البنات على البنين﴾ أي: أي شيء يحمله على أن يختار البنات دون البنين؟ كقوله عزّ وجلّ: ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً؟ إنكم لتقولون قولاً عظيماً﴾، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾؟ أي ما لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون ﴿أفلا تذكرون * أم لكم سلطان مبين﴾ أي حجة على ما تقولونه، ﴿فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾ أي هاتوا برهاناً على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب منزل من

---

(١) الحديث رواه ابن جرير وأخرجه الترمذي وقال: غريب.

السماء، عن الله تعالى أنه اتخذ ما تقولونه، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل، بل لا يجوزه العقل بالكلية. وقوله تعالى: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً﴾ قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بنات الله تعالى، فقال أبو بكر رضي الله عنه: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سروات الجن، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد علمت الجنة﴾ أي الذين نسبوا إليهم ذلك ﴿إنهم لمحضرون﴾ أي إن الذين قالوا ذلك ﴿لمحضرون﴾ في العذاب يوم الحساب، لكذبهم في ذلك وافترائهم وقولهم الباطل بلا علم، وقال ابن عباس: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وقوله جلت عظمته: ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به الظالمون الملحدون علواً كبيراً، وقوله تعالى: ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ استثنى منهم المخلصين وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي مرسل، وجعل ابن جرير هذا الاستثناء من قوله تعالى: ﴿إنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين﴾ وفي هذا الذي قاله نظر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

يقول تعالى مخاطباً المشركين: ﴿فإنكم وما تعبدون * ما أنتم عليه بفاتنين * إلا من هو صال الجحيم﴾ أي إنما ينقاد لمقالتكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة، من هو أضل منكم ممن ذرئ للنار، ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ فهذا الضرب من الناس هو الذي ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة، كما قال تبارك وتعالى ﴿إنكم لفي قول مختلف * يؤفك عنه من أفك﴾ أي إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل، ثم قال تبارك وتعالى منزهاً للملائكة مما نسبوا إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ أي له موضع مخصوص في السماوات ومقام العبادات لا يتجاوزه ولا يتعداه، قال الضحّاك: كان مسروق يروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت، قال رسول الله ﷺ: «ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم» فذلك قوله تعالى: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾[1]. وقال الأعمش، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن في السماوات لسماء ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدماه، ثم قرأ عبدالله رضي الله عنه: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾، قال ابن جريج: كانوا لا يصفون في الصلاة حتى نزلت: ﴿وإنا لنحن الصافون﴾ فصفوا، وقال أبو نضرة: كان عمر رضي الله عنه إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه، ثم قال: أقيموا صفوفكم، استووا قياماً، يريد الله تعالى بكم هدي الملائكة، ثم يقول: ﴿وإنا لنحن الصافون﴾، تأخر يا فلان، تقدم يا فلان، ثم يتقدم فيكبر »[2] .

---

(١) أخرجه الضحاك في تفسيره ورواه ابن عساكر بنحوه وأصله في الصحاح. (٢) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

وفي صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجداً، وتربتها طهوراً» الحديث، ﴿وإنا لنحن المسبحون﴾ أي نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه وننزهه عن النقائص، فنحن عبيد له فقراء إليه خاضعون لديه، وقال ابن عباس ومجاهد: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ الملائكة، ﴿وإنا لنحن الصافون﴾ الملائكة، ﴿وإنا لنحن المسبحون﴾ الملائكة تسبح الله عزّ وجلّ، وقال قتادة: ﴿وإنا لنحن المسبحون﴾ يعني المصلون يثبتون بمكانهم من العبادة[1]. وقوله جل وعلا: ﴿وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين﴾، أي قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى ويأتيهم بكتاب الله كما قال جل جلاله: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً﴾، وقال تعالى: ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فكفروا به فسوف يعلمون﴾ وعيد أكيد وتهديد شديد، على كفرهم بربهم عزّ وجلّ وتكذيبهم رسوله ﷺ.

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾

يقول تبارك وتعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ أي تقدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾، وقال عزّ وجلّ ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾، ولهذا قال جل جلاله: ﴿إنهم لهم المنصورون﴾ أي في الدنيا والآخرة كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم، ممن كذبهم وخالفهم، كيف أهلك الله الكافرين ونجى عباده المؤمنين، ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ أي تكون لهم العاقبة، وقوله جل وعلا: ﴿فتول عنهم حتى حين﴾ أي اصبر على أذاهم لك وانتظر إلى وقت مؤجل، فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر، وقوله جلت عظمته: ﴿وأبصرهم فسوف يبصرون﴾ أي انظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك، ولهذا قال تعالى على وجه التهديد والوعيد: ﴿فسوف يبصرون﴾، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ أي هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم بك، ومع هذا يستعجلون العذاب والعقوبة، قال الله تعالى: ﴿فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين﴾ أي فإذا نزل العذاب بمحلتهم فبئس ذلك اليوم يومهم، بإهلاكهم ودمارهم، وقال السدي: ﴿فإذا نزل بساحتهم﴾ يعني بدارهم ﴿فساء صباح المنذرين﴾ أي فبئس ما يصبحون أي بئس الصباح صباحهم، ولهذا ثبت في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: صبح رسول الله ﷺ خيبر، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش رجعوا، وهم يقولون: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: «الله

(١) الصحيح أن المراد به الملائكة وهو قول ابن عباس ومجاهد.

أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[1]، وقوله تعالى: ﴿وتول عنهم حتى حين • وأبصر فسوف يبصرون﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾

ينزه تبارك وتعالى نفسه الكريمة ويقدسها، ويبرئها عما يقول الظالمون المكذبون المعتدون، تعالى وتنزه وتقدس عن قولهم علواً كبيراً، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿سبحان ربك رب العزة﴾ أي ذي العزة التي لا ترام ﴿عما يصفون﴾ أي عن قول هؤلاء المعتدين المفترين، ﴿وسلام على المرسلين﴾ أي سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة، ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ أي له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال، عن قتادة قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا سلمتم عليَّ فسلموا على المرسلين» فإنما أنا رسول من المرسلين»[2]. وعن أبي سعيد رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: أنه كان إذا أراد أن يسلم قال: «سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين» ثم يسلم[3]، وروى ابن أبي حاتم عن الشعبي قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم: ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون • وسلام على المرسلين • والحمد لله رب العالمين﴾»[4]. وقد وردت أحاديث في كفارة المجلس: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، قال ابن كثير: وقد أفردت لها جزءاً على حدة، ولله الحد والمنة.

[آخر تفسير سورة الصافات، والله أعلم]

* * *

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أنس، ومعنى قولهم (محمد والخميس) أي محمد والجيش.

(٢) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم مرسلاً ورواه ابن أبي حاتم مسنداً عن أبي طلحة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الحافظ أبو يعلى، قال ابن كثير: إسناده ضعيف، أقول: وله ما يؤيده من الشواهد الصحيحة.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم مرسلاً، وروي موقوفاً عن علي رضي الله عنه.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا، وقوله تعالى: ﴿ والقرآن ذي الذكر ﴾ أي والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، ونفع لهم في المعاش والمعاد، قال الضحّاك ﴿ ذي الذكر ﴾ كقوله تعالى: ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ أي تذكيركم[1]

وقال ابن عباس ﴿ ذي الذكر ﴾ ذي الشرف أي ذي الشأن والمكانة، ولا منافاة بين القولين فإنه كتاب شريف، مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار، واختلفوا في جواب هذا القسم: فقال قتادة: جوابه ﴿ بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴾ واختاره ابن جرير، وقيل: جوابه ما تضمنه سياق السورة بكمالها، والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿ بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴾ أي إن في هذا القرآن لذكرى لمن يتذكر وعبرة لمن يعتبر، وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿ في عزة ﴾ أي استكبار عنه وحمية، ﴿ وشقاق ﴾ أي ومخالفة له ومعاندة ومفارقة، ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم فقال تعالى: ﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ أي من أمة مكذبة، ﴿ فنادوا ﴾ أي حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله تعالى، وليس ذلك بمُجْدٍ عنهم شيئاً، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ﴾ أي يهربون، قال التميمي: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿ فنادوا ولات حين مناص ﴾! قال: ليس بحين نداء ولا نزعٍ ولا فرار، وعن ابن عباس: ليس بحين مغاث، نادوا النداء حين لا ينفعهم، وأنشد: * تذكَّرَ ليلى لات حين تذكر *

وقال محمد بن كعب: نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم، واستناصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم، وقال قتادة: لما رأوا العذاب أرادوا التوبة في غير حين النداء، وقال مجاهد: ﴿ فنادوا ولات حين مناص ﴾ ليس بحين فرار ولا إجابة، وعن زيد بن أسلم: ﴿ ولات حين مناص ﴾ ولا نداء في غير حين النداء، وهذه الكلمة، وهي (لات) هي (لا) التي للنفي زيدت معها التاء، كما تزاد في ثم، فيقولون: ثمت، ورب، فيقولون: ربت.

(١) وبه قال قتادة واختاره ابن جرير رحمه الله.

وأهل اللغة يقولون: النوص: التأخر، والبوص: التقدم، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ولات حين مناص﴾ أي ليس الحين حين فرار ولا ذهاب، والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعجبهم من بعثة رسول الله ﷺ بشيراً ونذيراً، كما قال عزّ وجلّ: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾؟ الآية، وقال جل وعلا ههنا: ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ أي بشر مثلهم، وقال الكافرون ﴿هذا ساحر كذاب * أجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾ أي أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟ أنكر المشركون ذلك قبحهم الله تعالى وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم، فلما دعاهم رسول الله ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم وإفراد الإله بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا، وقالوا: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب * وانطلق الملأ منهم﴾ وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين ﴿امشوا﴾ أي استمروا على دينكم، ﴿واصبروا على آلهتكم﴾، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد، وقوله تعالى ﴿إن هذا لشيء يراد﴾ قال ابن جرير: إن هذا الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء، وأن يكون له منكم أتباع ولسنا نجيبه إليه.

(ذكر سبب نزول هذه الآيات الكريمات)

روى ابن جرير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم (أبو جهل) فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته، فبعث إليه، فجاء النبي ﷺ، فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجُل، قال: فخشي أبو جهل، لعنه الله، إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه، فوثب فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه، فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب: أي ابن أخي، ما بال قومك يشكونك ويزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول؟ قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا عم، إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية»، ففزعوا لكلمته ولقوله، فقال القوم: كلمة واحدة نعم وأبيك عشراً[1]، فقالوا: وما هي؟ وقال أبو طالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟ قال

---

(١) أي نعطيك بدل الكلمة الواحدة عشر كلمات.

ﷺ: « لا إله إلا الله » ، فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ! إن هذا لشيء عجاب﴾ ونزلت من هذا الموضع إلى قوله: ﴿ بل لما يذوقوا عذاب﴾[1] .

وقولهم : ﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة﴾ أي ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد في الملة الآخرة، قال مجاهد وقتادة : يعنون دين قريش، وقال السدي: يعنون النصرانية، وقال ابن عباس: ﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة﴾ يعني دين النصرانية، قالوا: لو كان هذا القرآن حقاً لأخبرتنا به النصارى ﴿ إن هذا إلا اختلاق﴾ قال مجاهد: كذب، وقال ابن عباس: تخرص، وقولهم: ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا﴾ يعني أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كما قال في الآية الأخرى: ﴿ لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾، ولهذا لما قالوا هذا الذي دل على جهلهم وقلة عقلهم، في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم، قال الله تعالى: ﴿ بل لّما يذوقوا عذاب﴾ أي إنما يقولون هذا، لأنهم ما ذاقوا عذاب الله تعالى ونقمته ، وسيعلمون غِبَّ ما قالوا وما كذبوا به .

ثم قال تعالى مبيناً أنه المتصرف في ملكه، الفعال لما يشاء، الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده، وأنَّ العباد لا يملكون شيئاً من الأمر وليس إليهم من التصرف في الملك ولا مثقال ذرة، ولهذا قال تعالى منكراً عليهم: ﴿ أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب﴾ أي العزيز الذي لا يرام جنابه، الوهاب الذي يعطي ما يريد لمن يريد، وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿ أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً * أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ الآية، كما أخبر عزّ وجلّ عن قوم صالح عليه السلام حين قالوا: ﴿ أألقي الذكر عليه من بيننا، بل هو كذاب أشر * سيعلمون غداً من الكذاب الأشر﴾ وقوله تعالى: ﴿ أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب﴾ أي إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب، قال ابن عباس: يعني طرق السماء ، وقال الضحاك : فليصعدوا إلى السماء السابعة ، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ أي هؤلاء الجند المكذبون سيهزمون ويغلبون ، ويكبتون كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين ، وهذه الآية كقوله جلّت عظمته: ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر * سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ كان ذلك يوم بدر ﴿ بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾ .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ أُولَٰٓئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات في مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد تقدمت قصصهم مبسوطة في أماكن متعددة، وقوله تعالى: ﴿ أولئك

---

(١) أخرجه ابن جرير ورواه أحمد والنسائي والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما .

الأحزاب﴾ أي كانوا أكثر منكم وأشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب﴾ فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر، وقوله تعالى: ﴿وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق﴾ قال زيد بن أسلم: أي ليس لها مثنوية، أي ما ينظرون ﴿إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها﴾ أي فقد اقتربت ودنت وأزفت، وهذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى إسرافيل أن يطولها، فلا يبقى أحد من أهل السماوات والأرض إلا فزع إلا من استثنى الله عزّ وجلّ، وقوله جلّ جلاله: ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب﴾ هذا إنكار من الله تعالى على المشركين في دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب، فإن القِط هو الكتاب، وقيل: هو الحظ والنصيب، قال ابن عباس ومجاهد والضحّاك: سألوا تعجيل العذاب كما قالوا: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ وقيل: سألوا تعجيل نصيبهم من الجنة إن كانت موجودة ليلقوا ذاك في الدنيا، وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب، قال ابن جرير: سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر في الدنيا، وهذا الذي قاله جيد. ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد قال الله تعالى لرسوله ﷺ آمراً له بالصبر على أذاهم، ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر.

اَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

يذكر تعالى عن عبده ورسوله (داود) عليه الصلاة والسلام أنه كان ذا أيد، و (الأيد) القوة في العلم والعمل، قال ابن عباس: الأيد القوة، وقرأ ابن زيد: ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾ وقال مجاهد: الأيد: القوة في الطاعة. وقال قتادة: أعطي داود عليه الصلاة والسلام قوة في العبادة وفقهاً في الإسلام، وقد ذكر لنا أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم ثلث الليل، ويصوم نصف الدهر، وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله عزّ وجلّ صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى»[1] وإنه كان (أوّاباً) وهو الرّجاع إلى الله عزّ وجلّ في جميع أموره وشؤونه، وقوله تعالى: ﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق﴾ أي أنه تعالى سخر الجبال تسبّح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال عزّ وجلّ: ﴿يا جبال أوبي معه والطير﴾ وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجّع بترجيعه، إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء، فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب بل يقف في الهواء، ويسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات ترجّع معه وتسبح تبعاً له.

ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿والطير محشورة﴾ أي محبوسة في الهواء ﴿كل له أواب﴾ أي مطيع يسبح تبعاً له، قال سعيد بن جبير وقتادة ﴿كل له أواب﴾ أي مطيع، وقوله تعالى: ﴿وشددنا ملكه﴾ أي جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك، قال مجاهد: كان أشد أهل الدنيا سلطاناً، وقال السدي: كان يحرسه كل يوم أربعة آلاف، وقوله جل وعلا: ﴿وآتيناه الحكمة﴾ قال مجاهد: يعني الفهم والعقل والفطنة، وعنه: ﴿الحكمة﴾

(١) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة.

العدل، وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه، وقال السدي: ﴿ الحكمة ﴾ النبوة، وقوله جلّ جلاله: ﴿ وفصل الخطاب ﴾. قال شريح القاضي والشعبي: فصل الخطاب: الشهود والأيمان، وقال قتادة: شاهدان على المدعي أو يمين المدعى عليه، وقال مجاهد والسدي: هو إصابة القضاء وفهم ذلك، وقال مجاهد أيضاً: هو الفصل في الكلام وفي الحكم، وهذا يشمل كل ذلك، وهو المراد واختاره ابن جرير، وعن أبي موسى رضي الله عنه، أول من قال: (أما بعد) داود عليه السلام، وهو فصل الخطاب، وكذا قال الشعبي: فصل الخطاب: أما بعد.

* وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾

قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً، لا يصح سنده، لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه، ويزيد وإن كان من الصالحين، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة؛ فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يُرَدَّ علمها إلى الله عزّ وجلّ، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضاً[1]، وقوله تعالى: ﴿ ففزع منهم ﴾ إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه، وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب، أي احتاطا به، يسألانه عن شأنهما، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ وعزّني في الخطاب ﴾ أي غلبني، يقال: عز يعز إذا قهر وغلب، وقوله: تعالى: ﴿ وظن داود أنما فتناه ﴾ قال ابن عباس: أي اختبرناه، وقوله تعالى ﴿ وخر راكعاً ﴾ أي ساجداً، ﴿ وأناب ﴾ أي رجع وتاب ويحتمل أنه ركع أولاً ثم سجد بعد ذلك، ﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ أي ما كان منه مما يقال فيه « حسنات الأبرار سيئات المقربين ».

وقد اختلف الأئمة في سجدة (ص) هل هي من عزائم السجود؟ على قولين: الجديد من مذهب الشافعي رضي الله عنه أنها ليست من عزائم السجود، بل هي سجدة شكر؛ والدليل على ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: السجدة في (ص) ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها[2]،

(١) زعموا أن المراد بالخصم جبريل وميكائيل، وضمير الجمع في: تسوروا، يرجع إليهما، حملاً على لفظ الخصم. والنعجة: كناية عن المرأة، والمراد: أم سليمان، وكانت امرأة أوريا قبل داود، إلى آخر ما هنالك من أقوال غير صحيحة.

(٢) أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي والإمام أحمد، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى البخاري عند تفسيرها عن العوام قال: سألت مجاهداً عن سجدة (ص) فقال: سألت ابن عباس رضي الله عنهما من أين سجدت ؟ فقال: أوما تقرأ ﴿ ومن ذريته داود وسليمان ﴾، ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾؟ فكان داود عليه الصلاة والسلام ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها داود عليه الصلاة والسلام، فسجدها رسول الله ﷺ . وقوله تعالى: ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ أي وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله عزّ وجلّ بها، وحسن مرجع، وهو الدرجات العالية في الجنة لتوبته وعدله التام في ملكه، كما جاء في الصحيح: « المقسطون على منابر من نور، عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين، الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا » . وعن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ : « إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة، وأقربهم منه مجلساً إمام عادل، وأن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً إمام جائر »[1] .

يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

هذه وصية من الله عزّ وجل لولاة الأمور، أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله، وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد، روى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي زرعة - وكان قد قرأ الكتاب - أن الوليد بن عبد الملك قال له: أيحاسب الخليفة فإنك قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقهت ؟ فقلت: يا أمير المؤمنين أقول ؟ قال: قل في أمان الله، قلت: يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام ؟ إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة ثم توعده في كتابه فقال تعالى: ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ الآية[2]، وقال عكرمة: ﴿ لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ هذا من المقدم والمؤخر: لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا، وقال السدي: لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب، وهذا القول أظهر، والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثاً، وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحّدوه، ثم يجمعهم يوم الجمع فيثيب المطيع ويعذب الكافر، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا ﴾، أي الذين لا يرون بعثاً ولا معاداً، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط، ﴿ فويل للذين كفروا من النار ﴾ أي ويل لهم

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذي .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي زرعة .

يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم، ثم بيَّن تعالى أنه عزّ وجلّ من عدله وحكمته لا يساوي بين المؤمنين والكافرين، فقال تعالى: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض * أم نجعل المتقين كالفجار﴾ أي لا نفعل ذلك، ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع، ويعاقب فيها هذا الفاجر، وتدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء، فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلا بد في حكمة الحكيم العليم العادل، الذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار فتعين أن هناك داراً أخرى، لهذا الجزاء والمواساة، ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة قال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ أي ذوو العقول، وهي (الألباب) جمع لب وهو العقل، قال الحسن البصري: والله ما تدبره بحفظ حروفه، وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل[1].

وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود (سليمان) أي نبيـاً، كما قال عزّ وجلّ: ﴿وورث سليمان داود﴾ أي في النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قـد كان عنده مائة امرأة حرائر، وقوله تعالى: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾ ثناء على سليمان بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عزّ وجلّ، وقوله تعالى: ﴿إذ عرض عليه بالعشيّ الصافنات الجياد﴾ أي إذ عرض على سليمان عليه الصلاة والسلام في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات، قال مجاهد: وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، والجياد السراع[2]، وعن إبراهيم التيمي قال: كانت الخيل التي شغلت سليمان عليه الصلاة والسلام عشرين ألف فرس فعقرها، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر وفي سهوتها ستر، فهبت الريح، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة رضي الله عنها لعب، فقال ﷺ: «ما هذا يا عائشة؟» قالت رضي الله عنها: بناتي، ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع، فقال ﷺ: «ما هذا الذي أرى وسطهن؟» قالت رضي الله عنها: فرس، قال رسول الله ﷺ: «ما هذا الذي عليه؟» قالت رضي الله عنها: جناحان، قال رسول الله ﷺ: «فرس له جناحان» قالت رضي الله عنها: ! أما سمعت أن سليمان عليه الصلاة والسلام كانت له خيل لهـا أجنحة؟ قالت رضي الله عنها: فضحك ﷺ حتى رأيت نواجذه[3]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب﴾ ذكر غير واحد من السلف والمفسرين: أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يقطع بـه أنه لم يتركها عمداً، بل نسياناً، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر، حتى صلاها بعد الغروب؛ وذلك ثابت

(١) رواه ابن أبي حاتم عن الحسن البصري.

(٢) وكذلك قال غير واحد من السلف.

(٣) أخرجه أبو داود في السنن من حديث عائشة رضي الله عنها.

في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه قال: جاء عمر رضي الله عنه يوم الخندق بعد ما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، ويقول: يا رسول الله، والله ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب، فقال رسول الله ﷺ: «والله ما صليتها»، فقال: فقمنا إلى بطحان فتوضأ نبي الله ﷺ للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب، ويحتمل أنه كان سائغاً في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال، والأول أقرب، لأنه قال بعده: ﴿ردوها عليَّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق﴾ قال الحسن البصري: لا والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك، ثم أمر بها فعقرت، وقال السدي: ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف[1]، ولهذا عوضه الله عزَّ وجلَّ ما هو خير منها، وهو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب، غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ولقد فتنا سليمان﴾ أي اختبرناه بأن سلبناه الملك، ﴿وألقينا على كرسيه جسداً﴾[2]. قال ابن عباس والحسن وقتادة: يعني شيطاناً، ﴿ثم أناب﴾ أي رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته، قال ابن جرير: وكان اسم ذلك الشيطان صخراً، وقيل: آصف، ﴿قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب﴾ قال بعضهم: معناه لا ينبغي لأحد من بعدي أي لا يصلح لأحد أن يسلبنيه بعدي، والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله، وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ، قال البخاري عند تفسير هذه الآية، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتاً من الجن تفلت عليَّ البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع علي الصلاة فأمكنني الله تبارك وتعالى منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾» قال روح: فرده خاسئاً. وروى مسلم في صحيحه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ، فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك، ثم قال، ألعنك بلعنة الله» ثلاثاً، وبسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله

(١) وروي عن ابن عباس أنه قال: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها بيده حباً لها، والأظهر قول الحسن والسدي.

(٢) رويت عدة روايات مطولة عن موضوع (فتنة سليمان) وكلها إسرائيليات، ومن أغربها وأنكرها ما رواه ابن أبي حاتم أن سليمان عليه السلام أراد أن يدخل الخلاء فأعطى الجرادة خاتمه وكانت أحب نسائه إليه، فجاءها الشيطان بصورة سليمان فقال لها: هاتي خاتمي، فظنته سليمان فأعطته إياه، فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين .. وكل هذه القصص لا تصح لأنها من الإسرائيليات وقد ذكرها ابن كثير وبيّن غرابتها ونكارتها، ولذلك ضربنا صفحاً عنها.

سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك، قال ﷺ: «إن عدوّ الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة، فلم يستأخر ثلاث مرات، ثم أردت أن آخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب بـه صبيـان أهل المدينة»[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـام يصلي صلاة الصبح، وأنا خلفه فقرأ، فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي، فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بـين اصبعي هاتين - الإبهام والتي تليها - ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطـاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب بـه صبيـان المدينة، فمن استطـاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل»[2].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخـاء حيث أصاب ﴾ قال الحسن البصري: لما عقر سليمان عليه الصلاة والسلام الخيل غضباً لله عزّ وجلّ، عوّضه الله تعالى ما هو خير منها وأسرع الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر، وقوله جل وعلا: ﴿ حيث أصاب ﴾ أي حيث أراد من البلاد، وقوله جل جلاله: ﴿والشياطين كل بناء وغواص﴾ أي منهم ما هو مستعمل في الأبنية الهـائلة من محاريب وتماثيل إلى غير ذلك من الأعمـال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر، وطائفة غواصون في البحار يستخرجون ما بها من اللآلىء والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها، ﴿وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ أي موثوقون في الأغلال والأكبال ممن تمرد وعصى، وامتنع من العمل وأبى، أو قـد أساء في صنيعه واعتدى، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾ أي هذا الذي أعطيناك من الملك التـام والسلطان الكامل كما سألتنا، فأعط من شئت، واحرم من شئت، لا حساب عليك، أي مهما فعلت فهو جـائز لك، وقـد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لمـا خيّر بـين أن يكون (عبداً رسولاً)، وبـين أن يكون (نبياً ملكاً) يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، بلا حساب ولا جناح، اختار المنزلة الأولى بعد ما استشار جبريل عليه السلام، فقال له: تواضع فاختار المنزلة الأولى، لأنها أرفع قدراً عند الله عزّ وجلّ وأعلى منزلة في المعاد، وإن كانت المنزلة الثانية وهي النبوة مـع الملك عظيمة أيضاً في الدنيا والآخرة، ولهذا لمـا ذكر تبارك وتعالى ما أعطى سليمان عليه الصلاة والسلام في الدنيا نبه تعالى أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضاً، فقال تعالى: ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ أي في الدار الآخرة.

وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

يذكر تبارك وتعالى عبده ورسوله (أيوب) عليه الصلاة والسلام، ومـا كان ابتلاه تعالى بـه من الضر في

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي الدرداء مرفوعاً.
(٢) أخرجه الإمام أحمد وروى بعضه أبو داود في سننه.

جسده وماله وولده، حتى لم يبق من جسده مغرز إبرة سليماً سوى قلبه، ولم يبق له من الدنيا شيء يستعين بـه على مرضه وما هو فيه، غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله تعالى ورسوله، فكانت تخدم النـاس بالأجرة وتطعمه وتخدمه، نحواً من ثماني عشرة سنة، وقـد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا، فسلب جميع ذلك حتى رفضه القريب والبعيد سوى زوجته رضي الله عنها فإنها كانت لا تفارقه صباحاً ومساء إلا بسبب خدمة النـاس ثم تعود إليه قريباً، فلما طال المطال، واشتد الحال، وانتهى القدر، وتم الأجل المقدر تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين فقال: ﴿إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾، وفي هذه الآية الكريمة قال: ﴿واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾ قيل ﴿بنُصْب﴾ في بدني و ﴿عذاب﴾ في مـالي وولدي، فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين، وأمره أن يقوم من مقامه، وأن يركض الأرض برجله، ففعل، فأنبع الله تعالى عيناً وأمره أن يغتسل منها، فأذهبت جميع ما كان في بدنه من الأذى؛ ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر، فأنبع له عيناً أخرى، وأمره أن يشرب منها، فأذهبت جميع ما كان في باطنه من السوء، وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً؛ ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾ . روى ابن جرير وابن أبي حاتم، عن أنس بن مالك رضي الله عنهقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام لبث في بلائه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحـد في العالمين، قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله تعالى، فيكشف ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب عليه الصلاة والسلام: لا أدري ما تقول غير أن الله عزّ وجلّ يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله تعالى، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله تعالى إلا في حق، قال: وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضاهـا أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطـأ عليها، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام أن: ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾ فاستبطأته، فالتفتت تنظر، فأقبل عليها، قـد أذهب الله ما بـه من البلاء، وهو على أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى، فوالله القدير على ذلك، ما رأيت رجلاً أشبه بـه منك إذ كان صحيحاً، قال: فإني أنا هو»[1] .

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب عليه الصلاة والسلام يحثو في ثوبه، فناداه ربه عزّ وجلّ: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال عليه الصلاة والسلام: بلى يا رب، ولكن لا غنى بي عن بركتك»[2]، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منـا وذكرى لأولي الألباب﴾ قـال الحسن وقتادة: أحيـاهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم، وقوله عزّ وجلّ: ﴿رحمة منا﴾ أي بـه على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته، ﴿وذكرى لأولي الألباب﴾ أي لذوي العقول ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج، وقوله جلّت عظمته: ﴿وخذ بيدك ضغثاً فاضرب بـه ولا تحنث﴾ وذلك أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان قـد غضب على زوجته ووجد في أمر فعلته، وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة

---

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم بنحوه وهذا لفظ ابن جرير. (٢) أخرجه البخاري والإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً.

جلدة، فلما شفاه الله عزّ وجلّ وعافاه ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله عزّ وجلّ أن يأخذ ﴿ضغثاً﴾ وهو الشمراخ فيه مائة قضيب، فيضربها به ضربة واحدة، وقد برت يمينه، وخرج من حنثه ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأناب إليه، ولهذا قال جلّ وعلا: ﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب﴾ أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه ﴿نعم العبد إنه أواب﴾ أي رجّاع منيب، ولهذا قال جلّ جلاله: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ الآية واستدل كثير من الفقهاء بهذه الآية الكريمة على مسائل في الأيمان والله أعلم.

وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين: ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار﴾ يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة، قال ابن عباس ﴿أولي الأيدي﴾: أولي القوة، ﴿والأبصار﴾: الفقه في الدين، وقال مجاهد: ﴿أولي الأيدي﴾ يعني القوة في طاعة الله تعالى، ﴿والأبصار﴾ يعني البصر في الحق، وقال قتادة والسدي: أعطوا قوة في العبادة وبصراً في الدين، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار﴾ قال مجاهد: أي جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم همٌّ غيرها، وقال مالك بن دينار: نزع الله تعالى من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها، وقال سعيد بن جبير: يعني بالدار (الجنة) يقول: أخلصناها لهم بذكرهم لها، وقال ابن زيد: جعل لهم خاصة أفضل شيء في الدار الآخرة، وقوله تعالى: ﴿وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾ أي المختارين المجتبين الأخيار، فهم أخيار مختارون، وقوله تعالى: ﴿واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار﴾. قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما أغنى عن إعادته ههنا، وقوله عزّ وجلّ ﴿هذا ذكر﴾ أي هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر، وقال السدي: يعني القرآن العظيم.

وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ * وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء أن لهم في الدار الآخرة ﴿لحسن مآب﴾ وهو المرجع والمنقلب. ثم فسره بقوله تعالى: ﴿جنات عدن﴾ أي جنات إقامة ﴿مفتحة لهم الأبواب﴾ والألف واللام ههنا بمعنى الإضافة، كأنه يقول مفتحة لهم أبوابها، أي إذا جاءوها فتحت لهم أبوابها، وقد ورد في ذكر أبواب الجنة الثمانية أحاديث كثيرة

من وجوه عديدة، وقوله عزّ وجلّ: ﴿متكئين فيها﴾ قيل: متربعين على سرير تحت الحجال، ﴿يدعون فيها بفاكهة كثيرة﴾ أي مهما طلبوا وجدوا وأحضر كما أرادوا، ﴿وشراب﴾ أي من أي أنواعه شاءوا أتتهم به الخدام ﴿بأكواب وأباريق وكأس من معين﴾، ﴿وعندهم قاصرات الطرف﴾ أي عن غير أزواجهن فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ﴿أتراب﴾ أي متساويات في السن والعمر، ﴿هذا ما توعدون ليوم الحساب﴾ أي هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة هي التي وعدها لعباده المتقين، التي يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار، ثم أخبر تبارك وتعالى عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا زوال ولا انقضاء ولا انتهاء فقال تعالى: ﴿إن هذا لرزقنا ماله من نفاد﴾، كقوله عزّ وجلّ: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾، وكقوله تعالى: ﴿لهم أجر غير ممنون﴾ أي غير مقطوع، وكقوله: ﴿أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار﴾، والآيات في هذا كثيرة جداً.

هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾

لما ذكر تبارك وتعالى مآل السعداء، ثنّى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم، فقال عز وجل: ﴿هذا وإن للطاغين﴾ وهم الخارجون عن طاعة الله عزّ وجلّ، المخالفون لرسل الله صلى الله عليهم وسلم ﴿لشر مآب﴾ أي لسوء منقلب ومرجع، ثم فسره بقوله جل وعلا: ﴿جهنم يصلونها﴾ أي يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم ﴿فبئس المهاد ۞ هذا فليذوقوه حميم وغساق﴾، أما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره، وأما الغساق فهو ضده وهو البارد الذي لا يستطاع من شدة برده المؤلم، ولهذا قال عزّ وجلّ ﴿وآخر من شكله أزواج﴾ أي وأشياء من هذا القبيل، الشيء وضده يعاقبون بها، عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن دلواً من غسّاق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا»[1]. وقال كعب الأحبار ﴿غساق﴾ عين في جهنم يسيل إليها حمة كل ذات حمة من حية، وعقرب وغير ذلك فيستنقع، فيؤتى بالآدمي، فيغمس فيها غمسة واحدة فيخرج، وقد سقط جلده ولحمه عن العظام، ويتعلق جلده ولحمه في كعبيه وعقبيه، ويجر لحمه كله كما يجر الرجل ثوبه[2]، وقال الحسن البصري ﴿وآخر من شكله أزواج﴾: ألوان من العذاب، كالزمهرير، والسموم، وشرب الحميم، وأكل الزقوم، والصعود والهويّ، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة، والجميع مما يعذبون به،

(١) أخرجه الإمام أحمد ورواه الترمذي وابن جرير.

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار.

ويهانون بسببه، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ هـذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار﴾، هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض، كما قال تعالى: ﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾ يعني بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون، ويكفر بعضهم ببعض، فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى، إذا أقبلت مع الخزنة من الزبانية ﴿ هـذا فوج مقتحم﴾ أي داخل ﴿ معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار﴾ أي لأنهم من أهل جهنم، ﴿ قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم﴾ أي فيقول لهم الداخلون ﴿ بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا﴾ أي أنتم دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير، ﴿ فبئس القرار﴾ أي فبئس المنزل والمستقر والمصير ﴿ قالوا ربنا من قدّم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار﴾، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار * قال لكلٍ ضعفٌ ولكن لا تعلمون﴾ أي لكلٍ منكم عذاب بحسبه، ﴿ وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنّا نعدهم من الأشرار * اتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار﴾؟ هذا إخبار عن الكفار في النار، أنهم يفتقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة، وهم المؤمنون في زعمهم قالوا: ما لنا لا نراهم معنا في النار؟ قال مجاهد: هذا قول أبي جهل يقول: ما لي لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً وفلاناً وفلاناً؟ وهذا ضرب مثل، وإلا فكل الكفار هـذا حالهم، يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار، افتقدوهم فلم يجدوهم، فقالوا: ﴿ ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار * أتخذناهم سخرياً﴾ أي في الدار الدنيا ﴿ أم زاغت عنهم الأبصار﴾؟ يسلّون أنفسهم بالمحال، يقولون: أو لعلهم معنا في جهنم، ولكن لم يقع بصرنا عليهم، فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ قالوا: نعم، فأذّن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾، وقوله تعالى: ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾، أي إن هـذا الذي أخبرناك به يا محمد، من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض، ولعن بعضهم لبعض، لحقٌ لا مرية فيه ولا شك.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للكفار بالله المشركين بـه المكذبين لرسوله ﴿ إنما أنا منذر﴾ لست كما تزعمون، ﴿ وما من إلٓه إلا الله الواحد القهار﴾ أي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه، ﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ أي هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه، ﴿ العزيز الغفار﴾ أي غفار مع عظمته وعزته، ﴿ قل هو نبأ عظيم﴾ أي خبر عظيم وشأن بليغ، وهو إرسال الله تعالى إياي إليكم، ﴿ أنتم عنه معرضون﴾ أي غافلون، قال مجاهد﴿ قل هو نبأ عظيم﴾: يعني القرآن، وقوله تعالى: ﴿ ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون﴾ أي لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملأ الأعلى؟ يعني في شأن آدم عليه الصلاة والسلام، وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه في تفضيله عليه، وغير ذلك.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝٧٦ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٥﴾

هذه القصة ذكرها الله تبارك وتعالى في سورة البقرة، وفي أول الأعراف، وفي سورة الحجر، وسبحان، والكهف، وههنا، وهي أن الله سبحانه وتعالى، أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام، بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حمأ مسنون، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته، فليسجدوا له إكراماً وإعظاماً واحتراماً وامتثالاً لأمر الله عزّ وجلّ، فامتثل الملائكة كلهم سوى إبليس ولم يكن منهم جنساً، كان من الجن[1]، فخانه طبعه وجبلته، فاستنكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه عزّ وجل فيه، وادعى أنه خير من آدم، فإنه مخلوق من نار، وآدم خلق من طين، والنار خير من الطين في زعمه، وقد أخطأ في ذلك وخالف أمر الله تعالى، وكفر بذلك فأبعده الله عزّ وجل، وأرغم أنفه وطرده عن باب رحمته ومحل أنسه، وحضرة قدسه، وسماه (إبليس) إعلاماً له بأنه قد أبلس من الرحمة، وأنزله من السماء مذموماً مدحوراً إلى الأرض، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث فأنظره الحليم الذي لا يعجل على من عصاه، فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى، وقال: ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين﴾، كما قال عزّ وجل: ﴿لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾ وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا﴾، وقوله تعالى: ﴿قال فالحق والحق أقول * لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾، قال السدي: هو قسم أقسم الله به، كقوله تعالى: ﴿ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾، وكقوله عزّ وجلّ: ﴿قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءاً موفوراً﴾.

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ۝٨٨﴾

---

(١) هذا الرأي وهو أن إبليس من الجن وليس من الملائكة هو الذي تطمئن إليه النفس وترتاح، وتدل عليه النصوص الشرعية كقوله تعالى: ﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾، وانظر الأدلة في كتابنا (النبوة والأنبياء) صفحة (١٢٨) =

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين ما أسألكم على هـذا البلاغ ، وهذا النصح أجراً تعطوني إياه من عرض الحياة الدنيا ﴿وما أنا من المتكلفين﴾ أي وما أريد على ما أرسلني الله تعالى بـه ، ولا أبتغي زيادة عليه ، بل ما أمرت به أديته ، لا أزيد عليه ولا أنقص منه ، وإنما أبتغي بذلك وجه الله عزّ وجلّ والدار الآخرة ، قـال مسروق : أتينا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه فقال : يا أيها النـاس من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم ، فإن من العلم أن يقول الرجل لمـا لا يعلم : الله أعلم ، فإن الله عزّ وجلّ قال لنبيكم ﷺ : ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾[1] . وقوله تعالى : ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ يعني القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن ، قال ابن عباس ﴿للعالمين﴾ قال : الجن والإنس[2] ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ولتعلمن نبأه﴾ أي خبره وصدقه ﴿بعد حين﴾ أي عن قريب ، قال قتادة : بعد الموت ، قال عكرمة : يعني يوم القيامة ، ولا منافاة بين القولين ، فإن من مات فقد دخل في حكم القيامـة . وقال الحسن البصري : يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين .

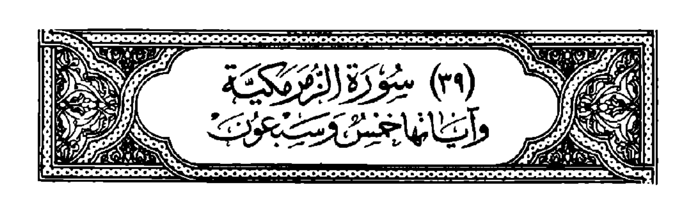
[آخر تفسير سورة (ص) ، ولله الحمد والمنة]

* * *

= تحت عنوان : هل كان ابليس من الملائكة ؟

(١) أخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش .

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس .



(٣٩) سورة الزمر مكية
وآياتها خمس وسبعون

روى النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم، وكان ﷺ يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب وهو (القرآن العظيم) من عنده تبارك وتعالى، فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك كما قال عزّ وجل: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾، وقال تعالى: ﴿تنزيل من حكيم حميد﴾، وقال هاهنا ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز﴾ أي المنيع الجناب ﴿الحكيم﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين﴾ أي فاعبد الله وحده لا شريك له وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده، ولهذا قال تعالى: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ أي لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له، وقال قتادة ﴿ألا لله الدين الخالص﴾: شهادة أن لا إله إلا الله، ثم أخبر عزّ وجلّ عن عباد الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ أي إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام، اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة، ليشفعوا لهم عند الله تعالى، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به، قال قتادة والسدي: ﴿إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ أي ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة، ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم

(١) أخرجه النسائي من حديث عائشة رضي الله عنها .

إذا حجوا في جاهليتهم: « لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك » وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردها والنهي عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هـذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيـه، ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه كما قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾، وقال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلّه إلا أنا فاعبدون﴾، وأخبر أن الملائكة التي في السماوات، كلهم عبيد خاضعون لله، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنـده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنهم ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ تعالى الله عن ذلـك علواً كبيراً.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿إن الله يحكم بينهم﴾ أي يوم القيامة ﴿فيما هم فيه يختلفون﴾ أي سيفصل بين الخلائق يوم معادهم، ويجزي كل عامل بعمله، ﴿إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾ أي لا يرشد إلى الهداية، من قصده الكذب والافتراء على الله تعالى، وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه؛ ثم بيّن تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة، والمعاندون من اليهود والنصارى في العزير وعيسى، فقـال تبارك وتعالى: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى ممـا يخلق ما يشاء﴾ أي لكان الأمر على خلاف ما يزعمون، وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه بل هو محـال، وإنمـا قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه كما قال عزّ وجلّ: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾، فهذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لمقصد المتكلم، وقوله تعالى: ﴿سبحانه هو الله الواحد القهار﴾ أي تعالى وتنزّه وتقدس، عن أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد الفرد الصمـد، الذي قهر الأشياء، فدانت له وذلت وخضعت، تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾

يخبر تعالى أنه الخالق لما في السماوات والأرض، وما بين ذلك من الأشياء، وبأنه مالك الملك المتصرف فيه يقلّب ليله ونهاره ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾ أي سخرهما يجريان متعاقبين، لا يفترقان، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، كقوله تعالى: ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وسخر الشمس والقمر كلٌّ يجري لأجلٍ مسمى﴾ أي إلى مـدة معلومة عند الله تعالى، ثم ينقضي يوم القيامة ﴿ألا هو العزيز الغفار﴾ أي مع عزته وعظمته وكبريائه، هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه، وقوله جلت عظمته: ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ أي خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم ﴿من نفس واحدة﴾ وهو آدم عليه الصلاة

والسلام ﴿ثم جعل منها زوجها﴾ وهي حواء عليها السلام كقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾، وقوله تعالى: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ أي وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وهي المذكورة في سورة الأنعام من الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، وقوله عزّ وجل: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم﴾ أي قدّركم في بطون أمهاتكم ﴿خلقاً من بعد خلق﴾ يكون أحدكم أولاً نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحماً وعظماً وعصباً وعروقاً، وينفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾، وقوله جل وعلا: ﴿في ظلمات ثلاث﴾ يعني ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، وظلمة البطن، كذا قال ابن عباس ومجاهد[1]. وقوله جل جلاله: ﴿ذلكم الله ربكم﴾ أي هذا الذي خلقكم وخلق آباءكم، هو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك ﴿لا إله إلا هو﴾ أي الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ﴿فأنّى تصرفون﴾؟ أي فكيف تعبدون معه غيره؟ وأين يذهب بعقولكم؟

إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ * وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه جل وعلا أنه الغني عما سواه من المخلوقات، كما قال موسى عليه السلام لقومه: ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾، وفي الصحيح: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»[2]، وقوله تعالى: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ أي لا يحبه ولا يأمر به، ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾ أي يحبه لكم، ويزدكم من فضله، ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أي لا تحمل نفس عن نفس شيئاً، بل كلٌّ مطالب بأمر نفسه، ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون * إنه عليم بذات الصدور﴾ أي فلا تخفى عليه خافية، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه﴾ أي عند الحاجة يتضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضلّ من تدعون إلا إياه، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعوا إليه من قبل﴾ أي في حال الرفاهية، ينسى ذلك الدعاء والتضرع، كما قال جل جلاله: ﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾، وقوله تعالى: ﴿وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله﴾ أي في

---

(١) وهو قول عكرمة والضحّاك والسدي وقتادة وابن زيد وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه وهو جزء من حديث قدسي طويل.

حال العافية يشرك بالله ويجعل له أنداداً، ﴿ قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار ﴾ أي قل لمن هذه حالته وطريقته ومسلكه ﴿ تمتع بكفرك قليلاً ﴾ وهو تهديد شديد، ووعيد أكيد، كقوله تعالى: ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ .

أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾

يقول تعالى : أمن هذه صفته، كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً ؟ لا يستوون عند الله، كما قال تعالى : ﴿ ليسوا سواء ﴾، وقال تعالى ههنا: ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ﴾[1] أي في حال سجوده، وفي حال قيامه، ولهذا استدل بهذه الآية، من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة، ليس هو القيام وحده، قال ابن مسعود: « القانت المطيع لله عزّ وجلّ، ولرسوله ﷺ »، وقال ابن عباس: ﴿ آناء الليل ﴾ جوف الليل[2]، وقال الثوري: بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء، وقال الحسن وقتادة: ﴿ آناء الليل ﴾ أوله وأوسطه وآخره، وقوله تعالى: ﴿ يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ أي في حال عبادته خائف راج، ولا بد في العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب، ولهذا قال تعالى: ﴿ يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ فإذا كان عند الاحتضار، فليكن الرجاء هو الغالب عليه، كما قال أنس رضي الله عنه : دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت فقال له : « كيف تجدك » ؟ فقال: أرجو وأخاف، فقال رسول الله ﷺ: « لا يجتمعان في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن، إلاّ أعطاه الله عزّ وجلّ الذي يرجو، وأمّنه الذي يخافه »[3] . وعن يحيى البكاء أنه سمع ابن عمر رضي الله عنهما يقرأ: ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ قال ابن عمر : ذاك (عثمان بن عفان) رضي الله عنه »[4] وإنما قال ابن عمر رضي الله عنهما ذلك، لكثرة صلاة عثمان رضي الله عنه بالليل وقراءته، حتى إنه ربما قرأ القرآن في ركعة، قال الشاعر :

« يقطّع الليل تسبيحا وقرآناً »

وقوله تعالى: ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ ؟ أي هل يستوي هذا، والذي قبله ممن جعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ؟ ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ أي إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا، من له لب، وهو العقل، والله أعلم .

قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى

---

(١) أخرج جويبر عن ابن عباس قال: نزلت في ابن مسعود وعمار بن ياسر وسالم مولى أبي حذيفة .

(٢) وهو قول الحسن والسدي وابن زيد .

(٣) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم .

ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين، بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ أي لمن أحسن العمل في هذه الدنيا، حسنة في دنياهم وأخراهم، ﴿وأرض الله واسعة﴾ قال مجاهد: فهاجروا فيها وجاهدوا، واعتزلوا الأوثان، وقال: إذا دعيتم إلى معصيته فاهربوا، ثم قرأ: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾؟ وقوله تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ قال الأوزاعي: ليس يوزن لهم ولا يكال، إنما يغرف لهم غرفاً، وقال ابن جريج: بلغني أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يزادون على ذلك، وقال السدي: يعني في الجنة، وقوله: ﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾ أي إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ﴿وأمرت لأن أكون أول المسلمين﴾ قال السدي: يعني من أمته ﷺ.

قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾

يقول تعالى: قل يا محمد وأنت رسول الله ﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ وهو يوم القيامة، ومعناه التعريض بغيره، بطريق الأولى والأحرى، ﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾، وهذا أيضاً تهديد، وتبرٍّ منهم، ﴿قل إن الخاسرين﴾ أي إنما الخاسرون كل الخسران ﴿الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ أي تفارقوا فلا التقاء لهم أبداً، وسواء ذهب أهلوهم إلى الجنة، وذهبوا هم إلى النار، أو أن الجميع أسكنوا النار، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور ﴿ألا ذلك هو الخسران المبين﴾ أي هذا هو الخسران المبين، الظاهر الواضح، ثم وصف حالهم في النار فقال: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾، كما قال عزّ وجل: ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين﴾، وقال تعالى: ﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ وقوله جل جلاله: ﴿ذلك يخوف الله به عباده﴾ أى إنما يقص خبر هذا ليخوف به عباده، لينزجروا عن المحارم والمآثم، وقوله تعالى: ﴿يا عبادِ فاتقون﴾ أي اخشوا بأسي وسطوتي وعذابي ونقمتي.

۞ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾

قال زيد بن أسلم: نزلت الآية في (زيد بن عمرو) و (أبي ذر) و (سلمان الفارسي) رضي الله تعالى عنهم،

والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم، ممن اجتنب عبادة الأوثان، وأناب إلى عبادة الرحمن، فهؤلاء لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ فبشر عبادِ * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ أي يفهمونه ويعملون بما فيه كقوله تبارك وتعالى: ﴿ فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ ﴿ أولئك الذين هداهم الله ﴾ أي المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة، ﴿ وأولئك هم أولو الألباب ﴾ أي ذوو العقول الصحيحة، والفطر المستقيمة.

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ (١٩) لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ (٢٠) ﴾

يقول تعالى: أفمن كتب الله أنه شقي هل تقدر أن تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أي لا يهديه أحد من بعد الله، ثم أخبر عزّ وجلّ عن عباده السعداء أن لهم غرفاً في الجنة، وهي القصور الشاهقة، ﴿ من فوقها غرف مبنية ﴾ طباق فوق طباق، مبنيات محكمات، مزخرفات عاليات، وفي الصحيح: «إن في الجنة لغرفاً يرى بطونها من ظهورها، وظهورها من بطونها» فقال أعرابي: لمن هي يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وصلى بالليل والناس نيام»[1]، وروى الإمام أحمد، عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة في الجنة كما تراءون الكوكب في أفق السماء»[2]. وروى الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله! إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا، وشممنا النساء والأولاد، قال ﷺ: «لو أنكم تكونون على كل حال، على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم ولزارتكم في بيوتكم، ولو لم تذنبوا لجاء الله عزّ وجلّ بقوم يذنبون كي يغفر لهم» قلنا: يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال ﷺ: «لبنة ذهب ولبنة فضة، وبلاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا ييأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام، وتفتح لها أبواب السماوات، ويقول الرب تبارك وتعالى: وعزتي لأنصرك ولو بعد حين»[3]. وقوله تعالى: ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي تسلك الأنهار بين خلال ذلك كما شاءوا، وأين أرادوا ﴿ وعد الله ﴾ أي هذا الذي ذكرناه وعد وعده الله عباده المؤمنين ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِي ٱلْأَلْبَـٰبِ (٢١) أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (٢٢) ﴾

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب.
(٢) أخرجه أحمد ورواه الشيخان بلفظ: «كما تراءون الكوكب الذي في الأفق الشرقي أو الغربي».
(٣) أخرجه الإمام أحمد، وروى الترمذي وابن ماجة بعضه.

يخبر تعالى أن أصل الماء في الأرض من السماء، كما قال عزّ وجلّ: ﴿وأنزلنا من السماء ماء طهوراً﴾ فإذا أنزل الماء من السماء كَمَن في الأرض، ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء، وينبعه عيوناً ما بين صغار وكبار، بحسب الحاجة إليها، ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿فسلكه ينابيع في الأرض﴾، عن ابن عباس قال: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق في الأرض تغيره، فذلك قوله تعالى: ﴿فسلكه ينابيع في الأرض﴾ فمن سره أن يعود الملح عذباً فليصعده[1]، وقال سعيد بن جبير: أصله من الثلج يعني أن الثلج يتراكم على الجبال، فيسكن في قرارها، فتنبع العيون من أسافلها، وقوله تعالى: ﴿ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه﴾، أي ثم يخرج بالماء النازل من السماء، والنابع من الأرض ﴿زرعاً مختلفاً ألوانه﴾ أي أشكاله وطعومه، وروائحه ومنافعه، ﴿ثم يهيج﴾ أي بعد نضارته وشبابه يكتهل، فتراه مصفراً قد خالطه اليبس، ﴿ثم يجعله حطاماً﴾ أي ثم يعود يابساً يتحطم، ﴿إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾ أي الذين يتذكرون بهذا، فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة ناضرة حسناء، ثم تعود عجوزاً شوهاء، والشاب يعود شيخاً هرماً، كبيراً ضعيفاً، وبعد ذلك كله الموت؛ فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ أي هل يستوي هذا، ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق؟ كقوله عزّ وجلّ: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾؟ ولهذا قال تعالى: ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾ أي فلا تلين عند ذكره، ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم ﴿أولئك في ضلال مبين﴾.

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

هذا مدح من الله عزّ وجلّ لكتابه (القرآن العظيم) المنزل على رسوله الكريم، قال الله تعالى: ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني﴾ قال مجاهد: يعني القرآن كله متشابه مثاني، وقال قتادة: الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف، وقال الضحاك ﴿مثاني﴾ ترديد القول ليفهموا عن ربهم تبارك وتعالى، وقال عبد الرحمن ابن زيد: ﴿مثاني﴾ مردَّد، ردد موسى في القرآن وصالح وهود والأنبياء عليهم الصلاة والسلام في أمكنة كثيرة، وقال ابن عباس ﴿مثاني﴾ أي القرآن يشبه بعضه بعضاً، ويُرَدُّ بعضه على بعض. وقوله تعالى: ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ أي هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار. لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾، لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه: (أحدها) أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات القينات. (الثاني) أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن ﴿خروا سجداً وبكياً﴾ بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿والذين إذا ذكِّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾ أي لم يكونوا عند

(١) رواه ابن أبي حاتم، وهكذا قال الشعبي وسعيد بن جبير ان كل ماء في الأرض فأصله من السماء

سماعها متشاغلين لاهين عنها بل مصغين إليها، ويسجدون عندهـا عن بصيرة لا عن جهل ومتابعـة لغيرهم . ﴿الثالث﴾ أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحـابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله تعالى تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، لم يكونوا يتصـارخون، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية، ما لا يلحقهم أحد في ذلك، تلا قتادة رحمه الله: ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ قال: هــذا نعت أولياء الله، نعتهم الله عزّ وجلّ بأن تقشعر جلودهم وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم، والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البــدع، وهذا من الشيطان، وقال السدي ﴿إلى ذكر الله﴾ أي إلى وعد الله، وقوله ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده﴾ أي هــذه صفة من هــداه الله، ومن كان على خلاف ذلك، فهو ممن أضـله الله ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ .

أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى: ﴿أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيـامة﴾ ويقرع فيقال له ولأمثاله من الظالمين، ﴿ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾ كمن يأتي آمناً يوم القيامة؟ كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾ ؟ وقال تبارك وتعالى: ﴿أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة﴾، واكتفى في هذه الآية بأحـد القسمين عن الآخر، وقوله جلت عظمته: ﴿كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ يعني القرون الماضية المكذبة للرسل أهلكهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق، وقوله جلّ وعلا ﴿فأذاقهم الله الخزي في الحيـاة الدنيا﴾ أي بمـا أنزل بهم من العذاب والنكال، وتشفي المؤمنين منهم، فليحذر المخاطبون من ذلك فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل وخاتم الأنبياء ﷺ، والذي أعده الله جل جلاله لهم في الآخرة من العذاب الشديد، أعظم ممـا أصابهم في الدنيا، ولهذا قـال عزّ وجلّ: ﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كـانوا يعلمون﴾ .

۞ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

يقول تعالى: ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ أي بينا للناس فيه بضرب الأمثال ﴿لعلهم يتذكّرون﴾ فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان كما قال تبارك وتعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها

إلا العالمون﴾ ، وقوله جل وعلا: ﴿قرآناً عربيا غير ذي عوج﴾ أي هو قرآن بلسان عربي مبين لا اعوجاج فيه، ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله تعالى كذلك، وأنزله بذلك ﴿لعلهم يتقون﴾ أي يحذرون ما فيه من الوعيد ويعملون بما فيه من الوعد، ثم قال: ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون﴾ أي يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم، ﴿ورجلاً سلماً﴾ أي سالماً ﴿لرجل﴾ أي خالصاً لا يملكه أحد غيره، ﴿هل يستويان مثلاً﴾ ؟ أي لا يستوي هذا وهذا، كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له ؟ فأين هذا من هذا ؟ قال ابن عباس ومجاهد: هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص، ولما كان هذا المثل ظاهراً بيناً جلياً قال: ﴿الحمد لله﴾ أي على إقامة الحجة عليهم ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي فلهذا يشركون بالله، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ أي إنكم ستنقلون من هذه الدار لا محالة، وستجتمعون عند الله تعالى في الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله عزّ وجلّ، فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين، ثم إن هذه الآية وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين، وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة، فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة. روي أنه لما نزلت ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قال الزبير رضي الله عنه: يا رسول الله ! أتكرر علينا الخصومة ؟ قال ﷺ: «نعم»، قال رضي الله عنه: إن الأمر إذاً لشديد[1]، وعن الزبير ابن العوام رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ ﴿إنك ميت وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾، قال الزبير رضي الله عنه: أي رسول الله، أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال ﷺ: «نعم ليكررن عليكم حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه» قال الزبير رضي الله عنه: والله إن الأمر لشديد[2].

وفي الحديث: «أول الخصمين يوم القيامة جاران»[3]. وفي المسند عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان، فقال: «أتدري فيم ينتطحان يا أبا ذر»، قلت: لا، قال ﷺ: «لكن الله يدري وسيحكم بينهما»[4]. وقال الحافظ أبو بكر البزار، عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالإمام الجائر الخائن يوم القيامة فتخاصمه الرعية، فيفلحون عليه، فيقال له: سدّ ركناً من أركان جهنم»[5]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ يقول: يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهتدي الضال، والضعيف المستكبر، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يختصم الناس يوم القيامة حتى تختصم الروح مع الجسد، فتقول الروح للجسد: أنت فعلت، ويقول الجسد للروح: أنت أمرت، وأنت سولت،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه الترمذي والإمام أحمد وابن ماجة بزيادة فيه.
(٢) أخرجه الإمام أحمد ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح.
(٣) أخرجه الإمام أحمد عن عقبة بن عامر مرفوعاً.
(٤) أخرجه الإمام أحمد أيضاً.
(٥) رواه الحافظ البزار.

فيبعث الله تعالى ملكاً يفصل بينهما، فيقول لهما : إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير ، والآخر ضرير ، دخلا بستاناً، فقال المقعد للضرير : إني أرى ههنا ثماراً، ولكن لا أصل إليها، فقال له الضرير : اركبني فتناولْها، فركبه فتناولها، فأيهما المعتدي ؟ فيقولان : كلاهما، فيقول لهما الملك : فإنكما قد حكمتما على أنفسكما، يعني أن الجسد للروح كالمطية وهو راكبه[1] ، وروى ابن أبي حاتم، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : نزلت هذه الآية وما نعلم في أي شيء نزلت: ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قال، قلنا: من نخاصم ؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة فمن نخاصم ؟ حتى وقعت الفتنة، فقال ابن عمر رضي الله عنهما: هذا الذي وعدنا ربنا عزّ وجلّ نختصم فيه[2] ، وقال أبو العالية : ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ يعني أهل القبلة ، وقال ابن زيد : يعني أهل الإسلام وأهل الكفر ، وقد قدمنا أن الصحيح العموم، والله سبحانه وتعالى أعلم .

* ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول عزّ وجلّ مخاطباً للمشركين الذين افتروا على الله، وجعلوا معه آلهة أخرى، وادعوا إن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولداً – تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً – ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذّب بالصدق إذ جاءه ﴾ أي لا أحد أظلم من هذا ، لأنه جمع بين طرفي الباطل: كذب على الله ، وكذّب رسول الله ﷺ ، قال الباطل ، ورد الحق ، ولهذا قال جلت عظمته متوعداً لهم ﴿ أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴾ ؟ وهم الجاحدون المكذبون ، ثم قال جل وعلا ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به ﴾، قال مجاهد وقتادة: ﴿ الذي جاء بالصدق ﴾ هو الرسول ﷺ ، وقال السدي: هو جبريل عليه السلام، ﴿ وصدّق به ﴾ يعني محمداً ﷺ ، وقال ابن عباس: من جاء بلا إلّه إلا الله ﴿ وصدّق به ﴾ يعني رسول الله ﷺ ، وقيل: أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة، فيقولون : هذا ما أعطيتمونا فعملنا فيه بما أمرتمونا ، وهذا القول[3] يشمل كل المؤمنين، فإن المؤمنين يقولون الحق ويعملون به، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية، فإنه جاء بالصدق وصدّق المرسلين، وآمن بما أنزل إليه من ربه ، وقال ابن زيد: ﴿ والذي جاء بالصدق ﴾ هو رسول الله ﷺ ﴿ وصدّق به ﴾ قال المسلمون ﴿ أولئك هم المتقون ﴾ قال ابن عباس : اتقوا الشرك ﴿ لهم ما يشاؤون عند ربهم ﴾ يعني في الجنة، مهما طلبوا وجدوا ﴿ ذلك جزاء المحسنين * ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ كما قال عزّ وجل في الآية الأخرى: ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ﴾ .

---

(١) رواه ابن منده في كتاب الروح ولم يشر له ابن كثير بضعف .
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه النسائي عن ابن عمر .
(٣) وهو رواية ليث عن مجاهد وهو اختيار ابن كثير .

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

يقول الله تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده﴾ يعني أنه تعالى يكفي من عبده وتوكّل عليه، وفي الحديث : « أفلح من هدي إلى الإسلام ، وكان عيشه كفافاً ، وقنع به »[1] . ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه﴾ يعني المشركين يخوّفون الرسول ﷺ ، ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم، التي يدعونها من دون الله جهلاً منهم وضلالاً[2] ، ولهذا قال عزّ وجلّ : ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد * ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام ؟﴾ أي منيع الجناب لا يضام من استند إلى جنابه، ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذي لا أعز منه ، ولا أشد انتقاماً منه ، ممن كفر به وأشرك، وعاند رسوله ﷺ ، وقوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾ يعني المشركين كانوا يعترفون بأن الله عزّ وجلّ هو الخالق للأشياء كلها ، ومع هذا يعبدون معه غيره، مما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ، ولهذا قال تعالى: ﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ؟ أوأرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته﴾ ؟ أي لا تستطيع شيئاً من الأمر ، وفي الحديث: « احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة »[3] الحديث . ﴿ قل حسبي الله﴾ أي الله كافي، ﴿ عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون﴾، كما قال (هود) عليه الصلاة والسلام: ﴿ إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾، عن ابن عباس رضي الله عنه قال : « من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله تعالى ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله عزّ وجلّ أوثق منه بما في يديه ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله عزّ وجلّ »[4] ، وقوله تعالى ﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾ أي على طريقتكم ، وهذا تهديد ووعيد ، ﴿ إني عامل﴾ أي على طريقتي ومنهجي ، ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أي ستعلمون غبّ ذلك ووباله ، ﴿ من يأتيه عذاب يخزيه﴾ أي في الدنيا ، ﴿ ويحل عليه عذاب مقيم﴾ أي دائم مستمر ، لا محيد له عنه ، وذلك يوم القيامة ، أعاذنا الله منها .

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن فضالة بن عبيد الأنصاري مرفوعاً ورواه الترمذي والنسائي بنحوه .

(٢) عن معمر قال : قالوا للنبي ﷺ : لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنأمرنها فلتخبلنك ، فنزلت: ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه ﴾، أخرجه عبد الرزاق كما في اللباب .

(٣) الحديث رواه ابن أبي حاتم والترمذي .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس مرفوعاً .

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿إنا أنزلنا عليك الكتاب﴾ يعني القرآن ﴿للناس بالحق﴾ أي لجميع الخلق من الإنس والجن، لتنذرهم به، ﴿فمن اهتدى فلنفسه﴾ أي فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه، ﴿ومن ضل فإنما يضل عليها﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك على نفسه، ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ أي بموكل أن يهتدوا، ﴿إنما أنت نذير﴾، ﴿إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾، ثم قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ الآية، وقال: ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾، فذكر الوفاتين الصغرى ثم الكبرى، وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾، فيه دلالة على أنها تجتمع في الملأ الأعلى، كما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خلَفه عليه، ثم ليقل باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[1]، وقال بعض السلف: يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف ﴿فيمسك التي قضى عليها الموت﴾ التي قد ماتت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى، قال السدي: إلى بقية أجلها، وقال ابن عباس: يمسك أنفس الأموات، ويرسل أنفس الأحياء، ولا يغلط ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذاماً للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئاً من الأمر، وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالاً من الحيوانات بكثير، ثم قال ﴿قل﴾ أي يا محمد لهؤلاء الزاعمين

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً.

أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله تعالى، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فرجعها كلها إليه ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾، ﴿له ملك السماوات والأرض﴾ أي هو المتصرف في جميع ذلك، ﴿ثم إليه ترجعون﴾ أي يوم القيامة فيحكم بينكم بعدله ويجزي كلا بعمله، ثم قال تعالى ذاماً للمشركين أيضاً: ﴿وإذا ذكر الله وحده﴾ أي إذا قيل لا إله إلا الله وحده، ﴿اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ قال مجاهد: اشمأزت انقبضت، وقال السدي: نفرت، وقال قتادة: كفرت واستكبرت، كما قال تعالى: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾ أي عن المتابعة والانقياد لها، فقلوبهم لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر، ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿وإذا ذكر الذين من دونه﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿إذا هم يستبشرون﴾ أي يفرحون ويسرون.

قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾

يقول تبارك وتعالى، بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر، من المذمة لهم في حبهم الشرك، ونفرتهم عن التوحيد ﴿قل اللهمَّ فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة﴾ أي ادع أنت الله وحده لا شريك له الذي خلق السماوات والأرض وفطرها، أي جعلها على غير مثال سبق، ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي السر والعلانية، ﴿أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي في دنياهم، ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم، روى مسلم في صحيحه، عن أبي سلمة بن عبدالرحمن قال: سألت عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[1]. وقال رسول الله ﷺ: «من قال: اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك في هذه الدنيا، أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهداً توفينيه يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد، إلا قال الله عزّ وجلّ لملائكته يوم القيامة: إن عبدي قد عهد إليَّ عهداً فأوفوه إياه، فيدخله الله الجنة»[2].

وروى الإمام أحمد، عن أبي راشد الحبراني قال: أتيت (عبد الله بن عمرو) رضي الله عنهما فقلت له: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ، فألقى بين يدي صحيفة فقال: هذا ما كتب لي رسول الله ﷺ، فنظرت فيها، فإذا فيها أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله علمني ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت؟ فقال له رسول

---

(١) رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه.

الله ﷺ: «يا أبا بكر، قل: اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة لا إله إلا أنت رب كل شيء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه، أن أقترف على نفسي سوءاً، أو أجره إلى مسلم»[1]، وقوله عز وجل: ﴿ولو أن للذين ظلموا﴾ وهم المشركون ﴿ما في الأرض جميعاً ومثله معه﴾ أي ولو أن جميع ما في الأرض وضعفه معه ﴿لافتدوا به من سوء العذاب﴾ أي الذي أوجبه الله تعالى لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهباً ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ أي وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم، ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم، ﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا﴾ أي وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم، ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا.

* فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن الإنسان أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله عز وجل، وينيب إليه ويدعوه، وإذا خوّله نعمة منه بغى وطغى، وقال: ﴿إنما أوتيته على علم﴾ أي لما يعلم الله تعالى من استحقاقي له، ولولا أني عند الله خصيص لما خولني هذا، قال قتادة ﴿على علم عندي﴾ على خبر عندي، قال الله عزّ وجلّ: ﴿بل هي فتنة﴾ أي ليس الأمر كما زعم، بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي؟ مع علمنا المتقدم بذلك فهي ﴿فتنة﴾ أي اختبار ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾، فلهذا يقولون ويدعون ما يدعون، ﴿قد قالها الذين قبلهم﴾ أي قد قال هذه المقالة وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم، ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ أي فما صح قولهم ولا نفعهم جمعهم وما كانوا يكسبون، ﴿فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء﴾ أي من المخاطبين ﴿سيصيبهم سيئات ما كسبوا﴾، أي كما أصاب أولئك ﴿وما هم بمعجزين﴾، كما قال تبارك وتعالى مخبراً عن قارون ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾؟ وقال تعالى: ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي يوسعه على قوم ويضيقه على آخرين، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي لعبراً وحججاً.

* قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ

(١) أخرجه الإمام أحمد ورواه الترمذي وقال: حسن غريب.

ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه على غير توبة، لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾، ونزل: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾[1]. وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾»[2] إلى آخر الآية. وعن عمرو بن عنبسة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ شيخ كبير يدعم على عصاً له فقال: يا رسول الله إن لي غدرات وفجرات، فهل يغفر لي؟ فقال ﷺ: «ألست تشهد أن لا إله إلا الله؟» قال: بلى، وأشهد أنك رسول الله، فقال ﷺ: «قد غفر لك غدراتك وفجراتك»[3]. وروى الإمام أحمد، عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿إنه عمل غير صالح﴾ وسمعته ﷺ يقول: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾[4].

فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، ولا يقنطن عبد من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإن باب الرحمة والتوبة واسع، قال الله تعالى: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾، وقال جلّ وعلا في حق المنافقين: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً * إلا الذين تابوا وأصلحوا﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا﴾ قال الحسن البصري رحمه الله: انظروا إلى

(١) أخرجه البخاري ورواه مسلم وأبو داود والنسائي.

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن ثوبان رضي الله عنه.

(٣) تفرد به أحمد من حديث عمرو بن عنبسة.

(٤) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي.

هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، والآيات في هذا كثيرة جداً، وفي الصحيحين عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ حديث الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً، ثم ندم وسأل عابداً من عباد بني إسرائيل هل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله وأكمل به مائة، ثم سأل عالماً من علمائهم هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها فقصدها، فأتاه الموت في أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله عزّ وجلّ أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر فقبضته ملائكة الرحمة، هذا معنى الحديث، وقد كتبناه في موضع آخر بلفظه، وقال ابن عباس في قوله عزَّ وجلَّ ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ الآية، قال: قد دعا الله تعالى إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيراً ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم﴾. ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولاً من هؤلاء، من قال: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ وقال: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله عزَّ وجلَّ، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه، وروى الطبراني عن ابن مسعود قال: إن أعظم آية في كتاب الله ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ وإن أجمع آية في القرآن بخير وشر ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾، وإن أكثر آية في القرآن فرحاً ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾، وإن أشد آية في كتاب الله تفويضاً ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[١]. ومرَّ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على قاصٍّ وهو يذكر الناس، فقال: يا مذكر لِمَ تقنطِ الناسَ من رحمة الله؟ ثم قرأ ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾[٢]

(ذكر أحاديث فيها نفي القنوط)

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله تعالى لغفر لكم، والذي نفس محمد بيده لو لم تخطئوا لجاء الله عزَّ وجلَّ بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم»[٣]، عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «لولا أنكم تذنبون لخلق الله عزَّ وجلَّ قوماً يذنبون فيغفر لهم»[٤]، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «كفارة الذنب الندامة»[٥]، وقال رسول الله ﷺ: «لو لم تذنبوا لجاء الله تعالى بقوم يذنبون فيغفر لهم»[٦]. ثم استحث تبارك

---

(١) رواه الطبراني عن ابن مسعود موقوفاً.

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود أيضاً.

(٣) تفرد به الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك.

(٤) أخرجه أحمد ورواه مسلم والترمذي.

(٥) أخرجه أحمد عن ابن عباس مرفوعاً.

(٦) تفرد به الإمام أحمد.

وتعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة، فقال: ﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له﴾ الخ، أي ارجعوا إلى الله واستسلموا له ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون﴾ أي بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة، ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ وهو القرآن العظيم ﴿من قبل أن يأتيكم العذابُ بغتةً وأنتم لا تشعرون﴾ أي من حيث لا تعلمون ولا تشعرون، ثم قال تعالى: ﴿أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله﴾ أي يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عزَّ وجلَّ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإن كنت لمن الساخرين﴾ أي إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق، ﴿أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين﴾ أي تود لو أعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل، قال ابن عباس: أخبر الله سبحانه وتعالى ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه، وقال تعالى: ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾، ﴿أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين﴾ فأخبر الله عزَّ وجلَّ أن لو ردوا لما قدروا على الهدى فقال: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾، وفي الحديث: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة، فيقول: لو أن الله هداني فتكون عليه حسرة، قال: وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار، فيقول: لولا أن الله هداني قال: فيكون له الشكر»[1]، ولما تمنى أهل الجرائم العود إلى الدنيا، وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾ أي قد جاءتك أيها العبد النادم آياتي في الدار الدنيا وقامت حججي عليك، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله﴾ أي في دعواهم له شريكاً وولداً، ﴿وجوههم مسودة﴾ أي بكذبهم وافترائهم. وقوله تعالى: ﴿أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾؟ أي أليست جهنم كافية سجناً وموئلاً، لهم فيها الخزي والهوان بسبب تكبرهم وتجبرهم عن الانقياد للحق؟ وفي الحديث: «إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا سجناً من النار في واد يقال له (بولس) من نار الأنيار، ويسقون من عصارة أهل النار ومن طينة الخبال»[2]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم﴾ أي بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله، ﴿لا يمسهم السوء﴾ أي يوم القيامة ﴿ولا هم يحزنون﴾ أي ولا يحزنهم الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فزع، مزحزحون عن كل شر، نائلون كل خير.

---

(١) أخرجه أحمد والنسائي عن أبي هريرة مرفوعاً. (٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً.

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ ۝٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٦٣ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦ ﴾

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها وربها ومليكها والمتصرف فيها، وكلٌّ تحت تدبيره وقهره وكلاءته، قال مجاهد: المقاليد هي المفاتيح بالفارسية، وقال السدي: ﴿له مقاليد السماوات والأرض﴾ أي خزائن السماوات والأرض، والمعنى على كلا القولين أن أزمَّة الأمور بيده تبارك وتعالى له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ولهذا قال جل وعلا: ﴿والذين كفروا بآيات الله﴾ أي حججه وبراهينه ﴿أولئك هم الخاسرون﴾، وقوله تعالى: ﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾؟ ذكروا في سبب نزولها أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ويعبدوا معه إلهه فنزلت: ﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون؟ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾[1] وهذه كقوله تعالى: ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾ أي أخلص العبادة لله وحده لا شريك له أنت ومن اتبعك وصدقك.

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٦٧ ﴾

يقول تبارك وتعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ أي ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره وهو العظيم القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قدره وقدرته، قال مجاهد: نزلت في قريش، وقال السدي: ما عظموه حق تعظيمه، وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوا، وقال ابن عباس: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره، وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف، قال البخاري: قوله تعالى ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حَبْر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله عزّ وجلّ يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة﴾ الآية[2]، وروى الإمام أحمد، عن عبدالله رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ من أهل الكتاب

---

(١) رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

فقال: يا أبا القاسم، أبلغك أن الله تعالى يحمل الخلائق على إصبع، والسماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، قال فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، قال: وأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ إلى آخر الآية[1]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله تعالى الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟»[2]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾، ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر: يمجّد الرب نفسه أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم»، فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: ليخرنَّ به[3].

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، فقوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾ هذه النفخة هي الثانية وهي (نفخة الصعق) وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السماوات والأرض إلا من شاء الله، كما جاء مصرحاً به مفسراً في حديث الصور المشهور، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً، وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء، ويقول: ﴿لمن الملك اليوم﴾؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: ﴿لله الواحد القهار﴾ أنا الذي كنت وحدي، وقد قهرت كل شيء، وحكمت بالفناء على كل شيء، ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل، ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى وهي النفخة الثالثة (نفخة البعث) قال الله عزّ وجلّ: ﴿ثم نفخ فيه أُخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ أي أحياء بعد ما كانوا عظاماً ورفاتاً صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة﴾، وقال تعالى: ﴿ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾.

روى الإمام أحمد، عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي فيمكث فيهم أربعين -لا أدري أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين عاماً، أو أربعين ليلة[4]- فيبعث الله تعالى عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام كأنه (عروة بن مسعود الثقفي)، فيظهر فيهلكه الله تعالى، ثم يلبث الناس بعده سنين سبعاً ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله تعالى ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد في قلبه مثقال

---

(١) أخرجه أحمد ورواه البخاري ومسلم والنسائي.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري.

(٣) أخرجه أحمد ومسلم والنسائي وابن ماجة.

(٤) الشك من الراوي وليس من لفظ النبوة فتنبه.

ذرة من إيمـان إلا قبضته ، إنَّ أحدهم لو كان في كبد جبل لدخلت عليه » ؛ قـال : سمعتهـا من رسول الله ﷺ : « ويبقى شرار النـاس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، قال: فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها، وهم في ذلك دارةٌ أرزاقهم، حسنٌ عيشهم؛ ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه فيصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صعق، ثم يرسل الله تعالى - أو ينزل الله عزّ وجلّ - مطراً كأنه الطل أو الظل - شك نعمان - فتنبت منه النـاس، ثم ينفخ فيـه أخرى فإذا هم قيـام ينظرون، ثم يقال: أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ قال، ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال: كم ؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، فيومئذ تبعث الولدان شيباً ويومئذ يكشف عن ساق »[1] . وروى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « ما بين النفختين أربعون »، قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً ؟ قال رضي الله تعالى عنه: أبيت، قالوا: أربعون سنة ؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً ؟ قال: أبيت، ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عَجْب ذنبه فيه يركب الخلق[2] .

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾ أي أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء، ﴿ ووضع الكتاب ﴾ قـال قتادة: كتاب الأعمال، ﴿ وجيء بالنبيين ﴾ قال ابن عباس: يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم، ﴿ والشهداء ﴾ أي الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر، ﴿ وقضي بينهم بالحق ﴾ أي بالعدل، ﴿ وهم لا يظلمون ﴾، كما قال تعالى: ﴿ فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بهـا وكفى بنا حاسبين ﴾، وقال جل وعلا: ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾، ولهذا قال: ﴿ ووفيت كل نفس ما عملت ﴾ أي من خير أو شر، ﴿ وهو أعلم بمـا يفعلون ﴾.

۞ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار، كيف يساقون إلى النار سوقاً عنيفاً، بزجر وتهديد ووعيد، كما قـال عزّ وجلّ: ﴿ يوم يُدَعّون إلى نار جهنم دعّاً ﴾ أي يدفعون إليها دفعاً وهم عطاش ظماء، كما قـال جلّ وعلا في الآية الأخرى: ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ۞ ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾، وهم في تلك الحال صم وبكم وعمي، كما قـال تعالى: ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ﴾ أي بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعاً لتعجل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية، الذين هم غلاظ الأخلاق شداد القوى، على وجه التقريع

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم في صحيحه واللفظ له .

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة . وعجب الذنب : العصعص .

والتوبيخ والتنكيل: ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ ؟ أي من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم، ﴿ يتلون عليكم آيات ربكم ﴾ أي يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه، ﴿ وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ أي ويحذرونكم من شر هذا اليوم، فيقول الكفار لهم: ﴿ بلى ﴾ أي قد جاءونا وأنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين، ﴿ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ أي ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزّل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴾. وقوله تعالى: ﴿ قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ لم يسند هذا القول إلى قائل معين بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ما هم فيه، بما حكم العدل الخبير عليهم به، ولهذا قال جلّ وعلا: ﴿ قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها لا خروج لكم منها ولا زوال لكم عنها، ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾ أي فبئس المصير وبئس المقيل لكم بسبب تكبركم في الدنيا وإبائكم عن اتباع الحق، فبئس الحال وبئس المآل.

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين، حين يساقون على النجائب وفداً إلى الجنة، ﴿ زمراً ﴾ أي جماعة بعد جماعة: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، وكل زمرة تناسب بعضها بعضاً. ﴿ حتى إذا جاءوها ﴾ أي وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط، حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذّبوا ونقوا، أذن لهم في دخول الجنة، وقد ثبت في صحيح مسلم عن أَنَس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « أنا أول شفيع في الجنة »، وفي لفظ: «وأنا أول من يقرع باب الجنة »[1]. وروى الإمام أحمد عن أَنَس بن مالك رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: (آتي باب الجنة يوم القيامة، فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت ؟ فأقول: محمد - قال - فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك »[2]، وقال رسول الله ﷺ: « أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون فيها ولا يتفلون فيها، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومجامرهم الألُوَّة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد يسبِّحون الله تعالى بكرة وعشياً »[3]. وروى الحافظ أبو يعلى، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله

(١) أخرجه مسلم عن أَنَس مرفوعاً.
(٢) أخرجه أحمد ورواه مسلم بنحوه.
(٣) أخرجه مسلم والإمام أحمد.

ﷺ : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلتون ولا يمتخطون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألُوَّة[١] ، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء » .

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ لم يذكر الجواب ههنا، وتقديره : إذا كان هذا سعدوا وطابوا وسروا وفرحوا بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم، وإذا حذف الجواب ههنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : « من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله تعالى دعي من أبواب الجنة وللجنة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريّان »، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله : ما على أحد من ضرورة دعي من أيها دعي، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « نعم وأرجو أن تكون منهم »[٢] ، وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء »، وعن معاذ رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : « مفتاح الجنة لا إله إلا الله »[٣] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل : « فيقول الله تعالى : يا محمد أدخل من لا حساب عليه من أمتك من الباب الأيمن ، وهم شركاء الناس في الأبواب الأخر ، والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة ما بين عضادتي الباب لكما بين مكة أو هجر – وهجر مكة – وفي رواية – مكة وبصرى[٤] ، وفي صحيح مسلم عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها، ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام[٥] ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم﴾ أي طابت أعمالكم وأقوالكم وطاب سعيكم وجزاؤكم، وقوله: ﴿ فادخلوها خالدين﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يبغون عنها حولاً، ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ أي يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر ، والعطاء العظيم، والنعيم المقيم والملك الكبير يقولون عند ذلك: ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ أي الذي كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام كما دعوا في الدنيا ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد﴾، ﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾، وقوله: ﴿ وأورثنا الأرض

---

(١) الألوة : العود الذي يتبخر به .
(٢) أخرجه أحمد ورواه البخاري ومسلم من حديث الزهري بنحوه .
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن معاذ رضي الله عنه .
(٤) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً .
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه .

نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين﴾. قال أبو العالية وقتادة والسدي: أي أرض الجنة، فهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾، ولهذا قالوا: ﴿نتبوأ من الجنة حيث نشاء﴾ أي أين شئنا حللنا فنعم الأجر أجرنا على عملنا. وفي الصحيحين عن أَنَس رضي الله عنه في قصة المعراج قال النبي ﷺ: «أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ[1] اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»، وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: إن ابن صائد سأل رسول الله ﷺ عن تربة الجنة فقال: «درمكة بيضاء مسك خالص»[2]

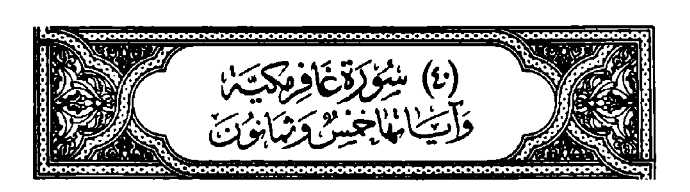
وروى ابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً﴾ قال: سيقوا حتى انتهوا إلى باب من أبواب الجنة، فوجدوا عندها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فعمدوا إلى إحداهما فتطهروا منها، فجرت عليهم نضرة النعيم، فلم تغير أبشارهم بعدها أبداً، ولم تشعث أشعارهم بعدها أبداً، فإنما دهنوا بالدهان ثم عمدوا إلى الأُخرى، كأنما أمروا بها فشربوا منها فأذهب ما كان في بطونهم من أذى أو قذى، وتلقتهم الملائكة على أبواب الجنة: ﴿سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾، وتلقى كل غلمان صاحبهم يطوفون به فعل الولدان بالحميم جاء من الغيبة، أبشر قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا، قال: وينطلق غلام من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين، فيقول: هذا فلان باسمه في الدنيا، فيقلن: أنت رأيته، فيقول: نعم، فيستخفهن الفرح حتى تخرج إلى أسكفة الباب، قال: فيجيء فإذا هو بنمارق مصفوفة وأكواب موضوعة وزرابي مبثوثة، قال، ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه، فإذا هو قد أسس على جندل اللؤلؤ بين أحمر وأخضر وأصفر وأبيض، ومن كل لون ثم يرفع طرفه إلى سقفه، فلولا أن الله تعالى قدره له لألم أن يذهب ببصره إنه لمثل البرق، ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين، ثم يتكئ إلى أريكة من أرائكه ثم يقول: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾.

۞ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار، وأنه نزَّل كلا في المحل الذي يليق به ويصلح له، وهو العادل في ذلك الذي لا يجور، أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول العرش المجيد، يسبحون بحمد ربهم ويمجدونه، ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية وقضى الأمر وحكم بالعدل، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿وقضي بينهم﴾ أي بين الخلائق ﴿بالحق﴾، ثم قال ﴿وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ أي نطق الكون أجمعه، ناطقه وبهيمه، لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد. قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد في قوله: ﴿الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض﴾، واختتم بالحمد في قوله تبارك وتعالى: ﴿وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾.

[آخر تفسير سورة الزمر ، ولله الحمد والمنة]

(١) الجنابذ: ما ارتفع من الأرض وغيرها والمراد عقود اللؤلؤ. (٢) أخرجه مسلم وعبد بن حميد. الدرمك: التراب الناعم.



بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا،

وقوله تعالى: ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾، أي تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن من الله ذي العزة والعلم فلا يرام جنابه، ولا يخفى عليه الذَّر وإن تكاثف حجابه، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ أي يغفر ما سلف من الذنب ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه، وخضع لديه، وقوله جل وعلا ﴿ شديد العقاب ﴾ أي لمن تمرد وطغى، وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن أوامر الله تعالى وبغى، وهذه كقوله: ﴿ نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ يقرن هذين الوصفين كثيراً في مواضع متعددة من القرآن ليبقى العبد بين الرجاء والخوف، وقوله تعالى: ﴿ ذي الطول ﴾ قال ابن عباس: يعني السعة والغنى[1]، وقال يزيد بن الأصم ﴿ ذي الطول ﴾ يعني الخير الكثير، وقال عكرمة: ذي المن، وقال قتادة: ذي النعم والفواضل، والمعنى أنه المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هم فيه من المنن والإنعام التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها، ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ الآية، وقوله جلت عظمته: ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي لا نظير له في جميع صفاته فلا إله غيره ولا رب سواه، ﴿ إليه المصير ﴾ أي المرجع والمآب، فيجازي كل عامل بعمله، وقال أبو بكر ابن عياش: جاء رجل إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين إني قتلت فهل لي من توبة؟ فقرأ عمر رضي الله عنه: ﴿ حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴾، وقال: اعمل ولا تيأس[2]، وعن يزيد بن الأصم قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان يفد إلى عمر

(١) وهو قول مجاهد وقتادة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

ابن الخطّاب رضي الله عنه، ففقده عمر فقال: ما فعل فلان ابن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين تتابع في هــذا الشراب، قال، فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب «من عمر بن الخطّاب إلى فلان ابن فلان: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير»، ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه ويتوب الله عليه»، فلما بلغ الرجل كتاب عمر رضي الله عنه جعل يقرأه ويردّده ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، قد حذرني عقوبته ووعدني أن يغفر لي، فلم يزل يرددها على نفسه، ثم بكى، ثم نزع فأحسن النزع، فلما بلغ عمر خبره قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاً لكم زل زلة فسدّدوه ووثقوه، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه[1].

مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾

يقول تعالى: ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿إلا الذين كفروا﴾ أي الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه، ﴿فلا يغررك تقلبهم في البلاد﴾ أي في أموالهم ونعيمها وزهرتها، كما قال جل وعلا: ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد * متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾، ثم قال تعالى مسلياً لنبيّه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، بأن له أسوة من سلف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنه قد كذبهم أممهم وخالفوهم وما آمن بهم منهم إلا قليل، فقال: ﴿كذبت قبلهم قوم نوح﴾ وهو أول رسول بعثه الله ينهى عن عبادة الأوثان ﴿والأحزاب من بعدهم﴾ أي من كل أمة، ﴿وهمَّت كل أمة برسولهم ليأخذوه﴾ أي حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله ﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق﴾ أي ما حلوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي، روى ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من أعان باطلاً ليدحض به حقاً فقد برئت منه ذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ»[2].

وقوله جلّت عظمته ﴿فأخذتهم﴾ أي أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام، ﴿فكيف كان عقاب﴾ أي كيف بلغك عذابي لهم ونكالي بهم لقد كان شديداً موجعاً مؤلماً؟ قال قتادة: كان شديداً والله.

وقوله جل جلاله: ﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار﴾ أي كما حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة، كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد، بطريق الأولى، لأن من كذبك فلا وثوق له بتصديق غيرك، والله أعلم.

ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم والحافظ أبو نعيم.

(٢) أخرجه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما.

كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش الأربعة، ومن حوله الملائكة من الكروبيين، بأنهم ﴿ يسبّحون بحمد ربهم ﴾ أي يقرنون بين التسبيح الدال على نفي النقائص، والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح، ﴿ ويؤمنون به ﴾ أي خاشعون له أذلاء بين يديه، وأنهم ﴿ يستغفرون للذين آمنوا ﴾ أي من أهل الأرض ممن آمن بالغيب، فقيض الله تعالى ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب، ولما كان هذا من سجايا الملائكة عليهم الصلاة والسلام كانوا يؤمِّنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب، كما ثبت في الصحيح: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك آمين ولك بمثله»[1]. قال شهر بن حوشب رضي الله عنه: حملة العرش ثمانية، أربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، وأربعة يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك، ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا: ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾ أي رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم ﴿ فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ﴾، أي فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا، وأقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخير وترك المنكرات، ﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾ أي وزحزحهم عن عذاب الجحيم وهو العذاب الموجع الأليم، ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ أي اجمع بينهم وبينهم لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ أي ساوينا بين الكل في المنزلة لتقر أعينهم، وما نقصنا العالي حتى يساوي الداني، بل رفعنا ناقص العمل فساويناه بكثير العمل، تفضلاً منا ومنة. وقال سعيد بن جبير: إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه أين هم؟ فيقال: إنهم لم يبلغوا طبقتك في العمل، فيقول: إني إنما عملت لي ولهم فيلحقون به في الدرجة، ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية: ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾، وقوله تبارك وتعالى ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أي الذي لا يمانع ولا يغالب، ﴿ وقهم السيئات ﴾ أي فعلها، أو وبالها ممن وقعت منه، ﴿ ومن تق السيئات يومئذ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ فقد رحمته ﴾ أي لطفت به ونجيته من العقوبة ﴿ وذلك هو الفوز العظيم ﴾.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

﴿وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار: أنهم ينادون يوم القيامة وهم في غمرات النيران يتلظون، وذلك عندما باشروا من عذاب الله تعالى ما لا قبل لأحد بـه، فمقتوا عند ذلك أنفسهم، وأبغضوها غاية البغض، بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة التي كانت سبب دخولهم إلى النار، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك بأن مقت الله تعالى لهم في الدنيا، حين كان يعرض عليهم الإيمان فيكفرون، أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم في هذه الحالة، قال قتادة: المعنى لمقت الله أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فتركوه وأبوا أن يقبلوه، أكبر مما مقتوا أنفسهم، حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة[1]، وقوله: ﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه: هذه الآية، كقوله تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية، **والمقصود** أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله عزّ وجلّ في عرصات القيامة، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ فلا يجابون، ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة، فلا يجابون، قال الله تعالى: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ فإذا دخلوا النار وذاقوا مسها وحسيسها ومقامعها وأغلالها، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم، ﴿وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾ كقوله ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾، وفي هذه الآية الكريمة تلطفوا في السؤال وقدموا بين يدي كلامهم مقدمة، وهي قولهم: ﴿ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ أي قدرتك عظيمة، فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتاً ثم أمتنا ثم أحييتنا فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا، ﴿فهل إلى خروج من سبيل﴾ أي فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا؟ فإنك قادر على ذلك لنعمل غير الذي كنا نعمل، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإنا ظالمون، فأجيبوا أن لا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا، ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تمجه وتنفيه، ﴿ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا﴾ أي أنتم هكذا تكونون، وإن رددتم إلى الدار الدنيا كما قال عزّ وجلّ ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾.

وقوله جل وعلا: ﴿فالحكم لله العلي الكبير﴾ أي هو الحاكم في خلقه العادل الذي لا يجور، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء. وقوله جل جلاله: ﴿هو الذي يريكم آياته﴾ أي يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة، الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها،

(١) وهكذا قال الحسن البصري ومجاهد والسدي.

(٢) وكذا قال ابن عباس والضحّاك وقتادة.

﴿ وينزّل لكم من السماء رزقاً ﴾ وهو المطر الذي يخرج بـه من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس من اختـلاف ألوانه وطعومه وروائحه وأشكاله وألوانه وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بـين هذه الأشياء، ﴿ وما يتذكر ﴾ أي يعتبر ويتفكر في هـذه الأشياء ويستدل بهـا على عظمة خالقها ﴿ إلا من ينيب ﴾ أي من هو بصير منيب إلى الله تبارك وتعالى. وقوله عزّ وجلّ: ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴾ أي فأخلصوا لله وحده العبادة والدعـاء وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم، قال الإمام أحمد: كان عبدالله بن الزبير يقول في دُبُر كل صلاة حين يسلم « لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. قال: وكان رسول الله ﷺ يهل بهن دُبُر كل صلاة »[1]، وقـد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: « لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله. ولا نعبد إلا إياه » الحديث، وقال النبي ﷺ: « ادعوا الله تبارك وتعالى وأنتم موقنون بالإجـابة، واعلموا أن الله تعالى لا يستجيب دعـاءً من قلب غـافل لاه »[2].

* رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه، وارتفـاع عرشه العظيم العـالي على جميع مخلوقاته، كالسقف لها كما قال تعالى: ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾. وقـد ذكر غير واحد أن العرش من ياقوتة حمراء اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وارتفـاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة، وقوله تعالى: ﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾، كقوله جلت عظمته: ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أن لا إله إلا أنا فاتقون ﴾، وكقوله تعالى: ﴿ نزل بـه الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين ﴾، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿ لينذر يوم التلاق ﴾، قال ابن عباس: ﴿ يوم التلاق ﴾ اسم من أسماء يوم القيامة حذر الله منه عباده، يلتقي فيه آدم وآخر ولده، وقال ابن زيد: يلتقي فيه العباد. وقال قتادة والسدي: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض والخالق والخلق، وقال ميمون بن مهران: يلتقي الظالم والمظلوم، وقـد يقال إن يوم التلاق يشمل هذا كله ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمله من خير وشر كما قاله آخرون. وقوله جلّ جلاله: ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ أي ظاهرون بادون كلهم، لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم، ﴿ لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار ﴾ قـد تقدم في حديث ابن عمر

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً.

رضي الله عنهما أنه تعالى يطوي السماوات والأرض بيده، ثم يقول: أنا الملك ، أنا الجبار ، أنا المتكبر . أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ وفي حديث الصور أنه عزّ وجلّ إذا قبض أرواح جميع خلقه، فلم يبق سواه وحده لا شريك له ، حينئذ يقول: ﴿لمن الملك اليوم﴾ ؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه قائلاً: ﴿لله الواحد القهار﴾ أي الذي قهر كل شيء وغلبه، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : ينادي مناد بين يدي الساعة يا أيها الناس أتتكم الساعة فيسمعها الأحياء والأموات، قال، وينزل الله عزّ وجلّ إلى السماء الدنيا ويقول : ﴿لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار﴾[1] ، وقوله جلّت عظمته: ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾، يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه، أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر ، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها وبالسيئة واحدة، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿لا ظلم اليوم﴾، كما ثبت في صحيح مسلم: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا – إلى أن قال – يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله تبارك وتعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» ، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إن الله سريع الحساب﴾ أي يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة، كما قال جلّ وعلا: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ .

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

يوم الآزفة : اسم من أسماء يوم القيامة، وسميت بذلك لاقترابها ، كما قال تعالى: ﴿أزفت الآزفة • ليس لها من دون الله كاشفة﴾ ، وقال عزّ وجلّ: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾، وقال جل وعلا: ﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا﴾ الآية، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين﴾ . قال قتادة : وقفت القلوب في الحناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها[2] ، ومعنى ﴿كاظمين﴾ أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾، وقال ابن جريج ﴿كاظمين﴾ أي باكين، وقوله سبحانه ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾، أي ليس للذين ظلموا من قريب ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير ، وقوله تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ يخبر عزّ وجلّ عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها ليحذر الناس ربهم، فيتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه عزّ وجلّ يعلم العين الخائنة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر ، قال ابن عباس ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ : هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسناء، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس موقوفاً .

(٢) وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد .

غض بصره عنها، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض، وقد اطلع الله تعالى من قلبه أنه ود لو اطلع على فرجها . وقال الضحّاك ﴿ خائنة الأعين ﴾ : هو الغمز، وقول الرجل رأيت ولم ير، وقال ابن عباس: يعلم الله تعالى من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا ؟ ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا ؟ وقال السدي: ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ أي من الوسوسة، وقوله عزّ وجلّ ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ أي يحكم بالعدل . قال ابن عباس: قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة ﴿ إن الله هو السميع البصير ﴾ وهذا الذي فسر به ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية، كقوله تبارك وتعالى: ﴿ ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾، وقوله جلّ وعلا: ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ أي من الأصنام والأوثان والأنداد، ﴿ لا يقضون بشيء ﴾ أي لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء، ﴿ إن الله هو السميع البصير ﴾ أي سميع لأقوال خلقه بصير بهم، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك .

* أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢)

يقول تعالى : ﴿ أو لم يسيروا ﴾ هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ﴿ في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ﴾ أي من الأمم المكذبة بالأنبياء، ما حل بهم من العذاب والنكال، مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة ﴿ وآثاراً في الأرض ﴾ أي أثروا في الأرض من البنايات والمعالم ما لا يقدر هؤلاء عليه كما قال عزّ وجلّ، ﴿ وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ﴾ مع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد، ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ وهي كفرهم برسلهم، ﴿ وما كان لهم من الله من واق ﴾ أي وما دفع عنهم عذاب الله أحد ولا رده عنهم راد، ولا وقاهم واق، ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنوبهم التي ارتكبوها واجترموها، فقال تعالى ﴿ ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات، ﴿ فكفروا ﴾ أي مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا، ﴿ فأخذهم الله ﴾ تعالى أي أهلكهم ودمر عليهم، ﴿ إنه قوي شديد العقاب ﴾ أي ذو قوة عظيمة وبطش شديد، وهو ﴿ شديد العقاب ﴾ أي عقابه أليم شديد وجيع، أعاذنا الله تبارك وتعالى منه .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)

يقول تعالى مسلياً لنبيّه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا

والآخرة كما جرى لموسى بن عمران عليه السلام، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات، والدلائل الواضحات، ولهذا قال تعالى: ﴿ بآياتنا وسلطان مبين﴾ والسلطان هو الحجة والبرهان، ﴿ إلى فرعون﴾ وهو ملك القبط بالديار المصرية، ﴿ وهامان﴾ وهو وزيره في مملكته ﴿ وقارون﴾ وكان أكثر الناس في زمانه مالاً وتجارة، ﴿ فقالوا: ساحر كذاب﴾ أي كذبوه وجعلوه ساحراً مجنوناً، مموّهاً كذاباً في أن الله جل وعلا أرسله وهذه كقوله تعالى: ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾، ﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا﴾ أي بالبرهان القاطع الدال على أن الله عزّ وجلّ أرسله إليهم، ﴿ قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم﴾، وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل، أما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين، وأما الأمر الثاني فلإهانة هذا الشعب، ولكي يتشاءموا بموسى عليه السلام، ولهذا قالوا: ﴿ أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ وما كيد الكافرين إلا في ضلال﴾ أي وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا ينصروا عليهم إلا ذاهب وهالك في ضلال ﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه﴾، وهذا عزم من فرعون - لعنه الله تعالى - على قتل موسى عليه الصلاة والسلام؛ أي قال لقومه دعوني حتى أقتل لكم هذا ﴿ وليدع ربه﴾ أي لا أبالي منه، وهذا في غاية الجحد والعناد ﴿ إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم، وهذا كما يقال في المثل: صار فرعون مذكراً، يعني واعظاً، يشفق على الناس من موسى عليه السلام، ﴿ وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾ أي لما بلغه قول فرعون ﴿ ذروني أقتل موسى﴾ قال موسى عليه السلام: استجرت بالله، وعذت به من شره وشر أمثاله، ولهذا قال: ﴿ إني عذت بربي وربكم﴾ أيها المخاطبون ﴿ من كل متكبر﴾ أي عن الحق مجرم ﴿ لا يؤمن بيوم الحساب﴾، ولهذا جاء في الحديث ان رسول الله ﷺ كان إذ خاف قوماً قال: «اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم، وندرأ بك في نحورهم».

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان (قبطياً) من آل فرعون، قال السدي: كان ابن عم فرعون، واختاره ابن جرير، ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً، لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه وكف عن قتل موسى عليه السلام، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجله بالعقوبة لأنه منهم، قال ابن عباس: لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون، والذي قال: ﴿ يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾[1]، وقد كان هذا الرجل يكتم

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير.

إيمانه عن قومه القبط، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذروني أقتل موسى﴾ فأخذت الرجل غضبة لله عزّ وجلّ، وأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، كما ثبت بذلك الحديث، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون، وهي قوله: ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله﴾ اللهم إلا ما رواه البخاري في صحيحه عن عروة ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال، قلت لعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بفِناء الكعبة إذ أقبل (عقبة بن أبي معيط) فأخذ بمنكِب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه، فأخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ ثم قال: ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾[1]؟وروى ابن أبي حاتم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سئل: ما أشد ما رأيت قريشاً بلغوا من رسول الله ﷺ؟ قال: مرّ ﷺ ذات يوم، فقالوا له: أنت تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ فقال: «أنا ذاك» فقاموا إليه، فأخذوا بمجامع ثيابه، فرأيت أبا بكر رضي الله عنه محتضنه من ورائه، وهو يصيح بأعلى صوته، وإن عينيه ليسيلان وهو يقول: يا قوم ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾؟ حتى فرغ من الآية كلها[2]، وقوله تعالى: ﴿وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾ أي كيف تقتلونه وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم تنزل معهم في المخاطبة فقال: ﴿وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم﴾، يعني إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به، فمن العقل والرأي والحزم أن تتركوه ونفسه، فلا تؤذوه، فإن يك كاذباً فإن الله سبحانه سيجازيه على كذبه، وإن يك صادقاً وقد آذيتموه يصبكم بعض الذي يعدكم، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة، فينبغي أن لا تتعرضوا له بل اتركوه وشأنه.

وقوله جل وعلا: ﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾ أي لو كان هذا كاذباً كما تزعمون، لكان أمره بيناً يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله، وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً، ولو كان من المسرفين الكذابين، لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله، ثم قال المؤمن محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم وحلول نقمة الله بهم: ﴿يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض﴾ أي قد أنعم الله عليكم بهذا الملك، والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى وتصديق رسوله ﷺ، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله ﴿فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا﴾ أي لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر ولا ترد عنا شيئاً من بأس الله إن أرادنا بسوء. ﴿قال فرعون﴾ لقومه راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد ﴿ما أريكم إلا ما أرى﴾ أي ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي، وقد كذب فرعون فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من الرسالة، ﴿قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر﴾، وقال الله تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾، فقوله: ﴿ما أريكم إلا ما أرى﴾ كذب فيه وافترى، وخان رعيته فغشهم وما نصحهم، وكذا قوله: ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ أي وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد، وقد كذب أيضاً في ذلك وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال الله تبارك

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. (٢) أخرجه ابن أبي حاتم والنسائي.

وتعالى: ﴿ فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد ﴾، وقال جلّت عظمته: ﴿ وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ . وفي الحديث: « ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام » .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

هذا إخبار من الله عزّ وجلّ عن هذا الرجل الصالح (مؤمن آل فرعون) أنه حذر قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة، فقال ﴿ يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ﴾ أي الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حل بهم بأس الله وما رده عنهم راد ولا صده عنهم صاد ﴿ وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾، أي إنما أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره، فأنفذ فيهم قدره، ثم قال: ﴿ يا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ﴾ يعني يوم القيامة، وسمي بذلك لما جاء في حديث الصور إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر، وماجت وارتجت، فنظر الناس إلى ذلك ذهبوا هاربين ينادي بعضهم بعضاً، وقال الضحاك: بل ذلك إذا جيء بجهنم ذهب الناس هراباً منهم، فتتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر وهو قوله تعالى: ﴿ والملك على أرجائها ﴾، وقيل: لأن الميزان عنده ملك إذا وزن عمل العبد فرجح نادى بأعلى صوته، ألا قد سعد فلان ابن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف عمله نادى ألا قد شقي فلان بن فلان، وقيل: سمي بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا نعم ﴾، ومناداة أهل النار أهل الجنة ﴿ أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين ﴾، ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة، وأهل النار كما هو مذكور في سورة الأعراف، واختار البغوي وغيره أنه سمي بذلك لمجموع ذلك، وهو قول حسن جيد، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ يوم تولون مدبرين ﴾ أي ذاهبين هاربين، ﴿ ما لكم من الله من عاصم ﴾ أي لا مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ أي من أضله الله فلا هادي له غيره، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾ يعني أهل مصر قد بعث الله فيهم رسولاً من قبل موسى عليه الصلاة

والسلام وهو (يوسف) عليه الصلاة والسلام كان عزيز أهل مصر ، وكان رسولاً يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسط ، فما أطاعوه تلك الطاعة إلا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوي، ولهذا قال تعالى: ﴿ فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ أي يئستم فقلتم طامعين ﴿ لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم، ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ أي كحالكم هذا يكون حال من يضله الله لإسرافه في أفعاله وارتياب قلبه، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ﴾ أي الذين يدفعون الحق بالباطل ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى، فإن الله عزّ وجلّ يمقت على ذلك أشد المقت ، ولهذا قال تعالى ﴿ كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ﴾ أي والمؤمنون أيضاً يبغضون من تكون هذه صفته ، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفاً ولا ينكر منكراً، ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر ﴾ أي على اتباع الحق ﴿ جبار ﴾ قال قتادة: آية الجبابرة القتل بغير حق، والله تعالى أعلم .

* وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وعتوه، وتمرده وافترائه في تكذيبه موسى عليه الصلاة والسلام، أنه أمر وزيره ﴿ هامان ﴾ أن يبني له ﴿ صرحاً ﴾ وهو القصر العالي المنيف الشاهق، وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوي ، كما قال تعالى: ﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً ﴾، وقوله: ﴿ لعلي أبلغ الأسباب أسباب السماوات ﴾ قال سعيد بن جبير : أبواب السماوات ، وقيل: طرق السماوات ﴿ فأطلع إلى آله موسى وإني لأظنه كاذباً ﴾، وهذا من كفره وتمرده أنه كذب موسى عليه الصلاة والسلام في أن الله عزّ وجلّ أرسله إليه، قال الله تعالى ﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل ﴾ أي بصنعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية، أنه يعمل شيئاً يتوصل به إلى تكذيب موسى عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿ وما كيد فرعون إلا في تباب ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني إلا في خسار .

وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا ونسي الجبار الأعلى فقال لهم: ﴿ يا قوم اتبعونِ أهدكم سبيل الرشاد ﴾ لا كما كذب فرعون في قوله: ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾، ثم زهدهم في الدنيا التي قد آثروها على الأخرى، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه الصلاة والسلام، فقال: ﴿ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ أي قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتضمحل، ﴿ وإن الآخرة هي دار القرار ﴾ أي الدار التي

لا زوال لها ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم، ولهذا قال جلت عظمته ﴿من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ أي واحدة مثلها، ﴿ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾ أي لا يتقدر بجزاء، بل يثيبه الله عزّ وجلّ ثواباً كثيراً، لا انقضاء له ولا نفاد.

* وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

يقول لهم المؤمن: ما بالي أدعوكم إلى النجاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وتصديق رسوله ﷺ الذي بعثه ﴿وتدعونني إلى النار * تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم﴾ أي على جهل بلا دليل ﴿وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار﴾ أي هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه ﴿لا جرم أنّ ما تدعونني إليه﴾ يقول: حقاً، قال ابن جرير: معنى قوله ﴿لا جرم﴾: حقاً، وقال الضحاك ﴿لا جرم﴾: لا كذب، **المعنى** إنّ الذي تدعونني إليه من الأصنام والأنداد ﴿ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة﴾ قال مجاهد: الوثن ليس له شيء، وقال قتادة: يعني الوثن لا ينفع ولا يضر. وقال السدي: لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾ وقوله: ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾، وقوله ﴿وأن مردنا إلى الله﴾ أي في الدار الآخرة فيجازي كلاً بعمله، ولهذا قال ﴿وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾ أي خالدين فيها بإسرافهم وهو شركهم بالله عزّ وجلّ ﴿فستذكرون ما أقول لكم﴾ أي سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتتذكرونه وتندمون حيث لا ينفعكم الندم ﴿وأفوض أمري إلى الله﴾ أي وأتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم، ﴿إن الله بصير بالعباد﴾ أي هو بصير بهم تعالى وتقدس، فيهدي من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدر النافذ.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾ أي في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام، وأما في الآخرة فبالجنة، ﴿وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾ وهو الغرق في اليم ثم النقلة منه إلى الجحيم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساء إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، ولهذا قال ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ أي أشده ألماً وأعظمه نكالاً، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله تعالى:

﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً﴾. وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود، وهي تقول: أشعرت أنكم تفتنون في قبوركم؟ فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «إنما يفتن يهود»، قالت عائشة: فلبثنا ليالي ثم قال رسول الله ﷺ: «ألا إنكم تفتنون في القبور»، قالت عائشة رضي الله عنها: فكان رسول الله ﷺ بعد، يستعيذ من عذاب القبر[1]. وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: أن يهودية دخلت عليها فقالت: نعوذ بالله من عذاب القبر، فسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ، عن عذاب القبر، فقال ﷺ: «نعم عذاب القبر حق» قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله ﷺ بعدُ صلَّى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر[2]. وأحاديث عذاب القبر كثيرة جداً.

وقال قتادة ﴿غدواً وعشياً﴾: صباحاً ومساء ما بقيت الدنيا، يقال لهم: يا آل فرعون هذه منازلكم، توبيخاً ونقمة وصغاراً لهم، وقال ابن زيد: هم فيها يُغْدى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة، وقال ابن أبي حاتم، عن عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر تسرح بهم في الجنة حيث شاءوا، وإن أرواح ولدان المؤمنين في أجواف عصافير تسرح في الجنة حيث شاءت، فتأوي إلى قناديل معلقة في العرش، وإن أرواح آل فرعون في أجواف طيور سود تغدو على جهنم وتروح عليها، فذلك عرضها[3]، وفي حديث الإسراء، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال فيه: «ثم انطلق بي إلى خلق كثير من خلق الله، رجال كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم، مصفدون على سابلة آل فرعون، وآل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشياً ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ وآل فرعون كالإبل المسومة يخبطون الحجارة والشجر ولا يعقلون»، وروى ابن أبي حاتم، عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أثابه الله تعالى قال، قلنا: يا رسول الله! ما إثابة الله الكافر؟ فقال: «إن كان قد وصل رحماً أو تصدق بصدقة أو عمل حسنة أثابه الله تبارك وتعالى المال والولد والصحة وأشباه ذلك». قلنا: فما إثابته في الآخرة؟ قال ﷺ: «عذاباً دون العذاب»، وقرأ: ﴿أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾[4]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله عزّ وجل إليه يوم القيامة»[5]

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُواْ

---

(١) أخرجه مسلم والإمام أحمد.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود موقوفاً.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم والبزار.

(٥) أخرجه الشيخان والإمام أحمد.

رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾

يخبر تعالى عن تحاجِّ أهل النار وتخاصمهم وفرعون وقومه من جملتهم ﴿ فيقول الضعفاء ﴾ وهم الأتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ وهم القادة والسادة والكبراء ﴿ إنا كنا لكم تبعاً ﴾ أي أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال، ﴿ فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ﴾ أي قسطاً تتحملونه عنا ﴿ قال الذين استكبروا إنا كل فيها ﴾ أي لا نتحمل عنكم شيئاً كفى بنا ما عندنا وما حملنا من العذاب والنكال ﴿ إن الله قد حكم بين العباد ﴾ أي فقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا كما قال تعالى: ﴿ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾، ﴿ وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ لما علموا أن الله عزّ وجلّ لا يستجيب منهم، ولا يستمع لدعائهم، بل قد قال: ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ سألوا الخزنة وهم كالسجّانين لأهل النار أن يدعوا لهم الله تعالى في أن يخفف عن الكافرين ولو يوماً واحداً من العذاب فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: ﴿ أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ﴾ ؟ أي أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على ألسنة الرسل ؟ ﴿ قالوا بلى قالوا فادعوا ﴾ أي أنتم لأنفسكم فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم، ثم نخبركم أنه لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم، ولهذا قالوا ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ أي لا يقبل ولا يستجاب.

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾

قد عُلِمَ أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه كيحيى وزكريا وشعيا، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً إلى الله كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى ، فأين النصرة في الدنيا ؟ أجاب ابن جرير على ذلك بجوابين:

(**أحدهما**) أن يكون الخبر خرج عاماً، والمراد به البعض، وهذا سائغ في اللغة. (**الثاني**) أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم، كما فعل بقتلة يحيى وزكريا، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم. وقد ذكر أن النمروذ أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود، فسلط الله تعالى عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم، وهذه نصرة عظيمة، وسنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر، أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم ممن آذاهم، ولهذا أهلك الله عزّ وجلّ قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس، وقوم لوط وأهل مدين وأشباههم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق، وأنجى الله تعالى من بينهم

المؤمنين فلم يهلك منهم أحـداً، وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحـداً، قال السدي: «لم يبعث الله عزّ وجل رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه أو قومـاً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا قـال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها»، وهكذا نصر الله نبيه محمداً ﷺ فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، وأمره بالهجرة إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم وخذلهم وقتل صناديدهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة، فقرت عينه ببلده المشرف المعظم، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكمالها، ودخل النـاس في دين الله أفواجاً، ثم قبضه الله تعالى إليه فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله عزّ وجلّ، حتى انتشرت الدعوة المحمديه في مشارق الأرض ومغاربها؛ ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة، ولهذا قال تعالى ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ أي يوم القيـامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل، قال مجاهد: الأشهاد الملائكة ﴿يوم لا ينفع الظالمين﴾ وهم المشركون ﴿معذرتهم﴾ أي لا يقبل منهم عذر ولا فدية ﴿ولهم اللعنة﴾ أي الإبعاد والطرد من الرحمة، ﴿ولهم سوء الدار﴾ وهي النـار، قال السدي: بئس المنزل والمقيل، وقال ابن عباس: أي سوء العاقبة.

وقوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الهدى﴾ وهو ما بعثه الله عزّ وجل به من الهدى والنور، ﴿وأورثنا بني إسرائيل الكتاب﴾ أي جعلنا لهم العـاقبة، وأورثناهم ملك فرعون، وفي الكتاب الذي أورثوه وهو التوراة ﴿هدى وذكرى لأولى الألباب﴾ وهي العقول الصحيحة السليمة، وقوله عزّ وجلّ ﴿فاصبر﴾ أي يا محمد ﴿إن وعد الله حق﴾ أي وعدناك أنا سنعلي كلمتك، ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك، والله لا يخلف الميعاد، وهذا الذي أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك، وقوله تبارك وتعالى: ﴿واستغفر لذنبك﴾ هذا تهييج للأمة على الاستغفار، ﴿وسبح بحمد ربك بالعشي﴾ أي في أواخر النهار وأوائل الليل ﴿والإبكار﴾ وهي أوائل النهار وأواخر الليل. وقوله تعالى: ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم﴾ أي يدفعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله، ﴿إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾ أي ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه - من إخماد الحق وإعلاء الباطل - بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصـدهم هو الموضوع ﴿فاستعذ بالله﴾ أي من حال مثل هؤلاء ﴿إنه هو السميع البصير﴾، أو من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان، هذا تفسير ابن جرير.

* لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى منبهاً على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه يسير لديه، بأنه خلق السماوات والأرض،

وخلقهما أكبر من خلق النـاس بدأة وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾، وقال ههنا: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق النـاس ولكن أكثر النـاس لا يعلمون﴾ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها، كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله تعالى خلق السماوات والأرض وينكرون المعاد استبعاداً وكفراً وعناداً، وقـد اعترفوا بمـا هو أولى مما أنكروا، ثم قال تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون﴾ أي كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار، والكفرة الفجار ﴿قليلاً ما تتذكرون﴾ أي ما أقل ما يتذكر كثير من الناس، ثم قال تعالى: ﴿إن الساعة لآتية﴾ أي لكائنة وواقعة، ﴿لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ أي لا يصدقون بهـا بـل يكذبون بوجودها.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه، أنه ندب عبـاده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجـابة، قال كعب الأحبار: أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم تعطهن أمة قبلها إلا نبي: كان إذا أرسل الله نبياً قال له: أنت شاهد على أمتك، وجعلكم شهداء على الناس، وكان يقال له: ليس عليك في الدين من حرج، وقال لهـذه الأمة: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ وكان يقال له: ادعني أستجب لك، وقال لهذه الأمة: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾، وروى الإمـام أحمد، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة» ثم قرأ: ﴿ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾[1]، وقال رسول الله ﷺ: «من لم يَدْعُ الله عزّ وجلّ غضب عليه»[2]. وروى الحافظ الرامهرمزي، عن محمد بن سعيد قال: لما مات محمد بن مسلمة الأنصاري، وجدنا في ذؤابة سيفه كتاباً: بسم الله الرحمن الرحيم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لربكم في بقية أيام دهركم نفحات فتعرضوا له، لعل دعوة أن توافق رحمة فيسعد بها صاحبها سعادة لا يخسر بعدها أبداً»، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي﴾ أي عن دعائي وتوحيدي، ﴿سيدخلون جهنم داخرين﴾ أي صاغرين حقيرين، كما قال النبي ﷺ: «يحشر المتكبرون يوم القيامة مثال الذر في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا سجناً في جهنم يقال له (بولس) تعلوهم نار الأنيار، يسقون من طينة الخبـال عصارة أهل النار»[3]. وقال وهيب بن الورد، حدثني رجل قال: كنت أسير ذات يوم في أرض الروم، فسمعت هاتفاً من فوق رأس جبل وهو يقول: يا رب عجبت لمن عرفك كيف يرجو أحداً غيرك، يا رب عجبت لمن عرفك كيف يطلب حوائجه إلى أحد غيرك، قال: ثم عـاد الثانية فقال: يا رب عجبت لمن عرفك كيف يتعرض لشيء

---

(١) رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه الإمام أحمد، قال ابن كثير: إسناده لا بأس به.

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً.

من سخطك يرضي غيرك، قال، فناديته: أجني أنت أم إنسي؟ قال: بل إنسي، اشغل نفسك مما يعنيك عما لا يعنيك[١] وفي الحديث: «من لم يسأل الله يغضب عليه»[٢].

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) ﴾

يقول تعالى ممتناً على خلقه بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه، ويستريحون فيه من حركات ترددهم في المعايش بالنهار وجعل النهار مبصراً، أي مضيئاً ليتصرفوا فيه بالأسفار، وقطع الأقطار، والتمكن من الصناعات ﴿إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي لا يقومون بشكر نعم الله عليهم، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو﴾ أي الذي فعل هذه الأشياء هو الواحد الأحد، خالق الأشياء الذي لا إله غيره ولا رب سواه، ﴿فأنّى تؤفكون﴾ أي فكيف تعبدون غيره من الأصنام التي لا تخلق شيئاً بل هي مخلوقة منحوتة! وقوله عزّ وجلّ: ﴿كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون﴾ أي كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله، كذلك أفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره، بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهوى، وجحدوا حجج الله وآياته، وقوله تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً﴾ أي جعلها لكم مستقراً، تعيشون عليها وتتصرفون فيها، وتمشون في مناكبها، ﴿والسماء بناء﴾ أي سقفاً للعالم محفوظاً، ﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾ أي فخلقكم في أحسن الأشكال، ومنحكم أكمل الصور في أحسن تقويم، ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ أي من المآكل والمشارب في الدنيا، فذكر أنه خلق الدار والسكان والأرزاق، فهو الخالق الرزّاق، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾. وقال تعالى ههنا بعد خلق هذه الأشياء: ﴿ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين﴾ أي فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين، ثم قال تعالى: ﴿هو الحي لا إله إلا هو﴾ أي هو الحي أولا وأبداً، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا نظير له ولا عديل له ﴿فادعوه مخلصين له الدين﴾ أي موحدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو الحمد لله رب العالمين، عن ابن عباس قال: من قال: لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين، وذلك قوله تعالى: ﴿فادعو الله مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين﴾[٣]

---

(١) رواه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه أحمد والبزار.

(٣) رواه ابن جرير.

* ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله عزّ وجلّ ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان، وقد بيّن تبارك وتعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه في قوله جلت عظمته: ﴿هو الذي خلقكم من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم يخرجكم طفلاً، ثم لتبلغوا أشدكم، ثم لتكونوا شيوخاً﴾ أي هو الذي يقلبكم في هذه الأطوار كلها وحده لا شريك له، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله، ﴿ومنكم من يتوفى من قبل﴾ أي من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم، بل تسقطه أمه سقطاً، ومنهم من يتوفى صغيراً وشاباً وكهلاً قبل الشيخوخة، كقوله تعالى: ﴿لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى﴾، وقال عزّ وجلّ ههنا: ﴿ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون﴾. قال ابن جريج: تتذكرون البعث، ثم قال تعالى: ﴿هو الذي يحيي ويميت﴾ أي هو المتفرد بذلك لا يقدر على ذلك أحد سواه، ﴿فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ أي لا يخالف ولا يمانع بل ما شاء كان لا محالة.

* ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

يقول تعالى: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله، ويجادلون في الحق بالباطل، كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال؟ ﴿الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا﴾ أي من الهدى والبيان ﴿فسوف يعلمون﴾ هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، من الرب جل جلاله لهؤلاء، كما قال تعالى: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾، وقوله عزّ وجلّ ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل﴾ أي متصلة بالأغلال بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم، وتارة إلى الجحيم، ولهذا قال تعالى: ﴿يسحبون في الحميم، ثم في النار يسجرون﴾، كما قال تبارك وتعالى: ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾، وقال تعالى: ﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم، ثم صبّوا فوق رأسه من عذاب

الحميم، ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ أي يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ، والتهكم والاستهزاء بهم، وقوله تعالى: ﴿ثم قيل لهم أينما كنتم تشركون من دون الله﴾؟ أي قيل لهم: أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله هل ينصرونكم اليوم؟﴿قالوا ضلوا عنا﴾ أي ذهبوا فلم ينفعونا، ﴿بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً﴾ أي جحدوا عبادتهم، كقوله جلَّت عظمته: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾. ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿كذلك يضل الله الكافرين﴾، وقوله: ﴿ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون﴾ أي تقول لهم الملائكة: هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق، ومرحكم وأشركم وبطركم، ﴿ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾، أي فبئس المنزل والمقيل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد، لمن استكبر عن آيات الله، واتباع دلائله وحججه، والله أعلم.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه: ﴿فإما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ أي في الدنيا وكذلك وقع، فإن الله تعالى أقر عينه يوم بدر ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في حياته ﷺ. وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أو نتوفينك فإلينا يرجعون﴾ أي فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة، ثم قال تعالى مسلياً له: ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك﴾ أي منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم، ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة، ﴿ومنهم من لم نقصص عليك﴾ وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف، كما تقدم التنبيه على ذلك في سورة النساء ولله الحمد والمنة، وقوله تعالى: ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾ أي ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات إلا أن يأذن الله له في ذلك فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به، ﴿فإذا جاء أمر الله﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين، ﴿قضي بالحق﴾ فينجي المؤمنين ويهلك الكافرين، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿وخسر هنالك المبطلون﴾.

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، فمنها ركوبهم ومنها يأكلون، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال، إلى البلاد النائية والأقطار الشاسعة، والبقر تؤكل ويشرب لبنها وتحرث عليها الأرض، والغنم تؤكل ويشرب لبنها، والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة ولذا قال عزّ وجلّ: ﴿لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون﴾، وقوله جلَّ وعلا: ﴿ويريكم آياته﴾ أي حججه

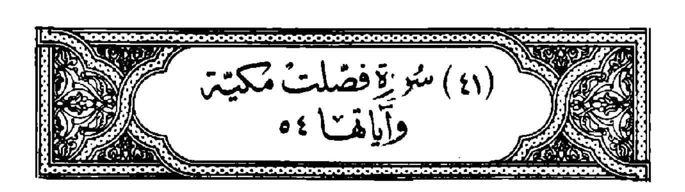
وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم ﴿ فأي آيات الله تنكرون﴾ ؟ أي لا تقدرون على إنكار شيء من آياته إلا أن تعاندوا وتكابروا .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر ، ومـاذا حل بهم من العذاب الشديد مع شدة قواهم، وما أثروه في الأرض وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً ولا رد عنهم ذرة من بأس الله ، وذلك لأنهم لمـا جاءتهم الرسل بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عمـا جاءتهم بـه الرسل، قـال مجاهد: قالوا: نحن أعلم منهم لن نبعث ولن نعذب، وقال السدي: فرحوا بمـا عندهم من العلم بجهالتهم، فأتاهم من بأس الله تعالى ما لا قبل لهم بـه، ﴿وحاق بهم﴾ أي أحاط بهم ، ﴿ ما كانوا به يستهزئون﴾ أي يكذبون ويستبعدون وقوعه، ﴿ فلما رأوا بأسنا﴾ أي عاينوا وقوع العذاب بهم، ﴿ قالوا آمنا بالله وحـده وكفرنا بمـا كنا به مشركين﴾ أي وحدوا الله عزّ وجلّ وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تقال العثرات ولا تنفع المعذرة، وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ فلم يقبل الله منه لأنه قـد استجاب لنبيّه موسى عليه السلام . وهكذا قال تعالى ههنا ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لمـا رأوا بأسنا سنة الله التي قـد خلت في عباده﴾ أي هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه لا يقبل، ولهذا جاء في الحديث : « إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » ، ولهذا قال تعالى: ﴿ وخسر هنالك الكافرون﴾ .

[آخر تفسير سورة غافر ، ولله الحمد والمنة]

***



(٤١) سورة فصّلت مكيّة وآياتها ٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾

يقول تعالى: ﴿حم تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ يعني القرآن منزل من الرحمن الرحيم، كقوله: ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾، وقوله: ﴿كتاب فصلت آياته﴾ أي بينت معانيه وأحكمت أحكامه، ﴿قرآناً عربياً﴾ أي في حال كونه قرآناً عربياً بيناً واضحاً، فمعانيه مفصلة، وألفاظه واضحة، كقوله تعالى: ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ أي هو معجز من حيث لفظه ومعناه، وقوله تعالى: ﴿لقوم يعلمون﴾ أي إنما يعرف هذا العلماء الراسخون ﴿بشيراً ونذيراً﴾ أي تارة يبشر المؤمنين، وتارة ينذر الكافرين، ﴿فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾ أي أكثر قريش فهم لا يفهمون منه شيئاً مع بيانه ووضوحه، ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة﴾ أي في غلف مغطاة، ﴿مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر﴾ أي صمم عما جئتنا به ﴿ومن بيننا وبينك حجاب﴾ فلا يصل إلينا شيء مما تقول، ﴿فاعمل إننا عاملون﴾ أي اعمل أنت على طريقتك ونحن على طريقتنا لا نتابعك، روى البغوي في تفسيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: اجتمعت قريش يوماً فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا، فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه، فقالوا: ما نعلم أحداً غير (عتبة بن ربيعة)، فقالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه عتبة فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى يسمع قولك، إنا والله ما رأينا سِخَلَةً قط أشأم على قومك منك، فرّقت جماعتنا وشتّت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف، حتى نتفانى، أيها الرجل إن كان إنما بك الحاجة، جمعنا لك حتى

تكون أغنى قريش رجلاً واحداً وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً، فقال رسول الله ﷺ: «فرغت؟» قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، حم تنزيل من الرحمن الرحيم – حتى بلغ – فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فأمسك عتبة على فيه، وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش، واحتبس عنهم، فقال أبو جهل: يا معشر قريش والله ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه، وما ذاك له إلا من حاجة أصابته، فانطلقوا بنا إليه، فقال أبو جهل: يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك صبأت إلى محمد وأعجبك طعامه، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد، فغضب عتبة وأقسم أن لا يكلم محمداً أبداً، وقال: والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً، ولكني أتيته وقصصت عليه القصة، فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله تعالى: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب.

وروى محمد بن إسحاق في كتاب السيرة عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيداً، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً، لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون. فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من السلطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، قال: فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد أسمع»، قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو كما قال له، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم، قال: «فاستمع مني»، قال: أفعل، قال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، حم تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾، ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرؤها عليه، فلما سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك»، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر، ولا بالشعر، ولا بالكهانة. يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم وكنتم

أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم. وهذا السياق أشبه من الذي قبله والله اعلم.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾

يقول تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين ﴿إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد﴾ لا ما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد ﴿فاستقيموا إليه﴾ أي أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل، ﴿واستغفروه﴾ أي لسالف الذنوب، ﴿وويل للمشركين﴾ أي دمار لهم وهلاك عليهم ﴿الذين لا يؤتون الزكاة﴾ قال ابن عباس: يعني الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله، كقوله تبارك وتعالى: ﴿فقل هل لك إلى أن تزكى﴾ والمراد بالزكاة هنا طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك، وزكاة المال إنما سميت زكاة، لأنها تطهره من الحرام، وتكون سبباً لزيادته وبركته وكثرة نفعه، واستعماله في الطاعات. وقال السدي: ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾: أي لا يؤدون الزكاة، وقال قتادة: يمنعون زكاة أموالهم، وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير، ثم قال جلّ جلاله بعد ذلك: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾ قال مجاهد وغيره: غير مقطوع ولا مجبوب، كقوله تعالى: ﴿ماكثين فيها أبداً﴾، وكقوله عزّ وجلّ: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ وقال السدي: غير ممنون عليهم، وقد رد عليه بعض الأئمة، فإن المنة لله تعالى على أهل الجنة، قال الله تعالى: ﴿بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان﴾، وقال أهل الجنة: ﴿فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم﴾، وقال رسول الله ﷺ: «إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝١٢﴾

هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، المقتدر على كل شيء ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً﴾ أي نظراء وأمثالاً تعبدونها معه، ﴿ذلك رب العالمين﴾ أي الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم، وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿خلق السماوات

والأرض في ستة أيام﴾ ففصل ههنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولا لأنها كالأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس، ثم بعده بالسقف، كما قال عزّ وجلّ: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات﴾ الآية، فأما قوله تعالى: ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها﴾ إلى قوله: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها﴾، ففي هذه الآية أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء ، فالدحو مفسر بقوله: ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ وكان هذا بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس فيما ذكره البخاري عن سعيد بن جبير قال، قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: إني لأجد في القرآن أشياء تختلف عليّ، قال: ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾، ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾، ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾، ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ فقد كتموا في هذه الآية ، وقال تعالى: ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها – إلى قوله – والأرض بعد ذلك دحاها﴾ فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، ثم قال تعالى: ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين – إلى قوله – طائعين﴾ فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء، قال: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾، ﴿عزيزاً حكيماً﴾، ﴿سميعاً بصيراً﴾ فكأنه كان ثم مضى، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ في النفخة الأولى، كما قال تعالى ﴿فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾، وفي النفخة الأخرى ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ . وأما قوله: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾، ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾، فإن الله تعالى يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فيقول المشركون: تعالوا نقول: لم نكن مشركين، فيختم على أفواههم، فتنطق أيديهم، فعند ذلك يعرف أن الله تعالى لا يكتم حديثاً، وعنده ﴿يود الذين كفروا﴾ الآية، وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحى الأرض، ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله تعالى: ﴿دحاها﴾، وقوله: ﴿خلق الأرض في يومين﴾ فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وخلق السماوات في يومين، ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ سمى نفسه بذلك ، وذلك قوله اي لم يزل كذلك ، فإن الله تعالى لم يرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد ، فلا يختلفن عليك القرآن ، فإن كلا من عند الله عزّ وجلّ .

وقوله تعالى : ﴿خلق الأرض ، في يومين﴾ يعني يوم الأحد ويوم الاثنين، ﴿وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها﴾ أي جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس، وقدر فيها أقواتها، وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس يعني يوم الثلاثاء والأربعاء ، فهما مع اليومين السابقين أربعة ولهذا قال : ﴿في أربعة أيام سواء للسائلين﴾ أي لمن أراد السؤال ، عن ذلك ليعلمه . وقال عكرمة ومجاهد في قوله عزّ وجلّ ﴿وقدر فيها أقواتها﴾ جعل في كل أرض مالا يصلح في غيرها، ومنه العصب باليمن، والسابوري بسابور ، والطيالسة بالري . وقال ابن عباس وقتادة والسدي في قوله تعالى: ﴿سواء للسائلين﴾ أي لمن أراد السؤال عن ذلك، وقال ابن زيد: ﴿وقدر فيها أقواتها﴾ أي على وفق مراده، من له حاجة إلى رزق أو حاجة، فإن الله تعالى قدر له ما هو محتاج إليه، وهذا القول يشبه قوله تعالى: ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ والله أعلم . وقوله تبارك وتعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾ وهو بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض، ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً

أو كرهاً﴾ أي استجيبا لأمري طائعتين أو مكرهتين، قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً﴾ قال الله تبارك وتعالى للسماوات أطلعي شمسي وقمري ونجومي، وقال للأرض: شققي أنهارك وأخرجي ثمارك، ﴿قالتا أتينا طائعين﴾ واختاره ابن جرير. وقيل تنزيلاً لهن معاملة من يعقل بكلامهما، وقال الحسن البصري: لو أبيا عليه أمره لعذبهما عذاباً يجدان ألمه ﴿فقضاهن سبع سماوات في يومين﴾ أي ففرغ في تسويتهن سبع سماوات ﴿في يومين﴾ أي آخرين وهما يوم الخميس ويوم الجمعة، ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾ أي ورتب مقرراً في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو، ﴿وزينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ وهي الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، ﴿وحفظاً﴾ أي حرساً من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى، ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ أي العزيز الذي قد عز كل شيء فغلبه وقهره، ﴿العليم﴾ بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم. روي أن اليهود أتت النبي ﷺ، فسألته عن خلق السماوات والأرض، فقال ﷺ: «خلق الله تعالى الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع، وخلق يوم الاربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب، فهذه أربعة ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين﴾ لمن سأله، قال: وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء مما ينتفع به الناس، وفي الثالثة آدم وأسكنه الجنة وأمر إبليس بالسجود له وأخرجه منها في آخر ساعة»، ثم قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: «ثم استوى على العرش»، قالوا: قد أصبت لو أتممت، قالوا: ثم استراح، فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً فنزل: ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب * فاصبر على ما يقولون﴾[1].

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق، إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله تعالى، فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم، كما حلّت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين ﴿صاعقة

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس، قال ابن كثير: وهذا الحديث فيه غرابة.

مثل صاعقة عاد وثمود﴾ أي ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما، ﴿إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم﴾، كقوله تعالى ﴿وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾ أي ما أحل الله بأعدائه من النقم، وما ألبس أولياءه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا بل كذبوا وجحدوا وقالوا: ﴿لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ أي لو أرسل الله رسلاً لكانوا ملائكة من عنده ﴿فإنا بما أرسلتم به﴾ أي أيها البشر ﴿كافرون﴾ أي لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا، قال الله تعالى: ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض﴾ أي بغوا وعتوا وعصوا ﴿وقالوا من أشد منا قوة﴾؟ أي منوا بشدة تركيبهم وقواهم واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله، ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾ أي أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة، فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وأن بطشه شديد فلهذا قال: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾ قال بعضهم: وهي شديدة الهبوب، وقيل: الباردة، وقيل: هي التي لها صوت. والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحاً شديدة قوية، وكانت باردة شديدة البرد جداً، وكانت ذات صوت مزعج. وقوله تعالى: ﴿في أيام نحسات﴾ أي متتابعات كقوله: ﴿في يوم نحس مستمر﴾ أي ابتُدِئوا بهذا العذاب في يوم نحس عليهم واستمر بهم هذا النحس ﴿سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوما﴾ حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة، ولهذا قال ﴿لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى﴾ أشد خزياً لهم، ﴿وهم لا ينصرون﴾ أي في الأخرى كما لم ينصروا في الدنيا، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وأما ثمود فهديناهم﴾ قال ابن عباس: بيّنّا لهم[1]، وقال الثوري: دعوناهم ﴿فاستحبوا العمى على الهدى﴾ أي بصرناهم وبيّنّا لهم ووضّحنا لهم الحق على لسان نبيّهم صالح عليه الصلاة والسلام، فخالفوه وكذبوه وعقروا ناقة الله تعالى التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيّهم، ﴿فأخذتهم صاعقة العذاب الهون﴾ أي بعث الله عليهم صيحة ورجفة، وذلاً وهواناً، وعذاباً ونكالاً ﴿بما كانوا يكسبون﴾ أي من التكذيب والجحود، ﴿ونجينا الذين آمنوا﴾ أي من بين أظهرهم لم يمسهم سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله تعالى مع نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام بإيمانهم وتقواهم لله عزّ وجلّ.

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى: ﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون﴾ أي اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون

(١) وهو قول سعيد بن جبير وقتادة والسدي وابن زيد.

إلى النار ﴿ يوزعون ﴾ أي تجمع الزبانية أولهم على آخرهم، كما قال تعالى ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾ أي عطاشاً، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ حتى إذا ما جاءُوها ﴾ أي وقفوا عليها ﴿ شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾ أي بأعمالهم مما قدموه وأخروه لا يكتم منه حرف، ﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ﴾ أي لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم فعند ذلك أجابتهم الأعضاء ﴿ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة ﴾، أي فهو لا يخالف ولا يمانع وإليه ترجعون، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم، فقال ﷺ: «ألا تسألوني عن أي شيء ضحكت؟» قالوا: يا رسول الله من أي شيء ضحكت؟ قال ﷺ: «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: أي ربي أليس وعدتني أن لا تظلمني، قال: بلى، فيقول: فإنني لا أقبل عليَّ شاهداً إلا من نفسي، فيقول الله تبارك وتعالى: أو ليس كفى بي شهيداً والملائكة الكرام الكاتبين – قال – فيردد هذا الكلام مراراً – قال – فيختم على فيه، وتتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بعداً لَكُنَّ وسحقاً، عنكن كنت أجادل»[1]، وقال أبو موسى: «يدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض عليه ربه عزّ وجلّ عمله، فيجحد، ويقول: أي رب وعزتك لقد كتب علي هذا الملك ما لم أعمل، فيقول له الملك: أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك، أي رب ما عملته، قال: فإذا فعل ذلك ختم على فيه، قال الأشعري فإني لأحسب أول ما ينطق منه فخذه اليمنى»[2]، وروى الحافظ أبو يعلى، عن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فجحد وخاصم، فيقول: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك، فيقول: كذبوا فيقول: أهلك وعشيرتك. فيقول: كذبوا، فيقول: احلفوا، فيحلفون، ثم يصمتهم الله تعالى، وتشهد عليهم ألسنتهم ويدخلهم النار»[3].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن يوم القيامة يأتي على الناس منه حين لا ينطقون ولا يعتذرون ولا يتكلمون، حتى يؤذن لهم، فيختصمون، فيجحد الجاحد بشركه بالله تعالى، فيحلفون له كما يحلفون لكم فيبعث الله تعالى عليهم حين يجحدون شهداء من أنفسهم، جلودهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم ويختم على أفواههم، ثم يفتح لهم الأفواه، فتخاصم الجوارح، فتقول: ﴿ أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾ فتقر الألسنة بعد الجحود[4].

وقوله تعالى: ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ﴾ أي تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم: ما كنتم تكتمون منا الذي كنتم تفعلونه، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي، ولا تبالون منه في زعمكم لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم، ولهذا قال تعالى: ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلمُ كثيراً مما تعملون وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ﴾ أي هذا الظن الفاسد وهو اعتقادكم أن الله تعالى لا يعلم كثيراً مما تعملون، هو الذي أتلفكم وأرداكم عند ربكم ﴿ فأصبحتم من الخاسرين ﴾ أي في مواقف

(١) أخرجه الحافظ البزار، ورواه مسلم والنسائي بنحوه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري.

(٣) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي.

(٤) رواه ابن أبي حاتم.

القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم . روى الإمام أحمد، عن عبدالله رضي الله عنه قال: كنت مستتراً بأستار الكعبة، فجاء ثلاثة نفر قرشي وختناه ثقفيان - أو ثقفي وختناه قرشيان - كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه وإذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئاً سمعه كله، قال: فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم - إلى قوله - من الخاسرين﴾[1] . وروى الإمام أحمد، عن جابر رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن، فإن قوماً قد أرداهم سوء ظنهم بالله، فقال الله تعالى: ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾»[2]. وقوله تعالى: ﴿فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾ أي سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا، هم في النار لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها، وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذاراً فما لهم أعذار، ولا تقال لهم عثرات، قال ابن جرير ومعنى قوله تعالى: ﴿وإن يستعتبوا﴾ اي يسألوا الرجعة إلى الدنيا فلا جواب لهم، قال: وهذا كقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ .

* وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

يذكر تعالى أنه هو الذي أضل المشركين، وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته، وهو الحكيم في أفعاله بما قيض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن، ﴿فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أي حسنوا لهم أعمالهم فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، كما قال تعالى: ﴿وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾، وقوله: ﴿وحق عليهم القول﴾ أي كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم، ممن فعل كفعلهم من الجن والإنس، ﴿إنهم كانوا خاسرين﴾ أي استووا هم وإياهم في الخسار والدمار، وقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن﴾ أي تواصوا فيما بينهم أن لا يطيعوا القرآن ولا ينقادوا لأوامره، ﴿والغوا فيه﴾ أي إذا تلي لا تسمعوا له، كما قال مجاهد ﴿والغوا فيه﴾ يعني بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن وكانت قريش تفعله، وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿والغوا فيه﴾ عيبوه، وقال قتادة: اجحدوا به وأنكروه وعادوه،

---

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم والترمذي عن عبد الله بن مسعود بنحوه . (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

﴿ لعلكم تغلبون ﴾ هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن، وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بخلاف ذلك، فقال تعالى: ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ﴾ أي في مقابلة ما اعتقدوه في القرآن وعند سماعه، ﴿ ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون ﴾ أي بشر أعمالهم وسيء أفعالهم، ﴿ ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون * وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴾ . عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿ اللذين أضلانا ﴾ قال: إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه، فإبليس الداعي إلى كل شرّ من شرك فما دونه، وابن آدم الأول كما ثبت في الحديث: « ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل »[1] ، وقولهم: ﴿ نجعلهما تحت أقدامنا ﴾ أي أسفل منا في العذاب ليكونا أشد عذاباً منا، ولهذا قالوا ﴿ ليكونا من الأسفلين ﴾ أي في الدرك الأسفل من النار، كما تقدم في الأعراف في سؤال الأتباع من الله تعالى أن يعذب قادتهم أضعاف عذابهم، ﴿ قال لكلٍ ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ أي أنه تعالى قد أعطى كلاً منهم ما يستحقه من العذاب والنكال بحسب عمله وإفساده، كما قال تعالى: ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ .

* إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى: ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ أي أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم، قال الحافظ أبو يعلى الموصلي، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: « قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم، فمن قالها حتى يموت فقد استقام عليها »[2] . وعن سعيد بن عمران قال: « قرأت عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه هذه الآية ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ قال: هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً »[3] . وقال عكرمة: سئل ابن عباس رضي الله عنهما: أي آية في كتاب الله تبارك وتعالى أرخص ؟ قال، قوله تعالى: ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله . وقال الزهري: تلا عمر رضي الله عنه هذه الآية على المنبر ، ثم قال: استقاموا والله لله بطاعته ولم يروغوا روغان الثعالب . وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ ثم استقاموا ﴾ على أداء فرائضه، وكان الحسن يقول: اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة، وقال أبو العالية: ﴿ ثم استقاموا ﴾ أخلصوا له الدين والعمل، وعن سفيان ابن عبدالله الثقفي قال، قلت: يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به، قال ﷺ: « قل ربي الله ثم استقم » ، قلت: يا رسول الله ما أكثر ما تخاف علي؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه، ثم قال: « هذا »[4] . وفي

---

(١) أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي .
(٢) أخرجه النسائي والبزار وابن جرير .
(٣) أخرجه ابن جرير عن سعيد بن عمران .
(٤) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة ، وقال الترمذي: حسن صحيح .

رواية : قلت : يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال ﷺ : « قل آمنت بالله ثم استقم »[١] .

وقوله تعالى : ﴿ تتنزل عليهم الملائكة ﴾ قال مجاهد والسدي: يعني عند الموت قائلين : ﴿ ألا تخافوا ﴾ أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة ﴿ ولا تحزنوا ﴾ على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو دين ، فإنا نخلفكم فيه، ﴿ وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير ، وهذا كما جاء في حديث البراء رضي الله عنه قال: « إن الملائكة تقول لروح المؤمن : اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان »، وقيل: إن الملائكة تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم[٢] ، وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث ، وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ أي تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار : نحن كنا أولياءكم، أي قرناءكم في الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور ، وعند النفخة في الصور ، ونؤمنكم يوم البعث والنشور ، ﴿ ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ﴾ أي في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس وتقر به العيون ﴿ ولكم فيها ما تدعون ﴾ أي مهما طلبتم وجدتم وحضر بين أيديكم كما اخترتم ﴿ نزلاً من غفور رحيم ﴾ أي ضيافة وعطاء ﴿ من غفور ﴾ لذنوبكم ﴿ رحيم ﴾ بكم حيث غفر وستر ، ورحم ولطف، وفي الحديث: « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه »، قلنا: يا رسول الله : كلنا نكره الموت، قال ﷺ : « ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حُضِرَ جاءه البشير من الله تعالى بما هو صائر إليه، فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله تعالى، فأحب الله لقاءه ، قال: وإن الفاجر ، أو الكافر ، إذا حضر جاءه بما هو صائر إليه من الشر أو ما يلقى من الشر ، فكره لقاء الله فكره الله لقاءه »[٣] .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

يقول عزّ وجلّ : ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ﴾ أي دعا عباد الله إليه ﴿ وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾ أي وهو في نفسه مهتد فنفعه لنفسه ولغيره، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، بل يأتمر

(١) أخرجه مسلم والنسائي .

(٢) حكاه ابن جرير عن ابن عباس والسدي .

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه .

بالخير ويترك الشر ، وهذه عامة في كل من دعا إلى خير ، وهو في نفسه مهتد، وقيل: المراد بها المؤذنون الصلحاء، كما ثبت في صحيح مسلم: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»، وقال عمر رضي الله عنه: لو كنت مؤذناً لكمل أمري، وما باليت أن لا أنتصب لقيام الليل ولا لصيام النهار ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللهم اغفر للمؤذنين» ثلاثاً، قال: فقلت: يا رسول الله تركتنا ونحن نجتلد على الأذان بالسيوف، قال ﷺ: «كلا يا عمر، إنه سيأتي على الناس زمان يتركون الأذان على ضعفائهم، وتلك لحوم حرمها الله عزّ وجلّ على النار لحوم المؤذنين»[1] . وقالت عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾ قالت: فهو المؤذن إذا قال: حي على الصلاة فقد دعا إلى الله ، وهكذا قال ابن عمر رضي الله عنهما وعكرمة: إنها نزلت في المؤذنين، والصَّحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم، فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعاً بالكلية، لأنها مكية، والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة، وقوله تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ أي فرق عظيم بين هذه وهذه، ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ أي من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه ، كما قال عمر رضي الله عنه: ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه .

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ وهو الصديق إي إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك حتى يصير ﴿كأنه ولي حميم﴾ أي قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا﴾ أي وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإنه يشق على النفوس، ﴿وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ أي ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة، قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم، وقوله تعالى: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله﴾ أي أن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه ، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس، إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلطه عليك، فإذا استعذت بالله والتجأت إليه كفه عنك ورد كيده، وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»[2] .

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى منبهاً خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له وأنه على ما يشاء قادر: ﴿ومن آياته الليل

(١) أخرجه ابن أبي حاتم . (٢) رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن .

والنهار والشمس والقمر﴾ أي أنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، وهما متعاقبان لا يفتران، والشمس ونورها وإشراقها والقمر وضياءه وتقدير منازله في فلكه، واختلاف سيره في سمائه، ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول أوقات العبادات والمعاملات، ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده، تحت قهره وتسخيره فقال: ﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي ولا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به، ولهذا قال تعالى: ﴿فإن استكبروا﴾ أي عن إفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره، ﴿فالذين عند ربك﴾ يعني الملائكة ﴿يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون﴾ كقوله عزّ وجلّ: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾.

وروى الحافظ أبو يعلى، عن جابر رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الليل ولا النهار ولا الشمس ولا القمر ولا الرياح فإنها ترسل رحمة لقوم وعذاباً لقوم» وقوله: ﴿ومن آياته﴾ أي على قدرته على إعادة الموتى ﴿أنك ترى الأرض خاشعة﴾ أي هامدة لا نبات فيها بل هي ميتة، ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾ أي أخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار، ﴿إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾

قوله تبارك وتعالى: ﴿إن الذين يلحدون في آياتنا﴾ قال ابن عباس: الإلحاد وضع الكلام على غير مواضعه، وقال قتادة: هو الكفر والعناد، وقوله عزّ وجلّ: ﴿لا يخفون علينا﴾ فيه تهديد شديد ووعيد أكيد أي أنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال، ولهذا قال تعالى: ﴿أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة﴾؟ أي أيستوي هذا وهذا؟ لا يستويان، ثم قال عزّ وجلّ تهديداً للكفرة: ﴿اعملوا ما شئتم﴾، قال مجاهد ﴿اعملوا ما شئتم﴾ وعيد أي من خير أو شر إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم، ولهذا قال: ﴿إنه بما تعملون بصير﴾، ثم قال جل جلاله: ﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم﴾ قال الضحاك هو القرآن، ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ أي منيع الجناب لا يرام أن يأتي أحد بمثله، ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ أي ليس للبطلان إليه سبيل، لأنه منزل من رب العالمين، ولهذا قال: ﴿تنزيل من حكيم حميد﴾ أي حكيم في أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود أي في جميع ما يأمر به وينهى عنه، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾، قال قتادة والسدي: ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك فكما كذبت كذبوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم فاصبر أنت على أذى قومك لك، وهذا اختيار ابن جرير، وقوله تعالى: ﴿إن ربك لذو مغفرة﴾ أي لمن تاب إليه، ﴿وذو عقاب أليم﴾ أي لمن استمر على كفره

وطغيانه، وعناده وشقاقه ومخالفته. قال سعيد بن المسيب: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿إن ربك لذو مغفرة﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحداً العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد»[1]

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته ومع هذا لم يؤمن بـه المشركون، نبه على أن كفرهم بـه كفر عناد وتعنت، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم، ما كانوا به مؤمنين﴾الآيات، وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغـة العجم لقـالوا على وجه التعنت والعنـاد ﴿لولا فصلت آياتـه أأعجمي وعربي﴾ أي لقالوا هلّا أنزل مفصلاً بلغة العرب ولأنكروا ذلك، فقالوا ﴿أأعجمي وعربي﴾ أي كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه؟[2] وقيل: المراد بقولهم ﴿لولا فصلت آياته أعجمي وعربي﴾ أي هل أنزل بعضهـا بالأعجمي وبعضها بالعربي؟ هـذا قول الحسن البصري وكان يقرؤهـا كذلك بلا استفهام في قوله أعجمي، وهو في التعنت والعناد أبلغ، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ أي قل يا محمد: هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه، وشفاء، وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب، ثم قال تعالى: ﴿والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر﴾ أي لا يفهمون مـا فيه؛ ﴿وهو عليهم عمى﴾ أي لا يهتدون إلى مـا فيه من البيان كما قـال سبحانه وتعالى ﴿ونتزل من القرآن مـا هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيـد الظـالمين إلا خساراً﴾، ﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ قال مجاهد: يعني بعيد من قلوبهم، قال ابن جرير: معناه كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول، قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾، وقـال الضحاك: ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه﴾ أي كذب وأوذي، ﴿ولو لا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى﴾ بتأخير الحساب إلى يوم المعاد ﴿لقضي بينهم﴾ أي لعجل لهم العذاب، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً، ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾ أي وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا، بل كانوا شاكين فيما قالوه غير محققين لشيء كانوا فيه، هكذا وجهه ابن جرير وهو محتمل والله أعلم.

مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ * إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب مرفوعاً. (٢) روي هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والسدي وغيرهم.

يقول تعالى: ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه﴾ أي إنما يعود نفع ذلك على نفسه، ﴿ومن أساء فعليها﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك عليه، ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ أي لا يعاقب أحداً إلا بذنبه، ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه، ثم قال جلّ وعلا: ﴿إليه يرد علم الساعة﴾ أي لا يعلم ذلك أحد سواه، كما قال سيد البشر لجبريل عليه السلام حين سأله عن الساعة، فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، وكما قال عزّ وجلّ: ﴿إلى ربك منتهاها﴾، وقال جلّ جلاله: ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾ أي الجميع بعلمه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، كقوله: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾، وقال تعالى: ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾، وقوله جل وعلا: ﴿ويوم يناديهم أين شركائي﴾ أي يوم القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق، أين شركائي الذين عبدتموهم معي؟ ﴿قالوا آذناك﴾ أي أعلمناك، ﴿ما منا من شهيد﴾ أي ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكاً، ﴿وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل﴾ أي ذهبوا فلم ينفعوهم، ﴿وظنوا ما لهم من محيص﴾ أي وأيقن المشركون يوم القيامة ﴿ما لهم من محيص﴾ أي لا محيد لهم من عذاب الله، كقوله تعالى: ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾.

لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾

يقول تعالى: لا يمل الإنسان من دعاء ربه بالخير وهو المال وصحة الجسم وغير ذلك، ﴿وإن مسه الشر﴾ وهو البلاء أو الفقر ﴿فيئوس قنوط﴾ أي يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير، ﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي﴾ أي إذا أصابه خير ورزق بعدما كان في شدة ليقولن هذا لي إني كنت أستحقه عند ربي ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ أي يكفر بقيام الساعة، أي لأجل أنه خوّل نعمة يبطر ويفخر ويكفر، كما قال تعالى: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى﴾، ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ أي ولئن كان ثم معاد فليحسنن إليَّ ربي كما أحسن إليّ في هذه الدار، يتمنى على الله عزّ وجلّ مع إساءته العمل وعدم اليقين، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال، ثم قال تعالى: ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه﴾ أي أعرض عن الطاعة واستكبر عن الانقياد لأوامر الله عزّ وجلّ، كقوله جلّ جلاله: ﴿فتولى بركنه﴾، ﴿وإذا مسه الشر﴾ أي الشدة ﴿فذو دعاء عريض﴾ أي يطيل المسألة في الشيء الواحد، فالكلام العريض ما طال لفظه وقل معناه، والوجيز عكسه وهو ما قل ودل، وقد قال تعالى: ﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾ الآية.

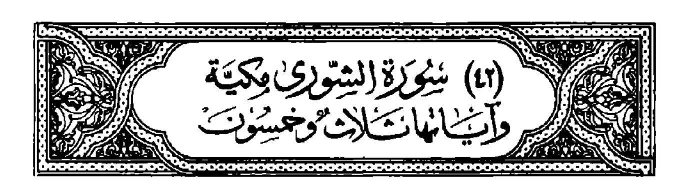
﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن ﴿أرأيتم إن كان﴾ هذا القرآن ﴿من عند الله ثم كفرتم به﴾ أي كيف ترون حالكم عند الذي أنزله على رسوله؟ ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿من أضل ممن هو في شقاق بعيد﴾؟ أي في كفر وعناد ومشاقة للحق ومسلك بعيد من الهدى، ثم قال جلّ جلاله: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ أي سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله، على رسول الله ﷺ بدلائل خارجية ﴿في الآفاق﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان. قال مجاهد والحسن والسدي: ﴿وفي أنفسهم﴾ قالوا: وقعة بدر وفتح مكة ونحو ذلك، من الوقائع التي نصر الله فيها محمداً ﷺ وصحبه، وخذل فيها الباطل وحزبه، ويحتمل أن يكون المراد ما الإنسان مركب منه، من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط في علم التشريح، الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾؟ أي كفى بالله شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم، وهو يشهد أن محمداً ﷺ صادق فيما أخبر به عنه، كما قال: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم﴾ أي في شك من قيام الساعة، ولهذا لا يتفكرون فيه ولا يعملون له وهو كائن لا محالة وواقع لا ريب فيه، ثم قال تعالى مقرراً أنه على كل شيء قدير ﴿ألا إنه بكل شيء محيط﴾ أي المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

[آخر تفسير سورة حم السجدة. ولله الحمد والمنة]

* * *



(٤٢) سورة الشورى مكية وآياتها ثلاث وخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ أي كما أنزل إليك هذا القرآن كذلك أنزل على الأنبياء قبلك، وقوله تعالى: ﴿ الله العزيز ﴾ أي في انتقامه، ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله، عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن (الحارث بن هشام) سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ: « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يأتيني الملَك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول » . قالت عائشة رضي الله عنها: فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ﷺ ليتفصد عرقاً »[1] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله هل تحس بالوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ: « أسمع صلاصل، ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إليَّ إلا ظننت أن نفسي تقبض »[2] .
وقوله تبارك وتعالى: ﴿ له ما في السماوات وما في الأرض ﴾ أي الجميع عبيد له وملك له تحت قهره وتصريفه ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ كقوله تعالى: ﴿ وهو الكبير المتعال ﴾، ﴿ وهو العلي الكبير ﴾، والآيات في هذا كثيرة . وقوله عزّ وجلّ: ﴿ تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن ﴾ قال ابن عباس والسدي: أي فَرَقاً من العظمة، ﴿ والملائكة يسبِّحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ كقوله عزّ وجلّ: ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم

(١) أخرجاه في الصحيحين واللفظ للبخاري . ومعنى يتفصد: أي يتصبب عرقاً .
(٢) أخرجه الإمام أحمد .

ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً﴾، وقوله جلّ جلاله: ﴿ألا إن الله هو الغفور الرحيم﴾ إعلام بذلك وتنويه به، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ يعني المشركين ﴿الله حفيظ عليهم﴾ أي شهيد على أعمالهم يحصيها ويعدها عداً، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء، ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ أي إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل.

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿أوحينا إليك قرآناً عربياً﴾ أي واضحاً جلياً بيّناً ﴿لتنذر أم القرى﴾ وهي مكة، ﴿ومن حولها﴾ أي من سائر البلاد شرقاً وغرباً؛ وسميت مكة (أم القرى) لأنها أشرف من سائر البلاد لأدلة كثيرة منها قول رسول الله ﷺ: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»[1]. وقوله عزّ وجلّ: ﴿وتنذر يوم الجمع﴾ وهو يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، وقوله تعالى: ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك في وقوعه وأنه كائن لا محالة، ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾، كقوله تعالى: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن﴾ أي يغبن أهل الجنة أهل النار، وكقوله عزّ وجل: ﴿يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد﴾. روى الإمام أحمد، عن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قلنا: لا، إلا أن تخبرنا يا رسول الله، قال ﷺ للذي في يمينه: «هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً، ثم قال ﷺ للذي في يساره: «هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم»، ثم أجمل على آخرهم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأي شيء نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه؟ قال رسول الله ﷺ: «سدّدوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل»، ثم قال ﷺ بيده فقبضها، ثم قال: «فرغ ربكم عزّ وجل من العباد، ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال: فريق في الجنة، ونبذ باليسرى وقال: فريق في السعير»[2]

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة﴾ أي إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من يشاء إلى الحق، وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير﴾ وقال ابن جرير: إن موسى عليه الصلاة

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

والسلام قال: يا رب خلقك الذين خلقتهم، جعلت منهم فريقاً في الجنة وفريقاً في النار، لو ما أدخلتهم كلهم الجنة؟ فقال: يا موسى ارفع درعك، فرفع، قال: قد رفعت، قال: ارفع، فرفع، فلم يترك شيئاً، قال: يا رب قد رفعت، قال: ارفع، قال: قد رفعت، إلا ما لا خير فيه، قال: كذلك أدخل خلقي كلهم الجنة إلا ما لا خير فيه[1].

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ الْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبراً أنه الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، فإنه هو القادر على إحياء الموتى، وهو على كل شيء قدير، ثم قال عزّ وجل: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾ أي مهما اختلفتم فيه من الأمور، وهذا عام في جميع الأشياء ﴿فحكمه إلى الله﴾ أي هو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيه ﷺ، كقوله جلّ وعلا: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾، ﴿ذلكم الله ربي﴾ أي الحاكم في كل شيء، ﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾ أي أرجع في جميع الأمور. وقوله جل جلاله: ﴿فاطر السماوات والأرض﴾ أي خالقهما وما بينهما ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ أي من جنسكم وشكلكم، منّة عليكم وتفضلاً، جعل من جنسكم ذكراً وأنثى، ﴿ومن الأنعام أزواجاً﴾ أي وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج، وقوله تبارك وتعالى ﴿يذرؤكم فيه﴾ أي يخلقكم فيه على هذه الصفة، لا يزال يذرؤكم فيه ذكوراً وإناثاً خلقاً من بعد خلق، وجيلاً بعد جيل، وقال البغوي ﴿يذرؤكم﴾ أي في الرحم، وقيل: في هذا الوجه من الخلقة، قال مجاهد: نسلاً بعد نسل من الناس والأنعام، وقيل: «في» بمعنى الباء، أي يذرؤكم به، ﴿ليس كمثله شيء﴾ أي ليس كخالق الأزواج كلها شيء، لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له ﴿وهو السميع البصير﴾، وقوله تعالى: ﴿له مقاليد السماوات والأرض﴾ تقدم تفسيره في سورة الزمر، وحاصل ذلك أنه المتصرف الحاكم فيهما، ﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي يوسع على من يشاء ويضيّق على من يشاء، وله الحكمة والعدل التام. ﴿إنه بكل شيء عليم﴾.

﴿* شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ

---

(١) أخرجه ابن جرير من حديث عمرو بن أبي سويد.

مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾

يقول تعالى لهذه الأمة : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى بـه نوحاً والذي أوحينا إليك ﴾، فذكر أول الرسل بعد آدم وهو (نوح) عليه السلام، وآخرهم وهو (محمد) ﷺ، ثم ذكر من بـين ذلك من أولي العزم، وهو : إبراهيم وموسى وعيسى بن مريم، وهـذه الآية انتظمت ذكر الخمسة، كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ﴾ الآية، والدين الذي جاءت بـه الرسل كلهم، هو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال عزّ وجلّ : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلّه إلا أنا فاعبدون ﴾، وفي الحديث : « نحن معشر الأنبياء أولاد علّات، ديننا واحد » أي القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحـده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم، كقوله جلّ جلاله: ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾، ولهـذا قال تعالى ههنا : ﴿ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ أي أوصى الله تعالى جميع الأنبياء عليهم السلام بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف. وقوله عزّ وجلّ: ﴿ كبر على المشركين مـا تدعوهم إليه ﴾ أي شق عليهم، وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد، ثم قـال جلّ جلاله: ﴿ الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ أي هو الذي يقدر الهـداية لمن يستحقها، ويكتب الضلالة على من آثرهـا على طريق الرشد، ولهذا قال تعالى: ﴿ وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ أي إنمـا كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم، وقيـام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغي والعناد، ثم قال عزّ وجلّ : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى ﴾ أي لولا الكلمة السالفة من الله تعالى بإنظار العباد إلى يوم المعاد، لعجّل عليهم العقوبة في الدنيا سريعاً، وقوله جلت عظمته: ﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم ﴾ يعني الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق ﴿ لفي شك منه مريب ﴾ أي ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم، وشك مريب وشقاق بعيد.

۞ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات، كل منها منفصلة عن التي قبلها، حكم برأسها، قالوا: ولا نظير لهـا سوى آية الكرسي، فإنهـا أيضاً عشرة فصول كهذه، وقوله ﴿ فلذلك فادع ﴾ أي فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا بـه جميع المرسلين قبلك، أصحاب الشرائع المتبعة، فادع الناس إليه. وقولـه عزّ وجلّ: ﴿ واستقم كما أمرت ﴾ أي واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله تعالى، كما أمركم الله عزّ وجل. وقوله تعالى: ﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ يعني المشركين فيما اختلفوه فيه وكذبوه وافتروا من عبـادة الأوثان. وقولـه

جلّ وعلا: ﴿ وقل آمنت بمـا أنزل الله من كتاب ﴾ أي صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء لا نفرق بين أحـد منهم . وقوله: ﴿ وأمرت لأعدل بينكم ﴾ أي في الحكم كما أمرني الله . وقوله جلّت عظمته ﴿ الله ربنا وربكم ﴾ أي هو المعبود لا إلّه غيره فنحن نقر بذلك اختياراً ، وأنتم وإن لم تفعلوه اختياراً فله يسجـد من في العالمين طوعاً وإجباراً . وقوله تبارك وتعالى: ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ أي نحن برآء منكم . قال سبحانه وتعالى: ﴿ وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾، وقوله تعالى : ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ قال مجاهد: أي لا خصومة . قال السدي: وذلك قبل نزول آية السيف، وهذا متجه، لأن هذه الآية مكية وآية السيف بعد الهجرة، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ الله يجمع بيننا ﴾ أي يوم القيامة كقوله: ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾. وقوله جلّ وعلا: ﴿ وإليه المصير ﴾ أي المرجـع والمـآب يوم الحساب .

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

يقول تعالى متوعداً الذين يصدون عن سبيل الله من آمن بـه ﴿ والذين يحاجون في الله من بعدما استجيب له ﴾ أي يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى ﴿ حجتهم داحضة عند ربهم ﴾ أي باطـلة عند الله ﴿ وعليهم غضب ﴾ أي منه ﴿ ولهم عـذاب شديد ﴾ أي يوم القيامة ، قال ابن عباس ومجاهد: جادلوا المؤمنين بعد ما استجابوا لله ولرسوله ، ليصدوهم عن الهدى، وطمعوا أن تعود الجاهلية، وقال قتادة : هم اليهود والنصارى قالوا لهم: ديننا خير من دينكم ، ونبينا قبل نبيكم ، ونحن خير منكم وأولى بالله منكم ، وقد كذبوا في ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق ﴾ يعني الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه، ﴿ والميزان ﴾ وهو العدل والإنصاف، وهذه كقوله تعالى: ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم النـاس بالقسط ﴾، وقوله: ﴿ ألا تطغوا في الميزان ◦ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ . وقوله تعالى: ﴿ وما يدريك لعل الساعـة قريب ﴾ فيه ترهيب منها . وتزهيد في الدنيا ، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ أي يقولون متى هذا الوعد ؟ وإنمـا يقولون ذلك تكذيباً واستبعاداً وكفراً وعناداً، ﴿ والذين آمنوا مشفقون منها ﴾ أي خائفون وجلون من وقوعها ﴿ ويعلمون أنها الحق ﴾ أي كائنة لا محالة، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها، وقـد روي أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري، وهو في بعض أسفاره، فناداه، فقال يا محمد ، فقال له رسول الله ﷺ، نحواً من صوته: « هاؤم » ، فقال له: متى الساعة ؟ فقال رسول الله ﷺ: « ويحك إنها كائنة فما أعددت لها ؟ » فقال: حب الله ورسوله، فقال ﷺ: « أنت مع من أحببت »[1] ، فقوله في الحديث: « المرء مع

(١) أخرجه أصحاب السنن والمسانيد وله طرق تبلغ درجة التواتر كما قال ابن كثير .

من أحب » هذا متواتر ، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة بل أمره بالاستعداد لها ، وقوله تعالى: ﴿ ألا إن الذين يمارون في الساعة ﴾ أي يجادلون في وجودها. ويدفعون وقوعها ﴿ لفي ضلال بعيد ﴾ أي في جهل بيّن، لأن الذي خلق السماوات والأرض، قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ .

ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم سواء منهم البر والفاجر ، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ الآية، وقوله جل وعلا: ﴿ يرزق من يشاء ﴾ أي يوسع على من يشاء ﴿ وهو القوي العزيز ﴾ أي لا يعجزه شيء، ثم قال تعالى: ﴿ من كان يريد حرث الآخرة ﴾ أي عمل الآخرة ﴿ نزد له في حرثه ﴾ أي نقويه ونعينه على ما هو بصدده، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله، ﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ أي ومن كان سعيه ليحصل له شيء من الدنيا. وليس له إلى الآخرة هم بالكلية، حرمه الله الآخرة وفاز بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة، كقوله تبارك وتعالى: ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ﴾، وفي الحديث : « بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر ، والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب »[1] وقوله جل وعلا: ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ أي هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار ، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالات الباطلة، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه[2] في النار »، لأنه أول من سيّب السوائب، وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذي حمل قريشاً على عبادة الأصنام لعنه الله وقبحه، ولهذا قال تعالى: ﴿ ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم ﴾ أي لعوجلوا بالعقوبة لولا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد، ﴿ وإن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ أي شديد موجع في جهنم وبئس المصير ، ثم قال تعالى: ﴿ ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا ﴾ أي في عرصات القيامة ﴿ وهو واقع بهم ﴾

(١) رواه الثوري عن أبي العالية عن أبي بن كعب مرفوعاً .

(٢) قصبه : أي أمعاءه .

أي الذي يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم﴾ فأين هذا من هذا؟ أين من هو في الذل والهوان، ممن هو في روضات الجنان، فيما يشاء من مآكل ومشارب وملاذ، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ أي الفوز العظيم والنعمة التامة، الشاملة العامة.

ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنات، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي هذا حاصل لهم كائن لا محاله، ببشارة الله تعالى لهم به، وقوله عزّ وجلّ: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش، لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح مالاً، وإنما أطلب أن تذروني أبلغ رسالات ربي، فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة، روى البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله تعالى ﴿إلا المودة في القربى﴾ فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد، فقال ابن عباس: عَجِلْتَ إن النبي ﷺ: لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة»[1]. وروى الحافظ الطبراني، عن ابن عباس قال، قال لهم رسول الله ﷺ: «لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودوني في نفسي لقرابتي منكم، وتحفظوا القرابة بيني وبينكم»[2]. وروى الإمام أحمد، عن مجاهد، عن ابن عباس: «لا أسألكم على ما آتيكم من البينات والهدى أجراً إلا أن توادوا الله تعالى، وأن تقربوا إليه بطاعته»، وهذا كأنه تفسير بقول ثان، كأنه يقول: إلا المودة في القربى، أي إلا أن تعملوا بالطاعة التي تقربكم عند الله زلفى، وقول ثالث وهو ما حكاه البخاري عن سعيد بن جبير أنه قال: معنى ذلك أن تودوني في قرابتي، أي تحسنوا إليهم وتبروهم، قال السدي: لما جيء بعلي بن الحسين رضي الله عنه أسيراً، فأقيم على درج دمشق، قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلكم، واستأصلكم، وقطع قرن الفتنة، فقال له علي بن الحسين رضي الله عنه: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: أقرأت آل حم؟ قال: قرأت القرآن ولم أقرأ آل حم، قال: ما قرأت: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾؟ قال: وإنكم لأنتم هم؟ قال: نعم»[3]. والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به حبر الأمة وترجمان القرآن، عبدالله بن عباس رضي

---

(١) أخرجه البخاري، وبقول ابن عباس قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي.

(٢) أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس.

(٣) ذكره ابن جرير وعلى هذا القول المراد بالقربى قرابة النبي ﷺ.

الله عنهما، كما رواه عنه البخاري، ولا ننكر الوصية بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخراً وحسباً ونسباً.

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير خم: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي، وإنهما لم يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»، وفي الصحيح أن الصديق رضي الله عنه قال لعلي رضي الله عنه: والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرابتي، وقال عمر بن الخطاب للعباس رضي الله عنهما: والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطّاب. وروى الإمام أحمد، عن يزيد بن حيان قال: انطلقت أنا والحصين بن ميسرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم رضي الله عنه، فلما جلسنا إليه قال حصين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً: رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه وغزوت معه وصلَّيت معه. لقد رأيت يا زيد خيراً كثيراً، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي لقد كبر سني، وقدم عهدي، ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ. فما حدثتكم فاقبلوه، وما لا فلا تكلفونيه، ثم قال رضي الله عنه: قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فينا بماء يدعى خماً بين مكة والمدينة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وذكَّر ووعظ، ثم قال ﷺ: «أما بعد أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين، أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغب فيه. وقال ﷺ: «وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»، فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: إن نساءه لسن من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم عليه الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس رضي الله عنهم، قال: كل هؤلاء حرم الله عليه الصدقة؟ قال: نعم»[1]. وروى الترمذي، عن زيد ابن أبي أرقم رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي. أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، والآخر عترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[2]. وروى الترمذي أيضاً. عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ في حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب فسمعته يقول: «يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[3]

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً﴾ أي ومن يعمل حسنة ﴿نزد له فيها حسناً﴾ أي أجراً وثواباً، كقوله تعالى: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾، وقوله تعالى: ﴿إن الله غفور شكور﴾، أي يغفر الكثير من السيئات، ويكثر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر ويضاعف فيشكر، وقوله جل وعلا: ﴿أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ يختم على قلبك﴾ أي لو افتريت

---

(١) أخرجه أحمد ومسلم والنسائي.

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب.

(٣) أخرجه الترمذي أيضاً وقال: حسن غريب.

عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿ يختم على قلبك ﴾ ويسلبك ما كان آتاك من القرآن، كقوله جلّ جلاله: ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ۝ ثم لقطعنا عنه الوتين ۝ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾، أي لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحتجز عنه. وقوله جلّت عظمته: ﴿ ويمح الله الباطل ﴾ مرفوع على الابتداء وحذفت من كتابته الواو في رسم مصحف الإمام كما حذفت في قوله: ﴿ سندع الزبانية ﴾، وقوله عزّ وجلّ ﴿ ويحق الحق بكلماته ﴾ أي يحققه ويثبته ويبينه ويوضحه ﴿ بكلماته ﴾ أي بحججه وبراهينه، ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي بما تكنه الضمائر، وتنطوي عليه السرائر.

* وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ * وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده بقبول توبتهم إذا تابوا ورجعوا إليه، أنه من كرمه وحلمه يعفو ويصفح، ويستر ويغفر، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾، وقد ثبت في صحيح مسلم، عن أنس بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ: «لَلهُ تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ ويعفو عن السيئات ﴾ أي يقبل التوبة في المستقبل ويعفو عن السيئات في الماضي، ﴿ ويعلم ما تفعلون ﴾ أي هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم، ومع هذا يتوب على من تاب إليه، وقوله تعالى: ﴿ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال السدي: يعني يستجيب لهم، أي الدعاء لأنفسهم ولأصحابهم وإخوانهم، ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ أي يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك، حدثنا محمد بن المصفى، حدثنا بقية، حدثنا إسماعيل بن عبدالله الكِنْدي، حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبدالله رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ «في قوله تعالى: ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ قيل: الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم معروفاً في الدنيا» وقال إبراهيم النخعي في قوله عزّ وجلّ: ﴿ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال: يشفعون في إخوانهم، ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ قال: يشفعون في إخوان إخوانهم، وقوله عزّ وجل: ﴿ والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم.

وقوله تعالى: ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ﴾ أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان، من بعضهم على بعض أشراً وبطراً، وقال قتادة: وكان يقال خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك، وذكر قتادة حديث: «إنما أخاف عليكم ما يخرج الله تعالى من زهرة الحياة الدنيا»،

وقوله عزّ وجل: ﴿ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير﴾ أي ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره، مما فيه صلاحهم وهو أعلم بذلك، فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر، كما جاء في الحديث المروي[1]: «إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه». وقوله تعالى: ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا﴾، أي من بعد يأس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله عزّ وجلّ: ﴿وإن كانوا من قبل أن ينزّل عليهم من قبله لمبلسين﴾، وقوله جلّ جلاله: ﴿وينشر رحمته﴾ أي يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية. قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين قحط المطر، وقنط الناس، فقال عمر رضي الله عنه: مطرتم، ثم قرأ: ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد﴾ أي هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ومن آياته﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿خلق السماوات والأرض وما بث فيهما﴾، أي ذرأ فيهما، أي في السماوات والأرض ﴿من دابة﴾، وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم، وقد فرقهم في أرجاء أقطار السماوات والأرض، ﴿وهو﴾ مع هذا كله ﴿على جمعهم إذا يشاء قدير﴾ أي يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ أي مهما أصابكم أيها الناس من المصائب، فإنما هي عن سيئات تقدمت لكم ﴿ويعفو عن كثير﴾ أي من السيئات فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها، ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾. وفي الحديث الصحيح: «والذي نفسي بيده ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن إلا كفر الله عنه بها من خطاياه حتى الشوكة يشاكها». وعن أبي جحيفة قال: دخلت على (علي بن أبي طالب) رضي الله عنه فقال: ألا أحدثكم بحديث ينبغي لكل مؤمن أن يعيه؟ قال، فسألناه، فتلا هذه الآية: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ قال: ما عاقب الله تعالى به في الدنيا، فالله أحلم من أن يثني عليه العقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه في الدنيا، فالله أكرم من أن يعود في عفوه يوم القيامة»[2]. وروى الإمام أحمد، عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ: «إذا

(١) المراد بالحديث المروي أي المحكي عن الله عزّ وجلّ وهو المشهور بالحديث القدسي.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً، ورواه مرفوعاً من وجه آخر.

كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه الله تعالى بالحزن ليكفرها »[1] . وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ قال: لما نزلت قال: رسول الله ﷺ : « والذي نفس محمد بيــده ما من خدش عود، ولا اختلاج عرق، ولا عثرة قدم، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر »[2] .

وعن الضحّاك قال: ما نعلم أحداً حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب، ثم قرأ: ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ ، ثم قال الضحّاك: وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن ؟

* وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى : ومن آياته الدالة على قدرته البــاهرة وسلطانه، تسخيره البحر لتجري فيه الفلك بأمره ﴿ كالأعلام ﴾ أي كالجبال، أي هذه في البحر كالجبال في البر، ﴿ إن يشأ يسكن الريح ﴾ أي التي تسير في البحر بالسفن، لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن بل تبقى راكدة لا تجيء ولا تذهب، بل واقفة ﴿ على ظهره ﴾ أي على وجه المــاء، ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار ﴾ أي في الشدائد ﴿ شكور ﴾ أي في الرخاء . وقوله عزّ وجلّ ﴿ أو يوبقهن بمــا كسبوا ﴾ أي ولو شاء لأهلك السفن وغرقها، بذنوب أهلها الذين هم راكبون فيها، ﴿ ويعف عن كثير ﴾ أي من ذنوبهم، ولو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر، وقال بعض علماء التفسير ﴿ أو يوبقهن بمــا كسبوا ﴾ أي لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية، فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم، فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال، آبقة لا تسير على طريق ولا إلى جهة مقصد، وهذا القول يتضمن هلاكها وهو مناسب للأول، وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت، أو لقوّاه فشردت وأبقت وهلكت، ولكن من لطفه ورحمته أنه يرسله بحسب الحــاجة كما يرسل المطر بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيراً جداً لهــدم البنيان، أو قليلاً لمــا أنبت الزرع والثمار. حتى إنه يرسل إلى مثل (بلاد مصر) سيحاً من أرض أخرى غيرها. لأنهم لا يحتاجون إلى مطر، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم وأسقط جدرانهم، وقوله تعالى: ﴿ ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص ﴾ أي لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا، فإنهم مقهورون بقدرتنا

فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى محقراً لشأن الحياة الدنيا وزينتها، وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني بقوله تعالى: ﴿ فما أوتيتم من

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند . (٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن البصري مرسلاً .

شيء فمتاع الحياة الدنيا﴾ أي مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا بـه، فإنمـا هو متاع الحياة الدنيا، وهي دار دنيئة فانية زائلة لا محـالة، ﴿وما عند الله خير وأبقى﴾ أي وثواب الله تعالى خير من الدنيا وهو باق سرمدي، فلا تقدموا الفاني على الباقي، ولهـذا قال تعالى ﴿للذين آمنوا﴾ أي للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات وترك المحرمات. ثم قال تعالى: ﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾ وقد قدمنا الكلام على الاثم والفواحش في سورة الأعراف، ﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾ أي سجيتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس، وقد ثبت في الصحيح: «أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله». وفي حديث آخر كان يقول لأحدنا عند المعتبة: «ما له تربت يمينه»، وقوله عزّ وجلّ: ﴿والذين استجابوا لربهم﴾ أي اتبعوا رسله وأطاعوا أمره واجتنبوا زجره، ﴿وأقاموا الصلاة﴾ وهي أعظم العبادات لله عزّ وجلّ، ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ أي لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ الآية، ولهذا كان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها ليطيب بذلك قلوبهم، ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ وذلك بالإحسان إلى خلق الله الأقرب إليهم منهم فالأقرب، وقوله عزّ وجلّ: ﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ أي فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا، كما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عـام الحديبية، وكذلك عفوه ﷺ عن (غورث بن الحارث) الذي أراد الفتك بـه حين اخترط سيفه وهو نائم، وكذلك عفا ﷺ عن (لبيد بن الأعصم) الذي سحره عليه السلام، ومع هذا لم يعرض له ولا عاتبه مع قدرته عليه؛ والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً والله سبحانه وتعالى أعلم.

۞ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾

قوله تبارك وتعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ كقوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾، وكقوله ﴿وإن عـاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ الآية فشرع العدل وهو (القصاص) ونـدب إلى الفضل وهو ﴿العفو﴾ كقوله جلّ وعلا: ﴿والجروح قصاص فمن تصدق بـه فهو كفارة له﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ أي لا يضيع ذلك عند الله كما صح ذلك في الحديث: «وما زاد الله تعالى عبداً بعفو إلا عزاً» وقوله تعالى: ﴿إنه لا يحب الظالمين﴾ أي المعتدين وهو المبتدئ بالسيئة، ثم قال جلّ وعلا: ﴿ولمن انتصر بعـد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل﴾ أي ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم، روى النسائي، عن عروة قال، قالت عائشة رضي الله عنها: ما علمت حتى دخلت عليَّ زينب بغير إذن وهي غضبى، ثم قالت لرسول الله ﷺ: حسبك إذا قلبت لك ابنة أبي بكر درعها، ثم أقبلت عليَّ، فأعرضت عنها حتى قال النبي ﷺ: «دونك فانتصري»، فأقبلت عليها حتى رأيت ريقها قـد يبس في فمها ما ترد علي شيئاً فرأيت النبي ﷺ يتهلل

وجهه »[1] وروى البزار عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ: « من دعا على من ظلمه فقد انتصر »[2] . وقوله عزّ وجلّ: ﴿ إنما السبيل ﴾ أي إنما الحرج والعنت ﴿ على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ﴾ أي يبدأون الناس بالظلم، كما جاء في الحديث الصحيح: « المستبّان ما قالا، فعلى البادئ ما لم يعتد المظلوم » ﴿ أولئك لهم عذاب أليم ﴾ أي شديد موجع، ثم إن الله تعالى لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص قال نادباً إلى العفو والصفح: ﴿ ولمن صبر وغفر ﴾ أي صبر على الأذى وستر السيئة ﴿ إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ أي لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة، التي عليها ثواب جزيل وثناء جميل. وقال الفضيل بن عياض: « إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلاً فقل: يا أخي اعف عنه، فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبي العفو، ولكن انتصر كما أمرني الله عزّ وجلّ، فقل له: إن كنت تحسن أن تنتصر، وإلا فارجع إلى باب العفو، فإنه باب واسع، فإنه ﴿ من عفا وأصلح فأجره على الله ﴾، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلب الأمور »[3] . وروى الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رجلاً شتم أبا بكر رضي الله عنه والنبي ﷺ جالس، فجعل النبي ﷺ يعجب ويبتسم، فلما أكثر رد عليه بعض قوله، فغضب النبي ﷺ، وقام فلحقه أبو بكر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله إنه كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت، وقمت، قال: « إنه كان معك ملك يرد عنك فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان فلم أكن لأقعد مع الشيطان » ! ثم قال: « يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق: ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله إلا أعزه الله تعالى بها ونصره، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله عزّ وجلّ بها قلة »[4] ، وهذا الحديث في غاية الحسن في المعنى وهو مناسب للصديق رضي الله عنه .

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة، أنه من هداه فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾، ثم قال عزّ وجلّ مخبراً عن الظالمين وهم المشركون بالله ﴿ لما رأوا العذاب ﴾ أي يوم القيامة تمنوا الرجعة إلى الدنيا، ﴿ يقولون هل إلى مرد من سبيل ﴾، كما قال جلّ

---

(١) أخرجه النسائي وابن ماجة واللفظ للنسائي .

(٢) أخرجه البزار والترمذي .

(٣) رواه ابن أبي حاتم من كلام الفضيل رضي الله عنه . (٤) أخرجه أحمد وأبو داود .

وعلا: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾، وقوله عزّ وجلّ ﴿وتراهم يعرضون عليها﴾ أي على النار، ﴿خاشعين من الذل﴾ أي الذي قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله تعالى ﴿ينظرون من طرف خفي﴾ قال مجاهد: يعني ذليل، أي ينظرون إليها مسارقة خوفاً منها، والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة، ﴿وقال الذين آمنوا﴾ أي يقولون يوم القيامة ﴿إن الخاسرين﴾ أي الخسار الأكبر، ﴿الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ أي ذهب بهم إلى النار فعدموا لذتهم في دار الأبد، وفرق بينهم وبين أحبابهم وأصحابهم فخسروهم، ﴿ألا إن الظالمين في عذاب مقيم﴾ أي دائم سرمدي أبدي، لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها. وقوله تعالى: ﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله﴾ أي ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال، ﴿ومن يضلل الله فما له من سبيل﴾ أي ليس له خلاص.

ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة حذر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله﴾ أي إذا أمر بكونه، فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع، وقوله عزّ وجلّ: ﴿مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير﴾ أي ليس لكم حصن تتحصنون فيه، ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه، فتغيبون عن بصره تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه ﴿يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر﴾، وقوله تعالى: ﴿فإن أعرضوا﴾ يعني المشركين ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ أي لست عليهم بمصيطر، وقال تعالى: ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾. وقال جلّ وعلا ههنا: ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ أي إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم، ثم قال تعالى: ﴿وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها﴾ أي إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ يعني الناس ﴿سيئة﴾ أي جدب ونقمة وبلاء وشدة، ﴿فإن الإنسان كفور﴾ أي يجحد ما تقدم من النعم، ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أشر وبطر، وإن أصابته محنة يئس وقنط، فالمؤمن كما قال ﷺ: «إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

يخبر تعالى أنه خالق السماوات والأرض، ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وأنه يخلق ما يشاء ﴿يهب لمن يشاء إناثاً﴾ أي يرزقه البنات فقط ﴿ويهب

لمن يشاء الذكور ﴾ أي يرزقه البنين فقط ، ﴿ أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ﴾ أي ويعطي لمن يشاء الزوجين (الذكر والأنثى) أي من هذا وهذا، ﴿ ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ أي لا يولد له، فجعل الناس أربعة أقسام: منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكوراً وإناثاً ، ومنهم من يمنعه هذا وهذا ، فيجعله عقيماً لا نسل له ولا ولد له، ﴿ إنه عليم ﴾ أي بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام ، ﴿ قدير ﴾ أي على من يشاء من تفاوت الناس في ذلك ، فسبحان العليم القدير .

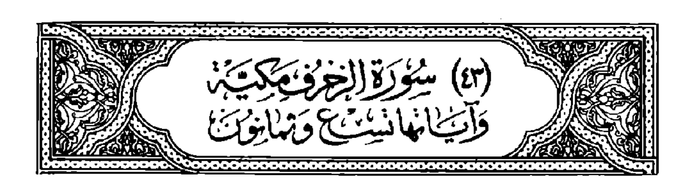
* وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الرب جل وعلا ، فتارة يقذف في روع النبي ﷺ وحياً لا يتمارى فيه أنه من الله عزّوجلّ ، كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب »، وقوله تعالى: ﴿ أو من وراء حجاب ﴾ أي كما كلّم موسى عليه الصلاة والسلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحجب عنها . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبدالله رضي الله عنهما : « ما كلّم الله أحداً إلا من وراء حجاب وإنه كلّم أباك كفاحاً » كذا جاء في الحديث ، وكان قد قتل يوم أُحُد ولكن هذا في عالم البرزخ ، والآية إنما هي في الدار الدنيا . وقوله عزّ وجلّ : ﴿ أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾ كما ينزل جبريل عليه الصلاة والسلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ﴿ إنه علي حكيم ﴾ فهو علي عليم، خبير حكيم.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ يعني القرآن، ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ﴾ أي على التفصيل الذي شرع لك في القرآن ، ﴿ ولكن جعلناه ﴾ أي القرآن ﴿ نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ الآية ، وقوله تعالى: ﴿ وإنك ﴾ أي يا محمد ﴿ لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ وهو الخلق القويم، ثم فسره بقوله تعالى: ﴿ صراط الله ﴾ أي شرعه الذي أمر به الله ، ﴿ الذي له ما في السماوات وما في الأرض ﴾ أي ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما والحاكم الذي لا معقب لحكمه، ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ أي ترجع الأمور فيفصلها ويحكم فيها، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً .

[آخر تفسير سورة الشورى ، ولله الحمد والمنة]

* * *



(٤٣) سُورَةُ الزُّخْرُفِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَثَمَانُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

يقول تعالى: ﴿ حم والكتاب المبين ﴾ أي البيِّن الواضح الجلي، المنزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات، ولهذا قال تعالى ﴿ إنا جعلناه ﴾ أي أنزلناه ﴿ قرآناً عربياً ﴾ أي بلغة العرب، فصيحاً واضحاً، ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي تفهمونه وتتدبرونه، كما قال عزّ وجل: ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ بيّن شرفه في الملأ الأعلى، ليشرّفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، فقال تعالى ﴿ وإنه ﴾ أي القرآن ﴿ في أم الكتاب ﴾ أي اللوح المحفوظ ﴿ لدينا ﴾ أي عندنا ﴿ لعلي ﴾ أي ذو مكانة عظيمة، وشرف وفضل ﴿ حكيم ﴾ أي محكم بريء من اللبس والزيغ، وهـذا كله تنبيه على شرفه وفضله، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون ﴾، وقال تعالى: ﴿ في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كرام بررة ﴾، ولهـذا استنبط العلماء من هاتين الآيتين، أن المحدث لا يمس المصحف، لأن الملائكة يعظمون المصاحف، المشتملة على القرآن في الملأ الأعلى، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى، لأنه نزل عليهم، وخطابه متوجه إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم، والانقياد له بالقبول والتسليم، لقوله تعالى: ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين ﴾ ؟ اختلف المفسرون في معناها فقيل معناها: أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم، ولم تفعلوا ما أمرتم به[1]، قاله ابن عباس واختاره ابن جرير، وقال قتادة: والله لو أن هذا القرآن رفع حين ردته أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله تعالى عـاد بعائدته ورحمته فكرره عليهم، ودعاهم إليه عشرين سنة أو ما شاء الله من ذلك، وقول قتادة لطيف المعنى جداً، وحاصله أنه يقول

(١) وهو قول مجاهد والسدي .

في معناه : انه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير ، وإلى الذكر الحكيم وهو (القرآن) وإن كانوا مسرفين معرضين عنه ، بل أمر به ليهتدي بـه من قدّر هدايته ، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته ، ثم قال جلّ وعلا مسلياً لنبيّه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ﴿ وكم أرسلنا من نبي في الأولين ﴾ أي في شيَع الأولين ﴿ وما يأتيهم من نبي إلا كانوا بـه يستهزئون ﴾ أي يكذبونه ويسخرون به ، ﴿ فأهلكنا أشد منهم بطشاً ﴾ أي فأهلكنا المكذبين بالرسل ، وقد كانوا أشد بطشاً من هؤلاء المكذبين لك يا محمد ، كقوله عزّ وجلّ : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة ﴾ ، والآيات في ذلك كثيرة جداً . وقوله جلّ جلاله ﴿ ومضى مثل الأولين ﴾ قـال مجاهد : سنتهم ، وقال قتادة : عقوبتهم ، وقال غيرهما : عبرتهم : أي جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم مـا أصابهم ، كقوله تعالى : ﴿ فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ ، وكقوله جلّت عظمته : ﴿ سنة الله التي قد خلت في عباده ﴾ ، وقوله : ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ .

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى : ولئن سألت يا محمد ، هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿ من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ أي ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده ، وهم مع هذا يعبدون معه غيره ، من الأصنام والأنداد . ثم قال تعالى : ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً ﴾ أي فراشاً قراراً ثابتة ، تسيرون عليها وتقومون وتنامون ، مع أنها مخلوقة على تيار الماء ، لكنه أرساها بالجبال لئلا تميد ، ﴿ وجعل لكم فيها سبلا ﴾ أي طرقاً بـين الجبال والأودية ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أي في سيركم من بلد إلى بلد ، وقطر إلى قطر ، ﴿ والذي نزّل من السماء مـاء بقدر ﴾ أي بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم ، وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم ، ﴿ فأنشرنا بـه بلدة ميتـا ﴾ أي أرضاً ميتة ، فلما جاءها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ثم نبّه تعالى بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها فقال : ﴿ كذلك تخرجون ﴾ . ثم قال عزّ وجلّ : ﴿ والذي خلق الأزواج كلها ﴾ أي مما تنبت الأرض من سائر الأصناف ، من نبات وزروع وثمار وغير ذلك ، ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها ، وأصنافها ، ﴿ وجعل لكم من الفلك ﴾ أي السفن ﴿ والأنعام ما تركبون ﴾ أي ذللها لكم وسخّرها ويسّرها ، لأكلكم لحومها وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها ، ولهذا قـال جلّ وعلا ﴿ لتستووا على ظهوره ﴾ أي لتستووا متمكنين مرتفقين ﴿ على ظهوره ﴾ أي على ظهور هذا الجنس ، ﴿ ثم تذكروا نعمة ربكم ﴾ أي فيما سخر لكم ﴿ إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ أي مقاومين ، ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه .

قال ابن عباس: ﴿مقرنين﴾ أي مطيقين، ﴿وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ أي لصائرون إليه بعد مماتنا، وإليه سيرنا الأكبر، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله تعالى: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ وباللباس الدنيوي على الأخروى في قوله تعالى: ﴿وريشاً ولباس التقوى ذلك خير﴾ .

(ذكر الأحاديث الواردة عند ركوب الدابة)

(**حديث علي بن أبي طالب**) : عن علي بن ربيعة قال: رأيت علياً رضي الله عنه أتي بدابة، فلما وضع رجله في الركاب قال: باسم الله. فلما استوى عليها قال: الحمد لله ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾، ثم حمد الله تعالى ثلاثاً وكبّر ثلاثاً، ثم قال: سبحانك لا إله إلا أنت قد ظلمت نفسي، فاغفر لي، ثم ضحك، فقلت له: مم ضحكت يا أمير المؤمنين؟ فقال رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت، ثم ضحك، فقلت: مم ضحكت يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «يعجب الرب تبارك وتعالى من عبده إذا قال: رب اغفر لي، ويقول: علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري»[1] .

(**حديث عبد الله بن عمر**) : روى الإمام أحمد، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: إن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثاً ثم قال: «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون»، ثم يقول: «اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هوّن علينا السفر، واطو لنا البعد، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم أصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا». وكان ﷺ إذا رجع إلى أهله قال: «آيبون تائبون إن شاء الله، عابدون لربنا حامدون»[2] .

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما افتروه وكذبوه، في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم، وبعضها لله تعالى، وكذلك جعلوا له من الأولاد أخسهما وأردأهما وهو البنات، كما قال تعالى: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذاً قسمة ضيزى﴾، وقال جلّ وعلا ههنا: ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين﴾، ثم قال جلّ وعلا: ﴿أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين﴾؟ وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار، ثم ذكر تمام الإنكار

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي والإمام أحمد.

فقال جلَّت عظمته: ﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾ أي إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات، يأنف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بُشِّرَ به، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك، يقول تبارك وتعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك، وتنسبونه إلى الله عزّ وجلّ؟ ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿ أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ﴾ أي المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلي، منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فهي عاجزة عَيِيّة، أَوَ من يكون هكذا ينسب إلى جناب الله العظيم؟ فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن في الصورة والمعنى، فيكمل نقص مظاهرها وصورتها بلبس الحلي، ليجبر ما فيها من نقص، كما قال بعض شعراء العرب:

وما الحلي إلا زينة من نقيصة ... يتمِّم من حسن إذا الحسن قَصَّرا
وأما إذا كان الجمال مُوَفَّراً ... كحسنك لم يحتج إلى أن يُزَوَّرا

وأما نقص معناها فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار، كما قال بعض العرب وقد بشر ببنت: «ما هي بنعم الولد، نصرها بكاء، وبرها سرقة». وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ أي اعتقدوا فيهم ذلك فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك فقال: ﴿ أشهدوا خلقهم ﴾؟ أي شاهدوه وقد خلقهم الله إناثاً؟ ﴿ ستكتب شهادتهم ﴾ أي بذلك ﴿ ويسألون ﴾ عن ذلك يوم القيامة، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ أي لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام، التي هي على صور الملائكة بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقرنا عليه. فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ: (أحدها): جعلهم لله تعالى ولداً، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً، (الثاني): دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، (الثالث): عبادتهم لهم مع ذلك كله بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الآراء والأهواء، والتقليد للأسلاف والكبراء، والخبط في الجاهلية الجهلاء، (الرابع): احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قدراً، وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلا كبيراً، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له وينهى عن عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾؟ وقال جلّ وعلا في هذه الآية: ﴿ ما لهم بذلك من علم ﴾ أي بصحة ما قالوه واحتجوا به ﴿ إن هم إلا يخرصون ﴾ أي يكذبون ويتقولون، وقال مجاهد: يعني ما يعلمون قدرة الله تبارك وتعالى على ذلك.

أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ * قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في عبادتهم غير الله، بلا برهان ولا دليل ولا حجة: ﴿ أم آتيناهم كتاباً من

قبله﴾ أي من قبل شركهم، ﴿فهم به مستمسكون﴾ أي ليس الأمر كذلك، كقوله عزّ وجلّ ﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون﴾ أي لم يكن ذلك، ثم قال تعالى: ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾ أي ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك، سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على ﴿أمة﴾ والمراد بها الدين ههنا، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿إن هذه أُمتكم أُمّة واحدة﴾، وقولهم ﴿وإنا على آثارهم﴾ أي وراءهم ﴿مهتدون﴾ دعوى منهم بلا دليل. ثم بين جلّ وعلا أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل تشابهت قلوبهم فقالوا مثل مقالتهم ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ وهكذا قال ههنا: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾. ثم قال عزّ وجلّ ﴿قل﴾ أي يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ أي ولو علموا وتيقنوا صحة ما جئتهم به لما انقادوا لذلك لسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله. قال الله تعالى ﴿فانتقمنا منهم﴾ أي من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب كما فصله تبارك وتعالى في قصصهم ﴿فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾ أي كيف بادوا وهلكوا، وكيف نجّى الله المؤمنين.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها، أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان فقال: ﴿إنني برآء مما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ أي هذه الكلمة وهي ﴿لا إله إلا الله﴾ أي جعلها دائمة في ذريته، يقتدي به فيها من هداه الله تعالى، من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي إليها، قال عكرمة ومجاهد ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ يعني لا إله إلا الله، لا يزال في ذريته من يقولها، وقال ابن زيد: كلمة الإسلام، وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة، ثم قال جلّ وعلا: ﴿بل متعت هؤلاء﴾ يعني المشركين ﴿وآباءهم﴾ فتطاول عليهم العمر في ضلالهم ﴿حتى جاءهم الحق ورسول مبين﴾ أي بَيِّنٌ الرسالة والنذارة. ﴿ولما جاءهم الحق قالوا هذا

سحر وإنا به كافرون﴾ أي كابروه وعاندوه كفراً وحسداً وبغياً، ﴿وقالوا﴾ أي كالمعترضين على الذي أنزله تعالى وتقدس، ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ أي هلّا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم ؟ ﴿من القريتين﴾ يعنون مكّة والطائف[1]، وقد ذكر غير واحد من السلف أنهم أرادوا بذلك (الوليد ابن المغيرة) و (عروة بن مسعود الثقفي)، وعن مجاهد: يعنون (عتبة بن ربيعة) بمكّة و (ابن عبد ياليل) بالطائف، وقال السدي: عنوا بذلك (الوليد بن المغيرة) و (كنانة بن عمرو الثقفي)، والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان، قال تعالى رداً عليهم في هذا الاعتراض: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ ؟ أي ليس الأمر مردوداً إليهم، بل إلى الله عزّ وجلّ والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً. ثم قال عزّ وجلّ مبيناً أنه قد فاوت بين خلقه، فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة فقال: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾ الآية.

وقوله جلّت عظمته: ﴿ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾ أي ليسخّر بعضهم بعضاً في الأعمال، لاحتياج هذا إلى هذا وهذا إلى هذا، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ أي رحمة الله بخلقه، خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا، ثم قال سبحانه وتعالى ﴿ولولا أن يكون الناس أُمّة واحدة﴾ أي لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة، أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال ﴿لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج﴾ أي سلالم ودرجاً من فضة ﴿عليها يظهرون﴾ أي يصعدون ﴿ولبيوتهم أبواباً﴾ أي أغلاقاً على أبوابهم ﴿وسرراً عليها يتكئون﴾ أي جميع ذلك يكون فضة ﴿وزخرفاً﴾ أي وذهباً، قاله ابن عباس والسدي، ﴿وإنْ كلُّ ذلك لمّا متاع الحياة الدنيا﴾ أي إنما ذلك من الدنيا الفانية، الزائلة الحقيرة عند الله تعالى، أي يعجل لهم بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشارب، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة يجزيهم بها. ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿والآخرة عند ربك للمتقين﴾ أي هي لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد غيرهم، ولهذا لما قال عمر بن الخطّاب لرسول الله ﷺ حين رآه على رمال حصير، قد أثر بجنبه، فابتدرت عيناه بالبكاء، وقال: يا رسول الله! هذا كسرى وقيصر فيما هم فيه، وأنت صفوة الله من خلقه؟ وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس وقال: «أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟» ثم قال ﷺ: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا»، وفي رواية: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة» وإنما خوّلهم الله تعالى في الدنيا لحقارتها، قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء أبداً»[2]

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ

(١) قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة والسدي ومحمد القرظي وابن زيد.

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجة عن سهل بن سعد، وقال الترمذي: حسن صحيح.

أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى: ﴿ومن يَعْشُ﴾ أي يتعامى ويتغافل ويعرض ﴿عن ذكر الرحمن﴾، والعشا في العين ضعف بصرها، والمراد ههنا عشا البصيرة، ﴿نقيّضْ له شيطاناً فهو له قرين﴾ كقوله تعالى: ﴿فلما أزاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ولهذا قال تبارك وتعالى ههنا: ﴿وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾، ﴿حتى إذا جاءنا﴾ أي هذا الذي تغافل عن الهدى، إذا وافى اللهَ عزّ وجلّ يوم القيامة، يتبرم بالشيطان الذي وُكِّلَ به ﴿قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾ والمراد بالمشرقين ههنا هو ما بين المشرق والمغرب، وإنما استعمل ههنا تغليباً كما يقال: القمران والعُمَران والأبوان، قاله ابن جرير وغيره، ثم قال تعالى: ﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون﴾ أي لا يغني عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم. وقوله جلت عظمته: ﴿أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين﴾؟ أي ليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ، وليس عليك هداهم، ثم قال تعالى ﴿فإمّا نذهبن بك فإنّا منهم منتقمون﴾ أي لا بد أن ننتقم منهم ونعاقبهم ولو ذهبت أنت، ﴿أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون﴾ أي نحن قادرون على هذا ولم يقبض الله تعالى رسول الله ﷺ حتى أقرّ عينه من أعدائه، وحكّمه في نواصيهم، واختاره ابن جرير، وقال قتادة: ذهب النبي ﷺ وبقيت النقمة، ولن يُرِيَ اللهُ تبارك وتعالى نبيَّه ﷺ في أُمته شيئاً يكرهه، حتى مضى ولم يكن نبي قط إلا وقد رأى العقوبة في أمته إلا نبيكم ﷺ، قال: وذكر لنا أن رسول الله ﷺ أري ما يصيب أُمته من بعده، فما رئي ضاحكاً منبسطاً حتى قبضه الله عزّ وجلّ[1]، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم﴾ أي خذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق وما يهدي إليه هو الحق، المفضي إلى صراط الله المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم.

ثم قال جلّ جلاله: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾، قيل معناه لشرف لك ولقومك، وفي الحديث: «إن هذا الأمر في قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا أكبَّه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين»[2]، ومعناه أنه شرف لهم من حيث أنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به، وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخلّص، من المهاجرين السابقين الأولين ومن شابههم وتابعهم، وقيل معناه ﴿وإنه

(١) رواه ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري عن معاوية رضي الله عنه.

لذكر لك ولقومك﴾ أي لَتذكيرٌ لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم، كقوله تعالى: ﴿لقد أنزلنا اليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾، وكقوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، ﴿وسوف تسألون﴾، أي عن هذا القرآن وكيف كنتم في العمل بـه والاستجابة له، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾؟ أي جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه، من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كما قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله ﴿موسى﴾ عليه الصلاة والسلام، أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه، من الأمراء والوزراء والقادة والأتباع من القبط وبني إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأنه بعث معه آيات عظاماً كَيَدِهِ وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمَّل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها، وضحكوا ممن جاءهم بها، ﴿وما تأتيهم من آية إلا هي أكبر من أختها﴾، ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم، وجهلهم وخبالهم، وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى عليه السلام، ويتلطفون له في العبارة بقولهم: ﴿يا أيها الساحر﴾ أي العالم[1]، وكان علماء زمانهم هم السحرة، ولم يكن السحر في زمانهم مذموماً عندهم، ففي كل مرة يَعِدُونَ موسى عليه السلام إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا بـه ويرسلوا معه بني إسرائيل، وفي كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه، وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون﴾.

وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾

---

(١) قاله ابن جرير. فليس قولهم ذلك على سبيل الانتقاص، وإنما هو تعظيم في زعمهم كما قال ابن كثير.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وتمرده وعتوه، إنه جمع قومه فنادى فيهم متبجحاً مفتخراً بملك مصر وتصرفه فيها: ﴿ أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾؟ قال قتادة: قد كانت لهم جنات وأنهار ماء ﴿ أفلا تبصرون ﴾؟ أي أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك؟ يعني وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء، وقوله: ﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ﴾ قال السدي: يقول: بل أنا خير من هذا الذي هو مهين، وهكذا قال بعض نحاة البصرة: إن (أم) ههنا بمعنى (بل) يعني فرعون لعنه الله بذلك أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام، وقد كذب في قوله هذا كذباً بيناً واضحاً، ويعني بقوله ﴿ مهين ﴾ حقير، وقال قتادة: يعني ضعيف، وقال ابن جرير: يعني لا ملك له ولا سلطان ولا مال، ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ يعني لا يكاد يفصح عن كلامه فهو عييّ حصر، قال السدي: أي لا يكاد يُفْهِم، وقال قتادة: يعني عيَيّ اللسان، وقال سفيان: يعني في لسانه شيء من الجمرة حين وضعها في فمه وهو صغير، وهذا الذي قاله فرعون لعنه الله كذب واختلاق، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد، فهو ينظر إلى موسى بعين كافرة شقية، وقد كان موسى عليه السلام من الجلالة والعظمة والبهاء، في صورة يبهر أبصار ذوي الألباب، وقوله: ﴿ مهين ﴾ كذب بل هو المهين الحقير، وموسى هو الشريف الصادق البار الراشد، وقوله: ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ افتراء أيضاً، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة، فقد سأل الله عزّ وجلّ أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله تبارك وتعالى له ذلك في قوله: ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ وبتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته كما قاله الحسن البصري، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يدري هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته فإنهم كانوا جهلة أغبياء، وهكذا قوله: ﴿ فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب ﴾ وهي ما يجعل في الأيدي من الحُليِّ ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ أي يكتنفونه خدمة له، ويشهدون بتصديقه، نظر إلى الشكل الظاهر، ولم يفهم السر المعنوي الذي هو أظهر مما نظر إليه لو كان يفهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ أي استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾.

قال الله تعالى: ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾، قال ابن عباس: ﴿ آسفونا ﴾ أسخطونا، وعنه: أغضبونا[1]، روى ابن أبي حاتم، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله تبارك وتعالى يعطي العبد ما يشاء وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك استدراج منه له» ثم تلا ﷺ: ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾[2]. وقال طارق بن شهاب: كنت عند عبدالله رضي الله عنه فذكر عنده موت الفجأة، فقال: تخفيف على المؤمن وحسرة على الكافر، ثم قرأ رضي الله عنه: ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾، وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: وجدت النقمة مع الغفلة يعني قوله تبارك وتعالى: ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ قال أبو مجلز: ﴿ سلفاً ﴾ لمثل من عمل بعملهم، ﴿ ومثلا ﴾ أي عبرة لمن بعدهم.

---

(١) وهو قول مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والسدي وغيرهم من المفسرين.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر مرفوعاً.

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن تعنت قريش في كفرهم وتعمدهم العناد والجدل: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾. قال ابن عباس أي (يضحكون) أعجبوا بذلك، وقال قتادة: يجزعون ويضحكون، وقال النخعي: يعرضون، وكان السبب في ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة حيث قال: وجلس رسول الله ﷺ فيما بلغني يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ، فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ الآيات؛ ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبدالله بن الزبعري حتى جلس فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب، وما قعد، وقد زعم محمد أنَّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبدالله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لخصمته، سلوا محمداً أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد المسيح عيسى بن مريم؛ فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبدالله بن الزبعري، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته» فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ أي عيسى وعزير ومن عبد معهما من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله عز وجل، فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام وأنه يعبد من دون الله ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾ أي يصدون عن أمرك بذلك من قوله، ثم ذكر عيسى عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل * ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون * وإنه لعلم للساعة﴾ أي ما وضع على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام فكفى به دليلاً على علم الساعة يقول: ﴿فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم﴾[1]. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «يا معشر قريش إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير» فقالوا له:

(١) ذكره ابن أبي إسحاق في السيرة، ورواه ابن جرير بنحوه.

ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً فقد كان يعبد من دون الله ؟ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾[1]. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾، قالت قريش: إنما يريد محمد أن نعبده كما عبد قوم عيسى (عيسى) عليه السلام، وقوله: ﴿ وقالوا أآلهتنا خير أم هو﴾ ؟ قال قتادة: يقولون آلهتنا خير منه، وقال قتادة : قرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿ وقالوا أآلهتنا خير أم هذا﴾ ؟ يعنون محمداً ﷺ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً﴾ أي مِراءً وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية لأنها لما لا يعقل[2] وهي قوله تعالى: ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ ثم هي خطاب لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلاً منهم ليسوا يعتقدون صحتها، وقد قال رسول الله ﷺ: « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أورثوا الجدل » ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾[3] . وروى ابن جرير، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن، فغضب غضباً شديداً حتى كأنما صب على وجهه الخل، ثم قال ﷺ : « لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا الجدل » ، ثم تلا صلى الله عليه وسلم: ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾، وقوله تعالى: ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه﴾ يعني عيسى عليه الصلاة والسلام ما هو إلا عبد من عباد الله عزّ وجلّ أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة ﴿ وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾ أي دلالة وحجة وبرهاناً على قدرتنا على ما نشاء ، وقوله عزّ وجلّ : ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم﴾ أي بدلكم ﴿ ملائكة في الأرض يخلفون﴾، وقال السدي : يخلفونكم فيها ، وقال ابن عباس وقتادة: يخلف بعضهم بعضاً كما يخلف بعضكم بعضاً، وهذا القول يستلزم الأول، وقال مجاهد: يعمرون الأرض بدلكم .

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وإنه لعلم للساعة﴾ تقدم تفسير ابن إسحاق أن المراد من ذلك ما بعث به عيسى عليه الصلاة والسلام من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من الأسقام وفيه نظر . **والصحيح** أنه عائد على عيسى عليه الصلاة والسلام، فإن السياق في ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ أي قبل موت عيسى عليه الصلاة والسلام، ﴿ ثم يوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ ويؤيد هذا المعنى القراءة الأُخرى ﴿ وإنه لَعَلَمٌ للساعة﴾ أي أمارة ودليل على وقوع الساعة، قال مجاهد: ﴿ وإنه لعلم للساعة﴾ أي آية للساعة خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة[4] ، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً، وقوله تعالى: ﴿ فلا تمترن بها﴾ أي لا تشكوا فيها إنها واقعة وكائنة لا محالة، ﴿ واتبعونِ﴾ أي فيما أخبركم به ﴿ هذا صراط مستقيم * ولا يصدنكم الشيطان﴾ أي عن اتباع الحق، ﴿ إنه لكم عدو مبين * ولما جاء عيسى بالبينات قال

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما . (٢) مراده أن « ما » في اللغة العربية لما لا يعقل، وقد قال تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون﴾ ولم يقل: ومن تعبدون . (٣) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن صحيح .

(٤) وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عباس وعكرمة والحسن وقتادة والضحّاك وغيرهم .

قد جئتكم بالحكمة﴾ أي بالنبوة، ﴿ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾ قال ابن جرير: يعني من الأمور الدينية لا الدنيوية، وهذا الذي قاله حسن جيد، وقوله عزّ وجلّ ﴿فاتقوا الله﴾ أي فيما أمركم به ﴿وأطيعونِ﴾ فيما جئتكم به، ﴿إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ أي وأنا وأنتم عبيد له فقراء إليه مشتركون في عبادته وحده لا شريك له، ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أي هذا الذي جئتكم به هو الصراط المستقيم وهو عبادة الرب جلّ وعلا وحده، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ أي اختلف الفرق وصاروا شيعاً فيه، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق، ومنهم من يدعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول إنه الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ولهذا قال تعالى: ﴿فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾.

* هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

يقول تعالى: هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل ﴿إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ أي فإنها كائنة لا محالة وواقعة، وهؤلاء غافلون عنها، فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها، فحينئذ يندمون كل الندم حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم، وقوله تعالى: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ أي كل صداقة وصحابة لغير الله، فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله عزّ وجلّ، فإنه دائم بدوامه، وهذا كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾ قال ابن عباس ومجاهد: صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين. وروى الحافظ ابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لو أن رجلين تحابا في الله أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب لجمع الله تعالى بينهما يوم القيامة، يقول هذا الذي أحببته فيّ» وقوله تبارك وتعالى: ﴿يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ ثم بشرهم فقال: ﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾ أي آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم، قال المعتمر ابن سليمان عن أبيه: إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع فينادي مناد ﴿يا عبادِي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ فيرجوها الناس كلهم، قال، فيتبعها: ﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾ قال: فييأس الناس منها غير المؤمنين ﴿ادخلوا الجنة﴾ أي يقال لهم ادخلوا الجنة ﴿أنتم وأزواجكم﴾ أي نظراؤكم ﴿تحبرون﴾ أي تتنعمون وتسعدون، وقد تقدم تفسيرها في سورة الروم. ﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب﴾ أي زبادي آنية الطعام ﴿وأكواب﴾ وهي آنية الشراب أي من ذهب لا خراطيم لها ولا عرى ﴿وفيها ما تشتهيه

الأنفس﴾ ، وقرأ بعضهم تشتهي الأنفس : ﴿وتلذ الأعين﴾ أي طيب الطعم والريح وحسن المنظر ، روى عبدالرزاق عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: « إن أدنى أهل الجنة منزلة وأسفلهم درجة لرجل لا يدخل الجنة بعده أحد، يفسح له في بصره مسيرة مائة عام، في قصور من ذهب وخيام من لؤلؤ ، ليس فيها موضع شبر إلا معمور، يغدى عليه ويراح بسبعين ألف صحفة من ذهب ليس فيها صحفة إلا فيها لون ليس في الأخرى مثله، شهوته في آخرها كشهوته في أولها ، لو نزل به جميع أهل الأرض لوسع عليهم مما أُعْطي، لا ينقص ذلك مما أوتي شيئاً »[1] .

وقوله تعالى: ﴿وأنتم فيها﴾ أي في الجنة ﴿خالدون﴾ أي لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولاً، ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان: ﴿وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ أي أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحداً عملُه الجنة ولكن برحمة الله وفضله، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات . روى ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « كل أهل النار يرى منزله من الجنة فيكون له حسرة ، فيقول: ﴿لو أن الله هداني لكنت من المتقين﴾، وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول: ﴿وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾ فيكون له شكراً » ، قال : وما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار ، الكافر يرث المؤمن منزله من النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة وذلك قوله تعالى: ﴿وتلك الجنة أورثتموها بما كنتم تعلمون﴾[2] ، وقوله تعالى: ﴿لكم فيها فاكهة كثيرة﴾ أي من جميع الأنواع ﴿منها تأكلون﴾ أي مهما اخترتم وأردتم، ولما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة ، والله تعالى أعلم .

* إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء ثنَّى بذكر الأشقياء، فقال: ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون * لا يفتر عنهم﴾ أي ساعة واحدة ﴿وهم فيه مبلسون﴾ أي آيسون من كل خير ، ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين﴾ أي بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجة عليهم ، وإرسال الرسل إليهم فكذبوا وعصوا فجوزوا بذلك جزاء وفاقاً وما ربك بظلام للعبيد، ﴿ونادوا يا مالك﴾ وهو خازن النار ، ﴿ليقض علينا ربك﴾ أي يقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾ ، وقال عزّ وجل: ﴿ثم لا يموت فيها ولا يحيا﴾، فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك ﴿قال إنكم ماكثون﴾ قال ابن عباس: مكث ألف

(١) أخرجه عبد الرزاق عن ابن عباس مرفوعاً .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً .

سنة، ثم قال ﴿إنكم ماكثون﴾ أي لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها، ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال: ﴿لقد جئناكم بالحق﴾ أي بيناه لكم ووضحناه وفسرناه، ﴿ولكنَّ أكثركم للحق كارهون﴾ أي ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه، وتصد عن الحق وتأباه، فعودوا على أنفسكم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون﴾، قال مجاهد: أرادوا كيد شر فكدناهم، وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه، فكادهم الله تعالى ورد وبال ذلك عليهم، ولهذا قال: ﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم﴾، أي سرهم وعلانيتهم ﴿بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾ أي نحن نعلم ما هم عليه، والملائكة أيضاً يكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها.

* ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أول العابدين﴾ أي لو فرض هذا لعبدته على ذلك، لأني من عبيده مطيع لجميع ما يأمرني به، ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض هذا لكان هذا، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً، كما قال عزّ وجلّ: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار﴾، وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿فأنا أول العابدين﴾ أي الآنفين، وقال ابن عباس ﴿قل إن كان للرحمن ولد﴾ يقول: لم يكن للرحمن ولد فأنا أول الشاهدين، وقال قتادة: هي كلمة من كلام العرب أي إن ذلك لم يكن فلا ينبغي، وقال أبو صخر ﴿فأنا أول العابدين﴾ أي فأنا أول من عبده بأن لا ولد له، وأول من وحده، وقال مجاهد: أي أول من عبده وحده وكذّبكم، وقال البخاري ﴿فأنا أول العابدين﴾ الآنفين وهما لغتان: رجل عابد وعبد، والأول أقرب على أنه شرط وجزاء ولكن هو ممتنع[1]، وقال السدي: معناه ولو كان له ولد كنت أول من عبده بأن له ولداً، ولكن لا ولد له، وهو اختيار ابن جرير، ولهذا قال تعالى: ﴿سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون﴾

(١) قال البيضاوي: لا يلزم منه صحة وجود الولد وعبادته له، بل المراد نفيهما على أبلغ الوجوه، وإنكاره للولد ليس لعناد ومراء. بل لو كان أولى الناس بالاعتراف به، فإن النبي يكون أعلم بالله وبما يصح له وما لا يصح. انتهى وهو قول جيد.

أي تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء ، عن أن يكون له ولد ، فإنه فرد صمد ، لا نظير له ، ولا كفء له ، فلا ولد له ، وقوله تعالى : ﴿ فذرهم يخوضوا ﴾ أي في جهلهم وضلالهم ﴿ ويلعبوا ﴾ في دنياهم ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ وهو يوم القيامة ، أي فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم ومآلهم وحالهم في ذلك اليوم .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وهو الذي في السماء إلٰه وفي الأرض إلٰه ﴾ أي هو إلٰه من في السماء، وإلٰه من في الأرض يعبده أهلهما ، وكلهم خاضعون له أذلاء بين يديه، ﴿ وهو الحكيم العليم ﴾ وهذه الآية كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾ أي هو المدعو الله في السماوات والأرض ﴿ وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما ﴾ أي هو خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما بلا مدافعة ولا ممانعة، فسبحانه وتعالى عن الولد﴿وتبارك﴾أي استقر له السلامة من العيوب والنقائص، لأنه الرب العلي العظيم المالك للأشياء، الذي بيده أزمة الأمور نقضاً وإبراماً، ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ أي لا يجليها لوقتها إلا هو ، ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي فيجازي كلّاً بعمله، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ثم قال تعالى: ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه ﴾ أي من الأصنام والأوثان﴿الشفاعة﴾ أي لا يقدرون على الشفاعة لهم ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ هذا استثناء منقطع ، أي لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنّى يؤفكون ﴾ أي ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿ من خلقهم ليقولن الله ﴾ أي هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها وحده لا شريك له في ذلك، ومع هذا يعبدون معه غيره ممن لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء ، فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فأنّى يؤفكون ﴾ ؟

وقوله جلّ وعلا: ﴿ وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ أي وقال محمد ﷺ ﴿ قيله ﴾ أي شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه فقال: يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، كما أخبر تعالى في الآية الأُخرى: ﴿ وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾، وقال مجاهد في قوله: ﴿ وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ قال: يؤثر الله عزّ وجلّ قول محمد ﷺ ، وقال قتادة: هو قول نبيكم ﷺ يشكو قومه إلى ربه عزّ وجلّ، وقوله تعالى ﴿ فاصفح عنهم ﴾، أي عن المشركين، ﴿ وقل سلام ﴾ أي لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيء، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلاً وقولاً، ﴿ فسوف يعلمون ﴾ هذا تهديد من الله تعالى لهم، ولهذا أحل بهم بأسه الذي لا يرد ، وأعلى دينه وكلمته ، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً ، وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب ، والله أعلم .

[آخر تفسير سورة الزخرف ، ولله الحمد والمنة]

* * *



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم، أنه أنزله في ليلة مباركة وهي ليلة القدر، كما قال عزَّ وجلّ: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ وكان ذلك في شهر رمضان، كما قال تبارك وتعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إنا كنا منذرين﴾ أي معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً لتقوم حجة الله على عباده، وقوله: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ أي في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق وما يكون فيها إلى آخرها، وقوله جلّ وعلا: ﴿حكيم﴾ أي محكم لا يبدل ولا يغير، ولهذا قال جلّ جلاله ﴿أمراً من عندنا﴾ أي جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوحيه فبأمره وإذنه وعلمه ﴿إنا كنا مرسلين﴾ أي إلى الناس رسولاً يتلو عليهم آيات الله مبينات، فإن الحاجة كانت ماسة إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ۝ رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ أي الذي أنزل القرآن هو رب السماوات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما، ﴿إن كنتم موقنين﴾ أي إن كنتم متحققين، ثم قال تعالى: ﴿لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت﴾ الآية.

بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡا

عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى: بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون أي قد جاءهم الحق اليقين، وهم يشكون فيه ويمترون ولا يصدقون به، ثم قال عزّ وجلّ متوعداً لهم ومهدداً: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ قال مسروق: دخلنا المسجد، يعني مسجد الكوفة، فإذا رجل يقص على أصحابه ﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ تدرون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام، قال: فأتينا ابن مسعود رضي الله عنه فذكرنا ذلك له، وكان مضطجعاً ففزع فقعد، وقال: إن الله عزّ وجلّ قال لنبيكم ﷺ: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾، إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، سأحدثكم عن ذلك: إن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله ﷺ، دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع، حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء، فلا يرون إلا الدخان، وفي رواية: فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، قال الله تعالى: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾، فَأُتي رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله، استسق الله لمضر، فإنها قد هلكت، فاستسقى ﷺ لهم، فسقوا، فنزلت: ﴿إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾، قال ابن مسعود رضي الله عنه: أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة؟ فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾ قال: يعني يوم بدر. قال ابن مسعود رضي الله عنه، فقد مضى خمسة: الدخان والروم والقمر والبطشة واللزام[1]. وقال آخرون: لم يمض الدخان بعد، بل هو من أمارات الساعة، كما تقدم من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من عرفة، ونحن نتذاكر الساعة، فقال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى بن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس - أو تحشر الناس - تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا»[2]. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لابن صياد: «إني خبأت لك خبأ»، قال: هو الدُّخ[3]، فقال ﷺ له: «إخسأ فلن تعدو قدرك» قال: وخبأ له رسول الله ﷺ: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾. وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم أنذركم ثلاثاً: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر، فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، والثانية الدابة، والثالثة الدجال»[4]

(١) الحديث مخرج في الصحيحين، ورواه أحمد والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري.

(٣) الدُخ والدَّخ: الدخان.

(٤) أخرجه ابن جرير ورواه الطبراني، وإسناده جيد.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « يهيج الدخان بالناس، فأما المؤمن فيأخذه كالزكمة، وأما الكافر فينفخه حتى يخرج من كل مسمع منه »، وقال ابن أبي حاتم، عن علي رضي الله عنه قال: لم تمض آية الدخان بعد ، يأخذ المؤمن كهيئة الزكام وتنفخ الكافر حتى ينفذ، وروى ابن جرير، عن عبدالله ابن أبي مليكة قال: غدوت على ابن عباس رضي الله عنهما ذات يوم فقال: ما نمت الليلة حتى أصبحت، قلت: لِمَ ؟ قال، قالوا: طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق فما نمت حتى أصبحت، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما حبر الأمة وترجمان القرآن، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين من الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما التي أوردوها، مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ أي بين واضح يراه كل أحد، وعلى ما فسر به ابن مسعود رضي الله عنه إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدّة الجوع والجهد، وهكذا قوله تعالى: ﴿ يغشى الناس﴾ أي يتغشاهم ويعمهم، ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه ﴿ يغشى الناس﴾، وقوله تعالى: ﴿ هذا عذاب أليم﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً كقوله عزّ وجلّ: ﴿ يوم يدعّون إلى نار جهنم دعّاً هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾، أو يقول بعضهم لبعض ذلك. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون﴾ أي يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم كقوله جلت عظمته: ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾، وكذا قوله جل وعلا: ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل﴾، وهكذا قال جلّ وعلا ههنا ﴿ أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين * ثم تولوا عنه وقالوا معلّم مجنون﴾. يقول: كيف لهم بالتذكر وقد أرسلنا إليهم رسولاً بيِّن الرسالة والنذارة، ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه، بل كذبوه وقالوا معلم مجنون، وهذا كقوله جلّت عظمته: ﴿ يوم يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾ ؟

وقوله تعالى: ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾ يحتمل معنيين: **(أحدهما)** : أنه يقول تعالى: ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب، كقوله تعالى: ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ . **(والثاني)** : أن يكون المراد: إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلاً بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم، كقوله تعالى: ﴿ إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم بل كان قد انعقد سببه عليهم، ولا يلزم أيضاً أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه، قال الله تعالى إخباراً عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه حين قالوا: ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين * قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها﴾، وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم. وقال قتادة: إنكم عائدون إلى عذاب الله. وقوله عزّ وجلّ: ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾ : فسر ذلك ابن مسعود رضي الله عنه بيوم بدر ، وروي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو محتمل، والظاهر أن

ذلك يوم القيامة وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً، روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال ابن مسعود رضي الله عنه ﴿البطشة الكبرى﴾ يوم بدر، وأنا أقول هي يوم القيامة . وهذا إسناد صحيح عن ابن عباس، والله أعلم .

* وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى: ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون وهم قبط مصر، ﴿وجاءهم رسول كريم﴾ يعني موسى الكليم عليه الصلاة والسلام ﴿أن أدوا إليّ عباد الله﴾، كقوله عزّ وجلّ: ﴿أن أرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم﴾ الآية، وقوله جلّ وعلا: ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي مأمون على ما أبلغكموه، وقوله تعالى: ﴿وأن لا تعلوا على الله﴾ أي لا تستكبروا عن اتباع آياته والانقياد لحججه والإيمان ببراهينه، كقوله عزّ وجلّ: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾، ﴿إني آتيكم بسلطان مبين﴾ أي بحجة ظاهرة واضحة وهي ما أرسله الله تعالى به من الآيات البينات والأدلة القاطعات، ﴿وإني عذت بربي وربكم أن ترجمونِ﴾ قال ابن عباس: هو الرجم باللسان وهو الشتم، وقال قتادة: الرجم بالحجارة أي أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم من أن تصلوا إلي بسوء من قولٍ أو فعل، ﴿وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلونِ﴾ أي فلا تتعرضوا لي ودعوا الأمر مسالمة إلى أن يقضي الله بيننا، فلما طال مقامه ﷺ بين أظهرهم، وأقام حجج الله تعالى عليهم، كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفراً وعناداً، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما﴾، وهكذا قال ههنا ﴿فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون﴾ فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج ببني إسرائيل من بين أظهرهم، من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه، ولهذا قال جلّ جلاله: ﴿فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون﴾، كما قال تعالى: ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون﴾، وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر أراد موسى أن

يضربه بعصاه حتى يعود كما كان ليصير حائلاً بينهم وبين فرعون، فلا يصل إليهم، فأمره الله تعالى أن يتركه على حاله ساكناً، وبشره بأنهم جند مغرقون فيه، وأنه لا يخاف دركاً ولا يخشى، قال ابن عباس: ﴿ واترك البحر رهواً ﴾ كهيئته وامضه، وقال مجاهد ﴿ رهواً ﴾ طريقاً يبساً كهيئته، يقول لا تأمره يرجع اتركه حتى يرجع آخرهم، ثم قال تعالى: ﴿ كم تركوا من جنات ﴾ وهي البساتين ﴿ وعيون وزروع ﴾ والمراد بها الأنهار والآبار ﴿ ومقام كريم ﴾ وهي المساكن الحسنة، ﴿ ونعمة كانوا فيها فاكهين ﴾ أي عيشة كانوا يتفكهون فيها، فيأكلون ما شاءوا ويلبسون ما أحبوا، مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد، فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا، وصاروا إلى جهنم وبئس المصير واستولى على البلاد المصرية والممالك القبطية بنو إسرائيل، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾، وقال عزّ وجلّ ههنا: ﴿ كذلك وأورثناها قوماً آخرين ﴾ وهم بنو إسرائيل كما تقدم.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ أي لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها فقدتهم، فلهذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم وعتوهم وعنادهم، روى الحافظ الموصلي، عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما من عبد إلا وله في السماء بابان: باب يخرج منه رزقه، وباب يدخل منه عمله وكلامه، فإذا مات فقداه وبكيا عليه»، وتلا هذه الآية: ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾[1] وذكر أنهم لم يكونوا عملوا على الأرض عملاً صالحاً يبكي عليهم، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم، ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكي عليهم، وروى ابن أبي حاتم، عن عباد بن عبدالله قال: سأل رجل علياً رضي الله عنه هل تبكي السماء والأرض على أحد؟ فقال له: لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك، إنه ليس من عبد إلا له مصلى في الأرض ومصعد عمله من السماء، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض ولا عمل يصعد في السماء، ثم قرأ علي رضي الله عنه: ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾. وقال ابن جرير، عن سعيد ابن جبير قال: أتى ابنَ عباس رضي الله عنهما رجلٌ فقال: يا أبا العباس، أرأيت قول الله تعالى: ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ فهل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال رضي الله عنه: نعم، إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه ففقده بكى عليه، وإذا فقده مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها ويذكر الله عزّ وجلّ فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم تكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى الله عزّ وجلّ منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض[2]. وقال سفيان الثوري: تبكي الأرض على المؤمن أربعين صباحاً، وقال مجاهد: ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً، فقلت له: أتبكي الأرض؟ فقال: أتعجب؟ وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوي كدوي النحل، وقال قتادة: كانوا أهون على الله عزّ وجلّ من أن تبكي عليهم السماء والأرض.

---

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده، ورواه ابن أبي حاتم أيضاً بنحوه.

(٢) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس موقوفاً.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين * من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين﴾ يمتن عليهم تعالى بذلك حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة، وقوله تعالى: ﴿من فرعون إنه كان عالياً﴾ أي مستكبراً جباراً عنيداً كقوله عزّ وجلّ: ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾، وقوله جلّت عظمته: ﴿فاستكبروا وكانوا قوماً عالين﴾، ﴿من المسرفين﴾ أي مسرف في أمره سخيف الرأي على نفسه، وقوله جلّ جلاله: ﴿ولقد اخترناهم على علم على العالمين﴾ قال مجاهد: على من هم بين ظهريه، وقال قتادة: اختيروا على أهل زمانهم ذلك، وكان يقال: إن لكل زمان عالماً، وهذا كقوله عزّ وجلّ لمريم عليها السلام ﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾ أي في زمنها، فإن خديجة رضي الله عنها أفضل منها، أو مساوية لها في الفضل، وكذا آسية امرأة فرعون، وفضل عائشة رضي الله عنها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، وقوله جلّ جلاله: ﴿وآتيناهم من الآيات﴾ الحجج والبراهين وخوارق العادات ﴿ما فيه بلاء مبين﴾ أي اختيار ظاهر جلي لمن اهتدى به.

* إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد، وأنه ما ثَمَّ إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعد الممات ولا بعث ولا نشور، ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا، فإن كان البعث حقاً ﴿فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة، لا في الدار الدنيا، بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها يعيد الله العالمين خلقاً جديداً، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً، ثم قال تعالى متهدداً لهم ومتوعداً ومنذراً لهم بأسه الذي لا يرد، كما حل بأشباههم ونظرائهم من المشركين المنكرين للبعث، كقوم تُبَّع وهم (سبأ) حيث أهلكهم الله عزّ وجلّ وخرب بلادهم، وشردهم في البلاد وفرقهم شذر مذر، كما تقدم ذلك في سورة سبأ.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين﴾ كقوله جلّ وعلا: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾. وقال تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾؟ ثم قال تعالى: ﴿إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين﴾ وهو يوم القيامة يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق، فيعذب الكافرين ويثيب المؤمنين، وقوله عزّ وجلّ ﴿ميقاتهم أجمعين﴾ أي يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم ﴿يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً﴾ أي لا ينفع قريب قريباً كقوله سبحانه وتعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾، وكقوله جلّت عظمته: ﴿ولا يسأل حميم حميماً * يبصرونهم﴾. أي لا يسأل أخ أخاً له عن حاله وهو يراه عياناً. وقوله جلّ وعلا:

﴿ ولا هم ينصرون ﴾، أي لا ينصر القريب قريبه ولا يأتيه نصر من خارج، ثم قال: ﴿ إلا من رحم الله ﴾ أي لا ينفع يومئذ إلا رحمة الله عزّ وجلّ بخلقه ﴿ إنه هو العزيز الرحيم ﴾ أي عزيز ذو رحمة واسعة.

* إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى مخبراً عما يعذب به الكافرين الجاحدين للقائه ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ و ﴿ الأثيم ﴾ أي في قوله وفعله، وهو الكافر، وذكر غير واحد أنه (أبو جهل)، ولا شك في دخوله في هذه الآية، ولكن ليست خاصة به، قال همام بن الحارث: إن أبا الدرداء كان يقرئ رجلاً: ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ فقال: طعام اليتيم، فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: قل: إن شجرة الزقوم طعام الفاجر، أي ليس له طعام من غيرها[1]، قال مجاهد: ولو وقعت قطرة منها في الأرض لأفسدت على أهل الأرض معايشهم[2]، وقوله ﴿ كالمهل ﴾ كعكر الزيت ﴿ يغلي في البطون كغلي الحميم ﴾ أي من حرارتها ورداءتها، وقوله تعالى ﴿خذوه﴾ أي الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية ﴿ خذوه ﴾ ابتدره سبعون ألفاً منهم، وقوله ﴿ فاعتلوه ﴾ أي سوقوه سحباً ودفعاً في ظهره، قال مجاهد ﴿ خذوه فاعتلوه ﴾ أي خذوه فادفعوه، ﴿ إلى سواء الجحيم ﴾ أي وسطها ﴿ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ﴾ كقوله عزّ وجلّ: ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم * يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴾. وقد تقدم أن الملك يضربه بمقمعة من حديد فتفتح دماغه، ثم يصب الحميم على رأسه فينزل في بدنه، فيسلت ما في بطنه من أمعائه حتى تمرق من كعبيه، أعاذنا الله تعالى من ذلك، وقوله تعالى: ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ أي قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ، وقال الضحاك عن ابن عباس: أي لست بعزيز ولا كريم، وقد قال الأموي في مغازيه، حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا أبو بكر الهذلي عن عكرمة قال: لقي رسول الله ﷺ أبا جهل، لعنه الله فقال: « إن الله تعالى أمرني أن أقول لك: « أولى لك فأولى، ثم أولى لك فأولى »، قال، فنزع ثوبه من يده وقال: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء، ولقد علمت أني أمنع أهل البطحاء، وأنا العزيز الكريم. قال: فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله، وعيَّره بكلمته، وأنزل: ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾. وقوله عزّ وجلّ: ﴿ إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾ كقوله تعالى: ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ﴾ ؟

* إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ

(١) أخرجه ابن جرير.

(٢) تقدم نحو هذا مرفوعاً.

إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء، ولهذا سمي القرآن مثاني، فقال: ﴿إن المتقين﴾ أي لله في الدنيا ﴿في مقام أمين﴾ أي في الآخرة، وهو الجنة وقد أمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيده وسائر الآفات والمصائب ﴿في جنات وعيون﴾ وهذا في مقابلة ما أولئك فيه من شجرة الزقوم وشرب الحميم، وقوله تعالى: ﴿يلبسون من سندس﴾ وهو رفيع الحرير، كالقمصان ونحوها، ﴿وإستبرق﴾ وهو ما فيه بريق ولمعان، وذلك كالريش وما يلبس على أعالي القماش ﴿متقابلين﴾ أي على السرر لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره، وقوله تعالى: ﴿كذلك وزوجناهم بحور عين﴾ أي هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحسان الحور العين اللاتي ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾ ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ روى ابن أبي حاتم، عن أنَس رضي الله عنه رفعه قال: لو أن حوراء بزقت في بحر لجي لعذب ذلك الماء لعذوبة ريقها. وقوله عزّ وجلّ: ﴿يدعون فيها بكل فاكهة آمنين﴾ أي مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه بل يحضر إليهم كلما أرادوا، وقوله: ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾، هذا استثناء يؤكد النفي، ومعناه أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»[1]. وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «يقال لأهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً»[2].

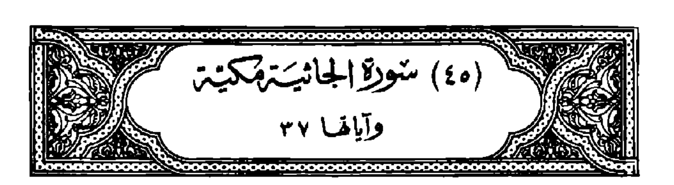
وقوله تعالى: ﴿ووقاهم عذاب الجحيم﴾ أي مع هذا النعيم العظيم المقيم، قد وقاهم ونجاهم وزحزحهم عن العذاب الأليم، في دركات الجحيم، ولهذا قال عزّ وجل: ﴿فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم﴾ أي إنما كان هذا بفضله عليهم، وإحسانه إليهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسددوا وقاربوا واعلموا أن أحداً لن يدخله عمله الجنة»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال ﷺ: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون﴾ أي إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها، ﴿لعلهم يتذكرون﴾ أي يتفهمون ويعملون، ثم لما كان مع هذا الوضوح والبيان، من الناس من كفر وخالف وعاند، قال الله تعالى لرسوله ﷺ مسلياً له وواعداً له بالنصر، ومتوعداً لمن كذبه بالعطف والهلاك ﴿فارتقب﴾ أي انتظر ﴿إنهم مرتقبون﴾ أي فسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر، وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد ولإخوانك

(١) أخرجاه في الصحيحين، وقد تقدم في سورة مريم.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

من النبيين والمرسلين ، ومن اتبعكم من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ۝ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ .

[آخر تفسير سورة الدخان ، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة]





(٤٥) سورة الجاثية مكية
وآياتها ٣٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

يرشد تعالى خلقه إلى التفكير في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السماوات والأرض، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة والجن والإنس والدواب، والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه، وهذا بضيائه، وما أنزل الله تبارك وتعالى من السحاب، من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماه رزقاً لأن به يحصل الرزق ﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ أي بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وتصريف الرياح﴾ أي جنوباً وشمالاً برية وبحرية، ليلية ونهارية، ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقاح، ومنها ما هو غذاء للأرواح، ومنها ما هو عقيم لا ينتج، وقال سبحانه أولاً ﴿لآيات للمؤمنين﴾ ثم ﴿يوقنون﴾ ثم ﴿يعقلون﴾ وهو ترق من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى، وهذه الآيات شبيهة بآية البقرة وهي قوله تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ .

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا

شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

يقول تعالى ﴿ تلك آيات الله ﴾ يعني القرآن بما فيه من الحجج والبينات ﴿ نتلوها عليك بالحق ﴾ أي متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها ﴿ فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ ؟ ثم قال تعالى ﴿ ويل لكل أفاك أثيم ﴾ أفاك في قوله أي كذاب ﴿ أثيم ﴾ في فعله وقلبه كافر بآيات الله، ولهذا قال ﴿ يسمع آيات الله تتلى عليه ﴾ أي تقرأ عليه ﴿ ثم يصرّ ﴾ أي على كفره وجحوده، استكباراً وعناداً ﴿ كأن لم يسمعها ﴾ كأنه ما سمعها ﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾ أي فأخبره أن له عند الله تعالى يوم القيامة عذاباً أليماً موجعاً، ﴿ وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً ﴾ أي إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به، واتخذه سخرياً وهزواً ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ أي في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به، ولهذا « نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدوّ مخافة أن يناله العدو »[1] ، ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ أي كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة ﴿ ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ﴾ أي لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، ﴿ ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ﴾ أي ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئاً ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿ هذا هدى ﴾ يعني القرآن ﴿ والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم ﴾ وهو المؤلم الموجع، والله سبحانه وتعالى أعلم .

* ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخر لهم من البحر ﴿ لتجري الفلك ﴾ وهي السفن فيه بأمره تعالى فإنه هو الذي أمر البحر بحملها ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ أي في المتاجر والمكاسب، ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي على حصول المنافع المجلوبة إليكم، من الأقاليم النائية والآفاق القاصية، ثم قال عزّ وجلّ ﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض ﴾ أي من الكواكب والجبال والبحار والأنهار، الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه، ولهذا قال ﴿ جميعاً منه ﴾ أي من عنده وحده لا شريك له، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾ ، أي ليصفحوا عنهم، ويتحملوا الأذى منهم، وكان هذا في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك

(١) رواه مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما .

كالتأليف لهم، ثم لما أصروا على العناد، شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد[1]، وقوله تعالى: ﴿ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون﴾ أي إذا صفحوا عنهم في الدنيا، فإن الله عزّ وجلّ مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون﴾ أي تعودون إليه يوم القيامة، فتعرضون بأعمالكم عليه فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل، من إنزال الكتب عليهم، وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات﴾ أي من المآكل والمشارب، ﴿وفضلناهم على العالمين﴾ أي في زمانهم ﴿وآتيناهم بينات من الأمر﴾ أي حججاً وبراهين وأدلة قاطعات، ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغياً منهم ﴿إن ربك﴾ يا محمد ﴿يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي سيفصل بينهم بحكمه العدل، وهذا فيه تحذير لهذه الأمة، أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم، ولهذا قال جلّ وعلا: ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها﴾ أي اتبع ما أوحي إليك من ربك وأعرض عن المشركين، وقال جل جلاله ههنا: ﴿ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون * إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض﴾ أي وماذا تغني عنهم ولايتهم لبعضهم بعضاً؟ فإنهم لا يزيدونهم إلا خساراً ودماراً وهلاكاً، ﴿والله ولي المتقين﴾ وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿هذا بصائر للناس﴾ يعني القرآن ﴿وهدى ورحمة لقوم يوقنون﴾.

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

(١) هكذا روي عن ابن عباس وقتادة. وقال مجاهد: ﴿لا يرجون أيام الله﴾ أي لا ينالون نعم الله تعالى، يريد لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ولا بلقاء الله.

يقول تعالى: لا يستوي المؤمنون والكافرون كما قال في آية أُخْرى: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات﴾ أي عملوها وكسبوها ﴿أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم﴾؟ أي نساويهم بهم في الدنيا والآخرة ﴿ساء ما يحكمون﴾ أي ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نساوي بين الأبرار والفجار، فكما لا يجتنى من الشوك العنب، كذلك لا ينال الفجار منازل الأبرار، ذكر محمد بن إسحاق انهم وجدوا حجراً بمكة من أس الكعبة، مكتوب عليه «تعملون السيئات وترجون الحسنات، أجل كما يجنى من الشوك العنب». وعن مسروق أن تميماً الداري قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾[1] ولهذا قال تعالى: ﴿ساء ما يحكمون﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿وخلق الله السماوات والأرض بالحق﴾ أي بالعدل، ﴿ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾، ثم قال جلّ وعلا: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ أي إنما يأتمر بهواه، فهما رآه حسناً فعله، ومهما رآه قبيحاً تركه، لا يهوى شيئاً إلا عبده، وقوله: ﴿وأضله الله على علم﴾ يحتمل قولين: (**أحدهما**): وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك، (**والآخر**): وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه، والثاني يستلزم الأول ولا ينعكس، ﴿وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾ أي فلا يسمع ما ينفعه ولا يعي شيئاً يهتدي به، ولا يرى حجة يستضيء بها، ولهذا قال تعالى: ﴿فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾؟ كقوله تعالى: ﴿من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾.

﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا﴾ أي ما ثَمَّ إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون المعاد، وتقوله الفلاسفة الدهرية المنكرون للصانع، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا العقول وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾ قال الله تعالى: ﴿وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾ أي يتوهمون ويتخيلون، فأما الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «يقول تعالى يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب ليله ونهاره»، وفي رواية: «لا تسبوا الدهر فإن الله تعالى هو الدهر»[2] فقد قال الشافعي وأبو عبيدة في تفسير الحديث: كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة، قالوا: يا خيبة الدهر، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر، ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى، فكأنهم إنما سبوا الله

---

(١) أخرجه الطبراني عن أبي الضحى عن مسروق.

(٢) أخرجاه في الصحيحين، ورواه أبو داود والنسائي.

عزّ وجلّ، لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال، هذا أحسن ما قيل في تفسيره وهو المراد، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات﴾ أي إذا بيّن لهم الحق، وأن الله تعالى قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها ﴿ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾، أي أحيوهم إن كان ما تقولونه حقاً، قال الله تعالى: ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم﴾ أي كما تشاهدون ذلك يخرجكم من العدم إلى الوجود، ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾؟ أي الذي قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى، ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، ﴿ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ أي لا شك فيه ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي فلهذا ينكرون المعاد ويستبعدون قيام الأجساد، قال الله تعالى: ﴿إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾ أي يرون وقوعه بعيداً، والمؤمنون يرون ذلك سهلاً قريباً.

۞ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض، والحاكم فيهما في الدنيا والآخرة، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿ويوم تقوم الساعة﴾ أي يوم القيامة ﴿يخسر المبطلون﴾ وهم الكافرون بالله والجاحدون بما أنزله على رسله، من الآيات البينات والدلائل الواضحات، ثم قال تعالى: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ أي على ركبها من الشدة والعظمة، ويقال: إن هذا إذا جيء بجهنم، فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، حتى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ويقول نفسي نفسي نفسي، لا أسألك اليوم إلا نفسي، وحتى إن عيسى عليه الصلاة والسلام ليقول: لا أسألك اليوم إلا نفسي، لا أسألك مريم التي ولدتني، قال مجاهد: ﴿كل أمة جاثية﴾ أي على الركب، وقال عكرمة: ﴿جاثية﴾ متميزة على ناحيتها، وليس على الركب، والأول أولى لما روي عن عبدالله بن باباه أن رسول الله ﷺ قال: «كأني أراكم جاثين بالكوم دون جهنم»[1]، وقال محمد بن كعب عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً في حديث الصور: فيتميز الناس، وتجثو الأمم، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ وهذا فيه جمع بين القولين، ولا منافاة والله أعلم، وقوله عزّ وجلّ: ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ يعني كتاب أعمالها كقوله جلّ جلاله: ﴿ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء﴾، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾ أي تجازون بأعمالكم خيرها وشرها، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾، ولهذا قال جلّت عظمته: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ أي يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص، كقوله جلّ جلاله: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إنا كنا نستنسخ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

ما كنتم تعملون﴾ أي إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم، قال ابن عباس وغيره: تكتب الملائكة أعمال العباد، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابل الملائكة الذين في ديوان الأعمال على ما بأيدي الكتبة، مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر مما كتبه الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم، فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً، ثم قرأ: ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾.

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

يخبر تعالى عن حكمه في خلقه يوم القيامة فقال تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة، وهي الخالصة الموافقة للشرع ﴿فيدخلهم ربهم في رحمته﴾ وهي الجنة، كما ثبت في الصحيح أن الله تعالى قال للجنة أنت رحمتي أرحم بك من أشاء[1] ﴿ذلك هو الفوز المبين﴾ أي البين الواضح، ثم قال تعالى ﴿وأمّا الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم﴾؟ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، أما قرئت عليكم آيات الله تعالى، فاستكبرتم عن اتباعها وأعرضتم عن سماعها، وكنتم قوماً مجرمين في أفعالكم، مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب؟ ﴿وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها﴾ أي إذا قال لكم المؤمنون ذلك ﴿قلتم ما ندري ما الساعة﴾ أي لا نعرفها ﴿إن نظن إلا ظناً﴾ أي إن نتوهم وقوعها إلا توهماً أي مرجوحاً، ولهذا قال: ﴿وما نحن بمستيقنين﴾ أي بمتحققين، قال الله تعالى: ﴿وبدا لهم سيئات ما عملوا﴾ أي وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة ﴿وحاق بهم﴾ **أي أحاط بهم** ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾ **أي من العذاب** والنكال، ﴿وقيل اليوم ننساكم﴾ أي نعاملكم معاملة الناسي لكم في نار جهنم، ﴿كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ أي فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به ﴿ومأواكم النار ومالكم من ناصرين﴾، وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟

(١) هذا جزء من حديث أخرجه الشيخان وأوله: «تحاجّت الجنة والنار فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين، وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا سقط الناس وضعفاؤهم؟ فأوحى الله للجنة أنت رحمتي» ... الخ.

فيقول: بلى يا رب، فيقول: أفظننت أنك ملاقيّ؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: «فاليوم أنساك كما نسيتني»، قال الله تعالى: ﴿ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً﴾ أي إنما جازيناكم هذا الجزاء، لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخرياً تسخرون وتستهزئون بها، ﴿وغرتكم الحياة الدنيا﴾ أي خدعتكم فاطمأننتم إليها فأصبحتم من الخاسرين، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿فاليوم لا يخرجون منها﴾ أي من النار، ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي لا يطلب منهم العتبى، بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب. ثم لما ذكر تعالى حكمه في المؤمنين والكافرين قال ﴿فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض﴾ أي المالك لهما وما فيهما، ولهذا قال: ﴿رب العالمين﴾، ثم قال جلّ وعلا: ﴿وله الكبرياء في السماوات والأرض﴾، قال مجاهد: يعني السلطان، أي هو العظيم الممجد الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه، وقد ورد في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما أسكنته ناري»[1]، وقوله تعالى: ﴿وهو العزيز﴾ أي الذي لا يغالب ولا يمانع، ﴿الحكيم﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، تعالى وتقدس لا إله إلا هو.

[آخر تفسير سورة الجاثية، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة]

* * *

(١) وفي رواية: فمن نازعني فيهما قصمته ولا أبالي. والحديث في صحيح مسلم.



بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾

يخبر تعالى أنه أنزل الكتاب على عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال، ثم قال تعالى: ﴿ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ أي لا على وجه العبث والباطل، ﴿وأجل مسمى﴾ أي وإلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص. وقوله تعالى ﴿والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾ أي لاهون عما يراد بهم، وقد أنزل الله تعالى إليهم كتاباً، وأرسل إليهم رسولاً، وهم معرضون عن ذلك كله، أي وسيعلمون غب ذلك، ثم قال تعالى ﴿قل﴾ أي لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره ﴿أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾ أي أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض ﴿أم لهم شرك في السماوات﴾؟ أي ولا شرك لهم في السماوات ولا في الأرض وما يملكون من قطمير، إن الملك والتصرف كله إلا لله عز وجل، فكيف تعبدون معه غيره وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال ﴿ائتوني بكتاب من قبل هذا﴾ أي هاتوا كتاباً من كتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة هذه الأصنام ﴿أو أثارة من علم﴾ أي دليل بيّن على هذا المسلك الذي سلكتموه ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي لا دليل لكم لا نقلياً ولا عقلياً على ذلك، قال مجاهد ﴿أو أثارة من علم﴾ أو أحد يأثر علماً، وقال ابن عباس: أو بينة من الأمر،

وقال أبو بكر بن عياش: أو بقية من علم، وقال ابن عباس ومجاهد ﴿ أو أثارة من علم﴾ يعني الخط، وقال قتادة ﴿ أو اثارة من علم﴾ خاصة من علم، وكل هذه الأقوال متقاربة، وهي راجعة إلى ما قلناه، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾ ؟ أي لا أضل ممن يدعو من دون الله أصناماً، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامه، وهي غافلة عما يقول لا تسمع ولا تبصر، لأنها جماد وحجارة صم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ كقوله عزّ وجلّ: ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾ أي سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم، وقال تعالى: ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ومالكم من ناصرين﴾ .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾

يقول عزّ وجلّ مخبراً عن المشركين في كفرهم وعنادهم، إنهم إذا تتلى عليهم آيات الله ﴿ بينات﴾ أي في حال بيانها ووضوحها وجلائها، يقولون: ﴿ هذا سحر مبين﴾ أي سحر واضح وقد كذبوا وافتروا وضلوا وكفروا، ﴿ أم يقولون افتراه﴾ يعنون محمداً ﷺ، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً﴾ أي لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني، وليس كذلك لعاقبني أشد العقوبة، ولم يقدر أحد من أهل الأرض لا أنتم ولا غيركم أن يجيرني منه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿ قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً﴾، وقال تعالى: ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين﴾ ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا: ﴿ قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم﴾ هذا تهديد لهم ووعيد أكيد، وترهيب شديد، وقوله جل وعلا: ﴿ وهو الغفور الرحيم﴾ ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة، أي ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم تاب الله عليكم، وعفا عنكم وغفر ورحم، وهذه الآية كقوله عزّ وجلّ: ﴿ قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾ أي لست بأول رسول طرق العالم، بل قد جاءت الرسل من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني وتستبعدون بعثتي إليكم، فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم، قال ابن عباس ومجاهد ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾ ما أنا بأول رسول بُعث إلى الناس.

وقوله تعالى: ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ قال ابن عباس: نزل بعدها ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من

ذنبك وما تأخر﴾[1] وقال الضحاك: ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ أي ما أدري بماذا أومر وبماذا أنهى بعد هذا؟ وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ أما في الآخرة فمعاذ الله وقد علم أنه في الجنة، ولكن قال: لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، أخرج كما أخرجت الأنبياء؟ أم أُقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي؟ ولا أدري أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة؟ ولا شك أن هذا هو اللائق به ﷺ، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش، إلى ماذا أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون، فيستأصلون بكفرهم؟ فأما الحديث الذي رواه ابن شهاب عن خارجة بن زيد ابن ثابت عن أم العلاء – وكانت بايعت رسول الله ﷺ – قالت: طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين (عثمان بن مظعون) رضي الله عنه، فاشتكى عثمان فمرّضناه حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه، فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب شهادتي عليك، لقد أكرمك الله عزّ وجلّ، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله تعالى أكرمه؟» فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي، فقال رسول الله ﷺ: «أمّا هو فقد جاءه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي، قالت، فقلت:

والله لا أزكي أحداً بعده أبداً، وأحزنني ذلك، فنمت فرأيت لعثمان رضي الله عنه عيناً تجري، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك عمله»[2] وفي لفظ: «ما أدري وأنا رسول الله ﷺ ما يفعل به» – وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ، بدليل قولها: فأحزنني ذلك – في هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعيّن بالجنة، إلا الذي نص الشارع على تعيينهم كالعشرة المبشرين بالجنة، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة وما أشبههم وقوله: ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾ أي إنما أتبع ما ينزله الله عليّ من الوحي، ﴿وما أنا إلا نذير مبين﴾ أي بيّن النذارة أمري ظاهر، لكل ذي لب وعقل، والله أعلم.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن ﴿أرأيتم إن كان﴾ هذا القرآن ﴿من عند

---

(١) هكذا قال عكرمة والحسن وقتادة: إنها منسوخة بقوله تعالى ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾، ولما نزلت هذه الآية قالوا: هنيئاً لك يا رسول الله فما لنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾.

(٢) انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم.

الله وكفرتم بـه﴾ ؟ أي مـا ظنكم أن الله صانع بكم، إن كان هذا الكتاب الذي جئتكم بـه قد أنزلـه عليّ لأبلغكموه ، وقد كفرتم بـه وكذبتموه ؟ ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾ أي وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبلي، بشرت بـه وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به ، وقوله عزّ وجل: ﴿فآمن﴾ أي هذا الذي شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفته بحقيقته ، ﴿واستكبرتم﴾ أنتم عن اتباعه ، وقال مسروق : فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم، ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ وهذا يعم (عبدالله بن سلام) وغيره، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين﴾ وقال: ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً﴾ الآية، وروى مالك، عن عامر بن سعد عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبدالله بن سلام رضي الله عنه، قال: وفيه نزلت ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾[1] ، وكذا قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة: إنه عبدالله بن سلام، وقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ أي قالوا عن المؤمنين بالقرآن لو كان القرآن خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه ، يعنون (بلالاً) و (عمّاراً) و (صهيباً) و (خباباً) رضي الله عنهم وأشباههم من المستضعفين والعبيد والإماء، غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً وأخطأوا خطأً بيّناً كما قال تبارك وتعالى: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا﴾ أي يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا ولهذا قالوا: ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾، وأما أهل السنّة والجماعة فيقولون في كـل فعل وقول لم يثبت عن الصحـابة رضي الله عنهم : هو بدعة، لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقـد بادروا إليها، وقوله تعالى: ﴿وإذ لم يهتدوا به﴾ أي بالقرآن ﴿فسيقولون هذا إفك قديم﴾ أي كذب قديم مأثور عن الناس الأقدمين، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله ﷺ: «بطر الحق وغمط الناس»[2]. ثم قال تعالى: ﴿ومن قبـله كتاب موسى﴾ وهو التوراة ﴿إماماً ورحمة وهذا كتاب﴾ يعني القرآن ﴿مصدق﴾ أي لما قبله من الكتب ﴿لساناً عربياً﴾ أي فصيحاً بيناً واضحاً ﴿لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين﴾ أي مشتمل على النذارة للكافرين، والبشارة للمؤمنين، وقوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ تقدم تفسيرها في سورة حم السجدة، وقوله تعالى: ﴿فلا خوف عليهم﴾ أي فيما يستقبلون ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما خلفوا ﴿أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون﴾ أي الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسبوغها عليهم، والله أعلم .

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

(١) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي . (٢) (بطر الحق) أي دفعه وعدم قبوله. و (غمط الناس) أي احتقارهم وازدراءهم .

لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن كقوله عزّ وجلّ: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾، وقوله جلّ جلاله: ﴿أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، وقال عزّ وجلّ ههنا: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً﴾ أي أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما، روى أبو داود الطيالسي، عن سعد رضي الله عنه قال، قالت أم سعد لسعد: أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين؟ فلا آكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتى تكفر بالله تعالى، فامتنعتْ من الطعام والشراب، حتى جعلوا يفتحون فاها بالعصا، ونزلت هذه الآية: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً﴾ الآية[1]، ﴿حملته أُمّه كرهاً﴾ أي قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعباً، من وَحَم وغشيان وثقل وكرب إلى غير ذلك، مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿ووضعته كرهاً﴾ أي بمشقة أيضاً من الطلق وشدته، ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ وقد استدل بهذه الآية مع التي في لقمان ﴿وفصاله في عامين﴾، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوي صحيح، روى محمد بن إسحاق، عن معمر ابن عبدالله الجهني قال: تزوج رجل منا امرأة من جهينة، فولدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان رضي الله عنه، فذكر ذلك له، فبعث إليها فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها، فقالت: ما يبكيك، فوالله ما التبس بي أحد من خلق الله تعالى غيره قط، فيقضي الله سبحانه وتعالى فيَّ ما شاء، فلما أتى بها عثمان رضي الله عنه أمر برجمها، فبلغ ذلك علياً رضي الله عنه، فأتاه فقال له: ما تصنع؟ قال: ولدت تماماً لستة أشهر وهل يكون ذلك؟ فقال له علي رضي الله عنه: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قال: أما سمعت الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ وقال: ﴿حولين كاملين﴾ فلم نجده بقي إلّا ستة أشهر، قال، فقال عثمان رضي الله عنه: والله ما فطنت بهذا، عليَّ بالمرأة، فوجدوها قد فرغ منها، قال، فقال معمر: فوالله ما الغراب بالغراب، ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه، فلما رآه أبوه قال: ابني والله لا أشك فيه، قال، وابتلاه الله تعالى بهذه القرحة بوجهه الآكلة، فما زالت تأكله حتى مات[2]، وقال ابن عباس: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين، لأن الله تعالى يقول: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ ﴿حتى إذا بلغ أشده﴾ أي قوي وشب وارتجل، ﴿وبلغ أربعين سنة﴾ أي تناهى عقله، وكمل فهمه وحلمه، ويقال إنه لا يتغير غالباً عما يكون عليه ابن الأربعين، وروى الحافظ الموصلي، عن عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة خفف الله تعالى حسابه، وإذا بلغ ستين سنة رزقه الله تعالى الإنابة إليه، وإذا بلغ سبعين سنة أحبه أهل السماء، وإذا بلغ ثمانين سنة ثبَّت الله تعالى حسناته ومحا سيئاته، وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر وشفعه الله تعالى في أهل بيته، وكتب في السماء أسير الله في أرضه»[3]

﴿**قال رب أوزعني**﴾ أي ألهمني ﴿أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾

---

(١) أخرجه الطيالسي، ورواه مسلم وأصحاب السنن إلا ابن ماجة بإسناد نحوه وأطول منه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، قال ابن كثير: وقد أوردناه من وجه آخر.

(٣) أخرجه الحافظ الموصلي، وروي من غير هذا الوجه في مسند الإمام أحمد.

أي في المستقبل، ﴿وأصلح لي في ذريتي﴾ أي نسلي وعقبي، ﴿إني تبت إليك وإني من المسلمين﴾ وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدّد التوبة والإنابة إلى الله عزّ وجلّ ويعزم عليها، وقد روى أبو داود في سننه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد: «اللهم ألّف بين قلوبنا وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبل السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك قابليها، وأتممها علينا»[1]. قال الله عزّ وجل: ﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة﴾ أي هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ونتجاوز عن سيئاتهم، فيغفر لهم الكثير من الزلل، ونتقبل منهم اليسير من العمل ﴿في أصحاب الجنة﴾ أي هم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله عزّ وجلّ من تاب إليه وأناب، ولهذا قال تعالى: ﴿وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾، روى ابن أبي حاتم، عن محمد بن حاطب قال: لقد شهدت أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه، وعنده (عمار) و (صعصعة) و (الأشتر) و (محمد بن أبي بكر) رضي الله عنهم، فذكروا عثمان رضي الله عنه فنالوا منه، فكان علي على السرير ومعه عود في يده، فقال قائل منهم: إن عندكم من يفصل بينكم، فسألوه، فقال علي رضي الله عنه: كان عثمان رضي الله عنه من الذين قال الله تعالى: ﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾ قال: والله عثمان وأصحاب عثمان رضي الله عنهم، قالها ثلاثاً. قال يوسف: فقلت لمحمد بن حاطب: آلله لَسمعتَ هذا من علي رضي الله عنه؟ قال: آلله لَسمعتُ هذا من علي رضي الله عنه[2]

﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما، وما لهم عنده من الفوز والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال: ﴿والذي قال لوالديه أفٍّ لكما﴾ وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في (عبدالرحمن بن أبي بكر) رضي الله عنهما فقوله ضعيف، لأن عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه، وإنما هذا عام في كل من عق والديه وكذب بالحق فقال لوالديه:

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن. (٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

أف لكما. روى ابن أبي حاتم، عن عبدالله بن المديني قال: إني لفي المسجد حين خطب مروان فقال: إن الله تعالى قد أرى أمير المؤمنين في يزيد رأياً حسناً، وإن يستخلفه، فقد استخلف أبو بكر عمر رضي الله عنهما، فقال عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما: أهرقلية؟ إن أبا بكر رضي الله عنه والله ما جعلها في أحد من ولده، ولا أحد من أهل بيته، ولا جعلها معاوية في ولده إلا رحمة وكرامة لولده، فقال مروان: ألست الذي قال لوالديه: أفٍ لكما؟ فقال عبدالرحمن رضي الله عنه: ألست ابن اللعين الذي لعن رسولُ الله ﷺ أباك، قال: وسمعتهما عائشة رضي الله عنها فقالت: يا مروان! أنت القائل لعبدالرحمن رضي الله عنه كذا وكذا؟ كذبت، ما فيه نزلت، ولكن نزلت في فلان بن فلان، ثم انتحب مروان، ثم نزل عن المنبر، حتى أتى باب حجرتها فجعل يكلمها حتى انصرف[1]. وروى النسائي، عن محمد بن زياد قال: قال لما بايع معاوية رضي الله عنه لابنه قال مروان: سنة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما: سنة هرقل وقيصر، فقال مروان: هذا الذي أنزل الله تعالى فيه: ﴿والذي قال لوالديه أفٍ لكما﴾، فبلغ ذلك عائشة رضي الله عنها فقالت: كذب مروان، والله ما هو به، ولو شئت أن أسمي الذي أنزلت فيه لسميته، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروان في صلبه، فمروانُ فَضَضٌ من لعنة الله[2]، وقوله: ﴿أتعدانني أن أخرج﴾؟ أي أبعث، ﴿وقد خلت القرون من قبلي﴾ أي قد مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر، ﴿وهما يستغيثان الله﴾ أي يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما: ﴿ويلك آمن إن وعد الله حق، فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين﴾.

قال الله تعالى: ﴿أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين﴾ أي دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وقوله: ﴿أولئك﴾ بعد قوله ﴿والذي قال﴾ دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك، وقال الحسن وقتادة: هو الكافر الفاجر العاق لوالديه المكذب بالبعث، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾ أي لكل عذاب بحسب عمله، ﴿وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾ أي لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها، قال عبدالرحمن بن زيد: درجات النار تذهب سَفَالاً، ودرجات الجنة تذهب علواً، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾، أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، وقد تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن كثير من طيبات المآكل والمشارب وتنزه عنها وقال: إني أخاف أن أكون من الذين قال الله لهم: ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾ جُوزوا من جنس عملهم، فكما متعوا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصي، جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة، والحسرات المتتابعة، والمنازل في الدركات المفظِعة، أجارنا الله سبحانه وتعالى من ذلك كله.

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم، ورواه البخاري بإسناد آخر ولفظ آخر.

(٢) أخرجه النسائي في سننه. ومعنى (فضض): قطعة.

* وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيّه ﷺ، في تكذيب من كذبه من قومه ﴿ واذكر أخا عاد﴾ وهو ﴿ هود﴾ عليه الصلاة والسلام، بعثه الله عزّ وجلّ إلى عاد الأولى، وكانوا يسكنون الأحقاف ، جمع حِقْف ، وهو الجبل من الرمل ، وقال عكرمة: الأحقاف: الجبل والغار ، وقال قتادة: ذكر لنا أن عاداً كانوا حياً باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشِّحْر ، وقوله تعالى: ﴿ وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾ ، يعني وقد أرسل الله تعالى إلى من حول بلادهم في القرى مرسلين ومنذرين ، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ أي قال لهم هود ذلك فأجابه قومه قائلين ﴿ أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا﴾ ؟ أي لتصدنا عن آلهتنا، ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعاداً منهم وقوعه، كقوله جلّت عظمته : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾، ﴿ قال إنما العلم عند الله﴾ أي الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فسيفعل ذلك بكم، وأما أنا فمن شأني أن أبلغكم ما أرسلت به ﴿ ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾ أي لا تعقلون ولا تفهمون ، قال الله تعالى: ﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم﴾ أي لما رأوا العذاب مستقبلهم، اعتقدوا أنه عارض ممطر ففرحوا واستبشروا به، وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر ، قال الله تعالى: ﴿ بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم﴾ أي هو العذاب الذي قلتم فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، ﴿ تدمر﴾ أي تخرب ﴿ كل شيء﴾ من بلادهم مما من شأنه الخراب، ﴿ بأمر ربها﴾ أي بإذن الله لها في ذلك، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾ أي كالشيء البالي، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿ فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾ أي قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية، ﴿ كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ أي هذا حكمنا فيمن كذَّب رسلنا وخالف أمرنا .

يروى أن عاداً قحطوا فبعثوا وفداً يقال له (قيل) فمر بمعاوية بن بكر ، فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر ، وتغنيه جاريتان، يقال لهما الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة، فقال: اللهم إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه، فمرت به سحابات سود، فنودي منها اختر ، فأومأ إلى سحابة سوداء، فنودي منها خذها رماداً رِمْدَداً[1] ، لا تبقي من عاد أحداً، فما أرسل عليهم من الريح إلا قدر

(١) يقال : رِمْدِدُ ورِمْدَد ورِمْديد : أي كثير دقيق جداً .

ما يجري في الخاتم حتى هلكوا، قال أبو وائل: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم، قالوا: لا تكن كوافد عاد[1]، وروى الإمام أحمد، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم. وقالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه. قالت: يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عُذِّب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب وقالوا هذا عارض ممطرنا»[2]. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به؛ وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به. قالت: وإذا تخيَّلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، وإذا أمطرت سري عنه، فعرفت ذلك عائشة رضي الله عنها، فسألته، فقال رسول الله ﷺ: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾[3]، وقد ذكرنا قصة هلاك قوم عاد في سورة الأعراف وهود بما أغنى عن إعادته ههنا، ولله الحمد والمنة.

وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى: ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريباً منه، ﴿ وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾، أي وأحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه، أي فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة، وقوله تعالى: ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ﴾ يعني أهل مكة، وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها كعاد وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يمرون بها أيضاً، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ وصرفنا الآيات ﴾ أي بيناها وأوضحناها ﴿ لعلهم يرجعون * فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة ﴾ أي فهل نصروهم عند احتياجهم إليهم، ﴿ بل ضلوا عنهم ﴾ أي بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن الحارث البكري. وهو حديث غريب كما قال ابن كثير من غرائب الحديث وأفراده.
(٢) أخرجه أحمد، ورواه الشيخان من حديث ابن وهب عن عائشة رضي الله عنها.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه.

﴿وذلك إفكهم﴾ أي كذبهم، ﴿وما كانوا يفترون﴾ أي وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها واعتمادهم عليها، والله أعلم.

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

رُوي عن الزبير ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن﴾ قال: بنخلة، ورسول الله ﷺ يصلي العشاء الآخرة، ﴿كادوا يكونون عليه لبداً﴾ ﷺ وكانوا سبعة من جن نصيبين»[1]. وروى الحافظ البيهقي في كتابه «دلائل النبوة» عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ. وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: مالكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ، وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم ﴿قالوا يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً﴾، وأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن﴾ وإنما أوحي إليه قول الجن[2]، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة فلما سمعوه، قالوا: أنصتوا، قال: صه، وكانوا تسعة، أحدهم زوبعة، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قُضيَ ولوا إلى قومهم منذرين - إلى - ضلال مبين﴾ فهذا مع رواية ابن عباس يقتضي أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة، وإنما استمعوا قراءته ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالاً، قوماً بعد قوم، وفوجاً بعد فوج، قال الحافظ البيهقي: وهذا الذي حكاه ابن عباس رضي الله عنهما إنما هو أول ما سمعتِ الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله عزّ وجلّ.

روى الإمام مسلم، عن عامر قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود رضي الله عنه شهد مع رسول الله ﷺ

(١) تفرد به الإمام أحمد.

(٢) أخرجه البيهقي ورواه البخاري ومسلم بنحوه.

ليلة الجن؟ قال، فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود رضي الله عنه فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقيل: استطير؟ اغتيل؟ قال، فبتنا بشر ليلة بات بها قومٌ، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حِرَاء، قال، فقلنا: يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال: «أتاني داعي الجن فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن»، قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد، فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم»، قال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم»[١]. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بت الليلة أقرأ على الجن واقفاً بالحجون»[٢]. (**طريق أخرى**): قال ابن جرير، عن ابن شهاب، عن أبي عثمان بن شبة الخزاعي – وكان من أهل الشام – قال: إن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهو بمكة: «من أحب منكم أن يحضر أمر الجن الليلة فليفعل»، فلم يحضر منهم أحد غيري، قال، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة خط برجله خطاً، ثم أمرني أن أجلس فيه، ثم انطلق حتى قام، فافتتح القرآن، فغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه، حتى ما أسمع صوته. ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، حتى بقي منهم رهط ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر، فانطلق فتبرز، ثم أتاني فقال: «ما فعل الرهط؟» قلت: هم أولئك يا رسول الله، فأعطاهم عظماً وروثاً زاداً، ثم نهى أن يستطيب أحد بروث أو عظم[٣] وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن﴾ قال: ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من (نينوى) وأن نبي الله ﷺ قال: «إني أمرت أن أقرأ على الجن، فأيكم يتبعني؟» فأطرقوا، ثم استتبعهم، فأطرقوا، ثم استتبعهم الثالثة، فقال رجل: يا رسول الله إن ذاك لذو ندبة، فأتبعه ابن مسعود رضي الله عنه أخو هذيل، قال: فدخل ﷺ شعباً يقال له (شعب الحجون) وخط عليه، وخط على ابن مسعود رضي الله عنه خطاً ليثبته بذلك، قال: فجعلت أُهالُ وأرى أمثال النسور تمشي في دفوفها، وسمعت لغطاً شديداً حتى خفت على نبي الله ﷺ، ثم تلا القرآن، فلما رجع رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله ما اللغط الذي سمعت؟ قال ﷺ: «اختصموا في قتيل فقضي بينهم بالحق»[٤]

فهذه الطريق تدل على أنه ﷺ ذهَبَ إلى الجن قصداً، فتلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله عزّ وجلّ، أما الجن الذين لقوه بنخلة فجن نينوى، وأما الجن الذين لقوه بمكة فجن نصيبين، وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي: كان أبو هريرة رضي الله عنه يتبع رسول الله ﷺ بإداوة لوضوئه وحاجته، فأدركه يوماً فقال: «من هذا؟»، قال: أنا أبو هريرة، قال ﷺ: «ائتني بأحجار أستنج بها ولا تأتني بعظم ولا روثة»، فأتيته بأحجار في ثوبي، فوضعتها إلى جنبه، حتى إذا فرغ وقام اتبعته، فقلت: يا رسول الله ما بال العظم والروثة؟ قال ﷺ: «أتاني وفد جن

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. (٢) أخرجه ابن جرير.

(٣) أخرجه ابن جرير، ورواه البيهقي وأبو نعيم بنحوه.

(٤) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم، وهو حديث مرسل.

نصيبين فسألوني الزاد، فدعوت الله تعالى لهم أن لا يمروا بروثة ولا عظم، إلا وجدوه طعاماً »[1]. وقال سفيان الثوري، عن ابن مسعود رضي الله عنه: كانوا تسعة أحدهم زوبعة، أتوه من أصل نخلة، وفي رواية أنهم كانوا على ستين راحلة، وقيل كانوا ثلثمائة، فلعل هذا الاختلاف دليل على تكرر وفادتهم عليه ﷺ. ومما يدل على ذلك ما قاله البخاري في صحيحه، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: ما سمعت عمر رضي الله عنه يقول لشيء قط إني لأظنه هكذا، إلا كان كما يظن، بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس إذ مر به رجل جميل، فقال: لقد أخطأ ظني، أو أن هذا على دينه في الجاهلية، أو لقد كان كاهنهم، عليَّ بالرجل، فدعي له، فقال له ذلك، فقال: ما رأيت كاليوم أستقبل بـه رجل مسلم، قال: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني، قال: كنت كاهنهم في الجاهلية، قال فما أعجب ما جاءتك به جنيتك؟ قال بينما أنا يوماً في السوق جاءتني أعرف فيها الفزع، فقالت:

ألم تر الجن وإبلاسها ويأسها من بعد إنكاسها ولحوقها بالقلاص وأحلاسها

قال عمر رضي الله عنه: صدق، بينما أنا نائم عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل، فذبحه، فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه، يقول: يا جليح، أمر نجيح رجل فصيح يقول: لا إله إلا الله، قال: فوثب القوم، فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثم نادى: يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول: لا إله إلا الله، فقمت فما نشبنا أن قيل: هذا نبي »[2].

وقوله تبارك وتعالى ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن ﴾ أي طـائفة من الجن، ﴿ يستمعون القرآن فلما حضروه قـالوا أنصتوا ﴾ أي استمعوا وهذا أدب منهم، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، قال: قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها، ثم قال: « مالي أراكم سكوتاً؟ لَلْجِنُّ كانوا أحسن منكم رداً، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك أو نعمك ربنا نكذب فلك الحمد »[3]. وقوله عزّ وجلّ: ﴿ فلما قضي ﴾ أي فرغ كقوله تعالى: ﴿ فإذا قضيت الصلاة ﴾، ﴿ فإذا قضيتم مناسككم ﴾، ﴿ ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ أي رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ كقوله جلّ وعلا: ﴿ ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾، وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نُذُرٌ وليس فيهم رسل، فأما قوله تبارك وتعالى في الأنعام: ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾؟ فالمراد من مجموع الجنسين فيصدق على أحدهما وهو الإنس، كقوله: ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ أي أحدهما، ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم، فقال مخبراً عنهم: ﴿ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ﴾ ولم يذكروا عيسى، لأن عيسى عليه السلام أنزل عليه الإنجيل، فيه مواعظ وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة، فلهذا قالوا ﴿ أنزل من بعد موسى ﴾ ﴿ مصدقاً لمـا بين يديه ﴾ أي من الكتب

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٢) هذا لفظ البخاري وقد رواه البيهقي بنحوه.

(٣) أخرجه الحافظ البيهقي، ورواه الترمذي وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد عن زهير.

المنزلة على الأنبياء قبله، ﴿ يهدي إلى الحق ﴾ أي في الاعتقاد والإخبار، ﴿ وإلى طريق مستقيم ﴾ في الأعمال فإن القرآن مشتمل على: خبر وطلب، فخبره صدق، وطلبه عدل كما قال تعالى: ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾، وهكذا قالت الجن ﴿ يهدي إلى الحق ﴾ في الاعتقادات، ﴿ وإلى طريق مستقيم ﴾ أي في العمليات ﴿ يا قومنا أجيبوا داعي الله ﴾ فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين، الجن والإنس، حيث دعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم وهي « سورة الرحمن »، ولهذا قال: ﴿ أجيبوا داعي الله وآمنوا به ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ قيل إن ﴿ من ﴾ ههنا زائدة، وفيه نظر، وقيل إنها للتبعيض، ﴿ ويجركم من عذاب أليم ﴾ أي ويقيكم من عذابه الأليم، ومؤمنو الجن يدخلون الجنة كمؤمني الإنس، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، ولم يرد نص صريح ولا ظاهر عن الشارع، أن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة وإن أجيروا من النار، ولو صح لقلنا به. وقد حكي فيهم أقوال غريبة، فمن الناس من زعم أنهم في الجنة يراهم بنو آدم ولا يروا بني آدم، بعكس ما كانوا عليه في الدار الدنيا، ومن الناس من قال: لا يأكلون في الجنة ولا يشربون، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس عوضاً عن الطعام والشراب، كالملائكة لأنهم من جنسهم، وكل هذه الأقوال فيها نظر، ولا دليل عليها، ثم قال مخبراً عنهم: ﴿ ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض ﴾ أي بل قدرة الله شاملة له ومحيطة به ﴿ وليس له من دونه أولياء ﴾ أي لا يجيرهم منه أحد ﴿ أولئك في ضلال مبين ﴾ وهذا مقام تهديد وترهيب، فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب، ولهذا نجع في كثير منهم، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً كما تقدم بيانه، والله أعلم.

أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى: أو لم ير هؤلاء المنكرون للبعث، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿ أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن ﴾ أي ولم يكرثه خلقهن بل قال لها: كوني فكانت، بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعة مجيبة خائفة وجلة، أفليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ كما قال عزّ وجلّ في الآية الأُخرى: ﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ بلى إنه على كل شيء قدير ﴾ ثم قال جلّ جلاله متهدداً ومتوعداً لمن كفر به: ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق ﴾؟ أي يقال لهم: أما هذا حق؟ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون؟ ﴿ قالوا بلى وربنا ﴾ أي لا يسعهم إلا الاعتراف، ﴿ قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾، ثم قال تبارك وتعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ أي على تكذيب قومهم لهم،

﴿ ولا تستعجل لهم ﴾ أي لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم كقوله تبارك وتعالى ﴿ ومهلهم قليلاً ﴾ ، وكقوله تعالى: ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويداً ﴾ ، ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾ كقوله عزّ وجلّ: ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾، وكقوله عزّ وجلّ: ﴿ ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من نهار يتعارفون بينهم ﴾ الآية ، وقوله جل وعلا: ﴿ بلاغ ﴾ تقديره هذا القرآن بلاغ، وقوله تعالى: ﴿ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ ؟ أي لا يهلك إلا هالك ، وهـذا من عدله عزَّ وجلَّ ، أنـه لا يعذب إلا من يستحق العذاب والله أعلم .

[آخر تفسير سورة الأحقاف ، ولله الحمد والمنة]





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣)

يقول تعالى: ﴿الذين كفروا﴾ أي بآيات الله ﴿وصدوا﴾ غيرهم ﴿عن سبيل الله أضل أعمالهم﴾ أي أبطلها وأذهبها، ولم يجعل لها ثواباً ولا جزاء، كقوله تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾، ثم قال جلّ وعلا ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم، ﴿وآمنوا بما نزّل على محمد﴾ عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وهو الحق من ربهم﴾ جملة معترضة حسنة، ولهذا قال جلّ جلاله: ﴿كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم﴾ قال ابن عباس: أي أمرهم، وقال مجاهد: شأنهم، وقال قتادة: حالهم، والكل متقارب، وفي حديث تشميت العاطس «يهديكم الله ويصلح بالكم»، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل﴾ أي إنما أبطلنا أعمال الكفّار، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أي اختاروا الباطل على الحق، ﴿وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ أي يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

﴿ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾

يقول تعالى مرشداً للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب﴾ أي إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصداً بالسيوف، ﴿حتى إذا أثخنتموهم﴾ أي أهلكتموهم قتلاً، ﴿فشدوا الوثاق﴾ الأسارى الذين تأسرونهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم، إن شئتم منتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجاناً، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم، والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله سبحانه وتعالى عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء فقال: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾، ثم قد ادعى بعض العلماء أن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ الآية، روي عن ابن عباس والضحاك والسدي. وقال الأكثرون: ليست بمنسوخة، والإمام مخير بين المن على الأسير ومفاداته، وله أن يقتله إن شاء لحديث قتل النبي ﷺ (النضر بن الحارث) و (عقبة بن أبي معيط) من أسارى بدر، وقال الشافعي رحمه الله: الإمام مخيَّر بين قتله أو المن عليه أو مفاداته أو استرقاقه، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ قال مجاهد: حتى ينزل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، وكأنه أخذه من قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال». وهذا يقوي القول بعدم النسخ، كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى أن لا يبقى حرب، وقال قتادة ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ حتى لا يبقى شرك، وهذا كقوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾ ثم قال بعضهم: حتى تضع الحرب أوزارها أي أوزار المحاربين وهم المشركون بأن يتوبوا إلى الله عزّ وجلّ، وقيل: أوزار أهلها بأن يبذلوا الوسع في طاعة الله تعالى، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم﴾ أي هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده ﴿ولكن ليبلوا بعضكم ببعض﴾ أي ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء، ليختبركم ويبلو أخباركم، كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في قوله تعالى ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾.

وقال تعالى: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾، ثم لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين قال: ﴿والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم﴾ أي لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها، ومنهم من يجري عليه عمله طول برزخه، كما ورد بذلك الحديث عن المقدام بن معديكرب الكِنْدي رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر له في أول دفقة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار مرصع بالدر والياقوت، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين من الحور العين، ويشفع في سبعين إنساناً من اقاربه»[1]. وفي صحيح مسلم عن عبد الله

---

(١) أخرجه أحمد وابن ماجة والترمذي وصححه.

ابن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين»[1]، وفي الصحيح: «يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته»[2]، والأحاديث في فضل الشهيد كثيرة جداً.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿سيهديهم﴾ أي إلى الجنة ﴿ويصلح بالهم﴾ أي أمرهم وحالهم، ﴿ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾ أي عرفهم بها وهداهم إليها، قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، وقال محمد بن كعب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة، وقال مقاتل: بلغنا أن الملك الذي كان وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة، ويتبعه ابن آدم حتى يأتي أقصى منزل هو له فيعرفه كل شيء أعطاه الله تعالى في الجنة، فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه، وقد ورد الحديث الصحيح بذلك عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا»[3]، ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، ولهذا قال تعالى: ﴿ويثبت أقدامكم﴾، كما جاء في الحديث: «من بلّغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها، ثبّت الله تعالى قدميه على الصراط يوم القيامة»، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿والذين كفروا فتعساً لهم﴾ عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين. وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش» أي فلا شفاه الله عزّ وجلّ، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وأضل أعمالهم﴾ أي أحبطها وأبطلها، ولهذا قال: ﴿ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله﴾ أي لا يريدونه ولا يحبونه ﴿فأحبط أعمالهم﴾.

* أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾

يقول تعالى: ﴿أفلم يسيروا﴾ يعني المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم﴾ أي عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم أي ونجّى المؤمنين من بين أظهرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وللكافرين أمثالها﴾ ثم قال: ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾، ولهذا لما قال

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٢) أخرجه أبو داود عن أبي الدرداء مرفوعاً.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه.

أبو سفيان رئيس المشركين يوم أُحُد: اعلُ هُبَل، اعلُ هُبَل، فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبوه؟» فقالوا: يا رسول الله وما نقول؟ قال ﷺ قولوا: «الله أعلى وأجل»، ثم قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال ﷺ: «ألا تجيبوه؟»، قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»، ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي يوم القيامة ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام﴾ أي في دنياهم يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام، خضماً وقضماً ليس لهم همة إلا في ذلك، ولهذا ثبت في الصحيح: «المؤمن يأكل في مِعًى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»، ثم قال تعالى: ﴿والنار مثوى لهم﴾ أي يوم جزائهم، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك﴾ يعني مكة ﴿أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة، في تكذيبهم لرسول الله ﷺ وهو سيد الرسل وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله عزّ وجلّ قد أهلك الذين كذبوا الرسل قبله، فما ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى؟ وقوله تعالى: ﴿من قريتك التي أخرجتك﴾ أي الذين أخرجوك من بين أظهرهم، روى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار وأتاه، فالتفت إلى مكة، وقال: «أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحب بلاد الله إليّ، ولولا أن المشركين أخرجوني لم أخرج منك»[1]. فأعدى الأعداء من عدا على الله تعالى في حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذُحول الجاهلية، فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ: ﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ أي على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه، بما أنزل الله في كتابه من الهدى والعلم، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة، ﴿كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم﴾؟ أي ليس هذا كهذا، كقوله تعالى: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى﴾؟ ثم قال عزّ وجلّ: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ قال عكرمة ﴿مثل الجنة﴾ أي نعتها، ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن﴾ يعني غير متغير، والعرب تقول: أَسِنَ الماءُ إذا تغير ريحه، وفي حديث مرفوع ﴿غير آسن﴾ يعني الصافي الذي لا كدر فيه، وقال عبدالله رضي الله عنه: أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك ﴿وأنهار من لبن لم يتغير طعمه﴾ بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة، وفي حديث مرفوع: «لم يخرج من ضروع الماشية»، ﴿وأنهار من خمر لذة للشاربين﴾ أي ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة، ﴿لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون﴾ ﴿لا يصدّعون عنها ولا ينزفون﴾، وفي حديث مرفوع: «لم يعصرها الرجال بأقدامهم» ﴿وأنهار من عسل مصفى﴾ أي وهو في غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح، وفي حديث مرفوع: «لم يخرج من بطون النحل». روى الإمام

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أحمد عن حكيم بن معاوية عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في الجنة بحر اللبن وبحر الماء، وبحر العسل وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد»[1]. وفي الصحيح: «إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، ومنه تفجَّر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن»، وقال الحافظ الطبراني عن عاصم أن لقيط بن عامر خرج وافداً إلى رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله فعلى ما نطلع من الجنة؟ قال ﷺ: «على أنهار من عسل مصفى، وأنهار من خمر ما بها صداع ولا ندامة، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وماء غير آسن، وفاكهة لعمر إلٓهك ما تعلمون، وخير من مثله، وأزواج مطهرة»، قلت: يا رسول الله أوَ لنا فيها أزواج مصلحات؟ قال: «الصالحات للصالحين تلذونهن مثل لذاتكم في الدنيا ويلذونكم غير أن لا توالد». وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجري في أخدود في الأرض، والله إنها لتجري سائحة على وجه الأرض حافاتها قباب اللؤلؤ، وطينها المسك الأذفر[2]

وقوله تعالى: ﴿ولهم فيها من كل الثمرات﴾ كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يدعون فيها بكل فاكهة آمنين﴾، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ومغفرة من ربهم﴾ أي مع ذلك كله، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿كمن هو خالد في النار؟﴾ أي أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة، كمن هو خالد في النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، وليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات، ﴿وسقوا ماء حميماً﴾ أي حاراً شديد الحر لا يستطاع، ﴿فقطع أمعاءهم﴾ أي قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء، عياذاً بالله تعالى من ذلك.

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

يقول تعالى: مخبراً عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئاً، فإذا خرجوا من عنده ﴿قالوا للذين أوتوا العلم﴾ من الصحابة رضي الله عنهم ﴿ماذا قال آنفاً﴾؟ أي الساعة لا يعقلون ما قال، ولا يكترثون له، قال الله تعالى: ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم﴾ أي فلا فهم صحيح ولا قصد صحيح، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ أي والذين قصدوا الهداية، وفقهم الله تعالى لها، فهداهم إليها وثبتهم عليها وزادهم منها، ﴿وآتاهم تقواهم﴾ أي ألهمهم رشدهم. وقوله تعالى: ﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة﴾؟ أي وهم غافلون عنها ﴿فقد جاء أشراطها﴾ أي أمارات اقترابها، كقوله تعالى: ﴿أزفت الآزفة﴾، وكقوله جلت عظمته: ﴿اقتربت الساعة

(١) أخرجه أحمد، ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا موقوفاً، ورواه ابن مردويه مرفوعاً.

وانشق القمر﴾، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾. فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة لأنه خاتم الرسل، الذي أكمل الله تعالى به الدين، وأقام به الحجة على العالمين، وقد أخبر رسول الله ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها وهو عليه السلام الحاشر الذي يحشر الناس على قدميه، والعاقب الذي ليس بعده نبي ؛ روى البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه - هكذا بالوسطى والتي تليها - «بعثت أنا والساعة كهاتين». ثم قال تعالى: ﴿فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ ؟ أي فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة، حيث لاينفعهم ذلك ؟ كقوله تعالى: ﴿يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولهذا عطف عليه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي»، وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت»، وفي الصحيح أنه قال: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني استغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»، وعنه ﷺ أنه قال: «وعليكم بلا إله إلا الله والاستغفار، فأكثروا منهما، فإن إبليس قال: إنما أهلكت الناس بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنهم مهتدون»[1]، وفي الأثر المروي: «قال إبليس: وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله عزَّ وجلَّ: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»، والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرة جداً، وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾ أي يعلم تصرفكم في نهاركم، ومستقركم في ليلكم، كقوله تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ وهذا القول هو اختيار ابن جرير، وعن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿متقلبكم﴾ في الدنيا و﴿مثواكم﴾ في الآخرة، وقال السدي: متقلبكم في الدنيا ومثواكم في قبوركم، والأول أولى وأظهر، والله أعلم.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين، أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله عزَّ وجلَّ وأمر به، نكل عنه كثير من الناس كقوله تبارك وتعالى: ﴿فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية

---

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى.

وقالوا ربنا لما كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾ ؟ وقال عزَّ وجلَّ ههنا: ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة﴾ أي مشتملة على القتال ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت﴾ أي من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء، ثم قال مشجعاً لهم: ﴿فأولى لهم طاعة وقول معروف﴾ أي وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا، أي في الحالة الراهنة ﴿فإذا عزم الأمر﴾ أي جد الحال، وحضر القتال ﴿فلو صدقوا الله﴾ أي أخلصوا له النية ﴿لكان خيراً لهم﴾، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فهل عسيتم إن توليتم﴾ أي عن الجهاد ونكلتم عنه ﴿أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ ؟ أي تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام، ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خلق الله تعالى الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم، فأخذت بحقوي الرحمن عزَّ وجلَّ، فقال: مه، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، فقال تعالى: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى. قال: فذاك لك» قال أبو هريرة رضي الله عنه: اقرأوا إن شئتم ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾. وروى الإمام أحمد عن أبي بكرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : «ما من ذنب أحرى أن يعجل الله تعالى عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»[1]. وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي ذوي أرحام: أصل ويقطعون، وأعفو ويظلمون، وأحسن ويسيئون، أفأكافئهم ؟ قال ﷺ : «لا، إذن تتركون جميعاً، ولكنْ جُدْ بالفضل وصلهم، فإنه لن يزال معك ظهير من الله عزَّ وجلَّ ما كنت على ذلك»[2]. وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ : «إن الرحم معلقة بالعرش، وليس الواصل بالمكافيء، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»[3]، وفي الحديث القدسي: «قال الله عزَّ وجلَّ أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي، فمن يصلها أصله، ومن يقطعها أقطعه فأبتُّه»[4]، وقال رسول الله ﷺ : «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» وفي الحديث قال رسول الله ﷺ : «إذا ظهر القول وخزن العمل وائتلفت الألسنة وتباغضت القلوب، وقطع كل ذي رحم رحمه، فعند ذلك لعنهم الله وأصمهم وأعمى أبصارهم»[5]، والأحاديث في هذا كثيرة، والله أعلم .

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة .
(٢) أخرجه الإمام أحمد .
(٣) أخرجه البخاري والإمام أحمد .
(٤) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي .
(٥) أخرجه الإمام أحمد .

ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه، وناهياً عن الإعراض عنه فقال: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ أي بل على قلوب أقفالها، فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه، ثم قال تعالى: ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم﴾ أي فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر ﴿من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم﴾ أي زين لهم ذلك وحسَّنه ﴿وأملى لهم﴾ أي غرهم وخدعهم، ﴿ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزَّل الله سنطيعكم في بعض الأمر﴾ أي مالأوهم وناصحوهم على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون، ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿والله يعلم إسرارهم﴾ أي ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه، عالم به، كقوله تبارك وتعالى: ﴿والله يكتب ما يبيتون﴾ ، ثم قال تعالى: ﴿فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ أي كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم، وتعاصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم﴾ أي بالضرب ﴿أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم﴾ .

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

يقول تعالى: ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم﴾ ؟ أي أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمه ذوو البصائر، وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة براءة فبين فيها فضائحهم، ولهذا كانت تسمى الفاضحة، والأضغان جمع ضغن وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره، وقوله تعالى: ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم﴾، يقول عزَّ وجلَّ: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عياناً، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين، ستراً منه على خلقه، وحملاً للأمور على ظاهر السلامة، ورداً للسرائر إلى عالمها ﴿ولتعرفنّهم في لحن القول﴾ أي فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات

وجهه، وفلتات لسانه، وفي الحديث: «ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى جلبابها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر»، وقد ورد في الحديث تعيين جماعة من المنافقين، قال عقبة بن عمرو رضي الله عنه: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: «إن منكم منافقين فمن سميت فليقم - ثم قال - قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان، حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً. ثم قال: - إن فيكم أو منكم - منافقين فاتقوا الله»، قال فمرّ عمر رضي الله عنه برجل ممن سمى مقنع قد كان يعرفه، فقال: ما لك؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ، فقال: بعداً لك سائر اليوم[1]. وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ولنبلونكم﴾ أي لنختبرنكم بالأوامر والنواهي ﴿حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾، وليس في تقدم علم الله تعالى بما هو كائن شك ولا ريب، فالمراد حتى نعلم وقوعه، ولهذا يقول ابن عباس في مثل هذا: إلا لنعلم، أي لنرى.

* إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾

يخبر تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى، أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله، فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات، وقد قال أبو العالية: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لايضر مع لا إله إلا الله ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل[2]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول، حتى نزلت: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾ فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، حتى نزل قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾، فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش، ونرجو لمن لم يصبها، ثم أمر تبارك وتعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ أي بالردة، ولهذا قال بعدها: ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم﴾، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ الآية، ثم قال جلَّ وعلا لعباده المؤمنين: ﴿فلا تهنوا﴾ أي لا تضعفوا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة.

عن الأعداء، ﴿وتدعوا إلى السلم﴾ أي المهادنة والمسالمة ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم، ولهذا قال: ﴿وأنتم الأعلون﴾ أي في حال علوكم على عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المهادنة والمعاهدة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم ﷺ إلى ذلك، وقوله جلت عظمته: ﴿والله معكم﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء، ﴿ولن يتركم أعمالكم﴾ أي لن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئاً، والله أعلم.

۞ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهويناً لشأنها ﴿إنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهو﴾ أي حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عزَّ وجلَّ، ولهذا قال تعالى: ﴿وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم﴾ أي هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئاً، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال، مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم، ثم قال جلَّ جلاله: ﴿إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا﴾ أي يحرجكم تبخلوا ﴿ويخرج أضغانكم﴾ قال قتادة: قد علم الله تعالى أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان، وصدق قتادة، فإن المال محبوب ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه، وقوله تعالى: ﴿ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل﴾ أي لا يجيب إلى ذلك، ﴿ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه﴾ أي إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ﴿والله الغني﴾ أي عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه دائماً، ﴿وأنتم الفقراء﴾ أي بالذات إليه، فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم لا ينفكون عنه، وقوله تعالى: ﴿وإن تتولوا﴾ أي عن طاعته واتباع شرعه، ﴿يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ أي ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ قالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي رضي الله عنه، ثم قال: «هذا وقومه، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس»[1].

[آخر تفسير سورة محمد. ولله الحمد والمنة]

۞ ۞ ۞

(١) أخرجه مسلم وابن أبي حاتم وابن جرير.



روى الإمام أحمد عن معاوية بن قرة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره (سورة الفتح) على راحلته، فرجّع فيها، قال معاوية: لولا أني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت قراءته[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية، في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام، وحالوا بينه وبين العمرة، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على كره من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع، أنزل الله عزَّ وجلَّ هذه السورة، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما روى ابن مسعود رضي الله عنه وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح (فتح مكة) ونحن نعد الفتح صلح الحديبية، وروى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة والحديبية بئر فنزحناها، فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء، فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا[2]؛ وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر قال: فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد عليَّ، قال: فقلت في نفسي ثكلتك أمك يا ابن الخطاب،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

(٢) أخرجه البخاري.

ألححت، كررت على رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك ! قال: فركبت راحلتي فحركت بعيري، فتقدمت مخافة أن يكون نزل فيَّ شيء، قال: فإذا أنا بمناد: يا عمر، قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل فيَّ شيء، قال، فقال النبي ﷺ: « نزل عليّ البارحة سورة هي أحب إليَّ من الدنيا وما فيها: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ »[١]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: نزلت على النبي ﷺ: ﴿ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ مرجعه من الحديبية، قال النبي ﷺ: « لقد أنزلت عليَّ الليلة آية أحب إليّ مما على الأرض » ثم قرأها عليهم النبي ﷺ فقالوا: هنيئاً مريئاً يا نبي الله، بيّن الله عزَّ وجلَّ ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه ﷺ: ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار – حتى بلغ – فوزاً عظيماً﴾[٢]. وروى الإمام أحمد عن المغيرة بن شعبة قال: كان النبي ﷺ يصلي حتى تورمت قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال ﷺ: « أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ »[٣]، وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقـدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال ﷺ: « يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ »[٤].

فقوله تعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ أي بيناً ظاهراً، والمراد به (صلح الحديبية) فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان، وقوله تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة، ولما كان أطوع خلق الله تعالى وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه قال حين بركت به الناقة، حبسها حابس الفيل، ثم قال ﷺ: « والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئاً يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها »[٥] فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح قال الله تعالى له: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك﴾ أي في الدنيا والآخرة، ﴿ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ أي بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم، ﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ أي بسبب خضوعك لأمر الله عزَّ وجلَّ يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء في الحديث الصحيح: « وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله عزَّ وجلَّ إلا رفعه الله تعالى »، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ما عاقبتَ أحداً عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله تبارك وتعالى فيه .

---

(١) أخرجه أحمد ورواه البخاري والترمذي والنسائي من طرق .
(٢) أخرجه البخاري ومسلم والإمام أحمد .
(٣) أخرجه البخاري ومسلم وبقية الجماعة إلا أبا داود .
(٤) أخرجه مسلم والإمام أحمد . (٥) أخرجه البخاري وهو جزء من حديث طويل .

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿هو الذي أنزل السكينة﴾ أي جعل الطمأنينة، قاله ابن عباس، وعنه: الرحمة، وقال قتادة: الوقار في قلوب المؤمنين، الذين استجابوا لله ولرسوله وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت، زادهم إيماناً مع إيمانهم؛ ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين، فقال سبحانه: ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾ أي ولو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد، لما له في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة القاطعة، ولهذا قال جلت عظمته: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً، ﴿ويكفر عنهم سيئاتهم﴾ أي خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح ويغفر ويستر، ﴿وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً﴾، كقوله جلَّ وعلا: ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾، وقوله تعالى: ﴿ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء﴾ أي يتهمون الله تعالى في حكمه، ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية، ولهذا قال تعالى: ﴿عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم﴾ أي أبعدهم من رحمته، ﴿وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً﴾، ثم قال عزَّ وجلَّ مؤكداً لقدرته على الانتقام من الأعداء، أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين ﴿ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً﴾.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿إنا أرسلناك شاهداً﴾ أي على الخلق، ﴿ومبشراً﴾ أي للمؤمنين، ﴿ونذيراً﴾ أي للكافرين، ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه﴾ قال ابن عباس وغير واحد: تعظموه، ﴿وتوقروه﴾ من التوقير، وهو الاحترام والإجلال والإعظام، ﴿وتسبحوه﴾ أي تسبحون الله، ﴿بكرة وأصيلاً﴾ أي أول النهار وآخره، ثم قال عزَّ وجلَّ لرسوله تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾، كقوله جلَّ وعلا:

﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾، ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ أي هو حاضر معهم، يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى المبايع بواسطة رسوله، كقوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون﴾، وقال رسول الله ﷺ: «من سل سيفه في سبيل الله فقد بايع الله»[1]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ في الحجر: «والله ليبعثنه الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة له عينان ينظر بهما ولسان ينطق به ويشهد على من استلمه بالحق، فمن استلمه فقد بايع الله تعالى» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾[2]، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ أي إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غني عنه ﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾ أي ثواباً جزيلاً، وهذه البيعة هي (بيعة الرضوان) وكانت تحت شجرة سمرة بالحديبية، وكان الصحابة رضي الله عنهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ ألفاً وأربعمائة، روى البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة، ووضع يده في ذلك الماء، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، حتى رووا كلهم، وفي رواية في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه: أنهم كانوا خمس عشرة مائة.

«ذكر سبب هذه البيعة العظيمة»

قال محمد بن إسحاق في السيرة: ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلى مكة، ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي ابن كعب من يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظي عليها، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان رضي الله عنه نبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته، فخرج عثمان رضي الله عنه إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره، حتى بلَّغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان رضي الله عنه حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان رضي الله عنه حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان رضي الله عنه قد قتل. قال ابن إسحاق: فحدثني عبدالله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة فكانت (بيعة الرضوان) تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت ولكن بايعنا على أن لا نفر، فبايع الناس، ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس فكان جابر رضي الله عنه يقول: والله لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته قد صبأ إليها، يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان رضي الله عنه باطل، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: لما أمر رسول الله ﷺ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي جرير مرفوعاً.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس.

ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رضي الله عنه رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن عثمان في حاجة الله تعالى وحاجة رسوله» فضرب باحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه خيراً من أيديهم لأنفسهم[١]. قال البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ قد تفرقوا في ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ، فقال: يعني عمر رضي الله عنه، يا عبد الله انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ، فوجدهم يبايعون، فبايع، ثم رجع إلى عمر رضي الله عنه فخرج فبايع[٢]، وروى البخاري عن يزيد بن أبي عبيد عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال يزيد: قلت يا أبا مسلمة على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت. وثبت في الصحيحين عن سعيد بن المسيب قال: «كان أبي ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة قال: فانطلقنا من قابل حاجين، فخفي علينا مكانها»[٣]، وروى الحميدي عن جابر رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أنتم خير أهل الأرض اليوم» قال جابر رضي الله عنه: لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة[٤]. وروى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة». ولهذا قال تعالى في الثناء عليهم: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾.

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾

يقول تعالى مخبراً رسوله ﷺ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب، الذين اختاروا المقام في أهليهم، وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة، ولهذا قال تعالى: ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً﴾ أي لا يقدر أحد أن يرد ما أراده الله فيكم، وهو العليم بسرائركم وضمائركم، وإن صانعتمونا ونافقتمونا، ولهذا قال تعالى: ﴿بل كان الله بما تعملون خبيراً﴾، ثم قال تعالى: ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون

(١) أخرجه الحافظ البيهقي عن أنس بن مالك.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٣) أخرجه الشيخان عن سعيد بن المسيب.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم من حديث سفيان.

إلى أهليهم أبداً﴾ أي اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم، وتستباد خضراؤهم ولا يرجع منهم مخبر، ﴿وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بورا﴾ أي هلكى، قاله ابن عباس ومجاهد، وقال قتادة: فاسدين، ثم قال تعالى: ﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله﴾ أي من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله، فإن الله تعالى سيعذبه في السعير، ثم بيّن تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السماوات والأرض: ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي لمن تاب إليه وأناب وخضع لديه.

* سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب، الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم إلى خيبر يفتحونها، أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يأذن لهم في ذلك، معاقبة لهم من جنس ذنبهم، فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم، لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، ولهذا قال تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ قال مجاهد وقتادة: وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية، واختاره ابن جرير، وقال ابن زيد: هو قوله تعالى: ﴿فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين﴾ وهذا الذي قاله ابن زيد فيه نظر، لأن هذه الآية التي في براءة نزلت في غزوة تبوك، وهي متأخرة عن عمرة الحديبية، وقال ابن جريج: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ يعني بتثبيطهم المسلمين عن الجهاد، ﴿قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل﴾ أي وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم، ﴿فسيقولون بل تحسدوننا﴾ أي أن نشرككم في المغانم، ﴿بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾ أي ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم.

* قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين هم أولو بأس شديد على أقوال، (**أحدها**): أنهم هوازن، قاله سعيد ابن جبير وعكرمة، ، (**الثاني**): ثقيف، قاله الضحاك، (**الثالث**): بنو حنيفة، قاله جويبر، وروي مثله عن سعيد وعكرمة، (**الرابع**): هم أهل فارس، قاله ابن عباس ومجاهد، وقال كعب الأحبار: هم الروم، وعن عطاء والحسن: هم فارس والروم، وعن مجاهد: هم أهل الأوثان، وقال ابن أبي حاتم عن الزهري في قوله تعالى:

﴿ ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد﴾ قال: لم يأت أولئك بعد، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار الأعين ذلف الأنوف كأن وجوههم المجان المطرقة » قال سفيان: هم الترك. وقوله تعالى: ﴿ تقاتلونهم أو يسلمون﴾ يعني شرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم ولكم النصرة عليهم، ﴿أو يسلمون﴾ فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿ فإن تطيعوا﴾ أي تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه ﴿ يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل﴾ يعني زمن الحديبية حيث دعيتم فتخلفتم، ﴿ يعذبكم عذاباً أليماً﴾ . ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذي يطرأ أياماً ثم يزول، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ، ثم قال تبارك وتعالى مرغباً في الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتولَّ ﴾ أي ينكل عن الجهاد ويقبل على المعاش ﴿ يعذبه عذاباً أليماً﴾ في الدنيا بالمذلة، وفي الآخرة بالنار، والله تعالى أعلم .

* لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين، الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم أنهم كانوا ألفاً وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية، روى البخاري عن عبد الرحمن رضي الله عنه قال: انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون، فقلت: ما هذا المسجد ؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها، فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم .

وقوله تعالى: ﴿ فعلم ما في قلوبهم﴾ أي من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة ﴿ فأنزل السكينة﴾ وهي الطمأنينة ﴿ عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾ وهو ما أجرى الله عزَّ وجلَّ على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿ ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً﴾، روى ابن أبي حاتم عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: بينما نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: أيها الناس: البيعة البيعة، نزل روح القدس، قال: فسرنا إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فذلك قول الله تعالى: ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ قال: فبايع رسول الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه بإحدى يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئاً لابن عفان يطوف بالبيت ونحن ههنا، فقال رسول الله ﷺ: « لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف » .

وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ

وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها﴾ هي جميع المغانم إلى اليوم ﴿فعجل لكم هذه﴾ يعني فتح خيبر، وروى العوفي عن ابن عباس ﴿فعجل لكم هذه﴾ يعني صلح الحديبية ﴿وكف أيدي الناس عنكم﴾ أي لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال، وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء ظهوركم عن عيالكم وحريمكم ﴿ولتكون آية للمؤمنين﴾ أي يعتبرون بذلك، فإن الله تعالى حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العالم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾، ﴿ويهديكم صراطاً مستقيماً﴾ أي بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته وموافقتكم رسوله ﷺ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً﴾ أي وغنيمة أخرى وفتحاً آخر معيناً لم تكونوا تقدرون عليها، قد يسرها الله عليكم وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين من حيث لا يحتسبون، وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة ما المراد بها؟ فقال ابن عباس: هي خيبر، وقال الضحاك وقتادة: هي مكة، واختاره ابن جرير، وقال الحسن البصري: هي فارس والروم، وقال مجاهد: هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ يقول عزَّ وجلَّ مبشراً لعباده المؤمنين، بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفر فاراً مدبراً ﴿لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ أي هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل، إلا نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين، نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وكثرة المشركين، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين، حين كف أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين وأوجد بينهم صلحاً، فيه خيرة للمؤمنين وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة، روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة بالسلاح، من قبل جبل التنعيم، يريدون غرة رسول الله ﷺ، فدعا عليهم، فأخذوا، قال عفان: فعفا عنهم، ونزلت هذه الآية: ﴿وهو الذي

كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾[1]. وقال أحمد أيضاً عن عبد الله بن مغفل المزني رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وسهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فأخذ سهيل بيده، وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: «اكتب باسمك اللهم - وكتب - هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة» فأمسك سهيل بن عمرو بيده، وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله! اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله» فبينا نحن كذلك، إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله بأسماعهم فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد؟ أو هل جعل لكم أحد أماناً؟» فقالوا: لا، فخلى سبيلهم فأنزل الله تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾[2] الآية.

وروى ابن إسحاق عن عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنه قال: إن قريشاً بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أحداً، فأخذوا أخذاً، فأُتي بهم رسولُ الله ﷺ، فعفا عنهم، وخلى سبيلهم، وقد كانوا رموا إلى عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل، قال ابن إسحاق: وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم﴾ الآية .

* هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركي العرب، من قريش ومن مالأهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ: ﴿هم الذين كفروا﴾ أي هم الكفار دون غيرهم ﴿وصدوكم عن المسجد الحرام﴾ أي وأنتم أحق به وأنتم أهله في نفس الأمر ﴿والهدي معكوفاً أن يبلغ محله﴾ أي وصدوا الهدي أن يصل إلى محله، وهذا من بغيهم وعنادهم، وكان الهدي سبعين بدنة، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾ أي بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم، خيفة على أنفسهم من قومهم، لكنا سلطناكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل، ولهذا قال تعالى: ﴿لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم

---

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .

(٢) أخرجه أحمد والنسائي .

منهم معرة﴾ أي إثم وغرامة ﴿بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء﴾ أي يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿لو تزيلوا﴾ أي لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ أي لسلطانكم عليهم فلقتلتموهم قتلاً ذريعاً.
عن جنيد بن سبيع قال: «قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافراً، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً، وفينا نزلت: ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾، قال: كنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتين»[1]. وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ يقول: لو تزيل الكفار من المؤمنين لعذبهم الله عذاباً أليماً بقتلهم إياهم، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، وأبوا أن يكتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى﴾ وهي قول: لا إِلَه إلا الله، كما قال ابن جرير عن رسول الله ﷺ يقول: ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ قال: «لا إِلَه إلا الله»[2]، وقال ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب إن أبا هريرة رضي الله عنه أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إِلَه إلا الله فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عزَّ وجلَّ»، وأنزل الله عزَّ وجلَّ في كتابه وذكر قوماً فقال: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾، وقال الله جلَّ ثناؤه: ﴿وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها﴾ وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله، فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية، فكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة[3]، وقال مجاهد: كلمة التقوى الاخلاص، وقال عطاء: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وقال علي رضي الله عنه: ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ قال: لا إله إلا الله والله أكبر، وقال ابن عباس ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ يقول شهادة أن لا إله إلا الله وهي رأس كل تقوى، وقال سعيد بن جبير: ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ لا إله إلا الله والجهاد في سبيله، ﴿وكانوا أحق بها وأهلها﴾ كان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها ﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾ أي هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر.

(ذكر الأحاديث الواردة في قصة الحديبية وقصة الصلح)

روى الإمام أحمد عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما قالا: خرج رسول الله ﷺ يريد زيارة البيت، لا يريد قتالاً، وساق معه الهدي سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، فكانت كل بدنة عن عشرة، وخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا كان بعسفان، لقيه بشر بن سفيان الكعبي، فقال: يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العوذ المطافيل، قد لبست جلود النمور، يعاهدون الله تعالى أن لا تدخلها

(١) أخرجه الحافظ الطبراني، قال ابن كثير: الصواب عن حبيب بن سباع.
(٢) أخرجه ابن جرير ورواه الترمذي، وقال: حديث غريب.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، قال ابن كثير: ورواه بهذه الزيادات ابن جرير، والظاهر أنها مدرجة من كلام الزهري.

عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموه إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله تعالى دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله تعالى به حتى يظهرني الله عزّ وجلّ أو تنفرد هذه السالفة» ثم أمر الناس فسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض على طريق تخرجه على ثنية المرار والحديبية من أسفل مكة، قال: فسلك بالجيش تلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قترة الجيش قد خالفوا عن طريقهم ركضوا راجعين إلى قريش، فخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا سلك ثنية المرار بركت ناقته، فقال الناس: خلأت، فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت» وما ذلك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، والله لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها» ثم قال ﷺ للناس: «انزلوا» قالوا: يا رسول الله ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس، فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كنانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل في قليب من تلك القلب، فغرزه فيه، فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بعطن فلما اطمأن رسول الله ﷺ إذا (بديل بن ورقاء) في رجال من خزاعة، فقال لهم كقوله لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش، فقالوا: يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد ﷺ، إن محمداً لم يأت لقتال إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه فاتهموهم[1].

وروى البخاري رحمه الله في صحيحه، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالا: خرج رسول الله ﷺ من الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة، قلد الهدي وأشعره، وأحرم منها بعمرة، وبعث عيناً من خزاعة وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه فقال: إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك فقال ﷺ: «أشيروا أيها الناس عليّ، أترون أن نميل على عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه»؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه، فقال النبي ﷺ: «فامضوا على اسم الله تعالى»، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقالت الناس: حل حل، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»؛ ثم قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها» ثم زجرها، فوثبت، فعدل عنهم، حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضاً فلم يلبث الناس حتى نزحوه، وشُكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع ﷺ من كنانته سهماً، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء (بديل بن ورقاء) الخزاعي في نفر من قومه من

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد وعبد الرزاق، وقد اقتصرنا على هذا القدر لنذكر رواية البخاري رحمه الله.

خزاعة وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا عدا مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإنَّ قريشاً قد نهكتهم الحرب فأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد حموا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره» قال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول: كذا وكذا، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال أي قوم: ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: وألست بالولد؟ قالوا بلى،قال فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، ودعوني آته، قالوا: ائته، فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ له نحواً من قوله لبديل بن ورقاء، فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرأيت إن استأصلت قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تك الأخرى فإني والله لأرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: امصص بظر اللات، أنحن نفر وندعه؟ قال: من ذا؟ قالوا: أبا بكر، قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبي ﷺ، فكلما كلمه أخذ بلحيته ﷺ والمغيرة بن شعبة رضي الله عنه قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، وكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ. فرفع عروة رأسه، وقال: من هذا؟ قال: المغيرة ابن شعبة، قال: أي غدر، ألست أسعى في غدرتك؟ -وكان المغيرة بن شعبة رضي الله عنه صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم- فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء»، ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون النظر إليه تعظماً له ﷺ، فرجع عروة إلى أصحابه. فقال: أي قوم والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، فقال رجل منهم من بني كنانة: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، قال النبي ﷺ: «هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له»، فبعثت له، واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه، قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت، فقام رجل منهم يقال له مكرز ابن حفص، فقال: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: «هذا مكرز وهو رجل فاجر»

فجعل يكلم النبي ﷺ ، فبينما هو يكلم إذ جاء سهيل بن عمرو، وقال معمر: أخبرني أيوب عن عكرمة أنه قال: لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: «قد سهل لكم من أمركم». قال معمر، قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل ابن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتاباً، فدعا النبي ﷺ بعلي رضي الله عنه، وقال: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل بن عمرو: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم» ثم قال: «هذا ما قضى عليه محمد رسول الله»، فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبدالله، فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله».

قال الزهري: وذلك لقوله: «والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها»، فقال له النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به»، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، فقال المسلمون: سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فبينما هم كذلك إذ جاء (أبو جندل) بن سهيل ابن عمرو يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليّ، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد»، قال: فوالله إذاً لا أصالحك على شيء أبداً، فقال النبي ﷺ: «فأجزه لي»، قال: ما أنا بمجيز ذلك لك، قال: «بلى فافعل»، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: بلى قد أجزناه لك، قال أبو جندي: أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله عزّ وجلّ، قال عمر رضي الله عنه: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألست نبي الله حقاً؟ قال ﷺ: «بلى»، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال ﷺ: «بلى»، قلت: فلم نعطى الدنية في ديننا إذاً؟ قال ﷺ: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري، قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال ﷺ: «بلى أفأخبرتك أنا نأتيه العام»، قلت: لا، قال ﷺ: «فإنك آتيه ومطوف به، قال، فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر! أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطى الدنية في ديننا إذاً؟ قال: أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصي ربه وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق، قلت: أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، قال: أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك تأتيه وتطوف به.

قال الزهري: قال عمر رضي الله عنه: فعملت لذلك أعمالاً، قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا»، قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال رسول الله ﷺ ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل ﷺ على أمّ سلمة رضي الله عنها، فذكر لها ما لقي من الناس، قالت له أم سلمة رضي الله عنها: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة، حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج رسول الله ﷺ فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، ثم جاءه نسوة مؤمنات

فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات - حتى بلغ - بعصم الكوافر﴾ فطلق عمر رضي الله عنه يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان ابن أمية، ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاءه (أبو بصير) رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به، حتى إذا بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر، فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت منه، ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد، وفر الآخر، حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعراً»، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي، وإني لمقتول، فجاء أبو بصير، فقال: يا رسول الله قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم، ثم نجاني الله تعالى منهم، فقال النبي ﷺ: «ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحد»، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام، إلا اعترضوا لها فقتلوهم، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم، لما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم، وأنزل الله عزّ وجل: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة - حتى بلغ - حمية الجاهلية﴾ وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه رسول الله ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت[١].

وقال الإمام أحمد، عن أنس رضي الله عنه قال: إن قريشاً صالحوا النبي ﷺ وفيهم (سهيل بن عمرو) فقال النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال ﷺ: «اكتب من محمد رسول الله»، قال: لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال النبي ﷺ: «اكتب من محمد بن عبد الله»، واشترطوا عليه ﷺ، أن من جاء منكم لا نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا، فقال: يا رسول الله أنكتب هذا؟ قال ﷺ: «نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله»[٢]. وروى الإمام أحمد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نحر رسول الله ﷺ يوم الحديبية سبعين بدنة، فيها جمل لأبي جهل، فلما صدت عن البيت حنت كما تحن إلى أولادها[٣].

لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٢) أخرجه أحمد ورواه مسلم في صحيحه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد.

كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحُدَيبية لم يشكَ جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع في نفس بعض الصحابة رضي الله عنهم من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟» قال: لا، قال النبي ﷺ: «فإنك آتيه ومطوف به»، وبهذا أجاب الصديق رضي الله عنه أيضاً، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء، وقوله عزّ وجلّ: ﴿آمنين﴾ أي في حال دخولكم، وقوله: ﴿محلقين رؤوسكم ومقصرين﴾ حال مقدرة، لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محلقين ومقصرين، وإنما كان هذا في ثاني الحال، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره.

وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟، قال ﷺ: «رحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: «رحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: «والمقصرين» في الثالثة أو الرابعة، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لا تخافون﴾ حال مؤكدة في المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد، لا يخافون من أحد، وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحُدَيْبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج في صفر إلى خيبر، ففتحها الله عليه بعضها عنوة، وبعضها صلحاً، وقسمها بين (أهل الحديبية) وحدهم ولم يشهدها أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة (جعفر بن أبي طالب) وأصحابه و (أبو موسى الأشعري) وأصحابه رضي الله عنهم ولم يغب منهم أحد، ثم رجع إلى المدينة، فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع خرج النبي ﷺ إلى مكة معتمراً، هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدي، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وصار أصحابه يلبُّون، فلما كان ﷺ قريباً من مر الظهران بعث (محمد ابن سلمة) بالخيل والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين، فذهبوا، فأخبروا أهل مكة، فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش (مكرز بن حفص) فقال: يا محمد ما عرفناك تنقض العهد، فقال ﷺ: «وما ذاك؟» قال: دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح، فقال ﷺ: «لم يكن ذلك وقد بعثنا به إلى يأجج»، فقال: بهذا عرفناك بالبر والوفاء، وخرجت رؤوس الكفّار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ، وإلى أصحابه رضي الله عنهم غيظاً وحنقاً. وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان، فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام، وبين يديه أصحابه يلبون، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى وهو راكب (ناقته القصواء) التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... إني شهيد أنه رسوله
خلوا فكل الخير في رسوله ... يا رب إني مؤمن بقيله

نحن قتلناكم على تأويلــه كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهــام عن مقيله ويذهل الخليـل عن خليله

روى الإمام أحمد. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة، وقد وهنتهم حمى يثرب ولقوا منها سوءاً، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قـد وهنتهم حمى يثرب ولقوا منها شراً، وجلس المشركون من النـاحية التي تلي الحِجْر فأطلع الله تعالى نبيّه ﷺ على ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ أصحابـه أن يرملوا الأشواط الثلاثة ليرى المشركون جلدهم، قال: فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلا ابقـاء عليهم، فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قـد وهنتهم ؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا[1]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنمـا سعى النبي ﷺ بالبيـت وبالصفا والمروة ليرى المشركون قوته، وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ خرج معتمراً، فحال كفار قريش بينه وبين البيـت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحاً عليهم إلا سيوفاً ولا يقيم بها إلا ما أحبوا، فاعتمر ﷺ من العام المقبل، فدخلها، كما كان صالحهم، فلما أن أقام بها ثلاثاً، أمروه أن يخرج فخرج ﷺ[2]. وقوله تعالى: ﴿ فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ أي فعلم الله عزّ وجلّ من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم ﴿ فجعل من دون ذلك ﴾ أي قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي ﷺ فتحاً قريباً، وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين.

ثم قال تبارك وتعالى مبشراً للمؤمنين بنصرة الرسول ﷺ على عدوه وعلى سائر أهل الأرض: ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ﴾ أي بالعلم النـافع والعمل الصالح، فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم، وعمل ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ أي على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين ومشركين ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ أي أنه رسوله وهو ناصره، والله سبحانه وتعالى أعلم.

* مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب فقال: ﴿ محمد رسول الله ﴾ وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثنّى بالثناء على أصحابه رضي الله عنهم فقال: ﴿ والذين معه أشداء على الكفار رحمـاء

(١) أخرجه أحمد والشيخان.
(٢) رواه البخاري ومسلم.

بينهم﴾، كما قال عزّ وجلّ: ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ وهذه صفة المؤمنين، أن يكون أحدهم شديداً على الكفار، رحيماً بالأخيار، عبوساً في وجه الكافر، بشوشاً في وجه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿وليجدوا فيكم غلظة﴾، وقال النبي ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[1]. وفي الصحيح: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»، وشبّك بين أصابعه.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ وصفهم بكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله عزّ وجلّ، والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب، وهو (الجنة) المشتملة على فضل الله عزّ وجلّ، ورضاه تعالى عنهم وهو أكبر من الأول، كما قال جل وعلا: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ وقوله جل جلاله: ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ قال ابن عباس: يعني السمت الحسن، وقال مجاهد: يعني الخشوع والتواضع، وقال السدي: الصلاة تحسّن وجوههم، وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار[2]. وقال بعضهم: إن للحسنة نوراً في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس. وقال عثمان رضي الله عنه: «ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه» والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى، أصلح الله عزّ وجلّ ظاهره للناس، كما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «من أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته»، وقال النبي ﷺ: «ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداءها إن خيراً فخير وإن شراً فشر»[3]. وفي الحديث: «إن الهدي الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة»[4]. فالصحابة رضي الله عنهم خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم، وقال مالك رضي الله عنه: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة رضي الله عنهم الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا، وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوّه الله تبارك وتعالى بذكرهم، في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة، ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا: ﴿ذلك مثلهم في التوراة﴾، ثم قال: ﴿ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه﴾ أي فراخه ﴿فآزره﴾ أي شدّه ﴿فاستغلظ﴾ أي شبّ وطال ﴿فاستوى على سوقه يعجب الزرّاع﴾ أي فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ، آزروه وأيدوه ونصروه، فهم معه كالشطء مع الزرع ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾، ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية، ووافقه طائفة من العلماء رضي الله عنهم على ذلك.

---

(١) أخرجه الشيخان عن النعمان بن بشير.

(٢) أسنده ابن ماجة في سننه والصحيح أنه موقوف.

(٣) أخرجه الطبراني عن جندب بن سفيان البجلي.

(٤) أخرجه أحمد وأبو داود عن ابن عباس.

والأحاديث في فضل الصحابة رضي الله عنهم، والنهي عن التعرض لهم بمساويهم كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم، ثم قـال تبارك وتعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم﴾ من هذه لبيان الجنس ﴿مغفرة﴾ أي لذنوبهم ﴿وأجراً عظيماً﴾ أي ثواباً جزيلاً، ورزقاً كريماً، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة رضي الله عنهم فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال، الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم. روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه»[٣].

[آخر تفسير سورة الفتح ، ولله الحمد والمنة]



(٣) أخرجه مسلم في صحيحه .



بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

هذه آيات أدّب الله تعالى بها عباده المؤمنين، فيما يعاملون بـه الرسول ﷺ من التوقير والاحترام، والتبجيل والإعظام، فقال تبارك وتعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بـين يدي الله ورسوله ﴾ أي لا تسرعوا في الأشياء بين يديه أي قبله، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور. قال ابن عباس: نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه[1]، وقال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضي الله تعالى على لسانه، وقال الضحّاك: لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم، وقال الحسن البصري: لا تدعوا قبل الإمام، وقال قتادة: ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون: لو أنزل في كذا وكذا، لو صح كذا، فكره الله تعالى ذلك، ﴿ واتقوا الله ﴾ فيما أمركم به ﴿ إن الله سميع ﴾ أي لأقوالكم ﴿ عليم ﴾ بنياتكم، وقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ هذا أدب ثان أدّب الله تعالى به المؤمنين، أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته، وقد روي أنها نزلت في الشيخين (أبي بكر) و (عمر) رضي الله عنهما، روى البخاري عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيّران أن يهلكا (أبو بكر) و (عمر) رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ، حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس رضي الله عنه أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، قال نافع: لا أحفظ اسمه،

(١) وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن المراد من الآية الكريمة ﴿ لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة والقول الآخر هو رواية العوفي عنه وهو الأقوى والأرجح.

فقال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ قال ابن الزبير: فما كان عمر رضي الله عنه يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه »[1]. وفي رواية أخرى له قال: قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أمّر (القعقاع بن معبد)، وقال عمر رضي الله عنه: بل أمّر (الأقرع بن حابس)، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر رضي الله عنه: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما: فنزلت في ذلك: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ حتى انقضت الآية ﴿ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم﴾ الآية، أخرجه البخاري.

وروى الحافظ البزار، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: « لما نزلت هذه الآية: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ قلت: يا رسول الله والله لا أكلمك إلا كأخي السرار ». وروى البخاري، عن أنَس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ افتقد (ثابت بن قيس) رضي الله عنه، فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده في بيته منكساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله فهو من أهل النار، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال: كذا وكذا، قال موسى: فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة، فقال: « اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة »[2].

وروى الإمام أحمد، عن أنَس بن مالك رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي - إلى قوله - وأنتم لا تشعرون﴾، وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت، فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ، أنا من أهل النار، حبط عملي، وجلس في أهله حزيناً، ففقده رسول الله ﷺ، فانطلق بعض القوم إليه، فقالوا له: تَفقَّدك رسول الله ﷺ، مالك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ وأجهر له بالقول، حبط عملي أنا من أهل النار، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال، فقال النبي ﷺ: « لا، بل هو من أهل الجنة ». قال أنَس رضي الله عنه: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شمّاس، وقد تحنط ولبس كفنه، فقال: بئسما تعوّدون أقرانكم، فقاتلهم حتى قتل رضي الله عنه[3]. وفي رواية: فقال له النبي ﷺ: « أما ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟ » فقال: رضيت ببشرى الله تعالى ورسوله ﷺ، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ، قال: وأنزل الله تعالى: ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾[4] الآية.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد.

(٤) ذكر هذه الرواية ابن جرير رحمه الله تعالى.

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين، كذلك فقد نهى الله عزّ وجلّ عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله ﷺ، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما فجاء، فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً. وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام، لأنه محترم حياً، وفي قبره ﷺ دائماً، ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض﴾، كما قال تعالى: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده، خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري، كما جاء في الصحيح: «إن الرجل ليتكلم الكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقي لها بالاً يكتب له بها الجنة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض»[1]، ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده وحث على ذلك ورشد إليه ورغب فيه، فقال: ﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ أي أخلصها لها وجعلها أهلاً ومحلاً ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾. وعن مجاهد قال: كُتِب إلى عمر، يا أمير المؤمنين رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل، أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر رضي الله عنه: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم﴾[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾

ثم إنه تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات، وهي بيوت نسائه كما يصنع أجلاف الأعراب فقال: ﴿أكثرهم لا يعقلون﴾، ثم أرشد تعالى إلى الأدب في ذلك، فقال عزّ وجلّ: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم﴾ أي لكان لهم في ذلك الخيرة، والمصلحة في الدنيا والآخرة، ثم قال جل ثناؤه داعياً لهم إلى التوبة والإنابة ﴿والله غفور رحيم﴾ وقد ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي رضي الله عنه نادى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد يا محمد، وفي رواية: يا رسول الله، فلم يجبه، فقال: يا رسول الله إن حمدي لزين، وإن ذمي لشين، فقال: «ذاك الله عزّ وجلّ»[3]. وعن البراء في قوله تبارك وتعالى: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إن حمدي زين وذمي شين، فقال ﷺ: «ذاك الله عزّ وجلّ»[4]، وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: اجتمع أناس من العرب فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يك ملكاً نعش بجناحه، قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته

---

(١) رواه مسلم وأخرجه أحمد والترمذي والنسائي بنحوه.
(٢) أخرجه أحمد في كتاب الزهد.
(٣) أخرجه الإمام أحمد.
(٤) أخرجه ابن جرير.

بما قالوا، فجاءوا إلى حجرة النبي ﷺ فجعلوا ينادونه وهو في حجرته: يا محمد .. يا محمد، فأنزل الله تعالى: ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ قال: فأخذ رسول الله ﷺ بإذني فمدها، فجعل يقول: « لقد صدّق الله تعالى قولك يا زيد، لقد صدّق الله قولك يا زيد »[1] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨ ﴾

يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له، وقد نهى الله عزّ وجلّ عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال، لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون، وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في (الوليد بن عقبة بن أبي معيط) حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق، وقد روي ذلك من طرق :

قال الإمام أحمد، عن الحارث بن أبي ضرار الخزاعي رضي الله عنه قال: قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله أرجع إليهم، فأدعوهم إلى الإسلام، وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته، وترسل إليّ يا رسول الله رسولاً إبّان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول، ولم يأته، وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله، فدعا بسروات قومه، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وقّت لي وقتاً يرسل إليّ رسوله، ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطه، فانطلقوا بنا نأتي رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ (الوليد بن عقبة) إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق - أي خاف - فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الحارث قد منعني الزكاة وأراد قتلي، فغضب رسول الله ﷺ، وبعث البعث إلى الحارث رضي الله عنه، وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك، قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ بعث إليك (الوليد بن عقبة) فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله، قال رضي الله عنه: لا والذي بعث محمداً ﷺ بالحق ما رأيته بتة، ولا أتاني، فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: « منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟ » قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني. وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول رسول الله ﷺ، خشيت أن يكون كونت سخطة من الله تعالى ورسوله.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير .

قال: فنزلت الحجرات: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ - إلى قوله - حكيم ﴾[1] .

وروى ابن جرير، عن أُم سلمة رضي الله عنها قالت: بعث رسول الله ﷺ رجلاً في صدقات بني المصطلق بعد الوقيعة، فسمع بذلك القوم، فتلقوه يعظمون أمر رسول الله ﷺ قالت، فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، قالت، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: إن بني المصطلق قد منعوني صدقاتهم، فغضب رسول الله ﷺ والمسلمون، قالت: فبلغ القوم رجوعه، فأتوا رسول الله ﷺ، فصفوا له حين صلى الظهر، فقالوا: نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله، بعثت إلينا رجلاً مصدقاً، فسررنا بذلك، وقرت به أعيننا، ثم إنه رجع من بعض الطريق، فخشينا أن يكون ذلك غضباً من الله تعالى ومن رسوله ﷺ، فلم يزالوا يكلمونه، حتى جاء بلال رضي الله عنه، فأذن بصلاة العصر، قالت: ونزلت: « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾[2] ؟

وقال مجاهد وقتادة: أرسل رسول الله ﷺ (الوليد بن عقبة) إلى بني المصطلق ليصدقهم، فتلقوه بالصدقة فرجع، فقال: إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك، زاد قتادة: وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه إليهم، وأمره أن يتثبت ولا يعجل، فانطلق حتى أتاهم ليلاً. فبعث عيونه، فلما جاءوا أخبروا خالداً رضي الله عنه أنهم مستمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد رضي الله عنه فرأى الذي يعجبه، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وكذا ذكر غير واحد من السلف، أنها نزلت في (الوليد بن عقبة)، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾ أي اعلموا أن بين أظهركم رسول الله، فعظّموه ووقّروه وتأدّبوا معه وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم، ﴿ لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم ﴾ أي لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرجكم، كما قال سبحانه: ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ ولكنَّ الله حبّب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ﴾ أي حببه إلى نفوسكم، وحسّنه في قلوبكم، عن أَنَس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: « الإسلام علانية والإيمان في القلب »، ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات ثم يقول: « التقوى ههنا، التقوى ههنا »[3]، ﴿ وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾ أي وبغض إليكم الكفر والفسوق وهي الذنوب الكبار، والعصيان وهي جميع المعاصي وهذا تدريج لكمال النعمة، وقوله تعالى: ﴿ أولئك هم الراشدون ﴾ أي المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد آتاهم الله رشدهم، عن أبي رفاعة الزرقي، عن أبيه قال: لما كان يوم أُحُد وانكفأ المشركون قال رسول الله ﷺ: « استووا حتى أثني على ربي عزّ وجلّ »، فصاروا خلفه صفوفاً، فقال ﷺ: « اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد وابن أبي حاتم والطبراني.

(٢) أخرجه ابن جرير من حديث أم سلمة.

(٣) أخرجه الإمام أحمد.

ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم، الذي لا يحول ولا يزول، اللهم أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذِّبون رسلك، ويصدُّون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أُوتوا الكتاب إله الحق »[1]. وفي الحديث المرفوع: « من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن »، ثم قال: ﴿ فضلاً من الله ونعمة ﴾ أي هذا العطاء الذي منحكموه، هو فضل منه عليكم، ونعمة من لدنه ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي عليم بمن يستحق الهداية، ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى آمراً بالإصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض: ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ فسماهم مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا استدل البخاري وغيره، على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج والمعتزلة، وهكذا ثبت أن رسول الله ﷺ خطب يوماً ومعه على المنبر الحسن ابن علي رضي الله عنهما، فجعل ينظر إليه مرة، وإلى الناس أُخرى ويقول: « إن ابني هذا سيد ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين »[2]. فكان كما قال ﷺ، أصلح الله تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق، بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة، وقوله تعالى: ﴿ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ أي حتى ترجع إلى أمر الله ورسوله، وتسمع للحق وتطيعه، كما ثبت في الصحيح: « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » قيل: يا رسول الله أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ قال ﷺ: « تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه ».

وروى الإمام أحمد، عن أنَس رضي الله عنه قال، قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أُبي، فانطلق إليه النبي ﷺ، وركب حماراً، وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة، فلما انطلق النبي ﷺ إليه قال: إليك عني فوالله لقد آذاني ريح حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك، قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي

(١) أخرجه الإمام أحمد والنسائي.

(٢) أخرجه البخاري عن أبي بكرة رضي الله عنه.

والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾[١] . وذكر سعيد بن جبير : أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأمر بالصلح بينهما، وقال السدي: كان رجل من الأنصار يقال له عمران، كانت له امرأة تدعى أم زيد، وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها، وجعلها في علية له، لا يدخل عليها أحد من أهلها، وإن المرأة بعثت إلى أهلها فجاء قومها وأنزلوها، لينطلقوا بها، وإن الرجل كان قد خرج، فاستعان أهل الرجل، فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها فتدافعوا واجتلدوا بالنعال، فنزلت فيهم هذه الآية، فبعث إليهم رسول الله ﷺ، وأصلح بينهم وفاءوا إلى أمر الله تعالى.
وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾ أي اعدلوا بينهما بالقسط وهو العدل ﴿إن الله يحب المقسطين﴾، روى ابن أبي حاتم، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ: قال: «إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن عزّ وجلّ بما أقسطوا في الدنيا»[٢] .
وعن النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولوا»[٣]. وقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾ أي الجميع أخوة في الدين كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمهُ ولا يسلمه»، وفي الصحيح: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»، وفي الصحيح أيضاً: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين ولك بمثله» والأحاديث في هذا كثيرة. وقوله تعالى: ﴿فأصلحوا بين أخويكم﴾ يعني الفئتين المقتتلتين ﴿واتقوا الله﴾ أي في جميع أموركم ﴿لعلكم ترحمون﴾. وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾

ينهى تعالى عن السخرية بالناس وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكبر بطر الحق، وغمط الناس»، والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم وهذا حرام، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدراً عند الله تعالى وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له، ولهذا قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن﴾ فنص على نهي الرجال وعطف بنهي النساء، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ أي لا تلمزوا الناس، والهماز اللمَّاز من الرجال مذموم ملعون كما قال تعالى: ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾، والهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿هماز مشاء بنميم﴾ قال ابن عباس ومجاهد: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ أي لا يطعن بعضكم على بعض، وقوله تعالى: ﴿ولا تنابزوا

---

(١) أخرجه أحمد ورواه البخاري بنحوه .
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم والنسائي .
(٣) أخرجه مسلم والنسائي وابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو .

بالألقاب﴾ أي لا تداعوا بالألقاب وهي التي يسوء الشخص سماعها، قال الشعبي: حدثني أبو جبيرة بن الضحاك قال: فينا نزلت في بني سلمة ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء، قالوا: يا رسول الله إنه يغضب من هذا، فنزلت: ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾[1]، وقوله جلّ وعلا: ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ أي بئس الصفة والاسم الفسوق، وهو التنابز بالألقاب كما كان أهل الجاهلية يتناعتون بعد ما دخلتم في الإسلام وعقلتموه ﴿ومن لم يتب﴾ أي من هذا ﴿فأولئك هم الظالمون﴾.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ١٢﴾

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والناس في غير محله، لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً وأنت تجد لها في الخير محملاً، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك! ما أعظمك وأعظم حرمتك! والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك، ماله ودمه وأن يظن به إلا خيراً»[2]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»[3].

وعن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»[4]. وروى الطبراني، عن حارثة بن النعمان رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لازمات لأمتي: الطيرة والحسد وسوء الظن»، فقال رجل: وما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال ﷺ: «إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض»[5]. وروى أبو داود، عن زيد رضي الله عنه قال: أُتي ابن مسعود رضي الله عنه برجل فقيل له هذا فلان تقطر لحيته خمراً، فقال عبد الله رضي الله عنه: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به»[6].

وروى الإمام أحمد، عن أبي الهيثم عن دجين كاتب عقبة قال: قلت لعقبة إن لنا جيراناً يشربون الخمر،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود.

(٢) أخرجه ابن ماجة في سننه.

(٣) أخرجه البخاري والإمام مالك.

(٤) أخرجه مسلم والترمذي وصححه.

(٥) رواه الطبراني.

(٦) رواه أبو داود وسماه ابن أبي حاتم في روايته (الوليد بن عقبة).

وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم، قال: لا تفعل، ولكن عظهم وتهددهم، قال: ففعل فلم ينتهوا، قال، فجاءه دجين، فقال: إني قد نهيتهم وإني داع لهم الشرط، فتأخذهم، فقال له عقبة: ويحك لا تفعل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها»[1]. ﴿ولا تجسسوا﴾ أي على بعضكم بعضاً، والتجسس غالباً يطلق في الشر ومنه الجاسوس، وأما التحسس فيكون غالباً في الخير، كما قال عزّ وجلّ إخباراً عن يعقوب: ﴿يا بنيَّ اذهبوا فتحسَّسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله﴾. وقال الأوزاعي: التجسس البحث عن الشيء، والتحسس الاستماع إلى حديث القوم، أو يتسمع على أبوابهم، والتدابر: الصرم.

وقوله تعالى: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾ فيه نهي عن الغيبة، وقد فسّرها الشارع كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود، عن أبي هريرة، قال، قيل: يا رسول الله ما الغيبة؟ قال ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه». وعن عائشة رضي الله عنها قالت، قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا، تعني قصيرة، فقال ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته». قالت: وحكيت له إنساناً، فقال ﷺ: «ما أحب أني حكيت إنساناً، وإن لي كذا وكذا»[2]. والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما في الجرح والتعديل والنصيحة، كقوله ﷺ، لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «ائذنوا له بئس أخو العشيرة»، وكقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس رضي الله عنها وقد خطبها معاوية وأبو الجهم: «أما معاوية فصعلوك وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه»، وكذا ما جرى مجرى ذلك، ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد ولهذا شبهها تبارك وتعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت كما قال عزّ وجلّ: ﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ أي كما تكرهون هذا طبعاً فاكرهوا ذاك شرعاً، فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها والتحذير منها، وثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من غير وجه أنه ﷺ قال في خطبة حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا».

وروى أبو داود، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: كل المسلم على المسلم حرام، ماله، وعرضه، ودمه، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»[3]. وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتها، أو قال: في خدورها، فقال: «يا معشر من آمن بلسانه لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته»[4].

(طريق أخرى): عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورات المسلمين يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي.

(٣) رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن غريب.

(٤) رواه الحافظ أبو يعلى وأبو داود بنحوه.

يفضحه ولو في جوف رحله » ، قال، ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك ، وللمؤمن أعظم حرمة عند الله منك .

عن أنَس بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ : « لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، قلت: من هؤلاء يا جبريل ؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم »[١] ، وروى ابن أبي حاتم ، عن سعيد الخدري قال، قلنا : يا رسول الله حدّثنا ما رأيت ليلة أسري بك ؟ قال: « ثم انطلق بي إلى خلق من خلق الله كثير ، رجال ونساء، موكل بهم رجال يعمدون إلى عرض جنب أحدهم، فيجذون منه الجذة مثل النعل، ثم يضعونها في فيِّ أحدهم، فيقال له : كل كما أكلت – وهو يجد من أكله الموت يا محمد لو يجد الموت وهو يكره عليه – فقلت: يا جبرائيل من هؤلاء ؟ قال: هؤلاء الهمازون اللمازون أصحاب النميمة، فيقال ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ﴾ وهو يكره على أكل لحمه » .

وروى الحافظ البيهقي ، عن عبيد مولى رسول الله ﷺ أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ ، وأن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ! إن ههنا امرأتين صامتا ، وإنهما كادتا تموتان من العطش، أراه قال بالهاجرة ، فأعرض عنه أو سكت عنه، فقال: يا نبي الله إنهما والله قد ماتتا ، أو كادتا تموتان، فقال: « ادعهما » ، فجاءتا ، قال، فجيء بقدح أو عس، فقال لإحداهما: « قيئي » ، فقاءت من قيح ودم وصديد، حتى قاءت نصف القدح، ثم قال للأُخْرى: « قيئي » ، فقاءت قيحاً ودماً وصديداً ولحماً ودماً عبيطاً وغيره، حتى ملأت القدح، ثم قال: « إن هاتين صامتا عما أحل الله تعالى لهما ، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، جلست إحداهما إلى الأُخْرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس »[٢] . وروى الحافظ أبو يعلى، عن ابن عمر أن ماعزاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد زنيت ، فأعرض عنه، حتى قالها أربعاً ، فلما كان في الخامسة قال: « زنيت ؟ » قال: نعم، قال: « وتدري ما الزنا ؟ » قال: نعم، أتيت منها حراماً ما يأتي الرجل من امرأته حلالاً، قال: « ما تريد إلى هذا القول ؟ » قال: أُريد أن تطهّرني ، قال، فقال رسول الله ﷺ : « أدخلت ذلك منك في ذلك منها ، كما يغيب الميل في المكحلة والرشا في البئر ؟ » قال: نعم يا رسول الله، قال، فأمر برجمه فرُجم، فسمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه، فلم تدعه نفسه حتى رُجِمَ رَجْمَ الكلب ؟ ثم سار النبي ﷺ حتى مرَّ بجيفة حمار ، فقال: « أين فلان وفلان ؟ إنزلا . فكلا من جيفة هذا الحمار »، قالا : غفر الله لك يا رسول الله ، وهل يؤكل هذا ؟ قال ﷺ : « فما نلتما من أخيكما آنفاً أشد أكلاً منه ، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها »[٣] .

وروى الإمام أحمد، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح جيفة منتنة، فقال رسول الله ﷺ : « أتدرون ما هذه الريح ؟ هذه ريح الذين يغتابون الناس ؟ »[٤] وقوله عزّ وجلّ: ﴿ واتقوا

---

(١) أخرجه أبو داود والإمام أحمد .

(٢) أخرجه الحافظ البيهقي والإمام أحمد .

(٣) أخرجه الحافظ أبو يعلى وإسناده صحيح .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده .

الله﴾ أي فيما أمركم به ونهاكم عنه فراقبوه في ذلك واخشوا منه ، ﴿إن الله تواب رحيم﴾ أي تواب على من تاب إليه ﴿رحيم﴾ لمن رجع إليه واعتمد عليه، قال الجمهور من العلماء : طريق المغتاب للناس في توبته أن يقلع عن ذلك ، ويعزم على أن لا يعود، وهل يشترط الندم على ما فات ؟ فيه نزاع، وأن يتحلل من الذي اغتابه، وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله، فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذاً أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، لتكون تلك بتلك؛ كما قال النبي ﷺ : «من حمى مؤمناً من منافق يغتابه بعث الله تعالى إليه ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مؤمناً بشيء يريد سبه حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال»[1] . وقال رسول الله ﷺ : «ما من امرئ يخذل امرءاً مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه ، إلا خذله الله تعالى في مواطن يحب فيها نصرته، وما من امرئ ينصر امرأً مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله عزّ وجلّ في مواطن يحب فيها نصرته»[2]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها وهما (آدم) و (حواء) وجعلهم شعوباً وهي أعم من القبائل، وبعدها مراتب أُخر ، كالفصائل والعشائر والأفخاذ وغير ذلك، فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية ، إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسوله ﷺ ، ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة، واحتقار بعض الناس بعضاً، منبهاً على تساويهم في البشرية : ﴿يا أيها الناس إنا خلقنا كم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ أي ليحصل التعارف بينهم كل يرجع إلى قبيلته ، وقال مجاهد﴿ لتعارفوا﴾ كما يقال فلان ابن فلان من قبيلة كذا و كذا، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منسأة في الأثر»[3] . وقوله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾، أي إنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى لا بالأحساب .

وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ . فروى البخاري عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم ؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» ، قالوا: ليس على هذا نسألك، قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله ابن خليل الله»، قالوا: وليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألوني» ؟ قالوا: نعم، قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا» . (**حديث آخر**) : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم

(١) أخرجه أبو داود وأحمد .

(٢) أخرجه أبو داود .

(٣) أخرجه الترمذي وقال : حديث غريب .

وأعمالكم »[١]. (**حديث آخر**): وروى الإمام أحمد، عن أبي ذر رضي الله عنه قال إن النبي ﷺ قال له: « أنظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلّا أن تفضله بتقوى الله »[٢]. (**حديث آخر**): وعن حبيب بن خراش العصري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « المسلمون إخوة لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى »[٣]. (**حديث آخر**): وعن حذيفة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان »[٤]. (**حديث آخر**): قال ابن أبي حاتم، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحجن في يده، فما وجد لها مناخاً في المسجد حتى نزل ﷺ على أيدي الرجال، فخرج بها إلى بطن المسيل فأنيخت، ثم إن رسول الله ﷺ خطبهم على راحلته فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: « يا أيها الناس إن الله تعالى قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بر تقي كريم على الله تعالى، ورجل فاجر شقي هيّنٌ على الله تعالى، إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ ». ثم قال ﷺ: « أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم »[٥]. وقوله تعالى: ﴿ إن الله عليم خبير ﴾ أي عليم بكم خبير بأموركم، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير.

* قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى منكراً على الأعراب، الذين ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد: ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾، وقد استفيد أن الإيمان أخص من الإسلام، ويدل عليه حديث جبريل عليه الصلاة والسلام، حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم، إلى الأخص، روى الإمام أحمد، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال:

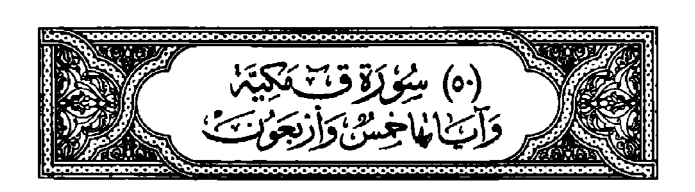
---

(١) أخرجه مسلم وابن ماجة.
(٢) تفرد به أحمد.
(٣) أخرجه الطبراني.
(٤) أخرجه البزار في مسنده.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم وعبد بن حميد.

أعطى رسول الله ﷺ رجالاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً، فقال سعد رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تعط فلاناً شيئاً وهو مؤمن، فقال النبي ﷺ: «أو مسلم؟» حتى أعادها سعد رضي الله عنه ثلاثاً والنبي ﷺ يقول: «أو مسلم؟»، ثم قال النبي ﷺ: «إني لأعطي رجالاً وأدع من هو أحبُّ إليَّ منهم، فلم أعطه شيئاً مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم»، فقد فرّق النبي ﷺ بين المؤمن والمسلم، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام، ودل على أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً، لأنه تركه من العطاء، ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام، فهؤلاء الأعراب المذكورون في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك، وإنما قلنا هذا لأن البخاري رحمه الله ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الإيمان وليسوا كذلك، وقد روي عن سعيد بن جبير ومجاهد ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾: أي استسلمنا خوف القتل والسبي، قال مجاهد: نزلت في بني أسد بن خزيمة، وقال قتادة: نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ، **والصحيح** الأول أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يحصل لهم بعد فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا، وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: ﴿قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم﴾ أي لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد، ثم قال تعالى: ﴿وإن تطيعوا الله ورسوله لايلتكم من أعمالكم شيئاً﴾ أي لا ينقصكم من أجوركم شيئاً كقوله عزّ وجلّ: ﴿وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾، وقوله تعالى: ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي لمن تاب إليه وأناب.

وقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون﴾ أي إنما المؤمنون الكُمَّل ﴿الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا﴾ أي لم يشكوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة، وهي التصديق المحض، ﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ أي وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه، ﴿أولئك هم الصادقون﴾ أي في قولهم إذا قالوا إنهم مؤمنون، لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قل أتعلمون الله بدينكم﴾ أي أتخبرونه بما في ضمائركم؟ ﴿والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض﴾ أي لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ﴿والله بكل شيء عليم﴾. ثم قال تعالى: ﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليّ إسلامكم﴾ يعني الأعراب الذين يمُنون بإسلامهم ومتابعتهم على الرسول ﷺ، يقول الله تعالى رداً عليهم: ﴿قل لا تمنوا عليَّ إسلامكم﴾ فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم ولله المنة عليكم فيه، ﴿بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾ أي في دعواكم ذلك، كما قال النبي ﷺ للأنصار يوم حنين: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلَّالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمنّ. وروى الحافظ البزار. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله أسلمنا، وقاتلتك العرب ولم نقاتلك، فقال رسول الله ﷺ: «إن فقههم قليل، وإن الشيطان ينطلق على ألسنتهم»، ونزلت هذه الآية: ﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليَّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾، ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات فقال: ﴿إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون﴾.

[آخر تفسير سورة الحجرات. ولله الحمد والمنة. وبه التوفيق والعصمة]



هذه السورة هي أول المفصل على الصحيح، وقيل من الحجرات، والدليل على ذلك ما رواه أبو داود في سننه « باب تحزيب القرآن » ، ثم قال قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده[1]، **بيانه** : (ثلاث) البقرة وآل عمران والنساء، و (خمس) المائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة، و (سبع) يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل، و (تسع) سبحان والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان، و (إحدى عشرة) الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والم السجدة والأحزاب وسبأ وفاطر ويس، و (ثلاث عشرة) الصافات وص والزمر وغافر وحم السجدة وحم عسق والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف والقتال والفتح والحجرات، ثم بعد ذلك الحزب المفصل، كما قاله الصحابة رضي الله عنهم، فتعين أن أوله سورة ق، وقال الإمام أحمد عن عبدالله بن عبد الله أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد، قال: بقاف واقتربت[2] . وعن أم هشام بنت حارثة قالت: لقد كان تنورنا وتنور النبي ﷺ واحداً سنتين أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ، كان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس[3] .

والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق، والبعث والنشور والمعاد والقيام، والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب، والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجة .

(٢) أخرجه مسلم وأصحاب السنن .

(٣) أخرجه مسلم وأبو داود وأحمد .

وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾

﴿ق﴾ حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور، كقوله تعالى: ﴿ص - ون - والم﴾ ونحو ذلك قاله مجاهد وغيره، وقد أسلفنا الكلام عليها في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته، وقوله تعالى: ﴿والقرآن المجيد﴾، أي الكريم العظيم الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾، واختلفوا في جواب القسم ما هو؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه قوله تعالى: ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ﴾ وفي هذا نظر، بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم وهو إثبات النبوة وإثبات المعاد وتقريره وتحقيقه، وإن لم يكن القسم يتلقى لفظاً، وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدم في قوله: ﴿ص والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾، وهكذا قال ههنا ﴿ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب﴾ أي تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر، كقوله جلّ جلاله: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾ أي وليس هذا بعجيب، فإن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، ثم قال عزّ وجلّ مخبراً عنهم في تعجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه ﴿أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد﴾ أي يقولون أئذا متنا وبلينا وتقطعت الأوصال منا وصرنا تراباً، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ﴿ذلك رجع بعيد﴾ أي بعيد الوقوع، والمعنى أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه، قال الله تعالى راداً عليهم ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ أي ما تأكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان، وأين ذهبت وإلى أين صارت ﴿وعندنا كتاب حفيظ﴾ أي حافظ لذلك، فالعلم شامل والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة، قال ابن عباس ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ أي ما تأكل من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم؛ ثم بين تبارك وتعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد، فقال: ﴿بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج﴾ أي وهذا حال كل من خرج عن الحق مهما قال بعد ذلك فهو باطل، و «المريج» المختلف المضطرب المنكر، كقوله تعالى: ﴿إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك﴾.

أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾

يقول تعالى منبهاً للعباد على قدرته العظيمة، التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها﴾؟ أي بالمصابيح، ﴿وما لها من فروج﴾ قال مجاهد: يعني من

شقوق، وقال غيره: فتوق، وقال غيره: صدوع، والمعنى متقارب، كقوله تبارك وتعالى: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿والأرض مددناها﴾ أي وسعناها وفرشناها ﴿وألقينا فيها رواسي﴾ وهي الجبال لئلا تميد بأهلها وتضطرب، فإنها مقرة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها، ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾ أي من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع، ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ وقوله ﴿بهيج﴾ أي حسن المنظر. ﴿تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾ أي مشاهدة خلق السماوات والأرض وما جعل الله فيهما من الآيات العظيمة ﴿تبصرة﴾ ودلالة وذكرى لكل ﴿عبد منيب﴾ أي خاضع خائف وجل، رجَّاع إلى الله عزّ وجلّ، وقوله تعالى: ﴿ونزلنا من السماء ماءً مباركاً﴾ أي نافعاً ﴿فأنبتنا به جنات﴾ أي حدائق من بساتين ونحوها ﴿وحب الحصيد﴾ وهو الزرع الذي يراد لحبه وادخاره، ﴿والنخل باسقات﴾ أي طوالاً شاهقات، قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة: الباسقات الطوال، ﴿لها طلع نضيد﴾ أي منضود، ﴿رزقاً للعباد﴾ أي للخلق، ﴿وأحيينا به بلدة ميتاً﴾ وهي الأرض التي كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزاهير وغير ذلك مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعدما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيي الله الموتى، وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس، أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث، كقوله عزّ وجل: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾، وقوله تعالى: ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى إنه على كل شيء قدير﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى متهدداً لكفار قريش، بما أحله بأشباههم ونظرائهم من المكذبين قبلهم من النقمات والعذاب الأليم كقوم نوح، وما عذبهم الله تعالى به من الغرق العام لجميع أهل الأرض، ﴿وأصحاب الرس﴾ وقد تقدمت قصتهم في سورة الفرقان، ﴿وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط﴾ وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سدوم، وكيف خسف الله تعالى بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة، بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق ﴿وأصحاب الأيكة﴾ وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿وقوم تبع﴾ وهو اليماني، وقد ذكرنا من شأنه في سورة الدخان، ﴿كلٌّ كذب الرسل﴾ أي كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسولهم، ومن كذب رسولاً فإنما كذب جميع الرسل كقوله جلّ وعلا: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾، ﴿فحق وعيد﴾ أي فحق عليهم ما أوعدهم الله تعالى على التكذيب من العذاب والنكال، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم، فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك، وقوله تعالى: ﴿أفعيينا بالخلق الأول﴾ أي أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شك من الإعادة؟ ﴿بل هم في لبس من خلق جديد﴾، والمعنى أن ابتداء الخلق لم يعجزنا، والإعادة أسهل منه كما قال عزّ وجل: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، وقال: ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو

بكل خلق عليم﴾، وقد تقدم في الصحيح: «يقول الله تعالى يؤذيني ابن آدم يقول لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته».

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأن علمه محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفسه من الخير والشر، وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل». وقوله عزّ وجلّ: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ يعني ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ كما قال في المحتضر ﴿ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾ يعني ملائكته، فالملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، بإقدار الله جل وعلا لهم على ذلك، فللملَك لَمَّة من الإنسان كما أن للشيطان لمة، ولهذا قال تعالى ههنا ﴿إذ يتلقى المتلقيان﴾ يعني الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ أي مترصد، ﴿ما يلفظ﴾ أي ابن آدم ﴿من قول﴾ أي ما يتكلم بكلمة ﴿إلا لديه رقيب عتيد﴾ أي إلا ولها من يرقبها، معد لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون﴾ وقد اختلف العلماء هل يكتب الملك كل شيء من الكلام[1]، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب[2] على قولين: وظاهر الآية الأول لعموم قوله تبارك وتعالى: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾. وقد روى الإمام أحمد، عن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله عزّ وجلّ له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه»[3] فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث، وقال الأحنف بن قيس: صاحب اليمين يكتب الخير وهو أمين على صاحب الشمال، فإن أصاب العبد خطيئة قال له: أمسك، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها وإن أبى كتبها، وقال الحسن البصري؛ وتلا هذه الآية ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾: يا ابن آدم بسطت لك

---

(١) وهو قول الحسن وقتادة.

(٢) وهو قول ابن عباس.

(٣) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة.

صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقال لك: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ ثم يقول: عَدَل والله فيك من جعلك حسيب نفسك».

وقال ابن عباس ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى أنه ليكتب قوله: أكلت، شربت، ذهبت، جئت، رأيت. حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأقرَّ منه ما كان فيه من خير أو شر وألقي سائره، وذلك قوله تعالى: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾. وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه، فبلغه عن طاووس أنه قال: يكتب الملك كل شيء حتى الأنين، فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾ يقول عزّ وجلّ: وجاءت أيها الإنسان سكرة الموت بالحق أي كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيه، ﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾ أي هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك، فلا محيد ولا مناص ولا فكاك ولا خلاص، **والصحيح** أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو، وقيل: الكافر، وقيل غير ذلك، روي أنه لما أن ثقل أبو بكر رضي الله عنه جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال رضي الله عنه: ليس كذلك، ولكن قولي: ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «سبحان الله إن للموت لسكرات». وفي قوله: ﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾ **قولان**:

(أحدهما): أن (ما) ههنا موصولة أي الذي كنت منه تحيد بمعنى تبتعد وتفر، قد حلَّ بك ونزل بساحتك.

(والقول الثاني): أن (ما) نافية بمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفراق منه ولا الحيد عنه.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد﴾ قد تقدم الكلام على حديث النفخ في الصور وذلك يوم القيامة، وفي الحديث، أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحَنَى جبهته وانتظر أن يؤذن له». قالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال ﷺ: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل»، فقال القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل. ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ أي ملك يسوقه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله، هذا هو الظاهر من الآية الكريمة وهو اختيار ابن جرير، لما روي عن يحيى بن رافع قال: سمعت عثمان بن عفان رضي الله عنه يخطب فقرأ هذه الآية ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ فقال: سائق يسوقها إلى الله تعالى، وشاهد يشهد عليها بما عملت، وكذا قال مجاهد وقتادة، وقال أبو هريرة: السائق الملك، والشهيد العمل، وكذا قال الضحّاك والسدي، وقال ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد الإنسان نفسه يشهد على نفسه، وبه قال الضحاك أيضاً. وقوله تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ قيل: إن المراد بذلك الكافر، وقيل: إن المراد بذلك كل أحد من بر وفاجر، لأن الآخرة بالنسبة إلى

الدنيا كاليقظة، والدنيا كالمنام، وهذا اختيار ابن جرير[1]، والظاهر من السياق أن الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا﴾ يعني من هذا اليوم، ﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ أي قوي، لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصراً، حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك، قال الله تعالى: ﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾.

وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ * قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن الملك الموكل بعمل آدم، أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل ويقول: ﴿هذا ما لديّ عتيد﴾ أي معتد محضر بلا زيادة ولا نقصان، وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابن آدم الذي وكلتني به قد أحضرته، وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد، وله اتجاه وقوة، فعند ذلك يحكم الله تعالى في الخليقة بالعدل فيقول: ﴿ألقيا في جهنم كل كفار عنيد﴾، وقد اختلف النحاة في قوله: ﴿ألقيا﴾ فقال بعضهم: هي لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالتثنية، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدى الشهيد عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم وبئس المصير ﴿ألقيا في جهنم كل كفار عنيد﴾ أي كثير الكفر والتكذيب بالحق ﴿عنيد﴾ معاند للحق معارض له بالباطل مع علمه بذلك، ﴿مناع للخير﴾ أي لا يؤدي ما عليه من الحقوق، لا بر ولا صلة ولا صدقة، ﴿معتد﴾ أي فيما ينفقه ويصرفه، يتجاوز فيه الحد، وقال قتادة: معتد في منطقه وسيره وأمره، ﴿مريب﴾ أي شاك في أمره، مريب لمن نظر في أمره، ﴿الذي جعل مع الله إلهاً آخر﴾ أي أشرك بالله فعبد معه غيره، ﴿فألقياه في العذاب الشديد﴾، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يخرج عنق من النار يتكلم يقول: وكلت اليوم بثلاثة: بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلهاً آخر، ومن قتل نفساً بغير نفس، فتنطوي عليهم فتقذفهم في غمرات جهنم»[2]. ﴿قال قرينه﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو الشيطان الذي وكل به، ﴿ربنا ما أطغيته﴾ أي يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافراً يتبرأ منه شيطانه فيقول ﴿ربنا ما أطغيته﴾ أي ما أضللته، ﴿ولكن كان في ضلال بعيد﴾ أي بل كان هو في نفسه ضالاً، معانداً للحق، كما أخبر سبحانه في قوله: ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ الآية. وقوله تبارك وتعالى: ﴿قال لا تختصموا لدي﴾ يقول الرب عزّ وجلّ للإنسي وقرينه من الجن، وذلك أنهما

(١) وهو منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما. (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

يختصمان بين يدي الحق تعالى، فيقول الإنسي: يا رب هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني، ويقول الشيطان: ﴿ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد﴾ أي عن منهج الحق، فيقول الرب عزّ وجلّ لهما: ﴿لا تختصموا لديّ﴾ أي عندي، ﴿وقد قدمت إليكم بالوعيد﴾ أي قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب وقامت عليكم الحجج والبراهين، ﴿ما يبدل القول لديّ﴾ قال مجاهد: يعني قد قضيت ما أنا قاض، ﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾ أي لست أعذب أحداً بذنب أحد، ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه، بعد قيام الحجة عليه.

* يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة هل امتلأت؟ وهي تقول: هل من مزيد؟ أي هل بقي شيء تزيدوني؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث، روى البخاري عند تفسير هذه الآية، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يلقى في النار وتقول هل من مزيد؟ حتى يضع قدمه فيها فتقول: قط قط». وروى الإمام أحمد، عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة قدمه فيها فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط وعزتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً آخر فيسكنهم الله تعالى في فضول الجنة»[1]. (**حديث آخر**): وروى البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين؛ وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟ قال الله عزّ وجلّ، للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع رجله فيها فتقول: قط قط فهنالك تمتلئ وينزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عزّ وجلّ من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله عزّ وجلّ ينشئ لها خلقاً آخر»[2]. (**حديث آخر**): روى مسلم في صحيحه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «احتجت الجنة والنار فقالت النار: فيّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: فيّ ضعفاء الناس ومساكينهم، فقضى بينهما؛ فقال للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار، إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها»[3]. وعن عكرمة ﴿وتقول هل من مزيد﴾: وهل فيّ مدخل واحد؟ قد امتلأت. وقال مجاهد: لا يزال يقذف فيها حتى تقول قد امتلأت، فتقول: هل فيّ مزيد؟ وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو هذا، فعند هؤلاء أن قوله تعالى ﴿هل امتلأت﴾ إنما هو بعد ما يضع عليها قدمه فتنزوي وتقول حينئذ: هل بقي فيّ مزيد يسع شيئاً؟ قال العوفي عن ابن عباس: وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة، والله أعلم.

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم في صحيحه بنحوه.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.
(٣) تفرد به الإمام مسلم.

وقوله تعالى: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾ قال قتادة والسدي: ﴿وأزلفت﴾ أدنيت وقربت من المتقين، ﴿غير بعيد﴾ وذلك يوم القيامة وليس ببعيد لأنه واقع لا محالة وكل ما هو آت قريب، ﴿هذا ما توعدون لكل أواب﴾ أي رجاع تائب مقلع، ﴿حفيظ﴾ أي يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكثه، وقال عبيد بن عمير: الأواب الحفيظ الذي لا يجلس مجلساً فيقوم حتى يستغفر الله عزّ وجلّ، ﴿من خشي الرحمن بالغيب﴾ أي من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله عزّ وجلّ كقوله ﷺ: «ورجل ذكر الله تعالى خالياً ففاضت عيناه»[1] ﴿وجاء بقلب منيب﴾ أي ولقي الله عزّ وجلّ يوم القيامة بقلب منيب سليم إليه خاضع لديه. ﴿أدخلوها﴾ أي الجنة ﴿بسلام﴾ قال قتادة: سَلِموا من عذاب الله عزّ وجلّ، وسلّم عليهم ملائكة الله، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ذلك يوم الخلود﴾ أي يخلدون في الجنة فلا يموتون أبداً ولا يظعنون أبداً ولا يبغون عنها حولاً، وقوله جلت عظمته: ﴿لهم ما يشاءون فيها﴾ أي مهما اختاروا وجدوا من أي أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم، عن كثير بن مرة قال: «من المزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ماذا تريدون فأمطره لكم؟ فلا يدعون بشيء إلا أمطرتهم». وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال له: «إنك لتشتهي الطير في الجنة فيخر بين يديك مشوياً»[2]. وروى الإمام أحمد، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة»[3]. وقوله تعالى: ﴿ولدينا مزيد﴾ كقوله عزّ وجلّ: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾، وقد تقدم في صحيح مسلم عن صهيب بن سنان الرومي أنها النظر إلى وجه الله الكريم، وقد روى البزار، عن أنس بن مالك في قوله عزّ وجلّ ﴿ولدينا مزيد﴾ قال: «يظهر لهم الرب عزّ وجلّ في كل جمعة»[4]. وروى الإمام أحمد، عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل في الجنة ليتكئ في الجنة سبعين سنة قبل أن يتحوّل، ثم تأتيه امرأة تضرب على منكبيه فينظر وجهه في خدها أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب فتسلم عليه فيرد السلام، فيسألها: من أنت؟ فتقول: أنا من المزيد، وإنه ليكون عليها سبعون حلة أدناها مثل النعمان من طوبى، فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك، وإن عليها من التيجان، إنّ أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب[5].

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾

---

(١) هو صنف من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة، والحديث أخرجه الشيخان.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود مرفوعاً. (٣) رواه أحمد وابن ماجة والترمذي، وزاد الترمذي: كما اشتهى.

(٤) أخرجه البزار وابن أبي حاتم موقوفاً، ورواه الشافعي مرفوعاً في مسنده.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

يقول تعالى: ﴿وكم أهلكنا قبلهم﴾ قبل هؤلاء المكذبين ﴿من قرن هم أشد منهم بطشاً﴾ أي كانوا أكثر منهم وأشد قوة. ولهذا قال تعالى: ﴿فنقبوا في البلاد هل من محيص﴾. قال مجاهد: ﴿فنقبوا في البلاد﴾ ضربوا في الأرض. وقال قتادة: فساروا في البلاد أي ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب. ويقال لمن طوف في البلاد، نقب فيها، وقوله تعالى: ﴿هل من محيص﴾ أي هل من مفر لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه لما كذبوا الرسل؟ فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا محيد، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إن في ذلك لذكرى﴾ أي لعبرة ﴿لمن كان له قلب﴾ أي لب يعي به، وقال مجاهد: عقل، ﴿أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ أي استمع الكلام فوعاه، وتعقله بعقله وتفهمه بلبه، وقال الضحّاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه إذ استمع بأذنيه وهو شاهد بقلب غير غائب، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ فيه تقرير للمعاد، لأن من قدر على خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن، قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأحرى. وقال قتادة: قالت اليهود - عليهم لعائن الله - خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه: ﴿وما مسنا من لغوب﴾ أي من إعياء ولا تعب ولا نصب، كما قال تعالى: ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى إنه على كل شيء قدير﴾ وكما قال عزَّ وجلَّ: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ وقال تعالى: ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها﴾؟

وقوله عزّ وجل: ﴿فاصبر على ما يقولون﴾ يعني المكذبين اصبر عليهم واهجرهم هجراً جميلاً ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾، وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتان قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبي ﷺ وعلى أمته حولاً، ثم نسخ في حق الأمة وجوبه. ثم بعد ذلك نسخ الله تعالى ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات. ولكن منهن صلاة (الصبح والعصر) فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، وقد روى الإمام أحمد، عن جرير بن عبدالله رضي الله عنهما قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر لا تضامون فيه، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»، ثم قرأ: ﴿وسبّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ومن الليل فسبحه﴾ أي فصلِّ له كقوله: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾، ﴿وأدبار السجود﴾ قال مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو التسبيح بعد الصلاة، ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، فقال النبي ﷺ: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، قال ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين» قال، فقالوا: يا رسول الله سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال ﷺ:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، ورواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة.

«ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[١]. والقول الثاني أن المراد بقوله تعالى: ﴿وأدبار السجود﴾ هما الركعتان بعد المغرب، وبه يقول مجاهد وعكرمة والشعبي. روى الإمام أحمد، عن علي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يصلي على أثر كل صلاة مكتوبة ركعتين إلا الفجر والعصر، وقال عبد الرحمن: دبر كل صلاة»[٢]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بت ليلة عند رسول الله ﷺ فصلى ركعتين خفيفتين اللتين قبل الفجر، ثم خرج إلى الصلاة فقال: يا ابن عباس: «ركعتين قبل صلاة الفجر إدبار النجوم، وركعتين بعد المغرب إدبار السجود»[٣].

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿واستمع﴾ يا محمد ﴿يوم ينادي المنادي من مكان قريب﴾ قال كعب الأحبار: يأمر الله تعالى ملكاً أن ينادي على صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة. إن الله تعالى يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء ﴿يوم يسمعون الصيحة بالحق﴾ يعني النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون، ﴿ذلك يوم الخروج﴾ أي من الأجداث ﴿إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير﴾، أي هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وإليه مصير الخلائق كلهم، فيجازي كلاً بعمله، إن خيراً فخير. وإن شراً فشر. وقوله تعالى: ﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً﴾ وذلك أن الله عزّ وجلّ ينزل مطراً من السماء ينبت به أجساد الخلائق كلها في قبورها كما ينبت الحب في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله تعالى إسرافيل فينفخ في الصور. فإذا نفخ فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض. فيقول الله عزّ وجلّ: وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره، فترجع كل روح إلى جسدها. فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ، وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب، سراعاً مبادرين إلى أمر الله عزّ وجلّ، ﴿مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾، وقال تعالى: ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾. وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض». وقوله عزّ وجلّ: ﴿ذلك حشر علينا يسير﴾ أي تلك إعادة سهلة علينا يسيرة لدينا، كما قال جلّ جلاله: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير﴾، وقوله جل وعلا: ﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ أي علمنا محيط بما يقول لك المشركون، فلا يهولنك ذلك، كقوله: ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ أي ولست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مما كلفت به، وقال مجاهد والضحاك: أي لا تتجبر عليهم، والقول الأول أولى. قال الفراء: سمعت

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي. (٣) أخرجه ابن أبي حاتم والترمذي.

العرب تقول: جبر فلان فلاناً على كذا بمعنى أجبره، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ فذكر بالقرآن من يخـاف وعيد﴾ أي بلّغ أنت رسالة ربك ، فإنمـا يتذكر من يخاف الله ووعيده كقوله تعالى: ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾، وقوله جلّ جلاله: ﴿ فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر ﴾ . ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ ، ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخـاف وعيد ﴾ كان قتادة يقول : اللهم اجعلنـا ممن يخـاف وعيدك ، ويرجو موعودك ، يا بار يا رحيم .

[آخر تفسير سورة ق ، والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل]





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)

قوله تعالى: ﴿والذاريات ذرواً﴾ قال علي رضي الله عنه: الريح، ﴿فالحاملات وقراً﴾ قال: السحاب ﴿فالجاريات يسراً﴾ قال: السفن ﴿فالمقسمات أمراً﴾ قال: الملائكة[1] .

وقد روي عن سعيد بن المسيب قال: جاء صبيغ التميمي إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن الذاريات ذرواً، فقال رضي الله عنه: هي الرياح، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته، قال: فأخبرني عن المقسمات أمراً، قال رضي الله عنه: هي الملائكة، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته، قال: فأخبرني عن الجاريات يسراً، قال رضي الله عنه: هي السفن، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته[2] . وهكذا فسرها ابن عباس وابن عمر وغير واحد، ولم يحك ابن جرير غير ذلك، وقد قيل: إن المراد بالذاريات (الريح) وبالحاملات وقراً (السحاب) كما تقدم لأنها تحمل الماء، فأما ﴿الجاريات يسراً﴾ فالمشهور عن الجمهور أنها السفن، تجري ميسرة في الماء جرياً سهلاً، وقال بعضهم: هي النجوم تجري يسراً في أفلاكها، ليكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمراً، الملائكة فوق ذلك

---

(١) روي من غير وجه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه صعد منبر الكوفة فقال : لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى ، ولا عن سنّة رسول الله ﷺ إلا أنبأتكم بذلك ، فسأله ابن الكواء عن قوله تعالى ﴿والذاريات﴾ الخ .

(٢) رواه الحافظ البزار .

تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية، وهذا قسم من الله عزّ وجلّ على وقوع المعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿ إنما توعدون لصادق﴾ أي لخبر صدق، ﴿ وإن الدين﴾ وهو الحساب ﴿ لواقع﴾ أي لكائن لا محالة، ثم قال تعالى: ﴿ والسماء ذات الحبك﴾ قال ابن عباس: ذات الجمال والبهاء، والحسن والاستواء،[1] وقال الضحاك: الرمل والزرع إذا ضربته الريح فينسج بعضه بعضاً طرائق طرائق، فذلك الحبك، وعن أبي صالح ﴿ ذات الحبك﴾ الشدة ، وقال خصيف ﴿ ذات الحبك﴾ ذات الصفاقة، وقال الحسن البصري: ﴿ ذات الحبك﴾ حبكت بالنجوم، وقال عبدالله بن عمرو ﴿ والسماء ذات الحبك﴾ يعني السماء السابعة وكأنه – والله أعلم – أراد بذلك السماء التي فيها الكواكب الثابتة . وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد وهو الحسن والبهاء ، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما فإنها من حسنها مرتفعة شفافة صفيقة، شديدة البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالكواكب الزاهرات . وقوله تعالى: ﴿ إنكم لفي قول مختلف﴾ أي إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل ﴿ لفي قول مختلف﴾ مضطرب لا يلتئم ولا يجتمع ، وقال قتادة: ﴿ إنكم لفي قول مختلف﴾ ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به ﴿ يؤفك عنه من أفك﴾ أي إنما يروج على من هو ضال في نفسه، لأنه قول باطل، ينقاد له ويضل بسببه من هو مأفوك ضال، غِمْر لا فهم له. قال ابن عباس ﴿ يؤفك عنه من أفك﴾ يضل عنه من ضل، وقال مجاهد: يؤفن عنه من أفن، وقال الحسن البصري: يصرف عن هذا القرآن من كذب به، وقوله تعالى: ﴿ قتل الخراصون﴾ قال مجاهد: الكذابون، وهي مثل التي في عبس، ﴿ قتل الإنسان ما أكفره﴾ والخراصون الذين يقولون: لا نبعث ولا يوقنون، وقال ابن عباس ﴿ قتل الخراصون﴾ أي لعن المرتابون، وقال قتادة: الخراصون أهل الغرة والظنون، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ الذين هم في غمرة ساهون﴾ قال ابن عباس وغير واحد: في الكفر والشك غافلون لاهون ﴿ يسألون أيان يوم الدين﴾ وإنما يقولون هذا تكذيباً وعناداً، وشكاً واستبعاداً قال الله تعالى: ﴿ يوم هم على النار يفتنون﴾ قال ابن عباس: يعذبون، قال مجاهد: كما يفتن الذهب على النار، وقال جماعة آخرون: ﴿ يفتنون﴾ يحرقون ﴿ ذوقوا فتنتكم﴾ قال مجاهد: حريقكم، وقال غيره: عذابكم ﴿ هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، وتحقيراً وتصغيراً ، والله أعلم .

* إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن المتقين لله عزّ وجل، أنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال، وقوله تعالى: ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم﴾، قال ابن جرير :

---

(١) وهو قول مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي وقتادة وغيرهم .

أي عاملين بما آتاهم الله من الفرائض، ﴿إنهم كانوا قبل ذلك محسنين﴾ أي قبل أن يفرض عليهم الفرائض كانوا محسنين في الأعمال أيضاً، والذي فسر به ابن جرير فيه نظر، لأن قوله تبارك وتعالى ﴿آخذين﴾ حال من قوله ﴿في جنات وعيون﴾ فالمتقون في حال كونهم في الجنان والعيون آخذين ما آتاهم ربهم، أي من النعيم والسرور والغبطة. وقوله عزّ وجلّ: ﴿إنهم كانوا قبل ذلك﴾ أي في الدار الدنيا، ﴿محسنين﴾ كقوله تعالى: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾، ثم إنه تعالى بيّن إحسانهم في العمل فقال جلّ وعلا: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾. اختلف المفسرون في ذلك على قولين: **أحدهما**: أن (ما) نافية تقديره: كانوا قليلاً من الليل لا يهجعونه. قال ابن عباس: لم تكن تمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئاً؛ وقال قتادة: قلّ ليلة تأتي عليهم إلا يصلون فيها لله عزّ وجلّ، إما من أولها أو من وسطها، وقال مجاهد: قلَّ ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون، **والقول الثاني**: أن (ما) مصدرية تقديره: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم، واختاره ابن جرير، وقال الحسن البصري: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾، كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر، وقال الأحنف بن قيس: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ كانوا لا ينامون إلا قليلاً، ثم يقول: لست من أهل هذه الآية، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل من بني تميم لأبي: يا أبا أسامة صفةٌ لا أجدها فينا ذكر الله تعالى قوماً فقال: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ ونحن والله قليلاً من الليل ما نقوم. فقال له أبي: «طوبى لمن رقد إذا نعس، واتقى الله إذا استيقظ». وقال عبدالله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه فكنت فيمن انجفل، فلما رأيت وجهه ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما سمعته ﷺ يقول: «يا أيها الناس أطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام». وروى الإمام أحمد، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها» فقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: لمن هي يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وبات لله قائماً والناس نيام»[1].

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾، قال مجاهد: يصلون، وقال آخرون: قاموا الليل وأخروا الاستغفار إلى الأسحار، كما قال تبارك وتعالى: ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾، وقد ثبت في الصحاح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيعطى سؤله؟ حتى يطلع الفجر». وقوله تعالى: ﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ لما وصفهم بالصلاة، ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة، فقال ﴿وفي أموالهم حق﴾ أي جزء مقسوم قد أفرزوه للسائل والمحروم، أما السائل فمعروف وهو الذي يبتدئ بالسؤال وله حق، كما قال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على فرس»[2]. وأما المحروم فقال ابن عباس ومجاهد: هو المحارب الذي ليس له في الإسلام سهم، يعني لا سهم له في بيت المال ولا كسب له ولا حرفة يتقوت منها، وقالت أم المؤمنين عائشة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود.

رضي الله عنها: هو المحارب الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه، وقال الضحاك: هو الذي لا يكون له مال إلا ذهب، قضى الله تعالى له ذلك، وقال ابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء: المحروم المحارف، وقال قتادة والزهري: المحروم الذي لا يسأل الناس شيئاً، وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه»[1]. وقال سعيد بن جبير: هو الذي يجيء وقد قسم المغنم فيرضخ له، وقال الشعبي: أعياني أن أعلم ما المحروم، واختار ابن جرير أن المحروم الذي لا مال له بأي سبب كان وقد ذهب ماله، سواء كان لا يقدر على الكسب، أو قد هلك ماله بآفة أو نحوها.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ أي فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما فيها من صنوف النبات والحيوانات والمهاد، والجبال والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم، في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾؟ قال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة، ثم قال تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم﴾ يعني المطر ﴿وما توعدون﴾ يعني الجنة، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد، وقوله تعالى: ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾، يقسم تعالى بنفسه الكريمة: أن ما وعدهم به من أمر القيامة، والبعث والجزاء كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون، وكان معاذ رضي الله عنه إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه إن هذا لحقٌ كما أنك ههنا. وعن الحسن البصري قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا»[2].

۞ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

هذه القصة قد تقدمت في سورة هود والحجر، فقوله: ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ أي الذين أرصد لهم الكرامة، وقد ذهب الإمام أحمد إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل، وقوله تعالى: ﴿قالوا سلاماً قال سلام﴾ الرفع أقوى وأثبت من النصب، فردّه أفضل من التسليم، ولهذا قال تعالى: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ فالخليل اختار الأفضل، وقوله تعالى: ﴿قوم منكرون﴾

---

(١) هذا الحديث أسنده الشيخان من وجه آخر.

(٢) أخرجه ابن جرير عن الحسن مرسلاً.

وذلك أن الملائكة، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل، قدموا عليه في صورة شبان حسان عليهم مهابة عظيمة، ولهذا قال ﴿ قوم منكرون ﴾. وقوله عزّ وجل: ﴿ فراغ إلى أهله ﴾ أي انسل خفية في سرعة، ﴿ فجـاء بعجل سمين ﴾ أي من خيار ماله، وفي الآيـة الأُخرى: ﴿ فما لبث أن جـاء بعجل حنيذ ﴾ أي مشوي على الرَّضْف[1] ﴿ فقربه إليهم ﴾ أي أدناه منهم، ﴿ قال ألا تأكلون ﴾؟ تلطف في العبارة وعرض حسن، وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة، وأتى بأفضل ما وجد من ماله وهو عجلٌ فتيٌّ سمين مشوي، فقربه إليهم لم يضعه وقال اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿ ألا تأكلون ﴾؟ على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل. وقوله تعالى: ﴿ فأوجس منهم خيفة ﴾ كقوله تعالى: ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ﴾ ﴿ قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾ البشارة له بشارة لها، لأن الولد منهما فكل منهما بشر به، وقوله تعالى: ﴿ فأقبلت امرأته في صرة ﴾ أي في صرخة عظيمة ورنة[2]، وهي قولها ﴿ يا ويلتا ﴾ ﴿ فصكت وجهها ﴾ أي ضربت بيدها على جبينها، قال ابن عباس: لطمت أي تعجباً، كما تتعجب النساء من الأمر الغريب ﴿ وقالت عجوز عقيم ﴾ أي كيف ألد وأنا عجوز وقد كنت في حال الصبا عقيماً لا أحبل؟ ﴿ قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴾ أي عليم بما تستحقون من الكرامة، حكيم في أقواله وأفعاله.

* قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

قال الله تعالى مخبراً عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴾؟ أي ما شأنكم، وفيم جئتم؟ ﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ يعنون قوم لوط، ﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين مسوّمة ﴾ أي معلمة، ﴿ عند ربك للمسرفين ﴾ أي مكتتبة عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه، ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ﴾ وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ أي جعلناها عبرة بما أنزلنا بهم من العذاب والنكال، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين ﴿ الذين يخافون العذاب الأليم ﴾.

وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ

(١) الحجارة المحماة.

(٢) وهو قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك والسدي وغيرهم.

عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى: ﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين﴾ أي بدليل باهر وحجة قاطعة، ﴿فتولى بركنه﴾ أي فأعرض فرعون عما جاءه بــه موسى من الحق المبين استكباراً وعناداً، قال مجاهد: تعزز بأصحابه، وقال قتادة: غلب عدو الله على قومه، وقال ابن زيد: ﴿فتولى بركنه﴾ أي بجموعه التي معه، ثم قرأ: ﴿لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾ والمعنى الأول قوي، ﴿وقال ساحر أو مجنون﴾ أي لا يخلو أمرك فيما جئتني به، من أن تكون ساحراً أو مجنوناً، قال الله تعالى: ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم﴾ أي ألقيناهم ﴿في اليم﴾ وهو البحر، ﴿وهو مليم﴾ أي وهو ملوم جاحد، فاجر معاند. ثم قال عزّ وجلّ: ﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ أي المفسدة التي لا تنتج شيئاً ولهــذا قال تعالى: ﴿ما تذر من شيء أتت عليه﴾ أي مما تفسده الريح ﴿إلا جعلتــه كالرميم﴾ أي كالشيء الهالك البــالي، وقــد ثبت في الصحيح: «نصرت بالصَّبا وأهلكت عاد بالدَّبور» ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين﴾ قال ابن جرير: يعني إلى وقت فناء آجالكم، والظاهر أن هذه كقوله تعالى: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون﴾، وهكذا قال ههنا: ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين * فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون﴾ وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار، ﴿فما استطاعوا من قيام﴾ أي من هرب ولا نهوض، ﴿وما كانوا منتصرين﴾ أي لا يقدرون على أن ينتصروا مما هم فيه، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وقوم نوح من قبل﴾ أي وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾، وكل هذه القصص قد تقدمت مبسوطة في أماكن كثيرة من سور متعددة، والله تعالى أعلم.

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾

يقول تعالى منبهاً على خلق العــالم العلوي والسفلي: ﴿والسماء بنيناها﴾ أي جعلناها سقفاً محفوظاً رفيعاً، ﴿بأيد﴾ أي بقوة قاله ابن عباس ومجاهد، ﴿وإنا لموسعون﴾ أي قد وسعنا أرجاءها، ورفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هي، ﴿والأرض فرشناها﴾ أي جعلناها فراشاً للمخلوقات، ﴿فنعم الماهدون﴾ أي وجعلناهــا مهداً لأهلها، ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ أي جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات والنباتات ولهذا قال تعالى: ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له، ﴿ففروا إلى الله﴾ أي

الجأوا إليه واعتمدوا عليه في أموركم عليه، ﴿ إني لكم منه نذير مبين ۝ ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر ﴾ أي لا تشركوا به شيئاً ﴿ إني لكم منه نذير مبين ﴾ .

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠ ﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيّه ﷺ: وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الأولون لرسلهم ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ قال الله عزّ وجلّ: ﴿ أتواصوا به ﴾ ؟ أي أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة ؟ ﴿ بل هم قوم طاغون ﴾ ، أي لكن هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم، قال الله تعالى: ﴿ فتول عنهم ﴾ أي فأعرض عنهم يا محمد، ﴿ فما أنت بملوم ﴾ يعني لا نلومك على ذلك، ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ أي إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة، ثم قال جلّ جلاله: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدونِ ﴾ أي إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم، وقال ابن عباس: ﴿ إلا ليعبدون ﴾ أي إلا ليقروا بعبادتي طوعاً أو كرهاً، وهذا اختيار ابن جرير، وقال ابن جريج: إلا ليعرفون، وقال الربيع بن أَنَس إلا للعبادة . وقوله تعالى: ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمونِ ۝ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: أقرأني رسول الله ﷺ: ﴿ إني أنا الرزاق ذو القوة المتين ﴾[1] ، ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم، وفي الحديث القدسي: « يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك »[2] .

وقد ورد في بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى: « ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، فاطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء » . وقوله تعالى: ﴿ فإن للذين ظلموا ذنوباً ﴾ أي نصيباً من العذاب ، ﴿ مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون ﴾ ذلك فإنه واقع لا محالة ، ﴿ فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون ﴾ يعني يوم القيامة .

[آخر تفسير سورة الذاريات ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٢) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة ، وقال الترمذي : حسن غريب .



عن جبير بن مطعم قال: « سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه »[1] . وروى البخاري، عن أم سلمة قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي فقال: « طوفي من وراء الناس وأنت راكبة »، فطفت ورسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة، أن عذابه واقع بأعدائه وأنه لا دافع له عنهم، والطور هو الجبل الذي يكون فيها أشجار مثل الذي كلم الله عليه موسى، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طوراً، إنما يقال له جبل، ﴿ وكتاب مسطور ﴾ قيل: هو اللوح المحفوظ، وقيل: الكتب المنزلة المكتوبة، التي تقرأ على الناس جهاراً، ولهذا قال: ﴿ في رق منشور * والبيت المعمور ﴾ ، ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء: « ثم رفع بي إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم »[2] يعني يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، وهو كعبة أهل السماء السابعة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه، والذي في السماء الدنيا يقال له بيت العزة، والله أعلم . وقال ابن عباس: البيت المعمور هو بيت حذاء

(١) أخرجه الشيخان من طريق مالك .   (٢) هو جزء من حديث طويل في الإسراء أخرجه الشيخان .

العرش تعمره الملائكة، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه، وكذا قال عكرمة ومجاهد وغير واحد من السلف. وقال قتادة والسدي: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «هل تدرون ما البيت المعمور؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه مسجد في السماء بحيال الكعبة لو خر لخر عليها،يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم». وقوله تعالى: ﴿والسقف المرفوع﴾ عن علي قال: يعني السماء، ثم تلا: ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾، وكذا قال مجاهد وقتادة والسدي واختاره ابن جرير، وقال الربيع بن أنَس: هو العرش يعني أنه سقف لجميع المخلوقات، وقوله تعالى: ﴿والبحر المسجور﴾ قال الربيع بن أنَس: هو الماء الذي تحت العرش الذي ينزل الله منه المطر الذي تحيا به الأجساد في قبورها يوم معادها، وقال الجمهور: هو هذا البحر، واختلف في معنى قوله ﴿المسجور﴾ فقال بعضهم: المراد أنه يوقد يوم القيامة ناراً كقوله، ﴿وإذا البحار سجرت﴾ أي أضرمت فتصير ناراً تتأجج محيطة بأهل الموقف، وروي عن علي وابن عباس. وقال العلاء بن بدر: إنما سمي البحر المسجور لأنه لا يشرب منه ماء ولا يسقى به زرع، وكذلك البحار يوم القيامة، وعن سعيد بن جبير: ﴿والبحر المسجور﴾ يعني المرسل، وقال قتادة: المسجور المملوء، واختاره ابن جرير، وقيل: المراد بالمسجور الممنوع المكفوف عن الأرض لئلا يغمرها فيغرق أهلها، قاله ابن عباس وبه يقول السدي وغيره، وعليه يدل الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب، عن رسول الله ﷺ قال: «ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات يستأذن الله أن ينفضح عليهم فيكفه الله عزّ وجلّ»[1].

وقوله تعالى: ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ هذا هو القسم عليه أي لواقع بالكافرين، ﴿ماله من دافع﴾ أي ليس له دافع يدفعه عنهم، إذا أراد الله بهم ذلك، قال الحافظ ابن أبي الدنيا: خرج عمر يعس المدينة ذات ليلة، فمرّ بدار رجل من المسلمين فوافقه قائماً يصلي، فوقف يستمع قراءته فقرأ: ﴿والطور - حتى بلغ - إن عذاب ربك لواقع ۔ ماله من دافع﴾ قال: قسم ورب الكعبة حق، فنزل عن حماره، واستند إلى حائط، فمكث ملياً، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه رضي الله عنه[2]. وقوله تعالى: ﴿يوم تمور السماء موراً﴾ قال ابن عباس: تتحرك تحريكاً، وقال مجاهد: تدور دوراً، وقال الضحّاك: استدارتها وتحركها لأمر الله وموج بعضها في بعض، وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك في استدارة، قال وأنشد أبو عبيدة بيت الأعشى فقال:

كأنَّ مِشيَتها من بيت جارتها مَوْرُ السحابة لا رَيْثٌ ولا عجل

﴿وتسير الجبال سيراً﴾ أي تذهب فتصير هباء منبثاً وتنسف نسفاً، ﴿فويل يومئذ للمكذبين﴾ أي ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله، ﴿الذين هم في خوض يلعبون﴾ أي هم في الدنيا يخوضون في الباطل ويتخذون دينهم هزواً ولعباً ﴿يوم يُدَعُّون﴾ أي يدفعون ويساقون ﴿إلى نار جهنم دَعّا﴾، قال مجاهد والسدي: يدفعون فيها دفعاً ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ أي تقول لهم الزبانية ذلك تقريعاً وتوبيخاً، ﴿أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ۔ اصلوها﴾ أي ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته، ﴿فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم﴾، أي سواء

(١) رواه الإمام أحمد في المسند.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا عن جعفر بن زيد العبدي.

صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا، لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها، ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ أي ولا يظلم الله أحداً بل يجازي كلاً بعمله .

* ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

أخبر الله تعالى عن حال السعداء فقال: ﴿إن المتقين في جنات ونعيم﴾ وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال، ﴿فاكهين بما آتاهم ربهم﴾ أي يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ من مآكل ومشارب، وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك، ﴿ووقاهم ربهم عذاب الجحيم﴾ أي وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها، مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التي فيها من السرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقوله تعالى: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون﴾، كقوله تعالى: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ أي هذا بذاك تفضلاً منه وإحساناً، وقوله تعالى: ﴿متكئين على سرر مصفوفة﴾ قال ابن عباس: السرر في الحجال، وفي الحديث: «إن الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول عنه ولا يمله يأتيه ما اشتهت نفسه ولذت عينه»[1]. وعن ثابت قال: «بلغنا أن الرجل ليتكئ في الجنة سبعين سنة عنده من أزواجه وخدمه، وما أعطاه الله من الكرامة والنعيم، فإذا حانت منه نظرة، فإذا أزواج له لم يكن رآهن قبل ذلك فيقلن: قد آن لك أن تجعل لنا منك نصيباً»[2] ومعنى ﴿مصفوفة﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض كقوله: ﴿على سرر متقابلين﴾، ﴿وزوجناهم بحور عين﴾ أي وجعلنا لهم قرينات صالحات، وزوجات حساناً من الحور العين، وقال مجاهد ﴿وزوجناهم﴾ أنكحناهم بحور عين، وقد تقدم وصفهن في غير موضع بما أغنى عن إعادته ههنا .

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

يخبر تعالى عن فضله وكرمه وامتنانه، ولطفه بخلقه وإحسانه، أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان، يلحقهم بآبائهم في المنزلة، وإن لم يبلغوا عملهم لتقر أعين الآباء بالأبناء، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه بأن يرفع

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن الهيثم بن مالك الطائي مرفوعاً . (٢) أخرجه ابن أبي حاتم أيضاً عن ثابت البناني موقوفاً .

الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته للتساوي بينه وبين ذاك، ولهذا قال: ﴿ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾، قال ابن عباس: إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقرَّ بهم عينه، ثم قرأ: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾[1]. وروى ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم﴾، قال: هم ذرية المؤمن يموتون على الإيمان. فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوها شيئاً، وروى الحافظ الطبراني عن ابن عباس أظنه عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك، فيقول: يا رب قد عملت لي ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به، وقرأ ابن عباس: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان﴾ الآية، هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء، فقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا رب أنى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك»[2]. وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[3].

وقوله تعالى: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ لما أخبر عن مقام الفضل وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك، أخبر عن مقام العدل، وهو أنه لا يؤاخذ أحداً بذنب أحد، فقال تعالى: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ أي مرتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء كان أباً أو ابناً، كما قال تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين﴾، وقوله: ﴿وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون﴾ أي وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى مما يستطاب ويشتهى، وقوله: ﴿يتنازعون فيها كأساً﴾ أي يتعاطون فيها كأساً أي من الخمر، قاله الضحّاك: ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾ أي لا يتكلمون فيها بكلام لاغ، أي هذيان، ولا إثم، أي فحش كما يتكلم به الشربة من أهل الدنيا. قال ابن عباس: اللغو الباطل، والتأثيم الكذب، وقال مجاهد: لا يستبون ولا يؤثمون؛ وقال قتادة: كان ذلك في الدنيا مع الشيطان، فنزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها صداع الرأس ووجع البطن وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيء الفارغ عن الفائدة المتضمن هذياناً وفحشاً، وأخبر بحسن منظرها وطيب طعمها ومخبرها فقال: ﴿بيضاء لذة للشاربين ۞ لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون﴾ وقال: ﴿لا يصدعون عنها ولا ينزفون﴾. وقال ههنا: ﴿يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم﴾. وقوله تعالى: ﴿ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون﴾ إخبار عن خدمهم وحشمهم في الجنة، كأنهم اللؤلؤ الرطب المكنون، في حسنهم وبهائهم ونظافتهم وحسن ملابسهم، كما قال تعالى: ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون ۞ بأكواب وأباريق وكأس من معين﴾. وقوله تعالى: ﴿وأقبل

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس موقوفاً ورواه البزار عنه مرفوعاً.

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال ابن كثير: اسناده صحيح.

(٣) أخرجه مسلم عن أبي هريرة.

بعضهم على بعض يتساءلون﴾ أي أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، كما يتحادث أهل الشراب على شرابهم، ﴿ قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين﴾ أي كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلينا خائفين من ربنا، مشفقين من عذابه وعقابه ﴿ فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم﴾ أي فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف، ﴿ إنا كنا من قبل ندعوه﴾ أي نتضرع إليه فاستجاب لنا وأعطانا سؤالنا ﴿ إنه هو البر الرحيم﴾ ، عن أَنَس قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان فيجيء سرير هـذا حتى يحاذي سرير هـذا، فيتحدثان ، فيتكئ هذا ويتكئ هذا فيتحدثان بما كان في الدنيا ، فيقول أحدهمالصاحبه : يا فلان تدري أي يوم غفر الله لنا ؟ يوم كنا في موضع كذا وكذا فدعونا الله عزّ وجلّ فغفر لنا »[1] . وعن مسروق عن عائشة أنها قرأت هذه الآية: ﴿ فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم﴾، فقالت: اللهم منّ علينا، وقنا عذاب السموم، إنك أنت البر الرحيم : قيل للأعمش: في الصلاة ؟ قال: نعم[2] .

* فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بأن يبلغ رسالته إلى عباده ، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه، ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال: ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾ ، أي لست بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش، والكاهن الذي يأتيه الرئي من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء، ﴿ ولا مجنون﴾ وهو الذي يتخبطه الشيطان من المس . ثم قال تعالى منكراً عليهم في قولهم في الرسول ﷺ: ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾ ؟ أي قوارع الدهر ، والمنون الموت، يقولون: ننتظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه . قال الله تعالى: ﴿ قل تربصوا فإني معكم من المتربصين﴾ أي انتظروا، فإني منتظر معكم وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن قريشاً لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ قال قائل منهم: احتبسوه في وثاق وتربصوا به ريب المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء (زهير) و (النابغة) إنما هو كأحدهم، فأنزل الله تعالى ذلك من قولهم: ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾ ؟ ثم قال تعالى: ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا﴾ أي عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقاويل الباطلة، التي يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور ﴿ أم قوم طاغون﴾ أي ولكن هم قوم طاغون ضلال معاندون، فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوه فيك ، وقوله تعالى : ﴿ أم هم يقولون تقوله ﴾ اي اختلقه وافتراه من عند نفسه يعنون القرآن ، قال تعالى: ﴿ بل لا يؤمنون﴾ أي كفرهم هو الذي يحملهم على هذه المقالة: ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي إن كانوا صادقين في قولهم، تقوله وافتراه : فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هـذا القرآن ، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض، من الجن والإنس ما جاءوا بمثله ولا بسورة من مثله .

---

(١) أخرجه الحافظ البزار عن أنس وقال : لا نعرفه إلا بهذا الإسناد .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم .

أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾

هذا المقام في إثبات الربوبية، وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿أم خلقوا من غير شيء؟ أم هم الخالقون﴾؟ أي أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، روى البخاري، عن جبير بن مطعم قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون * أم عندهم خزائن رحمة ربك أم هم المصيطرون﴾؟ كاد قلبي أن يطير[1]. ثم قال تعالى: ﴿أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون﴾؟ أي أهم خلقوا السماوات والأرض؟ وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له، ﴿أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون﴾؟ أي أهم يتصرفون في الملك وبيدهم مفاتيح الخزائن ﴿أم هم المصيطرون﴾ أي المحاسبون للخلائق، بل الله عزّ وجلّ هو المالك المتصرف الفعال لما يريد. وقوله تعالى: ﴿أم لهم سلم يستمعون فيه﴾؟ أي مرقاة إلى الملأ الأعلى، ﴿فليأت مستمعهم بسلطان مبين﴾ أي فليأت الذي يستمع لهم بحجة ظاهرة، على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال، ثم قال منكراً عليهم فيما نسبوه إليه من البنات، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث، وقد جعلوا الملائكة بنات الله وعبدوهم مع الله فقال: ﴿أم له البنات ولكم البنون﴾؟! وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، ﴿أم تسألهم أجراً﴾؟ أي أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله، أي لست تسألهم على ذلك شيئاً، ﴿فهم من مغرم مثقلون﴾ أي فهم من أدنى شيء يتبرمون منه، ويثقلهم ويشق عليهم، ﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ أي ليس الأمر كذلك فإنه لا يعلم أحد من أهل السماوات والأرض الغيب إلا الله، ﴿أم يريدون كيداً * فالذين كفروا هم المكيدون﴾، يقول تعالى: أم يريد هؤلاء بقولهم هذا في الرسول، وفي الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم، فالذين كفروا هم المكيدون، ﴿أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون﴾، وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله، ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون، ويشركون، فقال: ﴿سبحان الله عما يشركون﴾.

۞ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ

---

(١) الحديث من رواية الشيخين، وجبير بن مطعم قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسرى وكان إذ ذاك مشركاً، فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام.

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس ﴿ وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً﴾ أي عليهم يعذبون بـه لمـا صدقوا ولمـا أيقنوا، بل يقولون هذا ﴿ سحاب مركوم﴾ أي متراكم، وهذا كقوله: ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنمـا سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾، وقال الله تعالى ﴿ فذرهم﴾ أي دعهم يا محمد ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون﴾ وذلك يوم القيامة، ﴿ يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً﴾ أي لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم الـذي استعملوه في الدنيا، لا يجزي عنهم يوم القيامة شيئاً، ﴿ ولا هم ينصرون﴾ . ثم قال تعالى: ﴿ وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك﴾ أي قبل ذلك في الدار الدنيا كقوله تعالى: ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي نعذبهم في الدنيا ونبتليهم فيها بالمصائب، لعلهم يرجعون وينيبون، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلي عنهم مما كانوا عليه فيه، عادوا إلى أسوأ مما كانوا كما جاء في بعض الأحاديث: «إن المنافق إذا مرض وعوفي، مثله في ذلك كمثل البعير لا يدري فيما عقلوه ولا فيما أرسلوه». وقوله تعالى: ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾ أي اصبر على أذاهم ولا تبالهم فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا، والله يعصمك من النـاس، وقوله تعالى﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ أي إلى الصلاة: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك[1]، وروى مسلم في صحيحه عن عمر أنه كان يقول: هذا ابتداء الصلاة، وقال أبو الجوزاء: ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ أي من نومك من فراشك، واختاره ابن جرير، ويتأيد هذا القول بما رواه الإمام أحمد، عن عبادة ابن الصامت عن رسول الله ﷺ قال: «من تعارّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: رب اغفر لي - أو قال ثم دعا - أستجيب له، فإن عزم فتوضأ ثم صلى قبلت صلاته»[2] . وقال مجاهد: ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ قال من كل مجلس، وقال الثوري ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ قال إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال سبحانك اللهم وبحمدك، وهذا القول كفارة المجالس، وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر الله له ما كان في مجلسه ذلك»[3] . وقوله تعالى: ﴿ ومن الليل فسبحه﴾ أي أذكره وأعبده بالتلاوة والصلاة في الليل، كما قال تعالى: ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾، وقوله تعالى: ﴿ وإدبار النجوم﴾ قـد تقدم عن ابن عباس: أنهما الركعتان اللتان

---

(١) قاله الضحّاك وعبد الرحمن بن أسلم .

(٢) أخرجه أحمد ورواه البخاري وأهل السنن .

(٣) أخرجه الترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

قبل صلاة الفجر، فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم أي عند جنوحها للغيبوبة، لحديث: «لا تدعوهما وإن طردتكم الخيل، يعني ركعتي الفجر»[1]. وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر، وفي لفظ لمسلم: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها».

[آخر تفسير سورة الطور، ولله الحمد والمنة]



(١) رواه أبو داود عن أبي هريرة مرفوعاً.



(٥٣) سورة النجم مكية وآياتها اثنتان وستون

روى البخاري، عن عبد الله بن مسعود قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿والنجم﴾، قال: فسجد النبي ﷺ وسجد من خلفه، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب، فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قُتِل كافراً، وهو أُمية بن خلف[1] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ (٤)﴾

قال الشعبي: الخالق يقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق، واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿والنجم إذا هوى﴾ فقال مجاهد: يعني بالنجم الثريا إذا سقطت مع الفجر، واختاره ابن جرير، وزعم السدي: أنها الزهرة، وقال الضحاك: ﴿والنجم إذا هوى﴾ إذا رمي به الشياطين. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم ۞ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ۞ إنه لقرآن كريم﴾ . وقوله تعالى: ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول ﷺ بأنه راشد، تابع للحق ليس بضال، والغاوي: هو العالم بالحق العادل عنه قصداً إلى غيره، فنزه الله رسوله عن مشابهة أهل الضلال، كالنصارى وطرائق اليهود، وهي علم الشيء وكتمانه، والعمل بخلافه، بل هو صلاة الله وسلامه عليه، وما بعثه الله بـه من الشرع العظيم، في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد، ولهذا قال تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ أي ما يقول قولاً عن هوى وغرض ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ أي إنما يقول ما أمر به، يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً، من غير زيادة ولا نقصان، كما روى الإمام أحمد، عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتني قريش، فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق»[2]

(١) أخرجه البخاري وأبو داود والنسائي، وجاء في بعض الروايات أنه (عتبة بن ربيعة) .

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود وفي بعض الروايات: بشرٌ يتكلم في الرضى والغضب .

وقال ﷺ: « ما أخبرتكم أنه من عند الله فهو الذي لا شك فيه »[1]. وعن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا أقول إلا حقاً » قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله؟ قال: « إني لا أقول إلا حقاً »[2].

عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله محمد ﷺ أنه علَّمه ﴿ شديد القوى ﴾ وهو جبريل عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿ إنه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين ﴾. وقال هاهنا: ﴿ ذو مرة ﴾ أي ذو قوة، قاله مجاهد، وقال ابن عباس: ذو منظر حسن، وقال قتادة: ذو خَلْق طويل حسن، ولا منافاة بين القولين فإنه عليه السلام ذو منظر حسن وقوة شديدة، وقد ورد في الحديث الصحيح: « لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مِرّة سوي »، وقوله تعالى ﴿ فاستوى ﴾ يعني جبريل عليه السلام ﴿ وهو بالأفق الأعلى ﴾ يعني جبريل استوى في الأفق الأعلى، قال عكرمة ﴿ الأفق الأعلى ﴾ الذي يأتي منه الصبح، وقال مجاهد: هو مطلع الشمس، قال ابن مسعود: إن رسول الله ﷺ لم ير جبريل في صورته إلا مرتين: أما واحدة فإنه سأله أن يراه في صورته فسد الأُفق، وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد، فذلك قوله: ﴿ وهو بالأُفق الأعلى ﴾[3]. وهذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء بل قبلها ورسول الله ﷺ في الأرض، فهبط عليه جبريل عليه السلام وتدلى إليه، فاقترب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح، ثم رآه بعد ذلك نزلة أُخرى عند سدرة المنتهى يعني ليلة الإسراء، وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة بعد ما جاءه جبريل عليه السلام أول مرة، فأوحى الله إليه صدر سورة اقرأ، روى الإمام أحمد، عن عبد الله أنه قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته، وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأُفق يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم »[4].

وقوله تعالى: ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ أي فاقترب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض، حتى كان بينه وبين محمد ﷺ ﴿ قاب قوسين ﴾ أي بقدرهما إذا مدّا، قاله مجاهد وقتادة. وقوله: ﴿ أو أدنى ﴾ هذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات المخبر عنه، ونفي ما زاد عليه كقوله تعالى: ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ أي ما هي بألين من الحجارة بل هي مثلها أو تزيد عليها في الشدة والقسوة، وكذا قوله:

---

(١) اخرجه الحافظ البزار.

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٤) انفرد بهذه الرواية الإمام أحمد

﴿يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾، وقوله: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ أي ليسوا أقل منها بل هم مائة ألف حقيقة أو يزيدون عليها، فهذا تحقيق للمخبر به لا شك، وهكذا هذه الآية ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ وهذا الذي قلناه من أن هذا المقترب الداني إنما هو جبريل عليه السلام، هو قول عائشة وابن مسعود وأبي ذر كما سنورد أحاديثهم قريباً إن شاء الله تعالى. وروى مسلم في صحيحه عن ابن عباس أنه قال: «رأى محمد ربه بفؤاده مرتين» فجعل هذه إحداهما، وجاء في حديث الإسراء: «ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى» ولهذا قد تكلم كثير من الناس في متن هذه الرواية، فإن صح فهو محمول على وقت آخر وقصة أُخْرَى، لا أنها تفسير لهذه الآية، فإن هذه كانت ورسول الله ﷺ في الأرض لا ليلة الإسراء، ولهذا قال بعده: ﴿ولقد رآه نزلة أُخْرَى عند سدرة المنتهى﴾ فهذه هي ليلة الإسراء والأولى كانت في الأرض، وقال ابن جرير، قال عبدالله بن مسعود في هذه الآية: ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ قال، قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل له ستمائة جناح»[1]. وروى البخاري، عن الشيباني قال: سألت زراً عن قوله: ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ قال: حدثنا عبدالله[2] أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح. فعلى ما ذكرناه يكون قوله: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ معناه فأوحى جبريل إلى عبدالله محمد ما أوحى، أو فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل؛ وكلا المعنيين صحيح، وقوله تعالى: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى * أفتمارونه على ما يرى﴾ قال مسلم، عن أبي العالية، عن ابن عباس ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾، ﴿ولقد رآه نزلة أُخْرَى﴾ قال: رآه بفؤاده مرتين، وقد خالفه ابن مسعود وغيره، ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب، وقول البغوي في تفسيره: وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه وهو قول أنس والحسن وعكرمة فيه نظر، والله أعلم.

وروى الترمذي، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: رأى محمد ربه، قلت: أليس الله يقول: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾؟ قال: ويحك ذاك إذا تجلى بنوره الذي هو نوره، وقد رأى ربه مرتين[3]. وقال أيضاً: لقي ابن عباس كعباً بعرفة فسأله عن شيء فكبّر حتى جاوبته الجبال، فقال ابن عباس: إنا بنو هاشم، فقال كعب: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى، فكلم موسى مرتين، ورآه محمد مرتين، وقال مسروق: دخلت على عائشة فقلت: هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد تكلمت بشيء وقف له شعري، فقلت: رويداً، ثم قرأت: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾، فقالت: أين يذهب بك؟ إنما هو جبريل، من أخبرك أن محمداً رأى ربه، أو كتم شيئاً مما أمر به، أو يعلم الخمس التي قال الله تعالى: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث﴾ فقد أعظم على الله الفرية، ولكنه رأى جبريل؛ لم يره في صورته إلا مرتين: مرة عند سدرة المنتهى، ومرة في أجياد، وله ستمائة جناح قد سد الأفق»[4]. وروى النسائي، عن ابن عباس قال: أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد عليهم السلام؟ وفي صحيح مسلم، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) أخرجه ابن جرير، ورواه البخاري في صحيحه.

(٢) هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه.

وسلم هل رأيت ربك؟ فقال: «نورٌ أنّى أراه»؟ وفي رواية: «رأيت نوراً»، وروى ابن أبي حاتم، عن عباد ابن منصور قال: سألت عكرمة عن قوله: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ فقال عكرمة: تريد أن أخبرك أنه قد رآه؟ قلت: نعم، قال: قد رآه، ثم قد رآه، قال: فسألت عنه الحسن، فقال: قد رأى جلاله وعظمته ورداءه»[1]. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «رأيت ربي عزّ وجلّ»، فإنه حديث إسناده على شرط الصحيح، لكنه مختصر من حديث المنام، كما رواه أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني ربي الليلة في أحسن صورة - أحسبه يعني في النوم - فقال: يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال، قلت: لا، فوضع يده بين كتفيّ حتى وجدت بردها بين ثدييّ - أو قال نحري - فعلمت ما في السماوات وما في الأرض، ثم قال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال، قلت: نعم، يختصمون في الكفارات والدرجات، قال: وما الكفارات؟ قال، قلت: المكث في المساجد بعد الصلوات، والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وإبلاغ الوضوء في المكاره، من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه. وقال: قل يا محمد إذا صليت: اللهم اني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك: فتنة أن تقبضني إليك غير مفتون، وقال: والدرجات، بذل الطعام وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام»[2].

وقوله تعالى: ﴿ولقد رآه نزلة أُخْرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى﴾ هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التي خلقه الله عليها وكانت ليلة الإسراء، روى الإمام أحمد، عن عامر قال: أتى مسروق عائشة فقال: يا أم المؤمنين هل رأى محمد ﷺ ربه عزّ وجلّ؟ قالت: سبحان الله لقد قفّ شعري لما قلت! أين أنت من ثلاث، من حدثكهن فقد كذب؟ من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾، ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب﴾، ومن أخبرك أنه يعلم ما في غد، فقد كذب، ثم قرأت ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام﴾ الآية، ومن أخبرك أن محمداً قد كتم فقد كذب، ثم قرأت ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾، ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين[3]. وروى الإمام أحمد أيضاً عن مسروق قال: كنت عند عائشة فقلت أليس الله يقول ﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾، ﴿ولقد رآه نزلة أُخرى﴾ فقالت: أنا أول هذه الأمة سألت رسول الله ﷺ عنها فقال: إنما ذاك جبريل» لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين، رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض»[4].

وقال مجاهد في قوله: ﴿ولقد رآه نزلة أُخْرى﴾ قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته مرتين، وقوله تعالى: ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ قد تقدم في أحاديث الإسراء أنه غشيتها الملائكة مثل الغربان، وغشيها نور

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

(٣) أخرجه أحمد في المسند.

(٤) أخرجه الشيخان والإمام أحمد.

الرب، وغشيها ألوان ما أدري ما هي . روى الإمام أحمد ، عن عبدالله بن مسعود قال: لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السابعة إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ، ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ قال: فراش من ذهب، قال: وأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً : أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المقحمات[1] . وعن مجاهد قال: كان أغصان السدرة لؤلؤاً وياقوتاً وزبرجداً، فرآها محمد ﷺ ورأى ربه بقلبه ، وقال ابن زيد : قيل يا رسول الله أي شيء رأيت يغشى تلك السدرة ؟ قال: « رأيت يغشاها فراش من ذهب، ورأيت على كل ورقة من ورقها ملكاً قائماً يسبح الله عزّ وجلّ » . وقوله تعالى: ﴿ ما زاغ البصر ﴾ قال ابن عباس: ما ذهب يميناً ولا شمالاً ، ﴿ وما طغى ﴾ ما جاوز ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطي ، وما أحسن ما قال الناظم :

رأى جنة المأوى وما فوقها ولو رأى غيره ما قد رآه لتاهـا

وقوله تعالى: ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ كقوله : ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ أي الدالة على قدرتنا وعظمتنا .

أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ * وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مقرعاً للمشركين في عبادتهم الأصنام والأوثان، واتخاذهم لها البيوت مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن، ﴿ أفرأيتم اللات ﴾ ؟ وكانت اللات صخرة بيضاء منقوشة، عليها بيت بالطائف، له أستار وسدنة، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش، قال ابن جرير : وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله فقالوا: اللات يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ اللات والعزى ﴾ قال: كان اللات رجلاً يلت السويق سويق الحاج[2] ؛ قال ابن جرير : وكذا العزى من العزيز وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة وهي بين مكة والطائف كانت قريش يعظمونها كما قال أبو سفيان يوم أُحُد : لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله ﷺ : « قولوا الله مولانا ولا مولى لكم »، وروى البخاري ، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ :« من حلف فقال في حلفه واللات والعزى فليقل لا إله إلا الله، ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك فليتصدق »[3] ؛ فهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك كما كانت ألسنتهم قد اعتادته من زمن الجاهلية، كما قال النسائي، وأما مناة فكانت بالمشلل بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها

(١) أخرجه مسلم والإمام أحمد .
(٢) أخرجه البخاري .
(٣) أخرجه البخاري أيضاً .

يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة ، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها، قال ابن إسحاق: كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمها ، كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب تطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها، فكانت لقريش ولبني كنانة (العزى) بنخلة، وكان سدنتها وحجابها (بني شيبان) من سليم حلفاء بني هاشم، قلت: بعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها وجعل يقول :

يا عز كفرانك لا سبحانك   إني رأيت الله قد أهانك

ولهذا قال تعالى: ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ ؟ ثم قال تعالى: ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ ؟ أي أتجعلون له ولداً وتجعلون ولده أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكر ، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت ﴿ قسمة ضيزى ﴾ أي جوراً باطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة، التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً ؟

ثم قال تعالى منكراً عليهم فيا ابتدعوه وأحدثوه من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ أي من تلقاء أنفسكم ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ أي من حجة ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ أي ليس له مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم ، الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم ، وإلا حظ نفوسهم وتعظيم آبائهم الأقدمين، ﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ أي ولقد أرسل الله إليهم الرسل، بالحق المنير والحجة القاطعة ، ومع هذا ما اتبعوا ما جاءهم به ولا انقادوا له، ثم قال تعالى: ﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ أي ليس كل من تمنى خيراً حصل له ، ﴿ ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب ﴾ ولا كل من ود شيئاً يحصل له، كما روي : « إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى فإنه لا يدري ما يكتب له من أمنيته »[1] . وقوله: ﴿ فلله الآخرة والأولى ﴾ أي إنما الأمر كله لله، مالك الدنيا والآخرة والمتصرف فيهما ، وقوله تعالى: ﴿ وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾، كقوله: ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ ، ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون – أيها الجاهلون – شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله ؟ وهو تعالى لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها ؟

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين ، في تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى، وجعلهم لها أنها بنات الله ، تعالى الله عن ذلك ، كما قال الله تعالى: ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿ وما لهم به من علم ﴾ أي ليس لهم علم صحيح يصدق ما قالوه ، بل هو كذب وزور

(١) تفرد به الإمام أحمد .

وافتراء وكفر شنيع، ﴿إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ أي لا يجدي شيئاً ولا يقوم أبداً مقام الحق، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»، وقوله تعالى: ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا﴾ أي أعرض عن الذي أعرض عن الحق واهجره، وقوله: ﴿ولم يرد إلا الحياة الدنيا﴾ أي وإنما أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا، فذاك هو غاية ما لا خير فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾ أي طلب الدنيا والسعي لها هو غاية ما وصلوا إليه، وقد روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»[1]، وفي الدعاء المأثور: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا»، وقوله تعالى: ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾ أي هو الخالق لجميع المخلوقات، والعالم بمصالح عباده، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته.

* وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَٰحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾

يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض، وأنه الغني عما سواه، الحاكم في خلقه بالعدل، وخلق الخلق بالحق ﴿ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾ أي يجازى كلاً بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، أي لا يتعاطون المحرمات الكبائر، وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستر عليهم كما قال في الآية الأُخْرى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً﴾، وقال ههنا: ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم﴾، وهذا استثناء منقطع لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال. عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنَّفْس تمنّى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»[1]. وقال عبد الرحمن ابن نافع: سألت أبا هريرة عن قول الله: ﴿إلا اللمم﴾، قال: القُبْلة، والغمزة، والنظرة، والمباشرة، فإذا مس الختان الختان، فقد وجب الغسل وهو الزنا، وقال ابن عباس: ﴿إلا اللمم﴾ إلا ما سلف، وكذا قال زيد بن أسلم، وروى ابن جرير، عن مجاهد أنه قال في هذه الآية: ﴿إلا اللمم﴾ قال: الذي يلم بالذنب ثم يدعه، قال الشاعر:

إن تغفر اللهم تغفر جماً وأيّ عبد لك ما ألما؟

وعن الحسن في قول الله تعالى: ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم﴾ قال: اللمم من الزنا، أو السرقة، أو شرب الخمر ثم لا يعود، وروى ابن جرير، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿إلا اللمم﴾ يلم بها في

(١) أخرجه الإمام أحمد ورواه الشيخان أيضاً.

الحين. قلت: الزنا؟ قال: الزنا ثم يتوب. وعنه قال: اللمم الذي يلم المرة، وقال السدي، قال أبو صالح: سئلت عن اللمم، فقلت: هو الرجل يصيب الذنب ثم يتوب، وأخبرت بذلك ابن عباس فقال: لقد أعانك عليها ملك كريم.

وقوله تعالى: ﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾ أي رحمته وسعت كل شيء، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها، كقوله تعالى: ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾. وقوله تعالى: ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ﴾ أي هو بصير بكم، عليم بأحوالكم وأفعالكم، حين أنشأ أباكم آدم من الأرض، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر، ثم قسمهم فريقين: فريقاً للجنة وفريقاً للسعير، وكذا قوله: ﴿ وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ﴾ قد كتب الملك الذي يوكل به رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد. وقوله تعالى: ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ أي تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم ﴿ هو أعلم بمن اتقى ﴾، كما قال تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ﴾ الآية. روى مسلم في صحيحه، عن محمد بن عمرو ابن عطاء قال: سميت ابنتي برة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، وسميت برة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تزكوا أنفسكم إن الله أعلم بأهل البر منكم»، فقالوا: بم نسميها؟ قال: «سموها زينب»[1]. وقد ثبت أيضاً، عن أبي بكرة قال: مدح رجل رجلاً عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «ويلك قطعت عنق صاحبك - مراراً - إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل أحسب فلاناً والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحداً، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك»[2]. وروى الإمام أحمد، عن همام بن الحارث قال: جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه في وجهه، قال: فجعل المقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب، ويقول: أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين أن نحثو في وجوههم التراب[3].

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾

يقول تعالى ذاماً لمن تولى عن طاعة الله ﴿ فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ﴾، ﴿ وأعطى قليلاً وأكدى ﴾ قال ابن عباس: أطاع قليلاً ثم قطعه، قال عكرمة: كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئراً فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل، فيقولون: أكدينا ويتركون العمل، وقوله تعالى: ﴿ أعنده علم الغيب فهو يرى ﴾؟ أي أعند هذا الذي أمسك يده خشية الإنفاق، وقطع معروفه، أعنده علم الغيب أنه سينفد ما في يده حتى أمسك عن معروفه فهو يرى ذلك عياناً؟ أي ليس الأمر كذلك، وإنما أمسك عن الصدقة والبر والصلة بخلاً

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.
(٢) أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجة.
(٣) أخرجه مسلم وأبو داود والإمام أحمد.

وشحاً وهلعاً، ولهذا جاء في الحديث: «أنفق بلالاً، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً»[1]، وقد قال الله تعالى: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾، وقوله تعالى: ﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفّى﴾؟ أي بلّغ جميع ما أمر به، قال ابن عباس: ﴿وفّى﴾ لله بالبلاغ، وقال سعيد بن جبير: ﴿وفّى﴾ ما أمر به، وقال قتادة: ﴿وفّى﴾ طاعة الله وأدى رسالته إلى خلقه، وهذا القول هو اختيار ابن جرير وهو يشمل الذي قبله، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إمامًا﴾ فقام بجميع الأوامر، وترك جميع النواهي، وبلغ الرسالة على التمام والكمال، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماماً يقتدى به. قال الله تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾. روى ابن حاتم، عن أبي أمامة قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿وإبراهيم الذي وفّى﴾ قال: «أتدري ما وفّى؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «وفّى عمل يومه بأربع ركعات من أول النهار». وعن سهل بن معاذ بن أنَس، عن أبيه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ألا أخبركم لم سمى الله تعالى إبراهيم خليله الذي وفّى؟ إنه كان يقول كلما أصبح وأمسى: ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾» حتى ختم الآية[2].

ثم شرع تعالى يبيّن ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى فقال: ﴿أن لا تزر وازرة وزر أُخرَى﴾ أي كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب، فإنما عليها وزرها لا يحمله عنها أحد، كما قال: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾، ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ أي كما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه، ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمه الله، أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم، ولو كان خيراً لسبقونا إليه، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما، وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به» فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله، كما جاء في الحديث: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه»، والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه، وقد قال تعالى: ﴿إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ الآية، والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضاً من سعيه وعمله، وثبت في الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً»، وقوله تعالى: ﴿وأن سعيه سوف يرى﴾ أي يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾، فيجزيكم عليه أتم الجزاء إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهكذا قال ههنا ﴿ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾ أي الأوفر.

وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير.

وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى: ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾ أي المعاد يوم القيامة، عن عمرو بن ميمون الأودي قال: قام فينا معاذ بن جبل فقال: يا بني أود! إني رسول رسول الله ﷺ إليكم، تعلمون أن المعاد إلى الله، إلى الجنة أو إلى النار[1]، وذكر البغوي، عن أُبي بن كعب، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾ قال: «لا فكرة في الرب»، وفي الصحيح: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغ أحدكم ذلك فليستعذ بالله ولينته». وفي الحديث الذي في السنن: «تفكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذات الله، فإن الله تعالى خلق ملكاً ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة ثلاثمائة سنة» أو كما قال، وقوله تعالى: ﴿وأنه هو أضحك وأبكى﴾ أي خلق الضحك والبكاء وهما مختلفان ﴿وأنه هو أمات وأحيا﴾، كقوله ﴿الذي خلق الموت والحياة﴾، ﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ۞ من نطفة إذا تمنى﴾، كقوله: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى ۞ ألم يك نطفة من مني يمنى﴾؟ وقوله تعالى: ﴿وأن عليه النشأة الأُخرى﴾، أي كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة، وهي النشأة الآخرة يوم القيامة ﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾ أي ملّك عباده المال وجعله لهم (قنية) مقيماً عندهم لا يحتاجون إلى بيعه، فهذا تمام النعمة عليهم، وعن مجاهد ﴿أغنى﴾ موّل ﴿وأقنى﴾ أخدم، وقال ابن عباس ﴿أغنى﴾: أعطى، ﴿وأقنى﴾: رضّى، وقوله: ﴿وأنه هو رب الشعرى﴾ قال ابن عباس: هو هذا النجم الوقاد الذي يقال له مرزم الجوزاء، كانت طائفة من العرب يعبدونه، ﴿وأنه أهلك عاداً الأولى﴾ وهم قوم (هود) ويُقال لهم (عاد بن إرم)، كما قال تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد ۞ إرم ذات العماد ۞ التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾؟ فكانوا من أشد الناس وأقواهم، وأعتاهم على الله تعالى وعلى رسوله فأهلكهم الله ﴿بريح صرصر عاتية﴾، وقوله تعالى: ﴿وثمود فما أبقى﴾ أي دمرهم فلم يبق منهم أحداً، ﴿وقوم نوح من قبل﴾ أي من قبل هؤلاء ﴿إنهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾ أي أشد تمرداً من الذين بعدهم، ﴿والمؤتفكة أهوى﴾ يعني مدائن لوط قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، ولهذا قال: ﴿فغشاها ما غشى﴾ يعني من الحجارة التي أرسلها عليهم ﴿فبأي آلاء ربك تتمارى﴾؟ أي ففي أي نعم الله عليك أيها الإنسان تمتري قاله قتادة، وقال ابن جريج: ﴿فبأي آلاء ربك تتمارى﴾؟ يا محمد، والأول أولى وهو اختيار ابن جرير.

هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾ ۩

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

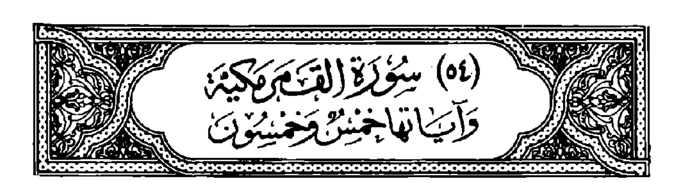
﴿ هذا نذير ﴾ يعني محمداً ﷺ، ﴿ من النذر الأولى ﴾ أي من جنسهم أرسل كما أرسلوا، كما قال تعالى: ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾، ﴿ أزفت الآزفة ﴾ أي اقتربت القريبة وهي القيامة، ﴿ ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ أي لا يدفعها إذاً من دون الله أحد، ولا يطلع على علمها سواه، و ﴿ النذير ﴾ الحذر لما يعاين من الشر، الذي يخشى وقوعه فيمن أنذرهم، وفي الحديث: «أنا النذير العريان» أي الذي أعجله شدة ما عاين من الشر عن أن يلبس عليه شيئاً، بل بادر إلى إنذار قومه قبل ذلك، فجاءهم عرياناً مسرعاً وهو مناسب لقوله: ﴿ أزفت الآزفة ﴾ أي اقتربت القريبة يعني يوم القيامة، قال ﷺ: «مثلي ومثل الساعة كهاتين» وفرّق بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام. ثم قال تعالى منكراً على المشركين في استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهيهم ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون ﴾؟ من أن يكون صحيحاً، ﴿ وتضحكون ﴾ منه استهزاء وسخرية، ﴿ ولا تبكون ﴾ أي كما يفعل الموقنون به كما أخبر عنهم، ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وأنتم سامدون ﴾ قال ابن عباس ﴿ سامدون ﴾ معرضون، وكذا قال مجاهد وعكرمة، وقال الحسن: غافلون، وهو رواية عن علي ابن أبي طالب، وفي رواية عن ابن عباس: تستكبرون، وبه يقول السدي[1]. ثم قال تعالى آمراً لعباده بالسجود له والعبادة: ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾، أي فاخضعوا له وأخلصوا ووحّدوه. روى البخاري عن ابن عباس قال: سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس[2].

[آخر تفسير سورة النجم، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) في اللباب: وأخرج ابن أبي حاتم: كانوا يمرون على الرسول وهو يصلي شامخين فنزلت ﴿ وأنتم سامدون ﴾.

(٢) انفرد به البخاري دون مسلم.



قد تقدم في حديث أبي واقد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف واقتربت الساعة في الأضحى والفطر، وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار، لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد، وبدء الخلق وإعادته، والتوحيد، وإثبات النبوات وغير ذلك من المقاصد العظيمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها، كما قال تعالى: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾، وقال: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾، وقد وردت الأحاديث بذلك، روى الحافظ أبو بكر البزار، عن أنَس أن رسول الله ﷺ خطب أصحابه ذات يوم وقد كادت الشمس أن تغرب فلم يبق منها إلا سف يسير فقال: «والذي نفسي بيده ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه وما نرى من الشمس إلا يسيراً»، وقال الإمام أحمد، عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بعثت أنا والساعة هكذا» وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى[1]، وفي لفظ: «بعثت أنا والساعة كهذه من هذه إن كادت لتسبقني» وجمع الأعمش بين السبابة والوسطى، وقال الإمام أحمد، عن خالد بن عمير قال: خطبنا رسول الله ﷺ: فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، فإن الدنيا قد آذنت بصُرْم وولت حَذَّاءَ، ولم يبق منها إلا صُبابة كصُبابة الإناء يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا منها بخير ما يحضرنكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً ما يدرك لها قعراً، والله لتملؤنه أفعجبتم؟ والله لقد ذكر لنا أن ما بين مصراعي الجنة مسيرة أربعين عاماً، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام»[2]. وذكر

---

(١) أخرجه الشيخان والإمام أحمد.

(٢) أخرجه ابن جرير. معنى (صُرْم): قطيعة. و (حذاء) مدبرة لم يتعلق أهلها منها بشيء، و (صُبابة): بقية.

تمام الحديث . وعن عبدالرحمن السلمي قال: نزلنا المدائن فكنا منها على فرسخ فجاءت الجمعة فحضر أبي وحضرت معه، فخطبنا حذيفة فقال: ألا إن الله يقول: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾، ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق . فقلت لأبي أيستبق الناس غداً؟ فقال: يا بني إنك لجاهل إنما هو السباق بالأعمال ، وقوله تعالى: ﴿ وانشق القمر ﴾ قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة، وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: « خمس قد مضين: الروم والدخان واللزام والبطشة والقمر » ، وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات .

(ذكر الأحاديث الواردة في ذلك)

(رواية أَنَس بن مالك) : روى الإمام أحمد عن أَنَس بن مالك قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية فانشق القمر بمكة مرتين، فقال: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾[١] . وعن أَنَس بن مالك أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين حتى رأوا حِراء بينهما[٢] . وروى الإمام أحمد، عن جبير بن مطعم قال انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل. فقالوا: سحرنا محمد، فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم[٣] . وروى البخاري، عن ابن عباس قال: انشق القمر في زمان النبي ﷺ ، وقال ابن جرير ، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ۝ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ قال: قد مضى ذلك، كان قبل الهجرة انشق القمر حتى رأوا شقيه. وقال الحافظ البيهقي، عن عبدالله بن عمر في قوله تعالى: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فلقتين، فلقة من دون الجبل، وفلقة من خلف الجبل ، فقال النبي ﷺ : « اللهم اشهد »[٤] . وقال الإمام أحمد، عن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين حتى نظروا إليه. فقال رسول الله ﷺ : « اشهدوا »[٥] . وعن عبدالله بن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة، قال، فقالوا: انظروا ما يأتيكم به السفّار ، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، قال: فجاء السفّار ، فقالوا ذلك[٦] . وفي لفظ : انظروا السفّار ، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق. وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به، قال: فسئل السفار ، قال: وقدموا من كل وجهة، فقالوا: رأينا فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾[٧] . وروى الإمام أحمد، عن عبدالله قال: « انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، حتى رأيت الجبل من بين فرجتي القمر »[٨] . وقال ليث عن مجاهد : انشق القمر على

---

(١) أخرجه مسلم وأحمد .
(٢) أخرجاه في الصحيحين .
(٣) تفرد به أحمد .
(٤) رواه البيهقي وأخرجه مسلم والترمذي وقال : حسن صحيح .
(٥) أخرجه الشيخان والإمام أحمد .
(٦) أخرجه أبو داود الطيالسي .
(٧) أخرجه البيهقي وابن جرير .
(٨) أخرجه الإمام أحمد .

عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: « اشهد يا أبا بكر »، فقال المشركون: سحر القمر حتى انشق، وقوله تعالى: ﴿ وإن يروا آية ﴾ أي دليلاً وحجة وبرهاناً ﴿ يعرضوا ﴾ أي لا ينقادوا له بل يعرضوا عنه، ويتركونه وراء ظهورهم ﴿ ويقولوا سحر مستمر ﴾ أي ويقولون هذا الذي شاهدناه من الحجج سحرٌ سحرنا به، ومعنى ﴿ مستمر ﴾ أي ذاهب باطل مضمحل لا دوام له، ﴿ وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾ أي كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم، من جهلهم وسخافة عقلهم، وقوله ﴿ وكل أمر مستقر ﴾ قال قتادة: معناه أن الخير واقع بأهل الخير، والشر واقع بأهل الشر، وقال ابن جريج: مستقر بأهله، وقال مجاهد: ﴿ وكل أمر مستقر ﴾ أي يوم القيامة، وقال السدي: مستقر أي واقع. وقوله تعالى: ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ﴾ أي من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسل، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب مما يتلى عليهم في هذا القرآن ﴿ ما فيه مزدجر ﴾ أي ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادي على التكذيب، وقوله تعالى: ﴿ حكمة بالغة ﴾ أي في هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله ﴿ فما تغني النذر ﴾ يعني أي شيء تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة وختم على قلبه؟ فمن الذي يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾

يقول تعالى: فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضوا ويقولوا هذا سحر مستمر، أعرض عنهم وانتظرهم ﴿ يوم يدع الداع إلى شيء نكر ﴾ أي إلى شيء منكر فظيع، وهو موقف الحساب، وما فيه من البلاء والأهوال، ﴿ خشعاً أبصارهم ﴾ أي ذليلة أبصارهم، ﴿ يخرجون من الأجداث ﴾ وهي القبور ﴿ كأنهم جراد منتشر ﴾ أي كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي، جراد منتشر في الآفاق، ولهذا قال: ﴿ مهطعين ﴾ أي مسرعين ﴿ إلى الداعي ﴾، لا يخالفون ولا يتأخرون ﴿ يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ أي يوم شديد الهول عبوس قمطرير، كقوله تعالى ﴿ فذلك يومئذ يوم عسير * على الكافرين غير يسير ﴾.

* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾

يقول تعالى: ﴿ كذبت ﴾ قبل قومك يا محمد ﴿ قوم نوح فكذبوا عبدنا ﴾ أي صرحوا له بالتكذيب واتهموه بالجنون، ﴿ وقالوا مجنون وازدجر ﴾ قال مجاهد: أي استطير جنوناً، وقيل ﴿ وازدجر ﴾ أي انتهروه وزجروه

وتواعدوه، ﴿ لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ قاله ابن زيد وهذا متوجه حسن، ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ أي إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم فانتصر أنت لدينك، قال الله تعالى: ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ وهو الكثير، ﴿ وفجّرنا الأرض عيوناً ﴾ أي نبعت جميع أرجاء الأرض حتى التنانير التي هي محال النيران نبعت عيوناً، ﴿ فالتقى الماء ﴾ أي من السماء والأرض ﴿ على أمر قد قدر ﴾ أي أمر مقدر. قال ابن عباس: ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ كثير لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب، فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فالتقى الماءان على أمر قد قدر، ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر ﴾ قال ابن عباس: هي المسامير، وقال مجاهد: الدسر أضلاع السفينة، وقال عكرمة والحسن: هو صدرها الذي يضرب به الموج. وقال الضحّاك: الدسر طرفاها وأصلها، وقال العوفي، عن ابن عباس: هو كلكلها أي صدرها، وقوله: ﴿ تجري بأعيننا ﴾ أي بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿ جزاء لمن كان كفر ﴾ أي جزاء لهم على كفرهم بالله، وانتصاراً لنوح عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿ ولقد تركناها آية ﴾ قال قتادة: أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة، والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن كقوله تعالى: ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون ﴾، وقال تعالى: ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ﴾، ولهذا قال ههنا ﴿ فهل من مدكر ﴾ أي فهل من يتذكر ويتعظ؟ وقوله تعالى: ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ أي كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي ولم يتعظ بما جاءت به نذري، وكيف انتصرت لهم وأخذت لهم بالثأر، ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾ أي سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراده ليتذكر الناس، كما قال: ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾، وقال تعالى: ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً ﴾، قال مجاهد ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾ يعني هونّا قراءته، وقال السدي: يسرنا تلاوته على الألسن، وقال ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عزّ وجلّ، وقوله: ﴿ فهل من مدكر ﴾ أي فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يسر الله حفظه ومعناه؟ وقال القرظي: فهل من منزجر عن المعاصي؟ وروى ابن أبي حاتم، عن مطر الوراق في قوله تعالى: ﴿ فهل من مدكر ﴾ هل من طالب علم فيعان عليه[1].

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن عاد قوم (هود) أنهم كذبوا رسولهم، كما صنع قوم (نوح) وأنه تعالى أرسل ﴿ عليهم ريحاً صرصراً ﴾ وهي الباردة الشديدة البرد، ﴿ في يوم نحس مستمر ﴾ عليهم نحسه ودماره، لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي، وقوله تعالى: ﴿ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أم رأسه فيسقط إلى الأرض، فتثلغ رأسه فيبقى جثةً بلا رأس،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وعلّقه البخاري بصيغة الجزم عن مطر الوراق.

ولهذا قال: ﴿ كأنهم أعجاز نخل منقعر * فكيف كان عذابي ونذر *ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مذكر﴾.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحاً ﴿ فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسعر ﴾ يقولون: لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كلنا قيادنا لواحد منا، ثم تعجبوا من إلقاء الوحي عليه خاصة من دونهم، ثم رموه بالكذب، فقالوا ﴿ بل هو كذاب أشر ﴾ أي متجاوز في حد الكذب، قال الله تعالى: ﴿ سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ﴾ وهذا تهديد لهم شديد ووعيد أكيد، ثم قال تعالى: ﴿ إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم ﴾ أي اختباراً لهم، أخرج الله تعالى لهم ناقة عظيمة عشراء، من صخرة صماء، طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم في تصديق (صالح) عليه السلام فيما جاءهم به، ثم قال تعالى آمراً لعبده ورسوله صالح ﴿ فارتقبهم واصطبر ﴾، أي انتظر ما يؤول إليه أمرهم واصبر عليهم، فإن العاقبة لك والنصر في الدنيا والآخرة ﴿ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم ﴾ أي يوم لهم ويوم للناقة، كقوله: ﴿ قال هذه ناقة لها شربٌ ولكم شرب يوم معلوم ﴾، وقوله تعالى: ﴿ كل شرب محتضر ﴾ قال مجاهد: إذا غابت حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا اللبن، ثم قال تعالى: ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ قال المفسرون: هو عاقر الناقة واسمه (قدار بن سالف) وكان أشقى قومه، كقوله: ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾، ﴿ فتعاطى ﴾ أي جسر ﴿ فعقر * فكيف كان عذابي ونُذُرِ ﴾ أي فعاقبتهم فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بي وتكذيبهم رسولي، ﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴾ أي فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية، وخمدوا وهمدوا كما يهمد يبيس الزرع والنبات، قاله غير واحد من المفسرين ﴿ والمحتظر ﴾ قال السدي: هو المرعى بالصحراء حين ييبس ويحترق وتسفيه الريح، وقال ابن زيد: كانت العرب يجعلون حظاراً على الإبل والمواشي من يبس الشوك، فهو المراد من قوله: ﴿ كهشيم المحتظر ﴾.

* كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم ﴿ لوط ﴾ كيف كذبوا رسولهم وخالفوه وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور وهي ﴿ الفاحشة ﴾ التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، ولهذا أهلكهم الله هلاكاً لم يهلكه أمة من الأمم ، فإنه تعالى أمر جبريل عليه السلام فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم وأرسلها وأتبعت بحجارة من سجيل منضود ، ولهذا قال ههنا : ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصباً ﴾ وهي الحجارة ﴿ إلا آل لوط نجيناهم بسحر ﴾ أي خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم ، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ، حتى ولا امرأته أصابها ما أصاب قومها ، وخرج نبي الله لوط من بين أظهرهم سالماً لم يمسه سوء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كذلك نجزي من شكر * ولقد أنذرهم بطشتنا ﴾ أي ولقد كان قبل حلول العذاب بهم ، قد أنذرهم بأس الله وعذابه ، فما التفتوا إلى ذلك ولا أصغوا إليه ، بل شكوا فيه وتماروا به ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه ﴾ وذلك ليلة ورد عليه الملائكة في صور شباب مرد حسان ، محنة من الله بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام ، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها ، فأعلمتهم بأضياف لوط فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فأغلق لوط دونهم الباب ، فجعلوا يحاولون كسر الباب ، ولوط عليه السلام يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه ، فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول خرج عليهم (جبريل) عليه السلام فضرب أعينهم بطرف جناحه ، فانطمست أعينهم ، يقال إنها غارت من وجوههم ، وقيل : إنه لم يبق لهم عيون بالكلية ، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان ، ويتوعدون لوطاً عليه السلام إلى الصباح ، قال الله تعالى : ﴿ ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴾ أي لا محيد لهم عنه ولا انفكاك لهم منه ﴿ فذوقوا عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

* وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وقومه ، إنهم جاءهم رسول (موسى) وأخوه (هارون) وأيدهما بمعجزات عظيمة وآيات متعددة ، فكذبوا بها كلها فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، أي فأبادهم الله ولم يبق منهم عين ولا أثر ، ثم قال تعالى : ﴿ أكفاركم ﴾ أيها المشركون ﴿ خير من أولئكم ﴾ يعني من الذين تقدم ذكرهم ، ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل ، أأنتم خير من أولئكم ؟ ﴿ أم لكم براءة في الزبر ﴾ أي أم معكم من الله براءة ، أن لا ينالكم عذاب ولا نكال ، ثم قال تعالى مخبراً عنهم : ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴾ أي يعتقدون أن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء ، قال الله تعالى : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ أي سيتفرق شملهم ويغلبون ، روى البخاري ، عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر : « أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبداً » فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده ، وقال : حسبك يا رسول الله ألححت على ربك ، فخرج وهو يثب في الدرع ، وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر * بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾[1] ، وروى

(١) أخرجه البخاري والنسائي .

ابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ قال عمر: أي جمع يهزم؟ أي جمع يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر» فعرفت تأويلها يومئذ[1].

* ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾

يخبرنا تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق ﴿وسُعُر﴾ مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق، ثم قال تعالى: ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾ أي كما كانوا في سعر وشك وتردد أورثهم ذلك النار، ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً ﴿ذوقوا مس سقر﴾، وقوله تعالى ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾، كقوله ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾، وكقوله تعالى ﴿والذي قدّر فهدى﴾ أي قدر قدراً وهدى الخلائق إليه، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة، على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل برئها، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها على الفرقة القدرية الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة، روى أحمد، عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر، فنزلت: ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾[2]. وعن عطاء بن أبي رباح قال: أتيت ابن عباس وهو ينزع من زمزم وقد ابتلت أسافل ثيابه فقلت له: قد تُكلِّمَ في القدر، فقال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم، قال: فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم: ﴿ذوقوا مس سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ أولئك شرار هذه الأمة، فلا تعودوا مرضاهم ولا تصلوا على موتاهم، إن رأيت أحداً منهم فقأت عينيه بأصبعي هاتين[3]. وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لكل أمة مجوس، ومجوس أمتي الذين يقولون لا قدر، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»[4]. وقال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس»[5].

وفي الحديث الصحيح: «استعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك أمر فقل: قدر الله وما شاء فعل، ولا تقل لو أني فعلت لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان». وروى الإمام أحمد، عن الوليد بن عبادة قال: دخلت

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه مسلم وأحمد والترمذي.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٤) أخرجه الإمام أحمد.
(٥) رواه مسلم وأحمد عن ابن عمر مرفوعاً.

على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت : يا أبتاه أوصني واجتهد لي ، فقال: أجلسوني، فلما أجلسوه، قال: يا بني إنك لن تطعم الإيمان ولن تبلغ حق حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، قلت: يا أبتاه وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره ؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن أول ما خلق الله القلم ثم قال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة » ، يا بني إن مت ولست على ذلك دخلت النار[١] . وقد ثبت في صحيح مسلم، عن عبدالله ابن عمرو قال، قال رسول الله ﷺ: « إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة »، زاد ابن وهب: ﴿وكان عرشه على الماء﴾[٢] . وقوله تعالى: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه، كما أخبر بنفوذ قدره فيهم، فقال: ﴿وما أمرنا إلا واحدة﴾ أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة، لا نحتاج إلى تأكيد بثانية، فيكون ذلك موجوداً كلمح البصر لا يتأخر طرفة عين، وما أحسن ما قال بعض الشعراء :

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له : كن – قولة – فيكون

وقوله تعالى : ﴿ولقد أهلكنا أشياعكم﴾ يعني أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة المكذبين بالرسل ، ﴿فهل من مدّكر﴾ ؟ أي فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك ، وقدّر لهم من العذاب ، كما قال تعالى: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل﴾، وقوله تعالى ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾ أي مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام، ﴿وكل صغير وكبير﴾ أي من أعمالهم ﴿مستطر﴾ أي مجموع عليهم ومسطّر في صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وقد روى الإمام أحمد، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: « يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً »[٣] . وقوله تعالى: ﴿إن المتقين في جنات ونهر﴾ أي بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر ، والسحب في النار على وجوههم، مع التوبيخ والتقريع والتهديد، وقوله تعالى: ﴿في مقعد صدق﴾ أي في دار كرامة الله ورضوانه ، وفضله وامتنانه، ، وجوده وإحسانه ﴿عند مليك مقتدر﴾ أي عند الملك العظيم، الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون ، وقد روى الإمام أحمد، عن عبدالله بن عمرو يبلغ به النبي ﷺ قال: « المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا »[٤] .

[آخر تفسير سورة اقتربت ، ولله الحمد والمنة ، وبه التوفيق والعصمة]

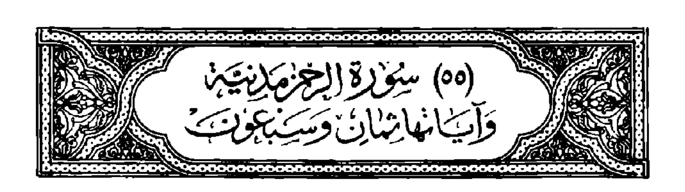
* * *

(١) أخرجه أحمد والترمذي ، وقال الترمذي : حسن صحيح غريب .

(٢) أخرجه مسلم والترمذي .

(٣) أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجة .

(٤) أخرجه مسلم وأحمد والنسائي .



روى الترمذي، عن محمد بن المنكدر، عن جابر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله تعالى: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ قالوا: لا شيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾

يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه، أنه أنزل على عباده القرآن، ويسر حفظه وفهمه على من رحمه، فقال تعالى: ﴿الرحمن علم القرآن * خلق الإنسان علمه البيان﴾ قال الحسن: يعني النطق، وقال الضحّاك: يعني الخير والشر، وقول الحسن ههنا أحسن وأقوى، لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق، وتسهيل خروج الحروف من مواضعها، على اختلاف مخارجها وأنواعها، وقوله تعالى: ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ أي يجريان متعاقبين بحساب مقنّن، لا يختلف ولا يضطرب. ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾، وقال تعالى: ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم﴾. وقوله تعالى: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ اختلف المفسرون

(١) أخرجه الترمذي ورواه الحافظ البزار وابن جرير بنحوه.

في معنى قوله ﴿والنجم﴾ ؛ فروي عن ابن عباس ﴿النجم﴾ ما انبسط على وجه الأرض، يعني من النبات[1]، وقال مجاهد: النجم الذي في السماء، وكذا قال الحسن وقتادة، وهذا القول هو الأظهر والله أعلم، لقوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿والسماء رفعها ووضع الميزان﴾ يعني العدل، كما قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾ وهكذا قال ههنا: ﴿ألا تطغوا في الميزان﴾ أي خلق السماوات والأرض بالحق والعدل، لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل، ولهذا قال تعالى: ﴿وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾ أي لا تبخسوا الوزن بل زنوا بالحق والقسط ، كما قال تعالى : ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾.

وقوله تعالى: ﴿والأرض وضعها للأنام﴾ أي السماء أرساها بالجبال الشامخات، لتستقر بما على وجهها من الأنام، وهم الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم في سائر أقطارها وأرجائها، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: الأنام: الخلق، ﴿فيها فاكهة﴾ أي مختلفة الألوان والطعوم والروائح، ﴿والنخل ذات الأكمام﴾ أفرده بالذكر لشرفه ونفعه رطباً ويابساً، والأكمام: قال ابن عباس: هي أوعية الطلع، وهو الذي يطلع فيه القنو، ثم ينشق عن العنقود فيكون بسراً ثم رطباً، ثم ينضج ويتناهى ينعه واستواؤه، وقيل الأكمام رفاتها، وهو الليف الذي على عنق النخلة، وهو قول الحسن وقتادة، ﴿والحب ذو العصف والريحان﴾ قال ابن عباس: ﴿ذو العصف﴾ يعني التبن، وعنه: العصف ورق الزرع الأخضر الذي قطع رؤوسه، فهو يسمى العصف إذا يبس، وكذا قال قتادة والضحاك: عصفه: تبنه، وقال ابن عباس ومجاهد: والريحان يعني الورق، وقال الحسن: هو ريحانكم هذا، ومعنى هذا - والله أعلم - أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما، له في حال نباته عصف وهو ما على السنبلة، وريحان وهو الورق الملتف على ساقها، وقيل : العصف الورق أول ما ينبت الزرع بقلا، والريحان الورق يعني إذا أدجن وانعقد فيه الحب، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل في قصيدته المشهورة :

وقولا له : من ينبت الحب في الثرى فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبه في رؤوسه ففي ذاك آيات لمن كان واعيا

وقوله تعالى : ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ أي فبأي الآلاء يا معشر الثقلين من الإنس والجن تكذبان ؟ أي النعم ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها، لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها ، فنحن نقول كما قالت الجن : « اللهم ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد » وكان ابن عباس يقول: لا بأيها يا رب، أي لا نكذب بشيء منها.

خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

(١) وهو قول سعيد بن جبير والسدي وسفيان الثوري واختاره ابن جرير .

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

يذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفخار، وخلقه الجان من مارج من نار، وهو طرف لهبها، قاله ابن عباس[١]، وعنه: ﴿من مارج من نار﴾ من لهب النار من أحسنها، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿من مارج من نار﴾ من خالص النار، وكذا قال عكرمة ومجاهد والضحّاك وغيرهم، وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت، قال رسول الله ﷺ: «خُلِقت الملائكةُ من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»[٢]. وقوله تعالى: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾؟ تقدم تفسيره، ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ يعني مشرقي الصيف والشتاء، ومغربي الصيف والشتاء، وقال: ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب﴾ وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم وبروزها منه إلى الناس، وقال: ﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾، والمراد منه جنس المشارق والمغارب، ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق من الجن والإنس قال: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾؟ وقوله تعالى: ﴿مرج البحرين﴾ قال ابن عباس: أي أرسلهما، وقوله ﴿يلتقيان﴾ قال ابن زيد: أي منعهما أن يلتقيا بما جعل بينهما من البرزخ الحاجز الفاصل بينهما، والمراد بقوله ﴿البحرين﴾: الملح والحلو، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس[٣]؛ وقد اختار ابن جرير: أن المراد بالبحرين بحر السماء، وبحر الأرض، لأن اللؤلؤ يتولد من ماء السماء وأصداف بحر الأرض، وهذا لا يساعده اللفظ، فإنه تعالى قد قال ﴿بينهما برزخ لا يبغيان﴾ أي وجعل بينهما برزخاً وهو الحاجز من الأرض لئلا يبغي هذا على هذا وهذا على هذا، فيفسد كل واحد منهما الآخر، وما بين السماء والأرض لا يسمى برزخاً وحجراً محجوراً.

وقوله تعالى: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ أي من مجموعهما، فإذا وجد ذلك من أحدهما كفى، كما قال تعالى ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾؟ والرسل إنما كانوا في الإنس خاصة دون الجن، وقد صح هذا الاطلاق. واللؤلؤ معروف، وأما المرجان فقيل: هو صغار اللؤلؤ[٤]، وقيل: كباره وجيده، حكاه ابن جرير عن بعض السلف[٥]، وقيل: هو نوع من الجواهر أحمر اللون، قال ابن مسعود: المرجان الخرز الأحمر. وأما قوله: ﴿ومن كلٍ تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها﴾، فاللحم من كل من الأجاج والعذب، والحلية إنما هي من المالح دون العذب، قال ابن عباس: ما سقطت قط قطرة من السماء في البحر فوقعت في صدفة إلا صار منها لؤلؤة، ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض امتن بها عليهم فقال: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾؟ وقوله تعالى: ﴿وله الجوار المنشآت﴾ يعني السفن التي تجري ﴿في البحر﴾ قال مجاهد: ما رفع قلعه من السفن فهي منشآت وما لم يرفع قلعه فليس بمنشآت. وقال قتادة: المنشآت يعني المخلوقات، وقال غيره: المنشِئات بكسر الشين

---

(١) وهو قول عكرمة ومجاهد والحسن وابن زيد.

(٢) أخرجه مسلم والإمام أحمد.

(٣) تقدم الكلام على هذا في سورة الفرقان.

(٤) قاله مجاهد وقتادة والضحّاك.

(٥) منهم الربيع بن أنَس وابن عباس ومرة الهمداني.

يعني البادئات، ﴿ كالأعلام﴾ أي كالجبال في كبرها وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم، مما فيه صلاح الناس في جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع، ولهذا قال: ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ؟ عن عمرة بن سويد قال: «كنت مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه على شاطئ الفرات إذ أقبلت سفينة مرفوع شراعها فبسط عليٌّ يديه، ثم قال: يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام﴾ والذي أنشأها تجري في بحوره ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله»[1] .

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السماوات إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم، فإن الرب تعالى وتقدس هو الحي الذي لا يموت أبداً، قال قتادة: أنبأ بما خلق، ثم أنبأ أن ذلك كله فانٍ، وفي الدعاء المأثور: يا حي يا قيوم، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك نستغيث، أصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك. وقال الشعبي: إذا قرأت: ﴿ كل من عليها فان﴾ فلا تسكت حتى تقرأ: ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ . وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه﴾ ، وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه ذو الجلال والإكرام، أي هو أهل أن يُجل فلا يُعصى، وأن يُطاع فلا يُخالف، كقوله تعالى: ﴿ يريدون وجهه﴾ ، وكقوله: ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله﴾. قال ابن عباس: ﴿ ذو الجلال والإكرام﴾ ذو العظمة والكبرياء، ولما أخبر تعالى عن تساوي أهل الأرض كلهم في الوفاة، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة، فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل، قال: ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ . وقوله تعالى: ﴿ يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن﴾ وهذا إخبار عن غناه عما سواه، وافتقار الخلائق إليه وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم، وأنه كل يوم هو في شأن، قال الأعمش: من شأنه أن يجيب داعياً أو يعطي سائلاً، أو يفك عانياً أو يشفي سقيماً، وقال مجاهد: كل يوم هو يجيب داعياً ويكشف كرباً، ويجيب مضطراً، ويغفر ذنباً، وقال قتادة: لا يستغني عنه أهل السماوات والأرض يحيي حياً ويميت ميتاً، ويربي صغيراً ويفك أسيراً، وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم ومنتهى شكواهم، وروى ابن جرير عن منيب الأزدي قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ كل يوم هو في شأن﴾ فقلنا: يا رسول الله وما ذاك الشأن؟ قال: «أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً ويضع آخرين»[2] . وقال ابن عباس: إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء دفتاه يا قوتة حمراء قلمه نور، وكتابه نور، وعرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة، يخلق في كل نظرة، ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء[3] .

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) أخرجه ابن جرير مرفوعاً ورواه البخاري موقوفاً من كلام أبي الدرداء . (٣) أخرجه ابن جرير .

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾ قال: وعيد من الله تعالى للعباد، وليس بالله شغل وهو فارغ، وقال قتادة: قد دنا من الله فراغ لخلقه، وقال ابن جريج: ﴿ سنفرغ لكم ﴾ أي سنقضي لكم، وقال البخاري: سنحاسبكم لا يشغله شيء عن شيء، وهو معروف في كلام العرب، يقال: لأفرغنّ لك، وما به شغل يقول: لآخذنك على غرتك، وقوله تعالى: ﴿ أيها الثقلان ﴾ الثقلان: الإنس والجن كما جاء في الصحيح: « يسمعه كل شيء إلا الثقلين »، وفي رواية: « إلا الإنس والجن »، وفي حديث الصور: « الثقلان الإنس والجن » ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ أي لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره، بل هو محيط بكم لا تقدرون على التخلص من حكمه، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا في مقام الحشر، الملائكة محدقة بالخلائق سبع صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿ إلا بسلطان ﴾ أي إلا بأمر الله، ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ يُرسلُ عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ﴾ قال ابن عباس: الشواظ هو لهب النار، وعنه: الشواظ الدخان، وقال مجاهد: هو اللهب الأخضر المنقطع، وقال الضحاك: ﴿ شواظ من نار ﴾ سيل من نار، وقوله تعالى: ﴿ ونحاس ﴾ قال ابن عباس: دخان النار، وقال ابن جرير: والعرب تسمي الدخان نحاساً. روى الطبراني عن الضحّاك أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس عن الشواظ فقال: هو اللهب الذي لا دخان معه، فسأله شاهداً على ذلك من اللغة، فأنشده بيت أمية بن أبي الصلت في حسان:

ألا من مبلغ حسانَ عني ... مُغَلْغلة تدب إلى عكاظ[1]

أليس أبوك فينا كان قيناً ... لدى القينات فَسْلا في الحِفاظ

يمانيـاً يظل يشد كيراً ... وينفخ دائباً لهب الشواظ

قال: صدقت، فما النحاس؟ قال: هو الدخان الذي لا لهب له، قال: فهل تعرفه العرب؟ قال: نعم أما سمعت نابغة بني ذبيان يقول:

يضيء كضوء سراج السليـ ... ـط لم يجعل الله فيه نحاساً[2]

وقال مجاهد: النحاس الصفر يذاب فيصب على رؤوسهم، والمعنى: لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بارسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا، ولهذا قال: ﴿ فلا تنتصران فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾؟

---

(١) معنى مغلغلة: أي رسالة؛ قين: أي عبد، فَسْل: أي ضعيف عابر.

(٢) رواه الطبراني عن الضحّاك عن نافع بن الأزرق.

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى : ﴿ فإذا انشقت السماء﴾ يوم القيامة كما دلت عليه الآيات الواردة في معناها، كقوله تعالى : ﴿ وانشقت السماء فهي يومئذ واهية﴾، وقوله: ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً﴾، وقوله : ﴿ إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت﴾، وقوله تعالى: ﴿ فكانت وردة كالدهان﴾ أي تذوب كما يذوب الدُّرْدِي[1] والفضة في السبك ، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها ، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء ، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم . عن أنس بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ : « يبعث الناس يوم القيامة والسماء تطش عليهم »[2] قال الجوهري: الطش المطر الضعيف، وقال ابن عباس: ﴿ وردة كالدهان﴾ كالأديم الأحمر . وعنه كالفرس الورد. وقال أبو صالح: كالبرذون الورد ، ثم كانت بعد كالدهان، وقال الحسن البصري : تكون ألواناً ، وقال السدي: تكون كلون البغلة الوردة، وتكون كالمهل كدردي الزيت، وقال مجاهد: ﴿ كالدهان﴾ كألوان الدهان، وقال عطاء الخُراساني : كلون دهن الورد في الصفرة، وقال قتادة: هي اليوم خضراء ويومئذ لونها إلى الحمرة يوم ذي ألوان، وقال أبو الجوزاء ، في صفاء الدهن، وقال ابن جريج: تصير السماء كالدهان الذائب ، وذلك حين يصيبها حر جهنم، وقوله تعالى: ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ ، وهذه كقوله تعالى: ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ فهذا في حال ، و « ثَمَّ » في حال، يسأل الخلائق عن جميع أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾، ولهذا قال قتادة ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾، قال: قد كانت مسألة ثم ختم على أفواه القوم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، قال ابن عباس: لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا، فهذا قول ثان، وقال مجاهد في هذه الآية: لا تسأل الملائكة عن المجرمين بل يعرفون بسياهم، وهذا قول ثالث، وكأن هذا بعد ما يؤمر بهم إلى النار فذلك الوقت لا يسألون عن ذنوبهم، بل يقادون إليها ويلقون فيها كما قال تعالى: ﴿ يعرف المجرمون بسياهم﴾ أي بعلامات تظهر عليهم، وقال الحسن وقتادة: يعرفون باسوداد الوجوه وزرقة العيون، (**قلت**) : وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء .

وقوله تعالى : ﴿ فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ أي يجمع الزبانية ناصيته مع قدميه ويلقونه في النار كذلك ، وقال ابن عباس: يؤخذ بناصيته وقدميه فيكسر كما يكسر الحطب في التنور ، وقال الضحّاك: يجمع بين ناصيته وقدميه

---

(١) الدردي : ما يركد في أسفل كل مائع كالشراب والأدهان .

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك .

في سلسلة من وراء ظهره، وقال السدي: يجمع بين ناصية الكافر وقدميه فتربط ناصيته بقدمه ويفتل ظهره، وقوله تعالى: ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون﴾ أي هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها، ها هي حاضرة تشاهدونها عياناً، يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً، وقوله تعالى: ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ أي تارة يعذبون في الجحيم، وتارة يسقون من الحميم، وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب يقطع الأمعاء والأحشاء، وهذه كقوله تعالى: ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون﴾ . وقوله تعالى ﴿آن﴾ أي حار قد بلغ الغاية في الحرارة قال ابن عباس: قد انتهى غليه واشتد حرّه، وقال محمد بن كعب القرظي: يؤخذ العبد فيحرك بناصيته في ذلك الحميم، حتى يذوب اللحم ويبقى العظم والعينان في الرأس، وهي كالتي يقول الله تعالى: ﴿في الحميم ثم في النار يسجرون﴾ فقوله ﴿حميم آن﴾ أي حميم حار جداً، ولما كان معاقبة العصاة المجرمين، وتنعيم المتقين من فضله ورحمته، وكان إنذره لهم عن عذابه وبأسه، مما يزجرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي، قال ممتناً بذلك على بريته: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ؟

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾

قال عطاء الخُراساني: نزلت هذه الآية ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ في أبي بكر الصديق، وقال عطية ابن قيس: نزلت في الذي قال: أحرقوني بالنار لعلي أضل الله، قال تاب يوماً وليلة، بعد أن تكلم بهذا فقبل الله منه وأدخله الجنة[1]، والصحيح أن هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره، يقول الله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه﴾ بين يدي الله عزّ وجلّ يوم القيامة ﴿ونهى النفس عن الهوى﴾ ولم يطع ولا آثر الحياة الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى، فأدى فرائض الله واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان، كما روى البخاري رحمه الله: عن عبدالله بن قيس، أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عزّ وجلّ إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[2]، وقال حماد: ولا أعلمه إلا قد رفعه في قوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾، وفي قوله: ﴿ومن دونهما جنتان﴾، جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين. وقال عطاء بن يسار، أخبرني أبو الدرداء أن رسول الله ﷺ قرأ يوماً هذه الآية ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق يارسول الله؟ فقال: «وإن ... رغم أنف أبي الدرداء»[3]. وهذه الآية عامة في الإنس والجن، فهي من أدل

---

(١) رواه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه البخاري وبقية الجماعة إلا أبا داود.

(٣) رواه النسائي مرفوعاً وموقوفاً.

دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا، ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان ۔ فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ثم نعت هاتين الجنتين فقال: ﴿ذواتا أفنان﴾ أي أغصان نضرة حسنة، تحمل من كل ثمرة نضيجة، ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ؟ هكذا قال عطاء وجماعة : أن الأفنان أغصان الشجر يمس بعضها بعضاً، وقال عكرمة ﴿ذواتا أفنان﴾ يقول : ظل الأغصان على الحيطان ، ألم تسمع قول الشاعر :

ما هاج شوقك من هديل حمامة تدعو على فنن الغصون حماما

وعن ابن عباس ﴿ذواتا أفنان﴾ : ذواتا ألوان، ومعنى هذا القول أن فيهما فنوناً من الملاذ واختاره ابن جرير، وقال عطاء : كل غصن يجمع فنوناً من الفاكهة، وقال الربيع بن أنس: ﴿ذواتا أفنان﴾ واسعتا الفناء، وكل هذه الأقوال صحيحة ولا منافاة بينها والله أعلم، عن أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعت رسول الله ﷺ وذكر سدرة المنتهى فقال: «يسير في ظل الفنن منها الراكب مائة سنة - أو قال يستظل في ظل الفنن منها مائة راكب - فيها فراش الذهب كأن ثمرها القلال»[1] ﴿فيهما عينان تجريان﴾ أي تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان، فتثمر من جميع الألوان. قال الحسن البصري: إحداهما يقال لها تسنيم ، والأخرى السلسبيل، وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين، ولهذا قال بعد هذا: ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ أي من جميع أنواع الثمار، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ قال ابن عباس: ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة، وليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء، يعني أن بين ذلك بوناً عظيماً وفرقاً بيناً في التفاضل .

مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾

يقول تعالى : ﴿متكئين﴾، يعني أهل الجنة، والمراد بالاتكاء ههنا الاضطجاع، ويقال : الجلوس على صفة التربيع ﴿على فرش بطائنها من استبرق﴾ وهو ما غلظ من الديباج، وقيل: هو الديباج المزيّن بالذهب، فنبه على شرف الظهارة بشرف البطانة، فهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى، قال ابن مسعود: هذه البطائن فكيف لو رأيتم الظواهر ؟ قال مالك بن دينار : بطائنها من إستبرق، وظواهرها من نور، وقال الثوري : بطائنها من إستبرق وظواهرها من نور جامد، وقال القاسم بن محمد: بطائنها من إستبرق وظواهرها من الرحمة ﴿وجنى الجنتين دان﴾ أي ثمرهما قريب إليهم متى شاءوا تناولوه، على أي صفة كانوا كما قال تعالى: ﴿قطوفها دانية﴾، وقال: ﴿ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً﴾ أي لا تمتنع ممن تناولها بل تنحط إليه من أغصانها ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك ﴿فيهن﴾ أي في الفرش ﴿قاصرات الطرف﴾ أي غضيضات عن غير

(١) أخرجه الترمذي في سننه .

أزواجهن، فلا يرين شيئاً في الجنة أحسن من أزواجهن، وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلها: والله ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك، ولا في الجنة شيئاً أحب إليّ منك، فالحمد لله الذي جعلك لي وجعلني لك، ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾ أي بل هن أبكار عرب أتراب، لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن، وهذه أيضاً من الأدلة على دخول مؤمني الجن الجنة، سئل ضمرة بن حبيب هل يدخل الجن الجنة؟ قال: نعم، وينكحون، للجن جنيات وللإنس إنسيات، وذلك قوله: ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان * فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾، ثم قال ينعتهن للخطاب ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ قال مجاهد والحسن: في صفاء الياقوت وبياض المرجان، فجعلوا المرجان ههنا اللؤلؤ، عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة من نساء الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من حرير حتى يرى مخها» وذلك قوله تعالى: ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيته من ورائه»[1]. وروى الإمام أحمد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين، على كل واحدة سبعون حلة يرى مخ ساقهامن وراء الثياب»[2] وعن محمد بن سيرين قال: إما تفاخروا وإما تذاكروا، الرجال أكثر في الجنة أم النساء، فقال أبو هريرة: أولم يقل أبو القاسم ﷺ: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على ضوء كوكب دري في السماء، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم وما في الجنة أعزب؟»[3]. وروى الإمام أحمد، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قده - يعني سوطه - من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحاً ولطاب ما بينهما، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»[4].

وقوله تعالى: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ أي ليس لمن أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة كما قال تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾. روى البغوي، عن أنس بن مالك قال، قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ وقال: «هل تدرون ما قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة»[5]؟ ولما كان في الذي ذكر نعم عظيمة لا يقاومها عمل، بل مجرد تفضل وامتنان قال بعد ذلك كله: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾؟

وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ

(١) رواه الترمذي مرفوعاً وموقوفاً، والموقوف أصح.

(٢) تفرد به الإمام أحمد.

(٣) الحديث مخرج في الصحيحين.

(٤) أخرجه أحمد ورواه البخاري بنحوه. (٥) ذكره البغوي من حديث أنس بن مالك.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما، في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن قال الله تعالى: ﴿ومن دونهما جنتان﴾ وقد تقدم في الحديث: «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما». فالأوليان للمقربين، والأخريان لأصحاب اليمين. وقال أبو موسى: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين،

وقال ابن عباس: ﴿ومن دونهما جنتان﴾ من دونهما في الدرجة. وقال ابن زيد: من دونهما في الفضل، ﴿مدهامتان﴾ أي سوداوان من شدة الري من الماء، قال ابن عباس ﴿مدهامتان﴾ قد اسودتا من الخضرة من شدة الري من الماء، وعنه ﴿مدهامتان﴾ قال: خضروان. وقال محمد بن كعب: ممتلئتان من الخضرة، وقال قتادة: خضروان من الري ناعمتان، ولا شك في نضارة الأغصان على الأشجار المشتبكة بعضها في بعض، وقال هناك: ﴿فيهما عينان تجريان﴾ وقال ههنا: ﴿نضاختان﴾ قال ابن عباس: أي فياضتان والجري أقوى من النضخ، وقال الضحّاك ﴿نضاختان﴾ أي ممتلئتان ولا تنقطعان، وقال هناك: ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ وقال ههنا ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾، ولا شك أن الأولى أعم وأكثر في الأفراد والتنويع على ﴿فاكهة﴾ وهي نكرة في سياق الاثبات لا تعم، ولهذا ليس قوله: ﴿ونخل ورمان﴾، من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخاري وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما، عن عمر بن الخطاب قال: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد أفي الجنة فاكهة؟ قال: «نعم فيها فاكهة ونخل ورمان»، قالوا: أفيأكلون كما يأكلون في الدنيا؟ قال: «نعم، وأضعاف»، قالوا: فيقضون الحوائج؟ قال: «لا ولكنهم يعرقون ويرشحون فيذهب ما في بطونهم من أذى»[1]. وروى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: «نخل الجنة سعفها كسوة لأهل الجنة، منها مقطعاتهم ومنها حللهم، وورقها ذهب أحمر، وجذوعها زمرد أخضر، وتمرها أحلى من العسل وألين من الزبد وليس له عجم». وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كالبعير المقتب»[2]، ثم قال: ﴿فيهن خيرات حسان﴾ قيل: المراد خيرات كثيرة حسنة في الجنة قاله قتادة، وقيل: ﴿خيرات﴾ جمع خيرة وهي المرأة الصالحة الحسنة الخلق الحسنة الوجه قاله الجمهور، وفي الحديث الآخر الذي سنورده في سورة الواقعة إن شاء الله أن الحور العين يغنين: «نحن الخيِّرات الحسان. خلقنا لأزواج كرام» ولهذا قرأ بعضهم: ﴿فيهن خيّرات﴾ بالتشديد ﴿حسان فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾، ثم قال: ﴿حور مقصورات في الخيام﴾، وهناك قال: ﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ ولا شك أن التي قد قصرت طرفها بنفسها أفضل ممن قُصِرت وإن كان الجميع مخدرات، قال ابن أبي حاتم، عن عبد الله بن مسعود قال: إن لكل مسلم خيرة ولكل

---

(١) أخرجه عبد بن حميد في مسنده.

(٢) أخرجهما ابن أبي حاتم.

خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب، تدخل عليه كل يوم تحفة وكرامة وهدية، لم تكن قبل ذلك لا مرحات ولا طمحات، ولا بخرات، ولا زفرات، حور عين كأنها بيض مكنون .

وقوله تعالى : ﴿ في الخيام﴾ قال البخاري، عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: « إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون »، ورواه مسلم بلفظ : « إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً للمؤمن فيها أهل يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً » . وقال ابن أبي حاتم، عن أبي الدرداء قال: لؤلؤة واحدة فيها سبعون باباً من در[١] . وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿حور مقصورات في الخيام﴾ قال: خيام اللؤلؤ ، وفي الجنة خيمة واحدة من لؤلؤة واحدة أربع فراسخ في أربع فراسخ عليها أربعة آلاف مصراع من ذهب[٢] . وقال عبد الله بن وهب، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم واثنتان وسبعون زوجة وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية وصنعاء »[٣] . وقوله تعالى: ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾ قد تقدم مثله سواء إلا أنه زاد في وصف الأوائل بقوله: ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ۞ فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾، وقوله تعالى: ﴿ متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان﴾ قال ابن عباس: الرفرف المحابس، وكذا قال مجاهد وعكرمة هي المحابس، وقال عاصم الجحدري: ﴿ متكئين على رفرف خضر﴾ يعني الوسائد وهو قول الحسن البصري، وقال سعيد بن جبير : الرفرف رياض الجنة، وقوله تعالى: ﴿ وعبقري حسان﴾ قال ابن عباس والسدي: العبقري الزرابي، وقال سعيد بن جبير : هي عتاق الزرابي يعني جيادها، وقال مجاهد : العبقري الديباج .

وسئل الحسن البصري عن قوله تعالى ﴿ وعبقري حسان﴾ فقال: هي بسط أهل الجنة لا أباً لكم فاطلبوها، وقال أبو العالية: العبقري الطنافس المخملة إلى الرقة ما هي، وقال القيسي : كل ثوب موشّى عند العرب عبقري، وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنتين الأولين أرفع وأعلى من هذه الصفة، فإنه قد قال هناك: ﴿ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق﴾، فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظهائرها اكتفاء بما مدح به البطائن وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ ؟ فوصف أهلها بالإحسان وهو أعلى المراتب والنهايات كما في حديث جبريل لما سأل عن الإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان، فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأولين على هاتين الأخيرتين، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأولين . ثم قال : ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾ أي هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يكرم فيعبد ، ويشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى، وقال ابن عباس ﴿ ذي الجلال والإكرام﴾ : ذي العظمة والكبرياء . « أجلّوا الله يغفر لكم »[٤] . وفي الحديث الآخر : « أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام »[٥] . وفي رواية : « أَلِظُّوا بذي الجلال

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .
(٢) أخرجه ابن أبي حاحم .
(٣) أخرجه الترمذي في سنه .
(٤) أخرجه الإمام أحمد . (٥) رواه الترمذي .

والإكرام »[1]. وقال الجوهري: ألظ فلان بفلان إذا لزمه، وقول ابن مسعود: ألظوا بياذا الجلال والإكرام: أي الزموا، يقال: الإلظاظ هو الإلحاح، وفي صحيح مسلم، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد يعني بعد الصلاة إلا بقدر ما يقول: « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام »[2].

[آخر تفسير سورة الرحمن ، ولله الحمد والمنة]



(١) رواه النسائي وأحمد.

(٢) أخرجه مسلم وأصحاب السنن.



(٥٦) سورة الواقعة مكية وآياتها ست وتسعون

روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبدالله بن مسعود بسنده عن أبي ظبية قال: مرض عبدالله مرضه الذي توفي فيه، فعاده (عثمان بن عفّان) فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: ألا آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني، قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه، قال: يكون لبناتك من بعدك، قال: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً»[1]. وروى أحمد عن سماك بن حرب أنه سمع جابر بن سمرة يقول: كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات كنحو من صلاتكم، التي تصلون اليوم، ولكنه كان يخفف كانت صلاته أخف من صلاتكم، وكان يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور[2].

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾

الواقعة من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها كما قال تعالى: ﴿فيومئذ وقعت الواقعة﴾ وقوله تعالى ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾ أي ليس لوقوعها إذا أراد الله كونها صارف يصرفها ولا دافع يدفعها، كما قال: ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله﴾، وقال: ﴿سأل سائل بعذاب واقع ۝ للكافرين ليس له دافع﴾، ومعنى ﴿كاذبة﴾ أي لا بد أن تكون، قال قتادة: ليس فيها ارتداد ولا رجعة، قال ابن جرير:

---

(١) رواه ابن عساكر وأبو يعلى، وقال بعده: فكان أبو ظبية لا يدعها.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند.

والكاذبة مصدر كالعاقبة والعافية، وقوله تعالى: ﴿ خافضة رافعة ﴾ أي تخفض أقواماً إلى أسفل سافلين إلى الجحيم، وإن كانوا في الدنيا أعزاء، وترفع آخرين إلى أعلى عليين إلى النعيم المقيم، وإن كانوا في الدنيا وضعاء، وعن ابن عباس: ﴿ خافضة رافعة ﴾ تخفض أقواماً وترفع آخرين، وقال عثمان بن سراقة: الساعة خفضت أعداء الله إلى النار، ورفعت أولياء الله إلى الجنة، وقال محمد بن كعب: تخفض رجالاً كانوا في الدنيا مرتفعين، وترفع رجالاً كانوا في الدنيا مخفوضين، وقال السدي: خفضت المتكبرين ورفعت المتواضعين، وقوله تعالى: ﴿ إذا رجت الأرض رجّاً ﴾ أي حركت تحريكاً فاهتزت واضطربت بطولها وعرضها، ولهذا قال ابن عباس ومجاهد ﴿ إذا رجت الأرض رجّاً ﴾ أي زلزلت زلزالاً، وقال الربيع بن أنس: ترج بما فيها كرج الغربال بما فيه، كقوله تعالى: ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾، وقال تعالى: ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وبست الجبال بسّاً ﴾ أي فتتت فتاً، قاله ابن عباس ومجاهد، وقال ابن زيد: صارت الجبال كما قال الله تعالى ﴿ كثيباً مهيلاً ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فكانت هباء منبثاً ﴾ عن علي رضي الله عنه: هباء منبثاً كرهج الغبار يسطع ثم يذهب فلا يبقى منه شيء، وقال ابن عباس: الهباء الذي يطير من النار إذا اضطرمت يطير منه الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئاً، وقال عكرمة: المنبث الذي قد ذرته الريح وبثته، وقال قتادة: ﴿ هباء منبثاً ﴾ كيابس الشجر الذي تذروه الرياح، وهذه الآية كأخواتها الدالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة، وذهابها ونسفها أي قلعها وصيرورتها كالعهن المنفوش.

وقوله تعالى: ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ أي ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: قوم عن يمين العرش، وهم الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم، وهم جمهور أهل الجنة، وآخرون عن يسار العرش، وهم الذين يؤتون كتبهم بشمالهم ويؤخذ بهم ذات الشمال وهم عامة أهل النار، وطائفة سابقون بين يديه عزّ وجلّ وهم أحظى وأقرب من أصحاب اليمين، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء، وهم أقل عدداً من أصحاب اليمين، لهذا قال تعالى: ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ۞ وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ۞ والسابقون السابقون ﴾. وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة في آخر السورة وقت احتضارهم. وهكذا ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ الآية وذلك على أحد القولين في الظالم لنفسه كما تقدم بيانه، قال ابن عباس ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ قال: هي التي في سورة الملائكة ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ الآية. وقال يزيد الرقاشي: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ قال: أصنافاً ثلاثة، وقال مجاهد: ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ يعني فرقاً ثلاثة، وقال ميمون بن مهران: أفواجاً ثلاثة، اثنان في الجنة وواحد في النار، قال مجاهد: ﴿ والسابقون السابقون ﴾ هم الأنبياء عليهم السلام، وقال السدي: هم أهل عليين، وقال ابن سيرين ﴿ والسابقون السابقون ﴾ الذين صلوا إلى القبلتين، وقال الحسن وقتادة: ﴿ والسابقون السابقون ﴾ أي من كل أمة، وقال الأوزاعي، عن عثمان بن أبي سودة، أنه قرأ هذه الآية ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾ ثم قال: أولهم رواحاً إلى المسجد، وأولهم خروجاً في سبيل الله، وهذه الأقوال كلها صحيحة، فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات، كما أمروا، كما قال تعالى: ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض ﴾، وقال تعالى: ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء

والأرض﴾ ، فمن سابق في هذه الدنيا وسبق إلى الخير كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاء من جنس العمل وكما تدين تُدان ، ولهذا قال تعالى : ﴿أولئك المقربون في جنات النعيم﴾، وقال ابن أبي حاتم، قالت الملائكة : يا رب جعلت لبني آدم الدنيا فهم يأكلون ويشربون ويتزوجون، فاجعل لنا الآخرة، فقال: لا أفعل، فراجعوا ثلاثاً، فقال: لا أجعل من خلقت بيدي، كمن قلت له كن فكان؛ ثم قرأ عبد الله: ﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم﴾[1] .

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين المقربين أنهم ﴿ثلة﴾ أي جماعة من الأولين، وقليل من الآخرين : وقد اختلفوا في المراد بقوله الأولين والآخرين فقيل: المراد بالأولين الأمم الماضية، وبالآخرين هذه الأمة، وهو اختيار ابن جرير ، واستأنس بقوله ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة » ، ولم يحك غيره ، ومما يستأنس به لهذا القول ما رواه ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة قال: لما نزلت: ﴿ثلة من الأولين وقليل من الآخرين﴾ شقّ ذلك على أصحاب النبي ﷺ فنزلت : ﴿ثلة من الأولين وثلة من الآخرين﴾ فقال النبي ﷺ : « إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثلث أهل الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة أو شطر أهل الجنة وتقاسمونهم النصف الثاني »[2] .

وهذا الذي اختاره ابن جرير فيه نظر بل هو قول ضعيف ، لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها، اللهم إلا أن يقابل بمجموع الأمم بهذه الأمة، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم والله أعلم، فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح، وهو أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ثلة من الأولين﴾ أي من صدر هذه الأمة، ﴿وقليل من الآخرين﴾ أي من هذه الأمة، قال ابن أبي حاتم، عن عبدالله ابن بكر المزني : سمعت الحسن أتى على هذه الآية ﴿والسابقون السابقون، أولئك المقربون﴾ فقال: أما السابقون فقد مضوا ، ولكن اللهم اجعلنا من أصحاب اليمين. ثم قرأ الحسن : ﴿والسابقون السابقون * أولئك المقربون في جنات النعيم * ثلة من الأولين﴾ قال: ثلة ممن مضى من هذه الأمة. وعن محمد بن سيرين أنه قال في هذه الآية ﴿ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين﴾ قال: كانوا يقولون أو يرجون أن يكونوا كلهم من هذه الأمة، فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة . ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأمم كل أمة بحسبها، ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: « خير القرون

(١) رواه ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو موقوفاً .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم والإمام أحمد .

قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم »[1] الحديث بتمامه . فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد، عن عمار بن ياسر قال، قال رسول الله ﷺ « مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره »[2] فهذا الحديث محمول على أن الدين كما هو محتاج ألى أول الأمة في إبلاغه كذلك هو محتاج إلى القائمين به في أواخرها، والفضل للمتقدم، وكذلك الزرع هو محتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثاني، ولكن العمدة الكبرى على الأول، واحتياج الزرع إليه آكد، فإنه لولاه ما نبت في الأرض ولا تعلق أساسه فيها، ولهذا قال عليه السلام: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة »[3] .

وفي لفظ : « حتى يأتي أمر الله تعالى وهم كذلك » ، والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة لشرف دينها وعظم نبيها ، ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر أن في هذه الأمة سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، وفي لفظ: « مع كل ألف سبعون ألفاً – وفي آخر – مع كل واحد سبعون ألفاً » ؛ وقد روى الحافظ الطبراني، عن أبي مالك قال، قال رسول الله ﷺ : « أما والذي نفسي بيده ليبعثن منكم يوم القيامة مثل الليل الأسود زمرة جميعها يحيطون الأرض تقول الملائكة لمّا جاء مع محمد ﷺ أكثر مما جاء مع الأنبياء عليهم السلام »[4] . وقوله تعالى: ﴿ على سرر موضونة﴾ قال ابن عباس: أي مرمولة بالذهب يعني منسوجة به[5] . وقال السدي: مرمولة بالذهب واللؤلؤ، وقال عكرمة: مشبكة بالدر والياقوت، وقال ابن جرير: ومنه يسمى وضين الناقة الذي تحت بطنها وهو فعيل بمعنى مفعول لأنه مضفور وكذلك السرر في الجنة مضفورة بالذهب واللآلئ .

وقوله تعالى : ﴿ متكئين عليها متقابلين﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض ليس أحد وراء أحد ، ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون﴾ أي مخلدون على صفة واحدة لا يشيبون ولا يتغيرون ، ﴿ بأكواب وأباريق وكأس من معين﴾ أما الأكواب فهي الكيزان التي لا خراطيم لها ولا آذان، والأباريق التي جمعت الوصفين ، والكؤوس الهنابات والجميع من خمر من عين جارية معين، ليس من أوعية تنقطع وتفرغ بل من عيون سارحة، وقوله تعالى: ﴿ لا يصدّعون عنها ولا ينزفون﴾ أي لا تصدع رؤوسهم ولا تنزف عقولهم، بل هي ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة ، وروى ابن عباس أنه قال: في الخمر أربع خصال: « السكْر ، والصداع ، والقيء ، والبول » فذكر الله تعالى خمر الجنة ونزهها عن هذه الخصال ، وقال مجاهد وعكرمة ﴿ لا يصدّعون عنها﴾ يقول: ليس لهم فيها صداع رأس، وقالوا في قوله ﴿ ولا ينزفون﴾ أي لا تذهب بعقولهم، وقوله تعالى: ﴿ وفاكهة مما يتخيرون ۔ ولحم طير مما يشتهون﴾ أي ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار ، وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها ، روى الطبراني عن ثوبان قال، قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها

(١) أخرجه الشيخان .

(٢) أخرجه الإمام أحمد .

(٣) أخرجاه في الصحيحين .

(٤) أخرجه الحافظ الطبراني .

(٥) وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحّاك .

أخرى »[1]، وقوله تعالى: ﴿ولحم طير مما يشتهون﴾ عن أنس قال، قال رسول الله ﷺ: «إن طير الجنة كأمثال البخت يرعى في شجر الجنة»، فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذه لطير ناعمة، فقال: «آكلها أنعم منها - قالها ثلاثاً - وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها»[2]. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ولحم طير مما يشتهون﴾ وذكر لنا أن أبا بكر قال: يا رسول الله! إني لأرى طيرها ناعماً كأهلها ناعمون، قال: «ومن يأكلها والله يا أبا بكر أنعم منها وإنها لأمثال البخت وإني لأحتسب على الله أن تأكل منها يا أبا بكر». وروى أبو بكر بن أبي الدنيا، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ سئل عن الكوثر فقال: «نهر أعطانيه ربي عزّ وجلّ في الجنة أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها يعني كأعناق الجزر» فقال عمر: إنها لناعمة؟ قال رسول الله ﷺ: «آكلها أنعم منها»[3]. وعن عبدالله بن مسعود قال، قال لي رسول الله ﷺ: «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً»[4]. وقوله تعالى: ﴿وحورٌ عينٌ كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ بالرفع وتقديره: ولهم فيها حور عين، وقوله تعالى: ﴿كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ أي كأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه كما تقدم، ﴿كأنهن بيض مكنون﴾، ولهذا قال: ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ أي هذا الذي أتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾

لما ذكر تعالى مآل السابقين وهم المقربون، عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين وهم الأبرار، كما قال ميمون ابن مهران: أصحاب اليمين منزلتهم دون المقربين، فقال ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾ أي ما حالهم وكيف مآلهم؟ ثم فسر ذلك فقال تعالى: ﴿في سدر مخضود﴾ قال ابن عباس وعكرمة: هو الذي لا شوك فيه، وعن ابن عباس: هو الموقر بالثمر، وقال قتادة: كنا نحدث أنه الموقر الذي لا شوك فيه، والظاهر أن المراد هذا وهذا، فإن سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر، وفي الآخرة على العكس من هذا لا شوك فيه، وفيه الثمر الكثير الذي قد أثقل أصله، كما روى الحافظ أبو بكر النجار، عن سليم بن عامر قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم، قال: أقبل أعرابي يوماً فقال: يا رسول الله ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها، فقال رسول الله ﷺ: «وما هي؟» قال: السدر، فإن له شوكاً مؤذياً، فقال رسول الله ﷺ: «أليس الله تعالى يقول: ﴿في سدر مخضود﴾ خضد الله شوكه، فجعل مكان كل شوكة ثمرة، فإنها لتنبت ثمراً

---

(١) أخرجه الحافظ الطبراني.

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا، ورواه الترمذي.

(٤) رواه ابن أبي حاتم.

تفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لوناً من طعام ما فيها لون يشبه الآخر »، وقوله: ﴿ وطلح منضود ﴾ الطلح: شجر عظام يكون بأرض الحجاز، من شجر العضاه واحدته طلحة، وهو شجر كثير الشوك، وأنشد ابن جرير لبعض الحداة:

بشَّرها دليلها وقالا غداً ترين الطلح والجبالا

قال مجاهد ﴿ منضود ﴾: أي متراكم الثمر، يذكر بذلك قريشاً لأنهم كانوا يعجبون من وج وظلاله من طلح وسدر، قال ابن عباس: يشبه طلح الدنيا، ولكن له ثمر أحلى من العسل، قال الجوهري: والطلح لغة في الطلع، (قلت) وقد روي أن علياً يقول هذا الحرف في ﴿ طلح منضود ﴾ قال: طلع منضود، فعلى هذا يكون من صفة السدر، فكأنه وصفه بأنه مخضود وهو الذي لا شوك له، وأن طلعه منضود، وهو كثرة ثمره والله أعلم. وعن أبي سعيد ﴿ وطلح منضود ﴾ قال: الموز[١]، وأهل اليمن يسمون الموز: الطلح، ولم يحك ابن جرير غير هذا القول، وقوله تعالى: ﴿ وظل ممدود ﴾ روى البخاري، عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرأوا إن شئتم ﴿ وظل ممدود ﴾[٢]. وقال الإمام أحمد، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام، إقرأوا إن شئتم ﴿ وظل ممدود ﴾[٣]. وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد وسهل بن سعد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: « إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها »[٤]. فهذا حديث ثابت عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بل متواتر مقطوع بصحته عند أئمة الحديث النقاد لتعدد طرقه وقوة أسانيده وثقة رجاله. وقال الترمذي، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: « ما في الجنة شجرة إلا ساقها من ذهب »[٥]. وقال الضحّاك والسدي في قوله تعالى: ﴿ وظل ممدود ﴾ لا ينقطع ليس فيها شمس ولا حر مثل قبل طلوع الفجر، وقال ابن مسعود: الجنة سَجْسَج[٦] كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وقد تقدمت الآيات كقوله تعالى: : ﴿ وندخلهم ظلاً ظليلاً ﴾ وقوله: ﴿ أكلها دائم وظلها ﴾، وقوله ﴿ في ظلال وعيون ﴾ إلى غير ذلك من الآيات. وقوله تعالى: ﴿ وماء مسكوب ﴾ قال الثوري: يجري في غير أخدود، وقد تقدم الكلام عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ الآية، بما أغنى عن إعادته ههنا.

وقوله تعالى: ﴿ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ أي وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما قال تعالى: ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ﴾ أي يشبه الشكل الشكل، ولكن الطعم غير الطعم، وفي الصحيحين

---

(١) وهو قول ابن عباس وأبي هريرة والحسن وعكرمة وقتادة وغيرهم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) أخرجه أحمد ورواه الشيخان.

(٤) أخرجه الشيخان.

(٥) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب.

(٦) سَجْسَج: أي لا حر ولا برد.

في ذكر سدرة المنتهى : فإذا ورقها كآذان الفيلة ونبقها مثل قلال هجر ؛ وروى الحافظ أبو يعلى، عن جابر قال: بينا نحن في صلاة الظهر إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا معه، ثم تناول شيئاً ليأخذه ثم تأخر ، فلما قضى الصلاة، قال له أبي بن كعب: يا رسول الله صنعت اليوم في الصلاة شيئاً ما كنت تصنعه، قال: «إنه عرضت علي الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة ، فتناولت منها قطفاً من عنب لآتيكم بـه فحيل بيني وبينه، ولو أتيتكم بـه لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقص منه»(١) . وقوله تعالى: ﴿لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ أي لا تنقطع شتاء ولا صيفاً، بل أكلها دائم مستمر أبـداً ، مهما طلبوا وجدوا لا يمتنع عليهم بقدرة الله شيء ، وقال قتادة: لا يمنعهم من تناولها عود ولا شوك ولا بعد، وقد تقدم في الحديث «إذا تناول الرجل الثمرة عادت مكانها أخرى» .

وقوله تعالى: ﴿وفرش مرفوعة﴾ أي عالية وطيئة ناعمة ، روى النسائي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وفرش مرفوعة﴾ قال: ارتفاعها كما بين السماء والأرض ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام»(٢) . وعن الحسن: ﴿وفرش مرفوعة﴾ قال: ارتفاع فراش الرجل من أهل الجنة مسيرة ثمانين سنة(٣) ، وقوله تعالى: ﴿إنا أنشأناهن إنشاء ، فجعلناهن أبكاراً عرباً أتراباً ، لأصحاب اليمين﴾ جرى الضمير على غير مذكور ، لكن لما دل السياق وهو ذكر الفرش على النساء اللاتي يضاجعن فيها اكتفى بذلك عن ذكرهنّ وعـاد الضمير عليهن، قال الأخفش في قوله تعالى ﴿أنا أنشأهن﴾ أضمرهن ولم يذكرن قبـل ذلك . وقال أبو عبيدة ذكرن في قوله تعالى: ﴿وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾، فقوله تعالى: ﴿إنا أنشأناهن﴾ أي أعدناهن في النشأة الأخرى بعد ما كن عجائز رمصاً، صرن ﴿أبكاراً عرباً﴾ أي بعد الثيوبة عدن أبكاراً عرباً ، متحببات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة، وقال بعضهم ﴿عرباً﴾ أي غنجات، عن أنس بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ: «إنا أنشأناهن إنشاء قال: نساء عجائز كنّ في الدنيا عمشاً رمصاً»(٤) . وعن سلمة بن يزيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿إنا أنشأناهن إنشاء﴾ يعني الثيب والأبكار اللاتي كن في الدنيا، وقال عبد بن حميد قال: أتت عجوز . فقالت: يا رسول الله ادع الله تعالى أن يدخلني الجنة فقال: «يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز» قال: فولت تبكي، قال: أخبروها إنها لا تدخلها، وهي عجوز، إن الله تعالى يقول: ﴿إنا أنشأهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً﴾(٥) .

وعن أم سلمة قالت، قلت: يا رسول الله أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿حور عين﴾ قال: «حور» بيض «عين» ضخام العيون ، شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر ، قلت: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ قال: «صفاؤهن صفاء الدر الذي في الأصداف الذي لم تمسه الأيدي» قلت: أخبرني عن قوله: ﴿فيهن خيرات حسان﴾ قال: «خيرات الأخلاق حسان الوجوه» ، قلت: أخبرني عن قوله: ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ قال :

---

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى وأخرجه مسلم بنحوه .

(٢) أخرجه النسائي والترمذي وقال : حسن غريب .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن البصري موقوفاً .

(٤) أخرجه الترمذي وابن أبي حاتم وقال الترمذي : غريب .

(٥) أخرجه الترمذي في الشمائل عن عبد بن حميد .

« رقتهن كرقة الجلد الذي رأيت في داخل البيضة مما يلي القشر وهو الغرقيء » قلت: يا رسول الله أخبرني عن قوله: ﴿ عرباً أتراباً ﴾ قال: « هن اللواتي قبضن في الدار الدنيا عجائز رمصاً شمطاً خلقهن الله بعد الكبر ، فجعلهن عذارى عرباً متعشقات محببات أتراباً على ميلاد واحد » ، قلت: يا رسول الله نساء الدنيا أفضل أم الحور العين ؟ قال : « بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة » ، قلت: يا رسول الله وبم ذاك ؟ قال : « بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله عزّ وجلّ ، ألبس الله وجوههن النور ، وأجسادهن الحرير ، بيض الألوان خضر الثياب ، صفر الحلي ، مجامرهن الدر ، وأمشاطهن الذهب ، يقلن: نحن الخالدات فلا نموت أبداً ، ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً ، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً ، طوبى لمن كنا له وكان لنا » ، قلت: يا رسول الله ! المرأة منا تتزوج الزوجين والثلاثة والأربعة ، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها من يكون زوجها ؟ قال: « يا أم سلمة إنها تخير فتختار أحسنهم خلقاً ، فتقول: يا رب إن هذا كان أحسن خلقاً معي فزوجنيه ، يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة »[1] . وفي الحديث: « إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكاراً »[2] . وعن أبي هريرة قال ، قيل: يا رسول الله هل نصل إلى نسائنا في الجنة ؟ قال: « إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء »[3] .

وقوله تعالى : ﴿ عرباً ﴾ ، قال ابن عباس: يعني متحببات إلى أزواجهن ، ألم تر إلى الناقة الضبعة هي كذلك ، وقال الضحّاك عنه : العرب العواشق لأزواجهن ، وأزواجهن لهن عاشقون ، وقال عكرمة: سئل ابن عباس عن قوله ﴿ عرباً ﴾ قال: هي المَلِقة لزوجها ، وقال عكرمة: هي الغنجة ، وعنه: هي الشكلة ، وقال عبد الله بن بريدة في قوله ﴿ عرباً ﴾ قال: الشكلة بلغة أهل مكة ، والغنجة بلغة أهل المدينة ، وقال تميم بن حذلم: هي حسن التبعل ، وقوله ﴿ أتراباً ﴾ قال ابن عباس: يعني في سن واحدة ثلاث وثلاثين سنة ، وقال مجاهد: الأتراب: المستويات ، وفي رواية عنه: الأمثال ، وقال عطية : الأقران ، وقال السدي ﴿ أتراباً ﴾ أي في الأخلاق المتواخيات بينهن ، ليس بينهن تباغض ولا تحاسد ، يعني لا كما كن ضرائر متعاديات ، وقال ابن أبي حاتم ، عن الحسن ومحمد ﴿ عرباً أتراباً ﴾ قالا: المستويات الأسنان يأتلفن جميعاً ويلعبن جميعاً ، وقد روى الترمذي ، عن علي رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ: « إن في الجنة لمجتمعاً للحور العين يرفعن أصواتاً لم تسمع الخلائق بمثلها - قال - يقلن: « نحن الخالدات فلا نبيد ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له »[4] . وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: « إن الحور العين ليغنين في الجنة يقلن: نحن خيرات حسان خبئنا لأزواج كرام »[5] . وقوله تعالى: ﴿ لأصحاب اليمين ﴾ أي خلقنا لأصحاب اليمين أو زوجن لأصحاب اليمين والأظهر أنه متعلق بقوله: ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً ﴾ فتقديره أنشأناهن لأصحاب اليمين ، وهذا توجيه ابن جرير ، قلت: ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ لأصحاب اليمين ﴾ متعلقاً بما قبله ، وهو قوله : ﴿ أتراباً

---

(١) رواه أبو القاسم الطبراني . (٢) أخرجه الطبراني من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً .

(٣) رواه الطبراني وقال الحافظ المقدسي : هو على شرط الصحيح .

(٤) أخرجه الترمذي وقال : حديث غريب .

(٥) أخرجه الحافظ أبو يعلى .

لأصحاب اليمين﴾ أي في أسنانهم، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يتفلون، ولا يتمخطون، أمشاطهم الذهب وريحهم المسك، ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء»[1]. وعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً بيضاً جعاداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين وهم على خلق آدم ستون ذراعاً في عرض سبعة أذرع»[2]. وروى ابن وهب، عن أبي سعيد قال، قال رسول الله ﷺ: «من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير يردون بني ثلاث وثلاثين في الجنة لا يزيدون عليها أبداً وكذلك أهل النار». وروى ابن أبي الدنيا، عن أنس قال، قال رسول الله ﷺ: «يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم ستين ذراعاً بذراع الملك! على حسن يوسف وعلى ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة وعلى لسان محمد جرد مرد مكحلون»، وقال أبو بكر ابن أبي داود، عن أنس بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ: «يبعث أهل الجنة على صورة آدم في ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين جرداً مرداً مكحلين. ثم يذهب بهم إلى شجرة في الجنة فيكسون منها لا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم»، وقوله تعالى ﴿ثلة من الأولين وثلة من الآخرين﴾ أي جماعة من الأولين وجماعة من الآخرين.

وعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: قال، قال رسول الله ﷺ: «هما جميعاً من أمتي»[3].

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾

لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين، عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال فقال: ﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال﴾ أي أيُّ شيء هم فيه أصحاب الشمال؟ ثم فسر ذلك فقال: ﴿في سموم﴾ وهو الهواء الحار، ﴿وحميم﴾ وهو الماء الحار، ﴿وظل من يحموم﴾ قال ابن عباس: ظل الدخان[4]. وهذه كقوله تعالى: ﴿انطلقوا

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) أخرجه الطبراني ورواه الترمذي بنحوه.

(٣) أخرجه ابن جرير.

(٤) وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وغيرهم.

إلى ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿وظل من يحموم﴾ وهو الدخان الأسود ﴿لا بارد ولا كريم﴾ أي ليس طيب الهبوب، ولا حسن المنظر ﴿ولا كريم﴾ أي ولا كريم المنظر، وقال الضحّاك: كل شراب ليس بعذب فليس بكريم، قال ابن جرير: العرب تتبع هذه اللفظة في النفي، فيقولون: هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم، هذا اللحم ليس بسمين ولا كريم، ثم ذكر تعالى استحقاقهم لذلك فقال تعالى: ﴿إنهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾ أي كانوا في الدار الدنيا منعمين، مقبلين على لذات أنفسهم، ﴿وكانوا يصرون﴾ أي يقيمون ولا ينوون توبة ﴿على الحنث العظيم﴾، وهو الكفر بالله، قال ابن عباس: الحنث العظيم: الشرك[1]، وقال الشعبي: هو اليمين الغموس ﴿وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون﴾ يعني أنهم يقولون ذلك مكذبين به مستبعدين لوقوعه، قال الله تعالى: ﴿قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾ أي أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بني آدم سيجمعون إلى عرصات القيامة لا يغادر منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾ أي هو موقت بوقت محدود لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص، ﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون * لآكلون من شجر من زقوم * فمالئون منها البطون﴾، وذلك أنهم يقبضون ويسجرون حتى يأكلوا من شجر الزقوم حتى يملأوا منها بطونهم، ﴿فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الهيم﴾ وهي الإبل العطاش واحدها أهيم والأنثى هيماء، ويقال: هائم وهائمة، قال ابن عباس ومجاهد: الهيم الإبل العطاش الظماء، وقال السدي: الهيم داء يأخذ الإبل فلا تروى أبداً حتى تموت، فكذلك أهل جهنم لا يروون من الحميم أبداً، ثم قال تعالى: ﴿هذا نزلهم يوم الدين﴾ أي هذا الذي وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم، كما قال تعالى في حق المؤمنين: ﴿كانت لهم جنات الفردوس نزلاً﴾ أي ضيافة وكرامة.

* نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

يقول تعالى مقرراً للمعاد، وراداً على المكذبين به من أهل الزيغ والإلحاد، ﴿نحن خلقناكم﴾ أي نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، أفليس الذي قدر على البداءة، بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى؟ ولهذا قال: ﴿فلولا تصدقون﴾؟ أي فهلا تصدقون بالبعث! ثم قال تعالى مستدلاً عليهم بقوله: ﴿أفرأيتم ما تمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾؟ أي أنتم تقرونه في الأرحام وتخلقونه فيها أم الله الخالق لذلك؟ ثم قال تعالى ﴿نحن قدّرنا بينكم الموت﴾ أي صرفناه بينكم، وقال الضحاك: ساوى فيه بين أهل السماء والأرض، ﴿وما نحن بمسبوقين﴾ أي وما نحن بعاجزين ﴿على أن نبدّل أمثالكم﴾ أي نغيّر خلقكم يوم القيامة، ﴿وننشئكم فيما لا تعلمون﴾ أي من الصفات والأحوال، ثم قال تعالى: ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾ أي قد علمتم

(١) وكذا قال مجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة.

أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة وهي البداءة قادر على النشأة الأخرى وهي الإعادة بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾، وقال تعالى: ﴿ أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾، وقال تعالى: ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾، وقال تعالى: ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ ؟

أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى: ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ ؟ وهو شق الأرض وإثارتها والبذر فيها، ﴿ أأنتم تزرعونه ﴾ ؟ أي تنبتونه في الأرض ﴿ أم نحن الزارعون ﴾ ؟ أي بل نحن الذي نقره قراره ونبنته في الأرض، روي عن حجر المدري أنه كان إذا قرأ ﴿ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾ وأمثالها، يقول: بل أنت يا رب، وقوله تعالى: ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاماً ﴾ أي نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا، وأبقيناه لكم رحمة بكم، ولو نشاء لجعلناه حطاماً، أي لأيبسناه قبل استوائه واستحصاده، ﴿ فظلتم تفكهون ﴾. ثم فسر ذلك بقوله: ﴿ إنا لمغرمون * بل نحن محرومون ﴾ أي لو جعلناه حطاماً لظلتم تفكهون في المقالة تنوعون كلامكم، فتقولون تارة ﴿ إنا لمغرمون ﴾ أي لملقون، وقال مجاهد وعكرمة: إنا لمولع بنا، وقال قتادة: معذبون، وتارة تقولون: ﴿ بل نحن محرمون ﴾ أي لا يثبت لنا مال ولا ينتج لنا ربح. وقال مجاهد ﴿ بل نحن محرومون ﴾ أي مجدودون يعني لا حظ لنا، وقال ابن عباس ومجاهد ﴿ فظلتم تفكهون ﴾ تعجبون، وقال مجاهد أيضاً ﴿ فظلتم تفكّهون ﴾ تفجعون وتحزنون على ما فاتكم من زرعكم، وهذا يرجع إلى الأول، وهو التعجب من السبب الذي من أجله أصيبوا في مالهم، وهذا اختيار ابن جرير. وقال عكرمة ﴿ فظلتم تفكهون ﴾ تلاومون، وقال الحسن وقتادة ﴿ فظلتم تفكهون ﴾ تندمون، ومعناه إما على ما أنفقتم أو على ما أسلفتم من الذنوب، قال الكسائي: تفكه من الأضداد، تقول العرب: تفكهت بمعنى تنعمت، وتفكهت بمعنى حزنت.

ثم قال تعالى: ﴿ أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن ﴾، يعني السحاب، ﴿ أم نحن المنزلون ﴾، يقول بل نحن المنزلون، ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً ﴾ أي زعافاً مراً لا يصلح لشرب ولا زرع، ﴿ فلولا تشكرون ﴾ أي فهلا تشكرون نعمة الله عليكم في إنزاله المطر عليكم عذباً زلالاً، ﴿ لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ﴾ روى ابن أبي حاتم، عن جابر، عن أبي جعفر، عن النبي ﷺ أنه كان إذا شرب الماء قال: «الحمد لله الذي سقانا عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا»[2] ثم قال: ﴿ أفرأيتم النار التي تورون ﴾ أي

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

تقدحون من الزناد وتستخرجونها من أصلها ﴿أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون﴾ أي بل نحن الذين جعلناها مودعة في موضعها، وللعرب شجرتان: إحداهما (المرخ) والأخرى (العفار) إذا أخذ منهما غصنان أخضران فحك أحدهما بالآخر تناثر من بينهما شرر النار، وقوله تعالى: ﴿نحن جعلناها تذكرة﴾ قال مجاهد وقتادة: أي تذكر النار الكبرى، وعن النبي ﷺ قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزء من نار جهنم وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد»[1]، وقال الإمام مالك، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزء من نار جهنم»، فقالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية، فقال: «إنها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً»، وفي لفظ: «والذي نفسي بيده لقد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها»[2].

وقوله تعالى: ﴿ومتاعاً للمقوين﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني بالمقوين المسافرين، واختاره ابن جرير، وقال ابن أسلم: المقوي ههنا الجائع، وقال ليث، عن مجاهد ﴿ومتاعاً للمقوين﴾: للحاضر والمسافر، لكل طعام لا يصلحه إلا النار، وعنه ﴿للمقوين﴾ يعني المستمتعين من الناس أجمعين، وهذا التفسير أعم من غيره، فإن الحاضر والبادي من غني وفقير، الجميع محتاجون إليها للطبخ والاصطلاء والإضاءة، وغير ذلك من المنافع، ثم من لطف الله تعالى أن أودعها في الأحجار وخالص الحديد، بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى وأوقد ناره فاطبخ بها واصطلى بها واشتوى واستأنس بها، وانتفع بها سائر الانتفاعات، فلهذا أفرد المسافرون، وإن كان ذلك عاماً في حق الناس كلهم، وفي الحديث: «المسلمون شركاء في ثلاثة: النار والكلأ والماء»[3]. وفي رواية: «ثلاثة لا يمنعن: الماء والكلأ والنار»[4]. وقوله تعالى: ﴿فسبّح بسم ربك العظيم﴾ أي الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة، الماء الزلال العذب البارد، ولو شاء لجعله ملحاً أجاجاً كالبحار المغرقة، وخلق النار المحرقة، وجعل ذلك مصلحة للعباد، وجعل هذه منفعة لهم في معاش دنياهم، وزجراً لهم في المعاد.

* ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قال الضحّاك: إن الله تعالى لا يقسم بشيء من خلقه، ولكنه استفتاح يستفتح به كلامه، وهذا القول ضعيف، والذي عليه الجمهور أنه قسم من الله تعالى يقسم بما شاء من خلقه وهو دليل على عظمته، ثم قال بعض المفسرين:

---

(١) أخرجه أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) أخرجه مالك ورواه البخاري ومسلم.

(٣) أخرجه أحمد وأبو داود. (٤) أخرجه ابن ماجة بإسناد حسن.

(لا) ههنا زائدة ، وتقديره : أقسم بمواقع النجوم، ويكون جوابه: ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾، وقال آخرون: ليست (لا) زائدة بل يؤتى بها في أول القسم إذا كان مقسماً به على منفي ، تقدير الكلام: لا أقسم بمواقع النجوم، ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر أو كهانة بل هو قرآن كريم، وقال بعضهم: معنى قوله ﴿ فلا أقسم ﴾: فليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف القسم بعد ذلك فقيل اقسم[1] ، واختلفوا في معنى قوله: ﴿ بمواقع النجوم ﴾ فقال ابن عباس: يعني نجوم القرآن، فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً في السنين بعد، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية، وقال مجاهد: ﴿ مواقع النجوم ﴾ في السماء ويقال مطالعها ومشارقها، وهو اختيار ابن جرير ، وعن قتادة: مواقعها: منازلها، وعن الحسن: أن المراد بذلك انتثارها يوم القيامة، وقوله ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ أي وإن هذا القسم الذي أقسمت بـه لقسم عظيم، لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم به، ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ أي إن هذا القرآن الذي نزل على محمد لكتاب عظيم ﴿ في كتاب مكنون ﴾ أي معظم في كتاب معظم محفوظ موقر ، عن ابن عباس قال: الكتاب الذي في السماء، ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ يعني الملائكة، وقال ابن جرير ، عن قتادة ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ قال: لا يمسه عند الله إلا المطهرون، فأما في الدنيا فإنه يمسه المجوسي النجس، والمنافق الرجس، وقال أبو العالية: ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ ليس أنتم أصحاب الذنوب ، وقال ابن زيد: زعمت كفّار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون ، كما قال تعالى: ﴿ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون ﴾، وهذا القول قول جيد، وهو لا يخرج عن الأقوال التي قبله، وقال الفراء : لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به، وقال آخرون : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ أي من الجنابة والحدث، قالوا: ولفظ الآية خبر ، ومعناها الطلب، قالوا: والمراد بالقرآن ههنا المصحف، كما روى مسلم عن ابن عمر : « أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو »[2] ، واحتجوا بمـا رواه الإمام مالك أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم أن « لا يمس القرآن إلا طاهر » وروى أبو داود في المراسيل من حديث الزهري قال: قرأت في صحيفة عبدالله بن أبي بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم أن رسول الله ﷺ قال: « ولا يمس القرآن إلا طاهر »، وهذه وجادة جيدة قد قرأها الزهري وغيره، ومثل هذا ينبغي الأخذ به .

وقوله تعالى : ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ أي هذا القرآن منزل من الله رب العالمين، وليس هو كما يقولون إنه سحر أو كهانة أو شعر ، بل هو الحق الذي لا مرية فيه، وليس وراءه حق نافع ، وقوله تعالى: ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ﴾ قال ابن عباس: أي مكذبون غير مصدقين، وقال مجاهد: ﴿ مدهنون ﴾ أي تريدون أن تمالئوهم فيه وتركنوا إليهم ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ قال بعضهم: معنى ﴿ وتجعلون رزقكم ﴾ بمعنى شكركم أنكم تكذبون بدل الشكر ، عن علي رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « وتجعلون » رزقكم يقول: شكركم أنكم تكذبون، تقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، بنجم كذا وكذا »[3] . وقال مجاهد: ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾

(١) ذكره ابن جرير عن بعض أهل العربية .
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه .
(٣) أخرجه أحمد وابن أبي حاتم ، ورواه الترمذي وقال : حسن غريب .

قال: قولهم في الأنواء: مطرنا بنوء كذا وبنوء كذا يقول: قولوا هو من عند الله وهو رزقه[١]، وقال قتادة: أما الحسن فكان يقول: بئس ما أخذ قوم لأنفسهم، لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب، فمعنى قول الحسن هذا وتجعلون حظكم من كتاب الله أنكم تكذبون به، ولهذا قال قبله: ﴿أفبهذا الحديث أنتم مدهنون * وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾.

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿فلولا إذا بلغت﴾ أي الروح ﴿الحلقوم﴾ أي الحلق وذلك حين الاحتضار كما قال تعالى: ﴿كلا إذا بلغت التراقي * وقيل من راق﴾، ولهذا قال ههنا ﴿وأنتم حينئذ تنظرون﴾ أي إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت، ﴿ونحن أقرب إليه منكم﴾ أي بملائكتنا ﴿ولكن لا تبصرون﴾ أي ولكن لا ترونهم كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾. وقوله تعالى: ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها﴾ معناه فهلا ترجعون هذه النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول، ومقرها من الجسد إن كنتم غير مدينين، قال ابن عباس: يعني محاسبين[٢]، وقال سعيد بن جبير ﴿غير مدينين﴾ غير مصدقين أنكم تدانون وتبعثون وتجزون فردوا هذه النفس، وعن مجاهد ﴿غير مدينين﴾ غير موقنين، وقال ميمون ابن مهران: غير معذبين مقهورين.

﴿۞ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم: إما أن يكون من المقربين، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين، وإما أن يكون من المكذبين بالحق، الضالين عن الهدى، الجاهلين بأمر الله، ولهذا قال تعالى: ﴿فأما إن كان﴾ أي المحتضر ﴿من المقربين﴾ وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات، ﴿فروح وريحان وجنة نعيم﴾ أي فلهم روح وريحان وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت كما تقدم في حديث البراء إن ملائكة الرحمة تقول: أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب، كنت تعمرينه اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان، قال ابن عباس ﴿فروح﴾ يقول: راحة ﴿وريحان﴾ يقول: مستراحة، وكذا قال مجاهد: إن الروح الاستراحة، وقال أبو حرزة: الراحة من الدنيا، وقال سعيد بن جبير: الروح الفرح، وعن

---

(١) وهكذا قال الضحّاك وغير واحد.

(٢) وهو قول مجاهد وعكرمة والحسن والضحّاك وقتادة.

مجاهد: ﴿ فروح وريحان﴾ جنة ورخاء، وقال قتادة: فروح فرحمة. وقال ابن عباس ومجاهد ﴿ وريحان﴾: ورزق؛ وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة، فإن من مات مقرباً حصل له جميع ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة والفرح والسرور والرزق الحسن ﴿ وجنة نعيم﴾، وقال أبو العالية: لا يفارق أحد من المقربين حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيقبض روحه فيه، وقال محمد بن كعب: لا يموت أحد من الناس حتى يعلم أمن أهل الجنة هو أم من أهل النار، وقد قدمنا أحاديث الاحتضار عند قوله تعالى في سوره إبراهيم ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾. وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية. روى الإمام أحمد، عن أم هانئ أنها سألت رسول الله ﷺ: أنتزاور إذا متنا ويرى بعضنا بعضاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «يكون النسم طيراً يعلق بالشجر حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس في جسدها»، هذا الحديث فيه بشارة لكل مؤمن، ومعنى «يَعْلَق» يأكل. ويشهد له بالصحة أيضاً ما رواه الإمام أحمد، عن الإمام الشافعي، عن الإمام مالك، عن كعب بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه»، وهذا إسناد عظيم ومتن قويم، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في رياض الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش»[1] الحديث. وروى الإمام أحمد. عن عبدالرحمن ابن أبي ليلى، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قال: فأكب القوم يبكون فقال: «ما يبكيكم؟» فقالوا: إنا نكره الموت، قال: «ليس ذاك، ولكنه إذا احتضر ﴿ فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم﴾، فإذا بشر بذلك أحب لقاء الله عزّ وجلّ، والله عزّ وجلّ للقائه أحب ﴿ وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم﴾ فإذا بشر بذلك كره لقاء الله، والله تعالى للقائه أكره»[2].

وقوله تعالى: ﴿ وأما إن كان من أصحاب اليمين﴾ أي وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين ﴿ فسلام لك من أصحاب اليمين﴾ أي تبشرهم الملائكة بذلك تقول لأحدهم: سلام لك أي لا بأس عليك أنت إلى سلامة، أنت من أصحاب اليمين، وقال قتادة: سَلِمَ من عذاب الله وسلّمت عليه ملائكة الله، كما قال عكرمة تسلم عليه الملائكة وتخبره أنه من أصحاب اليمين، وهذا معنى حسن، ويكون ذلك كقول الله تعالى: ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾. وقوله تعالى: ﴿ وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزلٌ من حميم وتصلية جحيم﴾ أي وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق، الضالين عن الهدى ﴿ فنزل﴾ أي فضيافة، ﴿ من حميم﴾ وهو المذاب الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود، ﴿ وتصلية جحيم﴾ أي وتقرير له في النار التي تغمره من جميع جهاته، ثم قال تعالى: ﴿ إن هذا لهو حق اليقين﴾ أي إن هذا الخبر لهو حق اليقين، الذي لا مرية فيه ولا محيد لأحد عنه، ﴿ فسبح باسم ربك العظيم﴾. قال الإمام أحمد، عن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ فسبح باسم ربك العظيم﴾ قال: «اجعلوها في ركوعكم»، ولما نزلت: ﴿ سبح اسم ربك الأعلى﴾ قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»[3].

(١) الحديث مخرج في الصحيحين. (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

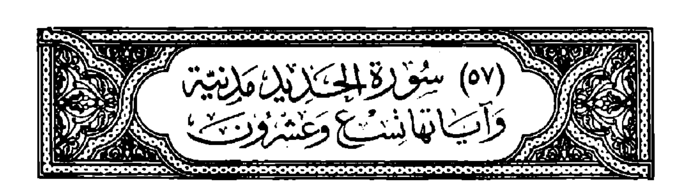
(٣) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجة.

وفي الحديث: من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة »[1] . وروى البخاري في آخر صحيحه، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله: « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » .

[آخر تفسير سورة الواقعة ، ولله الحمد والمنة]



(١) رواه الترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حسن غريب .



عن العرباض بن سارية أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد وقال: «إن فيهن آية أفضل من ألف آية»[1]، والآية المشار إليها في الحديث هي والله أعلم قوله تعالى: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

يخبر تعالى أنه يسبّح له ما في السماوات والأرض، أي من الحيوانات والنباتات، كما قال في الآية الأُخْرَى: ﴿تسبّح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾ وقوله تعالى ﴿وهو العزيز﴾ أي الذي قد خضع له كل شيء، ﴿الحكيم﴾ في خلقه وأمره وشرعه، ﴿له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت﴾ أي هو المالك المتصرف في خلقه، فيحيي ويميت، ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ أي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وقوله تعالى: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾ وهذه الآية هي المشار إليها في حديث العرباض بن سارية أنها أفضل من ألف آية، روى أبو داود، عن أبي زميل قال: سألت ابن عباس فقلت: ما شيء أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قلت: والله لا أتكلم به. قال، فقال لي: أشيء من شك؟ قال، وضحك، قال: ما نجا من ذلك أحد، قال: حتى أنزل الله تعالى: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك﴾ الآية، قال، وقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾[2]، وقد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية،

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن غريب.

(٢) أخرجه أبو داود.

وأقوالهم على نحو من بضعة عشر قولاً ، وقال البخاري، قال يحيى: الظاهر على كل شيء علماً ، والباطن على كل شيء علماً، روى الإمام أحمد، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم: « اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالق الحب والنوى، لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر »[1] . وعن عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يأمر بفراشه، فيفرش له مستقبل القبلة، فإذا أوى إليه توسد كفه اليمنى ثم همس، ما يدرى ما يقول، فإذا كان في آخر الليل رفع صوته فقال: « اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ، إله كل شيء ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالق الحب والنوى، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول الذي ليس قبلك شيء، وأنت الآخر الذي ليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين، واغننا من الفقر »[2] .

وروى الترمذي، عن أبي هريرة قال: بينما نبي الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب، فقال نبي الله ﷺ: « هل تدرون ما هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم، قال: « هذا العنان، هذه روايا الأرض تسوقه إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه »، ثم قال: « هل تدرون ما فوقكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم، قال: « فإنها الرفيع سقف محفوظ وموج مكفوف » ، ثم قال: « هل تدرون كم بينكم وبينها ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم، قال : « بينكم وبينها خمسمائة سنة » ، ثم قال: « هل تدرون ما فوق ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم، قال: « فإن فوق ذلك سماء بعد ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة – حتى عد سبع سماوات – ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض »، ثم قال: « هل تدرون ما فوق ذلك ؟ » قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: « فإن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء مثل ما بين السماءين »، ثم قال: « هل تدرون ما الذي تحتكم ؟ » قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: « فإنها الأرض »، ثم قال: « هل تدرون ما الذي تحت ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم، قال: « فإن تحتها أرضاً أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة – حتى عد سبع أرضين – بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة »، ثم قال: « والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم حبلاً إلى الأرض السفلى لهبط على الله »، ثم قرأ : ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾[3] . وفسَّر بعض أهل العلم هذا الحديث، فقالوا: إنما هبط على علم الله وقدرته وسلطانه، وعلم الله وقدرته وسلطانه في كل مكان، وهو على العرش كما وصف في كتابه، انتهى كلامه . وقد روى الإمام أحمد هذا الحديث بسنده، عن الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ فذكره، وعنده: « وبعد ما بين الأرضين مسيرة سبعمائة عام »، وقال: « لو دليتم أحدكم بحبل إلى الأرض السفلى السابعة لهبط على الله »،

---

(١) وأخرجه مسلم بلفظ : كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول : اللهم رب السماوات ... الخ .

(٢) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي .

(٣) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً وقال : حديث غريب من هذا الوجه .

ثم قرأ: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾، وقال ابن جرير عند قوله تعالى: ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ عن قتادة قال: التقى أربعة من الملائكة بين السماء والأرض، فقال بعضهم لبعض: من أين جئت؟ قال أحدهم: أرسلني ربي عزّ وجلّ من السماء السابعة وتركته ثَمّ، قال الآخر: أرسلني ربي عزّ وجلّ من الأرض السابعة وتركته ثَمّ، قال الآخر: أرسلني ربي من المشرق وتركته ثَمّ، قال الآخر: أرسلني ربي من المغرب وتركته ثمّ"[1].

* هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾

يخبر تعالى عن خلقه السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم أخبر تعالى باستوائه على العرش بعد خلقهن، وقد تقدّم الكلام على هذه الآية وأشباهها في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته ههنا، وقوله تعالى: ﴿يعلم ما يلج في الأرض﴾ أي يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر، ﴿وما يخرج منها﴾ من نبات وزرع وثمار، كما قال تعالى: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾، وقوله تعالى: ﴿وما ينزل من السماء﴾ أي من الأمطار، والثلوج والبرد والأقدار، والأحكام مع الملائكة الكرام، وقوله تعالى: ﴿وما يعرج فيها﴾ أي من الملائكة والأعمال، كما جاء في الصحيح: «يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل»، وقوله تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير﴾ أي رقيب عليكم شهيد على أعمالكم، حيث كنتم وأين كنتم من بر أو بحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو في القفار، الجميع في علمه على السواء، فيسمع كلامكم ويرى مكانكم، ويعلم سركم ونجواكم، كما قال تعالى: ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾، وقال تعالى: ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾، فلا إله غيره ولا رب سواه، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجبريل لما سأله عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وفي الحديث، قال رجل: يا رسول الله ما تزكية المرء نفسه؟ فقال: «يعلم أن الله معه حيث كان»[2]. وقال رسول الله ﷺ: «إن أفضل الإيمان أن تعلم ان الله معك حيثما كنت»[3]. وكان الإمام أحمد رحمه الله تعالى ينشد هذين البيتين:

إذا ما خلوتَ الدهر يوماً فلا تقل خلوتُ ولكن قل عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفي عليه يغيب

(١) أخرجه ابن جرير، قال ابن كثير: وهذا حديث غريب جداً وقد يكون الحديث الأول موقوفاً على قتادة كما هنا.
(٢) أخرجه أبو نعيم من حديث عبد الله العامري مرفوعاً. (٣) أخرجه أبو نعيم عن عبادة بن الصامت.

وقوله تعالى: ﴿ له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور ﴾، أي هو المالك للدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ وهو المحمود على ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة ﴾، وقال تعالى: ﴿ الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾، فجميع ما في السماوات والأرض ملك له، وأهلهما عبيد أرقاء أذلاء بين يديه، كما قال تعالى: ﴿ إن كل من في السماوات والأرض إلا آتِ الرحمن عبداً ﴾، ولهذا قال: ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أي إليه المرجع يوم القيامة فيحكم في خلقه بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾، وقوله تعالى: ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ أي هو المتصرف في الخلق، يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وتارة بالعكس، وتارة يتركهما معتدلين، وتارة يكون الفصل شتاء ثم ربيعاً ثم قيظاً ثم خريفاً، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريده بخلقه ﴿ وهو عليم بذات الصدور ﴾ أي يعلم السرائر وإن دقت أو خفيت.

ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

أمر تبارك وتعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل، وحث على الإنفاق ﴿ مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ أي مما هو معكم على سبيل العارية، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ثم صار إليكم، فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال في طاعته، وقوله تعالى: ﴿ مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك، أو يعصي الله فيه فتكون قد سعيت في معاونته على الإثم والعدوان. روى مسلم، عن عبدالله بن الشخير قال: انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول: «ألهاكم التكاثر، يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت؟ أو لبست فأبليت؟ أو تصدقت فأمضيت؟ وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس»[١]. وقوله تعالى: ﴿ فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ﴾ ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة، ثم قال تعالى: ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله

(١) أخرجه مسلم والإمام أحمد.

والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم﴾ ؟ أي : وأيّ شيء يمنعكم من الإيمان، والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك، ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به، وقد روينا في الحديث أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: « أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً ؟ » قالوا: الملائكة، قال: « وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟ » قالوا: فالأنبياء، قال: « وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم ؟ » قالوا: فنحن، قال: « ومالكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها »[1] . وقوله تعالى: ﴿وقد أخذ ميثاقكم﴾ كما قال تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾ ويعني بذلك بيعة الرسول ﷺ، وقوله تعالى: ﴿ هو الذي ينزل على عبده آيات بينات﴾ أي حججاً واضحات ودلائل باهرات وبراهين قاطعات، ﴿ ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ أي من ظلمات الجهل والكفر، إلى نور الهدى والإيمان، ﴿ وإن الله بكم لرؤوف رحيم﴾ أي في إنزاله الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس، ولما أمرهم أولاً بالإيمان والإنفاق، ثم حثهم على الإيمان، حثهم أيضاً على الإنفاق، فقال: ﴿ومالكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض﴾ ؟ أي أنفقوا ولا تخشوا فقراً وإقلالاً، فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالك السماوات والأرض، وهو القائل: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾، ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾، فمن توكل على الله أنفق وعلم أن الله سيخلفه عليه، وقوله تعالى: ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾ أي لا يستوي هذا ومن لم يفعل كفعله، وذلك أنه قبل فتح مكة كان الحال شديداً، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ولهذا قال تعالى: ﴿ أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى﴾، والجمهور على أن المراد بالفتح ههنا (فتح مكة)، وعن الشعبي: أن المراد (صلح الحديبية) .

وقد يستدل لهذا القول بما قال الإمام أحمد، عن أَنَس قال: كان بين (خالد بن الوليد) وبين (عبدالرحمن ابن عوف) كلام، فقال خالد لعبدالرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها، فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ، فقال: « دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أُحُد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم » . ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد كان بين صلح الحُدَيبية وفتح مكّة . وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم »، قلنا: من هم يا رسول الله، قريش ؟ قال: « لا، ولكن أهل اليمن لأنهم أرق أفئدة وألين قلوباً »، وأشار بيده إلى اليمن فقال: « هم أهل اليمن، ألا إن الإيمان يمان والحكمة يمانية »، فقلنا: يا رسول الله هم خير منا ؟ قال: « والذي نفسي بيده لو كان لأحدهم جبل من ذهب ينفقه ما أدى مد أحدكم ولا نصيفه »، ثم جمع أصابعه ومد خنصره وقال: « ألا إن هذا فصل ما بيننا وبين الناس ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير ﴾ »[2] . وقوله تعالى: ﴿ وكلا وعد الله الحسنى ﴾ يعني المنفقين قبل الفتح وبعده كلهم لهم

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان .

(٢) أخرجه ابن جرير .

ثواب على ما عملوا، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء، كما قال تعالى: ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ﴾ الآية، وهكذا الحديث الذي في الصحيح: « المؤمن القوي خير، وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ». فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه، مع تفضيل الأول عليه، ولهذا قال تعالى: ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أي فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن فعل ذلك بعد ذلك، وما ذاك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيق، وفي الحديث: « سبق درهم مائة ألف ». ولا شك أن الصدّيق أبا بكر رضي الله عنه له الحظ الأوفر من هذه الآية، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله عزّ وجلّ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها.

وقوله تعالى: ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ قال عمر بن الخطّاب: هو الإنفاق في سبيل الله، وقيل: هو النفقة على العيال، والصحيح أنه أعم من ذلك، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة، وعزيمة صادقة دخل في عموم هذه الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ﴾، كما قال في الآية الأُخْرى ﴿ أضعافاً كثيرة وله أجر كريم ﴾ أي جزاء جميل ورزق باهر وهو الجنة يوم القيامة. عن عبدالله ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: « نعم يا أبا الدحداح »، قال: أرني يدك يا رسول الله، قال، فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي، وله حائط فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، قال، فجاء أبو الدحداح، فناداها: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: اخرجي فقد أقرضته ربي عزّ وجلّ. وفي رواية أنها قالت له: ربح بيعك يا أبا الدحداح، ونقلت منه متاعها وصبيانها، وإن رسول الله ﷺ قال: « كم من عِذْق رَدَاح في الجنة لأبي الدحداح »[1].

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ (١٤) فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٥) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين، أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم بحسب أعمالهم، كما قال عبدالله بن مسعود في قوله تعالى ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم ﴾ قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم. معنى (العذق) : القنو من النخل، والعنقود من العنب، و (رداح) : ضخم، مخصب.

منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ مرة[١]، وقال الضحاك: ليس أحد إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فإذا انتهوا إلى الصراط طفئ نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفئ نور المنافقين، فقالوا: ربنا أتمم لنا نورنا، وقال الحسن ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم ﴾: يعني على الصراط. وقد روى ابن أبي حاتم، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «أنا أول من يؤذن له يوم القيامة بالسجود، وأول من يؤذن له برفع رأسه فأنظر من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي، فأعرف أمتي من بين الأمم»، فقال له رجل: يا نبي الله كيف تعرف أمّتك من بين الأمم؟ فقال: «أعرفهم، محجلون من أثر الوضوء، ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم، وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم»[٢]. وقوله: ﴿ وبأيمانهم ﴾، قال الضحّاك: أي وبأيمانهم كتبهم كما قال تعالى: ﴿ فمن أوتي كتابه بيمينه ﴾، وقوله: ﴿ بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾، أي يقال لهم: بشراكم اليوم جنات، أي لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار، ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾. وقوله: ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأهوال المزعجة، والزلازل العظيمة، والأمور الفظيعة، وأنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله وعمل بما أمر الله به، وترك ما عنه زجر.

روى ابن أبي حاتم، عن سليم بن عامر قال: خرجنا على جنازة في باب دمشق، ومعنا (أبو أمامة الباهلي) فلما صلى على الجنازة، وأخذوا في دفنها، قال أبو أمامة: أيها الناس، إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر، وهو هذا - يشير إلى القبر - بيت الوحدة، وبيت الظلمة، وبيت الدود، وبيت الضيق، إلا ما وسع الله، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة، فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله، فتبيَضّ وجوه، وتسوَدّ وجوه، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر، فيغشى الناس ظلمة شديدة، ثم يقسم النور، فيعطى المؤمن نوراً، ويترك الكافر والمنافق، فلا يعطيان شيئاً، وهو المثل الذي ضربه الله تعالى في كتابه فقال: ﴿ أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن، كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير، ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا: ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ﴾، وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال: ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾، فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم، وقد ضرب بينهم بسور له باب ﴿ باطنه فيه الرحمة وظاهره فيه العذاب ﴾ الآية، يقول سليم بن عامر: فما يزال المنافق مغتراً حتى يقسم النور، ويميز الله بين المنافق والمؤمن[٣]، وقال ابن عباس: بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور دليلاً من الله إلى الجنة، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا

---

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.

اتبعوهم، فأظلم الله على المنافقين، فقالوا حينئذ: ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ فإنا كنا معكم في الدنيا قال المؤمنون ﴿ ارجعوا وراءكم ﴾ من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور، وروى الطبراني عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم ستراً منه على عباده، وأما عند الصراط، فإن الله تعالى يعطي كل مؤمن نوراً وكل منافق نوراً، فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات، فقال المنافقون: انظرونا نقتبس من نوركم، وقال المؤمنون: ربنا أتمم لنا نورنا فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً».

وقوله تعالى: ﴿ فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ قال الحسن وقتادة: هو حائط بين الجنة والنار، وقال عبد الرحمن بن زيد: هو الذي قال الله تعالى: ﴿ وبينهما حجاب ﴾، وهكذا روي عن مجاهد وهو الصحيح ﴿ باطنه فيه الرحمة ﴾ أي الجنة وما فيها ﴿ وظاهره من قبله العذاب ﴾ أي النار، والمراد بذلك سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب، وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب، كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وشك وحيرة، ﴿ ينادونهم ألم نكن معكم ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين: أما كنا معكم في الدار الدنيا نشهد معكم الجمعات؟ ونصلي معكم الجماعات؟ ونقف معكم بعرفات؟ ونحضر معكم الغزوات؟ ونؤدي معكم سائر الواجبات؟ قالوا: بلى، أي فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين: بلى قد كنتم معنا ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني ﴾، قال بعض السلف: أي فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات ﴿ وتربصتم ﴾ أي أخرتم التوبة من وقت إلى وقت، وقال قتادة: ﴿ تربصتم ﴾ بالحق وأهله، ﴿ وارتبتم ﴾ أي بالبعث بعد الموت، ﴿ وغرتكم الأماني ﴾ أي قلتم: سيغفر لنا، وقيل غرتكم الدنيا ﴿ حتى جاء أمر الله ﴾ أي ما زلتم في هذا حتى جاءكم الموت، ﴿ وغركم بالله الغرور ﴾ أي الشيطان، وقال قتادة: كانوا على خدعة من الشيطان والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار، ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين: إنكم كنتم معنا أي بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها، وإنما كنتم في حيرة وشك فكنتم تراءون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً، وهذا القول من المؤمنين لا ينافي قولهم الذي أخبر الله تعالى به عنهم حيث يقول: ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين ۞ في جنات يتساءلون ۞ عن المجرمين ۞ ما سلككم في سقر ﴾؟ فهذا إنما خرج منهم على وجه التقريع لهم والتوبيخ؛ ثم قال تعالى: ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ﴾ أي لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قبل منه، وقوله تعالى: ﴿ مأواكم النار ﴾ أي هي مصيركم وإليها منقلبكم، وقوله تعالى: ﴿ هي مولاكم ﴾ أي هي أولى بكم من كل منزل، على كفركم وارتيابكم وبئس المصير.

* ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) ﴾

يقول تعالى : أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، أي تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن ، فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه ، قال ابن عباس : إن الله استبطأ قلوب المؤمنين ، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن ، فقال : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ الآية[1] . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ الآية إلا أربع سنين[2] ، وقوله تعالى : ﴿ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ﴾ نهى الله تعالى المؤمنين، أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم ، من اليهود والنصارى لما تطاول عليهم الأمد، بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم ، واشتروا بـه ثمناً قليلاً ، ونبذوه وراء ظهورهم ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فعند ذلك قست قلوبهم ، فلا يقبلون موعظة ، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد ، ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ أي في الأعمال ، فقلوبهم فاسدة وأعمالهم باطلة ، كما قال تعالى : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ أي فسدت قلوبهم فقست ، وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه ، وتركوا الأعمال التي أمروا بها ، وارتكبوا ما نهوا عنه ، ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية .

روى أبو جعفر الطبري ، عن ابن مسعود قال : « إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم ، اخترعوا كتاباً من بين أيديهم وأرجلهم استهوته قلوبهم واستحلته ألسنتهم ، وقالوا : نعرض بني إسرائيل على هذا الكتاب . فمن آمن به تركناه ، ومن كفر به قتلناه ، قال : فجعل رجل منهم كتاب الله في قرن ، ثم جعل القرن بين ثندوتيه فلما قيل له : أتؤمن بهذا ؟ قال : آمنت به ويومئ إلى القرن بين ثندوتيه ، ومالي لا اؤمن بهذا الكتاب ؟ فمن خير مللهم اليوم ملة صاحب القرن »[3] . وقوله تعالى : ﴿ اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ فيه إشارة إلى أن الله يلين القلوب بعد قسوتها ، ويهدي الحيارى بعد ضلتها ، ويفرج الكروب بعد شدتها ، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل ، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل ، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل ، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال ، والمضل لمن أراد بعد الكمال ، الذي هو لما يشاء فعال ، وهو الحكيم العدل في جميع الفعال ، اللطيف الخبير الكبير المتعال .

إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

---

(١) رواه ابن أبي حاتم .

(٢) رواه مسلم والنسائي .

(٣) أخرجه ابن جرير عن ابن مسعود موقوفاً .

يخبر تعالى عما يثيب به ﴿ المُصَّدِقين والمُصَّدِقات ﴾ بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ أي دفعوه بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله ، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكوراً ، ولهذا قال : ﴿ يضاعف لهم ﴾ أي يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها ، ويزاد إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك ، ﴿ ولهم أجر كريم ﴾ أي ثواب جزيل ومآب كريم ، وقوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون ﴾ هذا تمام الجملة ، وصف المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون ، قال ابن عباس : ﴿ أولئك هم الصديقون ﴾ هذه مفصولة ، ﴿ والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ﴾ ، وقال أبو الضحى ﴿ أولئك هم الصديقون ﴾ . ثم استأنف الكلام ، فقال : ﴿ والشهداء عند ربهم ﴾ ، عن ابن مسعود قال : هم ثلاثة أصناف يعني : (المُصَّدقين . والصديقين . والشهداء) كما قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴾ ففرق بين الصديقين والشهداء ، فدل على أنهما صنفان ، ولا شك أن الصديق أعلى مقاماً من الشهيد ، كما روى الإمام مالك ، عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم » قال : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : بلى ، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين »[1] . وقال آخرون : بل المراد من قوله تعالى : ﴿ أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم ﴾ فأخبر عن المؤمنين بالله ورسوله بأنهم صديقون وشهداء ، وقوله تعالى : ﴿ والشهداء عند ربهم ﴾ أي في جنات النعيم كما جاء في الصحيحين : « إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت » الحديث . وقوله تعالى : ﴿ لهم أجرهم ونورهم ﴾ أي لهم عند الله أجر جزيل ، ونور عظيم يسعى بين أيديهم ، وهم في ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال ، كما قال رسول الله ﷺ : « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان ، لقي العدوّ فصدق الله فقتل ، فذاك الذي ينظر الناس إليه هكذا » ورفع رأسه حتى سقطت قلنسوة رسول الله ﷺ وقلنسوة عمر ، والثاني مؤمن لقي العدوّ فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح جاءه سهم غرب فقتله فذاك في الدرجة الثانية ، والثالث رجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الثالثة ، والرابع رجل مؤمن أسرف على نفسه إسرافاً كثيراً لقي العدوّ فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الرابعة »[2] . وقوله تعالى : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ لما ذكر السعداء ومآلهم ، عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم .

ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾

(١) أخرجه الشيخان والإمام مالك .

(٢) أخرجه أحمد والترمذي ، وقال : حسن غريب .

يقول تعالى موهناً أمر الحياة الدنيا ومحقراً لها: ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد﴾ أي إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا، كما قال تعالى: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾، ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال: ﴿كمثل غيث﴾وهو المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي ينزّل الغيث من بعد ما قنطوا﴾، وقوله تعالى: ﴿أعجب الكفار نباته﴾ أي يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث، وكما يعجب الزراع ذلك، كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها، ﴿ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً﴾ أي يهيج ذلك الزرع فتراه مصفراً بعد ما كان خضراً نضراً، ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً، أي يصير يبساً متحطماً، هكذا الحياة الدنيا، تكون أولاً شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزاً شوهاء، والإنسان يكون كذلك في أول عمره وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ضعيف القوى، كما قال تعالى: ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة﴾، ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة، حذّر من أمرها ورغّب فيما فيها من الخير، فقال: ﴿وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان﴾ أي وليس في الآخرة الآتية القريبة إلا عذاب شديد، أو مغفرة من الله ورضوان، وقوله تعالى: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ أي هي متاع فانٍ، يغتر بها من يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة، قال رسول الله ﷺ: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، اقرأوا: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾[1]».

وروى الإمام أحمد، عن عبد الله قال، قال رسول الله ﷺ: «لَلْجنَّة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك»[2] ففي هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان، فلهذا حثه الله تعالى على المبادرة إلى الخيرات فقال الله تعالى: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾ والمراد جنس السماء والأرض كما قال تعالى في الآية الأُخرى: ﴿وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾، وقال ههنا: ﴿أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾، أي هذا الذي أهلهم الله له هو من فضله عليهم، وإحسانه إليهم، كما قدمنا في الصحيح: أن فقراء المهاجرين قالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، بالدرجات العلى والنعيم المقيم، قال: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق قال: «أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟ تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين»، قال، فرجعوا فقالوا: سمع اخواننا أهل الأموال ما فعلنا ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

---

(١) أخرجه ابن جرير، وهو في الصحيح ثابت بدون الزيادة.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق والإمام أحمد.

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

يخبر تعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية فقال: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم﴾ أي في الآفاق وفي نفوسكم، ﴿إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾ أي من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة، وقال بعضهم: الضمير عائد على النفوس، وقيل عائد على المصيبة، والأحسن عوده على الخليقة والبرية لدلالة الكلام عليها، كما روي عن منصور بن عبد الرحمن قال: كنت جالساً مع الحسن فقال رجل: سله عن قوله تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾، فسألته عنها، فقال: سبحان الله، ومن يشك في هذا؟ كل مصيبة بين السماء والأرض ففي كتاب الله من قبل أن يبرأ النسمة، وقال قتادة ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض﴾ قال: هي السنون يعني الجدب ﴿ولا في أنفسكم﴾ يقول: الأوجاع والأمراض، قال: وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود، ولا نكبة قدم، ولا خلجان عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر. وهذه الآية الكريمة من أدل دليل على القدرية نفاة العلم السابق - قبحهم الله -. روي عن عبدالله بن عمرو بن العاص يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»[1]، وزاد ابن وهب: ﴿وكان عرشه على الماء﴾، وقوله تعالى: ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ أي أن علمه تعالى الأشياء قبل كونها سهل عليه عزّ وجلّ، لأنه يعلم ما كان وما يكون، وقوله تعالى: ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ أي أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تيأسوا على ما فاتكم ﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ أي لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا بكدكم، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم، فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً تفخرون بها على الناس، ولهذا قال تعالى: ﴿والله لا يحب كل مختال فخور﴾ أي مختال في نفسه متكبر فخور، أي على غيره، وقال عكرمة: «ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن. ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً»، ثم قال تعالى: ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ أي يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه، ﴿ومن يتول﴾ أي عن أمر الله وطاعته ﴿فإن الله هو الغني الحميد﴾، كما قال: ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإنّ الله لغني حميد﴾.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾

---

(١) أخرجه مسلم وأحمد ورواه الترمذي بالزيادة، وقال: حسن صحيح.

يقول تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ أي بالمعجزات، والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب ﴾ وهو النقل الصدق ﴿ والميزان ﴾ وهو العدل الذي تشهد بـه العقول الصحيحة المستقيمة، المخالفة للآراء السقيمة كما قال تعالى: ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ﴾، وقال تعالى: ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾، وقال تعالى: ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ﴾، ولهذا قال في هذه الآية: ﴿ ليقوم النـاس بالقسط ﴾ أي بالحق والعدل، وهو اتبـاع الرسل فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به، ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوأوا غرف الجنات، والمنازل العاليات، ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ أي وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيـام الحجة عليه، ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية وكلها جدال مع المشركين، وبيان وإيضاح للتوحيد، وبينات ودلالات، فلما قامت الحجة على من خالف، شرع الله الهجرة، وأمرهم بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب، وقـد روى الإمام أحمد، عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم»[1] ولهذا قال تعالى: ﴿ فيه بأس شديد ﴾ يعني السلاح كالسيوف والحراب والسنان ونحوها ﴿ ومنافع للناس ﴾ أي في معايشهم كالسكة والفأس والمنشار والآلات التي يستعان بها في الحراثة والحياكة والطبخ وغير ذلك، قال ابن عباس: ثلاثة أشياء نزلت مع آدم: السندان، والكلبتان، والميقعة يعني المطرقة، وقوله تعالى: ﴿ وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ﴾ أي من نيته في حمل السلاح نصرة الله ورسوله ﴿ إن الله قوي عزيز ﴾ أي هو قوي عزيز ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً عليه السلام، لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته، وكذلك إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، لم يرسل رسولاً إلا وهو من سلالته، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ﴾ حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل ﴿ عيسى بن مريم ﴾ الذي بشر من بعده بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما، ولهذا قال تعالى: ﴿ ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل ﴾ وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه، ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه ﴾ وهم الحواريون ﴿ رأفة ﴾ أي رقة وهي الخشية ﴿ ورحمة ﴾

(١) أخرجه أحمد وأبو داود .

بالخلق، وقوله: ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ أي ابتدعها أمّة النصارى، ﴿ما كتبناها عليهم﴾ أي ما شرعناها وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم، وقوله تعالى: ﴿إلا ابتغاء رضوان الله﴾ فيه قولان (**أحدهما**) : أنهم قصدوا بذلك رضوان الله، قاله سعيد بن جبير وقتادة، (**والآخر**) : ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله، وقوله تعالى: ﴿فما رعوها حق رعايتها﴾ أي فما قاموا بما التزموه حق القيام، وهذا ذم لهم من وجهين: (**أحدهما**) : الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله، (**والثاني**) : في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عزّ وجلّ. وقد روى ابن أبي حاتم، عن ابن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «يا ابن مسعود» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «هل علمت أن بني إسرائيل افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة؟ لم ينج منها إلا ثلاث فرق، قامت بين الملوك والجبابرة بعد عيسى بن مريم عليه السلام، فدعت إلى دين الله ودين عيسى بن مريم، فقاتلت الجبابرة فقتلت فصبرت ونجت، ثم قامت طائفة أُخْرَى لم تكن لها قوة بالقتال فقامت بين الملوك والجبابرة، فدعوا إلى دين الله ودين عيسى بن مريم فقتلت وقطعت بالمناشير وحرقت بالنيران فصبرت ونجت، ثم قامت طائفة أُخْرَى لم يكن لها قوة ولم تطق القيام بالقسط فلحقت بالجبال فتعبّدت وترهبت وهم الذين ذكر الله تعالى ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم﴾»[1]. وروى الإمام أحمد، عن إياس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «لكل نبي رهبانية، ورهبانية هذه الأمّة الجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ». وفي رواية: «لكل أمّة رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله»[2]. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاءه فقال: أوصني، فقال: سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك، أوصيك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن، فإنه روحك في السماء وذكرك في الأرض»[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

عن أبي موسى الأشعري قال، قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيّه وآمن بي فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران، ورجل أدّب أَمَتَهُ فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران»[4]. وقال سعيد بن جبير: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى عليه هذه الآية في حق هذه الأمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين﴾ أي ضعفين ﴿من رحمته﴾، وزادهم ﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ يعني هدى يتبصر به من العمى والجهالة ﴿ويغفر لكم﴾ ففضلهم بالنور والمغفرة. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، ورواه ابن جرير بطريق أُخْرَى ولفظ آخر.
(٢) أخرجه أحمد والحافظ أبو يعلى.
(٣) أخرجه الإمام أحمد. (٤) أخرجه البخاري ومسلم.

سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾، ومما يؤيد هذا القول ما رواه الإمام أحمد، عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «مَثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً فقال: من يعمل لي من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ ألا فعملت اليهود، ثم قال: من يعمل لي من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ ألا فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم، فغضبت النصارى واليهود، وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء، قال: هل ظلمتكم من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فإنما هو فضلي أوتيه من أشاء»[1]. وروى البخاري، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استعمل قوماً يعملون له عملاً، يوماً إلى الليل على أجر معلوم، فعملوا إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا في أجرك الذي شرطت لنا وما عملنا باطل، فقال لهم: لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوا، واستأجر آخرين بعدهم، فقال: أكملوا يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر، قالوا: ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه، فقال: أكملوا بقية عملكم، فإنما بقي من النهار شيء يسير فأبوا، فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس فاستكملوا أجرة الفريقين كليهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور»[2]. ولهذا قال تعالى: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله﴾ أي ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رد ما أعطاه الله ولا إعطاء ما منع الله. ﴿وأنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾. قال ابن جرير: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ أي ليعلم، وعن ابن مسعود أنه قرأها: لكي يعلم لأن العرب تجعل (لا) صلة في كل كلام دخل في أوله أو آخره جحد غير مصرح، فالسابق كقوله: ﴿ما منعك ألا تسجد﴾، ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾.

[آخر تفسير سورة الحديد . ولله الحمد والمنة]

* * *

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

(٢) رواه البخاري في صحيحه.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَـٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾

عن عائشة قالت : الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه ، وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ إلى آخر الآية[١] . وفي رواية عنها أنها قالت : تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء ، إني لأسمع كلام (خولة بنت ثعلبة) ويخفى عليَّ بعضه ، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وهي تقول : يا رسول الله أكل مالي ، وأفنى شبابي ، ونثرت له بطني ، حتى إذا كبِرتْ سني وانقطع ولدي ظاهر مني ، اللهم إني أشكو إليك ، قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ ، قالت : وزوجها أوس بن الصامت[٢] . وروى ابن أبي حاتم عن أبي يزيد قال : « لقيتْ امرأةٌ عمر يقال لها (خولة بنت ثعلبة) وهو يسير مع الناس ، فاستوقفته ، فوقف لها ودنا منها وأصغى إليها رأسه ووضع يديه على منكبيها ، حتى قضت حاجتها وانصرفت ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين حبست رجالات قريش على هذه العجوز ، قال : ويحك وتدري من هذه ؟ قال : لا ، قال : هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات ، هذه خولة بنت ثعلبة ، والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت عنها حتى تقضي حاجتها ، إلا أن تحضر صلاة فأصلّيها ، ثم أرجع إليها حتى تقضي حاجتها »[٣] . وعن عامر قال : المرأة التي جادلت في زوجها خولة امرأة (أوس بن الصامت) وأمها معاذة .

﴿ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً ، ورواه النسائي وابن ماجة .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وهو منقطع بين أبي يزيد وعمر بن الخطاب كما قاله ابن كثير .

مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

روى الإمام أحمد، عن خولة بنت ثعلبة، قالت: فيّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة قالت: كنت عنده، وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه، قالت: فدخل عليّ يوماً فراجعته بشيء فغضب، فقال: أنتِ عليّ كظهر أمي؛ قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليّ، فإذا هو يريدني عن نفسي، قالت، قلت: كلا والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، قالت: فواثبني فامتنعت بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثياباً، ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه»، قالت: فوالله ما برحت، حتى نزل فيّ قرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه، ثم سري عنه فقال لي: «يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآناً»، ثم قرأ عليّ ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾ إلى قوله تعالى ﴿وللكافرين عذاب أليم﴾ قالت، فقال رسول الله ﷺ: «مريه فليعتق رقبة»، قالت، فقلت: يا رسول الله ما عنده ما يعتق، قال: «فليصم شهرين متتابعين»، قالت، فقلت: والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام، قال: «فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر»، قالت، فقلت: والله يا رسول الله ما ذاك عنده، قالت، فقال رسول الله ﷺ: «فإنا سنعينه بفرق من تمر»، قالت، فقلت: يا رسول الله وأنا سأعينه بفرق آخر، قال: «قد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصدقي به عنه ثم استوصي بابن عمك خيراً». قالت: ففعلت[1]. هذا هو الصحيح في سبب نزول هذه السورة؛ قال ابن عباس: أول من ظاهر من امرأته (أوس بن الصامت) أخو عبادة بن الصامت وامرأته (خولة بنت ثعلبة بن مالك) فلما ظاهر منها خشيت أن يكون ذلك طلاقاً، فأتت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أوساً ظاهر مني، وإنا إن افترقنا هلكنا، وقد نثرت بطني منه وقدمت صحبته، وهي تشكو ذلك وتبكي، ولم يكن جاء في ذلك شيء، فأنزل الله تعالى: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله﴾ إلى قوله تعالى ﴿وللكافرين عذاب أليم﴾ فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «أتقدر على رقبة تعتقها»؟ قال: لا والله يا رسول الله ما أقدر عليها، قال، فجمع له رسول الله ﷺ حتى أعتق عنه، ثم راجع أهله[2].

وقوله تعالى: ﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم﴾ أصل الظهار مشتق من الظهر، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا ظاهر أحدهم من امرأته قال لها: أنت عليّ كظهر أمي، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً فأرخص الله لهذه

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود. (٢) رواه ابن جرير، قال ابن كثير: وإلى ما ذكرناه ذهب ابن عباس والأكثرون.

الأُمّة وجعل فيه كفارة ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم، هكذا قال غير واحد من السلف، وقال سعيد بن جبير : كان الإيلاء والظهار من طلاق الجاهلية فوقّت الله الإيلاء أربعة أشهر، وجعل في الظهار الكفارة[1]، وقوله تعالى: ﴿ ما هن أُمّهاتهم إن أُمّهاتهم إلا اللائي ولدنهم ﴾ أي لا تصير المرأة بقول الرجل أنت عليّ كأُمّي، أو مثل أُمي، أو كظهر أُمي وما أشبه ذلك، لا تصير أمه بذلك إنما أمه التي ولدته، ولهذا قال تعالى: ﴿ وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ﴾ أي كلاماً فاحشاً باطلاً، ﴿ وإن الله لعفو غفور ﴾ أي عما كان منكم في حال الجاهلية، وهكذا أيضاً عما خرج من سبق اللسان ولم يقصد إليه المتكلم، كما روي أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول لامرأته : يا أُختي، فقال: « أختك هي ؟ »[2] فهذا إنكار، ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك لأنه لم يقصده، ولو قصده لحرمت عليه، لأنه لا فرق على الصحيح بين الأُم وبين غيرها من سائر المحارم من أُخت وعمَّة وخالة وما أشبه ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا ﴾ اختلف السلف والأئمة في المراد بقوله تعالى ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ فقال بعض الناس: العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره، وهذا القول باطل، وهو اختيار ابن حزم، وقال الشافعي: هو أن يمسكها بعد المظاهرة زماناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق، وقال أحمد ابن حنبل : هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا تحل له حتى يكفر بهذه الكفارة، وقد حكي عن مالك أنه العزم على الجماع أو الإمساك وعنه أنه الجماع، وقال أبو حنيفة: هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية، فتى ظاهر الرجل من امرأته فقد حرمها تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة، وعن سعيد بن جبير ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ يعني يريدون أن يعودوا في الجماع الذي حرموه على أنفسهم . وقال الحسن البصري: يعني الغشيان في الفرج وكان لا يرى بأساً أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفّر . وقال ابن عباس: ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ والمس النكاح[3] . وقال الزهري: ليس له أن يقبلها ولا يمسها حتى يكفر، وقد روى أهل السنن من حديث عكرمة، عن ابن عباس أن رجلاً قال: يا رسول الله إني ظاهرت من امرأتي فوقعت عليها قبل أن أكفر، فقال: « ما حملك على ذلك يرحمك الله ؟ » قال: رأيت خلخالها في ضوء القمر، قال: « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله عزَّ وجلَّ »[4] .
وقوله تعالى: ﴿ فتحرير رقبة ﴾ أي فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا، فههنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان، وفي كفارة القتل مقيدة بالإيمان. فحمل الشافعي رحمه الله ما أطلق ههنا على ما قيّد هناك لاتحاد الموجب، وهو عتق الرقبة، وقوله تعالى: ﴿ ذلكم توعظون به ﴾ أي تزجرون به، ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أي خبير بما يصلحكم ﴿ عليم ﴾ بأحوالكم، وقوله تعالى: ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ﴾ قد تقدمت الأحاديث الآمرة بهذا على الترتيب، كما ثبت في الصحيحين في قصة الذي جامع امرأته في رمضان ﴿ ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾ أي شرعنا هذا لهذا، وقوله تعالى: ﴿ وتلك حدود الله ﴾ أي محارمه فلا تنتهكوها . وقوله تعالى ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ أي الذين لم يؤمنوا ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة، لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء، كلا ليس الأمر كما زعموا، بل لهم عذاب أليم أي في الدنيا والآخرة .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم .
(٢) رواه أبو داود .
(٣) وكذا قال عطاء والزهري وقتادة ومقاتل بن حيان .
(٤) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾

يخبر تعالى عمن شاقوا الله ورسوله وعاندوا شرعه ﴿كبتوا كما كبت الذين من قبلهم﴾ أي أهينوا ولعنوا وأخزوا كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم، ﴿وقد أنزلنا آيات بينات﴾ أي واضحات لا يعاندها ولا يخالفها إلا كافر فاجر مكابر، ﴿وللكافرين عذاب مهين﴾ أي في مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله. والانقياد له والخضوع لديه، ثم قال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً﴾ وذلك يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ أي فيخبرهم بالذي صنعوا من خير وشر، ﴿أحصاه الله ونسوه﴾ أي ضبطه الله وحفظه عليهم، وهم قد نسوا ما كانوا عملوا، ﴿والله على كل شيء شهيد﴾ أي لا يغيب عنه شيء ولا يخفى ولا ينسى. ثم قال تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه واطلاعه عليهم وسماعه كلامهم ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا، فقال تعالى: ﴿ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة﴾ أي من سر ثلاثة ﴿إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾، أي مطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم، ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به مع علم الله به وسمعه له، كما قال تعالى: ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب﴾، وقال تعالى: ﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم. بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾، ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى، ولا شك في إرادة ذلك، ولكن سمعه أيضاً مع علمه محيط بهم وبصره نافذ فيهم. فهو سبحانه وتعالى مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء، ثم قال تعالى: ﴿ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾ قال الإمام أحمد: افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

كان بين النبي ﷺ وبين اليهود موادعة، وكانوا إذا مر بهم الرجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم، حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن، فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم فترك طريقه عليهم، فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى، فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى، فأنزل الله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول﴾ أي يتحدثون فيما بينهم بالإثم وهو ما يختص بهم، ﴿والعدوان﴾ وهو ما يتعلق بغيرهم، ومنه معصية الرسول ومخالفته، يصرون عليها ويتواصون بها، وقوله تعالى: ﴿وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله﴾. عن عائشة قالت: دخل على رسول الله ﷺ يهود، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، فقالت عائشة: وعليكم السام، فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش»، قلت: ألا تسمعهم يقولون: السام عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «أو سمعتِ ما أقول وعليكم؟»، فأنزل الله تعالى: ﴿وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله﴾[2]. وفي رواية في الصحيح أنها قالت لهم: عليكم السام والذام واللعنة، وأن رسول الله ﷺ قال: «إنه يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا». وروى ابن جرير. عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس مع أصحابه إذ أتى عليهم يهودي، فسلم عليهم فردوا عليه، فقال نبي الله ﷺ: «هل تدرون ما قال؟» قالوا: سلم يا رسول الله، قال: «بل قال: سام عليكم» أي تسامون دينكم، قال رسول الله ﷺ: «ردوه»، فردوه عليه، فقال نبي الله ﷺ: «أقلت سام عليكم؟» قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا: عليك»[3]، أي عليك ما قلت.

وقوله تعالى: ﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ أي يفعلون هذا ويقولون في أنفسهم لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له في الباطن لأن الله يعلم ما نسره، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك الله أن يعاجلنا بالعقوبة في الدنيا، فقال الله تعالى: ﴿حسبهم جهنم﴾ أي جهنم كفايتهم في الدار الآخرة ﴿يصلونها فبئس المصير﴾، عن عبدالله بن عمرو: أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: سام عليك. ثم يقولون في أنفسهم: لولا يعذبنا الله بما نقول؟ فنزلت هذه الآية: ﴿وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول * حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير﴾[4]. وقال ابن عباس: كان المنافقون يقولون لرسول الله ﷺ إذا حيوه: سام عليك، قال الله تعالى: ﴿حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير﴾، ثم قال الله تعالى مؤدّباً عباده المؤمنين أن لا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول﴾ أي كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب ومن مالأهم على ضلالهم من المنافقين، ﴿وتناجوا بالبر والتقوى

(١) روي هذا عن مجاهد ومقاتل بن حيان.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) أصله في الصحيحين، وهذا الحديث روي عن عائشة في الصحيح بنحوه.

(٤) أخرجه الإمام أحمد.

واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾ أي فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي قد أحصاها عليكم وسيجزيكم بها، روى الإمام أحمد عن صفوان بن محرز قال: كنت آخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل، فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كتفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه، ويقول له أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أن قد هلك، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين»[1]. ثم قال تعالى: ﴿إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي إنما النجوى وهي المسارة حيث يتوهم مؤمن بها سوءاً، ﴿من الشيطان ليحزن الذين آمنوا﴾ يعني إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه ﴿ليحزن الذين آمنوا﴾ أي ليسوءهم وليس ذلك ﴿بضارهم شيئاً إلا بإذن الله﴾ ومن أحسّ من ذلك شيئاً فليستعذ بالله وليتوكل على الله، فإنه لا يضره شيء بإذن الله، وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي حيث يكون في ذلك تأذ على مؤمن، كما روى ابن مسعود، قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه»[2]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾

يقول تعالى مؤدّباً عباده المؤمنين، وآمراً لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض في المجلس: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم﴾، وذلك أن الجزاء من جنس العمل، كما جاء في الحديث الصحيح: «من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة»، قال قتادة نزلت هذه الآية في مجالس الذكر، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضنّوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ، فأمرهم الله تعالى أن يفسح بعضهم لبعض، وقال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية يوم الجمعة، وكان رسول الله ﷺ يومئذ في الصفة، وفي المكان ضيق، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس، فقاموا حيال رسول الله ﷺ فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فرد النبي ﷺ عليهم، ثم سلموا على القوم بعد ذلك، فردوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم، فعرف النبي ﷺ ما يحملهم على القيام، فلم يفسح لهم، فشق ذلك على النبي ﷺ، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر: «قم يا فلان وأنت يا فلان» فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه، وعرف النبي ﷺ الكراهة في وجوههم، فقال المنافقون: ألستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس؟ والله ما رأيناه قَبِلَ عدل على هؤلاء، إن قوماً أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب من نبيّهم، فأقامهم، وأجلس من أبطأ عنه، فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله رجلاً يفسح لأخيه»، فجعلوا يقومون بعد ذلك

---

(١) أخرجاه في الصحيحين من حديث قتادة.

(٢) أخرجه الشيخان من حديث ابن مسعود.

سراعاً فيفسح القوم لإخوانهم، ونزلت هذه الآية يوم الجمعة[١]. وقد ورد عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا»[٢]. وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا يقم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه، ولكن افسحوا يفسح الله لكم»[٣]. **وقد اختلف الفقهاء** في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال: فنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث: «قوموا إلى سيدكم»، ومنهم من منع من ذلك محتجاً بحديث: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار»، ومنهم من فصّل فقال: يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم في محل ولايته كما دل عليه قصة سعد بن معاذ، فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكماً في بني قريظة، فرآه مقبلاً قال للمسلمين: «قوموا إلى سيدكم» وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه والله أعلم، فأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم، وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكان إذا جاء لا يقومون له لما يعلمون من كراهته لذلك.

وفي الحديث المروي في السنن أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس؛ فكان الصحابة رضي الله عنهم يجلسون منه على مراتبهم، فالصديق رضي الله عنه يجلسه عن يمينه وعمر عن يساره؛ وبين يديه غالباً عثمان وعليّ لأنهما كانا ممن يكتب الوحي، وكان يأمرهما بذلك؛ كما روى مسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ كان يقول: «ليلني منكم أولو الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[٤]، وما ذاك إلا ليعقلوا عنه ما يقوله صلوات الله وسلامه عليه، وفي الحديث الصحيح: بينا رسول الله ﷺ جالس إذ أقبل ثلاثة نفر، فأما أحدهم فوجد فرجة في الحلقة فدخل فيها، وأما الآخر فجلس وراء الناس، وأدبر الثالث ذاهباً، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخبر الثلاثة؟ أما الأول فآوى إلى الله فآواه الله، وأما الثاني فاستحيا، فاستحيا الله منه، وأما الثالث فأعرض، فأعرض الله عنه». وروى الإمام أحمد، عن عبدالله ابن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما»[٥]. وقد روي عن ابن عباس والحسن البصري في قوله تعالى: ﴿إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم﴾ يعني في مجالس الحرب، قالوا: ومعنى قوله: ﴿وإذا قيل انشزوا فانشزوا﴾ أي انهضوا للقتال، وقال قتادة: ﴿وإذا قيل انشزوا فانشزوا﴾ أي إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا، وقال مقاتل: إذا دعيتم إلى الصلاة فارتفعوا إليها، وقوله تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾ أي لا تعتقدوا أنه إذا فسح أحد منكم لأخيه أن ذلك يكون نقصاً في حقه، بل هو رفعة ورتبة عند الله، والله تعالى لا يضيع ذلك له، بل يجزيه بها في الدنيا والآخرة، فإن من تواضع لأمر الله رفع الله قدره ونشر ذكره، ولهذا قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا

---

(١) رواه ابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه الشيخان وأحمد.
(٣) أخرجه الإمام أحمد.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه.
(٥) أخرجه الإمام أحمد.

العلم درجات والله بما تعملون خبير ﴾ ، أي خبير بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه، روى الإمام أحمد. عن أبي الطفيل أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على مكة، فقال له عمر : من استخلفت على أهل الوادي ؟ قال: استخلفت عليهم ابن أبزى رجل من موالينا، فقال عمر : استخلفت عليهم مولى ؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض، قاض، فقال عمر رضي الله عنه : أما إن نبيكم ﷺ قد قال: « إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين »[1] . وقد ذكرت فضل العلم وأهله وما ورد في ذلك من الأحاديث مستقصاة في « شرح كتاب العلم » من صحيح البخاري ، ولله الحمد والمنة .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجي رسول الله ﷺ أي يساره فيما بينه وبينه ، أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام، ولهذا قال تعالى: ﴿ ذلك خير لكم وأطهر ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ فإن لم تجدوا ﴾ أي إلا من عجز عن ذلك لفقره، ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ فما أمر بها إلا من قدر عليها ، ثم قال تعالى: ﴿ ءأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ﴾ أي أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول. ﴿ فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون ﴾ فنسخ وجوب ذلك عنهم، وقد قيل: إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها سوى علي ابن أبي طالب رضي الله عنه . قال مجاهد: نهوا عن مناجاة النبي ﷺ حتى يتصدقوا فلم يناجه إلا علي بن أبي طالب، قدم ديناراً صدقة تصدق به ، ثم ناجى النبي ﷺ فسأله عن عشر خصال، ثم أنزلت الرخصة، وقال علي رضي الله عنه: آية في كتاب الله عزّ وجلّ لم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي، كان عندي دينار فصرفته بعشرة دراهم، فكنت إذا ناجيت رسول الله ﷺ تصدقت بدرهم، فنسخت، ولم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي، ثم تلا هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾[2] الآية. وقال ابن عباس ﴿ فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾ ، وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيّه عليه السلام، فلما قال ذلك جبن كثير من المسلمين، وكفوا عن المسألة ، فأنزل الله بعد هذا: ﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ فوسع الله عليهم ولم يضيق ؛ وقال قتادة ومقاتل: سأل الناس رسول الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة، ففطمهم الله بهذه الآية، فكان الرجل منهم إذا كانت له الحاجة إلى نبي الله ﷺ فلا يستطيع أن يقضيها ، حتى يقدم بين يديه صدقة ، فاشتد ذلك عليهم ، فأنزل الله الرخصة بعد ذلك : ﴿ فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم من غير وجه عن الزهريّ . (٢) هذه رواية ليث بن أبي سليم عن مجاهد .

* أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾

يقول الله تعالى منكراً على المنافقين في موالاتهم الكفار في الباطن، وهم في نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾. وقال ههنا: ﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ يعني اليهود الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم في الباطن، ثم قال تعالى: ﴿ ما هم منكم ولا منهم ﴾ أي هؤلاء المنافقون ليسوا في الحقيقة منكم أيها المؤمنون، ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود، ثم قال تعالى: ﴿ ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ﴾ يعني المنافقين يحلفون على الكذب، وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا وهي اليمين الغموس، ولا سيما في مثل حالهم اللعين عياذاً بالله منه، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا جاءوا الرسول حلفوا له أنهم مؤمنون، وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به، لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه، وإن كان في نفس الأمر مطابقاً، ولهذا شهد الله بكذبهم في أيمانهم وشهادتهم لذلك . ثم قال تعالى: ﴿ أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ أي أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة وهي موالاة الكافرين ونصحهم ومعاداة المؤمنين وغشهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ﴾ أي أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر واتقوا بالأيمان الكاذبة، فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس ﴿ فلهم عذاب مهين ﴾، أي في مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم الله العظيم في الأيمان الكاذبة الحانثة، ثم قال تعالى: ﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾، أي لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم: ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً ﴾ أي يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحداً، ﴿ فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ﴾ أي يحلفون بالله عزّ وجلّ أنهم كانوا على الهدى والاستقامة كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا، لأن من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة، ولهذا قال: ﴿ ويحسبون أنهم على شيء ﴾ أي حلفهم ذلك لربهم عزّ وجلّ، ثم قال تعالى منكراً عليهم حسبانهم ﴿ ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ فأكد الخبر عنهم بالكذب، روى ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير، أن ابن عباس حدَّثه أن النبي ﷺ كان في ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين، قد كاد يقلص عنهم الظل، قال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان فإذا أتاكم فلا تكلموه»، فجاء

رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فكلمه، فقال: «علام تشتمني أنت وفلان وفلان» نفر دعاهم بأسمائهم قال، فانطلق الرجل فدعاهم فحلفوا له واعتذروا إليه، قال: فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء إلا إنهم هم الكاذبون﴾[1]، ثم قال تعالى: ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله﴾ أي استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله عزّ وجلّ، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا وقد استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية»[2]. قال السائب: يعني الصلاة في الجماعة، ثم قال تعالى: ﴿أولئك حزب الشيطان﴾ يعني الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، ثم قال تعالى: ﴿ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾.

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ۝٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ۝٢١ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٢٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين المحادين لله ورسوله يعني الذين هم في حد والشرع في حد، أي مجانبون للحق مشاقون له، هم في ناحية والهدى في ناحية ﴿أولئك في الأذلين﴾ أي في الأشقياء المبعدين الأذلين في الدنيا والآخرة، ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ أي قد حكم وكتب في كتابه الأول، وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل، بأن النصرة له ولكُتُبه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، ﴿وأن العاقبة للمتقين﴾، كما قال تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾، وقال ههنا: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾ أي كتب القوي العزيز أنه الغالب لأعدائه، وهذا قدر محكم وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة، ثم قال تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾ أي لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين، كما قال تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أنزلت هذه الآية ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ إلى آخرها، في (أبي عبيدة بن الجراح) حين قتل أباه يوم بدر، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك الستة رضي الله عنهم: ولو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته، وقيل: في قوله تعالى: ﴿ولو كانوا آباءهم﴾ نزلت في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه أحمد وابن جرير.

(٢) أخرجه أبو داود عن أبي الدرداء مرفوعاً.

﴿أو أبناءهم﴾ في الصديق ، همَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن ﴿أو إخوانهم﴾ في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد ابن عمير يومئذ، ﴿أو عشيرتهم﴾ في عمر قتل قريباً له يومئذ أيضاً، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ، والله أعلم .

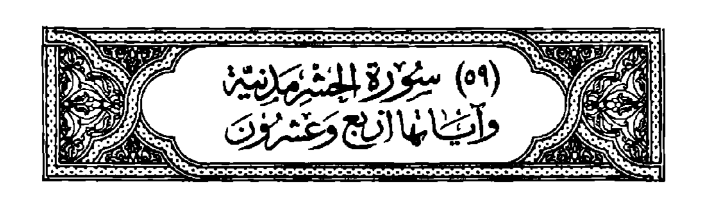
وقوله تعالى : ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾ أي من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ، ولو كان أباه أو أخاه فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان، أي كتب له السعادة وقررها في قلبه، وزين الإيمان في بصيرته ، قال السدي : ﴿كتب في قلوبهم الإيمان﴾ جعل في قلوبهم الإيمان ، وقال ابن عباس ﴿وأيدهم بروح منه﴾ أي قواهم ، وقوله تعالى: ﴿ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ كل هذا تقدم تفسيره غير مرة .

وفي قوله تعالى : ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ سر بديع وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم، والفضل العميم، وقوله تعالى: ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ أي هؤلاء حزب الله أي عباد الله وأهل كرامته ، وقوله تعالى ﴿ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم في الدنيا والآخرة . وفي الحديث: « إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يدعوا، قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل فتنة سوداء مظلمة » ، فهؤلاء أولياء الله تعالى الذين قال الله: ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾[1] ، وقال الحسن، قال رسول الله ﷺ : « اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي يداً ولا نعمة ، فإني وجدت فيما أوحيته إليّ : ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾ »[2] .

[آخر تفسير سورة المجادلة ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .
(٢) أخرجه أبو أحمد العسكري .



(وكان ابن عباس يقول: سورة بني النضير)

روى البخاري، عن سعيد بن جبير قال ، قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : سورة بني النضير .

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾

يخبر تعالى أن جميع ما في السماوات والأرض يسبّح له ويمجّده ، ويقدّسه ويوحّده كقوله تعالى: ﴿ تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وهو العزيز ﴾ أي منيع الجناب ﴿ الحكيم ﴾ في قدره وشرعه، وقوله تعالى: ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ يعني يهود بني النضير ، كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهداً وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه ، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه، فأجلاهم النبي ﷺ ، وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ظنوا أنها مانعتهم من بأس الله ، فما أغنى عنهم من الله شيئاً، وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم، وسيّرهم رسول الله ﷺ وأجلاهم من المدينة ، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى (أذرِعات) من أعالي الشام، وهي أرض المحشر

والمنشر ، ومنهم طائفة ذهبوا إلى (خيبر) وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم ، فكانوا يخربون ما في بيوتهم من المنقولات التي يمكن أن تحمل معهم ، ولهذا قال تعالى: ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ أي تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله، وكذّب كتابه، كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا ، مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم ، روى أبو داود ، عن عبدالرحمن ابن كعب بن مالك ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ : أن كفّار قريش كتبوا إلى (ابن أبيّ) ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس والخزرج ، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل رجعة بدر إنكم أدنيتم صاحبنا ، وإنا نقسم بالله لنقاتلنه أو لنخرجنكم ، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونسبي نساءكم، فلما بلغ ذلك (عبدالله بن أبيّ) ومن كان معه من عبدة الأوثان أجمعوا لقتال النبي ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال: « لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم، يريدون أن يقاتلوا أبناءكم وإخوانكم » ، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش ، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود، إنكم أهل الحلقة والحصون وإنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء ، وهو الخلاخيل، فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ أيقنت بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ : اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك ليخرج منا ثلاثون حبراً، حتى نلتقي بمكان النصف، وليسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم فقال لهم: « إنكم والله لا تؤمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه » ، فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا من الغد على بني قريظة بالكتائب، وترك بني النضير ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه ، فانصرف عنهم، وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء فجلت بنو النضير ، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها، وكان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة أعطاه الله إياها وخصه بها ، فقال تعالى: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾ نقول بغير قتال، فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين قسمها بينهم، وقسم منها لرجلين من الأنصار ، وكانا ذوي حاجة ولم يقسم من الأنصار غيرهما، وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ التي في أيدي بني فاطمة .

وقوله تعالى : ﴿ ما ظننتم أن يخرجوا﴾ أي في مدة حصاركم لهم وكانت ستة أيام مع شدة حصونهم ومنعتها ، ولهذا قال تعالى : ﴿وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾ أي جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال كما قال تعالى في الآية الأُخرَى ﴿وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾، وقوله تعالى : ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾ أي الخوف والهلع والجزع، وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذي نصر بالرعب مسيرة شهر صلوات الله وسلامه عليه، وقوله: ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ هو نقض ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم وحملها على الإبل، وقال مقاتل بن حيان: كان رسول الله ﷺ يقاتلهم، فإذا ظهر على درب أو دار هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال، وكان اليهود إذا علوا مكاناً أو غلبوا على درب أو دار نقبوا من أدبارها، ثم حصنوها ودربوها، يقول الله تعالى: ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾، وقوله: ﴿ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا﴾ أي لولا أن الله كتب عليهم هذا الجلاء وهو النفي من ديارهم وأموالهم، لكان لهم عند

الله عذاب آخر من القتل والسبي ونحو ذلك، لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم في الدار الدنيا مع ما أعد لهم في الدار الآخرة من العذاب في نار جهنم، عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير قال: «ثم كانت وقعة بني النضير، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، وكان منزلهم بناحية من المدينة فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء وأن لهم ما أقلت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة وهي السلاح، فأجلاهم رسول الله ﷺ قبل الشام، قال: والجلاء أنه كتب عليهم في آي من التوراة، وكانوا من سبط لم يصبهم الجلاء قبل ما سلط عليهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله فيهم: ﴿سبّح لله ما في السماوات وما في الأرض - إلى قوله - وليخزي الفاسقين﴾[1]، قال قتادة: الجلاء خروج الناس من البلد إلى البلد، وقال الضحّاك: أجلاهم إلى الشام وأعطى كل ثلاثة بعيراً وسقاء فهذا الجلاء، وقد روى الحافظ أبو بكر البيهقي، عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ، فأعطوه ما أراد منهم، فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم، وأن يخرجهم من أرضهم ومن ديارهم وأوطانهم، وأن يسيرهم إلى أذرعات الشام، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاء، والجلاء إخراجهم من أرضهم إلى أرض أُخْرَى. وعن محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ بعثه إلى بني النضير، وأمره أن يؤجلهم في الجلاء ثلاثة أيام.

وقوله تعالى: ﴿ولهم في الآخرة عذاب النار﴾ أي حتم لازم لا بد لهم منه، وقوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ أي إنما فعل الله بهم ذلك وسلط عليهم رسوله وعباده المؤمنين، لأنهم خالفوا الله ورسوله وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين في البشارة بمحمد ﷺ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم، ثم قال: ﴿ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب﴾، وقوله تعالى: ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾ اللين نوع من التمر وهو جيد، قال أبو عبيدة: وهو ما خالف العجوة والبرني من التمر، وقال كثيرون من المفسرين: اللينة ألوان التمر سوى العجوة، قال ابن جرير: هو جميع النخل، وذلك أن رسول الله ﷺ لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم وإرعاباً لقلوبهم، فبعث بنو قريظة يقولون لرسول الله ﷺ إنك تنهى عن الفساد، فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة. اي ما قطعتم من لينة وما تركتم من الأشجار فالجميع بإذنه ومشيئته وقدره ورضاه، وفيه نكاية بالعدو وخزي لهم، وإرغام لأنوفهم. روى الإمام أحمد، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قطع نخل بني النضير وحرّق[2]. ولفظ البخاري، عن ابن عمر قال: حاربت النضير وقريظة فأجلى بني النضير، وأقر قريظة ومن عليهم حتى حاربت قريظة، فقتل من رجالهم وسبى وقسم نساءهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ فأمنهم وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلهم بني قينقاع، وهم رهط (عبدالله بن سلام) ويهود بني حارثة وكل يهود بالمدينة[3]. وفي الصحيحين عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع، وهي البويرة، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾[4]. ولها يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وهان على سراة بني لؤي ... حريق بالبويرة مستطير

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه أحمد ورواه الشيخان بنحوه.

(٣) أخرجه البخاري.

(٤) أخرجه الشيخان.

قال أبو إسحاق: كانت وقعة بني النضير بعد وقعة أُحُد وبعد بئر معونة، وحكى البخاري عن الزهري عن عروة أنه قال: كانت وقعة بني النضير بعد بدر بستة أشهر.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾

الفيء كل مال أخذ من الكفّار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب، كأموال بني النضير هذه، فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، أي لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة، بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم، فأفاءه الله على رسوله، ولهذا تصرف فيه كما يشاء فرده على المسلمين في وجوه البر والمصالح، التي ذكرها الله عزّ وجلّ في هذه الآيات فقال تعالى: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم﴾ أي من بني النضير، ﴿فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾ يعني الإبل، ﴿ولكنّ الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ أي هو قدير لا يغالب ولا يمانع بل هو القاهر لكل شيء، ثم قال تعالى: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ أي جميع البلدان التي تفتح هكذا فحكمها حكم أموال بني النضير، ولهذا قال تعالى: ﴿فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ إلى آخرها والتي بعدها، فهذه مصارف أموال الفيء ووجوهه.

روى الإمام أحمد، عن عمر رضي الله عنه قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته، وما بقي جعله في الكُرَاع والسلاح في سبيل الله عزّ وجلّ. وقوله تعالى: ﴿كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ أي جعلنا هذه المصارف لمال الفيء، كيلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء، ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء.

وقوله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ أي مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير، وإنما ينهى عن شر. عن مسروق قال: جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت: بلغني أنك تنهى عن الواشمة والواصلة أشيء وجدته في كتاب الله تعالى أو عن رسول الله ﷺ؟ قال: بلى شيء وجدته في كتاب الله وعن رسول الله ﷺ، قالت: والله لقد تصفحت ما بين دفتي المصحف، فما وجدت فيه الذي تقول، قال: فما وجدتِ فيه: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾؟ قالت: بلى، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن الواصلة والواشمة والنامصة، قالت: فلعله في بعض أهلك، قال: فادخلي فانظري، فدخلت فنظرت، ثم خرجت، قالت: ما رأيت بأساً، فقال لها: أما حفظت وصية العبد الصالح: ﴿وما أريد

أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) ؟[1] . وقال الإمام أحمد، عن عبدالله بن مسعود قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحُسْن، المغيرات خلق الله عزّ وجلّ . قال: فبلغ امرأة من بني أسد في البيت يقال لها أُم يعقوب، فجاءت إليه فقالت: بلغني أنك قلت كيت وكيت، قال: مالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وفي كتاب الله تعالى ؟ فقالت: إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته، فقال: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه، أما قرأت: ﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾، قالت: بلى ؟ قال: فإن رسول الله ﷺ نهى عنه، قالت: إني لأظن أهلك يفعلونه، قال: اذهبي فانظري، فذهبت فلم تر من حاجتها شيئاً، فجاءت فقالت: ما رأيت شيئاً، قال: لو كان كذا لم تجامعنا[2]. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»[3]. وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ أي اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجره، فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه، وارتكب ما عنه زجره ونهاه .

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى مبيناً حال الفقراء المستحقين لمال الفيء أنهم ﴿الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾، أي خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه، ﴿وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون﴾ أي هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم، وهؤلاء هم سادات المهاجرين . ثم قال تعالى مادحاً للأنصار ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدهم وإيثارهم مع الحاجة، فقال تعالى: ﴿والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم﴾ أي سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم ، قال عمر : «وأوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم كرامتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبل، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم»[4] . وقوله تعالى : ﴿يحبون من هاجر إليهم﴾ أي من كرمهم وشرف أنفسهم، يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم، روى الإمام أحمد ، عن أنس قال، قال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم، أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير ، لقد كفونا

---

(١) رواه ابن أبي حاتم .

(٢) أخرجه الشيخان وأحمد .

(٣) أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي هريرة .

(٤) رواه البخاري عند تفسير هذه الآية .

المؤنة وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، قال: «لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم»[١]. ودعا النبي ﷺ الأنصار أن يقطع لهم البحرين، قالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال: «إما لا، فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم أثرة»[٢]. وقال البخاري، عن أبي هريرة قال، قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: «لا»، فقالوا: أتكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة؟ قالوا: سمعنا وأطعنا، ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ أي ولا يجدون في أنفسهم حسداً للمهاجرين، فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة، قال الحسن البصري ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة﴾ يعني الحسد ﴿مما أوتوا﴾ قال قتادة: يعني فيما أعطي إخوانهم، وقال عبدالرحمن بن زيد في قوله تعالى: ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ يعني مما أوتوا: المهاجرون، قال: وتكلم في أموال بني النضير بعض من تكلم في الأنصار فعاتبهم الله في ذلك فقال تعالى: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ قال، وقال رسول الله ﷺ: «إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم»، فقالوا: أموالنا بيننا قطائع، فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر»، فقالوا: نعم يا رسول الله، وقوله تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ يعني حاجة، أي يقدموا المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدأون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الصدقة جهد المقل»، ومن هذا المقام تصدق الصدّيق رضي الله عنه بجميع ماله، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» فقال رضي الله عنه: أبقيت لهم الله ورسوله، وهكذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء، فرده الآخر إلى الثالث، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم، ولم يشربه أحد منهم رضي الله عنهم وأرضاهم، وقال البخاري، عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال النبي ﷺ: «ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله»، فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله، فقال لامرأته هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئاً، فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فأطفيء السراج ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: «لقد عجب الله عزّ وجلّ - أو ضحك - من فلان وفلانة»، وأنزل الله تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾[٣]. وفي رواية لمسلم تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ أي من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح، عن جابر ابن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك

---

(١) أخرجه أحمد في المسند.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه البخاري، ورواه مسلم والترمذي والنسائي بنحوه.

من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم »[١] . وعن عبدالله بن عمرو قال، قال رسول الله ﷺ : « اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الفحش فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش، وإياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا »[٢] . وقال ابن أبي حاتم، عن الأسود بن هلال قال: جاء رجل إلى عبدالله فقال: يا أبا عبدالرحمن إني أخاف أن أكون قد هلكت، فقال له عبدالله : وما ذاك ؟ قال : سمعت الله يقول : ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ وأنا رجل شحيح لا أكاد أن أخرج من يدي شيئاً، فقال عبدالله: ليس ذلك بالشح الذي ذكر الله في القرآن، إنما الشح الذي ذكر الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً، ولكن ذاك البخل، وبئس الشيء البخل[٣] ، وعن أبي الهياج الأسدي قال: كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلاً يقول: اللهم قني شح نفسي، لا يزيد على ذلك، فقلت له: فقال: إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ولم أزن ولم أفعل، وإذا الرجل عبدالرحمن ابن عوف رضي الله عنه[٤] . وفي الحديث: « بريء من الشح من أدى الزكاة وقرى الضيف وأعطى في النائبة »[٥] .

وقوله تعالى : ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾ هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء ، وهم المهاجرون ثم الأنصار ثم التابعون لهم بإحسان كما قال في آية براءة : ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾، فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لآثارهم الحسنة، وأوصافهم الجميلة، الداعون لهم في السر والعلانية، ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون﴾ أي قائلين ﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً﴾ أي بغضاً وحسداً ﴿للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾، وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء، وقال ابن أبي حاتم ، عن عائشة أنها قالت: أمروا أن يستغفروا لهم فسبوهم، ثم قرأت هذه الآية: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾ الآية[٦] ، وقال ابن جرير : قرأ عمر بن الخطاب: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ حتى بلغ ﴿عليم حكيم﴾، ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ : ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى﴾ الآية، ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى﴾ حتى بلغ ﴿والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم - والذين جاءوا من بعدهم﴾ ثم قال: استوعبت هذه المسلمين عامة، وليس أحد إلا وله فيها حق، ثم قال: لئن عشت ليأتين الراعي وهو بسرو حمير نصيبه فيها لم يعرق فيها جبينه[٧] .

---

(١) أخرجه مسلم والإمام أحمد .
(٢) أخرجه أحمد وأبو داود .
(٣) رواه ابن أبي حاتم .
(٤) رواه ابن جرير .
(٥) أخرجه ابن جرير عن أنس مرفوعاً .
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم .
(٧) أخرجه ابن جرير .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢) لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٧) ﴾

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبيّ وأضرابه، حين بعثوا إلى يهود بني النضير، يعدونهم النصر من أنفسهم، فقال تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصركم ﴾، قال الله تعالى: ﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ أي لكاذبون فيما وعدوهم به، ولهذا قال تعالى: ﴿ ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ﴾ أي لا يقاتلون معهم، ﴿ ولئن نصروهم ﴾ أي قاتلوا معهم ﴿ ليولنّ الأدبار ثم لا ينصرون ﴾، وهذه بشارة مستقلة بنفسها. ثم قال تعالى: ﴿ لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ﴾ أي يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله، كقوله تعالى: ﴿ إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر ﴾ يعني أنهم من جبنهم وهلعهم، لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام، بل إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة، ثم قال تعالى: ﴿ بأسهم بينهم شديد ﴾ أي عداوتهم فيما بينهم شديدة كما قال تعالى: ﴿ ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ أي تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين، وهم مختلفون غاية الاختلاف، قال إبراهيم النخعي: يعني أهل الكتاب والمنافقين ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ﴾، قال مجاهد والسدي: يعني كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر، وقال ابن عباس: كمثل الذين من قبلهم يعني يهود بني قينقاع، وهذا القول أشبه بالصواب، فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا.

وقوله تعالى: ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك ﴾ يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين، كمثل الشيطان إذ سوّل للإنسان الكفر ثم تبرأ منه وتنصل، وقال: ﴿ إني أخاف الله رب العالمين ﴾. روى ابن جرير، عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية: ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ﴾ قال: كانت امرأة ترعى الغنم، وكان لها

أربعة إخوة، وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب، قال: فنزل الراهب ففجَر بها، فحملت، فأتاه الشيطان فقال له اقتلها ثم ادفنها، فإنك رجل مصدق يسمع قولك، فقتلها ثم دفنها، قال: فأتى الشيطان إخوتها في المنام، فقال لهم: إن الراهب صاحب الصومعة فجَر بأختكم فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا، فلما أصبحوا قال رجل منهم: والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقصها عليكم أم أترك؟ قالوا: بل قصها علينا، قال، فقصها؛ فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك، فقال الآخر: وأنا والله قد رأيت ذلك، قالوا: فوالله ما هذا إلا لشيء. قال، فانطلقوا، فاستَعْدُوا ملكهم على ذلك الراهب، فأتوه فأنزلوه، ثم انطلقوا به، فلقيه الشيطان فقال: إني أنا الذي أوقعتك في هذا ولن ينجيك منه غيري، فاسجد لي واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه، قال، فسجد له، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه وأخذ فقتل، واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو (برصيصا) فالله أعلم. وقوله تعالى: ﴿فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها﴾ أي فكان عاقبة الأمر بالكفر مصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ أي جزاء كل ظالم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

عن جرير بن عبد الله قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار قال، فجاءه قوم حفاة عراة، مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتغيّر وجه رسول الله ﷺ، لما رأى بهم من الفاقة، قال، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن، وأقام الصلاة فصلّى، ثم خطب فقال: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ - إلى آخر الآية، وقرأ الآية التي في الحشر - ﴿ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ - تصدق رجل من ديناره من درهمه، من ثوبه، من صاع بر، من صاع تمره - حتى قال - ولو بشق تمرة. قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه، كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: «من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1]، فقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ أمر بتقواه وهو يشمل فعل ما به أمر، وترك ما عنه زجر، وقوله تعالى: ﴿ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم، ﴿واتقوا الله﴾ تأكيد ثان ﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ أي اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير، وقوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ أي لا تنسوا ذكر الله تعالى فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم، فإن الجزاء من جنس العمل،

---

(١) أخرجه مسلم والإمام أحمد.

ولهذا قال تعالى: ﴿ أولئك هم الفاسقون ﴾ أي الخارجون عن طاعة الله، الهالكون يوم القيامة، الخاسرون يوم معادهم، كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ .

خطب أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه فقال : أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم، فمن استطاع أن يقضي الأجل، وهو في عمل الله عزّ وجلّ، فليفعل، ولن تنالوا ذلك إلا بالله عزّ وجلّ، إن قوماً جعلوا آجالهم لغيرهم فنهاكم الله عزّ وجلّ أن تكونوا أمثالهم ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾، أين من تعرفون من إخوانكم؟ قدموا على ما قدموا في أيام سلفهم، وخلوا بالشقوة والسعادة، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار، هذا كتاب الله لا تفنى عجائبه، فاستضيئوا منه ليوم ظلمة، واستضيئوا بسنائه وبيانه، إن الله تعالى أثنى على زكريا وأهل بيته فقال تعالى: ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين﴾، لا خير في قول لا يراد به وجه الله، ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم»[1] . وقوله تعالى: ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾ أي لا يستوي هؤلاء وهؤلاء في حكم الله تعالى يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾، وقال تعالى: ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجّار ﴾ ، ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ أي الناجون المسلّمون من عذاب الله عزّ وجلّ.

لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى معظماً لأمر القرآن ومبيناً علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد: ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾ أي فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عزّ وجلّ، فكيف يليق بكم يا أيها البشر أن لا تلين قلوبكم، وتخشع وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه؟ ولهذا قال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً﴾ إلى آخرها، يقول: لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه لتصدع وخشع من ثقله ومن خشية الله، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع،

(١) أخرجه الحافظ الطبراني ، قال ابن كثير : اسناده جيد ورجاله كلهم ثقات .

ثم قال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾، وقال الحسن البصري: إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت وتصدعت من خشيته، فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم؟ وقد قال تعالى: ﴿ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى﴾ الآية، وقد تقدم أن معنى ذلك أي لكان هذا القرآن، ثم قال تعالى: ﴿هو الله لا إلّه إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم﴾ أخبر تعالى أنه الذي لا إلّه إلا هو، فلا رب غيره ولا إلّه للوجود سواه، وكل ما يعبد من دونه فباطل، وأنه عالم الغيب والشهادة أي يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من جليل وحقير وصغير وكبير حتى الذر في الظلمات، وقوله تعالى: ﴿هو الرحمن الرحيم﴾ المراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، وقد قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾، وقال تعالى: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ وقال تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾، ثم قال تعالى: ﴿هو الله الذي لا إلّه إلا هو الملك﴾ أي المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة.

وقوله تعالى: ﴿القدوس﴾ قال وهب بن منبه: أي الطاهر، وقال مجاهد وقتادة: أي المبارك، وقال ابن جريج: تقدسه الملائكة الكرام، ﴿السلام﴾ أي من جميع العيوب والنقائص لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله، وقوله تعالى: ﴿المؤمن﴾ قال ابن عباس: أي أمن خلقه من أن يظلمهم، وقال قتادة: أمن بقوله أنه حق. وقال ابن زيد: صدّق عباده المؤمنين في إيمانهم به، وقوله تعالى: ﴿المهيمن﴾ قال ابن عباس وغير واحد: أي الشاهد على خلقه بأعمالهم، بمعنى هو رقيب عليهم، كقوله: ﴿والله على كل شيء شهيد﴾، وقوله: ﴿ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾، وقوله: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿العزيز﴾ أي الذي قد عز كل شيء فقهره، وغلب الأشياء فلا ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه، ولهذا قال تعالى: ﴿الجبار المتكبر﴾ أي الذي لا تليق الجبرية إلا له، ولا التكبر إلا لعظمته كما تقدم في الصحيح: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما عذبته»، وقال قتادة: الجبار الذي جبر خلقه على ما يشاء، وقال ابن جرير: الجبار المصلح أُمور خلقه المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم، وقال قتادة: المتكبر يعني عن كل سوء، ثم قال تعالى: ﴿سبحان الله عما يشركون﴾. وقوله تعالى: ﴿هو الله الخالق الباريء المصور﴾ الخلق: التقدير، والبرء: التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود، وليس كل من قدر شيئاً ورتّبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله عزّ وجلّ. قال الشاعر يمدح آخر

ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

أي أنت تنفذ ما خلقت، أي قدرت بخلاف غيرك؛ فإنه لا يستطيع ما يريده فالخلق: التقدير، والفري: التنفيذ، ومنه يقال: قدر الجلاد ثم فرى، أي قطع على ما قدره بحسب ما يريده، وقوله تعالى: ﴿الخالق البارئ المصور﴾ أي الذي إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، على الصفة التي يريد، والصورة التي يختار، كقوله تعالى: ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾، ولهذا قال المصور أي الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها.

وقوله تعالى: ﴿له الأسماء الحسنى﴾ قد تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف، ونذكر الحديث المروي

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر، هو الله الذي لا إلّه إلا هو الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارىء، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدىء، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المعطي، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور»[1]. وقوله تعالى: ﴿يسبّح له ما في السماوات والأرض﴾ كقوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾، وقوله تعالى﴿وهو العزيز﴾ أي فلا يرام جنابه، ﴿الحكيم﴾ في شرعه وقدره، عن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر، وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة»[2].

[آخر تفسير سورة الحشر، ولله الحمد والمنة]



(١) أخرج بعضه الشيخان واللفظ للترمذي .

(٢) رواه الترمذي والإمام أحمد .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾

كان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة قصة (حاطب بن أبي بلتعة)، وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين وكان من أهل بدر أيضاً، وكان له بمكة أولاد ومال، ولم يكن من قريش أنفسهم، فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد، أمر النبي ﷺ المسلمين بالتجهيز لغزوهم، وقال: «اللهم عمِّ عليهم خبرَنا»، فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً، وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم رسول الله ﷺ من غزوهم ليتخذ بذلك عندهم يداً. روى الإمام أحمد، عن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها»، فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، قلنا: لتخرجن الكتاب، أو لنلقينّ الثياب، قال: فأخرجت الكتاب من عقاصها، فأخذنا الكتاب، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب ما هذا؟» قال: لا تعجل عليّ، إني كنت امرأً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام،

فقال رسول الله ﷺ: «إنه صدقكم»، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». ونزلت فيه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾[1]. وهكذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد أن هذه الآيات نزلت في حاطب بن أبي بلتعة. فقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾ يعني المشركين والكفّار الذين هم محاربون لله ولرسوله، نهى الله أن يتخذوهم أولياء وأصدقاء وأخلاء، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، وقال تعالى: ﴿لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ ولهذا قبل رسول الله ﷺ عذر حاطب، لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش، لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد.

وقوله تعالى: ﴿يخرجون الرسول وإياكم﴾ هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم، كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده، ولهذا قال تعالى: ﴿أن تؤمنوا بالله ربكم﴾ أي لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين، كقوله تعالى: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾، وكقوله تعالى: ﴿الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾، وقوله تعالى: ﴿إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي﴾ أي إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء، إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي فلا توالوا أعدائي، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم، حنقاً عليكم وسخطاً لدينكم، وقوله تعالى: ﴿تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم﴾ أي تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر، ﴿ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل * إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء﴾ أي لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال، ﴿وودوا لو تكفرون﴾ أي ويحرصون على أن لا تنالوا خيراً، فعداوتهم لكم كامنة وظاهرة فكيف توالون مثل هؤلاء؟ وهذا تهييج على عداوتهم أيضاً، وقوله تعالى: ﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير﴾ أي قراباتكم لا تنفعكم عند الله، إذا أراد الله بكم سوءاً، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط الله، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم، فقد خاب وخسر وضل عمله، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾

(١) أخرجه الجماعة إلا ابن ماجة.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾

يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين والتبري منهم: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه﴾ أي وأتباعه الذين آمنوا معه، ﴿إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم﴾ أي تبرأنا منكم ﴿ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم﴾ أي بدينكم وطريقكم ﴿وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً﴾ يعني وقد شرعت العداوة والبغضاء بيننا وبينكم، ما دمتم على كفركم فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم ﴿حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ أي إلى أن توحدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد، وقوله تعالى ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك﴾ أي لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة، تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه؛ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم، ويقولون: إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾. وقال تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء﴾ أي ليس لكم في ذلك أسوة أي في الاستغفار للمشركين، هكذا قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد. ثم قال تعالى مخبراً عن قول إبراهيم والذين معه، حين فارقوا قومهم وتبرأوا منهم، فقالوا ﴿ربنا عليك توكلنا وإليك المصير﴾ أي توكلنا عليك في جميع الأمور، وسلمنا أمورنا إليك وفوضناها إليك، وإليك المصير أي المعاد في الدار الآخرة ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾ قال مجاهد: معناه لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا، وقال قتادة: لا تظهرهم علينا فيفتتنوا بذلك، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه، واختاره ابن جرير. وقال ابن عباس: لا تسلطهم علينا فيفتنونا، وقوله تعالى: ﴿واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي واستر ذنوبنا عن غيرك، واعف عنها فيما بيننا وبينك ﴿إنك أنت العزيز﴾ أي الذي لا يضام من لاذ بجنابك، ﴿الحكيم﴾ في أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك، ثم قال تعالى: ﴿لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾، وهذا تأكيد لما تقدم، وقوله تعالى: ﴿لمن كان يرجوا الله واليوم الاخر﴾ تهييج إلى ذلك لكل مؤمن بالله والمعاد، وقوله تعالى ﴿ومن يتول﴾ أي عما أمر الله به، ﴿فإن الله هو الغني الحميد﴾، كقوله تعالى ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾، وقال ابن عباس: ﴿الغني﴾ الذي قد كمل في غناه، وهو الله ليس كمثله شيء، و﴿الحميد﴾ المستحمد إلى خلقه، أي هو المحمود في جميع أقواله وأفعاله، لا إله غيره ولا رب سواه.

* ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ﴾

ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين: ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾ أي محبة بعد البغضة، ومودة بعد النفرة، وألفة بعد الفرقة، ﴿والله قدير﴾ أي على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة والمختلفة، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة، فتصبح مجتمعة متفقة، كما قال تعالى ممتناً على الأنصار ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾، وكذا قال لهم النبي ﷺ: «ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟»، وقال الله تعالى ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم﴾، وفي الحديث: «أحبب حبيبك هوناً ما، فعسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما فعسى أن يكون حبيبك يوماً ما».

وقوله تعالى: ﴿والله غفور رحيم﴾ أي يغفر للكافرين كفرهم، إذا تابوا منه وأنابوا إلى ربهم وأسلموا له، وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه من أي ذنب كان، وعن ابن شهاب أن رسول الله ﷺ استعمل أبا سفيان صخر ابن حرب على بعض اليمن، فلما قبض رسول الله ﷺ أقبل، فلقي ذا الخمار مرتداً، فقاتله فكان أول من قاتل في الردة وجاهد عن الدين، قال ابن شهاب: وهو ممن أنزل الله فيه: ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾ [1] الآية، وقوله تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم﴾، أي لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة، الذين لا يقاتلونكم في الدين كالنساء والضعفة منهم ﴿أن تبروهم﴾ أي تحسنوا إليهم، ﴿وتقسطوا إليهم﴾ أي تعدلوا، ﴿إن الله يحب المقسطين﴾. عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا، فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصلها؟ قال: «نعم صلي أمك»[2]. وقال الإمام أحمد حدثنا عارم، حدثنا عبدالله بن المبارك، حدثنا مصعب بن ثابت، حدثنا عن عبدالله بن الزبير قال: قدمت قتيلة على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا ضباب وقرظ وسمن وهي مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها، فسألت عائشة النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين﴾ إلى آخر الآية، فأمرها أن تقبل هديتها وأن تدخلها بيتها[3]، وقوله تعالى: ﴿إن الله يحب المقسطين﴾ في الحديث الصحيح: «المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولوا». وقوله تعالى: ﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم﴾ أي إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة، فقاتلوكم وأخرجوكم وعاونوا على إخراجكم، ينهاكم الله عزّ وجلّ عن موالاتهم ويأمركم بمعاداتهم، ثم أكد الوعيد على موالاتهم، فقال: ﴿ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾، كقوله تعالى: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الشيخان والإمام أحمد.

(٣) رواه أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

تقدم في سورة الفتح ذكر صلح الحُدَيبية، الذي وقع بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، فكان فيه: على أن لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصِّصة للسنة، وعلى طريقة بعض السلف ناسخة، فإن الله عزّ وجلّ أمر عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن، فإن علموهن مؤمنات فلا يرجعوهن إلى الكفار ﴿ لا هنَّ حل لهم ولا هم يحلون لهنّ ﴾، وسبب النزول ما روي أنه لما هاجرت (أُم كلثوم) بنت عقبة بن أبي معيط، خرج أخواها (عمارة) و (الوليد) حتى قدما على رسول الله ﷺ فكلماه فيها أن يردها إليهما، فنقض الله العهد بينه وبين المشركين في النساء خاصة، فمنعهم أن يردوهن إلى المشركين وأنزل الله آية الامتحان[1]، روى ابن جرير، عن أبي نصر الأسدي قال: سئل ابن عباس كيف كان امتحان رسول الله ﷺ النساء، قال: كان يمتحنهن بالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله[2]. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ﴾ كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله، وقال مجاهد: ﴿ فامتحنوهن ﴾ فاسألوهن عما جاء بهن، فإن كان جاء بهن غضب على أزواجهن أو سخطة أو غيره ولم يؤمنَّ فارجعوهن إلى أزواجهن، وقال عكرمة: يقال لها ما جاء بك إلا حب الله ورسوله، وما جاء بك عشق رجل منا، ولا فرار من زوجك، فذلك قوله ﴿ فامتحنوهن ﴾، وقال قتادة: كانت محنتهن أن يستحلفن بالله ما أخرجكن النشوز، وما أخرجكن إلا حب الإسلام وأهله، وحرص عليه، فإذا قلن ذلك قبل ذلك منهن.

وقوله تعالى: ﴿ فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار ﴾ فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقيناً، وقوله تعالى: ﴿ لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾ هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين، وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة، ولهذا كان أمر (أبي العاص بن الربيع) زوج ابنة النبي ﷺ زينب رضي الله عنها، وقد كانت مسلمة وهو على دين قومه، فلما وقع في الأسارى يوم بدر بعثت

(١) ذكره في المسند الكبير في ترجمة عبدالله بن جحش.

(٢) رواه ابن جرير ورواه البزار من طريقه وذكر أن الذي كان يحلفهن عن أمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب.

امرأته زينب في فدائه بقلادة لها كانت لأمها خديجة، فلما رآها رسول الله ﷺ رقّ لها رقة شديدة وقال للمسلمين: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا»، ففعلوا، فأطلقه رسول الله ﷺ على أن يبعث ابنته إليه، فوفى له بذلك، وصدقه فيما وعده، وبعثها إلى رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة رضي الله عنه، فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر، وكانت سنة (اثنتين) إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة (ثمان) فردها إليه بالنكاح الأول، ولم يحدث لها صداقاً؛ كما روى الإمام أحمد، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ رد ابنته زينب على أبي العاص، وكانت هجرتها قبل إسلامه بست سنين على النكاح، ولم يحدث شهادة ولا صداقاً»[1]. وروي أن رسول الله ﷺ رد ابنته على أبي العاص بن الربيع بمهر جديد ونكاح جديد[2]، والذي عليه الأكثرون أنها متى انقضت العدة ولم يسلم انفسخ نكاحها منه، وقال آخرون: بل إذا انقضت العدة هي بالخيار إن شاءت أقامت على النكاح واستمرت، وإن شاءت فسخته وذهبت فتزوجت، وحملوا عليه حديث ابن عباس والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿وآتوهم ما أنفقوا﴾ يعني أزواج المهاجرات من المشركين ادفعوا إليهم الذي غرموه عليهن من الأصدقة[3]، وقوله تعالى: ﴿ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن﴾ يعني إذا أعطيتموهن أصدقتهن فأنكحوهن بشرطه، من انقضاء العدة والولي وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ تحريم من الله عزّ وجلّ على عباده المؤمنين نكاح المشركات والاستمرار معهن، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء من المؤمنات فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات﴾ إلى قوله ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ فطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين تزوج إحداهما (معاوية بن أبي سفيان) والأخرى (صفوان بن أُميّة)، وقال الزهري: أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو بأسفل الحديبية، حين صالحهم على أنه من أتاه منهم رده إليهم، فلما جاء النساء نزلت هذه الآية، وأمره أن يرد الصداق إلى أزواجهن، وحكم على المشركين مثل ذلك إذا جاءتهم امرأة من المسلمين، أن يردوا الصداق إلى أزواجهن وقال: ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ وإنما حكم الله بينهم بذلك لأجل ما كان بينهم وبينهم من العهد، وقوله تعالى: ﴿واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا﴾ أي وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم، اللاتي يذهبن إلى الكفار إن ذهبن، وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين، وقوله تعالى: ﴿ذلكم حكم الله يحكم بينكم﴾ أي في الصلح واستثناء النساء منه، والأمر بهذا كله هو حكم الله يحكم به بين خلقه، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بما يصلح عباده حكيم في ذلك، ثم قال تعالى: ﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا﴾ قال مجاهد وقتادة: هذا في الكفار الذين ليس لهم عهد، إذا فرت إليهم امرأة، ولم يدفعوا إلى زوجها شيئاً، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها شيء، حتى يدفع إلى زوج الذاهبة إليهم مثل نفقته عليها، وقال ابن عباس في هذه الآية: يعني إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفار، أمر له رسول الله ﷺ أنه يعطى مثل ما أنفق من الغنيمة،

(١) أخرجه أحمد ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجة.

(٢) أخرجه عبد بن حميد والعمل عليه عند أهل العلم.

(٣) قاله ابن عباس وقتادة ومجاهد وغير واحد.

وهكذا قال مجاهد ﴿ فعاقبتم ﴾ أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم ﴿ فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ﴾ يعني مهر مثلها، وهذا لا ينافي الأول، لأنه إن أمكن الأول فهو الأولى، وإلا فمن الغنائم اللاتي تؤخذ من أيدي الكفار، وهذا أوسع، وهو اختيار ابن جرير[1].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

روى البخاري، عن عروة أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ﴾ إلى قوله ﴿ غفور رحيم ﴾، قال عروة، قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: « قد بايعتك » كلاماً، ولا والله ما مست يده يد امرأة في المبايعة قط، ما يبايعهن إلا بقوله: « قد بايعتك على ذلك » هذا لفظ البخاري.

وروى الإمام أحمد، عن أُمية بنت رقيقة[2] قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن ﴿ أن لا نشرك بالله شيئاً ﴾ الآية، وقال: « فيما استطعتن وأطقتن »، قلنا الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله ألا تصافحنا؟ قال: « إني لا أصافح النساء إنما قولي لامرأة واحدة قولي لمائة امرأة »[3]. وعن (سلمى بنت قيس) - وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ - وقد صلت معه القبلتين، قالت: جئت رسول الله ﷺ، نبايعه في نسوة من الأنصار، فلما شرط علينا ألا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، قال: « ولا تغششن أزواجكن » قالت: فبايعناه، ثم انصرفنا، فقلت لامرأة منهن: ارجعي فسلي رسول الله ﷺ: ما غش أزواجنا؟ قال، فسألته فقال: « تأخذ ماله فتحابي به غيره »[4]. وقال الإمام أحمد، عن عائشة بنت قدامة - يعني ابن مظعون - قالت: أنا مع أمي رائطة ابنة سفيان الخزاعية والنبي ﷺ يبايع النسوة ويقول: « أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً، ولا تسرقن ولا تزنين ولا تقتلن أولادكن، ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن، ولا تعصينني في معروف - قلن نعم - فيما استطعتن » فكن يقلن وأقول معهن وأمي تقول لي: أي بنية نعم، فكنت أقول كما يقلن »[5]. وقال البخاري، عن أُم عطية قالت: بايعنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا ﴿ ولا تشركن بالله شيئاً ﴾، ونهانا عن النياحة فقبضت امرأة يدها، قالت: أسعدتني فلانة، فأريد أن أجزيها، فما قال لها رسول الله ﷺ شيئاً، فانطلقت ورجعت فبايعها، وفي رواية: فما وفى منهن امرأة غيرها وغير أم سليم ابنة ملحان[6]

---

(١) في اللباب، أخرج ابن أبي حاتم: ﴿ وإن فاتكم ﴾ نزلت في أم الحكم بنت أبي سفيان ارتدت فتزوجها ثقفي.

(٢) قوله (أميمة بنت رقيقة) هي أخت السيدة خديجة وخالة فاطمة الزهراء.

(٣) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي.

(٤) أخرجه الإمام أحمد.

(٥) أخرجه الإمام أحمد أيضاً.

(٦) أخرجه البخاري ومسلم.

وقد كان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة يوم العيد، كما روى البخاري ، عن ابن عباس ، قال : شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب بعد، فنزل نبي الله ﷺ ، فكأني أنظر إليه حين يجلس الرجال بيده، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال : ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف﴾ حتى فرغ من الآية كلها، ثم قال حين فرغ: « أنتن على ذلك ؟ » ، فقالت امرأة واحدة ولم يجبه غيرها: نعم يا رسول الله . لا يدري حسن من هي، قال: فتصدقن، قال: وبسط بلال ثوبه ، فجعلن يلقين الفتخ والخواتيم في ثوب بلال[1] . وعن عبادة بن الصامت قال: كنا عند رسول الله ﷺ في مجلس فقال : « تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم – قرأ الآية التي أخذت على النساء إذا جاءك المؤمنات – فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه فهو إلى الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه »[2] . وقد روى ابن جرير ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أمر عمر بن الخطاب فقال: « قل لهن إن رسول الله ﷺ يبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً » وكانت (هند بنت عتبة بن ربيعة) التي شقت بطن حمزة متنكرة في النساء، فقالت هند وهي متنكرة: كيف تقبل من النساء شيئاً لم تقبله من الرجال ؟ فنظر إليها رسول الله ﷺ وقال لعمر : « قل لهن: ولا يسرقن »، قالت هند: والله إني لأصيب من أبي سفيان الهنات ما أدري أيحلهن لي أم لا، قال أبو سفيان: ما أصبت من شيء مضى أو قد بقي فهو لك حلال، فضحك رسول الله ﷺ، وعرفها، فقال: « ولا يزنين »، فقالت: يا رسول الله وهل تزني امرأة حرة، قال: « لا والله ما تزني الحرة » قال: « ولا يقتلن أولادهن »، قالت هند: أنت قتلتهم يوم بدر فأنت وهم أبصر ، قال: ﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن﴾ قال: ﴿ ولا يعصينك في معروف﴾ قال: منعهن أن ينحن، وكان أهل الجاهلية يمزقن الثياب، ويخدشن الوجوه، ويقطعن الشعور ، ويدعون بالويل والثبور[3] . وقال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية يوم الفتح، بايع رسول الله ﷺ الرجال على الصفا، وعمر بايع النساء يحلفهن عن رسول الله ﷺ، فذكر بقيته كما تقدم، وزاد: فلما قال: « ولا تقتلن أولادكن » قالت هند: ربيناهم صغاراً فقتلتموهم كباراً، فضحك عمر بن الخطاب حتى استلقى[4] .

فقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك﴾ أي من جاءك منهن يبايع على هذه الشروط فبايعها، على أن لا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن أموال الناس الأجانب ، وقوله تعالى: ﴿ ولا يزنين﴾ كقوله تعالى: ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾ . وقال الإمام أحمد، عن عروة عن عائشة قالت: جاءت (فاطمة بنت عتبة) تبايع رسول الله ﷺ فأخذ عليها ﴿ أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين﴾ الآية قال: فوضعت

---

(١) أخرجه البخاري .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم .

(٣) أخرجه ابن جرير قال ابن كثير : في بعضه نكارة وهو أثر غريب .

(٤) رواه ابن أبي حاتم .

يدها على رأسها حياءً، فأعجبه ما رأى منها، فقالت عائشة: أقرّي أيتها المرأة، فوالله ما بايعنا إلا على هذا، قالت: فنعم إذاً، فبايعها بالآية[١]، وقوله تعالى: ﴿ولا يقتلن أولادهن﴾ وهذا يشمل قتله بعد وجوده، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعم قتله وهو جنين، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء، تطرح نفسها لئلا تحبل إما لغرض فاسد أو ما أشبهه، وقوله تعالى: ﴿ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن﴾، قال ابن عباس: يعني لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم ويؤيد هذا الحديث الذي رواه أبو داود، عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة: «أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ولن يدخلها الله الجنة، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين»[٢].

وقوله تعالى: ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ يعني فيما أمرتهن به من معروف، ونهيتهن عنه من منكر، عن ابن عباس قال: إنما هو شرط شرطه الله للنساء، وقال ابن زيد: أمر الله بطاعة رسوله وهو خيرة الله من خلقه في المعروف، وقد قال غير واحد: نهاهن يومئذ عن النوح، وعن الحسن قال: كان فيما أخذ النبي ﷺ، ألا تحدثن الرجال إلا أن تكون ذات محرم، فإن الرجل لا يزال يحدث المرأة حتى يمذي بين فخذيه[٣]، وقال ابن جرير، عن أم عطية الأنصارية قالت: كان فيما اشترط علينا رسول الله ﷺ من المعروف حين بايعناه أن لا ننوح، فقالت امراة من بني فلان: إن بني فلان أسعدوني، فلا حتى أجزيهم، فانطلقت فأسعدتهم، ثم جاءت فبايعت، قالت: فما وفى منهن غيرها وغير أم سليم ابنة ملحان أم أنَس بن مالك[٤]. وعن امرأة من المبايعات قالت: «كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ أن لا نعصيه في معروف أن لا نخمش وجهاً، ولا ننشر شعراً، ولا نشق جيباً ولا ندعو ويلاً»[٥] وروى ابن جرير عن أم عطية قالت: «لما قدم رسول الله ﷺ جمع نساء الأنصار في بيت، ثم أرسل إلينا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فقام على الباب وسلم علينا فرددن، أو فرددنا عليه السلام ثم قال: أنا رسول رسول الله ﷺ إليكن، فقالت، فقلنا: مرحباً برسول الله وبرسول رسول الله، فقال: تبايعن على أن لا تشركن بالله شيئاً ولا تسرقن ولا تزنين، قالت، فقلنا: نعم، قالت، فمد يده من خارج الباب أو البيت ومددنا أيدينا من داخل البيت ثم قال: اللهم اشهد، قالت: وأمرنا في العيدين أن نخرج فيه الحيض والعواتق ولا جمعة علينا، ونهى عن اتباع الجنائز، قال إسماعيل: فسألت جدتي عن قوله تعالى: ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ قالت: النياحة[٦]. وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»[٧]. وعن أم سلمة عن رسول الله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿ولا يعصينك في معروف﴾، قال: النوح.

---

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) أخرجه أبو داود.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه ابن جرير ورواه البخاري بنحوه.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٦) رواه ابن جرير.

(٧) أخرجه الشيخان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ١٣﴾

ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر هذه السورة، كما نهى عنها في أولها فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾ يعني اليهود والنصارى وسائر الكفار، ممن غضب الله عليه ولعنه، واستحق من الله الطرد والإبعاد، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء ﴿قد يئسوا من الآخرة﴾ أي من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله عزّ وجلّ، وقوله تعالى: ﴿كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ فيه قولان: **أحدهما** كما يئس الكفار الأحياء من قراباتهم، الذين في القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك، لأنهم لا يعتقدون بعثاً ولا نشوراً، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه، قال ابن عباس: يعني من مات من الذين كفروا، فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم أو يبعثهم الله عزّ وجلّ، وقال الحسن البصري: الكفار الأحياء قد يئسوا من الأموات، وقال قتادة: كما يئس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا. **والقول الثاني**: معناه كما يئس الكفار الذين هم في القبور من كل خير[1]، قال ابن مسعود: ﴿كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ قال: كما يئس هذا الكافر إذا مات وعاين ثوابه واطلع عليه، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله.

[آخر تفسير سورة الممتحنة، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) وهو قول مجاهد وعكرمة ومقاتل وابن زيد والكلبي.



(٦١) سورة الصف مدنية وآياتها أربع عشرة

روى الترمذي، عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ، فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عزّ وجلّ لعملناه، فأنزل الله تعالى: ﴿سبّح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم * يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ»[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾

قد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾ غير مرة بما أغنى عن إعادته، وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ إنكار على من يعد وعداً، أو يقول قولاً لا يفي به، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان»، ولهذا أكد الله تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى: ﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم، فلما فرض نكل عنه بعضهم، كقوله تعالى: ﴿فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾، وقال تعالى: ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت﴾ الآية، وهكذا هذه الآية كما قال ابن عباس: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله عزّ وجلّ دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به، فأخبر الله نبيّه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا بالإيمان ولم يقروا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين، وشق عليهم أمره، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها

---

(١) أخرجه الترمذي والإمام أحمد.

الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾[1] ؟ وقال مقاتل بن حيان : قال المؤمنون لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به ، فدلهم الله على أحب الأعمال إليه فقال : ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً﴾ فبين لهم ، فابتلوا يوم أُحُد بذلك فولوا عن النبي ﷺ مدبرين ، فأنزل الله في ذلك : ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ ، وقال قتادة والضحّاك : نزلت توبيخاً لقوم كانوا يقولون : قتلنا ، ضربنا ، طعنا ، وفعلنا ؛ ولم يكونوا فعلوا ذلك . وقال ابن زيد : نزلت في قوم من المنافقين كانوا يعدون المسلمين النصر ولا يفون لهم بذلك ، وقال مجاهد : نزلت في نفر من الأنصار فيهم (عبدالله بن رواحة) ، قالوا في مجلس : لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملنا به حتى نموت ؟ فأنزل الله تعالى هذا فيهم ، فقال عبدالله بن رواحة : لا أبرح حبيساً في سبيل الله أموت فقتل شهيداً .

ولهذا قال تعالى : ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾ فهذا إخبار من الله تعالى بمحبته عباده المؤمنين ، إذا صفوا مواجهين لأعداء الله في حومة الوغى ، يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله ، لتكون كلمة الله هي العليا ، ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يضحك الله إليهم : الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذ صفوا للصلاة ، والقوم إذا صفوا للقتال »[2] . وقال مطرف : كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه ، فلقيته فقلت : يا أبا ذر كان يبلغني عنك حديث فكنت أشتهي لقاءك ، فقال : لله أبوك ، فقد لقيت فهات ، فقلت : كان يبلغني عنك أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم **أن الله يبغض ثلاثة ويحب ثلاثة** ، قال : أجل فلا أخالني أكذب على خليلي ﷺ ، قلت : فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله عزّ وجلّ ؟ قال : رجل غزا في سبيل الله خرج محتسباً مجاهداً ، فلقي العدو فقتل ، وأنتم تجدونه في كتاب الله المنزل ، ثم قرأ : ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾[3] وذكر الحديث . وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً﴾ قال : كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يصافهم ، وهذا تعليم من الله للمؤمنين ، وقوله تعالى : ﴿كأنهم بنيان مرصوص﴾ أي ملتصق بعضه في بعض ، من الصف في القتال ، وقال مقاتل بن حيان : ملتصق بعضه إلى بعض ، وقال ابن عباس : ﴿كأنهم بنيان مرصوص﴾ مثبت لا يزول ملصق بعضه ببعض ، وقال ابن جرير ، عن يحيى ابن جابر الطائي ، عن أبي بحرية قال : كانوا يكرهون القتال على الخيل ، ويستحبون القتال على الأرض لقول الله عزّ وجلّ : ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾ قال ، وكان أبو بحرية يقول : إذا رأيتموني التفت في الصف فجأوا[4] في لحيي .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم

(١) وهذا اختيار ابن جرير .

(٢) أخرجه ابن ماجة والإمام أحمد .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه الترمذي والنسائي بنحوه . (٤) فجأوا : أي اضربوا (من : وجأ عنقه أو في عنقه) ضربه .

مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه (موسى بن عمران) عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿ لم تؤذونني وقد تعلمون إني رسول الله إليكم﴾، أي لم توصلون الأذى إليَّ وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة ؟ وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفّار . وقوله تعالى: ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ أي فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به ، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان ، كما قال تعالى: ﴿ ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾، وقال تعالى: ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾، ولهذا قال تعالى في هذه الآية : ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾، وقوله تعالى: ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يديَّ من التوراة ومبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ يعني التوراة، وقد بشرت بي وأنا مصداق ما أخبرت عنه، وأنا مبشر بمن بعدي وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي (أحمد) فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشراً بمحمد وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة. وما أحسن ما أورد البخاري، عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن لي أسماء، أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب »[1] . قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد ، لئن بعث محمد وهو حي ليتبعنه ، وأخذ عليه أن يأخذ على أُمّته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه .

وقال محمد بن إسحاق، عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، قال: « دعوة أبي إبراهيم، وبُشْرى عيسى، ورأت أُمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام »[2] . وقال رسول الله ﷺ: « إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي، ورؤيا أُمّي التي رأت وكذلك أُمَّهات النبيين يرين »[3] . وروى أحمد عن أبي أمامة قال، قلت: يا رسول الله ما كان بدء أمرك ؟ قال: « دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أُمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام »[4] . وقال عبدالله بن مسعود : بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن نحوٌ من ثمانين رجلاً، منهم (عبدالله بن مسعود) و (جعفر) و (عبدالله ابن رواحة) و (عثمان بن مظعون) و (أبو موسى) فأتوا النجاشي، وبعثت قريش (عمرو بن العاص) و (عمارة

---

(١) أخرجه البخاري ورواه مسلم بنحوه .

(٢) رواه ابن إسحاق ، قال ابن كثير : إسناده جيد وله شواهد من وجوه أخر .

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن العرباض بن سارية مرفوعاً .

(٤) أخرجه الإمام أحمد .

ابن الوليد) بهدية ، فلما دخلا على النجاشي سجدا له ، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله، ثم قالا له : إن نفراً من بني عمّنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا ، وعن ملتنا، قال: فأين هم ؟ قالا : هم في أرضك فابعث إليهم ، فبعث إليهم، فقال جعفر : أنا خطيبكم اليوم، فاتبعوه، فسلّم ولم يسجد، فقالوا له: مالك لا تسجد للملك ؟ قال: إنا لا نسجد إلا لله عزّ وجل، قال: وما ذاك ؟ قال: إن الله بعث إلينا رسوله، فأمرنا أن لا نسجد لأحد إلا لله عزّ وجلّ، وأمرنا بالصلاة والزكاة ، قال عمرو بن العاص: فإنهم يخالفونك في عيسى بن مريم، قال: ما تقولون في عيسى ابن مريم وأمّه ؟ قال: نقول كما قال الله عزّ وجلّ : هو كلمة الله ، وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسها بشر ، ولم يعترضها ولد، قال، فرفع عوداً من الأرض، ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يساوي هذا ، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله وأنه الذي نجده في الإنجيل، وأنه الذي بَشّر به عيسى بن مريم ، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه ، وأوضئه ، وأمر بهدية الآخرين فرُدَّتْ إليهما[1] . **والمقصد** أن الأنبياء عليهم السلام لم تزل تنعته وتحكيه في كتبها على أممها، وتأمرهم باتباعه ونصره وموازرته إذا بُعث، وكان أول ما اشتهر الأمر في أهل الأرض ، على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده ، حين دعا لأهل مكّة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، وكذا على لسان عيسى بن مريم، ولهذا قال: « دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بن مريم، ورؤيا أُمي التي رأت » أي ظهر في أهل مكة أثر ذلك، والإرهاص، فذكره صلوات الله وسلامه عليه . وقوله تعالى: ﴿ فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾ قال ابن جريج ، ﴿ فلما جاءهم﴾ أحمد أي المبشر به في الأعصار المتقادمة المنوه بذكره في القرون السالفة ، لما ظهر أمره وجاء بالبينات قال الكفرة والمخالفون ﴿ هذا سحر مبين﴾ .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام﴾، أي لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله ، ويجعل له أنداداً وشركاء وهو يُدْعى إلى التوحيد والإخلاص، ولهذا قال تعالى: ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين﴾، ثم قال تعالى : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾ أي يحاولون أن يردوا الحق بالباطل ، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفيء شُعاع الشمس بفيه ، وكما أن هـذا مستحيل كذلك ذلك مستحيل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ ، وقـد تقدّم الكلام على هاتين الآيتين في سورة براءة بما فيه كفـايـة ، ولله الحمد والمنة .

(١) رواه أحمد وأصحاب السير .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

فسّر الله تعالى هذه التجارة العظيمة التي لا تبور ، التي هي محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور فقال تعالى: ﴿ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾، أي من تجارة الدنيا والكد لها والتصدي لها وحدها، ثم قال تعالى: ﴿ يغفر لكم ذنوبكم ﴾ أي إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه ، غفرت لكم الزلات ، وأدخلتكم الجنات ، والمساكن الطيبات ، ولهذا قال تعالى: ﴿ ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ وأُخْرَى تحبونها ﴾ أي وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها ، وهي ﴿ نصر من الله وفتح قريب ﴾ أي إذا قاتلتم في سبيله ونصرتم دينه، تكفل الله بنصركم، قال الله تعالى : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾، وقال تعالى : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وفتح قريب ﴾ أي عاجل، فهذه الزيادة هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة، لمن أطاع الله ورسوله ، ونصر الله ودينه، ولهذا قال تعالى: ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين ، أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم ، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم ، وأن يستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى ، حين قال : ﴿ من أنصاري إلى الله ﴾ أي من معيني في الدعوة إلى الله عزّ وجلّ، ﴿ قال الحواريون ﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام ﴿ نحن أنصار الله ﴾ أي نحن أنصارك على ما أرسلت بـه ، وموازروك على ذلك ، وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج: « من رجل يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي ، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي » حتى قيض الله عزّ وجلّ له الأوس والخزرج من أهل المدينة ، فبايعوه وآزروه وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم ، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه ، وفوا له بما عاهدوا الله عليه ، ولهذا سماهم الله ورسوله (الأنصار) وصار ذلك علماً عليهم رضي الله عنهم وأرضاهم . وقوله تعالى: ﴿ فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة ﴾ أي لما بلغ عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام رسالة ربه إلى قومه ، ووازره من وازره من الحواريين ، اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به وضلت طائفة ، فخرجت عما جاءهم به ، وجحدوا نبوته ورموه وأمه بالعظائم ، وهم اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة

إلى يوم القيامة، وغلت فيه طائفة ممن اتبعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة وافترقوا فرقاً وشيعاً، فمن قائل منهم: إنه ابن الله، وقائل: إنه ثالث ثلاثة (الأب والابن وروح القدس) ومن قائل: إنه الله، وكل هذه الأقوال مفصلة في سورة النساء. وقوله تعالى: ﴿فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم﴾ أي نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى ﴿فأصبحوا ظاهرين﴾ أي عليهم وذلك ببعثة محمد ﷺ. قال ابن عباس: ﴿فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة﴾ يعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى، والطائفة التي آمنت في زمن عيسى ﴿فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾ بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار، فأُمّة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله وهم كذلك، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى بن مريم عليه السلام كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح، والله أعلم.

[آخر تفسير سورة الصف، ولله الحمد والمنة]





عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ① هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ② وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ④﴾

يخبر تعالى أنه يسبّح له ما في السماوات وما في الأرض، أي من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها، كما قال تعالى: ﴿ وإن من شيء إلا يسبّح بحمده ﴾، ثم قال تعالى ﴿ الملك القدوس ﴾ أي هو مالك السماوات والأرض، المتصرف فيهما بحكمه، وهو المقدس أي المنزه عن النقائص، الموصوف بصفات الكمال، ﴿ العزيز الحكيم ﴾، وقوله تعالى: ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ﴾، الأميون: هم العرب ، كما قال تعالى: ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأمّيين أأسلمتم ﴾ ؟ وتخصيص الأمّيين بالذكر لا ينفي من عداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر ، كما قال تعالى ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به، وهذه الآية هي مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم ، فبعثه الله تعالى على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، وقـد اشتدت الحاجة إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾، وذلك أن العرب كانوا متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام فبدلوه وغيّروه. واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله ، وكذلك أهل الكتاب قـد بدلوا كتبهم وحرفوها ، وغيّروها وأولوها ، فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه، بشرع عظيم كامل شامل، فيه هدايته والبيان لجميع ما يحتاج الناس إليه من أمر معاشهم ومعادهم، وجمع له تعالى

---

(١) رواه مسلم في صحيحه .

جميع المحاسن ممن كان قبله، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين ولا يعطيه أحداً من الآخرين، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، وقوله تعالى: ﴿وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾. روى الإمام البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ، فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم﴾ قالوا: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال - أو رجل - من هؤلاء»[1]. في هذا الحديث دليل على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس، لأنه فسَّر قوله تعالى: ﴿وآخرين منهم﴾ بفارس، ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى ﴿وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم﴾ قال: هم الأعاجم وكل من صدّق النبي ﷺ من غير العرب، وقوله تعالى: ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي ذو العزة والحكمة في شرعه وقدره، وقوله تعالى: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ يعني ما أعطاه الله محمداً ﷺ من النبوة العظيمة، وما خص به أُمته من بعثه ﷺ إليهم.

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى ذاماً لليهود، الذين أُعطوا التوراة وحملوها للعمل بها، ثم لم يعملوا بها؛ مثلهم في ذلك ﴿كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ أي كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملاً حسياً ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظاً ولم يتفهموه، ولا عملوا بمقتضاه، فهم أسوأ حالاً من الحمار، لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، كما قال تعالى ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾، وقال تعالى ههنا: ﴿بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، والله لا يهدي القوم الظالمين﴾. عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب، فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً، والذي يقول له: أنصت ليس له جمعة»[2]، ثم قال تعالى: ﴿قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ أي إن كنتم تزعمون أنكم على هدى، وأنّ محمداً وأصحابه على ضلالة، فادعوا بالموت على الضال من الفئتين ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي فيما تزعمونه، قال الله تعالى: ﴿ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم﴾ أي بما يعملون من الكفر والظلم والفجور ﴿والله عليم بالظالمين﴾ وقد قدمنا الكلام في سورة البقرة على هذه المباهلة لليهود حيث قال تعالى: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ● ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾ كما تقدمت مباهلة النصارى في آل عمران ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم﴾ الآية . عن ابن عباس قال، قال أبو جهل لعنه الله : إن رأيت محمداً عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه، قال، فقال رسول الله ﷺ : « لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً »[1]، وقوله تعالى: ﴿قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾، كقوله تعالى في سورة النساء: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾، وفي معجم الطبراني عن الحسن عن سمرة مرفوعاً: « مثل الذي يفر من الموت كمثل الثعلب تطلبه الأرض بدين، فجاء يسعى حتى إذا أعيا وانبهر دخل جحره: فقالت له الأرض، يا ثعلب دِيني، فخرج له حصاص فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه فمات »[2] .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾

إنما سميت الجمعة جمعة لأنها مشتقة من الجمع، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرة بالمعابد الكبار، وفيه كمل جميع الخلائق، وفيه خلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها، وفيه تقوم الساعة، كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحاح، وقد كان يقال له (يوم العروبة)، وثبت أن الأمم قبلنا أُمروا به فضلوا عنه، واختار اليهود يوم السبت الذي لم يقع فيه خلق آدم، واختار النصارى يوم الأحد الذي ابتدئ فيه الخلق، واختار الله لهذه الأمّة يوم الجمعة الذي أكمل الله فيه الخليقة، كما أخرجه البخاري ومسلم . عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم إن هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غداً والنصارى بعد غد »[3]. ولمسلم: « أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة، المقضى بينهم قبل الخلائق »[4] . وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله﴾ أي أقصدوا واعمدوا واهتموا في سيركم إليها، وليس المراد بالسعي ههنا المشي السريع وإنما هو الاهتمام بها، كقوله تعالى: ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن﴾، فأما المشي السريع إلى الصلاة فقد نهي عنه لما أخرجاه في الصحيحين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: « إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ولا تسرعوا فما أدركتم فصلوا وما فاتكم

(١) رواه البخاري والترمذي والنسائي .

(٢) رواه الحافظ الطبراني .

(٣) هذا لفظ البخاري .

(٤) أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم .

فأتموا » . وعن أبي قتادة قال: بينما نحن نصلي مع النبي ﷺ إذ سمع جلبة رجال ، فلما صلى قال: « ما شأنكم ؟ » قالوا: استعجلنا إلى الصلاة قال: « فلا تفعلوا . إذا أتيتم الصلاة فامشوا وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا »(١). وفي رواية : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون ولكن ائتوها تمشون وعليكم السكينة والوقار فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا »(٢) ، قال الحسن: أما والله ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ، ولكن بالقلوب والنية والخشوع، وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله﴾ يعني أن تسعى بقلبك وعملك وهو المشي إليها ، وكان يتأول قوله تعالى: ﴿ فلما بلغ معه السعي﴾ أي المشي معه .

ويستحب لمن جاء إلى الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه إليها ، لما ثبت في الصحيحين عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: « إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل » ، ولهما عن أبي سعيد رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : « غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم » . وعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ : « حق الله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام، يغسل رأسه وجسده »(٣) . وعن أوس بن أوس الثقفي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من غسّل واغتسل يوم الجمعة ، وبكّر وابتكر ، ومشى ولم يركب ، ودنا من الإمام واستمع ولم يلغ ، كان له بكل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها »(٤) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، إن رسول الله ﷺ قال: « من اغتسل يوم الجمعة غسل جنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرّب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرّب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر »(٥) ويستحب أن يلبس أحسن ثيابه ويتطيب ويتسوك ويتنظف ويتطهر . لما روى الإمام أحمد عن أبي أيوب الأنصاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب أهله إن كان عنده، ولبس من أحسن ثيابه، ثم خرج حتى يأتي المسجد فيركع إن بدا له ولم يؤذ أحداً، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرَى »(٦) .وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم الجمعة فرأى عليهم ثياب النمار ، فقال: « ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعته سوى ثوب مهنته »(٧) . وقوله تعالى: ﴿ إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة﴾ المراد بهذا النداء هو (النداء الثاني) الذي كان يفعل بين يدي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر ، فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه، فهذا هو المراد، فأما النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين (عثمان بن عفّان) رضي الله عنه، فإنما كان هذا لكثرة الناس، كما رواه البخاري رحمه الله، عن السائب بن يزيد

---

(١) أخرجاه في الصحيحين .

(٢) رواه الترمذي .

(٣) رواه مسلم .

(٤) قال ابن كثير : هذا الحديث له طرق وألفاظ وقد أخرجه أهل السنن الأربعة وحسّنه الترمذي .

(٥) أخرجه الشيخان .

(٦) أخرجه الإمام أحمد

(٧) رواه ابن ماجة .

قال: كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان بعد زمن وكثر الناس، زاد النداء الثاني على الزوراء»[١] يعني يؤذن بـه على الدار التي تسمى بالزوراء، وكانت أرفع دار بالمدينة بقرب المسجد. وذلك النداء الذي يحرم عنده الشراء والبيع إذا نودي به، فأمر عثمان رضي الله عنه أن ينادى قبل خروج الإمام حتى يجتمع النـاس، وإنمـا يؤمر بحضور الجمعة الرجال الأحرار دون العبيد والنساء والصبيان، ويعذر المسافر والمريض وما أشبه ذلك من الأعذار كما هو مقرر في كتب الفروع.

وقوله تعالى: ﴿وذروا البيع﴾ أي اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا نودي للصلاة، ولهذا اتفق العلمـاء رضي الله عنهم على تحريم البيع بعد النداء الثاني، وقوله تعالى: ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي تركـكم البيع وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة ﴿خير لكم﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿إن كنتم تعلمون﴾، وقوله تعالى: ﴿فإذا قضيت الصلاة﴾ أي فرغ منها ﴿فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء، وأمرهم بالاجتماع، أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله، كما كان (عراك ابن مالك) رضي الله عنه إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: «اللهم إني أجبت دعوتك وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين»[٢]. وروي عن بعض السلف أنه قال: من باع واشترع في يوم الجمعة بعد الصلاة بارك الله له سبعين مرة لقول الله تعالى: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾، وقوله تعالى: ﴿واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾ أي في حـال بيعكم وشرائكم وأخذكم وإعطائكم، اذكروا الله ذكراً كثيراً، ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة، ولهذا جاء في الحديث: «من دخل سوقاً من الأسواق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة». وقال مجاهـد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً.

وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

يعاتب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينـة يومئذ، **فقال تعالى**: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً﴾ أي على المنبر تخطب، عن جابر رضي الله عنه قال: قدمت عير مرة المدينة ورسول الله ﷺ يخطب فخرج الناس، وبقي اثنا عشر رجلاً فنزلت: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها﴾[٣]. وروى الحافظ أبو يعلى، عن جابر بن عبدالله قال: بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، فقدمت عير إلى المدينة، فابتدرها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد لسال بكم الوادي ناراً» ونزلت

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجاه في الصحيحين.

هذه الآية: ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ﴾، وقال: كان في الاثني عشر الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ : أبو بكر وعمر رضي الله عنهما[1] ، وفي قوله تعالى: ﴿ وتركوك قائماً ﴾ دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائماً ، وقد روى مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة قال : كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكّر الناس ، ولكن ههنا شيء ينبغي أن يعلم وهو أن هذه القصة قد قيل إنها كانت لما كان رسول الله ﷺ يقدم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة ، كما رواه أبو داود في كتاب المراسيل ، عن مقاتل بن حيان يقول: كان رسول الله ﷺ يصلي يوم الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين، حتى إذا كان يوم والنبي ﷺ يخطب وقد صلى الجمعة فدخل رجل فقال : إن دحية بن خليفة قد قدم بتجارة ، يعني فانفضوا، ولم يبق معه إلا نفر يسير[2] ، وقوله تعالى: ﴿ قل ما عند الله ﴾ أي الذي عند الله من الثواب في الدار الآخرة ﴿ خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين ﴾ أي لمن توكل عليه وطلب الرزق في وقته .

[آخر تفسير سورة الجمعة ، ولله الحمد والمنة ، وبه التوفيق والعصمة]

* * *

---

(١) رواه الحافظ الموصلي .

(٢) أخرجه أبو داود .



(٦٣) سورة المنافقون مدنية
وآياتها إحدى عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين، أنهم إنما يتفوهون بالإسلام ظاهراً فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك بل على الضد من ذلك ، ولهذا قال تعالى: ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله﴾ أي إذا حضروا عندك واجهوك بذلك، وأظهروا لك ذلك، وليس كما يقولون ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله فقال: ﴿ والله يعلم إنك لرسوله﴾ . ثم قال تعالى: ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ أي فيما أخبروا به لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه، ولهذا كذّبهم بالنسبة إلى اعتقادهم، وقوله تعالى: ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله﴾ أي اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة ليصدقوا فيما يقولون فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم، فاعتقدوا أنهم مسلمون، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالاً، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس، ولهذا قال تعالى: ﴿ فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾، وقوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم آمنوا، ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ أي إنما قدر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران، واستبدالهم الضلالة بالهدى، ﴿ فطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ أي فلا يصل إلى قلوبهم هدى، ولا يخلص إليها خير فلا تعي ولا تهتدي . وقوله تعالى: ﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم﴾ أي وكانوا أشكالاً حسنة وذوي فصاحة وألسنة، وإذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم، وهم مع ذلك في

غاية الضعف والخور والهلع والجزع، ولهذا قال تعالى: ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ أي كلما وقع أمر أو خوف، يعتقدون لجبنهم أنه نازل بهم، كما قال تعالى: ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت ﴾ فهم جهامات وصور بلا معاني، ولهذا قال تعالى: ﴿ هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ أي كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال، ، وفي الحديث: « إن للمنافقين علامات يعرفون بها: تحيتهم لعنة، وطعامهم نهبة، وغنيمتهم غلول، ولا يقربون المساجد إلا هجراً، ولا يأتون الصلاة إلا دبراً، مستكبرين، لا يألفون ولا يؤلفون، خشب بالليل، صُخب بالنهار »[1] .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين عليهم لعائن الله أنهم ﴿ إذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤوسهم ﴾ أي صدوا وأعرضوا عما قيل لهم استكباراً عن ذلك واحتقاراً لما قيل لهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ ورأيتهم يصدّون وهم مستكبرون ﴾ ثم جازاهم على ذلك فقال تعالى: ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ . عن سفيان ﴿ لوّوا رؤوسهم ﴾ حوّل سفيان وجهه على يمينه، ونظر بعينه شزراً، ثم قال: هو هذا[2]، وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في (عبد الله بن أبيّ بن سلول) كما سنورده قريباً إن شاء الله تعالى . قال قتادة والسدي: أنزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي، وذلك أن غلاماً من قرابته انطلق إلى رسول الله ﷺ، فحدثه بحديث عنه وأمر شديد، فدعاه رسول الله ﷺ فإذا هو يحلف بالله ويتبرأ من ذلك، وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعزلوه وأنزل الله فيه ما تسمعون، وقيل لعدو الله: لو أتيت رسول الله ﷺ، فجعل يلوي رأسه، أي لست فاعلاً .

وقال أبو إسحاق في قصة بني المصطلق: فبينا رسول الله ﷺ مقيم هناك اقتتل على الماء (جهجاه بن سعيد الغفاري) وكان أجيراً لعمر بن الخطاب و (سنان بن يزيد)، فقال سنان: يا معشر الأنصار، وقال الجهجاه: يا معشر المهاجرين، وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند (عبد الله بن أُبي) فلما سمعها قال: قد ثاورونا في بلادنا والله ما مثلنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل: سَمِّن كلبك يأكلك، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً، وقال يزيد بن مرة: سُخُب بالنهار أي بالسين .

(٢) رواه عنه ابن أبي حاتم .

الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من عنده من قومه، وقال: هذا ما صنعتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها، فسمعها (زيد بن أرقم) رضي الله عنه فذهب بها إلى رسول الله ﷺ، وهو غليم عنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأخبره الخبر، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله ! مر عباد بن بشر فليضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: « فكيف إذا تحدث الناس يا عمر أن محمداً يقتل أصحابه، لا، ولكن ناد يا عمر: الرحيل »، فلما بلغ عبدالله بن أُبي أن ذلك قد بلغ رسول الله ﷺ، أتاه فاعتذر إليه، وحلف بالله ما قال، ما قال عليه (زيد بن أرقم) وكان عند قومه بمكان، فقالوا: يا رسول الله عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال الرجل، وراح رسول الله ﷺ مهجراً في ساعة كان لا يروح فيها، فلقيه (أسيد بن الحضير) رضي الله عنه، فسلم عليه بتحية النبوة، ثم قال: والله لقد رحت في ساعة مبكرة ما كنت تروح فيها، فقال رسول الله ﷺ: « أما بلغك ما قال صاحبك ابن أُبي ؟ زعم أنه إذا قدم المدينة سيخرج الأعز منها الأذل »، قال: فأنت يا رسول الله العزيز وهو الذليل، ثم قال: ارفق به يا رسول الله، فوالله لقد جاء الله بك، وإنا لننظم له الخرز لنتوجه، فإنه ليرى أن قد سلبته ملكاً، فسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا وليلته حتى أصبحوا، وصدر يومه حتى اشتد الضحى، ثم نزل بالناس ليشغلهم عما كان من الحديث، فلم يأمن الناس أن وجدوا مس الأرض فناموا، ونزلت سورة المنافقين، وقال الحافظ أبو بكر البيهقي، عن جابر بن عبدالله يقول: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجُلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال رسول الله ﷺ: « ما بال دعوى الجاهلية ؟ دعوها فإنها منتنة »، وقال (عبدالله بن أُبي بن سلول) وقد فعلوها: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال جابر: وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ، ثم كثر المهاجرون بعد ذلك، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: « دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه »[1]. وروى الإمام أحمد، عن زيد بن أرقم قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقال عبدالله ابن أُبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته قال، فحلف عبدالله ابن أُبي أنه لم يكن شيء من ذلك، قال، فلامني قومي وقالوا: ما أردت إلى هذا ؟ قال، فانطلقت فنمت كئيباً حزيناً، قال، فأرسل إليَّ نبي الله ﷺ فقال: « إن الله قد أنزل عذرك وصدقك »، قال، فنزلت هذه الآية: ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ﴾ حتى بلغ ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾[2].

طريق أُخْرَى: قال الإمام أحمد رحمه الله، عن زيد بن أرقم قال: خرجت مع عمي في غزاة فسمعت عبدالله بن أُبي بن سلول يقول لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي، فذكره عمي لرسول الله ﷺ، فأرسل إليَّ رسول الله ﷺ فحدثته، فأرسل إلى عبدالله بن أُبي بن سلول وأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، فكذَّبني رسول الله ﷺ وصدَّقه، فأصابني همّ لم

---

(١) رواه البيهقي، ورواه أحمد والبخاري ومسلم بنحوه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ورواه البخاري عند هذه الآية.

يصبني مثله قط، وجلست في البيت، فقال عمي: ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك! قال، حتى أنزل الله: ﴿إذا جاءك المنافقون﴾، قال، فبعث إليَّ رسول الله ﷺ فقرأها رسول الله ﷺ عليَّ، ثم قال: «إن الله قد صدقك»[1]. وقال محمد بن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عبدالله بن عبدالله بن أبي لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أُبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبدالله بن أُبي يمشي في الناس، فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»[2]، وذكر عكرمة أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف (عبدالله بن عبدالله) على باب المدينة واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه (عبدالله بن أُبي) قال له ابنه: وراءك، فقال: مالك ويلك؟ فقال: والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء رسول الله ﷺ شكا إليه عبدالله بن أُبي ابنه، فقال ابنه عبدالله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله ﷺ، فقال: أما إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن، وقال الحميدي في مسنده: قال عبدالله بن عبدالله بن أُبي بن سلول لأبيه: «والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول رسول الله ﷺ الأعز وأنا الأذل، قال: وجاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد أن تقتل أبي، فوالذي بعثك بالحق لئن شئت أن آتيك برأسه لأتيتك، فإني أكره أن أرى قاتل أبي[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى آمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره، وناهياً لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك، ومخبراً لهم بأنه من التهى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عن طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ثم حثهم على الإنفاق في طاعته فقال: ﴿وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين﴾، فكل مفرط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ليستعتب ويستدرك ما فاته وهيهات، كما قال تعالى: ﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل﴾، وقال تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعونِ * لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾، ثم قال تعالى: ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد.

(٢) رواه محمد بن إسحاق بن يسار

(٣) رواه الحميدي في مسنده.

أي لا ينظر أحداً بعد حلول أجله، وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقاً في قوله وسؤاله، ممن لو رد لعاد إلى شر مما كان عليه، ولهذا قال تعالى: ﴿والله خبير بمـا تعملون﴾ . روى الترمذي، عن ابن عباس قال: من كان له مال يبلغه حج بيت ربه، أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل، سأل الرجعة عند الموت، فقال رجل: يا ابن عباس اتق الله، فإنما يسأل الرجعة الكفار، فقال: سأتلو عليك بذلك قرآناً: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون * وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين﴾ إلى قوله ﴿والله خبير بمـا تعملون﴾ قال: فما يوجب الزكاة؟ قال: إذا بلغ المال مائتين فصاعداً، قال: فما يوجب الحج؟ قال: الزاد والبعير[1] . وروى ابن أبي حاتم، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قـال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ الزيادة في العمر فقال: «إن الله لا يؤخـر نفساً إذا جـاء أجلها، وإنمـا الزيادة في العمر أن يرزق الله العبد ذرية صالحة يدعون له، فيلحقه دعاؤهم في قبره»[2]

[آخر تفسير سورة المنافقين، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة]



(١) أخرجه الترمذي عن الضحّاك عن ابن عباس، قال ابن كثير: ورواية الضحّاك عن ابن عباس فيها انقطاع.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤)﴾

هذه السورة هي آخر المسبحات، وقد تقدّم الكلام على تسبيح المخلوقات لبارئها ومالكها، ولهذا قال تعالى ﴿له الملك وله الحمد﴾ أي هو المتصرف في جميع الكائنات، المحمود على جميع ما يخلقه ويقدره. وقوله تعالى: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ أي مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع، وما لم يشأ لم يكن، وقوله تعالى: ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾، أي هو الخالق لكم على هذه الصفة، فلا بد من وجود مؤمن وكافر، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال، ولهذا قال تعالى: ﴿والله بما تعملون بصير﴾، ثم قال تعالى: ﴿خلق السماوات والأرض بالحق﴾ أي بالعدل والحكمة، ﴿وصوّركم فأحسن صوركم﴾ أي أحسن أشكالكم، كقوله تعالى: ﴿الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك﴾، وكقوله تعالى: ﴿وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وإليه المصير﴾ أي المرجع والمآل. ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السمائية والأرضية والنفسية فقال تعالى: ﴿يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦)﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأمم الماضين، وما حلّ بهم من العذاب والنكال، في مخالفة الرسل والتكذيب بالحق، فقال تعالى: ﴿ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل﴾ أي خبرهم وما كان من أمرهم ﴿فذاقوا وبال أمرهم﴾ أي وخيم تكذيبهم ورديء أفعالهم، وهو ما حل بهم في الدنيا من العقوبة والخزي، ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي في الدار الآخرة، ثم علل ذلك فقال: ﴿ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات﴾ أي بالحجج والدلائل والبراهين، ﴿فقالوا أبشر يهدوننا﴾ أي استبعدوا أن تكون الرسالة في البشر، وأن يكون هداهم على يدي بشر مثلهم، ﴿فكفروا وتولوا﴾ أي كذبوا بالحق ونكلوا عن العمل، ﴿واستغنى﴾ أي عنهم، ﴿والله غني حميد﴾.

زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار والمشركين والملحدين أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون ﴿قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم﴾[1] أي لتخبرن بجميع أعمالكم جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها ﴿وذلك على الله يسير﴾ أي بعثكم ومجازاتكم، ثم قال تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾ يعني القرآن ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية، وقوله تعالى: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾ وهو يوم القيامة، سمي بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون، في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، كما قال تعالى: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾، وقال تعالى: ﴿قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾، وقوله تعالى: ﴿ذلك يوم التغابن﴾ قال ابن عباس: هو اسم من أسماء يوم القيامة، وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار، وقال مقاتل بن حيان: لا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة، ويذهب بأولئك إلى النار.

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

(١) هذه هي الآية الثالثة التي أمر رسول الله ﷺ أن يقسم بربه على وقوع المعاد، فالأولى في يونس: ﴿قل إي وربي إنه لحق﴾ والثانية في سبأ: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم﴾، والثالثة هي هذه: ﴿زعم الذين كفروا﴾ الآية.

يقول تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله﴾ قال ابن عباس: بأمر الله يعني عن قدره ومشيئته، ﴿ومن يؤمن بالله يهدِ قلبه والله بكل شيء عليم﴾ أي ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب عوّضه عما فاته من الدنيا، هدى في قلبه ويقينا صادقاً، قال ابن عباس: يعني يهدِ قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وقال الأعمش عن علقمة ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾ قال: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلّم، وقال سعيد بن جبير: يعني يسترجع يقول: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾، وفي الحديث المتفق عليه: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»[1]، وقوله تعالى: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ أمر بطاعة الله ورسوله فيما شرع، وفعل ما به أمر، وترك ما عنه نهى وزجر، ثم قال تعالى: ﴿فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ أي إن نكلتم عن العمل فإنما عليه ما حمّل من البلاغ، وعليكم ما حمّلتم من السمع والطاعة، قال الزهري: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم، ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد: ﴿الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي وحدوا الإلٰهية له وأخلصوها لديه وتوكلوا عليه، كما قال تعالى: ﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد، أن منهم من هو عدوّ الزوج والوالد، بمعنى أنه يلتهي به عن العمل الصالح، كقوله تعالى: ﴿لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾، ولهذا قال تعالى ههنا ﴿فاحذروهم﴾ قال ابن زيد: يعني على دينكم، وقال مجاهد ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم﴾ قال: يحمل الرجل على قطيعة الرحم، أو معصية ربه، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه، وقال ابن أبي حاتم: عن ابن عباس، وساله رجُل عن هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾ قال: فهؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا رسول الله ﷺ، رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهمُّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

أجر عظيم﴾ . يقول تعالى: إنما الأموال والأولاد ﴿فتنة﴾ أي اختبار وابتلاء من الله تعالى لخلقه، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، وقوله تعالى: ﴿والله عنده﴾ أي يوم القيامة ﴿أجر عظيم﴾ كما قال تعالى: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ . روي أن رسول الله ﷺ كان يخطب، فجاء الحسن والحسين رضي الله عنهما عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما، فوضعهما بين يديه، ثم قال: « صدق الله ورسوله ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما »[١] . وقال رسول الله ﷺ: « الولد ثمرة القلوب ، وإنهم مجبنة مبخلة محزنة »[٢] .

وقوله تعالى : ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ أي جهدكم وطاقتكم كما ثبت في الصحيحين: « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » ، وهذه الآية ناسخة للتي في آل عمران وهي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾، قال: لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم، فأنزل الله تعالى هذه الآية تخفيفاً على المسلمين ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ فنسخت الآية الأولى، وقوله تعالى: ﴿واسمعوا وأطيعوا﴾ أي كونوا منقادين لما يأمركم الله به ورسوله ، ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة، وقوله تعالى: ﴿وأنفقوا خيراً لأنفسكم﴾ أي وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن الله إليكم، يكن خيراً لكم في الدنيا والآخرة ، وقوله تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ تقدم تفسيره في سورة الحشر ، وقوله تعالى: ﴿إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم﴾ أي مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، ومهما تصدقتم من شيء فعليه جزاؤه ، ونزّل ذلك منزلة القرض له، كما ثبت في الصحيحين أن الله تعالى يقول: « من يقرض غير ظلوم ولا عديم »[٣] ، ولهذا قال تعالى ﴿يضاعفه لكم﴾، كما قال تعالى: ﴿فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ ﴿ويغفر لكم﴾، أي ويكفر عنكم السيئات ، ﴿والله شكور﴾ أي يجزي على القليل بالكثير ، ﴿حليم﴾ أي يصفح ويغفر ويستر ، ويتجاوز عن الذنوب والزلات، ﴿عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم﴾[٤] تقدم تفسيره غير مرة .

[آخر تفسير سورة التغابن ، ولله الحمد والمنة]



(١) رواه أحمد وأهل السنن عن أبي بريدة .

(٢) أخرجه الحافظ البزار .

(٣) أخرجاه في الصحيحين .

(٤) في اللباب : أخرج ابن جرير : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم﴾ نزلت في عوف بن ملك الأشجعي كان ذا أهل وولد ، فكان إذا أراد الغزو بكوا إليه حتى يرق ويقيم .



(٦٥) سورة الطلاق مدنية
وآياتها اثنتا عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا (١)﴾

خوطب النبي ﷺ أولاً تشريفاً وتكريماً، ثم خاطب الأمة تبعاً فقال تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾ وعن أنس قال: طلّق رسول الله ﷺ حفصة فأتت أهلها فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾ فقيل له: راجعها، فإنها صوّامة قوامة، وهي من أزواجك ونسائك في الجنة »[1]. وروى البخاري أن عبد الله بن عمر طلق امرأة له وهي حائض، فذكر عمر لرسول الله ﷺ، فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال: « ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر بها الله عزَّ وجلَّ »[2]. وفي رواية لهم: « فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء ». وقال عبد الله في قوله تعالى: ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ قال: الطهر من غير جماع، وقال ابن عباس: لا يطلقها وهي حائض، ولا في طهر قد جامعها فيه، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة، وقال عكرمة: ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ العدة الطهر، والقرء الحيضة أن يطلقها حبلى مستبيناً حملها ولا يطلقها وقد طاف عليها ولا يدري حبلى هي أم لا ؟ ومن ههنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق، وقسموه إلى طلاق سُنّة، وطلاق بدعة، فطلاق السنة أن يطلقها طاهرة من غير جماع، أو حاملاً قد استبان حملها، والبدعي هو أن يطلقها في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه، ولا يدري أحملت أم لا ؛ وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة وهو طلاق الصغيرة والآيسة وغير المدخول بها، وتحرير الكلام مستقصى في كتب الفروع.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) كما قاله ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب ومجاهد وعكرمة وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وأحصوا العدة﴾ أي احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها لئلا تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج، ﴿واتقوا الله ربكم﴾ أي في ذلك، وقوله تعالى: ﴿لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن﴾ أي في مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه، فليس للرجل أن يخرجها ولا يجوز لها أيضاً الخروج لأنها متعلقة لحق الزوج أيضاً، وقوله تعالى: ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ أي لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة، والفاحشة المبينة تشمل الزنا[1]، وتشمل ما إذا نشزت المرأة أو بذت على أهل الرجل وآذتهم في الكلام والفعال[2]، وقوله تعالى: ﴿وتلك حدود الله﴾ أي شرائعه ومحارمه ﴿ومن يتعد حدود الله﴾ أي يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها ﴿فقد ظلم نفسه﴾ أي بفعل ذلك، وقوله تعالى: ﴿لا تدري لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾ أي لعل الزوج يندم على طلاقها ويخلق الله تعالى في قلبه رجعتها، قال الزهري عن فاطمة بنت قيس في قوله تعالى: ﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾ قالت: هي الرجعة[3]، ومن ههنا ذهب من السلف إلى أنه لا تجب السكنى للمبتوتة أي المقطوعة، وكذا المتوفى عنها زوجها، واعتمدوا أيضاً على حديث (فاطمة بنت قيس) حين طلقها زوجها (أبو عمرو بن حفص) آخر ثلاث تطليقات، وكان غائباً عنها باليمن، فأرسل إليها بذلك، فأرسل إليها وكيله بشعير يعني نفقة فتسخطته، فقال: والله ليس لك علينا نفقة، فأتت رسول الله ﷺ فقال: «ليس لكِ عليه نفقة»، ولمسلم: «ولا سكنى»، وأمرها أن تعتد في بيت أُم شريك، ثم قال: «تلك امرأة يغشاها أصحابي، اعتدي عند ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك[4] الحديث.

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾

يقول تعالى: فإذا بلغت المعتدات أجلهن، أي شارفن على انقضاء العدة وقاربن ذلك، ولكن لم تفرغ العدة بالكلية، فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها، وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده ﴿بمعروف﴾ أي محسناً إليها في صحبتها، وإما أن يعزم على مفارقتها ﴿بمعروف﴾ أي من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف، بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن، وقوله تعالى: ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾ أي على الرجعة إذا عزمتم عليها، كما روي عن عمران بن حصين أنه سئل عن الرجل يطلق المرأة، ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها، فقال: طلّقت لغير سنة، ورجعت لغير سنة، أشهد عل طلاقها وعلى رجعتها ولا تعد[5]،

---

(١) كما قاله ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب ومجاهد وعكرمة وغيرهم.

(٢) كما قاله أُبي بن كعب وابن عباس وعكرمة وغيرهم.

(٣) وكذا قال الشعبي وعطاء والضحّاك وقتادة ومقاتل بن حيان.

(٤) قصة طلاق فاطمة بنت قيس ذكرها الإمام أحمد والنسائي والطبراني وغيرهم. (٥) أخرجه أبو داود وابن ماجة.

وقال ابن جريج: كان عطاء يقول: ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾ قال: لا يجوز في نكاح ولا طلاق ولا رجاع إلا شاهدا عدل، كما قال الله عزّ وجلّ إلا أن يكون من عذر، وقوله تعالى: ﴿ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أي هذا الذي أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة، إنما يأتمر به من يؤمن بالله واليوم الآخر، ومن يخاف عقاب الله في الدار الآخرة، وقوله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ أي ومن يتق الله فيما أمره به، وترك ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجاً ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ أي من جهة لا تخطر بباله.

عن عبدالله ابن مسعود قال: إن أجمع آية في القرآن: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾، وإن أكبر آية في القرآن فرجاً: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾[١]. وفي المسند، عن عبدالله بن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب»[٢]. وقال ابن عباس: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ يقول: ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة، ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾، وقال الربيع بن خيثم: ﴿يجعل له مخرجاً﴾ أي من كل شيء ضاق على الناس، ﴿من حيث لا يحتسب﴾ أي من حيث لا يدري، وقال قتادة ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ أي من شبهات الأمور والكرب عند الموت، ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ من حيث يرجو ولا يأمل، وقال السدي: ﴿ومن يتق الله﴾ يطلق للسنة، ويراجع للسنة، وزعم أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له عوف بن مالك الأشجعي، كان له ابن وأن المشركين أسروه فكان فيهم، وكان أبوه يأتي رسول الله ﷺ فيشكو إليه مكان ابنه وحاله التي هو بها وحاجته، فكان رسول الله ﷺ يأمره بالصبر، ويقول له: «إن الله سيجعل لك فرجاً»، فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً أن انفلت ابنه من أيدي العدوّ، فمر بغنم من أغنام العدو فاستاقها، فجاء بها إلى أبيه وجاء معه بغنم قد أصابه من المغنم، فنزلت فيه هذه الآية: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[٣]. وروى الإمام أحمد، عن ثوبان قال، قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»[٤]. وعن عمران بن حصين قال، قال رسول الله ﷺ: «من انقطع الى الله كفاه الله كل مؤنة، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله إليها»[٥].

وقوله تعالى: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ روى الإمام أحمد، عن ابن عباس: أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً، فقال له رسول الله ﷺ: «يا غلام إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[٦] وقال الإمام أحمد، عن ابن مسعود، قال، قال رسول الله ﷺ: «من نزل به حاجة فأنزلها بالناس كان قمناً أن لا تسهل حاجته، ومن أنزلها بالله تعالى أتاه الله برزق عاجل أو بموت آجل»[٧]. وقوله تعالى:

---

(١) رواه ابن أبي حاتم. (٢) رواه أحمد في المسند. (٣) رواه ابن جرير. (٤) رواه أحمد والنسائي وابن ماجة.
(٥) رواه ابن أبي حاتم. (٦) رواه أحمد والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح. (٧) أخرجه الإمام أحمد.

﴿ إن الله بالغ أمره ﴾ أي منفذ قضاياه وأحكامه في خلقه بمـا يريده ويشاؤه ﴿ قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ كقوله تعالى: ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ .

وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾

يقول تعالى مبيناً لعدة الآيسة، وهي التي قـد انقطع عنها المحيض لكبرها، أنها ﴿ ثلاثة أشهر ﴾ عوضاً عن الثلاثة قروء في حق من تحيض، وكذا الصغار اللائي لم يبلغن سن الحيض، أن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر ، ولهذا قال تعالى: ﴿ واللائي لم يحضن ﴾ . وقوله تعالى: ﴿ إن ارتبتم ﴾ فيه قولان: **أحدهما** : وهو قول طائفة من السلف[1] أي إن رأين دماً وشككتم في كونه حيضاً أو استحاضة وارتبتم فيه، **والقول الثاني** : إن ارتبتم في حكم عدتهن ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر ، وهذا مروي عن سعيد عن جبير ، وهو اختيار ابن جرير وهو أظهر في المعنى لما روي عن أُبي بن كعب قال، قلت لرسول الله ﷺ : إن ناساً من أهل المدينة لمـا أنزلت هذه الآية في البقرة في عدة النساء قالوا: لقد بقي من عدة النساء عدد لم يذكرن في البقرة: الصغار والكبار اللائي قـد انقطع منهن الحيض، وذوات الحمل، قال، فأنزلت التي في النساء القصرى: ﴿ واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن ﴾[2] .وقوله تعالى: ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ يقول تعالى ومن كانت حاملاً فعدتها بوضعه ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفواق ناقة، في قول جمهور العلماء كما هو نص هذه الآية الكريمة، وكما وردت به السنّة النبوية، وقـد روي عن (علي) و (ابن عباس) رضي الله عنهم أنها تعتد بأبعد الأجلين من الوضع والأشهر ، عملاً بهذه الآية والتي في سورة البقرة، روى البخاري، عن أبي سلمة قال: جاء رجُل إلى ابن عباس – وأبو هريرة جالس – فقال: افتني في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة، فقال ابن عباس: آخر الأجلين ، قلت: أنا ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾، قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي – يعني أبا سلمة – فأرسل ابن عباس غلامه كريباً إلى أُم سلمة يسألها، فقالت: قُتِل زوج (سبيعة الأسلمية) وهي حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخُطبتْ فأنكحها رسول الله ﷺ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها »[3] .

وروى البخاري ومسلم: أن سبيعة كانت تحت (سعد بن خولة) وكان ممن شهد بدراً، فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلّت من نفاسها تجملت للخطّاب، فدخل عليها أبو السنّابل بن بعكك فقال لهـا : مالي أراك متجملة ؟ لعلك ترجّين النكاح ! إنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر ، قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك ، جمعت عليَّ ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول الله ﷺ

---

(١) كمجاهد والزهري وابن زيد . (٢) أخرجه ابن أبي حاتم ، ورواه ابن جرير بنحوه .

(٣) هكذا أورد البخاري هذا الحديث مختصراً ، وقد رواه هو ومسلم وأصحاب الكتب مطولاً من وجوه أُخر .

فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي وأمرني بالتزويج إن بدا لي. هذا لفظ مسلم، ورواه البخاري مختصراً، ثم قال البخاري بعد روايته الحديث الأول عند هذه الآية، وقال أبو سليمان بن حرب وأبو النعمان، حدثنا حماد بن زيد عن أيوب، عن محمد هو ابن سيرين قال: كنت في حلقة فيها عبدالرحمن ابن أبي ليلى، وكان أصحابه يعظمونه فذكر آخر الأجلين، فحدثت بحديث سبيعة بنت الحارث عن عبدالله ابن عتبة قال: فضمز لي بعض أصحابه، قال محمد: ففطنت له، فقلت له: إني لجريء أن أكذب على عبدالله، وهو في ناحية الكوفة قال، فاستحيا وقال: لكن عمه لم يقل ذلك، فلقيت أبا عطية مالك بن عامر، فسألته، فذهب يحدثني بحديث سبيعة، فقلت: هل سمعت عن عبدالله فيها شيئاً؟ فقال: كنا عند عبدالله فقال: أتجعلون عليها التغليظ ولا تجعلون عليها الرخصة؟ فنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى: ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾. وروى ابن جرير عن علقمة بن قيس أن عبدالله بن مسعود قال: من شاء لاعنته، ما نزلت ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها، قال: وإذا وضعت المتوفى عنها زوجها فقد حلت يريد بآية المتوفى عنها ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾[1]. وقال ابن أبي حاتم، عن مسروق قال: بلغ ابن مسعود أن علياً رضي الله عنه يقول آخر الأجلين، فقال: من شاء لاعنته إن التي في النساء القصرى نزلت بعد البقرة ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾ أي يسهل له أمره وييسره عليه، ويجعل له فرجاً قريباً ومخرجاً عاجلاً، ثم قال تعالى: ﴿ذلك أمر الله أنزله إليكم﴾ أي حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسول الله ﷺ، ﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾ أي يذهب عنه المحذور، ويجزل له الثواب على العمل اليسير.

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

يقول تعالى آمراً عباده، إذا طلق أحدهم المرأة أن يسكنها في منزل، حتى تنقضي عدتها فقال: ﴿أسكنوهن من حيث سكنتم﴾ أي عندكم ﴿من وجدكم﴾ قال ابن عباس: يعني سعتكم، وقال قتادة: إن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه، وقوله تعالى: ﴿ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن﴾ قال مقاتل بن حيان: يعني يضاجرها لتفتدي منه بمالها أو تخرج من مسكنه، وقال الثوري: يطلقها فإذا بقي يومان راجعها، وقوله تعالى: ﴿وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن﴾ قال كثير من العلماء: هذه في البائن إن كانت حاملاً أنفق عليها حتى تضع حملها، قالوا: بدليل أن الرجعية تجب نفقتها سواء كانت حاملاً أو حائلاً، وقال آخرون: بل السياق كله في

(١) رواه ابن جرير والنسائي. (٢) أخرجه ابن أبي حاتم، ورواه أبو داود وابن ماجة.

الرجعيات ، وإنمـا نص على الانفاق على الحامل وإن كانت رجعية ، لأن الحمل تطول مدته غالباً، فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق إلى الوضع ، لئلا يتوهم أنه إنمـا تجب النفقة بمقدار مدة العدة، وقوله تعالى: ﴿ فـإن أرضعن لكم﴾ أي إذا وضعن حملهن وهن طوالق فقد بنَّ بانقضاء عدتهن، فإن أرضعت استحقت أجر مثلها، ولهذا قال تعالى: ﴿فإن أرضعن لكم فآتوهن أُجورهن﴾، وقوله تعالى: ﴿ وائتمروا بينكم بمعروف﴾ أي ولتكن أُموركم فيا بينكم بالمعروف، من غير إضرار ولا مضارة، كما قال تعالى: ﴿ لا تضارّ والدة بولدها ولا مولود له بولده﴾، وقوله تعالى: ﴿ وإن تعاسرتم فسترضع له أُخرى﴾ أي وإن اختلف الرجل والمرأة، فطلبت المرأة في أجرة الرضاع كثيراً ولم يجبها الرجل إلى ذلك، أو بذل الرجل قليلاً ولم توافقه عليه، فليسترضع له غيرها، فلو رضيت الأم بمـا استؤجرت به الأجنبية فهي أحق بولدها، وقوله تعالى: ﴿ لينفق ذو سعة من سعته﴾ أي لينفق على المولود والده أو وليه بحسب قدرته، ﴿ ومن قدر عليه رزقه فلينفق ممـا آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾، كقوله تعالى: ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾، روى ابن جرير، عن أبي سنان قال: سأل عمر بن الخطاب عـن أبي عبيدة، فقيل: إنه يلبس الغليظ من الثياب، ويأكل أخشن الطعام، فبعث إليه بألف دينار، وقال للرسول: انظر ما يصنع بها إذا هو أخذها ؟ فما لبث أن لبس اللين من الثياب، وأكل أطيب الطعام فجاءه الرسول فأخبره، فقال رحمه الله تعالى: تأول هذه الآية ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله﴾، وقوله تعالى: ﴿ سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ وعد منه تعالى، ووعده حق لا يخلفه، وهذه كقوله تعالى: ﴿ فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا﴾، وقد روى الإمام أحمد، عن أبي هريرة قال: دخل رجل على أهله، فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية ، فلما رأت امرأته قامت إلى الرحى فوضعتها وإلى التنور فسجرته، ثم قالت: اللهم ارزقنا، فنظرت، فإذا الجفنة قد امتلأت، قال، وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئا، قال، فرجع الزوج فقال: أصبتم بعدي شيئاً ؟ قالت امرأته: نعم من ربنا، فأمّ إلى الرحى فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «أما إنه لو لم ترفعها لم تزل تدور إلى يوم القيامة»[1] .

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾

يقول تعالى متوعداً لمن خالف أمره، وكذّب رسله وسلك غير ما شرعه، ومخبراً عما حل بالأمم السالفة بسبب

(١) أخرجه الإمام أحمد .

ذلك فقال تعالى: ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله ﴾ أي تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله، ﴿ فحاسبناها حساباً شديداً وعذَّبناها عذاباً نكراً ﴾ أي منكراً فظيعاً، ﴿ فذاقت وبال أمرها ﴾ أي غب مخالفتها وندموا حيث لا ينفعهم الندم، ﴿ وكان عاقبة أمرها خسراً * أعد الله لهم عذاباً شديداً ﴾ أي في الدار الآخرة مع ما عجّل لهم من العذاب في الدنيا، ثم قال تعالى بعد ما قص من خبر هؤلاء: ﴿ فاتقوا الله يا أولي الألباب ﴾ أي الأفهام المستقيمة لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولي الألباب، ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي صدقوا بالله ورسله ﴿ قد أنزل الله إليكم ذكراً ﴾ يعني القرآن، كقوله تعالى: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾، وقوله تعالى: ﴿ رسولاً يتلوا عليكم آيات الله مبينات ﴾، قال بعضهم: ﴿ رسولاً ﴾ بدل اشتمال؛ لأن الرسول هو الذي بلغ الذكر، وقال ابن جرير: الصواب أن الرسول ترجمة عن الذكر يعني تفسيراً له، ولهذا قال تعالى: ﴿ رسولاً يتلوا عليكم آيات الله مبينات ﴾ أي في حال كونها بينة واضحة جلية، ﴿ ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ﴾، كقوله تعالى: ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾، وقال تعالى: ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾، أي من ظلمات الكفر والجهل، إلى نور الإيمان والعلم، وقد سمى الله تعالى الوحي الذي أنزله ﴿ نوراً ﴾ لما يحصل به من الهدى، كما سماه ﴿ روحاً ﴾ لما يحصل به من حياة القلوب فقال تعالى: ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً ﴾ قد تقدم تفسير مثل هذا ولله الحمد والمنة.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته التامة وسلطانه العظيم، ليكون ذلك باعثاً على تعظيم ما شرع من الدين القويم: ﴿ الله الذي خلق سبع سماوات ﴾، كقوله تعالى: ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً ﴾؟، وقوله تعالى: ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ أي سبعاً أيضاً، كما ثبت في الصحيحين: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوّقه من سبع أرضين». وفي صحيح البخاري: «خسف به إلى سبع أرضين». وقد تقدم في سورة الحديد ذكر الأرضين السبع وبعد ما بينهن وكثافة كل واحدة منهن خمسمائة عام، وهكذا قال ابن مسعود وغيره، وكذا في الحديث الآخر: «ما السماوات السبع وما فيهن وما بينهن والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة»، وقال ابن جرير، عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ﴾ قال: لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم، وكفركم تكذيبكم بها»[1]

[آخر تفسير سورة الطلاق، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) رواه ابن جرير عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾

أُختلف في سبب نزول صدر هذه السورة، فقيل: نزلت في شأن (مارية) وكان رسول الله ﷺ قد حرمها فنزل قوله تعالى: ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ الآية، روى النسائي، عن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة، حتى حرمها، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ إلى آخر الآية[1]، وروى ابن جرير، عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم في بيت بعض نسائه، فقالت: أي رسول الله في بيتي وعلى فراشي ؟ فجعلها عليه حراماً، فقالت: أي رسول الله كيف يحرم عليك الحلال؟ فحلف لها بالله لا يصيبها، فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ ؟! وعن مسروق قال: آلى رسول الله ﷺ وحرم، فعوتب في التحريم، وأُمر بالكفارة باليمين[3]، وعن سعيد بن جبير: أن ابن عباس

---

(١) أخرجه النسائي في سننه .

(٢) رواه ابن جرير .

(٣) رواه ابن جرير أيضاً .

كان يقول في الحرام يمين تكفرها، وقال ابن عباس: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ يعني أن رسول الله ﷺ حرم جاريته، فقال الله تعالى: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ إلى قوله ﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ فكفّر يمينه فصيّر الحرام يميناً[1]، ومن ههنا قال بعض الفقهاء بوجوب الكفارة على من حرّم جاريته، أو زوجته، أو طعاماً أو شراباً، أو شيئاً من المباحات وهو مذهب الإمام أحمد، وذهب الشافعي إلى أنه لا تجب الكفارة فيما عدا الزوجة والجارية إذا حرم عينيهما، فأما إن نوى بالتحريم طلاق الزوجة أو عتق الأَمَة نفذ فيهما، والآية نزلت في تحريمه العسل كما روى البخاري عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يشرب عسلاً عند (زينب بنت جحش) ويمكث عندها، فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير؟ إني أجد منك ريح مغافير، قال: «لا ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعود له، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً» ﴿تبتغي مرضاة أزواجك﴾[2].

وقال البخاري في «كتاب الطلاق» عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلوى والعسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن، فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس، فغرت، فسألت عن ذلك فقيل لي أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل، فسقت النبي ﷺ منه شربة، فقلت: أما والله لنحتالنَّ له، فقلت لسودة بنت زمعة: إنه سيدنو منك، فإذا دنا منك فقولي: أكلت مغافير، فإنه سيقول لا، فقولي له: ما هذه الريح التي أجد؟ سيقول لك سقتني حفصة شربة عسل، فقولي: جرست نحله العرفط وسأقول ذلك، وقولي له أنت يا صفية ذلك، قالت، تقول سودة: فوالله ما هو إلا أن قام على الباب، فأردت أن أناديه بما أمرتني فرقاً منك، فلما دنا منها، قالت له سودة: يا رسول الله أكلت مغافير؟ قال: «لا»، قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: «سقتني حفصة شربة عسل»، قالت: جرست نحله العرفط، فلما دار إليّ، قلت نحو ذلك، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت له: يا رسول الله ألا أسقيك منه؟ قال: «لا حاجة لي فيه»، قالت: تقول سودة والله لقد حرمناه، قلت لها: اسكتي. هذا لفظ البخاري ولمسلم، قالت: وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح، يعني الريح الخبيثة، ولهذا قلن له أكلت مغافير لأن ريحها فيه شيء، فلما قال: «بل شربت عسلاً» قلن: جرست نحله العرفط، أي رعت نحله شجر العرفط الذي صمغه المغافير، فلهذا ظهر ريحه في العسل الذي شربته، قال الجوهري: جرست النحل العرفط إذا أكلته، ومنه قيل للنحل جوارس، وفي رواية عن عائشة أن (زينب بنت جحش) هي التي سقته العسل، وأن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه فالله أعلم، وقد يقال إنهما واقعتان، ولا بعد في ذلك إلا أن كونهما سبباً لنزول هذه الآية فيه نظر، والله أعلم.

ومما يدل على أن عائشة وحفصة رضي الله عنهما هما المتظاهرتان الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد

(١) أخرجه ابن جرير، ورواه البخاري عن ابن عباس بنحوه.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري.

صغت قلوبكما﴾ حتى حج عمر وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر، وعدلت معه بالإداوة، فتبرز ثم أتاني، فسكبت على يديه فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين: من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾؟ فقال عمر: واعجباً لك يا ابن عباس، قال الزهري: كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه، قال: هي (عائشة وحفصة). قال: ثم أخذ يسوق الحديث، قال: كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، قال: وكان منزلي في دار أمية بن زيد بالعوالي، فغضبت يوماً على امرأتي، فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، قال: فانطلقت فدخلت على حفصة، فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، قلت: وتهجره إحداكنّ اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم، قلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت، لا تراجعي رسول الله ﷺ، ولا تسأليه شيئاً، وسليني من مالي ما بدا لك، ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم (أي أجمل) وأحب إلى رسول الله ﷺ منك - يريد عائشة -، قال: وكان لي جار من الأنصار، وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ، ينزل يوماً وأنزل يوماً، فيأتيني بخبر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك، قال: وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا، فنزل صاحبي يوماً، ثم أتى عشاء، فضرب بابي، ثم ناداني، فخرجت إليه، فقال: حدث أمر عظيم، فقلت: وما ذاك، أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك وأطول، طلق رسول الله ﷺ نساءه، فقلت: قد خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظن هذا كائناً، حتى إذا صليت الصبح شددت عليَّ ثيابي، ثم نزلت، فدخلت على حفصة وهي تبكي، فقلت: أطلقكن رسول الله ﷺ؟ فقالت: لا أدري، هو هذا معتزل في هذه المشربة، فأتيت غلاماً له أسود، فقلت: استأذن لعمر، فدخل الغلام ثم خرج إلي فقال: ذكرتك له فصمت، فانطلقت حتى أتيت المنبر، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم، فجلست عنده قليلاً، ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام، فقلت: استأذن لعمر فدخل ثم خرج إلي، فقال: فقد ذكرتك له فصمت. فخرجت فجلست إلى المنبر، ثم غلبني ما أجد، فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إلي فقال: قد ذكرتك له فصمت فوليت مدبراً، فإذا الغلام يدعوني، فقال: ادخل قد أذن لك، فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ، فإذا هو متكئ على رمال حصير وقد أثر في جنبه فقلت: أطلقت يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إليّ، وقال: «لا»، فقلت: الله أكبر، ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فغضبت على امرأتي يوماً، فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، فقلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسرت، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت؟ فتبسم رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله قد دخلت على حفصة، فقلت: لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم أو أحب إلى رسول الله ﷺ منك، فتبسم أخرى، فقلت: أستأنس يا رسول الله؟ قال: «نعم»، فجلست فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر إلا أهب مقامه، فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك، فقد وسع على فارس والروم، وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً وقال:

«أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا»، فقلت: استغفر لي يا رسول الله، وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن، حتى عاتبه الله عزّ وجلّ.

وروى البخاري، عن أنس قال، قال عمر: اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه فقلت لهن: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيرًا منكن﴾ فنزلت هذه الآية، وقد تقدم أنه وافق القرآن في أماكن منها في نزول الحجاب ومنها في أسارى بدر، ومنها قوله: لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله تعالى: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾[١]. وقد تبين مما أوردناه تفسير هذه الآيات الكريمات، ومعنى قوله: ﴿مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات﴾ ظاهر، وقوله تعالى: ﴿سائحات﴾ أي صائمات قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد، وتقدم فيه حديث مرفوع، ولفظه «سياحة هذه الأمة الصيام»، وقال زيد بن أسلم ﴿سائحات﴾ أي مهاجرات، وتلا ﴿السائحون﴾ أي المهاجرون، والقول الأول أولى، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿ثيبات وأبكاراً﴾ أي منهن ثيبات، ومنهن أبكاراً، ليكون ذلك أشهى إلى النفس، فإن التنوع يبسط النفس، ولهذا قال: ﴿ثيبات وأبكاراً﴾ قال: وعد الله نبيّه ﷺ في هذه الآية أن يزوجه، فالثيب آسية امرأة فرعون، وبالأبكار مريم بنت عمران[٢]. وذكر الحافظ ابن عساكر، عن ابن عمر قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فمرت خديجة فقال: إن الله يقرؤها السلام ويبشرها ببيت في الجنة من قصب، بعيد من اللهب لا نصب فيه ولا صخب، من لؤلؤة جوفاء بين بيت مريم بنت عمران وبيت آسية بنت مزاحم»[٣].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾

قال علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾ يقول أدبوهم وعلموهم، وقال ابن عباس: اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصي الله وأمروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار، وقال مجاهد: اتقوا الله وأوصوا أهليكم بتقوى الله، وقال قتادة: تأمرهم بطاعة الله وتنهاهم عن معصية الله، وأن تقوم عليهم بأمر الله وتساعدهم عليه، فإذا رأيت لله معصية قذعتهم عنها وزجرتهم عنها، وقال الضحاك: حق على المسلم أن يعلم أهله من قرابته

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٢) رواه الحافظ الطبراني في المعجم الكبير.

(٣) أخرجه ابن عساكر في ترجمة مريم عليها السلام.

وإمائه وعبيده ما فرض الله عليهم وما نهاهم الله عنه، وفي معنى هذه الآية الحديث الشريف: «مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها»[1]، قال الفقهاء: وهكذا في الصوم ليكون ذلك تمريناً له على العبادة لكي يبلغ، وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر. وقوله تعالى: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ وقودها: أي حطبها الذي يلقى فيها جثث بني آدم، ﴿والحجارة﴾ قيل: المراد بها الأصنام التي تعبد لقوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾، وقال ابن مسعود ومجاهد: هي حجارة من كبريت، أنتن من الجيفة، وقوله تعالى: ﴿عليها ملائكة غلاظ شداد﴾ أي طباعهم غليظة قد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ﴿شداد﴾ أي تركيبهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج. كما روى ابن حاتم. عن عكرمة أنه قال: إذا وصل أول أهل النار إلى النار، وجدوا على الباب أربعمائة ألف من خزنة جهنم سود وجوههم، كالحة أنيابهم، قد نزع الله من قلوبهم الرحمة، ليس في قلب واحد منهم مثقال ذرة من الرحمة. لو طير الطير من منكب أحدهم لطار شهرين قبل أن يبلغ منكبه الآخر، ثم يجدون على الباب التسعة عشر، عرض صدر أحدهم سبعون خريفاً، ثم يهوون من باب إلى باب خمسمائة سنة، ثم يجدون على كل باب منها مثل ما وجدوا على الباب الأول حتى ينتهوا إلى آخرها[2]، وقوله: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ أي مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه، وهؤلاء هم الزبانية.

وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ أي يقال للكفرة يوم القيامة لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم، ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً﴾ أي توبة صادقة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات، وتلم شعث التائب وتجمعه وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات، قال عمر (التوبة النصوح) أن يتوب من الذنب، ثم لا يعود فيه أو لا يريد أن يعود فيه، وقال أبو الأحوص: سئل عمر عن التوبة النصوح، فقال: أن يتوب الرجل من العمل السيء ثم لا يعود إليه أبداً، وقال ابن مسعود ﴿توبة نصوحاً﴾ قال: يتوب ثم لا يعود، ولهذا قال العلماء: التوبة النصوح هو أن يقلع عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل، ثم إن كان الحق لآدمي رده إليه بطريقه، وفي الحديث الصحيح: «الندم توبة»[3]، وعن أُبيّ بن كعب قال: قيل لنا أشياء تكون في آخر هذه الأمّة عند اقتراب الساعة: منها نكاح الرجل امرأته أو أمته في دبرها، وذلك مما حرم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله، ومنها نكاح الرجل الرجل، وذلك مما حرّم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله، ومنها نكاح المرأة المرأة، وذلك مما حرم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله، وليس لهؤلاء صلاة ما أقاموا على هذا حتى يتوبوا إلى الله توبة نصوحاً، قال زر: فقلت لأبي بن كعب: فما التوبة النصوح؟ فقال: سألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «هو الندم على الذنب حين يفرط منك فتستغفر الله بندامتك منه عند الحاضر ثم لا تعود إليه أبداً»[4]. وقال

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة موقوفاً.

(٣) أخرجه أحمد وابن ماجة عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم.

الحسن: «التوبة النصوح أن تبغض الذنب كما أحببته، وتستغفر منه إذا ذكرته» فأما إذا جزم بالتوبة وصمم عليها فإنها تجب ما قبلها من الخطيئات، كما ثبت في الصحيح: «الإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها». وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرار على ذلك إلى الممات - كما تقدم في الحديث وفي الأثر - ثم لا يعود فيه أبداً، أو يكفي العزم على أن لا يعود في تكفير الماضي بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك لا يكون ذلك ضاراً في تكفير ما تقدم لعموم قوله عليه السلام: «التوبة تجب ما قبلها»؟ وللأول أن يحتج بما ثبت في الصحيح أيضاً: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر» فإذا كان هذا في الإسلام الذي هو أقوى من التوبة، فالتوبة بطريق الأولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿عسى ربكم أن يكفِّر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ وعسى من الله موجبة ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه﴾ أي ولا يخزيهم معه يعني يوم القيامة ﴿نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم﴾، كما تقدّم في سورة الحديد: ﴿يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير﴾ قال مجاهد والضحّاك: هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طفئ. روى الإمام أحمد عن يحيى ابن غسان عن رجُل من بني كنانة قال: صلَّيت خلف رسول الله ﷺ عام الفتح فسمعته يقول: «اللهم لا تخزني يوم القيامة»[1]. وقال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يؤذن له في السجود يوم القيامة، وأول من يؤذن له برفع رأسه، فأنظر بين يدي فأعرف أُمّتي من بين الأُمم، وأنظر عن يميني فأعرف أُمّتي من بين الأمم، وأنظر عن شمالي فأعرف أُمّتي من بين الأمم»، فقال رجل: يا رسول الله: وكيف تعرف أُمّتك من بين الأُمم؟ قال: «غر محجلون من آثار الطهور، ولا يكون أحد من الأمم كذلك غيرهم، وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم»[2]

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بجهاد الكفّار والمنافقين هؤلاء بالسلاح والقتال، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم ﴿وأغلظ عليهم﴾ أي في الدنيا، ﴿ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ أي في الآخرة، ثم قال تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا﴾ أي في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم أن ذلك لا يجدي عنهم شيئاً، إن لم يكن الإيمان حاصلاً في قلوبهم، ثم ذكر المثل فقال: ﴿امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين﴾ أي نبيين رسولين عندهما في صحبتهما ليلاً ونهاراً، يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشر والاختلاط،

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) رواه محمد بن نصر المروزي عن أبي ذر وأبي الدرداء.

﴿ فخانتاهما﴾ أي في الإيمـان لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدقاهما في الرسالة، فلم يجد ذلك كله شيئاً ولا دفع عنهما محذوراً ، ولهذا قال تعالى ﴿ فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً﴾ أي لكفرهما، ﴿ وقيل﴾ أي للمرأتين ﴿ ادخلا النار مع الداخلين﴾، وليس المراد بقوله ﴿ فخانتاهما﴾ في فاحشة بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء، كما قدمنا في سورة النور، قال ابن عباس ﴿ فخانتاهما﴾ قال: ما زنتا، أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه، وقال الضحّاك: عن ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط إنما كانت خيانتهما في الدين[1] .

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين، أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذاكانوا محتاجين إليهم ، كما قال تعالى: ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ قال قتادة: كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم، فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها، ليعلموا أن الله تعالى حكم عدل لا يؤاخـذ أحـداً إلا بذنبه ، وروى ابن جرير، عن سلمان قال: كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة ، فقولها : ﴿ رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾ قال العلماء : اختارت الجار قبل الدار، ﴿ونجني من فرعون وعمله﴾ أي خلصني منه فإني أبرأ إليك من عمله ﴿ ونجني من القوم الظالمين﴾ وهذه المرأة هي (آسية بنت مزاحم) رضي الله عنها، عذَّبها فرعون فشدَّ يديها ورجليها بالأوتاد وهي صابرة، فرأت بيتها في الجنة فضحكت حين رأته، فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها ! إنا نعذّبها وهي تضحك، فقبض الله روحها في الجنة رضي الله عنها . وقوله تعالى : ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها﴾ أي حفظته وصانته ، والإحصان : هو العفـاف والحرية ﴿ فنفخنا فيه من روحنا﴾ أي بواسطة الملك وهو (جبريل) فإن الله بعثه إليها فتمثل لهـا في صورة بشر سوي، وأمره الله تعالى أن ينفخ فيه بفيهِ في جيب درعها، فنزلت **النفخة فولجت في فرجها**، فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام، ولهـذا قال تعالى : ﴿ فنفخنا فيه من روحنا وصدَّقت بكلمات ربها وكتبه﴾ أي بقدره وشرعه، ﴿ وكانت من القانتين﴾ . وفي الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال: « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام »[2] .

[آخر تفسير سورة التحريم ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) وهكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم وهو الصحيح كما قـال ابن عباس : خيانتهما أنهما كانتـا عـلى غير دينهما .

(٢) أخرجه الشيخان .



(٦٧) سورة الملك مكية
وآياتها ثلاثون

ما ورد في فضلها : روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « إن سورة في القرآن ثلاثين آية شفعت لصاحبها حتى غفر له : تبارك الذي بيده الملك »[١] . وعن أنَس قال، قال رسول الله ﷺ : « سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة : تبارك الذي بيده الملك »[٢]. وعن ابن عباس قال: ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خباءه على قبر ، وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ضربت خبائي على قبر ، وأنا لا أحسب أنه قبر ، فإذا إنسان يقرأ سورة الملك: تبارك، حتى ختمها، فقال رسول الله ﷺ : « هي المانعة، هي المنجية تنجيه من عذاب القبر »[٣]. وعن جابر أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: « ﴿ الٓم تنزيل﴾ ، و ﴿ تبارك الذي بيده المُلْك﴾ »[٤]. وقال ليث، عن طاووس: يفضلان كل سورة في القرآن بسبعين حسنة، وعن ابن عباس أنه قال لرَجُل: ألا أتحفك بحديث تفرح به ؟ قال: بلى، قال: اقرأ ﴿ تبارك الذي بيده المُلكُ﴾ وعلّمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك، فإنها المنجية ، والمجادلة تجادل أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها ، وتطالب له أن ينجيه من عذاب النار، وينجى بها صاحبها من عذاب القبر ، قال رسول الله ﷺ : « لوددت أنها في قلب كل إنسان من أُمّتي »[٥] .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ

(١) أخرجه أحمد ورواه أهل السنن الأربعة وقال الترمذي : حديث حسن .

(٢) رواه الطبراني والحافظ المقدسي .

(٣) رواه الترمذي ، وقال : غريب من هذا الوجه .

(٤) أخرجه الترمذي .

(٥) أخرجه عبد بن حميد في مسنده .

تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾

يُمَجِّد تعالى نفسه الكريمة، ويخبر أنه ﴿ بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ أي هو المتصرف في جميع المخلوقات، بما يشاء، لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل، لقهره وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ ومعنى الآية أنه أوجد الخلائق من العدم ليبلوهم، أي يختبرهم أيهم أحسن عملاً. عن قتادة قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «إن الله أذل بني آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء»[1]، وقوله تعالى: ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ أي خير عملاً كما قال محمد بن عجلان، ولم يقل أكثر عملا، ثم قال تعالى: ﴿ وهو العزيز الغفور ﴾ أي هو العزيز العظيم، المنيع الجناب، وهو غفور لمن تاب إليه وأناب، بعد ما عصاه وخالف أمره، فهو مع ذلك يرحم ويصفح ويتجاوز، ثم قال تعالى: ﴿ الذي خلق سبع سماوات طباقاً ﴾ أي طبقة بعد طبقة، وقوله تعالى: ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾ أي ليس فيه اختلاف ولا تنافر، ولا نقص ولا عيب ولا خلل، ولهذا قال تعالى: ﴿ فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾ أي انظر إلى السماء فتأملها، هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً؟ قال ابن عباس ومجاهد ﴿ هل ترى من فطور ﴾ أي شقوق، وقال السدي: أي من خروق، وقال قتادة: أي هل ترى خللاً يا ابن آدم؟ وقوله تعالى: ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ﴾ مرتين، ﴿ ينقلب إليك البصر خاسئاً ﴾ قال ابن عباس: ذليلاً، وقال مجاهد: صاغراً، ﴿ وهو حسير ﴾ يعني وهو كليل، وقال مجاهد: الحسير المنقطع من الإعياء، ومعنى الآية: إنك لو كررت البصر مهما كررت، لانقلب إليك أي لرجع إليك البصر ﴿ خاسئاً ﴾ عن أن يرى عيباً أو خللاً، ﴿ وهو حسير ﴾ أي كليل قدانقطع من الإعياء، من كثرة التكرر ولا يرى نقصاً، ولما نفى عنها في خلقها النقص، بيّن كمالها وزينتها فقال: ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ وهي الكواكب التي وضعت فيها من السيارات والثوابت، وقوله تعالى: ﴿ وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ عاد الضمير في قوله ﴿ وجعلناها ﴾ على جنس المصابيح لا على عينها، لأنه لا يرمى بالكواكب التي في السماء، بل بشهب من دونها، وقد تكون مستمدة منها، والله أعلم. ﴿ وأعتدنا لهم عذاب السعير ﴾ أي جعلنا للشياطين هذا الخزي في الدنيا، وأعتدنا لهم عذاب السعير في الأخرى كما قال تعالى: ﴿ إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ قال قتادة: إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها الله زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به[2].

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا

(١) رواه ابن أبي حاتم.
(٢) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾

يقول تعالى ﴿ وأعتدنا للذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴾ أي بئس المآل والمنقلب، ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً ﴾ يعني الصياح، ﴿ وهي تفور ﴾ قال الثوري: تغلي بهم كما يغلي الحَبُّ القليل في الماء الكثير، وقوله تعالى: ﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾ أي تكاد ينفصل بعضها من بعض، من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم، ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴾ . يذكر تعالى عدله في خلقه، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾، وقال تعالى: ﴿ وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾، وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة، فقالوا: ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾، أي لو كانت لنا عقول ننتفع بها لما كنا على ما كنا عليه، من الكفر بالله والاغترار به، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم، قال الله تعالى: ﴿ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ . وفي الحديث: « لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم »[1]، وفي حديث آخر: « لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة » .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾

يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه، فينكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات، حيث لا يراه أحد إلا الله تعالى، بأنه له ﴿ مغفرة وأجر كبير ﴾ أي تكفّر عنه ذنوبه، ويجازى بالثواب الجزيل، كما ثبت في الصحيحين: « سبعة يظلهم الله تعالى في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله » فذكر منهم رجلاً دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجلاً تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ثم قال تعالى منبهاً على أنه مطلع على الضمائر والسرائر ﴿ وأسروا قولكم أو أجهروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي بما يخطر في القلوب ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ أي ألا يعلم الخالق ؟ وقيل معناه: ألا يعلم الله مخلوقه ؟ والأول أولى لقوله: ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾ ثم ذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض، وتذليله إياها لهم، بأن جعلها قارة ساكنة لا تميد ولا تضطرب، بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهيأ فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار، فقال تعالى: ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها ﴾ أي فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا

(١) رواه الإمام أحمد من حديث أبي البختر الطائي .

في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات، واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئاً إلا أن ييسره الله لكم، ولهذا قال تعالى: ﴿وكلوا من رزقه﴾ فالسعي في السبب لا ينافي التوكل، كما قال رسول الله: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[1] فأثبت لها رواحاً وغدواً لطلب الرزق مع توكلها على الله عزّ وجلّ، وهو المسخر المسير المسبب ﴿وإليه النشور﴾ أي المرجع يوم القيامة، قال ابن عباس ومجاهد: مناكبها: أطرافها وفجاجها ونواحيها.

ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾

وهذا أيضاً من لطفه ورحمته بخلقه، أنه قادر على تعذيبهم بسبب كفر بعضهم، وهو مع هذا يحلم ويصفح، ويؤجل ولا يعجل، كما قال تعالى: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ الآية، وقال ههنا: ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾ أي تذهب وتجيء وتضطرب، ﴿أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً﴾ أي ريحاً فيها حصباء تدمغكم كما قال تعالى: ﴿أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً﴾، وهكذا توعدهم ههنا بقوله: ﴿فستعلمون كيف نذير﴾ أي كيف يكون إنذاري، وعاقبة من تخلف عنه وكذب به، ثم قال تعالى: ﴿ولقد كذب الذين من قبلهم﴾ أي من الأمم السالفة والقرون الخالية، ﴿فكيف كان نكير﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم؟ أي عظيماً شديداً أليماً، ثم قال تعالى: ﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن﴾ أي تارة يصففن أجنحتهن في الهواء، وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً، ﴿ما يمسكهن﴾ أي في الجو ﴿إلا الرحمن﴾ أي بما سخر لهن من الهواء من رحمته ولطفه، ﴿إنه بكل شيء بصير﴾ أي بما يصلح كل شيء من مخلوقاته، وهذه كقوله تعالى: ﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآية لقوم يؤمنون﴾.

أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾

---

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة عن عمر بن الخطاب مرفوعاً.

يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا معه غيره يبتغون عندهم نصراً ورزقاً منكراً عليهم: ﴿ أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ﴾ ؟ أي ليس لكم من دونه من ولي ولا واق، ولا ناصر لكم غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿ إن الكافرون إلا في غرور ﴾ . ثم قال تعالى: ﴿ أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ﴾ ؟ أي من هذا الذي إذا قطع الله عنكم رزقه يرزقكم بعده ؟ أي لا أحد يعطي ويمنع، ويخلق ويرزق إلا الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿ بل لجوا ﴾ أي استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم، ﴿ في عتو ﴾ أي في معاندة واستكبار ﴿ ونفور ﴾ على إدبارهم عن الحق، لا يسمعون له ولا يتبعونه، ثم قال تعالى: ﴿ أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم ﴾ ؟ وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي ﴿ مكباً على وجهه ﴾ أي يمشي منحنياً لا مستوياً ﴿ على وجهه ﴾ أي لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب، بل تائه حائر ضال، أهذا أهدى ﴿ أمن يمشي سوياً ﴾ أي منتصب القامة ﴿ على صراط مستقيم ﴾ ؟ أي على طريق واضح بيّن، هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة، فالمؤمن يحشر يمشي سوياً على صراط مستقيم، مفض به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ . عن أنس ابن مالك قال، قيل: يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال: « أليس الذي أمشاهم على أرجلهم قادراً على أن يمشيهم على وجوههم »[1] ؟

وقوله تعالى : ﴿ قل هو الذي أنشأكم ﴾ أي ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ أي العقول والإدراك، ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أي قلّما تستعملون هذه القوى، التي أنعم الله بها عليكم في طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره . ﴿ قل هو الذي ذرأكم في الأرض ﴾ أي بثكم ونشركم في أقطار الأرض، مع اختلاف ألسنتكم ولغاتكم وألوانكم، ﴿ وإليه تحشرون ﴾ أي تجمعون بعد هذا التفرق والشتات، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم، ثم قال تعالى مخبراً عن الكفار، المنكرين للمعاد، المستبعدين وقوعه ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ ؟ أي متى يقع هذا الذي تخبرنا عنه، ﴿ قل إنما العلم عند الله ﴾ أي لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله عزّ وجلّ، لكنه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه ﴿ وإنما أنا نذير مبين ﴾ أي وإنما عليَّ البلاغ وقد أديته إليكم، قال الله تعالى: ﴿ فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ﴾ أي لما قامت القيامة وشاهدها الكفّار، ورأوا أن الأمر كان قريباً، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك، وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب، ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾، ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ ﴿ هذا الذي كنتم به تدّعون ﴾ أي تستعجلون .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

(١) الحديث أخرجه أحمد وأصله في الصحيحين عن أنس بن مالك .

يقول تعالى: ﴿ قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه ﴿ أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم﴾ أي خلصوا أنفسكم، فإنه لا منقذلكم من الله إلا التوبة والإنابة، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنـا من العذاب والنكال، فسواء عذبنا الله أو رحمنا، فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم ، ثم قال تعالى: ﴿ قل هو الرحمن آمنا بـه وعليه توكلنا﴾ أي آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم، وعليه توكلنا في جميع أمورنا ، كما قال تعالى: ﴿ فاعبده وتوكل عليه﴾ ، ولهـذا قال تعالى: ﴿ فستعلمون من هو في ضلال مبين﴾ أي منا ومنكم، ولمن تكون العـاقبة في الدنيا والآخرة ؟ ثم قال تعالى إظهاراً للرحمة في خلقه ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً﴾ أي ذاهباً في الأرض إلى أسفل ، فلا ينال بالفؤوس الحداد ولا السواعد الشداد، والغائر عكس النابع ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فمن يأتيكم بمـاء معين﴾ أي نابع سائح جار على وجه الأرض، أي لا يقـدر على ذلك إلا الله عزَّ وجلَّ ، فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه، وأجراها في سائر أقطار الأرض، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة ، فلله الحمد والمنة

[آخر تفسير سورة المُلك]





(٦٨) سورة القلم مكية وآياتها اثنتان وخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ ﴾

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته ههنا، **وقيل**: المراد بقوله ﴿ ن ﴾ حوت عظيم **وقيل**: المراد بقوله ﴿ن﴾ لوح من نور، **وقيل**: المراد بقوله ﴿ن﴾ الدواة، ﴿والقلم﴾ القلم، روي عن الحسن وقتادة في قوله ﴿ ن﴾ قالا: هي الدواة، وقوله تعالى: ﴿ والقلم﴾ الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به كقوله تعالى: ﴿ الذي علَّم بالقلم ۞ علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾ فهو قسم منه تعالى، وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم، من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم، ولهذا قال: ﴿ وما يسطرون﴾ قال ابن عباس: يعني وما يكتبون، وقال أبو الضحى عنه ﴿ وما يسطرون﴾ أي وما يعملون، وقال السدي ﴿ وما يسطرون﴾ يعني الملائكة وما تكتب من أعمال العباد، وقال آخرون: بل المراد ههنا بالقلم الذي أجراه الله بالقدر، حين كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرضين بخمسين ألف عام، روى ابن أبي حاتم عن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: دعاني أبي حين حضره الموت، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن أول ما خلق الله القلم فقال: أُكتب، قال: يا ربِّ وما أكتب؟ قال أُكتب القدر وما هو كائن إلى الأبد »[1]. وعن ابن عباس أنه كان يحدِّث أن رسول الله ﷺ قال: « إن أول شيء خلقه الله القلم فأمره فكتب كل شيء »[2]. وقال مجاهد ﴿ والقلم﴾ يعني الذي كتب بـه الذكر، وقوله تعالى: ﴿ وما يسطرون﴾ أي يكتبون كما تقدم.

وقوله تعالى: ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ أي لست ولله الحمد بمجنون، كما يقوله الجهلة من قومك،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ، ورواه أحمد والترمذي ، وقال : حسن صحيح غريب .

(٢) رواه ابن جرير .

المكذبون بما جئتهم بـه من الهدى حيث نسبوك إلى الجنون، ﴿ وإن لك لأجراً غير ممنون﴾ أي بل إن لك الأجر العظيم، والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد، على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق، وصبرك على أذاهم، ومعنى ﴿ غير ممنون﴾ أي غير مقطوع ، كقوله: ﴿ عطاء غير مجذوذ﴾، ﴿ فلهم أجر غير ممنون﴾ أي غير مقطوع عنهم، وقال مجاهد ﴿ غير ممنون﴾ : أي غير محسوب ، وهو يرجع إلى ما قلناه ، وقوله تعالى ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم﴾ قال ابن عباس: وإنك لعلى دين عظيم وهو الإسلام، وقال عطية: لعلى أدب عظيم، وقال قتادة: ذكر لنا أن سعيد بن هشام سأل عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: ألست تقرأ القرآن ؟ قال: بلى، قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن، وروى الإمام أحمد عن الحسن قال: سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن[1] ، وقال ابن جرير ، عن سعد بن هشام قال: أتيت عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها فقلت لها: أخبريني بخلق النبي ﷺ ، فقالت: كان خلقه القرآن، أما تقرأ : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم﴾[2] ؟ ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن سجية له وخلقـاً، وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مـع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم، وكل خلق جميل، كما ثبت في الصحيحين عن أنس، قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فـما قال لي : أفٍّ قط ، ولا قال لشيء فعلتُه لِمَ فعلتَه ؟ ولا لشيء لم أفعله ألاَ فعلته ؟ وكان ﷺ أحسن الناس خُلقاً ولا مسست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شممت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ[3] ، وروى البخاري ، عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسن الناس خَلقاً ليس بالطويل ولا بالقصير[4] ، وروى الإمام أحمد، عن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً قط ، ولا ضرب امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خير بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثماً، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمات الله، فيكون هو ينتقم لله عزَّ وجلَّ[5] .

وقوله تعالى : ﴿ فستبصر ويبصرون بأيكم المفتـون﴾ أي فستعلم يا محمد وسيعلم مخالفوك ومكذبوك ، من المفتون الضال منك ومنهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿ سيعلمون غداً من الكذاب الأشر﴾، قال ابن عباس في هذه الآية: ستعلم ويعلمون يوم القيامة، ﴿ بأيكم المفتون﴾ أي المجنون ، وقال قتادة: ﴿ بأيكم المفتون﴾ أي أولى بالشيطان، ومعنى المفتون ظاهر أي الذي قـد افتتن عن الحق وضـل عنه، وإنمـا دخلت الباء في قوله: ﴿ بأيكم﴾ لتدل على تضمين الفعل في قوله ﴿ فستبصر ويبصرون﴾ وتقديره : فستعلم ويعلمون، أي فستخبر ويخبرون بأيكم المفتون، والله أعلم، ثم قـال تعالى: ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ أي هو يعلم تعالى أي الفريقين منكم ومنهم هو المهتدي، ويعلم الحزب الضال عن الحق .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد .

(٢) رواه ابن جرير واللفظ له ورواه أبو داود والنسائي بنحوه .

(٣) أخرجه الشيخان عن أنس رضي الله عنه .

(٤) أخرجه البخاري . (٥) أخرجه الإمام أحمد والأحاديث في هذا كثيرة ، ولأبي عيسى الترمذي كتاب سمّاه (الشمائل) .

فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾

يقول تعالى: كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم، والخلق العظيم ﴿فلا تطع المكذبين ، ودوا لو تدهن فيدهنون﴾ قال ابن عباس: لو ترخص لهم فيرخصون، وقال مجاهد: تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق، ثم قال تعالى: ﴿ولا تطع كل حلاف مهين﴾ وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته، يجترئ على أسماء الله تعالى، باستعمالها في كل وقت في غير محلها، قال ابن عباس: المهين الكاذب، وقال الحسن: ﴿كل حلاف﴾ مكابر ﴿مهين﴾ ضعيف، وقوله تعالى: ﴿هماز﴾ يعني الاغتياب، ﴿مشاء بنميم﴾ يعني الذي يمشي بين الناس ويحرش بينهم، وينقل الحديث لفساد ذات البين وهي الحالقة، وقد ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال: مرَّ رسول الله ﷺ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير . أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول. وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»[1]. وعن همام بن الحارث قال: مر رجل على حذيفة فقيل: إن هذا يرفع الحديث إلى الأمراء، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتات»[2]. وعن أبي وائل قال: بلغ حذيفة عن رجل أنه ينم الحديث فقال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة نمام»[3]، وروى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد ابن السكن أن النبي ﷺ قال : «ألا أخبركم بخياركم ؟» قالوا : بلى يا رسول الله، قال : «الذين إذا رؤوا ذكر الله عزَّ وجلَّ» ، ثم قال: «ألا أخبركم بشراركم ؟ المشاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العَنَت»[4] .

وقوله تعالى : ﴿مناع للخير معتد أثيم﴾ أي يمنع ما عليه وما لديه من الخير ﴿معتد﴾ في تناول ما أحل الله له، يتجاوز فيها الحد المشروع، ﴿أثيم﴾ أي يتناول المحرمات، وقوله تعالى: ﴿عتُل بعد ذلك زنيم﴾ أما العتل فهو الفظ الغليظ، الجموع المنوع . روى الإمام أحمد، عن حارثة بن وهب قال، قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أنبئكم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر» وفي رواية: «كل جواظ جعظري مستكبر»[5]. وفي أُخرى لأحمد : «كل جعظري، جواظ[6]، مستكبر، جمّاع، منّاع» وفي الحديث : «تبكي السماء من عبد أصح الله جسمه، وأرحب جوفه، وأعطاه من الدنيا هضماً، فكان للناس

---

(١) رواه الشيخان وبقية الجماعة .

(٢) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وأبو داود . والقتات : النمام .

(٣) أخرجه أحمد .

(٤) أخرجه أحمد وابن ماجة .

(٥) أخرجه الشيخان والإمام أحمد .

(٦) قال أهل اللغة : الجعظري : الفظ الغليظ ، والجواظ : الجموع المنوع .

ظلوماً، فذلك العتل الزنيم»[1]، فالعتل هو الشديد القوي في المأكل والمشرب والمنكح وغير ذلك، وأما الزنيم في لغة العرب فهو الدعي في القوم، ومنه قول (حسان بن ثابت) يذم بعض كفّار قريش:

وأنت زنيم نيط في آل هاشم ... كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

وقال ابن عباس في قوله ﴿زنيم﴾ قال: الدعي الفاحش اللئيم، وأنشد:

زنيم تداعاه الرجال زيادة ... كما زيد في عرض الأديم الأكارع

والمراد بـه (الأخنس بن شريق)، وقال مجاهد عن ابن عباس: ﴿الزنيم﴾ الملحق النسب، وقال سعيد بن المسيب: هو الملصق بالقوم ليس منهم؛ وسئل عكرمة عن الزنيم فقال: هو ولد الزنا، وقال سعيد بن جبير: الزنيم الذي يعرف بالشر، كما تعرف الشاة بزنمتها، والزنيم الملصق، وقال الضحّاك: كانت له زنمة في أصل أذنه، ويقال: هو اللئيم الملصق في النسب، والأقوال في هذا كثيرة، وترجع إلى ما قلناه، وهو أن الزنيم هو المشهور بالشر، الذي يعرف به من بين النـاس، وغالباً يكون دعياً ولد زنا، فإنه في الغالب يتسلط الشيطان عليه ما لا يتسلط على غيره، وقوله تعالى: ﴿أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ يقول تعالى هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين، كفر بآيات الله عزَّ وجلَّ وأعرض عنها، وزعم أنها كذب مأخوذ من أساطير الأولين، كقوله تعالى: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً * وجعلت له مالاً ممدوداً * وبنين شهوداً * ومهدت له تمهيداً * ثم يطمع أن أزيد* كلا إنه كان لآياتنا عنيداً﴾. ﴿سنسمه على الخرطوم﴾، قال ابن جرير: سنبين أمره بياناً واضحاً، حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم، كما لا تخفي عليهم السمة على الخراطيم، وقال قتادة ﴿سنسمه على الخرطوم﴾: شين لا يفارقه آخر ما عليه، وعنه: سيما على أنفه، وقال ابن عباس: يقاتل يوم بدر فيخطم السيف في القتال، وقال آخرون: ﴿سنسمه﴾ سمة أهل النار، يعني نسود وجهه يوم القيامة، وعبر عن الوجه بالخرطوم، ولا مانع من اجتماع الجميع عليه في الدنيا والآخرة وفي الحديث: «من مات همازاً لمازاً ملقباً للناس كان علامته يوم القيامة أن يسمه الله على الخرطوم من كلا الشفتين»[2].

﴿إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

---

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم مرفوعاً.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً وهو جزء من حديث.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لكفّار قريش، فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة، وهو بعثة محمد ﷺ إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة، ولهذا قال تعالى: ﴿إنا بلوناهم﴾ أي اختبرناهم ﴿كما بلونا أصحاب الجنة﴾ وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه، ﴿إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين﴾ أي حلفوا ليجذن ثمرها ليلاً، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ولا يتصدقوا منه بشيء، ﴿ولا يستثنون﴾ أي فيما حلفوا به، ﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون﴾ أي أصابتها آفة سماوية، ﴿فأصبحت كالصريم﴾ قال ابن عباس: أي كالليل الأسود، وقال السدي: مثل الزرع إذا حصد أي هشيماً يبساً، عن ابن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «إياكم والمعاصي، إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هيئ له» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم﴾[1] قد حرموا خير جنتهم بذنبهم، ﴿فتنادوا مصبحين﴾ أي وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى (الجذاذ) أي القطع، ﴿أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين﴾ أي تريدون الصرام، قال مجاهد: كان حرثهم عنباً، ﴿فانطلقوا وهم يتخافتون﴾ أي يتناجون فيما بينهم، بحيث لا يُسْمِعُون أحداً كلامهم، ثم فسر عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به، فقال تعالى: ﴿فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين﴾ أي يقول بعضهم لبعض لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم، قال تعالى: ﴿وغدوا على حرد﴾ أي قوة وشدة، وقال مجاهد: على جد، وقال عكرمة: على غيظ، ﴿قادرين﴾ أي عليها فيما يزعمون ويرومون، ﴿فلما رأوها قالوا إنا لضالون﴾ أي فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها، وهي على الحالة التي قال الله عزّ وجلّ، قد استحالت عن تلك النضارة والزهوة وكثرة الثمار، إلى أن صارت سوداء مدلهمة لا ينتفع بشيء منها، فاعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق، ولهذا قالوا: ﴿إنا لضالون﴾ أي قد سلكنا إليها غير الطريق فتهنا عنها، ثم تيقنوا أنها هي فقالوا ﴿بل نحن محرومون﴾ أي بل هي هذه، ولكن نحن لاحظ لنا ولا نصيب.

وقال تعالى: ﴿قال أوسطهم﴾، أي أعدلهم وخيرهم[2] ﴿ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾! قال مجاهد والسدي: أي لولا تستثنون، وكان استثناؤهم في ذلك الزمان تسبيحاً، وقال ابن جرير: هو قول القائل (إن شاء الله)، **وقيل**: ﴿لولا تسبحون﴾ أي هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم ﴿قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين﴾ أتوا بالطاعة حيث لا تنفع، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع، ولهذا قالوا: ﴿إنا كنا ظالمين ۝ فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً، على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب، ﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين﴾ أي إعتدينا وبغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا ﴿عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون﴾ **قيل**: راغبون في بذلها لهم في

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة.

الدنيا، **وقيل**: احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة، والله أعلم. ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن، **وقيل**: كانوا من أهل الحبشة وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة، وكان يسير فيها سيرة حسنة، فكان ما يستغل منها يرد فيها ما تحتاج إليه، ويدخر لعياله قوت سنتهم، ويتصدق بالفاضل، فلما مات وورثه بنوه قالوا: لقد كان أبونا أحمق، إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك علينا، فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية (رأس المال والربح والصدقة) فلم يبق لهم شيء؛ قال الله تعالى ﴿كذلك العذاب﴾ أي هكذا عذاب من خالف أمر الله، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه، ومنع حق المسكين والفقير، وبدّل نعمة الله كفراً، ﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ أي هذه عقوبة الدنيا وعذاب الآخرة أشق.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾

لما ذكر تعالى حال أهل الجنة الدنيوية، وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا الله عزَّ وجلَّ، بيّن أن لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم، التي لا تبيد ولا تفرغ ولا ينقضي نعيمها، ثم قال تعالى: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾؟ أي أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء؟ كلا ورب الأرض والسماء، ولهذا قال: ﴿مالكم كيف تحكمون﴾! أي كيف تظنون ذلك، ثم قال تعالى: ﴿أم لكم كتاب فيه تدرسون * إن لكم فيه لما تخيرون﴾ يقول تعالى أفبأيديكم كتاب منزل من السماء، تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه، بنقل الخلف عن السلف، متضمن حكماً مؤكداً كما تدعونه؟ ﴿إن لكم فيه لما تخيرون * أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة؟ إن لكم لما تحكمون﴾ أي أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة؟ ﴿إن لكم لما تحكمون﴾ أي أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون، ﴿سلهم أيهم بذلك زعيم﴾ أي قل لهم من هو المتضمن المتكفل بهذا! قال ابن عباس: أيهم بذلك كفيل ﴿أم لهم شركاء﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين﴾.

يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾

لما ذكر تعالى أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم، بين متى ذلك كائن وواقع فقال تعالى: ﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾ يعني يوم القيامة، وما يكون فيه من الأهوال، والبلاء والامتحان

والأمور العظام، روى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً»[1]. وقال ابن عباس: هو يوم القيامة يوم كرب وشدة. وعن ابن مسعود ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ قال: عن أمر عظيم كقول الشاعر: شالت الحرب عن ساق[2]. وقال ابن جرير عن مجاهد: ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ قال: شدة الأمر وجده، وقال ابن عباس قوله: ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ هو الأمر الشديد الفظيع من الهول يوم القيامة، وقال العوفي، عن ابن عباس قوله ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ يقول: حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال، وكشفه دخول الآخرة، وروي عن النبي ﷺ قال: «﴿يوم يكشف عن ساق﴾ يعني عن نور عظيم يخرون له سجداً»[3]، وقوله تعالى: ﴿خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة﴾ أي في الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه، ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة، إذا تجلى الرب عزَّ وجلَّ فيسجد له المؤمنون، ولا يستطيع أحد من الكافرين أو المنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً، كلما أراد أحدهم أن يسجد خرّ لقفاه، ثم قال تعالى: ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث﴾ يعني القرآن، وهذا تهديد شديد أي دعني وإياه أنا أعلم كيف أستدرجه ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر، ولهذا قال تعالى: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ أي وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة، وهو في نفس الأمر إهانة، كما قال تعالى: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿وأملي لهم إن كيدي متين﴾ أي أؤخرهم وأمدهم، وذلك من كيدي ومكري بهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إن كيدي متين﴾ أي عظيم لمن خالف أمري، وكذب رسلي، واجترأ على معصيتي، وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون * أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾! المعنى أنك يا محمد تدعوهم إلى الله عزَّ وجلَّ بلا أجر تأخذه منهم، بل ترجو ثواب ذلك عند الله تعالى، وهم يكذبون بما جئتهم به، بمجرد الجهل والكفر والعناد.

فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى: ﴿فاصبر﴾ يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم، فإن الله سيحكم لك ويجعل العاقبة لك

---

(١) أخرجه الشيخان وغيرهما من طرق وله ألفاظ وهو حديث مشهور.

(٢) رواه عنهما ابن جرير رحمه الله.

(٣) أخرجه ابن جرير عن أبي بردة بن أبي موسى مرفوعاً، ورواه أبو يعلى وفيه رجل مبهم.

(٤) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة مرفوعاً.

ولأتباعك في الدنيا والآخرة، ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ يعني ذا النون وهو (يونس بن متى) عليه السلام حين ذهب مغاضباً على قومه، فكان من أمره ما كان من ركوبه في البحر، والتقام الحوت له، وشرود الحوت به في البحار، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلي القدير، فحينئذ نادى في الظلمات: ﴿أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾، قال الله تعالى: ﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾، وقال تعالى: ﴿فلولا أنه كان من المسبحين ۝ للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾، وقال ههنا: ﴿إذ نادى وهو مكظوم﴾ قال ابن عباس ومجاهد: وهو مغموم، وقال عطاء: مكروب، وقد قدمنا في الحديث أنه لما قال ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ خرجت الكلمة تحنّ حول العرش، فقالت الملائكة: يا رب، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة، فقال الله تبارك وتعالى: أما تعرفون هذا؟ قالوا: لا، قال هذا يونس، قالوا: يا رب عبدك الذي لا يزال يرفع له عمل صالح ودعوة مجابة، قال: نعم، قالوا: أفلا ترحم ما كان يعمله في الرخاء فتنجيه من البلاء، فأمر الله الحوت فألقاه بالعراء، ولهذا قال تعالى: ﴿فاجتباه ربه فجعله من الصالحين﴾، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»[1]. وقوله تعالى: ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم﴾ قال ابن عباس ومجاهد ﴿ليزلقونك﴾ لينفذونك ﴿بأبصارهم﴾ أي يحسدونك لبغضهم إياك، لولا وقاية الله لك وحمايته إياك منهم، وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عزَّ وجلَّ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية، روى أبو داود عن أنَس قال، قال رسول الله ﷺ: «لا رقية إلا من عين أو حمة أو دم لا يرقأ»[2]. وروى ابن ماجة، عن بريدة بن الحصيب قال، قال رسول الله ﷺ: «لا رقية إلا من عين أو حمة»[3]. وروى مسلم في صحيحه، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقت العين وإذا استغسلتم فاغسلوا»[4]. وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعوّذ الحسن والحسين يقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة» ويقول: «هكذا كان إبراهيم يعوذ إسحاق وإسماعيل عليهما السلام»[5].

وروى الإمام أحمد، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ اشتكى، فأتاه جبريل، فقال: باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من كل حاسد وعين والله يشفيك[6]، وقال رسول الله ﷺ: «إن العين حق»[7]. **حديث أسماء بنت عميس**: قال الإمام أحمد، عن عبيد بن رفاعة الزرقي قال، قالت أسماء: يا رسول الله إن بني جعفر تصيبهم العين أفأسترقي لهم؟ قال: «نعم. فلو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين»[8]. **حديث عائشة رضي الله**

---

(١) أخرجه الشيخان وأحمد عن أبي هريرة.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) أخرجه ابن ماجة ورواه البخاري والترمذي عن عمر بن حصين موقوفاً.

(٤) أخرجه مسلم.

(٥) أخرجه البخاري وأهل السنن.

(٦) أخرجه الإمام أحمد.

(٧) أخرجاه في الصحيحين. (٨) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

عنها : روى ابن ماجة ، عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أمرها أن تسترقي من العين[1]. وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « استعيذوا بالله فإن النفس حق »[2] ، وقال أبو داود عن عائشة قالت: كان يؤمر العائن فيتوضأ ويغسل منه المعين[3] . **حديث سهل ابن حنيف** : قال الإمام أحمد ، عن أبي أمامة بن سهل ابن حنيف أن أباه حدّثه : أن رسول الله ﷺ خرج وساروا معه نحو مكة ، حتى إذا كانوا بشعب الخرار من (الجحفة) اغتسل سهل بن الأحنف ، وكان رجلاً ابيض حسن الجسم والجلد ، فنظر إليه عامر بن ربيعة أخو بني عدي بن كعب وهو يغتسل ، فقال : ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة ، فلبط سهل ، فأتى رسول الله ﷺ ، فقيل له : يا رسول الله هل لك في سهل ؟ والله ما يرفع رأسه ولا يفيق ، قال : « هل تتهمون فيه من أحد ؟ » قالوا : نظر إليه عامر بن ربيعة ، فدعا رسول الله ﷺ عامرا فتغيظ عليه ، وقال: « علام يقتل أحدكم أخاه ؟ هلا إذا رأيت ما يعجبك برّكت ؟ - ثم قال - اغتسل له » فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبته وأطراف رجليه وداخلة إزاره في قدح، ثم صبّ ذلك الماء عليه، فصبه رجل على رأسه وظهره من خلفه، ثم يكفأ القدح وراءه ففعل ذلك فراح سهل مع الناس ليس به بأس[4]. **حديث عبدالله بن عمرو** : قال الإمام أحمد، عن عبدالله بن عمرو قال، قال رسول الله ﷺ: « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا حسد والعين حق »[5]. وقوله تعالى : ﴿ ويقولون إنه لمجنون ﴾ أي يزدرونه بأعينهم، ويؤذونه بألسنتهم، ويقولون ﴿ إنه لمجنون ﴾ أي لمجيئه بالقرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ .

[آخر تفسير سورة ن ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه الشيخان وابن ماجة .

(٢) أخرجه ابن ماجة .

(٣) رواه أبو داود وأحمد .

(٤) أخرجه الإمام أحمد ورواه ابن ماجة بنحوه .

(٥) تفرد به الإمام أحمد .



بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾

﴿ **الحاقَّةُ** ﴾ **من أسماء يوم القيامة**، لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد، ولهذا عظَّم الله أمرها فقال: ﴿ وما أدراك ما الحاقَّة ﴾، ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال تعالى: ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ وهي الصيحة التي أسكتتهم والزلزلة التي أسكنتهم، هكذا قال قتادة ﴿ الطاغية ﴾: الصيحة، وهو اختيار ابن جرير، وقال مجاهد: ﴿ الطاغية ﴾ الذنوب، وكذا قال ابن زيد إنها الطغيان، وقرأ: ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾، ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر ﴾ أي باردة، قال قتادة والسدي: ﴿ عاتية ﴾ أي شديدة الهبوب، عتت عليهم حتى نقبت عن أفئدتهم، وقال الضحّاك: ﴿ صرصر ﴾ باردة ﴿ عاتية ﴾ عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة، وقال علي: عتت على الخزنة فخرجت بغير حساب، ﴿ سخرها عليهم ﴾ أي سلطها عليهم ﴿ سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾ أي كوامل متتابعات مشائيم: قال ابن مسعود: ﴿ حسوماً ﴾ متتابعات، وعن عكرمة والربيع: مشائيم عليهم كقوله تعالى: ﴿ في أيام نحسات ﴾ **ويقال**: إنها التي تسميها الناس الأعجاز، وكأن الناس أخذوا ذلك من قوله تعالى: ﴿ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾. **وقيل**: لأنها تكون في عجز الشتاء، قال ابن عباس: ﴿ خاوية ﴾ خربة، وقال غيره: بالية، أي جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخرّ ميتاً على أمّ رأسه، فينشدخ رأسه، وتبقى جثته هامدة، كأنها قائمة النخلة إذا خرت بلا أغصان، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: « نصرت بالصَّبا وأهلكت

عاد بالدَّبور »[١]. وعن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ : « ما فتح الله على عاد من الريح التي هلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم، فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم فجعلتهم بين السماء والأرض، فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عادٍ، الريحَ وما فيها قالوا: هذا عارض ممطرنا، فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة »[٢] ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ ؟ أي هل تحس منهم من أحد من بقاياهم أو ممن ينتسب إليهم ؟ بل بادوا عن آخرهم، ولم يجعل الله لهم خلفاً، ثم قال تعالى: ﴿ وجاء فرعون ومن قبله ﴾ أي ومن قبله من الأمم المشبهين له، وقوله تعالى: ﴿ والمؤتفكات ﴾ وهم الأمم المكذبون بالرسل، ﴿ بالخاطئة ﴾ وهي التكذيب بما أنزل الله، قال الربيع ﴿ بالخاطئة ﴾ أي بالمعصية، وقال مجاهد: بالخطايا ، ولهذا قال تعالى: ﴿ فعصوا رسول ربهم ﴾ أي كل كذب رسول الله إليهم كما قال تعالى: ﴿ إن كلٌّ إلا كذب الرسل فحق وعيد ﴾، ومن كذب برسول فقد كذب بالجميع ، كما قال تعالى: ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾، ﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾ وإنما جاء إلى كل أمّة رسول واحد، ولهذا قال ههنا: ﴿ فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾ أي عظيمة شديدة أليمة، قال مجاهد ﴿ رابية ﴾: شديدة ، وقال السدي: مهلكة .

ثم قال تعالى : ﴿ إنا لمّا طغى الماء ﴾ أي ازداد على الحد، وقال ابن عباس: ﴿ طغى الماء ﴾ كثر ، وذلك بسبب دعوة نوح عليه السلام، فاستجاب الله له، وعمَّ أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح في السفينة، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته، قال علي بن أبي طالب: لم تنزل قطرة من ماء إلا بكيل على يدي ملك، فلما كان يوم نوح أذن للماء دون الخزان، فطغى الماء على الخزان، فخرج، فذلك قوله تعالى: ﴿ إنا لمّا طغى الماء ﴾ أي زاد على الحد بإذن الله، ﴿ حملناكم في الجارية ﴾ ولم ينزل شيء من الريح إلا بكيل على يدي ملك إلا يوم عاد فإنه أذن لها دون الخزان فخرجت، فذلك قوله تعالى: ﴿ بريح صرصر عاتية ﴾[٣] ، ولهذا قال تعالى ممتناً على الناس ﴿ حملناكم في الجارية ﴾ وهي السفينة الجارية على وجه الماء، ﴿ لنجعلها لكم تذكرة ﴾ أي وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار ، كما قال: ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾، وقال تعالى: ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون * وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ وقال قتادة: أبقى الله السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة، والأول أظهر ، ولهذا قال تعالى: ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ أي وتفهم هذه النعمة وتذكرها أذن واعية، قال ابن عباس: حافظة سامعة، وقال قتادة: ﴿ أذن واعية ﴾ عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله . وقال الضحّاك: ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ سمعتها أذن ووعت، أي من له سمع صحيح وعقل رجيح، وهذا عام في كل من فهم ووعي .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ

(١) اخرجاه في الصحيحين .
(٢) رواه ابن أبي حاتم
(٣) رواه ابن جرير

﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن أهوال يوم القيامة، وأول ذلك (نفخة الفزع)، ثم يعقبها (نفخة الصعق) حين يصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم بعدها (نفخة القيام) لرب العالمين، وقد أكدها ههنا بأنها واحدة لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع، ولا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد، قال الربيع: هي النفخة الأخيرة، والظاهر ما قلناه، ولهذا قال ههنا: ﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾ أي فمدت مد الأديم، وتبدلت الأرض غير الأرض، ﴿فيومئذ وقعت الواقعة﴾ أي قامت القيامة، ﴿وانشقت السماء فهي يومئذ واهية﴾. عن علي قال: تنشق السماء من المجرة، وقال ابن جريج: هي كقوله: ﴿وفتحت السماء فكانت أبواباً﴾، ﴿والملك على أرجائها﴾ الملك اسم جنس أي الملائكة. على أرجاء السماء: أي حافاتها، وقال الضحّاك: أطرافها، وقال الحسن البصري: أبوابها، وقال الربيع بن أنَس في قوله: ﴿والملك على أرجائها﴾ يقول: على ما استدق من السماء ينظرون إلى أهل الأرض، وقوله تعالى: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ أي يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة، عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام»[1]. وعن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ قال: ثمانية صفوف من الملائكة. وقوله تعالى: ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ أي تعرضون على عالم السر والنجوى، الذي لا يخفى عليه شيء من أموركم، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر، ولهذا قال تعالى: ﴿لا تخفى منكم خافية﴾، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أخف عليكم في الحساب غداً، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾[2]، وروى الإمام أحمد، عن أبي موسى قال، قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله»[3].

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾

يخبر تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه يوم القيامة بيمينه، وفرحه بذلك وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه: ﴿هاؤم اقرأوا كتابيه﴾ أي خذوا اقرأوا كتابيه، لأنه يعلم أن الذي فيه خير وحسنات محضة، لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات، وعن عبد الله بن عبد الله بن حنظلة (غسيل الملائكة) قال: إن الله يوقف عبده يوم القيامة فيبدي أي يظهر سيئاته في ظهر صحيفته، فيقول له: أنت عملت هذا فيقول: نعم أي رب، فيقول له: إني لم

(١) رواه أبو داود.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا عن ثابت بن الحجّاج.

(٣) أخرجه أحمد والترمذي.

أفضحك به وإني قد غفرت لك، فيقول عند ذلك: ﴿ هاؤم اقرأوا كتابيه ﴾، ﴿ إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴾ حين نجا من فضيحته يوم القيامة[١]، وقد تقدم في الصحيح حديث ابن عمر حين سئل عن النجوى فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يدني الله العبد يوم القيامة فيقرره بذنوبه كلها، حتى إذا رأى أنه قد هلك، قال الله تعالى: إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين »، وقوله تعالى: ﴿ إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴾ أي قد كنت موقناً في الدنيا، أن هذا اليوم كائن لا محالة، كما قال تعالى: ﴿الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم ﴾، قال تعالى: ﴿ فهو في عيشة راضية ﴾ أي مرضية، ﴿ في جنة عالية ﴾ أي رفيعة قصورها، حسان حورها، نعيمة دُورها، دائم حبورها، روى ابن أبي حاتم، عن أبي أمامة قال: سأل رجل رسول الله ﷺ: « هل يتزاور أهل الجنة ؟ قال: « نعم. إنه ليهبط أهل الدرجة العليا إلى أهل الدرجة السفلى فيحيونهم ويسلمون عليهم ولا يستطيع أهل الدرجة السفلى يصعدون إلى الأعلين تقصر بهم أعمالهم »[٢]، وقد ثبت في الصحيح: « أن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ». وقوله تعالى: ﴿ قطوفها دانية ﴾ قال البراء بن عازب: أي قريبة يتناولها أحدهم وهو نائم على سريره، وكذا قال غير واحد، روى الطبراني، عن سلمان الفارسي قال، قال رسول الله ﷺ: « لا يدخل أحد الجنة إلا بجواز: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله لفلان بن فلان أدخلوه جنة عالية قطوفها دانية »[٣]؛ وفي رواية: « يعطى المؤمن جوازاً على الصراط: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله العزيز الحكيم لفلان، أدخلوه جنة عالية قطوفها دانية »[٤]، وقوله تعالى: ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ أي يقال لهم ذلك تفضلاً عليهم وامتناناً، وإنعاماً وإحساناً، وإلا فقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « اعملوا وسددوا وقاربوا واعلموا أن أحداً منكم لن يدخله عمله الجنة » قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل ».

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطي أحدهم كتابه في العرصات بشماله فحينئذ يندم غاية الندم، ﴿ فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * يا ليتها كانت القاضية ﴾ قال الضحّاك: يعني موتة لا حياة بعدها،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) رواه ابن أبي حاتم.

(٣) رواه الطبراني.

(٤) أخرجه الضياء في صفة الجنة.

وقال قتادة: تمنّى الموت ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليه منه، ﴿ما أغنى عني ماليه * هلك عني سلطانيه﴾ أي لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذاب الله وبأسه، بل خلص الأمر إليّ وحدي، فلا معين لي ولا مجير فعندها يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلّوه﴾ أي يأمر الزبانية أن تأخذه عنفاً من المحشر فتغله، أي تضع الأغلال في عنقه، ثم تورده إلى جهنم فتصليه إيّاها، أي تغمره فيها . عن المنهال بن عمرو قال: إذا قال الله تعالى: خذوه، ابتدره سبعون ألف ملك، إن الملك منهم ليقول: هكذا، فيلقي سبعين ألفاً في النار[1] ، وقال الفضيل ابن عياض إذا قال الرب عزَّ وجلَّ ﴿خذوه فغلوه﴾ ابتدره سبعون ألف ملك أيهم يجعل الغل في عنقه، ﴿ثم الجحيم صلوه﴾ أي أغمروه فيها ، وقوله تعالى: ﴿ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾ قال كعب الأحبار: كل حلقة منها قدر حديد الدنيا، وقال ابن عباس: بذراع الملك، وقال العوفي عن ابن عباس: يسلك في دبره حتى يخرج من منخريه حتى لا يقوم على رجليه، روى الإمام أحمد، عن عبد الله بن عمرو قال، قال رسول الله ﷺ: «لو أن رضاضة مثل هذه – وأشار إلى جمجمة – أرسلت من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن تبلغ قعرها أو أصلها»[2]. وقوله تعالى: ﴿إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يحض على طعام المسكين﴾ أي لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته، ولا ينفع خلقه ويؤدي حقهم، فإن لله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا بـه شيئاً ، وللعباد بعضهم على بعض حق الإحسان والمعاونة على البر والتقوى، ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وقبض النبي ﷺ وهو يقول: «الصلاة ، وما ملكت أيمانكم »، وقوله تعالى: ﴿فليس له اليوم ههنا حميم * ولا طعام إلا من غسلين * لا يأكله إلا الخاطئون﴾ أي ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله تعالى، لا ﴿حميم﴾ وهو القريب، ولا ﴿شفيع﴾ يطاع، ولا طعـام له ههنا ﴿إلا من غسلين﴾ قال قتادة : هو شر طعام أهل النار ، وقال الضحّاك: هو شجرة في جهنم، وقال ابن عباس: ما أدري ما الغسلين ؟ ولكني أظنه الزقوم[3] ، وقال عكرمة عنه: الغسلين: الدم والماء يسيل من لحومهم، وعنه : الغسلين صديد أهل النار .

فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى مقسماً لخلقه، بمـا يشاهدونه من آياته في مخلوقاته، الدالة على كماله في أسمائه وصفاتـه، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم، إن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله، الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، فقال تعالى: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون * إنه لقول رسول كريم﴾ يعني محمداً ﷺ، أضافه إليه على معنى التبليغ، ﴿وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاً

(١) رواه ابن أبي حاتم .
(٢) أخرجه أحمد والترمذي ، وقال : حديث حسن .
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم .

ما تذكرون﴾ فأضافه الله تارة إلى (جبريل) الرسول الملكي، وتارة إلى (محمد) الرسول البشري، لأن كلا منهما مبلغ عن الله، ما استأمنه عليه من وحيه وكلامه، ولهذا قال تعالى: ﴿تنزيل من رب العالمين﴾ قال عمر بن الخطاب: خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن، قال، فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قريش، قال فقرأ: ﴿إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون﴾ قال، فقلت: كاهن، قال: فقرأ ﴿ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين﴾ إلى آخر السورة، قال فوقع الإسلام في قلبي كل موقع. فهذا من جملة الأسباب التي جعلها الله تعالى مؤثرة في هداية عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى: ﴿ولو تقول علينا﴾ أي محمد ﷺ، لو كان كما يزعمون مفترياً علينا، فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئاً من عنده، فنسبه إلينا لعاجلناه بالعقوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ **قيل**: معناه لانتقمنا منه باليمين لأنها أشد في البطش، **وقيل**: **لأخذنا بيمينه**، ﴿ثم لقطعنا منه الوتين﴾ قال ابن عباس: وهو نياط القلب، وهو العرق الذي القلب معلق فيه؛ وقال محمد بن كعب: هو القلب ومراقه وما يليه، وقوله تعالى: ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ أي فما يقدر أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه، إذا أردنا به شيئاً من ذلك، والمعنى في هذا بل هو صادق بار راشد، لأن الله عزَّ وجلَّ مقرر له ما يبلغه عنه، ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات، ثم قال تعالى: ﴿وإنه لتذكرة للمتقين﴾. كما قال تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾، ثم قال تعالى: ﴿وإنا لنعلم أن منكم مكذبين﴾ أي مع هذا البيان والوضوح، سيوجد منكم من يكذب بالقرآن، ثم قال تعالى: ﴿وإنه لحسرة على الكافرين﴾ قال ابن جرير: وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة، ويحتمل عود الضمير على القرآن، أي وإن القرآن والإيمان به لحسرة في نفس الأمر على الكافرين، كما قال تعالى: ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به﴾، وقال تعالى: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿وإنه لحق اليقين﴾ أي الخبر الصدق الحق، الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب، ثم قال تعالى: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي الذي أنزل هذا القرآن العظيم.

[آخر تفسير سورة الحاقة، ولله الحمد والمنة]

✲ ✲ ✲



بسم الله الرحمن الرحيم

سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾

﴿ **سأل سائل بعذاب واقع** ﴾ أي استعجل سائل بعذاب واقع، كقوله تعالى: ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده ﴾. قال النسائي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿سأل سائل بعذاب واقع ﴾، قال (النضر ابن الحارث) وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ قال: ذلك سؤال الكفّار عن عذاب الله وهو واقع بهم، وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ سأل سائل﴾ دعا داع بعذاب واقع يقع في الآخرة، قال وهو قولهم: ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾، وقوله تعالى: ﴿ للكافرين ﴾ أي مرصد معد للكافرين، ﴿ ليس له دافع ﴾ أي لا دافع له إذا أراد الله كونه، ولهذا قال تعالى: ﴿ من الله ذي المعارج ﴾ قال ابن عباس: ذو الدرجات، وعنه: ذو العلو والفواضل، وقال مجاهد ﴿ ذي المعارج ﴾ معارج السماء، وقال قتادة: ذي الفواضل والنعم، وقوله تعالى: ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ قال قتادة ﴿ تعرج ﴾: تصعد، وأما الروح فيحتمل أن يكون المراد به جبريل، ويكون من باب عطف الخاص على العام، ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بني آدم، فإنها إذا قبضت يصعد بها إلى السماء، كما دل عليه حديث البراء، في قبض الروح الطيبة وفيه: « فلا يزال يصعد بها من سماء إلى سماء، حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله » .

وقوله تعالى: ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ فيه أربعة أقوال: **أحدها** : أن المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين، وهو قرار الأرض السابعة، وذلك مسيرة خمسين ألف سنة. عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ قال: منتهى أمره من أسفل الأرضين، إلى منتهى أمره

من فوق السماوات خمسين ألف سنة[١] . **القول الثاني** : أن المراد بذلك مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة، قال: الدنيا عمرها خمسون ألف سنة، وذلك عمرها يوم سماها الله عزَّ وجلَّ يوماً . وعن عكرمة: ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ قال: الدنيا من أولها إلى آخرها مقدار خمسين ألف سنة لا يدري أحدكم مضى ولا كم بقي إلا الله عزَّ وجلَّ[٢] . **القول الثالث** : أنه اليوم الفاصل بين الدنيا والآخرة وهو قول غريب جداً، روي عن محمد بن كعب قال: هو يوم الفصل بين الدنيا والآخرة[٣] . **القول الرابع** : أن المراد بذلك يوم القيامة، وبه قال الضحّاك وابن زيد وعكرمة، وروي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ قال: هو يوم القيامة جعله الله تعالى على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال، قيل لرسول الله ﷺ : ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ ما أطول هذا اليوم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا »[٤] . وقال الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : « ما من صاحب كنز لا يؤدي حقه إلا جعل صفائح يحمي عليها في نار جهنم، فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار »[٥] .

وقوله تعالى : ﴿ فاصبر صبراً جميلاً ﴾ أي اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك، واستعجالهم العذاب استبعاداً لوقوعه كقوله تعالى: ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ﴾، ولهذا قال: ﴿ إنهم يرونه بعيداً ﴾ أي وقوع العذاب، وقيام الساعة يراه الكفرة بعيد الوقوع بمعنى مستحيل الوقوع ﴿ ونراه قريباً ﴾ أي المؤمنون يعتقدون كونه قريباً وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلَّ، ولكن كل ما هو آت فهو قريب وواقع لا محالة .

يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَظَى ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِلشَّوَى ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾

يقول تعالى العذاب واقع بالكافرين ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾، قال ابن عباس ومجاهد: أي كدردي الزيت، ﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾ أي كالصوف المنفوش، قاله مجاهد وقتادة، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وتكون

---

(١) رواه ابن أبي حاتم .
(٢) أخرجه عبد الرزاق عن عكرمة .
(٣) رواه ابن أبي حاتم .
(٤) أخرجه أحمد وابن جرير .
(٥) أخرجه الإمام أحمد .

الجبال كالعهن المنفوش﴾، وقوله تعالى: ﴿ولا يسأل حميم حميماً يبصّرونهم﴾ أي لا يسأل القريب قريبه عن حاله، وهو يراه في أسوأ الأحوال فتشغله نفسه عن غيره. قال ابن عباس: يعرف بعضهم بعضاً ويتعارفون بينهم، ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك، يقول الله تعالى: ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾، وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً﴾، وكقوله تعالى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾، وقوله تعالى: ﴿يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التي تؤويه * ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه * كلا﴾ أي لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض، وبأعز ما يجده من المال، ولو بملء الأرض ذهباً، أو من ولده الذي كان في الدنيا حشاشة كبده، يود يوم القيامة إذا رأى الأهوال أن يفتدي من عذاب الله به، قال مجاهد والسدي: ﴿فصيلته﴾ قبيلته وعشيرته، وقال عكرمة: فخذه الذي هو منهم، وقوله: تعالى: ﴿إنها لظى﴾ يصف النار وشدة حرها ﴿نزاعة للشوى﴾، قال ابن عباس ومجاهد: جلدة الرأس، وعن ابن عباس: ﴿نزاعة للشوى﴾ الجلود والهام، وقال أبو صالح ﴿نزاعة للشوى﴾ يعني أطراف اليدين والرجلين، وقال الحسن البصري: تحرق كل شيء فيه ويبقى فؤاده يصيح، وقال الضحّاك: تبري اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك منه شيئاً، وقوله تعالى: ﴿تدعوا من أدبر وتولى * وجمع فأوعى﴾ أي تدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر، كما يلتقط الطير الحب، وذلك أنهم كانوا ممن أدبر وتولى، أي كذب بقلبه وترك العمل بجوارحه ﴿وجمع فأوعى﴾ أي جمع المال بعضه على بعض، فأوعاه أي أوكاه ومنع حق الله منه، من الواجب عليه في النفقات ومن إخراج الزكاة، وقد ورد في الحديث: «ولا توعي فيوعي الله عليك»، وكان عبد الله بن عكيم لا يربط له كيساً، يقول، سمعت الله يقول: ﴿وجمع فأوعى﴾، وقال الحسن البصري: يا ابن آدم سمعت وعيد الله ثم أوعيت الدنيا، وقال قتادة في قوله ﴿وجمع فأوعى﴾ قال: كان جموعاً قموماً للخبيث.

* إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان، وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً﴾، ثم فسره بقوله: ﴿إذا مسه الشر جزوعاً﴾ أي إذا مسه الضر فزع وجزع، وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصله

له بعد ذلك خير ﴿وإذا مسه الخير منوعاً﴾ أي إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره، ومنع حق الله تعالى فيها . وفي الحديث: «شر ما في الرجُل : شح هالع وجُبن خالع»[1] . ثم قال تعالى: ﴿إلا المصلين﴾ أي إلا من عصمه الله ووفقه وهداه إلى الخير، ويسر له أسبابه وهم المصلون ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ **قيل** : معناه يحافظون على أوقاتها وواجباتها، قاله ابن مسعود، **وقيل**: المراد بالدوام ههنا السكون والخشوع كقوله تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ قاله عقبة بن عامر، ومنه الماء الدائم وهو الساكن الراكد؛ وهذا يدل على وجوب الطمأنينة في الصلاة؛ فإن الذي لا يطمئن في ركوعه وسجوده لم يسكن فيها ولم يدم، بل ينقرها نقر الغراب، فلا يفلح في صلاته؛ **وقيل**: المراد بذلك الذين إذا عملوا عملاً داوموا عليه، وأثبتوه كما جاء في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ»، قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً داوم عليه، وقوله تعالى: ﴿والذين في أموالهم حق معلوم ۝ للسائل والمحروم﴾ أي في أموالهم نصيب مقرر لذوي الحاجات، ﴿والذين يصدقون بيوم الدين﴾ أي يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب، ولهذا قال تعالى: ﴿والذين هم من عذاب ربهم مشفقون﴾ أي خائفون وجلون، ﴿إن عذاب ربهم غير مأمون﴾ أي لا يأمنه أحد إلا بأمان من الله تبارك وتعالى، وقوله تعالى: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ أي يكفونها عن الحرام، ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ أي من الإماء، ﴿فإنهم غير ملومين ۝ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ وقد تقدم تفسير هذا بما أغنى عن إعادته ههنا[2] ، وقوله تعالى: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ أي إذا اؤتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا، ﴿والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾ أي محافظون عليها لا يزيدون فيها، ولا ينقصون منها ولا يكتمونها ﴿ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾، ثم قال تعالى: ﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾ أي على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، فافتتح الكلام بذكر الصلاة، واختتمه بذكرها، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها، ﴿أولئك في جنات مكرمون﴾ أي مكرمون بأنواع الملاذ والمسار .

فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى منكراً على الكفّار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ، وهم مشاهدون لما أيده الله به من المعجزات

---

(١) رواه أبو داود .

(٢) تقدم تفسيره في أول سورة ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ .

الباهرات، ثم هم شاردون يميناً وشمالاً فرقاً فرقاً، ﴿ كأنهم حمر مستنفرة * فرت من قسورة﴾ ، قال تعالى: ﴿ فما للذين كفروا قبلك مهطعين﴾ أي فما لهؤلاء الكفّار الذين عندك يا محمد ﴿ مهطعين﴾ أي مسرعين نافرين منك، قال الحسن البصري ﴿ مهطعين﴾ أي منطلقين، ﴿ عن اليَمين وعن الشمال عزين﴾ واحدها عزة أي متفرقين، وقال ابن عباس: ﴿ فما للذين كفروا قبلك مهطعين﴾ قال: قبلك ينظرون ﴿ عن اليمين وعن الشمال عزين﴾ العزين: العصب من الناس عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به، وعن الحسن في قوله: ﴿ عن اليمين وعن الشمال عزين﴾ أي متفرقين يأخذون يميناً وشمالاً يقولون: ما قال هذا الرجل؟ وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه وهم حلق فقال: «مالي أراكم عزين؟»[1]. وقوله تعالى: ﴿ أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم * كلا﴾ أي أيطمع هؤلاء، والحالة هذه من فرارهم عن الرسول ﷺ، ونفارهم عن الحق، أن يدخلوا جنات النعيم؟ كلا، بل مأواهم جهنم، ثم قال تعالى مقرراً لوقوع المعاد والعذاب بهم مستدلاً عليهم بالبداءة: ﴿ إنا خلقناهم مما يعلمون﴾ أي من المني الضعيف، كما قال تعالى: ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين﴾، وقال: ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب﴾، ثم قال تعالى: ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب﴾ أي الذي خلق السماوات والأرض، وسخّر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها، ﴿ إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم﴾ أي يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه فإن قدرته صالحة لذلك، ﴿ وما نحن بمسبوقين﴾ أي بعاجزين، كما قال تعالى: ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه * بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾، وقال تعالى: ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين * على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون﴾، واختار ابن جرير ﴿ على أن نبدل خيراً منهم﴾ أي أمة تطيعنا ولا تعصينا وجعلها كقوله: ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾، والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الأخر عليه، والله سبحانه وتعالى أعلم. ثم قال تعالى: ﴿ فذرهم﴾ أي يا محمد ﴿ يخوضوا ويلعبوا﴾ أي دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم، ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ أي فسيعلمون غب ذلك ويذوقون وباله، ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون﴾ أي يقومون من القبور، إذا دعاهم الرب تبارك وتعالى لموقف الحساب، ينهضون سراعاً ﴿ كأنهم إلى نصب يوفضون﴾ قال ابن عباس: إلى علَم يسعون، وقال أبو العالية: إلى غاية يسعون إليها. ﴿ نُصُب﴾ بضم النون والصاد وهو الصنم، أي كأنهم في إسراعهم إلى الموقف، كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه، ﴿ يوفضون﴾ يبتدرون أيهم يستلمه أول، وهذا مروي عن مجاهد وقتادة والضحّاك وغيرهم، وقوله تعالى: ﴿ خاشعة أبصارهم﴾ أي خاضعة ﴿ ترهقهم ذلة﴾ أي في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة ﴿ ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون﴾ .

[آخر تفسير سورة سأل سائل، ولله الحمد والمنة]

* * *

---

(١) أخرجه ابن جرير عن أبي هريرة، ورواه أحمد ومسلم والنسائي بنحوه.



(٧١) سورة نوح مكية
وآياتها ثمان وعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام، أنه أرسله إلى قومه، آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ۝ قال يا قوم إني لكم نذير مبين ﴾ أي بيّن النذارة، ظاهر الأمر واضحه ﴿ ان اعبدوا الله واتقوه ﴾ أي اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه، ﴿ وأطيعونِ ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه، ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ أي إذا فعلتم ما آمركم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم غفر الله لكم ذنوبكم، ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ أي يمد في أعماركم ويدرأ عنكم العذاب، وقد يستدل بهذه الآية من يقول: إن الطاعة والبر وصلة الرحم يزاد بها في العمر حقيقة، كما ورد به الحديث: « صلة الرحم تزيد في العمر »، وقوله تعالى: ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ﴾ أي بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة، فإنَّ أمره تعالى لا يرد ولا يمانع، فإنه العظيم الذي قد قهر كل شيء، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ

فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله (نوح) عليه السلام، أنه اشتكى إلى ربه عزَّ وجلَّ، ما لقي من قومه في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عاماً، وما بيّن لقومه ووضّح لهم فقال: ﴿ رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ﴾ أي لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار، وامتثالاً لأمرك وابتغاء لطاعتك، ﴿ فلم يزدهم دعائي إلا فراراً ﴾ أي كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق، فروا منه وحادوا عنه، ﴿ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم ﴾ أي سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه، كما أخبر تعالى عن كفار قريش ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾، ﴿ واستغشوا ثيابهم ﴾ قال ابن عباس: تنكروا له لئلا يعرفهم، وقال السدي: غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول، ﴿ وأصروا ﴾ أي استمروا على ما هم فيه من الشرك، والكفر العظيم الفظيع، ﴿ واستكبروا استكباراً ﴾ أي واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له، ﴿ ثم إني دعوتهم جهاراً ﴾ أي جهرة بين الناس، ﴿ ثم إني أعلنت لهم ﴾ أي كلاماً ظاهراً بصوت عال ﴿ وأسررت لهم إسراراً ﴾ أي فيما بيني وبينهم، فنوّع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم، ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾ أي ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب، فإنه من تاب إليه تاب الله عليه ، ﴿ يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ أي متواصلة الأمطار، قال ابن عباس : يتبع بعضه بعضاً، وقوله تعالى: ﴿ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ أي إذا تبتم إلى الله وأطعتموه، كثّر الرزق عليكم وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأمدّكم ﴿ بأموال وبنين ﴾ أي أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار وخللها بالأنهار الجارية بينها، هذا مقام الدعوة بالترغيب، ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب، فقال: ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ ؟ أي عظمة قال ابن عباس : لم لا تعظمون الله حق عظمته، أي لا تخافون من بأسه ونقمته ﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ **قيل**: معناه من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة قاله ابن عباس وقتادة .

وقوله تعالى: ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً ﴾ أي واحدة فوق واحدة، ومعها يدور سائر الكواكب تبعاً، ولكن للسيارة حركة معاكسة لحركة أفلاكها، فإنها تسير من المغرب إلى المشرق، وكل يقطع فلكه بحسبه فالقمر يقطع فلكه في كل شهر مرّة، والشمس في كل سنة مرة، وزحل في كل ثلاثين سنة مرة، وإنما المقصود أن الله سبحانه وتعالى: ﴿ خلق سبع سماوات طباقاً ، وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴾ أي فاوت بينهما في الاستنارة ، فجعل كلاً منهما أنموذجاً على حدة، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها، وقدّر للقمر منازل وبروجاً، وفاوت نوره، فتارة يزداد حتى يتناهى، ثم يشرع في النقص حتى يستتر ، ليدل على مضي الشهور والأعوام، كما قال تعالى: ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ هذا اسم مصدر والإتيان به ههنا أحسن، ﴿ ثم يعيدكم فيها ﴾ أي إذا متم ﴿ ويخرجكم إخراجاً ﴾ أي يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة، ﴿ والله جعل لكم الأرض بساطاً ﴾ أي بسطها ومهدها وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات، ﴿ لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ أي

خلقها لكم لتستقروا عليها، وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها، ينبههم نوح عليه السلام على قدرة الله وعظمته في خلق السماوات والأرض، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرزاق جعل السماء بناء، والأرض مهاداً، وأوسع على خلقه من رزقه، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد.

قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾

يقول تعالى: مخبراً عن نوح عليه السلام، أنهم عصوه وخالفوه وكذبوه، واتبعوا من غفل عن أمر الله، ومتع بمال وأولاد، وهي في نفس الأمر استدراج لا إكرام، ولهذا قال: ﴿واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً﴾، وقوله تعالى: ﴿ومكروا مكراً كباراً﴾ قال مجاهد: ﴿كباراً﴾ أي عظيماً، وقال ابن زيد: ﴿كباراً﴾ أي كبيراً، والعرب تقول: أمر عجيب وعجاب وعجّاب، بالتخفيف والتشديد بمعنى واحد، ﴿ومكروا مكراً كباراً﴾ أي باتباعهم لهم وهم على الضلال، كما يقولون لهم يوم القيامة: ﴿بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾ وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ﴿ود﴾ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما (سُـواع) فكانت لهذيل، وأما (يغوث) فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما (يعـوق) فكانت لهمدان، وأما (نسر) فكانت لحِمْيَر لآل ذي كلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت[1]. وقال ابن جرير، عن محمد بن قيس ﴿ويغوث ويعوق ونسراً﴾ قال: كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم، لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم[2]، وقوله تعالى: ﴿وقد أضلوا كثيراً﴾ يعني الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقاً كثيراً، فإنه استمرت عبادتها إلى زماننا هذا، في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم، وقد قال الخليل عليه السلام في دعائه: ﴿واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾. وقوله تعالى: ﴿ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً﴾ دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم، كما دعا موسى على فرعون وملئه في قوله: ﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به.

---

(١) رواه البخاري عن ابن عباس، وكذا روي عن عكرمة وقتادة والضحّاك.

(٢) رواه ابن جرير عن محمد بن قيس.

مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

يقول تعالى: ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا﴾ أي من كثرة ذنوبهم وعتوهم، وإصرارهم على كفرهم، ومخالفتهم رسولهم، ﴿أغرقوا فأدخلوا ناراً﴾ أي نقلوا من البحار إلى حرارة النار، ﴿فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾ أي لم يكن لهم معين ولا مجير، ينقذهم من عذاب الله، كقوله تعالى: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾. ﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ أي لا تترك على وجه الأرض منهم أحداً، ولا ﴿دياراً﴾ وهذه من صيغ تأكيد النفي، قال الضحّاك ﴿دياراً﴾ واحداً، وقال السدي: الديار الذي يسكن الدار، فاستجاب الله له فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين، حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن أبيه. وقال: ﴿سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم امرأة لما رأت الماء حملت ولدها، ثم صعدت الجبل، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم هذه المرأة»[1]، ونجى الله أصحاب السفينة الذين آمنوا مع نوح عليه السلام وهم الذين أمره الله بحملهم معه، وقوله تعالى: ﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك﴾ أي إنك إن أبقيت منهم أحداً، أضلوا عبادك أي الذين تخلقهم بعدهم ﴿ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾ أي فاجراً في الأعمال كافر القلب، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم قال: ﴿رب اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً﴾ قال الضحّاك يعني مسجدي، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن. وقد روى الإمام أحمد، عن أبي سعيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تصحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي»[2]، وقوله تعالى: ﴿وللمؤمنين والمؤمنات﴾ دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات وذلك يعم الأحياء منهم والأموات، ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء اقتداء بنوح عليه السلام، وبما جاء في الآثار، والأدعية المشهورة المشروعة، وقوله تعالى: ﴿ولا تزد الظالمين إلا تباراً﴾ قال السدي: إلا هلاكاً، وقال مجاهد: إلا خساراً أي في الدنيا والآخرة.

[آخر تفسير سورة نوح عليه السلام، ولله الحمد]

* * *

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، قال ابن كثير: حديث غريب ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧)﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ، أن يخبر قومه أن الجن استمعوا القرآن، فآمنوا به وصدقوه وانقادوا له فقال تعالى: ﴿قل أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً * يهدي إلى الرشد﴾ أي إلى السداد والنجاح ﴿فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً﴾ كقوله تعالى: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن﴾، وقوله تعالى: ﴿وأنه تعالى جد ربنا﴾ قال ابن عباس ﴿جد ربنا﴾ آلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه، وقال مجاهد: جلال ربنا، وقال قتادة: تعالى جلاله وعظمته وأمره، وقال السدي: تعالى أمر ربنا، وقال سعيد بن جبير: ﴿تعالى جد ربنا﴾ أي تعالى ربنا، وقوله تعالى: ﴿ما اتخذ صاحبة ولا ولداً﴾ أي تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد، أي قالت الجن: تنزه الرب جلَّ جلاله عن اتخاذ الصاحبة والولد، ثم قالوا: ﴿وإنه كان يقول سفيهنا على الله شططاً﴾، قال مجاهد ﴿سفيهنا﴾ يعنون إبليس، ﴿شططاً﴾ أي جوراً، وقال ابن زيد: أي ظلماً كبيراً، ويحتمل أن يكون المراد بقولهم: سفيهنا اسم جنس لكل من زعم أن لله صاحبة أو ولداً، ولهذا قالوا: ﴿وإنه كان يقول سفيهنا﴾ أي قبل إسلامه، ﴿على الله شططاً﴾ أي باطلاً وزوراً، ولهذا قالوا: ﴿وإنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً﴾ أي ما حسبنا أن الإنس والجن، يتمالأون على الكذب على الله تعالى، في نسبة الصاحبة والولد إليه، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾، كانت عادة العرب في جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان، أن يصيبهم بشيء يسوؤهم، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون

بهم من خوفهم منهم ﴿زادوهم رهقاً﴾ أي خوفاً وإرهاباً وذعراً، حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذاً بهم، كما قال قتادة ﴿فزادوهم رهقاً﴾ أي إثماً، وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة، وقال الثوري ﴿فزادوهم رهقاً﴾ أي ازدادت الجن عليهم جرأة، وقال السدي: كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فينزلها فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أضر أنا فيه ومالي أو ولدي أو ماشيتي، قال قتادة: فإذا عاذ بهم من دون الله رهقتهم الجن الأذى عند ذلك، وعن عكرمة قال: كان الجن يفرقون من الإنس كما يفرق الإنس منهم أو أشد، فكان الإنس إذا نزلوا وادياً هرب الجن، فيقول سيد القوم: نعوذ بسيد أهل هذا الوادي، فقال الجن: نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم، فدنوا من الإنس، فأصابوهم بالخبل والجنون، فذلك قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾ أي إثماً[1]، وقال أبو العالية ﴿رهقاً﴾ أي خوفاً، وقال ابن عباس: أي إثماً، وقال مجاهد: زاد الكفار طغياناً. روى ابن أبي حاتم، عن كردم بن أبي السائب الأنصاري قال: خرجت مع أبي من المدينة في حاجة، وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة، فآوانا المبيت إلى راعي غنم، فلما انتهى صف الليل جاء ذئب، فأخذ حملاً من الغنم، فوثب الراعي، فقال: يا عامر الوادي جارك فنادى مناد لا نراه، يقول: يا سرحان أرسله، فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة، وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً﴾ أي لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾

يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرساً شديداً، وحفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها لئلا يسترقون شيئاً من القرآن، وهذا من لطف الله تعالى بخلقه، ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز، ولهذا قال الجن: ﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾ أي من يروم أن يسترق السمع اليوم، يجد له شهاباً مرصداً له، لا يتخطاه ولا يتعداه بل يمحقه ويهلكه، ﴿وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً﴾ أي ما ندري هذا الأمر الذي قد حدث في السماء، لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً، وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل، والخير أضافوه إلى الله عزَّ وجلَّ، وقد ورد في الصحيح: «والشر ليس إليك» وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك، وهذا هو السبب الذي حملهم على تطلب السبب في ذلك، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة، فعرفوا أن هذا هو الذي حفظت من أجله السماء، فآمن من آمن منهم،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

وتمرد في طغيانه من بني، كما تقدم حديث ابن عباس عند قوله في سورة الأحقاف: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن﴾ الآية. ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر، وهو كثرة الشهب في السماء والرمي بها، هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا له، وظنوا أن ذلك لخراب العالم، فأتوا إبليس فحدثوه بالذي كان من أمرهم فقال: ائتوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمها، فأتوه، فشم فقال: صاحبكم بمكة فبعث سبعة نفر من جن نصيبين فقدموا فوجدوا نبي الله ﷺ قائماً يصلي في المسجد الحرام، يقرأ القرآن، فدنوا منه حرصاً على القرآن حتى كادت كلاكلهم تصيبه، ثم أسلموا فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ[1]

وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن الجن ﴿وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك﴾ أي غير ذلك، ﴿كنا طرائق قدداً﴾ أي طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة، قال ابن عباس ومجاهد ﴿كنا طرائق قدداً﴾ أي منا المؤمن ومنا الكافر، وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة العباس بن أحمد الدمشقي قال، سمعت بعض الجن وأنا في منزل لي بالليل ينشد:

قلوب براها الحب حتى تعلقت ... مذاهبها في كل غرب وشارق

تهيم بحب الله والله ربها ... معلقة بالله دون الخلائق

وقوله تعالى: ﴿وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً﴾ أي نعلم أن قدرة الله حاكمة علينا، وأنا لا نعجزه ولو أمعنا في الهرب، فإنه علينا قادر لا يعجزه أحد منا. ﴿وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به﴾ يفتخرون بذلك وهو مفخر لهم وشرف رفيع، وصفة حسنة، وقولهم: ﴿فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾ قال ابن عباس وقتادة: فلا يخاف أن ينقص من حسناته أو يحمل عليه غير سيئاته، كما قال تعالى: ﴿فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾، ﴿وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون﴾ أي منا المسلم ومنا القاسط، وهو الجائر عن الحق الناكب عنه بخلاف المقسط، فإنه العادل، ، ﴿فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً﴾ أي طلبوا لأنفسهم النجاة، ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾ أي وقوداً تسعر بهم، ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقاً * لنفتنهم فيه﴾ اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين: (**أحدهما**): وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام، واستمروا عليها ﴿لأسقيناهم ماء غدقاً﴾ أي كثيراً، والمراد بذلك سعة الرزق كقوله تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات

---

(١) هذه بعض رواية ذكرها السدي.

من السماء والأرض﴾، وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿لنفتنهم فيه﴾ أي لنختبرهم من يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية. قال ابن عباس: ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة﴾ يعني بالاستقامة الطاعة، وقال مجاهد: يعني الإسلام[1]. وقال قتادة: ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة﴾ يقول: لو آمنوا كلهم لأوسعنا عليهم من الدنيا. قال مقاتل: نزلت في كفار قريش حين منعوا المطر سبع سنين، (**والقول الثاني**): ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة﴾ الضلال ﴿لأسقيناهم ماء غدقاً﴾ أي لأوسعنا عليهم الرزق استدراجاً، كما قال تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ وهذا قول أبي مجلز، وحكاه البغوي عن الربيع، وزيد بن أسلم، والكلبي، وله اتجاه ويتأيد بقوله ﴿لنفتنهم فيه﴾، وقوله: ﴿ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً﴾ أي عذاباً مشقاً موجعاً مؤلماً، قال ابن عباس ومجاهد ﴿عذاباً صعداً﴾ أي مشقة لا راحة معها، وعن ابن عباس: جبل في جهنم.

وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً﴾ قال: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله، فأمر الله نبيّه ﷺ أن يوحّده وحده، وقال ابن عباس: لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام، ومسجد إيليا بيت المقدس[2]، وروى ابن جرير، عن سعيد بن جبير قال، قالت الجن لنبي الله ﷺ: كيف لنا أن نأتي المسجد ونحن ناؤون؟ أي بعيدون عنك، وكيف نشهد الصلاة ونحن ناؤون عنك؟ فنزلت: ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً﴾[3]. وقال عكرمة: نزلت في المساجد كلها، وقوله تعالى: ﴿وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً﴾ قال ابن عباس يقول: لما سمعوا النبي ﷺ يتلو القرآن، كادوا يركبونه من الحرص لمّا سمعوه يتلو القرآن، ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه: ﴿قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن﴾ يستمعون القرآن، وقال الحسن: لما قام رسول الله ﷺ يقول: لا إله إلا الله ويدعو الناس إلى ربهم كادت العرب تلبد عليه جميعاً، وقال قتادة: تلبّدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه، فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناوأه[4]، وهو الأظهر لقوله بعده: ﴿قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً﴾ أي قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذبوه، وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به

(١) وكذا قال سعيد بن جبير وعطاء والسدي وابن المسيب ومحمد بن كعب القرظي.

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٣) أخرجه ابن جرير.

(٤) هذا القول مروي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير، وهو اختيار ابن جرير.

من الحق واجتمعوا على عداوته ﴿إنما أدعوا ربي﴾ أي إنما أعبد ربي وحده لا شريك له وأستجير به وأتوكل عليه ﴿ولا أشرك به أحداً﴾ .

وقوله تعالى : ﴿قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً﴾ أي إنما أنا عبد من عباد الله، ليس إليّ من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم، بل المرجع في ذلك كله إلى الله عزّ وجلّ، ثم أخبر عن نفسه أيضاً أنه لا يجيره من الله أحد، أي لو عصيته، فإنه لا يقدر أحد على إنقاذي من عذابه ﴿ولن أجد من دونه ملتحداً﴾ قال مجاهد: لا ملجأ، وقال قتادة: أي لا نصير ولا ملجأ، وفي رواية: لا ولي ولا موئل، وقوله تعالى: ﴿إلا بلاغاً من الله ورسالاته﴾ مستثنى من قوله: ﴿قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً إلا بلاغاً﴾ ويحتمل أن يكون استثناء من قوله: ﴿لن يجيرني من الله أحد﴾ أي لا يجيرني منه ويخلصني إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها عليّ، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾، وقوله تعالى: ﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً﴾ أي أنا رسول الله أبلغكم رسالة الله فمن يعص بعد ذلك فله جزاء ﴿نار جهنم خالدين فيها أبداً﴾ أي لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها، وقوله تعالى: ﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً﴾ أي حتى إذا رأى هؤلاء المشركون ما يوعدون يوم القيـامة، فسيعلمون يومئذ ﴿من أضعف ناصراً وأقل عدداً﴾ هم أم المؤمنون الموحـدون لله تعالى؛ أي بل المشركين لا ناصر لهم بالكلية، وهم أقل عدداً من جنود الله عزّ وجلّ .

قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للناس : إنه لا علم له بوقت الساعة، ولا يدري أقريب وقتها أم بعيد ﴿قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً﴾ أي مدة طويلة، ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول﴾ هـذه كقوله تعالى: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ وهذا يعم الرسول الملكي والبشري، ثم قال تعالى: ﴿فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾ أي يخصه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله، ويساوقونه على ما معه من وحي الله، ولهذا قال: ﴿ليعلم أن قـد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً﴾ ، وقد اختلف المفسرون في الضمير في قوله ﴿ليعلم﴾ إلى من يعود ؟ فقيل: إنه عائد إلى النبي ﷺ، روى ابن جرير، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾ قال: أربعة حفظة من الملائكة مع جبريل ﴿ليعلم﴾ محمد ﷺ ﴿أن قـد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً﴾[1] ، وقال قتادة: ﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾ قال: ليعلم نبي الله أن الرسل قـد

(١) حكاه ابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير .

بلغت عن الله، وأن الملائكة حفظتها ودفعت عنها(١) ، وقيل المراد: ليعلم أهل الشرك أن قد أبلغوا رسالات ربهم، قال مجاهد: ليعلم من كذب الرسل أن قد أبلغوا رسالات ربهم، وفي هذا نظر ، ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله عزَّ وجلّ(٢) ، ويكون المعنى في ذلك أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم، ويكون ذلك كقوله تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾، وكقوله تعالى: ﴿وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾ إلى أمثال ذلك ، مع العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعاً لا محالة ، ولهذا قال بعد ذلك : ﴿وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً﴾ .

[آخر تفسير سورة الجن، ولله الحمد والمنة]



(١) رواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ، واختاره ابن جرير .

(٢) حكاه ابن الجوزي في (زاد المسير) .



(٧٣) سورة المزمل مكية وآياتها عشرون

عن جابر رضي الله عنه قال: اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا: سموا هذا الرجل اسماً يصد الناس عنه، فقالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون، قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر، فتفرق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبي ﷺ فتزمَّل في ثيابه وتدثر فيها، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: ﴿يا أيها المزمل﴾، ﴿يا أيها المدثر﴾[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل، وهو التغطي، وينهض إلى القيام لربه عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾، فقال تعالى: ﴿يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلاً﴾، قال ابن عباس ﴿يا أيها المزمل﴾ يعني يا أيها النائم، وقال قتادة: المزمل في ثيابه، وقال إبراهيم النخعي: نزلت وهو متزمل بقطيفة، وقوله تعالى: ﴿نصفه﴾ بدل من الليل ﴿أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه﴾ أي أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة، أو نقصان قليل، لا حرج عليك في ذلك، وقوله تعالى: ﴿ورتل القرآن ترتيلا﴾ أي اقرأه على تمهل، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره، وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه، قالت عائشة: كان يقرأ السورة فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها، وفي صحيح البخاري عن أنس أنه سئل عن

---

(١) أخرجه الحافظ البزار.

قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت مداً، ثم قرأ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم[١]، وعن أمّ سلمة رضي الله عنها أنها سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت: كان يقطع قراءته آية آية: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ۞ الحمد لله رب العالمين ۞ الرحمن الرحيم ۞ مالك يوم الدين﴾[٢]، وفي الحديث: «يقال لقارئ القرآن: اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»[٣]. وقد قدمنا في أول التفسير الأحاديث الدالة على استحباب الترتيل، وتحسين الصوت بالقراءة، كما جاء في الحديث: «زينوا القرآن بأصواتكم» و«ليس منا من لم يتغن بالقرآن». وقال ابن مسعود: لا تنثروه نثر الرمل، ولا تهذوه هذّ الشعر، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة[٤]، وقوله تعالى: ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ قال الحسن وقتادة: أي العمل به، وقيل: ثقيل وقت نزوله من عظمته، كما قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: أُنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي، فكادت ترض فخذي، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتي في مثل صلصلة الجرس، وهو أشد عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً[٥]. وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته فتضرب بجرانها[٦].

وقوله تعالى: ﴿إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً﴾ قال عمر: الليل كله ناشئة، وقال مجاهد: نشأ إذا قام من الليل، وفي رواية عنه: بعد العشاء، والغرض أن ﴿ناشئة الليل﴾ هي ساعاته وأوقاته، وكل ساعة منه تسمى ناشئة، والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، ولهذا قال تعالى: ﴿هي أشد وطأً وأقوم قيلاً﴾ أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش، ، ولهذا قال تعالى: ﴿إن لك في النهار سبحاً طويلاً﴾، قال أبو العالية ومجاهد: فراغاً طويلاً، وقال قتادة: فراغاً وبغية ومتقلباً، وقال السدي: ﴿سبحاً طويلاً﴾ تطوعاً كثيراً، وقال عبد الرحمن ابن زيد ﴿سبحاً طويلاً﴾ قال: لحوائجك فأفرغ لدينك الليل، وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة، ثم إن الله تبارك وتعالى منَّ على عباده فخففها، ووضعها. روى الإمام أحمد، عن زرارة بن أوفى، عن سعيد بن هشام قال، قلت: يا أمّ المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن، فهممت أن أقوم، ثم بدا لي قيام رسول الله ﷺ، قلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ؟ قالت: ألست تقرأ هذه السورة: ﴿يا أيها المزمل﴾؟ قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي.

(٣) أخرجه أحمد ورواه الترمذي والنسائي.

(٤) رواه البغوي عن ابن مسعود موقوفاً.

(٥) أخرجه البخاري في أول صحيحه.

(٦) الجران: باطن العنق.

قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هـذه السورة فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة[١] .

وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أجعل لرسول الله ﷺ حصيراً يصلي عليه من الليل، فتسامع الناس به فاجتمعوا فخرج كالمغضب وكان بهم رحيماً فخشي أن يكتب عليهم قيـام الليل فقال: «أيها الناس أكلفوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل وخير الأعمال ما ديم عليه» ونزل القرآن: ﴿يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً * نصفه أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه﴾ حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق، فمكثوا بذلك ثمانية أشهر فرأى الله ما يبتغون من رضوانه فرحمهم فردهم إلى الفريضة وترك قيام الليل .

وقال ابن جرير : لما نزلت ﴿يا أيها المزمل﴾ قاموا حولاً حتى ورمت أقدامهم وسوقهم حتى نزلت: ﴿فاقرأوا ما تيسر منه﴾ قال: فاستراح الناس . وقوله تعالى: ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً﴾ أي أكثر من ذكره، وانقطع إليه، وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك، كما قال تعالى: ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ إي إذا فرغت من أشغالك فانصب في طاعته، وعبادته لتكون فارغ البال، ﴿وتبتل إليه تبتيلاً﴾ أي أخلص له العبادة، وقال الحسن: اجتهد وابتل إليه نفسك، وقال ابن جرير : يقال للعـابد متبتل، ومنه الحديث المروي (نهى عن التبتل) يعني الانقطاع إلى العبادة وترك التزوج، وقوله تعالى: ﴿رب المشرق والمغرب لا آله إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾ أي هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب الذي لا إله إلا هو ، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل فاتخذه وكيلاً، كما قال تعالى : ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾، وكقوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ .

وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر ، على ما يقوله سفهاء قومه، وأن يهجرهم هجراً جميلاً، وهو الذي لا عتاب معه، ثم قال له متهدداً لكفار قومه: ﴿وذرني والمكذبين أولي النعمة﴾ أي والمكذبين المترفين أصحاب الأموال، ﴿ومهلهم قليلاً﴾ أي رويداً، كما قال تعالى: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿إن لدينا أنكالاً﴾ وهي القيود، قاله ابن عباس وعكرمة والسدي وغير واحد، ﴿وجحيماً﴾ وهي السعير المضطرمة، ﴿وطعاماً ذا غصة﴾ قال ابن عباس: ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج، ﴿وعذاباً أليماً * يوم ترجف الأرض

(١) أخرجه الإمام أحمد ، وهو جزء من حديث طويل ، وقد رواه مسلم في صحيحه بنحوه .

والجبال﴾ أي تزلزل، ﴿وكانت الجبال كثيباً مهيلاً﴾ أي تصير ككثبان الرمال بعد ما كانت حجارة صماء، ثم إنها تنسف نسفاً فلا يبقى منها شيء إلا ذهب، حتى تصير الأرض ﴿قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً﴾ أي وادياً ﴿ولا أمتاً﴾ أي رابية، ومعناه لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع، ثم قال تعالى مخاطباً لكفار قريش والمراد سائر الناس: ﴿إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم﴾ أي بأعمالكم، ﴿كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً * فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً﴾، قال ابن عباس ﴿أخذاً وبيلاً﴾ أي شديداً، فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول، فيصيبكم ما أصاب فرعون حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، كما قال تعالى: ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾، وقوله تعالى: ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً﴾ أي فكيف تخافون أيها الناس يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به؟ وكيف يحصل لكم أمان من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم؟ ومعنى قوله: ﴿يوماً يجعل الولدان شيباً﴾ أي من شدة أهواله وزلازله وبلابله، وذلك حين يقول الله تعالى لآدم: ابعث بعث النار، فيقول: من كم؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة، وقوله تعالى: ﴿السماء منفطر به﴾ قال الحسن وقتادة: أي بسببه من شدته وهوله، وقوله تعالى: ﴿كان وعده مفعولاً﴾ أي كان وعد هذا اليوم مفعولاً، أي واقعاً لا محالة وكائناً لا محيد عنه.

إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى: ﴿إنَّ هذِهِ﴾ أي السورة ﴿تذكرة﴾ أي يتذكر بها أولو الألباب، ولهذا قال تعالى: ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي ممن شاء الله تعالى هدايته، ثم قال تعالى: ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك﴾ أي تارة هكذا وتارة هكذا، وذلك كله من غير قصد منكم، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل، لأنه يشق عليكم، ولهذا قال: ﴿والله يقدّر الليل والنهار﴾ أي تارة يعتدلان، وتارة يأخذ هذا من هذا، وهذا من هذا، ﴿علم أن لن تحصوه﴾ أي الفرض الذي أوجبه عليكم ﴿فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾ أي من غير تحديد بوقت، أي ولكن قوموا من الليل ما تيسر، وعبر عن الصلاة بالقراءة كما قال: ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ أي بقراءتك ﴿ولا تخافت بها﴾، وقد استدل أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية وهي قوله: ﴿فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾ على أنه لا يجب تعين قراءة الفاتحة في الصلاة، واعتضد

بحديث المسيء صلاته : « ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن »[1] ، وقد أجاب الجمهور بحديث عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب »[2] . وعن أبي هريرة مرفوعاً: « لا تجزيء صلاة من لم يقرأ بأُمّ القرآن »[3] . وقوله تعالى: ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله﴾ أي علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار، من مرضى لا يستطيعون القيام ومسافرين يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر، وآخرين مشغولين بالغزو في سبيل الله، ولهذا قال تعالى: ﴿ فاقرأوا ما تيسر منه﴾ أي قوموا بما تيسر عليكم منه، روى ابن جرير، عن أبي رجاء قال، قلت للحسن : يا أبا سعيد ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه، ولا يقوم به إنما يصلي المكتوبة ؟ قال: يتوسد القرآن لعن الله ذاك، قال الله تعالى للعبد الصالح: ﴿ وإنه لذو علم لما علمناه﴾، ﴿ وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا أباؤكم﴾، قلت: يا أبا سعيد قال الله تعالى ﴿ فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾، قال: نعم، ولو خمس آيات، وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصري، أنه كان يرى حقاً واجباً على حملة القرآن، أن يقوموا ولو بشيء منه في الليل، ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل نام حتى أصبح ؟ فقال: « ذاك رجُل بال الشيطان في أُذنه » فقيل معناه نام عن المكتوبة، وقيل عن قيام الليل .

وقوله تعالى: ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم وآتوا الزكاة المفروضة، وهذا يدل لمن قال بأن فرض الزكاة نزل بمكة، لكن مقادير النصب والمخرج لم تبين إلا بالمدينة والله أعلم، وقد قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد: إن هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل: « خمس صلوات في اليوم والليلة »، قال: هل عليّ غيرها ؟ قال: « لا ، إلّا أن تطوّع » ، وقوله تعالى: ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ يعني من الصدقات، فإن الله يجازي على ذلك أحسن الجزاء وأوفره كما قال تعالى: ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾، وقوله تعالى: ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾ أي جميع ما تقدموه بين أيديكم فهو لكم حاصل، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا، عن عبدالله بن مسعود قال رسول الله ﷺ : « أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه ؟ » قالوا: يا رسول الله، مامنا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: « اعلموا ما تقولون »، قالوا: ما نعلم إلا ذلك يارسول الله، قال: « إنما مال أحدكم ما قدّم، ومال وارثه ما أخر »[4] ، ثم قال تعالى: ﴿ واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ أي أكثروا من ذكره واستغفاره في أموركم كلها ، فإنه غفور رحيم لمن استغفره .

[آخر سورة المزمل ، ولله الحمد والمنة]

* * *

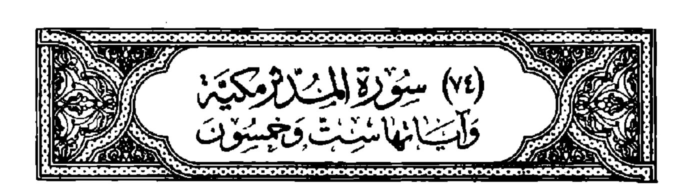
---

(١) جزء من حديث مشهور رواه الشيخان .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم .

(٣) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه .

(٤) أخرجه الحافظ الموصلي ، ورواه البخاري والنسائي بنحوه .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾

روى البخاري، عن جابر بن عبدالله، أن رسول الله ﷺ قال: « جاورت بحراء فلما قضيت جواري، هبطت فنوديت، فنظرت عن يميني، فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة، فقلت: دثروني وصبوا عليَّ ماء بارداً—قال— فدثروني وصبوا عليَّ ماء بارداً، قال، فنزلت: ﴿ يا أيها المدثر * قُمْ فأنذر * وربك فكبّر ﴾[1]. وعن أبي سلمة قال: أخبرني جابر بن عبدالله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدِّث عن فترة الوحي فقال في حديثه: « فبينا أنا أمشي إذْ سمعتُ صوتاً من السماء، فرفعت بصري قِبَل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت إلى أهلي فقلت: زملوني. زملوني، فزملوني، فأنزل: ﴿ يا أيها المدثر * قُمْ فأنذر – إلى – فاهجر ﴾، قال أبو سلمة: والرجز: الأوثان، « ثم حمي الوحي وتتابع »[2]. وهذا السياق يقتضي أنه قـد نزل الوحي قبل هذا لقوله: « فإذا الملك الذي كان بحراء، » وهو جبريل حين أتاه بقوله: ﴿ اِقْرَأْ باسْمِ ربّك الذي خلق ﴾، ثم إنه حصل بعد هذا فترة ثم نزل الملك بعد هذا، كما قال الإمام أحمد، عن جابر بن عبد الله، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « ثم فتر الوحي عني فترة، فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قِبَل السماء فإذا الملك الذي جاءني قاعـد على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه فرقاً حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي، فقلت لهم: زملوني. زملوني، فزملوني، فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيها المدثر *

(١) رواه البخاري.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

قُمْ فأنذر * وربك فكبِّر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر﴾ ثم حمي الوحي وتتابع »[١]. وروى الطبراني، عن ابن عباس قال: إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً فلما أكلوا منه قال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: ليس بساحر، وقال بعضهم: كاهن، وقال بعضهم: ليس بكاهن، وقال بعضهم: شاعر، وقال بعضهم: ليس بشاعر، وقال بعضهم: بل ساحر يؤثر، فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فحزن وقنّع رأسه وتدثر، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر﴾ وقوله تعالى ﴿قم فأنذر﴾ أي شمر عن ساق العزم وأنذر الناس ﴿وربك فكبر﴾ أي عظِّم ﴿وثيابك فطهِّر﴾ سئل ابن عباس عن هذه الآية: ﴿وثيابك فطهر﴾ فقال: لا تلبسها على معصية ولا على غدرة، ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدرة أتقنع

وفي رواية عنه: فطهر من الذنوب، وقال مجاهد: ﴿وثيابك فطهر﴾ قال: نفسك ليس ثيابه، وفي رواية عنه: أي عملك فأصلح، وقال قتادة: ﴿وثيابك فطهر﴾ أي طهرها من المعاصي، وقال محمد بن سيرين: ﴿وثيابك فطهر﴾ أي اغسلها بالماء، وقال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه، وهذا القول اختاره ابن جرير، وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب، فإن العرب تطلق الثياب عليه. وقال سعيد بن جبير ﴿وثيابك فطهر﴾ وقلبك ونيتك فطهر.

وقوله تعالى: ﴿والرجز فاهجر﴾ قال ابن عباس: والرجز وهو الأصنام فاهجر[٢]، وقال الضحّاك ﴿والرجز فاهجر﴾: أي اترك المعصية، وعلى كل تقدير، فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك كقوله تعالى: ﴿يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾. وقوله تعالى: ﴿ولا تمنن تستكثر﴾، قال ابن عباس: لا تعط العطية تلتمس أكثر منها، وقال الحسن البصري: لا تمتن بعملك على ربك تستكثره، واختاره ابن جرير، وقال مجاهد: لا تضعف أن تستكثر من الخير، قال: تمنن في كلام العرب تضعف، وقال ابن زيد: لا تمنن بالنبوة على الناس تستكثرهم بها تأخذ عليه عوضاً من الدنيا، فهذه أربعة أقوال، والأظهر القول الأول، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿ولربك فاصبر﴾ أي اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك عزَّ وجلَّ، قاله مجاهد. وقال إبراهيم النخعي: اصبر عطيتك لله عزَّ وجلَّ. وقوله تعالى: ﴿فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير﴾ قال ابن عباس ومجاهد: ﴿الناقور﴾ الصور، قال مجاهد: وهو كهيئة القرن، وفي الحديث: « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ؟ » فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: « قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا »[٣]، وقوله تعالى: ﴿فذلك يومئذ يوم عسير﴾ أي شديد، ﴿على الكافرين غير يسير﴾ أي غير سهل عليهم، كما قال تعالى: ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾، وقد روينا عن (زرارة بن أوفى)

(١) خرجه أحمد والشيخان.

(٢) وهو قول مجاهد وعكرمة وقتادة والزهري وابن زيد أن الرجز يراد به الأوثان.

(٣) أخرجه أحمد وابن أبي حاتم.

قاضي البصرة أنه صلى بهم الصبح فقرأ هذه السورة، فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿ فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾ شهق شهقة، ثم خرّ ميتاً رحمه الله تعالى.

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى متوعداً لهذا الخبيث، الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا، فكفر بأنعم الله وبدلها كفراً، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها، وقد عدّد الله عليه نعمه حيث قال تعالى: ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ أي خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد، ثم رزقه الله تعالى: ﴿ مالاً ممدوداً ﴾ أي واسعاً كثيراً، قيل: ألف دينار، وقيل: مائة ألف دينار، وقيل أرضاً يستغلها، وقيل غير ذلك، وجعل له ﴿ بنين شهوداً ﴾ قال مجاهد: لا يغيبون، أي حضوراً عنده لا يسافرون، وهم قعود عند أبيهم يتمتع بهم ويتملى بهم، وكانوا فيما ذكره السدي ثلاثة عشر، وقال ابن عباس ومجاهد: كانوا عشرة، وهذا أبلغ في النعمة، وهو إقامتهم عنده، ﴿ ومهدت له تمهيداً ﴾ أي مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك، ﴿ ثم يطمع أن أزيد * كلا إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ أي معانداً وهو الكفر على نعمه بعد العلم. قال الله تعالى: ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾. روى ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ قال: «هو جبل في النار من نار يكلف أن يصعده، فإذا وضع يده ذابت، وإذا رفعها عادت»[1]، وقال ابن عباس ﴿ صعوداً ﴾ صخرة في جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه، وقال السدي: ﴿ صعوداً ﴾: صخرة ملساء في جهنم يكلف أن يصعدها، وقال مجاهد: ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ أي مشقة من العذاب، وقال قتادة: عذاباً لا راحة فيه، واختاره ابن جرير، وقوله تعالى: ﴿ إنه فكر وقدر ﴾ أي إنما أرهقناه صعوداً لبعده عن الإيمان لأنه فكّر ﴿ وقدّر ﴾ أي تروّى ماذا يقول في القرآن حين سئل عن القرآن ففكّر ماذا يختلق من المقال ﴿ وقدّر ﴾ أي تروّى ﴿ فقتل كيف قدّر * ثم قتل كيف قدّر ﴾ دعاء عليه ﴿ ثم نظر ﴾ أي أعاد النظرة والتروي ﴿ ثم عبس ﴾ أي قبض بين عينيه وقطّب ﴿ وبسر ﴾ أي كلح وكره، ومنه قول توبة بن حمير:

وقد رابني منها صدود رأيته ... وإعراضها عن حاجتي وبُسُورها

وقوله تعالى: ﴿ ثم أدبر واستكبر ﴾ أي صرف عن الحق، ورجع القهقرى مستكبراً عن الانقياد للقرآن ﴿ فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾ أي هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم، ولهذا قال: ﴿ إن هذا

---

(١) رواه ابن أبي حاتم والبزار وابن جرير.

إلا قول البشر﴾ أي ليس بكلام الله، وهذا المذكور في هذا السياق هو (الوليد بن المغيرة) المخزومي، أحد رؤساء قريش لعنه الله، قال ابن عباس: «دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر، فسأله عن القرآن، فلما أخبره خرج على قريش فقال: يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة فوالله ما هو بشعر، ولا بسحر، ولا بهذي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله، فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا، وقالوا: والله لئن صبا الوليد لتصبو قريش، فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه، فانطلق حتى دخل عليه بيته، فقال الوليد: ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: ألست أكثرهم مالاً وولداً؟ فقال له أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه، فقال الوليد: أقد تحدث به عشيرتي؟ فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة، وما قوله إلا سحر يؤثر، فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ إلى قوله ﴿لا تبقي ولا تذر﴾[1] وقال قتادة: زعموا أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال الرجل، فإذا هو ليس بشعر وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يعلى عليه وما أشك أنه سحر فأنزل الله: ﴿فقتل كيف قدّر﴾ الآية، ﴿ثم عبس وبسر﴾ قبض ما بين عينيه وكلح، وروى ابن جرير عن عكرمة: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام، فأتاه فقال: أي عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لم؟ قال: يعطونكه، فإنك أتيت محمداً تعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما قال، وأنك كاره له، قال: فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أتفكر فيه، فلما فكر قال: إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره، فنزلت: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ حتى بلغ ﴿تسعة عشر﴾[2]. وقد زعم السدي أنهم لما اجتمعوا في دار الندوة ليجمعوا رأيهم على قول يقولونه فيه قبل أن يقدم عليهم وفود العرب للحج ليصدوهم عنه، فقال قائلون: شاعر، وقال آخرون: ساحر، وقال آخرون: كاهن، وقال آخرون: مجنون، كما قال تعالى: ﴿أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾، كل هذا والوليد يفكر فيما يقوله فيه، ففكر وقدر، ونظر وعبس وبسر، فقال: (إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر) قال الله تعالى: ﴿سأصليه سقر﴾ أي سأغمره فيها من جميع جهاته، ثم قال تعالى: ﴿وما أدراك ما سقر﴾؟ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم، ثم فسر ذلك بقوله تعالى: ﴿لا تبقي ولا تذر﴾ أي تأكل لحومهم وعروقهم وعصبهم وجلودهم، ثم تبدل غير ذلك وهم في ذلك لا يموتون ولا يحيون.

وقوله تعالى: ﴿لواحة للبشر﴾ قال مجاهد: أي للجلد، وقال أبو رزين: تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل، وقال ابن عباس: تحرق بشرة الإنسان، وقوله تعالى: ﴿عليها تسعة عشر﴾ أي من مقدمي الزبانية، عظيم خلقهم، غليظ خُلُقهم، روى ابن أبي حاتم، عن البراء في قوله تعالى: ﴿عليها تسعة عشر﴾ قال: إن رهطاً من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ عن خزنة جهنم، فقال: الله ورسوله أعلم، فجاء رجل فأخبر

---

(١) أخرجه العوفي عن ابن عباس.

(٢) رواه ابن جرير.

النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى عليه ساعتئذ ﴿عليها تسعة عشر﴾ فأخبر أصحابه[1]. وروى الحافظ البزار عن جابر ابن عبدالله رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، غلب أصحابك اليوم، فقال: «بأي شيء»؟ قال: سألتهم يهود: هل أعلمكم نبيكم عدة خزنة أهل النار؟ قالوا: لا نعلم حتى نسأل نبينا ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «أفغلب قوم يسألون عما لا يعلمون فقالوا: لا نعلم، حتى نسأل نبينا ﷺ؟ عليَّ بأعداء الله، لكنهم قد سألوا نبيهم أن يريهم الله جهرة»، فأرسل إليهم فدعاهم، قالوا: يا أبا القاسم كم عدة خزنة أهل النار؟ قال: «هكذا» وطبّق كفيه، ثم طبق كفيه مرتين وعقد واحدة، وقال لأصحابه: «إن سئلتم عن تربة الجنة فهي الدرمك» فلما سألوه فأخبرهم بعدة خزنة أهل النار، قال لهم رسول الله ﷺ: «ما تربة الجنة» فنظر بعضهم إلى بعض، فقالوا: خبزة يا أبا القاسم، فقال: «الخبز من الدرمك»[2].

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وما جعلنا أصحاب النار﴾ أي خزانها ﴿إلا ملائكة﴾ أي زبانية غلاظاً شداداً، وذلك رد على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزنة، فقال أبو جهل: يا معشر قريش أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم، فقال الله تعالى: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ أي شديدي الخلق لا يقاومون ولا يغالبون، وقد قيل: إن (أبا الأشدين) قال: يا معشر قريش اكفوني منهم اثنين، وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر إعجاباً منه بنفسه، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة، ويجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدميه، فيتمزق الجلد، ولا يتزحزح عنه، قال السهيلي: وهو الذي دعا رسول الله ﷺ إلى مصارعته، وقال: إن صرعتني آمنت بك، فصرعه النبي ﷺ مراراً فلم يؤمن[3]، وقوله تعالى: ﴿وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾ أي إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختباراً منا للناس، ﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب﴾ أي يعلمون أن هذا الرسول حق، فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله، وقوله تعالى: ﴿ويزداد الذين آمنوا إيمانًا﴾ أي إلى إيمانهم بما يشهدون من صدق أخبار نبيهم ﷺ، ﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض﴾ أي من المنافقين، ﴿والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾؟

---

(١) رواه ابن أبي حاتم.

(٢) رواه البزار وأحمد والترمذي.

(٣) نسب ابن إسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد، قال ابن كثير: ولا منافاة بين ما ذكراه والله أعلم.

أي يقولون ما الحكمة في ذكر هذا ههنا؟ قال الله تعالى: ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، وقوله تعالى: ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ أي ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى، لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط، وقد ثبت في حديث الإسراء في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة: «فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم»[1]

وروى الإمام أحمد، عن أبي ذر قال، قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولا تلذذتم بالنساء على الفرشات، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى» فقال أبو ذر: والله لوددت أني شجرة تعضد[2]، وعن جابر بن عبدالله قال، قال رسول الله ﷺ: «ما في السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف، إلا وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راكع، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لم نشرك بك شيئاً»[3]. وعن ابن مسعود أنه قال: إن من السماوات سماء ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك أو قدماه قائم، ثم قرأ: ﴿وإنا لنحن الصافون * وإنا لنحن المسبحون﴾[4]. وروى محمد ابن نصر، عن عباد بن منصور قال: سمعت عدي بن أرطأة وهو يخطبنا على منبر المدائن قال: سمعت رجلاً من أصحاب النبي ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تعالى ملائكة ترعد فرائصهم من خيفته، ما منهم ملك تقطر منه دمعة من عينه إلا وقعت على ملك يصلي، وإن منهم ملائكة سجوداً منذ خلق السماوات والأرض لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، فإذا رفعوا رؤوسهم نظروا إلى وجه الله عزَّ وجلَّ قالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك»[5]. وقوله تعالى: ﴿وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ أي النار التي وصفت ﴿إلا ذكرى للبشر﴾، ثم قال تعالى: ﴿ كلا والقمر * والليل إذ أدبر﴾ أي ولى ﴿والصبح إذا أسفر﴾ أي أشرق ﴿إنها لإحدى الكبر﴾ أي العظائم يعني النار، قاله ابن عباس ومجاهد، ﴿نذيراً للبشر * لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر﴾ أي لمن شاء أن يقبل النذارة ويهتدي للحق، أو يتأخر عنها ويولي ويردها.

كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ

(١) أخرجاه في الصحيحين.

(٢) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن غريب.

(٣) أخرجه الحافظ الطبراني.

(٤) أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة. (٥) أخرجه محمد بن نصر، قال ابن كثير: إسناده لا بأس به.

ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى مخبراً أن ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ أي معتقلة بعملها يوم القيامة ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ فإنهم ﴿ في جنات يتساءلون عن المجرمين ﴾ أي يسألون المجرمين وهم في الغرفات، وأولئك في الدركات قائلين لهم ﴿ ما سَلَكَكُمْ في سقر * قالوا لم نَكُ من المصلِّين * ولم نَكُ نُطعِمُ المسكين ﴾ أي ما عبدنا ربنا ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا، ﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ أي نتكلم فيما لا نعلم، وقال قتادة: كلما غوى غاوٍ غوينا معه، ﴿ وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين ﴾ يعني الموت كقوله تعالى: ﴿ وأعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾، وقال رسول الله ﷺ: « أما هو – يعني عثمان بن مظعون – فقد جاءه اليقين من ربه » قال تعالى: ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ أي من كان متصفاً بمثل هذه الصفات، فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه، لأن الشفاعة إنما تنجح إذا كان المحل قابلاً، فأما من وافى الله كافراً، فإن له النار لا محالة خالداً فيها . ثم قال تعالى: ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ﴾ أي فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك عما تدعوهم إليه وتذكرهم به معرضين ﴿ كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ﴾ أي كأنهم في نفارهم عن الحق، وإعراضهم عنه، حمر من حمر الوحش إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد[1]، وقوله تعالى: ﴿ بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ﴾ أي بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاب كما أنزل الله على النبي ﷺ، قال مجاهد وغيره كقوله تعالى: ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى يؤتى مثل ما أوتي رسل الله ﴾، وفي رواية عن قتادة: يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل، فقوله تعالى: ﴿ كلا بل لا يخافون الآخرة ﴾ أي إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها وتكذيبهم بوقوعها، ثم قال تعالى: ﴿ كلا إنه تذكرة ﴾ أي حقاً إن القرآن تذكرة، ﴿ فمن شاء ذكره وما يذكرون إلا أن يشاء الله ﴾ كقوله : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾، وقوله تعالى: ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ أي هو أهل أن يخاف منه، وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأناب . عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ الآية ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ وقال: « قال ربكم أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معي إلّه ، فمن اتقى أن يجعل معي إلهاً كان أهلاً أن أغفر له »[2]

[آخر تفسير سورة المدثر ، ولله الحمد والمنة]

❊ ❊ ❊

(١) قاله أبو هريرة وابن عباس وزيد بن أسلم ، وهو قول الجمهور .

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه من حديث زيد بن الحباب .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾

قد تقدم أن المقسم عليه إذا كان منتفياً جاز الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفي، والمقسم عليه ههنا هو إثبات المعاد، والرد على ما يزعمه الجهلة من عدم بعث الأجساد، ولهذا قال تعالى: ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللَّوَّامة﴾ قال الحسن: أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة، وقال قتادة: بل أقسم بهما جميعاً، والصحيح أنه أقسم بهما معاً وهو المروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير، واختاره ابن جرير، فأما يوم القيامة فمعروف، وأما النفس اللوامة فقال الحسن البصري: إن المؤمن والله ما نراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي، ما أردت بأكلتي، ما أردت بحديث نفسي، وإن الفاجر يمضي قدماً قدماً ما يعاتب نفسه، وعن سماك أنه سأل عكرمة عن قوله ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ قال: يلوم على الخير والشر: لو فعلت كذا وكذا، وعن سعيد بن جبير قال: تلوم على الخير والشر، وقال مجاهد: تندم على ما فات وتلوم عليه، وقال ابن عباس: اللوامة المذمومة، وقال قتادة: ﴿ اللوامة﴾ الفاجرة، قال ابن جرير: وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر، وتندم على ما فات. وقوله تعالى: ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه﴾ ؟ أي يوم القيامة، أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة ؟ ﴿ بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ قال ابن عباس:

أن نجعله خفاً أو حافراً[1]، والظاهر من الآية أن قوله تعالى: ﴿ قادرين ﴾ حال من قوله تعالى ﴿ نجمع ﴾ أي أيظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه؟ بلى سنجمعها قادرين على أن نسوي بنانه، أي قدرتنا صالحة لجمعها، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان، فنجعل بنانه وهي أطراف أصابعه مستوية، وهذا معنى قول ابن قتيبة والزجاج، وقوله: ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾ قال ابن عباس: يعني يمضي قدماً، وعنه: يقول الإنسان: أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة، ويقال: هو الكفر بالحق بين يدي القيامة، وقال مجاهد ﴿ ليفجر أمامه ﴾: ليمضي أمامه راكباً رأسه، وقال الحسن: لا يلقى ابن آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قدماً قدماً إلا من عصمه الله تعالى، وروي عن غير واحد من السلف: هو الذي يعجل الذنوب ويسوّف التوبة، وقال ابن عباس: هو الكافر يكذب بيوم الحساب، وهذا هو الأظهر من المراد، ولهذا قال بعده: ﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾؟ أي يقول متى يكون يوم القيامة، وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه وتكذيب لوجوده، كما قال تعالى: ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾، وقال تعالى ههنا: ﴿ فإذا برق البصر ﴾ بكسر الراء أي حار كقوله تعالى: ﴿ لا يرتد إليهم طرفهم ﴾، والمقصود أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتحار وتذل من شدة الأهوال، ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور.

وقوله تعالى: ﴿ وخسف القمر ﴾ أي ذهب ضوؤه، ﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ قال مجاهد: كوّرا، كقوله ﴿ إذا الشمس كوّرت ﴾، وقوله تعالى: ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر ﴾ أي إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة، حينئذ يريد أن يفر ويقول: ﴿ أين المفر ﴾؟ أي هل من ملجأ أو موئل، قال الله تعالى: ﴿ كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس: أي لا نجاة، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير ﴾ أي ليس لكم مكان تتنكرون فيه، وكذا قال ههنا: ﴿ لا وزر ﴾ أي ليس لكم مكان تعتصمون فيه، ولهذا قال: ﴿ إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ أي المرجع والمصير، ثم قال تعالى: ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخر ﴾ أي يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها، أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها كما قال تعالى: ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾، وهكذا قال ههنا: ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾ أي هو شهيد على نفسه عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر، كما قال تعالى: ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ وقال ابن عباس ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾ يقول: سمعه وبصره ويديه ورجليه وجوارحه، وقال قتادة: شاهد على نفسه، وفي رواية قال: إذا شئت والله رأيته بصيراً بعيوب الناس وذنوبهم، غافلاً عن ذنوبه وكان يقال: إن في الإنجيل مكتوباً: يا ابن آدم تبصر القذاة في عين أخيك، وتترك الجذع في عينك لا تبصره، وقال مجاهد: ﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ ولو جادل عنها فهو بصير عليها، وقال قتادة: ﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه، وقال السدي: ﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ حجته، واختاره ابن جرير، وقال الضحّاك: ولو ألقى ستوره، وأهل اليمن يسمون الستر المعذار، والصحيح قول مجاهد وأصحابه، كقوله تعالى: ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾، وكقوله تعالى: ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون

---

(١) وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحّاك، قال ابن جرير: أي في الدنيا لو شاء لجعل ذلك.

لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون﴾، وقال ابن عباس: ﴿ولو ألقى معاذيره﴾ هي الاعتذار ألم تسمع أنه قال: ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم﴾؟

لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾

هذا تعليم من الله عزَّ وجلَّ لرسول الله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله عزَّ وجلَّ أن يستمع له، وتكفل الله له أن يجمعه في صدره، وأن يبينه له ويوضحه، فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوته، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه، ولهذا قال تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ أي بالقرآن كما قال تعالى: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾ الآية، ثم قال تعالى: ﴿إن علينا جمعه﴾ أي في صدرك، ﴿وقرآنه﴾ أي أن تقرأه، ﴿فإذا قرأناه﴾ أي إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى ﴿فاتبع قرآنه﴾ أي فاستمع له ثم اقرأه كما أقرأك، ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ أي بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا. عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة فكان يحرك شفتيه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه﴾ قال: جمعه في صدرك، ثم تقرأه ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ أي فاستمع له وأنصت، ﴿ثم إنَّ علينا بيانه﴾ فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه»[1]. وفي رواية للبخاري: فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عزَّ وجلَّ، وروى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي يلقى منه شدة، وكان إذا نزل عليه عرف في تحريكه شفتيه، يتلقى أوله ويحرك به شفتيه، خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره، فأنزل الله تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾[2]. وقال ابن عباس: كان لا يفتر من القرآن مخافة أن ينساه، فقال الله تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إنا علينا جمعه﴾ أن نجمعه لك ﴿وقرآنه﴾ أن نقرئك فلا تنسى، وقال ابن عباس ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ تبيين حلاله وحرامه، وكذا قال قتادة.

وقوله تعالى: ﴿كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة﴾ أي إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة، أنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة، ثم قال تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ من النضارة أي حسنة بهية مشرقة مسرورة، ﴿إلى ربها ناظرة﴾ أي تراه عياناً، كما رواه البخاري في صحيحه: «إنكم سترون ربكم عياناً» وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عزَّ وجلَّ في الدار الآخرة، في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث، لا يمكن دفعها ولا منعها، لحديث أبي هريرة وهما في الصحيحين أن ناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب؟»

---

(١) أخرجه أحمد ورواه البخاري ومسلم بنحوه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

قالوا: لا ، قال: «إنكم ترون ربكم كذلك»[1]. وفي الصحيحين عن جرير قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر ، فقال: «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا»[2] ، وفي الصحيحين عن أبي موسى قال، قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله عزَّ وجلَّ إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[3]. وفي مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة – قال – يقول الله تعالى تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا! ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار! قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم وهي الزيادة»، ثم تلا هذه الآية: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾[4] ، ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم عزَّ وجلَّ في العرصات وفي روضات الجنات، وروى الإمام أحمد، عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه ألفي سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه، ينظر إلى أزواجه وخدمه، وإن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين»[5] ، قال الحسن ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ قال: حسنة، ﴿إلى ربها ناظرة﴾ قال: تنظر إلى الخالق، وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق، وقوله تعالى: ﴿ووجوه يومئذ باسرة * تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة، قال قتادة: كالحة، وقال السدي: تغير ألوانها، وقال ابن زيد ﴿باسرة﴾ أي عابسة ﴿تظن﴾ أي تستيقن ﴿أن يفعل بها فاقرة﴾ قال مجاهد: داهية، وقال قتادة: شر، وقال السدي: تستيقن أنها هالكة، وقال ابن زيد: تظن أن ستدخل النار، وهذا المقام كقوله تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾، وكقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة﴾، وكقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناعمة * لسعيها راضية * في جنة عالية﴾ وأشباه ذلك من الآيات الكريمة.

كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) أخرجاه في الصحيحين.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) رواه مسلم.

(٥) أخرجه أحمد والترمذي.

يخبر تعالى عن حالة الاحتضار، وما عنده من الأهوال، ثبتنا الله هنالك بالقول الثابت، فقال تعالى: ﴿كلا إذا بلغت التراقي﴾ إن جعلنا (كلا) رادعة فمعناها: لست يا ابن آدم هناك تكذب بما أخبرت به، بل صار ذلك عندك عياناً، وإن جعلناها بمعنى (حقاً) فظاهر أي حقاً إذا بلغت التراقي أي انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك، والتراقي جمع (ترقوة) وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق كقوله تعالى: ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم، وأنتم حينئذ تنظرون، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾، ﴿وقيل من راق﴾؟ قال ابن عباس: أي من راق يرقي؟ وقال أبو قلابة؟ أي من طبيب شاف[1]. وعن ابن عباس: ﴿وقيل من راق﴾ قيل: من يرقى بروحه ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب[2]؟ فعلى هذا يكون من كلام الملائكة، وقال ابن عباس في قوله: ﴿والتفت الساق بالساق﴾ قال: التفت عليه الدنيا والآخرة، وعنه ﴿والتفت الساق بالساق﴾ يقول: آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة، فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحمه الله، وقال عكرمة: ﴿والتفت الساق بالساق﴾ الأمر العظيم بالأمر العظيم، وقال مجاهد: بلاء ببلاء، وقال الحسن البصري: هما ساقاك إذا التفتا، وكذا قال السدي عن الحسن: هو لفهما في الكفن، وقال الضحّاك: ﴿والتفت الساق بالساق﴾ اجتمع عليه أمران: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه.

وقوله تعالى: ﴿إلى ربك يومئذ المساق﴾ أي المرجع والمآب، وذلك أن الروح ترفع إلى السماوات، فيقول الله عزَّ وجلَّ: ردوا عبدي إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أُخرى، كما ورد في حديث البراء الطويل، وقوله جلَّ وعلا: ﴿فلا صدق ولا صلى ولكن كذَّب وتولى﴾ هذا إخبار عن الكافر الذي كان في الدار الدنيا مكذباً للحق بقلبه، متوليـاً عن العمل بقالبه، فلا خير فيه باطناً ولا ظاهراً، ولهذا قال تعالى: ﴿فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى * ثم ذهب إلى أهله يتمطّى﴾ أي جذلان أشراً بطراً، لا همة له ولا عمل، كما قال تعالى: ﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين﴾، وقال تعالى: ﴿إنه كان في أهله مسروراً إنه ظن أن لن يحور﴾ أي يرجع، وقال ابن عباس: ﴿ثم ذهب إلى أهله يتمطّى﴾ أي يختال، وقال قتادة: يتبختر، قال الله تعالى: ﴿أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى﴾ وهذا تهديد ووعيد من الله تعالى للكافر، المتبختر في مشيه، أي يحق لك أن تمشي هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك، وذلك على سبيل التهكم والتهديد، كقوله تعالى: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾، وكقوله تعالى: ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون﴾ وكقوله جلَّ جلاله: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ إلى غير ذلك، عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: ﴿أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى﴾؟ قال: قاله رسول الله ﷺ لأبي جهل، ثم أنزله الله عزَّ وجلَّ[3]. وقال قتادة في قوله: ﴿أولى لك فأولى، ثم أولى لك فأولى﴾ وعيد على أثر وعيد كما تسمعون، وزعموا أن عدو الله أبا جهل أخذ نبيُّ الله ﷺ بمجامع ثيابه ثم قال: «أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى»، فقال عدو الله أبو جهل: أتوعدني يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئاً، وإني لأعز من مشى بين جبليها[4]

---

(١) وكذا قال قتادة والضحّاك وابن زيد.
(٢) ذكره ابن أبي حاتم عن ابن عباس.
(٣) أخرجه النسائي.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن قتادة.

وقوله تعالى: ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ ؟ قال السدي: يعني لا يبعث ، وقال مجاهد: يعني لا يؤمر ولا ينهى ، والظاهر أن الآية تعم الحالين، أي ليس يترك في هذه الدنيا مهملاً، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يترك في قبره سدى لا يبعث، بل هو مأمور منهي في الدنيا محشور إلى الله في الدار الآخرة، والمقصود هنا إثبات المعاد، ولهذا قال تعالى مستدلاً على الإعادة بالبداءة ﴿ ألم يك نطفة من مني يمنى ﴾ أي أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين ﴿ يمنى ﴾ أي يراق من الأصلاب في الأرحام ﴿ ثم كان علقة فخلق فسوّى ﴾ أي فصار علقة ثم مضغة ثم شكل ونفخ فيه الروح فصار خلقاً آخر سوياً، سليم الأعضاء ذكراً أو أنثى بإذن الله وتقديره: ولهذا قال تعالى : ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ ، ثم قال تعالى: ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ ؟ أي أما هذا الذي أنشأ هذا الخلق السوي من هذه النطفة الضعيفة، بقادر على أن يعيده كما بدأه ؟ كقوله تعالى: ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ ، روى أبو داوود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « من قرأ منكم بالتين والزيتون فانتهى إلى آخرها ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، ومن قرأ ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ فانتهى إلى قوله ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ فليقل: بلى، ومن قرأ : ﴿ والمرسلات ﴾ فبلغ ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ ؟ فليقل: آمنا بالله »[1] . وعن قتادة قوله تعالى: ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأها قال: « سبحانك وبلى »[2] . وكان ابن عباس إذا مر بهذه الآية: ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ ؟ قال: سبحانك فبلى[3] .

[آخر تفسير سورة القيامة ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه أبو داود وأحمد ، ورواه الترمذي بنحوه .

(٢) أخرجه ابن جرير .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم .



عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة: ﴿ألم تنزيل﴾ السجدة و ﴿ هل أتى على الإنسان﴾[1] ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان، أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر لحقارته وضعفه، فقال تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ؟﴾ ثم بيّن ذلك فقال جلَّ جلاله: ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج﴾ أي أخلاط، والمشج والمشيج، الشيء المختلط بعضه في بعض، قال ابن عباس: يعني ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور، وحال إلى حال، وقال عكرمة ومجاهد : الأمشاج هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة، وقوله تعالى: ﴿ نبتليه﴾ أي نختبره كقوله جلَّ جلاله : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾، ﴿ فجعلناه سميعاً بصيراً﴾ أي جعلنا له سمعاً وبصراً يتمكن بهما من الطاعة والمعصية، وقوله جلّ وعلا : ﴿ إنا هديناه السبيل﴾ أي بيناه له ووضحناه وبصرناه به كقوله جلَّ وعلا: ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾ ، وكقوله جلَّ وعلا: ﴿ وهديناه النجدين﴾ أي بينا له طريق الخير وطريق الشر، وهذا قول عكرمة ومجاهد والجمهور، وروي عن الضحّاك والسدي ﴿ إنا هديناه السبيل﴾ يعني خروجه من الرحم، وهذا قول غريب، والصحيح المشهور الأول، وقوله تعالى: ﴿ إما شاكراً وإما كفوراً منصوب على الحال من الهاء في قوله: ﴿ إنا هديناه السبيل﴾ تقديره: فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد، كما جاء في الحديث الصحيح: « كل الناس يغدو فبائع نفسه فموبقها أو معتقها »[2] ، وقد تقدم من رواية جابر بن عبد الله رضي الله

(١) أخرجه مسلم في صحيحه .

(٢) رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري .

تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً»[1]، وروى الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما من خارج يخرج إلا ببابه رايتان: راية بيد ملك، وراية بيد شيطان، فإن خرج لما يحب الله اتبعه الملك برايته، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته، وإن خرج لما يسخط الله اتبعه الشيطان برايته فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع إلى بيته»[2]

إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾

يخبر تعالى عما أرصده للكافرين من خلقه، من السلاسل والأغلال والسعير وهو اللهب، والحريق في نار جهنم كما قال تعالى: ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون ۝ في الحميم ثم في النار يسجرون﴾، ولما ذكر ما أعده لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده: ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا﴾، وقد علم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة، مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذة في الجنة، قال الحسن: برد الكافور في طيب الزنجبيل، ولهذا قال: ﴿عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً﴾ أي هذا الذي مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور، هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفاً بلا مزج ويروون بها، قال بعضهم: هذا الشراب في طيبه كالكافور، وقال بعضهم: هو من عين كافور، وقوله تعالى: ﴿يفجرونها تفجيراً﴾ أي يتصرفون فيها حيث شاءوا وأين شاءوا، من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم، والتفجير هو الانباع، كما قال تعالى: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾، وقال: ﴿وفجرنا خلالهما نهراً﴾ وقال مجاهد: ﴿يفجرونها تفجيراً﴾ يقودونها حيث شاءوا، وقال الثوري: يصرفونها حيث شاءوا، وقوله تعالى: ﴿يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً﴾ أي يتعبدون الله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر، وفي الحديث: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»[3]، ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد وهو اليوم الذي يكون ﴿شره مستطيراً﴾ أي منتشراً عاماً على

---

(١) أخرجه أحمد، وقد تقدم في سورة الروم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

(٣) أخرجه البخاري من حديث مالك.

الناس إلا من رحم الله، قال ابن عباس: فاشياً، وقال قتادة: استطار والله شر ذلك اليوم حتى ملأ السماوات والأرض.

وقوله تعالى: ﴿ويطعمون الطعام على حبه﴾ قيل: على حب الله تعالى لدلالة السياق عليه، والأظهر أن الضمير عائد على الطعام، أي ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له، قاله مجاهد ومقاتل، واختاره ابن جرير كقوله تعالى: ﴿وآتى المال على حبه﴾، وكقوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾، وروى البيهقي عن نافع قال: مرض ابن عمر فاشتهى عنباً أول ما جاء العنب، فأرسلت صفية يعني امرأته فاشترت عنقوداً بدرهم، فاتبع الرسول سائل، فلما دخل به قال السائل: السائل، فقال ابن عمر: أعطوه إياه فأعطوه إياه[1]، وفي الصحيح: «أفضل الصدقة أن تصدّق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر» أي في حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾ أما المسكين واليتيم فقد تقدم بيانهما وصفتهما، وأما الأسير فقال الحسن والضحاك: الأسير من أهل القبلة، وقال ابن عباس: كان أسراؤهم يومئذ مشركين، يشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء، وقال عكرمة: هم العبيد، واختاره ابن جرير لعموم الآية للمسلم والمشرك، وقد وصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء حتى كان آخر ما أوصى به أن جعل يقول: «الصلاة وما ملكت أيمانكم» قال مجاهد: هو المحبوس، أي يطعمون الطعام لهؤلاء، وهم يشتهونه ويحبونه قائلين بلسان الحال: ﴿إنما نطعمكم لوجه الله﴾ أي رجاء ثواب الله ورضاه ﴿لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾ أي لا نطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها ولا أن تشكرونا عند الناس، قال مجاهد: أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به، ليرغب في ذلك راغب ﴿إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً﴾ أي إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه في اليوم العبوس القمطرير، قال ابن عباس ﴿عبوساً﴾ ضيقاً ﴿قمطريراً﴾ طويلاً، وقال عكرمة: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران، وقال مجاهد: ﴿عبوساً﴾ العابس الشفتين، ﴿قمطريراً﴾ قال: يقبض الوجه بالبسور، وقال سعيد بن جبير وقتادة: تعبس فيه الوجوه من الهول ﴿قمطريراً﴾ تقلص الجبين وما بين العينين من الهول، وقال ابن زيد: العبوس الشر، والقمطرير الشديد، وقال ابن جرير: والقمطرير هو الشديد، يقال: هو يوم قمطرير ويوم قماطر، ويوم عصيب وعصبصب.

قال الله تعالى: ﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً﴾ وهذا من باب التجانس البليغ، ﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم﴾ أي آمنهم مما خافوا منه، ﴿ولقاهم نضرة﴾ أي في وجوههم، ﴿وسروراً﴾ أي في قلوبهم وهذه كقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة﴾ وذلك أن القلب إذا سر استنار الوجه. قال كعب ابن مالك في حديثه الطويل: وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه فلقة قمر، وقالت عائشة رضي الله عنها: «دخل عليَّ رسول الله ﷺ مسروراً تبرق أسارير وجهه» الحديث. وقوله تعالى: ﴿وجزاهم بما صبروا﴾ أي بسبب صبرهم أعطاهم ونولهم وبوأهم ﴿جنة وحريراً﴾ أي منزلاً رحباً، وعيشاً رغداً، ولباساً حسناً.

---

(١) أخرجه البيهقي عن نافع وفيه أنها أرسلت بدرهم آخر فاشترت به فأعطاه للسائل ثم بدرهم ثالث.

مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم، وما أسبغ عليهم من الفضل العظيم فقال تعالى: ﴿متكئين فيها على الأرائك﴾ تقدم الكلام على ذلك في سورة الصافات، وأن الأرائك هي السرر تحت الحجال، وقوله تعالى: ﴿لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً﴾ أي ليس عندهم حرّ مزعج، ولا برد مؤلم، ﴿ودانية عليهم ظلالها﴾ أي قريبة إليهم أغصانها، ﴿وذلّلت قطوفها تذليلاً﴾ أي متى تعاطاه دنا القطف إليه، تدلى من أعلى غصنه كأنه سامع طائع، كما قال تعالى: ﴿قطوفها دانية﴾ قال مجاهد: إن قام ارتفعت معه بقدر، وإن قعد تذلّلت له حتى ينالها، وإن اضطجع تذلّلت له حتى ينالها فذلك قوله تعالى: ﴿تذليلاً﴾، وقال قتادة: لا يرد أيديهم عنها شوك ولا بعد، وقوله جلّت عظمته: ﴿ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب﴾ أي يطوف عليهم الخدم بأواني الطعام، وهي من فضة، وأكواب الشراب وهي التي لا عرى لها ولا خراطيم، وقوله: ﴿قوارير من فضة﴾ فالأول منصوب بخبر كان، أي كانت قوارير، والثاني منصوب إما على البدلية أو تمييز، قال ابن عباس: بياض الفضة في صفاء الزجاج: والقوارير لا تكون إلا من زجاج، فهذه الأكواب هي من فضة، وهي مع هذا شفافة يرى ما في باطنها من ظاهرها، وهذا مما لا نظير له في الدنيا. قال ابن عباس: ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة، وقوله تعالى: ﴿قدروها تقديراً﴾ أي على قدر ريّهم لا تزيد عنه ولا تنقص. بل هي معدة لذلك مقدرة بحسب ري صاحبها، وهذا أبلغ في الاعتناء والشرف والكرامة، وقال ابن عباس: ﴿قدروها تقديراً﴾ قدرت للكف، وقال الضحّاك: على قدر كف الخادم، وهذا لا ينافي القول الأول، فإنها مقدرة في القدر والري.

وقوله تعالى: ﴿ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً﴾ أي ويسقون - يعني الأبرار أيضاً - في هذه الأكواب ﴿كأساً﴾ أي خمراً، ﴿كان مزاجها زنجبيلاً﴾ فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حار ليعتدل الأمر، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة، وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرفاً كما قاله قتادة وغير واحد. وقد تقدم قوله جل وعلا: ﴿عيناً يشرب بها عباد الله﴾، وقال ههنا: ﴿عيناً فيها تسمى سلسبيلاً﴾ أي الزنجبيل عين في الجنة تسمى سلسبيلاً، قال عكرمة: اسم عين في الجنة. وقال مجاهد: سميت بذلك لسلاسة مسيلها وحدة جريها، وقوله تعالى: ﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون * إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً﴾ أي يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة ﴿مخلدون﴾ أي على حالة

واحدة، مخلدون عليها لا يتغيرون عنها لا تزيد أعمارهم عن تلك السن، وقوله تعالى: ﴿إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً﴾ أي إذا رأيتهم في صباحة وجوههم، وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم ﴿حسبتهم لؤلؤاً منثوراً﴾ ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن، قال قتادة: ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف خادم كل خادم على عمل ما عليه صاحبه، وقوله جل وعلا: ﴿وإذا رأيت﴾ أي وإذا رأيت يا محمد ﴿ثمَّ﴾ أي هناك يعني في الجنة ونعيمها، وسعتها وارتفاعها، وما فيها من الحبرة والسرور ﴿رأيت نعيماً وملكاً كبيراً﴾ أي مملكة لله هناك عظيمة، وسلطاناً باهراً، وثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولاً إليها: «إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها»، وفي الحديث عن ابن عمر مرفوعاً: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه» فإذا كان هذا عطاؤه تعالى لأدنى من يكون في الجنة، فما ظنك بما هو أعلى منزلة وأحظى عنده تعالى؟

وقوله جلَّ جلاله: ﴿عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق﴾ أي لباس أهل الجنة فيها الحرير (**السندس**) وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم، و (**الاستبرق**) وهو ما فيه بريق ولمعان وهو مما يلي الظاهر، كما هو المعهود في اللباس، ﴿وحلوا أساور من فضة﴾ وهذه صفة الأبرار، وأما المقربون فكما قال تعالى: ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير﴾ ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلي قال بعده: ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾ أي طهر بواطنهم من الحسد والحقد، والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة، كما روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: إذ انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة وجدوا هنالك عينين فكأنما ألهموا ذلك فشربوا من إحداهما، فأذهب الله ما في بطونهم من أذى، ثم اغتسلوا من الأخرى، فجرت عليهم نضرة النعيم، فأخبر سبحانه وتعالى بحالهم الظاهر وجمالهم الباطن، وقوله تعالى: ﴿إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً﴾ أي يقال لهم ذلك تكريماً لهم وإحساناً إليهم كما قال تعالى: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾، وكقوله تعالى: ﴿ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾، وقوله تعالى: ﴿وكان سعيكم مشكوراً﴾ أي جزاكم الله تعالى على القليل بالكثير.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

يقول تعالى ممتناً على رسوله ﷺ بما أنزله عليه من القرآن العظيم، ﴿فاصبر لحكم ربك﴾ أي كما أكرمتك بما أنزلت عليك فاصبر على قضائه وقدره، وأعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره، ﴿ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً﴾

أي لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك وتوكل على الله فإن الله يعصمك من الناس، فالآثم هو الفاجر في أفعاله والكفور هو الكافر قلبه، ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً﴾ أي أول النهار وآخره، ﴿ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً﴾، كقوله تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾ الآية، وكقوله تعالى: ﴿يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلاً﴾، ثم قال تعالى منكراً على الكفّار ومن أشبههم حب الدنيا والإقبال عليها، وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم، ﴿إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً﴾ يعني يوم القيامة، ثم قال تعالى: ﴿نحن خلقناهم وشددنا أسرهم﴾، قال ابن عباس ومجاهد: يعني خلقهم ﴿وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً﴾ أي وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة، وبدلنا هم فأعدناهم خلقاً جديداً، وهذا استدلال بالبداءة على الرجعة، وقال ابن جرير: ﴿وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً﴾ أي وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غيرهم كقوله تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأتِ بآخرين وكان الله على ذلك قديراً﴾، وكقوله تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأتِ بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز﴾، ثم قال تعالى: ﴿إن هذه تذكرة﴾ يعني هذه السورة تذكرة، ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي طريقاً ومسلكاً، أي من شاء اهتدى بالقرآن، ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾ أي لا يقدر أحد أن يهدي نفسه ولا يدخل في الايمان ولا يجر لنفسه نفعاً ﴿إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً﴾ أي عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له ويقيض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾، ثم قال: ﴿يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعدَّ لهم عذاباً أليماً﴾ أي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فمن يهده فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

[آخر تفسير سورة الإنسان، ولله الحمد والمنة]





(٧٧) سورة المرسلات مكية وآياتها خمسون

روى البخاري، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غار بمنى، إذ نزلت عليه: ﴿والمرسلات﴾ فإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فِيهِ، وإن فاه لرطب بها، إذا وثبت علينا حية، فقال النبي ﷺ: «اقتلوها» فابتدرناها، فذهبت، فقال النبي ﷺ: «وقيت شركم كما وقيتم شرها»[1]. وقال الإمام أحمد: ثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن عبيدالله عن ابن عباس عن أمه أنها سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عُرفاً، وعن ابن عباس أن أُمّ الفضل سمعته يقرأ: ﴿والمرسلات عُرفاً﴾ فقالت: يا بني أذكرتني بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة ﴿والمرسلات عُرفاً﴾ قال: هي الملائكة[3]، وروي عن أبي صالح أنه قال: هي الرسل. وقال الثوري، عن أبي العبيدين قال: سألت ابن مسعود عن المرسلات عرفاً، قال: الريح: وكذا قال في: ﴿العاصفات عصفاً والناشرات نشراً﴾ إنها الريح، وكذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة، وتوقف ابن جرير في: ﴿المرسلات عرفاً﴾ هل هي الملائكة إذا أرسلت بالعرف، أو كعرف الفرس يتبع بعضهم بعضاً. أو هي

(١) أخرجه البخاري، ورواه مسلم من طريق الأعمش به.

(٢) أخرجاه في الصحيحين من طريق مالك عن الزهري. (٣) وهو قول مسروق وأبي الضحى والسدي والربيع بن أنس.

الرياح إذا هبت شيئاً فشيئاً؟ وقطع بأن ﴿العاصفات عصفاً﴾ الرياح، وتوقف في ﴿الناشرات نشراً﴾ هل هي الملائكة أو الريح كما تقدم، وعن أبي صالح أن ﴿الناشرات نشراً﴾ هي المطر، والأظهر أن ﴿المرسلات﴾ هي الرياح، كما قال تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾، وقال تعالى: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾، وهكذا ﴿العاصفات﴾ هي الرياح، يُقال: عصفت الرياح إذا هبت بتصويت، وكذا ﴿الناشرات﴾ هي الرياح التي تنشر السحاب في آفاق السماء كما يشاء الرب عزَّ وجلَّ. وقوله تعالى: ﴿فالفارقات فرقاً * فالملقيات ذكراً * عذراً أو نذراً﴾ يعني الملائكة فإنها تنزل بأمر الله على الرسل تفرق بين الحق والباطل، والهدى والغي، والحلال والحرام، وتلقي إلى الرسل وحياً فيه إعذار إلى الخلق، وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره، وقوله تعالى: ﴿إنما توعدون لواقع﴾ هذا هو المقسم عليه أي ما وعدتم به من قيام الساعة والنفخ في الصور وبعث الأجساد وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ومجازاة كل عامل بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، إن هذا كله لواقع أي لكائن لا محالة، ثم قال تعالى: ﴿فإذا النجوم طمست﴾ أي ذهب ضوءها كقوله تعالى: ﴿وإذا النجوم انكدرت﴾، وقوله: ﴿وإذا السماء فرجت﴾ أي فطرت وانشقت وتدلت أرجاؤها ووهت أطرافها، ﴿وإذا الجبال نسفت﴾ أي ذهب بها فلا يبقى لها عين ولا أثر، كقوله تعالى: ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾، وقوله تعالى: ﴿وإذا الرسل أقتت﴾ قال ابن عباس: جمعت، كقوله تعالى: ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ وقال مجاهد: ﴿اقتت﴾ أجلت، ثم قال تعالى: ﴿لأي يوم أجلت * ليوم الفصل * وما أدراك ما يوم الفصل * ويل يومئذ للمكذبين﴾ يقول تعالى: لأي يوم أجلت الرسل وأرجئ أمرها حتى تقوم الساعة، كما قال تعالى: ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام﴾ وذلك في يوم الفصل كما قال تعالى: ﴿ليوم الفصل﴾ ثم قال تعالى معظماً لشأنه: ﴿وما أدراك ما يوم الفصل﴾؟ ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ أي ويل لهم من عذاب الله غداً.

أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى: ﴿ألم نهلك الأولين﴾ يعني المكذبين للرسل المخالفين لما جاءوهم به، ﴿ثم نتبعهم الآخرين﴾ أي ممن أشبههم، ولهذا قال تعالى: ﴿كذلك نفعل بالمجرمين * ويل يومئذ للمكذبين﴾، ثم قال تعالى ممتناً على خلقه ومحتجاً على الإعادة بالبداءة: ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾ أي ضعيف حقير بالنسبة إلى قدرة الباري عزَّ وجلَّ، كما تقدم في سورة يس: «ابن آدم أنّى تعجزني، وقد خلقتك من مثل هذه؟»[1] ﴿فجعلناه في قرار

(١) أخرجه الإمام أحمد وابن ماجة.

مكين﴾ يعني جمعناه في الرحم، وهو حافظ لما أودع فيه من الماء، وقوله تعالى: ﴿إلى قَدَرٍ معلوم﴾ يعني إلى مدة معينة من ستة أشهر أو تسعة أشهر، ولهذا قال تعالى: ﴿فقدرنا فنعم القادرون * ويل يومئذ للمكذبين﴾، ثم قال تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً * أحياء وأمواتاً﴾ قال مجاهد: يكفت الميت فلا يرى منه شيء، وقال الشعبي: بطنها لأمواتكم وظهرها لأحيائكم، ﴿وجعنا فيها رواسي شامخات﴾ يعني الجبال رسى بها الأرض لئلا تميد وتضطرب، ﴿وأسقيناكم ماء فراتاً﴾ أي عذباً زلالاً من السحاب، أو مما أنبعه من عيون الأرض، ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ أي ويل لمن تأمل هذه المخلوقات، الدّالة على عظمة خالقها، ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره.

ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المكذبين بالمعاد والجزاء أنهم يُقال لهم يوم القيامة ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون * انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾ يعني لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان، فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب، ﴿لا ظليل ولا يغني من اللهب﴾ أي ظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو في نفسه ﴿ولا يغني من اللهب﴾ يعني ولا يقيهم حرّ اللهب، وقوله تعالى: ﴿إنها ترمي بشرر كالقصر﴾ أي يتطاير الشرر من لهبها كالقصر، قال ابن مسعود: كالحصون، وقال ابن عباس ومجاهد: يعني أُصول الشجر ﴿كأنه جمالة صفر﴾ أي كالإبل السود، قاله مجاهد والحسن واختاره ابن جرير، وعن ابن عباس ﴿جمالة صفر﴾ يعني حبال السفن، وعنه ﴿جمالة صفر﴾: قطع نحاس، عن عبد الرحمن بن عابس: قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿إنها ترمي بشرر كالقصر﴾ قال: كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع، وفوق ذلك فنرفعه للبناء، فنسميه القصر ﴿كأنه جمالة صفر﴾ حبال السفن تجمع حتى تكون كأوساط الرجال[1] ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾، ثم قال تعالى: ﴿هذا يوم لا ينطقون﴾ أي لا يتكلمون، ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ أي لا يقدرون على الكلام ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا بل قد قامت عليهم الحجة، ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون، وعرصات القيامة حالات، والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة وعن هذه الحال تارة، ليدل على شدة الأهوال والزلازل يومئذ، ولهذا يقول بعد كل فصل من هذا الكلام ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾، وقوله تعالى: ﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين * فإن كان لكم كيد فكيدون﴾ وهذه مخاطبة من الخالق تعالى لعباده يقول لهم: ﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين﴾ يعني أنه جمعهم بقدرته في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري.

﴿ فإن كان لكم كيد فكيدون ﴾ ، تهديد شديد ووعيد أكيد أي إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتي، وتنجوا من حكمي فافعلوا، فإنكم لا تقدرون على ذلك، كما قال تعالى: ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ . عن عبادة بن الصامت أنه قال: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ينفذهم ويسمعهم الداعي ويقول الله: ﴿ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ۝ فإن كان لكم كيد فكيدون ﴾ اليوم لا ينجو مني جبار عنيد، ولا شيطان مريد[1] .

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن عباده المتقين، إنهم يوم القيامة يكونون في جنات وعيون أي بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من ظل اليحموم وهو الدخان الأسود المنتن، وقوله تعالى: ﴿ وفواكه مما يشتهون ﴾ أي ومن سائر أنواع الثمار مهما طلبوا وجدوا، ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾ أي يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم، ثم قال تعالى: ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ أي هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل، ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾، وقوله تعالى: ﴿ كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون ﴾ خطاب للمكذبين بيوم الدين، وأمرهم أمر تهديد ووعيد، فقال تعالى ﴿ كلوا وتمتعوا قليلاً ﴾ أي مدة قليلة قريبة قصيرة، ﴿ إنكم مجرمون ﴾ أي ثم تساقون إلى نار جهنم التي تقدم ذكرها، ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾، كما قال تعالى: ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾، وقال تعالى: ﴿ ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾ أي إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه ولهذا قال تعالى: ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾، ثم قال تعالى : ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ ؟ أي إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأي كلام يؤمنون به ؟ كقوله تعالى: ﴿ فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ ؟ روي عن أبي هريرة : « إذا قرأ ﴿ والمرسلات عُرفاً ﴾ فقرأ ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ ؟ فليقل آمنت بالله وبما أنزل »[2] .

[آخر تفسير سورة المرسلات . ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة]

* * *

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها: ﴿عم يتساءلون * عن النبأ العظيم﴾ أي: عن أي شيء يتساءلون عن أمر القيامة، وهو النبأ العظيم: يعني الخبر الهائل المفظع الباهر، قال قتادة: النبأ العظيم: البعث بعد الموت، وقال مجاهد: هو القرآن، والأظهر الأول، لقوله: ﴿الذي هم فيه مختلفون﴾ يعني الناس فيه مؤمن به وكافر، ثم قال تعالى متوعداً لمنكري القيامة: ﴿كلا سيعلمون * ثم كلا سيعلمون﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، ثم شرع تبارك وتعالى يبين قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة، الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره، فقال: ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً﴾ أي ممهدة للخلائق ذلولاً لهم، قارة ساكنة ثابتة ﴿والجبال أوتاداً﴾ أي جعلها لها أوتاداً، أرساها بها وثبتها وقررها، حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها، ثم قال تعالى: ﴿وخلقناكم أزواجاً﴾ يعني ذكراً وأنثى، يتمتع كل منهما بالآخر. ويحصل التناسل بذلك كقوله: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾، وقوله تعالى: ﴿وجعلنا نومكم سباتاً﴾ أي قطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد، والسعي في المعايش في عرض النهار، ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾ أي يغشى الناس بظلامه وسواده، كما قال: ﴿والليل إذا يغشاها﴾، وقال قتادة ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾ أي سكناً، وقوله تعالى: ﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾ أي جعلناه مشرقاً نيراً مضيئاً ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وبنينا فوقكم سبعاً شداداً﴾ يعني السماوات السبع في اتساعها وارتفاعها، وإحكامها وإتقانها

وتزيينها بالكواكب الثوابت والسيارات، ولهذا قال تعالى: ﴿وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾ يعني الشمس المنيرة على جميع العالم التي يتوهج ضوءها لأهل الأرض كلهم، وقوله تعالى: ﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً﴾ قال ابن عباس: المعصرات: الرياح، تستدر المطر من السحاب، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: من المعصرات أي من السحاب[1]، وقال الفراء: هي السحاب التي تتحلب بالمطر ولم تمطر بعد، كما يقال: امرأة معصر إذا دنا حيضها ولم تحض، وعن الحسن وقتادة: ﴿من المعصرات﴾ يعني السماوات وهذا قول غريب، والأظهر أن المراد بالمعصرات السحاب، كما قال تعالى: ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله﴾ أي من بينه، وقوله جلّ وعلا: ﴿ماء ثجاجاً﴾ قال مجاهد: ﴿ثجاجاً﴾: منصباً، وقال الثوري: متتابعاً، وقال ابن زيد: كثيراً، قال ابن جرير: ولا يعرف في كلام العرب في صفة الكثرة الثج، وإنما الثج الصب المتتابع، ومنه قول النبي ﷺ: «أفضل الحج العج والثج» يعني صب دماء البدن. **قلت**: وفي حديث المستحاضة: «إنما أثج ثجاً» وهذا فيه دلالة على استعمال الثج في الصب المتتابع الكثير، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿لنخرج به حبّاً ونباتاً وجنّات ألفافاً﴾ أي لنخرج بهذا الماء الكثير الطيب النافع المبارك ﴿حباً﴾ يدخر للأناسي والأنعام، ﴿ونباتاً﴾ أي خضراً يؤكل رطباً، ﴿وجنات﴾ أي بساتين وحدائق من ثمرات متنوعة وألوان مختلفة وطعوم وروائح متفاوتة، وإن كان ذلك في بقعة واحدة من الأرض مجتمعاً، ولهذا قال: ﴿وجنات ألفافاً﴾ قال ابن عباس وغيره: ألفافاً مجتمعة، وهذه كقوله تعالى: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفصل، وهو (يوم القيامة) أنه مؤقت بأجل معدود، لا يزاد عليه ولا ينقص منه، ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله عزّ وجلّ، كما قال تعالى: ﴿وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾ أنه ﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً﴾ قال مجاهد: زمراً زمراً. قال ابن جرير: يعني تأتي كل أمة مع رسولها، كقوله تعالى: ﴿يوم ندعوا كل أناس بإمامهم﴾ قال البخاري: ﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً﴾ عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون» قالوا: أربعون يوماً، قال: «أبيت»، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: «أبيت»، قالوا: أربعون سنة؟ قال: «أبيت»، قال: «ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ليس

(١) وهو قول عكرمة والضحاك والحسن والربيع بن أنس والثوري، واختاره ابن جرير وهو الأظهر كما قال ابن كثير.

من الإنسان شيء إلا بلي إلا عظماً واحداً، وهو (عجب الذنب) ومنه يركب الخلق يوم القيامة »[١] . ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ أي طرقاً ومسالك لنزول الملائكة، ﴿ وسيرت الجبال فكانت سراباً ﴾ كقوله تعالى: ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾، وقال ههنا ﴿ فكانت سراباً ﴾ أي يخيل إلى الناظر أنها شيء وليست بشيء، وبعد هذا تذهب بالكلية فلا عين ولا أثر ، كما قال تعالى: ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً ۞ فيذرها قاعاً صفصفاً ۞ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ويوم نسيّر الجبال وترى الأرض بارزة ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً ﴾ أي مرصدة معدة ﴿ للطاغين ﴾ وهم المردة العصاة المخالفون للرسل ، ﴿ مآباً ﴾ أي مرجعاً ومنقلباً ومصيراً ونزلاء ، وقال الحسن وقتادة : لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز النار ، فإن كان معه جواز نجا وإلا احتبس ، وقوله تعالى : ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ أي ما كثين فيها أحقاباً وهي جمع حقب وهو المدة من الزمان، وقد اختلفوا في مقداره، فقال ابن جرير ، قال علي بن أبي طالب لهلال الهجري: ما تجدون الحقب في كتاب الله المنزل ؟ قال: نجده ثمانين سنة، كل سنة اثنا عشر شهراً، كل شهر ثلاثون يوماً، كل يوم ألف سنة، وعن الحسن والسدي: سبعون سنة. وعن عبدالله بن عمرو : الحقب أربعون سنة، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون[٢] ، وقال بشير بن كعب: ذكر لي أن الحقب الواحد ثلثمائة سنة، اثنا عشر شهراً، كل سنة ثلثمائة وستون يوماً، كل يوم منها كألف سنة . وقال السدي: ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ سبعمائة حقب، كل حقب سبعون سنة، كل سنة ثلثمائة وستون يوماً، كل يوم كألف سنة مما تعدون، وقال خالد بن معدان هذه الآية ، وقوله تعالى: ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ في أهل التوحيد[٣] : قال ابن جرير : والصحيح أنها لا انقضاء لها، كما روي عن سالم : سمعت الحسن يسأل عن قوله تعالى: ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ قال أما الأحقاب فليس لها عدة إلا الخلود في النار، ولكن ذكروا أن الحقب سبعون سنة، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون ، وقال قتادة . قال الله تعالى : ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ وهو ما لا انقطاع له وكلما مضى حقب جاء حقب بعده . وقال الربيع بن أنَس: ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ لا يعلم عدة هذه الأحقاب إلا الله عزَّ وجلَّ ، وذكر لنا أن الحقب الواحد ثمانون سنة، والسنة ثلثمائة وستون يوماً ، كل يوم كألف سنة مما تعدون[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ﴾ أي لا يجدون في جهنم برداً لقلوبهم، ولا شراباً طيباً يتغذون به، ولهذا قال تعالى: ﴿ إلا حميماً وغساقاً ﴾، وقال أبو العالية: استثنى من البرد الحميم، ومن الشراب الغساق. قال الربيع بن أنَس: فأما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره وحموه. والغساق هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطاع من برده ولا يواجه من نتنه، وقوله تعالى: ﴿ جزاءاً وفاقاً ﴾ أي هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة، وفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا. ثم قال تعالى: ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً ﴾ أي لم يكونوا يعتقدون أن ثم داراً يجازون فيها ويحاسبون، ﴿ وكذبوا بآياتنا كذاباً ﴾

---

(١) أخرجه البخاري .
(٢) رواهما ابن أبي حاتم .
(٣) أخرجه ابن جرير .
(٤) أخرجه ابن جرير أيضاً .

أي وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسله ﷺ فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة، وقوله ﴿ كذاباً﴾ أي تكذيباً ، وهو مصدر من غير الفعل، وقوله تعالى: ﴿ وكل شيء أحصيناه كتاباً﴾ أي وقد علمنا أعمال العباد وكتبناها عليهم، وسنجزيهم على ذلك إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وقوله تعالى: ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾ أي يقال لأهل النار ذوقوا ما أنتم فيه فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه وآخر من شكله أزواج، قال قتادة: لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه الآية ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾ فهم في مزيد من العذاب أبداً .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن السعداء، وما أعد الله تعالى لهم من الكرامة والنعيم المقيم، فقال تعالى: ﴿ إن للمتقين مفازاً﴾ قال ابن عباس متنزهاً، وقال مجاهد: فازوا فنجوا من النار ، والأظهر ههنا قول ابن عباس لأنه قال بعده: ﴿ حدائق﴾ والحدائق البساتين من النخيل وغيرها، ﴿ وأعناباً وكواعب أتراباً﴾ أي وحوراً كواعب، قال ابن عباس ومجاهد ﴿ كواعب﴾ أي نواهد، يعنون أن ثديهن نواهد لم يتدلين، لأنهن أبكار (عرب أتراب) أي في سن واحد. كما تقدم بيانه في سورة الواقعة، روى ابن أبي حاتم، عن ابن أبي القاسم الدمشقي، عن أبي أمامة . عن النبي ﷺ أنه قال: « إن قمص أهل الجنة لتبدو من رضوان الله، وأن السحابة لتمر بهم فتناديهم: يا أهل الجنة ماذا تريدون أن أمطركم ؟ حتى إنها لتمطرهم الكواعب الأتراب »[1] . وقوله تعالى: ﴿ وكأساً دهاقاً﴾ قال ابن عباس: مملوءة متتابعة، وقال عكرمة: صافية، وقال مجاهد والحسن ﴿ دهاقاً﴾ الملأى المترعة، وقال سعيد بن جبير : هي المتتابعة، وقوله تعالى: ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً﴾ كقوله: ﴿ لا لغو فيه ولا تأثيم﴾ أي ليس فيها كلام لاغ عار عن الفائدة ولا إثم كذب، بل هي دار السلام وكل ما فيها سالم من النقص، وقوله: ﴿ جزاءً من ربك عطاء حساباً﴾ أي هذا الذي ذكرناه، جازاهم الله به بفضله ومنّه وإحسانه ﴿ عطاء حساباً﴾ أي كافياً وافياً سالماً كثيراً ، ومنه حسبي الله ، أي الله كافيٍّ .

رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وأنه رب السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء، وقوله تعالى: ﴿ لا يملكون منه خطاباً﴾ أي لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، كقوله

(١) رواه ابن أبي حاتم .

تعالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾، وكقوله تعالى. ﴿يوم يأتِ لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾، وقوله تعالى: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون﴾ اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا ما هو؟ على أقوال: **أحدها**: ما روي عن ابن عباس انهم أرواح بني آدم. **الثاني**: هم بنو آدم، قاله الحسن وقتادة. **الثالث**: أنهم خلق من خلق الله على صور بني آدم وليسوا بملائكة ولا ببشر قاله ابن عباس ومجاهد. **الرابع**: هو جبريل، قاله الشعبي وسعيد بن جبير والضحّاك. **الخامس** أنه ملك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات، قال ابن عباس: هو ملك عظيم من أعظم الملائكة خلقاً. والأشبه عندي – والله أعلم – أنهم بنو آدم[1]، وقوله تعالى: ﴿إلا من أذن له الرحمن﴾ كقوله: ﴿يوم يأتِ لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾، وكما ثبت في الصحيح: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل»، وقوله تعالى: ﴿وقال صواباً﴾ أي حقاً، ومن الحق ﴿لا إله إلا الله﴾، كما قاله عكرمة. وقوله تعالى: ﴿ذلك اليوم الحق﴾ أي الكائن لا محالة، ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً﴾ أي مرجعاً وطريقاً يهتدي إليه، ومنهجاً يمر به عليه، وقوله تعالى: ﴿إنا أنذرناكم عذاباً قريباً﴾ يعني يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريباً، لأن كل ما هو آت قريب، ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾ أي يعرض عليه جميع أعماله خيرها وشرها، قديمها وحديثها كقوله تعالى: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾، وكقوله تعالى: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾، ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾ أي يود الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا تراباً، ولم يكن خلق ولا خرج إلى الوجود، وذلك حين عاين عذاب الله، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سطرت عليه بأيدي الملائكة السفرة الكرام البررة، **وقيل**: إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا، فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور، حتى إنه ليقتص للشاة الجماء من القرناء، فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها: كوني تراباً فتصير تراباً فعند ذلك يقول الكافر ﴿يا ليتني كنت تراباً﴾ أي كنت حيواناً فأرجع إلى التراب، وقد ورد معنى هذا في حديث الصور المشهور، وورد فيه آثار عن أبي هريرة وعبدالله بن عمرو وغيرهما.

[آخر تفسير سورة النبأ، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة]

* * *

---

(١) الأظهر أن المراد بالروح هنا (جبريل) عليه السلام كما قال سعيد بن جبير والضحّاك ويؤيده قوله تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾، فالروح هو جبريل.



بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

﴿ **والنازعات غرْقاً** ﴾ : الملائكة حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعسر فتغرق في نزعها ، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلته من نشاط، وهو قوله: ﴿ والناشطات نشطاً ﴾ قاله ابن عباس وغيره ، وعنه ﴿ والنازعات ﴾ : هي أنفس الكفّار تنزع ثم تنشط ثم تغرق في النار[1] ، وقال مجاهد ﴿ والنازعات غرقاً ﴾ : الموت . وقال الحسن وقتادة ﴿ والنازعات غرقاً ه والناشطات نشطاً ﴾ : هي النجوم، والصحيح الأول وعليه الأكثرون . وأما قوله تعالى ﴿ والسابحات سبحاً ﴾ فقال ابن مسعود: هي الملائكة، وقال قتادة: هي النجوم، وقال عطاء: هي السفن، وقوله تعالى ﴿ فالسابقات سبقاً ﴾ : يعني الملائكة، قال الحسن: سبقت إلى الإيمان والتصديق، وقال قتادة: هي النجوم، وقال عطاء: هي الخيل في سبيل الله، وقوله تعالى: ﴿ فالمدبرات أمراً ﴾ قال علي ومجاهد: هي الملائكة تدبر الأمر من السماء إلى الأرض، يعني بأمر ربها عزَّ وجلَّ، وقوله تعالى: ﴿ يوم ترجف الراجفة ه تتبعها الرادفة ﴾ قال ابن عباس: هما النفختان الأولى والثانية[2] ، قال مجاهد: أما الأولى ﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ فكقوله جلّت عظمته: ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال ﴾، وأما الثانية وهي الرادفة، كقوله : ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾، وفي الحديث قال رسول الله ﷺ : « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه » فقال رجل: يا رسول الله أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك ؟ قال: « إذاً يكفيك

---

(١) رواه ابن أبي حاتم .

(٢) وهو قول مجاهد والحسن وقتادة والضحّاك وغيرهم .

الله ما أهمك من دنياك وآخرتك »[1] رواه أحمد والترمذي، ولفظ الترمذي: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: « يا أيها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه » . وقوله تعالى: ﴿ قلوب يومئذ واجفة﴾ قال ابن عباس: يعني خائفة ﴿أبصارها خاشعة﴾ أي أبصار أصحابها وإنما أضيفت إليها للملابسة. أي ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال .

وقوله تعالى : ﴿ يقولون أئنا لمردودون في الحافرة﴾ يعني مشركي قريش، يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى ﴿ الحافرة﴾ وهي القبور[2] وبعد تمزق أجسادهم وتفتت عظامهم ونخورها، ولهذا قالوا: ﴿أئذا كنا عظاماً نخرة﴾ وقرئ : ناخرة أي بالية، قال ابن عباس: وهو العظم إذا بلي ودخلت الريح فيه، ﴿ قالوا تلك إذاً كَرَّةٌ خاسرة﴾ . وعن ابن عباس وقتادة: الحافرة الحياة بعد الموت، وقال ابن زيد: الحافرة النار، وما أكثر أسماءها ! هي النار والجحيم وسقر وجهنم والهاوية والحافرة ولظى والحطمة، وأما قولهم: ﴿ تلك إذاً كَرَّةٌ خاسرة﴾ فقال محمد ابن كعب، قالت قريش: لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرن، قال الله تعالى: ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة﴾ أي فإنما هو أمر من الله لا مثنوية فيه ولا تأكيد فإذا الناس قيام ينظرون، وهو أن يأمر تعالى إسرافيل فينفخ في الصور نفخة البعث، فإذا الأولون والآخرون قيام بين يدي الرب عزَّ وجلَّ ينظرون، كما قال تعالى: ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾ وقال تعالى: ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ وقال تعالى: ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾ قال مجاهد: ﴿ فإنما هي زجرة واحدة﴾ صيحة واحدة، وأشد ما يكون الرب عزَّ وجلَّ غضباً على خلقه يوم يبعثهم، قال الحسن البصري: زجرة من الغضب، وقوله تعالى: ﴿ فإذا هم بالساهرة﴾ قال ابن عباس: الساهرة الأرض كلها، وقال عكرمة والحسن: الساهرة وجه الأرض، قال مجاهد: كانوا بأسفلها فأخرجوا إلى أعلاها، عن سهل بن سعد الساعدي ﴿ فإذا هم بالساهرة﴾ قال: أرض بيضاء عفراء خالية كالخبزة النقي[3] . وقال الربيع بن أَنَس: ﴿ فإذاهم بالساهرة﴾ يقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار﴾، ويقول تعالى: ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً * فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾، ويقول تعالى: ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة﴾، وهي أرض لم يعمل عليها خطيئة ولم يهرق عليها دم .

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾

---

(١) أخرجه أحمد .

(٢) قاله مجاهد . (٣) رواه ابن أبي حاتم .

يخبر تعالى رسوله محمداً ﷺ عن عبده ورسوله موسى عليه السلام، أنه ابتعثه إلى فرعون وأيده الله بالمعجزات، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وكذلك عاقبة من خالفك يا محمد وكذب بما جئت به، ولهذا قال في آخر القصة: ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾، فقوله تعالى: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ أي هل سمعت بخبره ﴿إذ ناداه ربه﴾ أي كلمه نداء ﴿بالواد المقدس﴾ أي المطهر، ﴿طوى﴾ وهو اسم الوادي على الصحيح، فقال له: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ أي تجبر وتمرد وعتا، ﴿فقل هل لك إلى أن تزكى﴾ أي قل له هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تزكى به أي تسلم وتطيع، ﴿وأهديك إلى ربك﴾ أي أدلك إلى عبادة ربك ﴿فتخشى﴾ أي فيصير قلبك خاضعاً له مطيعاً خاشعاً، بعد ما كان قاسياً خبيثاً بعيداً من الخير، ﴿فأراه الآية الكبرى﴾ يعني فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قوية، ودليلاً واضحاً على صدق ما جاء به من عند الله، ﴿فكذب وعصى﴾ أي فكذب بالحق، وخالف ما أمره به من الطاعة، ﴿ثم أدبر يسعى﴾ أي في مقابلة الحق بالباطل وهو جمعه السحرة، ليقابلوا ما جاء به موسى عليه السلام من المعجزات الباهرات ﴿فحشر فنادى﴾ أي في قومه، ﴿فقال أنا ربكم الأعلى﴾ قال ابن عباس ومجاهد: وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ بأربعين سنة، قال الله تعالى: ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ أي انتقم الله منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتمردين في الدنيا، ﴿ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾، كما قال تعالى ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون﴾، وهذا هو الصحيح في معنى الآية أن المراد بقوله: ﴿نكال الآخرة والأولى﴾ أي الدنيا والآخرة، **وقيل**: المراد بذلك كلمتاه الأولى والثانية، **وقيل**: كفره وعصيانه، والصحيح الأول، وقوله: ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ أي لمن يتعظ وينزجر.

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى محتجاً على منكري البعث في إعادة الخلق بعد بدئه ﴿أأنتم﴾ أيها الناس ﴿أشد خلقاً أم السماء﴾ يعني بل السماء أشد خلقاً منكم كما قال تعالى: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾، وقوله تعالى: ﴿بناها﴾ فسره بقوله: ﴿رفع سمكها فسواها﴾ أي جعلها عالية البناء، بعيدة الفناء، مستوية الأرجاء، مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء، وقوله تعالى: ﴿وأغطش ليلها وأخرج ضحاها﴾ أي جعل ليلها مظلماً أسود حالكاً، ونهارها مضيئاً مشرقاً واضحاً، قال ابن عباس: أغطش ليلها أظلمه، ﴿وأخرج ضحاها﴾ أي انار نهارها، وقوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ فسّره بقوله تعالى: ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ وقد تقدم في سورة «حم السجدة» أن الأرض خلقت قبل خلق السماء، ولكن إنما دحيت بعد خلق السماء بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل، عن ابن عباس ﴿دحاها﴾ ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى وشقق فيها الأنهار، وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام فذلك قوله: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾، وقد تقدم تقرير ذلك هنالك، وقوله تعالى: ﴿والجبال أرساها﴾ أي قررها وأثبتها في أماكنها، وهو الحكيم العليم، الرؤوف بخلقه الرحيم. وقوله تعالى: ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ أي دحا الأرض فأنبع عيونها، وأظهر مكنونها، وأجرى أنهارها، وأنبت زروعها وأشجارها

وثبت جبالها لتستقر بأهلها ويقر قرارها، كل ذلك متاعاً لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام، التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار، إلى أن ينتهي الأمد وينقضي الأجل .

فَإِذَا جَاءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

يقول تعالى : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى﴾ وهو يوم القيامة، قاله ابن عباس سميت بذلك، لأنها تطم على كل أمر هائل مفظع ، كما قال تعالى: ﴿والساعة أدهى وأمر﴾، ﴿يوم يتذكر الإنسان ما سعى﴾ أي حينئذ يتذكر ابن آدم جميع عمله، خيره وشره كما قال تعالى: ﴿ يومئذ يتذكر الإنسان وأنّى له الذكرى﴾، ﴿وبرزت الجحيم لمن يرى﴾ أي أظهرت للناظرين فرآها الناس عياناً، ﴿ فأما من طغى﴾ أي تمرد وعتا، ﴿وآثر الحياةالدنيا أي قدمها على أمر دينه وأخراه، ﴿ فإن الجحيم هي المأوى﴾، أي فان مصيره إلى الجحيم وإن مطعمه من الزقوم ومشربه من الحميم، ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى﴾ أي خاف القيام بين يدي الله عز وجل، وخاف حكم الله فيه، ونهى نفسه عن هواها، وردها إلى طاعة مولاها، ﴿ فإن الجنة هي المأوى﴾ أي منقلبه ومصيره إلى الجنة الفيحاء، ثم قال تعالى ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها ٭ فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها﴾ أي ليس علمها اليك ولا إلى أحد من الخلق ، بل مردها ومرجعها إلى الله عزَّ وجلَّ ، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين ﴿ قل إنما علمها عند الله﴾ ، وقال ههنا : ﴿إلى ربك منتهاها﴾ ، ولهذا لما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة ؟ قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » ، وقوله تعالى : ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾ أي إنما بعثتك لتنذر الناس، وتحذرهم من بأس الله وعذابه، فمن خشي الله وخاف مقامه ووعيده أتبعك فأفلح وأنجح ، والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك ، وقوله تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ أي إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضحى من يوم، قال ابن عباس: أما عشية فما بين الظهر إلى غروب الشمس، ﴿أو ضحاها﴾ ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار ، وقال قتادة : وقت الدنيا في أعين القوم حين عاينوا الآخرة .

[آخر تفسير سورة النازعات، ولله الحمد والمنة]

✲ ✲ ✲



(٨٠) سورة عبس مكية
وآياتها ثنتان وأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾

ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطب بعض عظماء قريش، وقد طمع في إسلامه. فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم، وكان ممن أسلم قديماً، فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه، وود النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك، ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعاً ورغبة في هدايته وعبس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه، وأقبل على الآخر، فأنزل الله تعالى، ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى ۔ وما يدريك لعله يزكى﴾ أي يحصل له زكاة وطهارة في نفسه، ﴿أو يذكر فتنفعه الذكرى﴾ أي يحصل له اتعاظ وازدجار عن المحارم. ﴿أما من استغنى فأنت له تصدى﴾ أي أما الغني فأنت تعرَّض له لعله يهتدي ﴿وما عليك ألا يزّكى﴾ أي ما أنت بمطالب به إذا لم يزك نفسه. ﴿وأما من جاءك يسعى ۔ وهو يخشى﴾ أي يقصدك ويؤمك ليهتدي بما تقول له، ﴿فأنت عنه تلهّى﴾ أي تتشاغل. ومن ههنا أمر الله تعالى رسول الله ﷺ أن لا يخص بالإنذار أحداً، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغني، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصغار والكبار، ثم الله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، روى الحافظ أبو يعلى عن أنس رضي الله عنه في قوله: ﴿عبس وتولى﴾ قال: جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ، وهو يكلم (ابيّ بن خلف) فأعرض عنه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿عبس وتولى ۔ أن جاءه الأعمى﴾ فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه[1]،

---

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى .

وعن عائشة قالت: أنزلت ﴿ عبس وتولى ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى إلى رسول الله ﷺ، فجعل يقول أرشدني. قالت: وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين قالت: فجعل النبي ﷺ يعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: «أترى بما أقول بأساً؟ فيقول: لا، ففي هذا أنزلت: ﴿عبس وتولى﴾»[1]. وهكذا ذكر غير واحد من السلف والخلف: أنها نزلت في ابن ام مكتوم، والمشهور أن اسمه عبد الله، وقوله تعالى: ﴿ كلا إنها تذكرة ﴾ أي هذه الوصية بالمساواة بين الناس، في إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم، وقال قتادة ﴿ كلا إنها تذكرة ﴾ يعني القرآن ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ أي فمن شاء ذكر الله تعالى في جميع أموره، ويحتمل عود الضمير إلى الوحي لدلالة الكلام عليه، وقوله تعالى: ﴿ في صحف مكرمة ۝ مرفوعة مطهرة ﴾ أي هذه السورة أو العظة ﴿ في صحف مكرمة ﴾ أي معظمة موقرة، ﴿ مرفوعة ﴾ أي عالية القدر، ﴿ مطهرة ﴾ أي من الدنس والزيادة والنقص، وقوله تعالى: ﴿ بأيدي سفرة ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هي الملائكة، وقال وهب بن منبه: هم أصحاب محمد ﷺ، وقال قتادة: هم القراء، وقال ابن جرير: والصحيح أن السفرة الملائكة، والسفرة يعني بين الله تعالى وبين خلقه، ومنه السفير الذي يسعى بين الناس في الصلح والخير، كما قال الشاعر:

وما أدع السفارة بين قومي ... وما أمشي بغش إن مشيت

وقال البخاري: سفرة: الملائكة، سفرتُ أصلحت بينهم، وجُعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله تعالى وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم، وقوله تعالى: ﴿ كرام بررة ﴾ أي خَلْقهم كريم، وأخلاقهم بارة طاهرة، وفي الصحيح: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو عليه شاق له أجران»[2].

قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى ذاماً لمن أنكر البعث والنشور من بني آدم: ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾، قال ابن عباس: لعن الإنسان، وهذا الجنس الإنسان المكذب لكثرة تكذيبه ﴿ ما أكفره ﴾ أي ما أشد كفره، وقال ابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد أي شيء جعله كافراً أي ما حمله على التكذيب بالمعاد؟ وقال قتادة: ﴿ ما أكفره ﴾ ما ألعنه، ثم بين تعالى له كيف خلقه من الشيء الحقير، وأنه قادر على إعادته كما بدأه فقال تعالى: ﴿ من أي شيء خلقه؟ من نطفة خلقه فقدره ﴾ أي قدّر أجله ورزقه وعمله وشقي أو سعيد ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ قال ابن عباس: ثم يسر

---

(١) أخرجه ابن جرير وأبو يعلى.

(٢) أخرجه الجماعة عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً.

عليه خروجه من بطن أمه[1]، وقال مجاهد: هذه كقوله تعالى: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ أي بيناه له وأوضحناه وسهلنا عليه علمه، وهذا هو الأرجح والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿ثم أماته فأقبره﴾ أي أنه بعد خلقه له ﴿أماته فأقبره﴾ أي جعله ذا قبر، والعرب تقول قبرت الرجل إذا ولي ذلك منه. وأقبره الله، وطردت عني فلاناً وأطرده الله، أي جعله طريداً، وقوله تعالى: ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ أي بعثه بعد موته، ومنه يقال البعث والنشور، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «يأكل التراب كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه»، قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «مثل حبة خردل منه تنشأون»[2] وهذا الحديث ثابت في الصحيحين بدون هذه الزيادة، ولفظه: «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب»[3]، وقوله تعالى: ﴿كلا لما يقض ما أمره﴾ قال ابن جرير: يقول جل ثناؤه كلا ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر من أنه قد أدى حق الله عليه في نفسه وماله، ﴿لمّا يقض ما أمره﴾ يقول: لم يؤد ما فرض عليه من الفرائض لربه عزّ وجلّ، عن مجاهد قال: لا يقضي أحد أبداً كل ما افترض عليه.

وقوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ فيه امتنان، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة، على إحياء الأجسام بعدما كانت عظاماً بالية وتراباً متمزقاً، ﴿أنا صببنا الماء صباً﴾ أي أنزلناه من السماء على الأرض، ﴿ثم شققنا الأرض شقاً﴾ أي أسكناه فيها فيدخل في تخومها، فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض، ﴿فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً﴾، فالحب كل ما يذكر من الحبوب، والعنب معروف، والقضب هو الفصفصة التي تأكلها الدواب رطبة، ويقال لها القت أيضاً. قال ذلك ابن عباس وقتادة، وقال الحسن البصري: القضب العلف، ﴿وزيتوناً﴾ وهو معروف، وهو أدم وعصيره أدم، ويستصبح به ويدهن به، ﴿ونخلاً﴾ يؤكل بلحاً وبسراً، ورطباً وتمراً، ونيئاً ومطبوخاً، ويعتصر منه رب وخل. ﴿وحدائق غلباً﴾ أي بساتين، قال الحسن وقتادة: غلباً نخل غلاظ كرام، وقال ابن عباس ومجاهد: كل ما التف واجتمع، وقال ابن عباس أيضاً ﴿غلباً﴾ الشجر الذي يستظل به، وقال عكرمة: ﴿غلباً﴾ أي غلاظ الأوساط، وقوله تعالى: ﴿وفاكهة وأبا﴾ أما الفاكهة فكل ما يتفكه به من الثمار، قال ابن عباس: الفاكهة كل ما أكل رطباً، والأب ما أنبت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس، وفي رواية عنه: هو الحشيش للبهائم، وقال مجاهد: الأب الكلأ، وعن مجاهد والحسن: الأب للبهائم كالفاكهة لبني آدم، وعن عطاء كل شيء نبت على وجه الأرض فهو أب، وقال الضحاك: كل شيء أنبتته الأرض سوى الفاكهة فهو الأب. وقال العوفي، عن ابن عباس: الأب: الكلأ والمرعى. روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ ﴿عبس وتولى﴾ فلما أتى على هذه الآية: ﴿وفاكهة وأباً﴾ قال: قد عرفنا الفاكهة فما الأب؟ فقال لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف[4]، وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه،

---

(١) وهو قول عكرمة والضحّاك وقتادة والسدي واختاره ابن جرير.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة.

(٤) رواه ابن جرير، وإسناده صحيح كما قال ابن كثير.

وإلا فهو يعلم أنه من نبات الأرض لقوله : ﴿ فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأباً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ أي عيشة لكم ولأنعامكم في هذه الدار، إلى يوم القيامة .

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

قال ابن عباس : ﴿ الصَّاخَّةُ ﴾ اسم من أسماء يوم القيامة، عظّمه الله وحذّره عباده، وقال البغوي: ﴿ الصاخة ﴾ يعني يوم القيامة، سميت بذلك لأنها تصخ الأسماع، أي تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمها، ﴿ يوم يفر المرء من أخيه * وأمّه وبنيه * وصاحبته وبنيه ﴾ أي يراهم ويفر منهم؛ لأن الهول عظيم، والخطب جليل، قال عكرمة : يلقى الرجل زوجته فيقول لها : يا هذه أي بعل كنت لكِ ؟ فتقول: نعم البعل كنت، وتثني بخير ما استطاعت، فيقول لها: فإني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهبيها لي لعلي أنجو مما ترين، فتقول له: ما أيسر ما طلبت، ولكن لا أطيق أن أعطيك شيئاً أتخوف مثل الذي تخاف، قال: وإن الرجل ليلقى ابنه فيعلق به فيقول: يا بني أي والد كنت لك ؟ فيثني بخير، فيقول له: يا بني إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلي أنجو بها مما ترى فيقول ولده: يا أبتِ ما أيسر ما طلبت، ولكني أتخوف مثل الذي تتخوف، فلا أستطيع أن أُعطيك شيئاً، يقول الله تعالى: ﴿ يوم يفر المرء من أخيه * وأمّه وأبيه * وصاحبته وبنيه ﴾ وفي الحديث الصحيح في أمر الشفاعة : حتى عيسى ابن مريم يقول : لا أسأله اليوم إلا نفسي ، لا أسأله مريم التي ولدتني ، عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ : « تحشرون حفاة عراة مشاة غرلاً » قال، فقالت زوجته: يا رسول الله ننظر أو يرى بعضنا عورة بعض قال: « لكل امرئ يومئذ شأن يغنيه » أو قال: « ما أشغله عن النظر »[1] . وروى النسائي عن عروة عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: « يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً » فقالت عائشة: يا رسول الله فكيف بالعورات ؟ فقال: « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه »[2] . وعن أنس بن مالك قال: سألت عائشة رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله بأبي أنت وأمّي، إني سائلتك عن حديث فتخبرني أنت به، قال : « إن كان عندي منه علم » قالت يا نبي الله كيف يحشر الرجال ؟ قال: « حفاة عراة » ثم انتظرت ساعة، فقالت : يا رسول الله كيف يحشر النساء ؟ قال: « كذلك حفاة عراة » ، قالت: واسوأتاه من يوم القيامة، قال: « وعن أي ذلك تسألين إنه قد نزل علي آية لا يضرك كان عليك ثياب أو لا يكون »، قالت: أية آية هي يا نبي الله ؟ قال: « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه »[3] ، وقال البغوي في تفسيره . عن سودة زوج النبي ﷺ قالت، قال رسول الله ﷺ : « يبعث الناس حفاة عراة غرلاً قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان » ، فقلت: يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال : قد شغل

---

(١) اخرجه ابن ابن حاتم .
(٢) انفرد به النسائي من هذه الوجه .
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم .

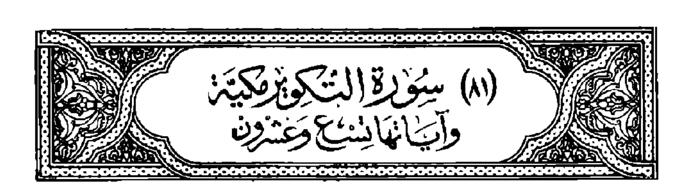
الناس ﴿ لكل امرئٍ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾[1] . وقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة﴾ أي يكون الناس هنالك فريقين، وجوه مسفرة أي مستنيرة﴿ ضاحكة مستبشرة﴾ أي مسرورة فرحة، قد ظهر البشر على وجوههم، وهؤلاء هم أهل الجنة، ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة﴾ أي يعلوها وتغشاها ﴿ قترة﴾ أي سواد، وفي الحديث: « يلجم الكافر العرق ثم تقع الغبرة على وجوههم »، فهو قوله تعالى: ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة﴾[2] ؛ وقال ابن عباس ﴿ ترهقها قترة﴾ أي يغشاها سواد الوجوه، وقوله تعالى: ﴿ أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ أي الكفرة قلوبهم، الفجرة في أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿ ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾ .

[آخر تفسير سورة عبس ، ولله الحمد والمنة]



(١) حديث غريب من هذا الوجه .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم .



قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: ﴿إذا الشمس كورت﴾ و ﴿إذا السماء انفطرت﴾ و ﴿إذا السماء انشقت﴾» أخرجه أحمد.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

قال ابن عباس: ﴿إذا الشمس كورت﴾ يعني أظلمت، وقال العوفي عنه: ذهبت، وقال مجاهد: اضمحلت وذهبت، وقال قتادة: ذهب ضوءها، وقال سعيد بن جبير: ﴿كورت﴾ غورت، وقال زيد بن أسلم: تقع في الأرض، قال ابن جرير: والصواب من القول عندنا في ذلك أن التكوير جمع الشيء بعضه على بعض، ومنه تكوير العمامة وجمع الثياب بعضها إلى بعض، فمعنى قوله تعالى: ﴿كورت﴾ جمع بعضها إلى بعض، ثم لفت فرمى بها، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها، روي عن ابن عباس أنه قال: يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر ويبعث الله ريحاً دبوراً فتضرمها ناراً[1]، وروى البخاري، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «الشمس والقمر يكوران يوم القيامة»[2]. وقوله تعالى: ﴿وإذا النجوم انكدرت﴾ أي انتثرت كما قال تعالى: ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾. وأصل الانكدار الانصباب، قال أبي بن كعب: ست آيات قبل يوم القيامة،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق.

بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحركت واضطربت واختلطت، ففزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطير والوحوش، فماجوا بعضهم في بعض، ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ قال: اختلطت، ﴿وإذا العشار عطلت﴾ قال: أهملها أهلها، ﴿وإذ البحار سجرت﴾ قال، قالت الجن: نحن نأتيكم بالخبر، قال: فانطلقوا إلى البحر، فإذا هو نار تتأجج، قال: فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وإلى السماء السابعة العليا، قال: فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم[1]، وقال ابن عباس: ﴿وإذا النجوم انكدرت﴾ أي تغيرت، وعن يزيد بن أبي مريم مرفوعاً: «انكدرت في جهنم، وكل من عبد من دون الله فهو في جهنم، إلا ما كان من عيسى وأمه، ولو رضيا أن يعبدا لدخلاها»[2].

وقوله تعالى: ﴿وإذا الجبال سيرت﴾ أي زالت عن أماكنها ونسفت فتركت الأرض قاعاً صفصفاً، وقوله: ﴿وإذا العشار عطلت﴾ عشار الإبل، قال مجاهد: ﴿عطلت﴾ تركت وسيِّبت، وقال أُبيّ بن كعب: أهملها أهلها، وقال الربيع بن خيثم: لم تحلب وتخلى عنها أربابها، والمعنى في هذا كله متقارب، والمقصود أن العشار من الإبل وهي خيارها والحوامل منها، واحدتها عشراء قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها، بما دهمهم من الأمر العظيم الهائل، وهو أمر يوم القيامة ووقوع مقدماتها، وقيل: بل يكون ذلك يوم القيامة يراها أصحابها، كذلك لا سبيل لهم إليها، وقد قيل في العشار: إنها السحاب تعطل عن المسير بين السماء والأرض لخراب الدنيا، والراجح أنها الإبل، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ أي جمعت كما قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾ قال ابن عباس: يحشر كل شيء حتى الذباب، وقال عكرمة: حشرها موتها، وعن ابن عباس قال: حشر البهائم موتها وحشر كل شيء الموت غير الجن والإنس[3]. وعن الربيع بن خيثم ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ قال: أتى عليها أمر الله، وعن أُبيّ بن كعب أنه قال: ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ اختلطت، قال ابن جرير: والأولى قول من قال حشرت جمعت، قال الله تعالى: ﴿والطير محشورة﴾ أي مجموعة، وقوله تعالى: ﴿وإذا البحار سجرت﴾ قال ابن عباس: يرسل الله عليها الرياح الدبور فتسعرها وتصير ناراً تأجج، وفي سنن أبي داود: «لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز، فإن تحت البحر ناراً وتحت النار بحراً» الحديث، وقال مجاهد ﴿سجرت﴾: أوقدت، وقال الحسن: يبست، وقال الضحّاك وقتادة: غاض ماؤها فذهب فلم يبق فيها قطرة، وقال الضحّاك أيضاً: ﴿سجرت﴾ فجّرت، وقال السدي: فتحت وصيرت، وقوله تعالى: ﴿وإذا النفوس زوّجت﴾ أي جمع كل شكل إلى نظيره كقوله تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ أي الضرباء كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله. روى النعمان بن بشير أن عمر بن الخطاب خطب الناس فقرأ: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ فقال: تزوجها

---

(١) أخرجه ابن جرير.

(٢) رواه ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه ابن جرير.

أن تؤلف كل شيعة إلى شيعتهم، يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، فذلك تزويج الأنفس[1]، وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ قال: ذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة، وقال مجاهد: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ قال: الأمثال من الناس جمع بينهم، واختاره ابن جرير، وقال الحسن البصري وعكرمة: زوجت الأرواح بالأبدان، وقيل: زوج المؤمنون بالحور العين، وزوج الكافرون بالشياطين[2].

وقوله تعالى: ﴿وإذا الموءودة سئلت * بأي ذَنْب قُتِلَتْ﴾ الموءودة هي التي كانت أهل الجاهلية يدسونها في التراب كراهية البنات، فيوم القيامة تسأل الموءودة على أي ذنب قُتلت ليكون ذلك تهديداً لقاتلها، فإنه إذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذاً؟ وقال ابن عباس: ﴿وإذا الموءودة سئلت﴾ أي سألت أي طالبت بدمها. وقد وردت أحاديث تتعلق بالموءودة فقال الإمام أحمد عن جذامة بنت وهب أخت عكاشة قالت: حضرت رسول الله ﷺ في ناس وهو يقول: لقد هممت أن أنهى عن الغيلة فنظرت في الروم وفارس، فإذا هم يغيلون أولادهم، ولا يضر أولادهم ذلك شيئاً»، ثم سألوه عن العزل؟ فقال رسول الله ﷺ: «ذلك الوأد الخفي وهو الموءودة سئلت»[3]. وروى الإمام أحمد عن سلمة بن يزيد الجعفي قال: انطلقت أنا وأخي إلى رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله إن أمنا مليكة كانت تصل الرحم، وتقري الضيف، وتفعل، هلكت في الجاهلية فهل ذلك نافعها شيئاً؟ قال: «لا»، قلنا: فإنها كانت وأدت أُختاً لنـا في الجاهلية فهل ذلك نافعها شيئاً؟ قال: «الوائدة والموءودة في النار، إلا أن يدرك الوائدة الإسلام فيعفو الله عنها»[4]. وفي الحديث: «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والموءودة في الجنة»[5]. وعن قرة قال: سمعت الحسن يقول: قيل، يا رسول الله مَن في الجنة؟ قال: «الموءودة في الجنة»[6]. وقال ابن عباس: أطفال المشركين في الجنة، فمن زعم أنهم في النار فقد كذب، يقول الله تعالى: ﴿وإذا الموءودة سئلت * بأي ذنب قتلت﴾، قال ابن عباس: هي المدفونة، وقال عبد الرزاق: جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني وأدت بنات لي في الجاهلية، قال: «أعتق عن كل واحدة منهن رقبة» قال: يا رسول الله إني صاحب إبل، قال فانحر عن كل واحدة منهن بدنة»[7] وقوله تعالى: ﴿وإذا الصحف نشرت﴾ قال الضحّاك: أعطى كل إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله، وقال قتادة: يا ابن آدم تملي فيها ثم تطوى، ثم تنشر عليك يوم القيامة، فلينظر رجل ماذا يملي في صحيفته، قوله تعالى: ﴿وإذا السماء كشطت﴾ قال مجاهد: اجتذبت، وقال السدي: كشفت، وقال الضحّاك: تنكشط فتذهب، وقوله تعالى: ﴿وإذا الجحيم سعرت﴾ قال

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٢) حكاه القرطبي في التذكرة.
(٣) أخرجه أحمد ورواه مسلم وأبو داود والترمذي بنحوه.
(٤) أخرجه أحمد والنسائي.
(٥) أخرجه أحمد من حديث خنساء بنت معاوية الصريمية عن عمها قال، قلت: يا رسول الله من في الجنة؟ فقال الحديث.
(٦) هذا من مراسيل الحسن ومنهم من قبله.
(٧) أخرجه عبد الرزاق والحافظ البزار بنحوه عن عمر بن الخطاب.

السدي: أحميت، وقال قتادة: أوقدت، قال: وإنما يسعرها غضب الله وخطايا بني آدم، وقوله تعالى: ﴿وإذا الجنة أزلفت﴾ قال الضحّاك: أي قربت إلى أهلها، وقوله تعالى: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ هذا هو الجواب أي إذا وقعت هذه الأمور حينئذ تعلم كل نفس ما عملت، وأحضر ذلك لها كما قال تعالى: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾، وقال تعالى: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾. عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما نزلت: ﴿إذا الشمس كورت﴾ قال عمر: لما بلغ ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ قال: لهذا أجري الحديث.

فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

﴿**فلا أقسم بالخنَّس ٭ الجوار الكنَّس**﴾ قال علي: هي النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل. وروى ابن جرير عن خالد بن عرعرة سمعت علياً، وسئل عن ﴿لا أُقسم بالخنس ٭ الجوار الكنس﴾ فقال: هي النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل[1]، وكذا روي عن ابن عباس ومجاهد والحسن: أنها النجوم، وقال بعض الأئمة: إنما قيل للنجوم الخنس، أي في حال طلوعها، ثم هي جوار في فلكها، وفي حال غيبوبتها يقال لها كنّس، من قول العرب: أوى الظبي إلى كناسه، إذا تغيب فيه، وروى الأعمش عن عبدالله ﴿فلا أقسم بالخنس﴾ قال: بقر الوحش، وقال ابن عباس ﴿الجوار الكنس﴾ البقر تكنس إلى الظل، وقال العوفي عن ابن عباس: هي الظباء[2]، وقال أبو الشعثاء: هي الظباء والبقر، وتوقف ابن جرير في المراد بقوله: ﴿الخنس الجوار الكنس﴾ هل هو النجوم أو الظباء وبقر الوحش؟ قال: ويحتمل أن يكون الجميع مراداً، وقوله تعالى: ﴿والليل إذا عسعس﴾ فيه قولان (**أحدهما**): إقباله بظلامه، قال مجاهد: أظلم: وقال سعيد بن جبير: إذا نشأ، وقال الحسن البصري: إذا غشي الناس. (**والثاني**): إدباره، قال ابن عباس: ﴿إذا عسعس﴾ إذا أدبر، وكذا قال مجاهد وقتادة والضحّاك ﴿إذا عسعس﴾ أي إذا ذهب فتولى، وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿إذا عسعس﴾ إذا أدبر، قال: لقوله تعالى: ﴿والصبح إذا تنفس﴾ أي أضاء، واستشهد بقول الشاعر أيضاً:

حتى إذا الصبح له تنفسا ... وانجاب عنها ليلها وعسعسا

(١) أخرجه ابن جرير.

(٢) وكذا قال سعيد بن جبير ومجاهد والضحاك.

أي أدبر ، وعندي أن المراد بقوله : ﴿ إذا عسعس ﴾ إذا أقبل ، وإن كان يصح استعماله في الإدبار أيضاً، لكن الإقبال ههنا أنسب، كأنه أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق، كما قال تعالى: ﴿ والليل إذا يغشى ◦ والنهار إذا تجلى ﴾، وقال تعالى: ﴿ والضحى ◦ والليل إذا سجى ﴾، وقال تعالى: ﴿ فالق الاصباح وجعل الليل سكناً ﴾ وغير ذلك من الآيات، وقوله تعالى: ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ قال الضحّاك: إذا طلع، وقال قتادة: إذا أضاء وأقبل، وقال سعيد بن جبير : إذا نشأ، وقال ابن جرير : يعني ضوء النهار إذا أقبل وتبيّن .

وقوله تعالى : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ يعني إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم، أي ملك شريف حسن الخلق بهي المنظر ، وهو (جبريل) عليه الصلاة والسلام، ﴿ ذي قوة ﴾ كقوله تعالى: ﴿ علمه شديد القوى ◦ ذو مرة ﴾ أي شديد الخلق شديد البطش والفعل، ﴿ عند ذي العرش مكين ﴾ أي له مكانة عند الله عزَّ وجلَّ ومنزلة رفيعة، ﴿ مطاع ثَمّ ﴾ أي له وجاهة وهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى، قال قتادة: ﴿ مطاع ثم ﴾ أي في السماوات، يعني ليس هو من أفناد[1] الملائكة، بل هو من السادة والأشراف، معتنى به انتخب لهذه الرسالة العظيمة، وقوله تعالى: ﴿ أمين ﴾ صفة لجبريل بالأمانة، وهذا عظيم جداً، أن الرب عزَّ وجلَّ يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل كما زكى عبده ورسوله البشري محمداً ﷺ بقوله تعالى: ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ قال الشعبي وميمون: المراد بقوله ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ يعني محمداً ﷺ، وقوله تعالى : ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ يعني ولقد رأى محمد (جبريل)، الذي يأتيه بالرسالة عن الله عزَّ وجلَّ، على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح، ﴿ بالأفق المبين ﴾ أي البين، وهي الرؤية الأولى كانت بالبطحاء، وهي المذكورة في قوله: ﴿ علمه شديد القوى ◦ ذو مرة فاستوى ◦ وهو بالأفق الأعلى ﴾، والظاهر أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء، لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهي الأولى، وأما الثانية وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ ولقد رآه نزلة أُخرى ◦ عند سدرة المنتهى ◦ عندها جنة المأوى ◦ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ فتلك إنما ذكرت في سورة النجم، وقد نزلت بعد سورة الإسراء، وقوله تعالى: ﴿ وما هو على الغيب بظنين ﴾ أي بمتهم، ومنهم من قرأ ذلك بالضاد، أي ببخيل بل يبذله لكل أحد . قال سفيان بن عيينة: (ظنين) و (ضنين) سواء، أي ما هو بفاجر ، و (الظنين) المتهم ، و (الضنين) البخيل، وقال قتادة: كان القرآن غيباً فأنزله الله على محمد، فما ضنّ به على الناس بل نشره وبلغه وبذله لكل من أراده ، واختار ابن جرير قراءة الضاد . (**قلت**) : وكلاهما متواتر ومعناه صحيح كما تقدَّم ، وقوله تعالى : ﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ أي وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم، أي لا يقدر على حمله ولا يريده ولا ينبغي له ، كما قال تعالى: ﴿ وما تنزلت به الشياطين ◦ وما ينبغي لهم وما يستطيعون ◦ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ . وقوله تعالى: ﴿ فأين تذهبون ﴾ ؟ فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن، مع ظهوره ووضوحه وبيان كونه حقاً من عند الله عزَّ وجل ! كما قال الصديق رضي الله عنه لوفد بني حنيفة حين قدموا مسلمين، وأمرهم فتلوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة الكذّاب الذي هو في غاية الهذيان والركاكة فقال: ويحكم أين تذهب عقولكم ؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إل » أي من إله، وقال قتادة: ﴿ فأين تذهبون ﴾ أي عن كتاب الله

(١) أفناد : جماعات .

وعن طاعته، وقوله تعالى: ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ أي هذا القرآن ذكر لجميع الناس يتذكرون به ويتعظون ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ أي لمن أراد الهداية فعليه بهذا القرآن فإنه مناجاة له وهداية، ولا هداية فيما سواه، ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ أي ليست المشيئة موكولة إليكم، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين، قال سفيان الثوري: لما نزلت هذه الآية: ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ قال أبو جهل: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم، فأنزل الله تعالى: ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾.

[آخر تفسير سورة التكوير، ولله الحمد والمنة]





(٨٢) سورة الانفطار مكية
وآياتها تسع عشرة

قد تقدم من رواية عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: « من سره أن ينظر إلى القيامة رأي عين فليقرأ: ﴿ إذا الشمس كورت ﴾، و ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾، و ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ ».

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى: ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ أي أنشقت، كما قال تعالى: ﴿ السماء منفطر به ﴾، ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ أي تساقطت، ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ قال ابن عباس: فجر الله بعضها في بعض، وقال الحسن: فجر الله بعضها في بعض فذهب ماؤها، وقال قتادة: اختلط عذبها بمالحها، وقال الكلبي: ملئت. ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ قال ابن عباس: بحثت. وقال السدي: تبعثر - تحرك فيخرج من فيها، ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ أي إذا كان هذا حصل هذا، وقوله تعالى: ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾؟ هذا تهديد من الله للإنسان[1] والمعنى: ما غرك يا ابن آدم ﴿ بربك الكريم ﴾ أي العظيم، حتى أقدمت على معصيته، وقابلته بما لا يليق؟ كما جاء في الحديث: « يقول الله تعالى يوم القيامة: يا ابن آدم ما غرك بي؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين »؟ وعن يحيى البكاء قال: سمعت ابن عمر يقول وقرأ هذه الآية: ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ قال ابن عمر: غره والله جهله، وقال قتادة: ما غرّ ابن آدم غير هذا العدو الشيطان، وقال الفضل

(١) الكلام تهديد كما قال ابن كثير، وليس كما زعم بعضهم أنه إرشاد إلى الجواب حتى قالوا:

ابن عياض: لو قال لي: ما غرّك بي؟ لقلت: ستورك المرخاة، وقال أبو بكر الوراق: لو قال لي: ما غرك بربك الكريم؟ لقلت: غرني كرم الكريم، وقال بعض أهل الإشارة: إنما قال بربك الكريم دون سائر أسمائه وصفاته، كأنه لقنه الإجابة، وهذا الذي تخيله هذا القائل ليس بطائل، لأنه إنما أتى باسمه الكريم، لينبه على أنه لا ينبغي أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة وأعمال الفجور، وقوله تعالى: ﴿الذي خلقك فسواك فعدلك﴾ أي جعلك سوياً مستقيماً معتدل القامة، منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال، روى الإمام أحمد عن بشر بن جحاش القرشي أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه، فوضع عليها إصبعه ثم قال: «قال الله عزَّ وجلَّ: يا ابن آدم أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذا؟ حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي: قلت: أتصدق وأنّى أوان الصدقة؟»[1].

وقوله تعالى: ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾ قال مجاهد: في أي شبه أب أو أم، أو خال أو عم، وقال عكرمة في قوله تعالى: ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾ إن شاء في صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير، وكذا قال أبو صالح: إن شاء في صورة كلب، وإن شاء في صورة حمار، وإن شاء في صورة خنزير، وقال قتادة: قادر والله ربنا على ذلك، ومعنى هذا القول عندهم أن الله عزَّ وجل قادر على خلق النطفة على شكل قبيح، من الحيوانات المنكرة الخلق، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه، يخلقه على شكل حسن مستقيم، معتدل تام حسن المنظر والهيئة. وقوله تعالى: ﴿كلا بل تكذبون بالدين﴾ أي إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي، تكذيب قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب، وقوله تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون﴾ يعني وإن عليكم لملائكة حفظة كراماً، فلا تقابلوهم بالقبائح، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم، عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم عن التعري، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات: الغائط والجنابة والغسل، فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه أو بجرم حائط أو ببعيره». وفي الحديث: «ما من حافظين يرفعان إلى الله عزَّ وجلَّ ما حفظا في يوم فيرى في أول الصحيفة، وفي آخرها استغفاراً إلا قال الله تعالى: قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة»[2]، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يعرفون بني آدم – وأحسبه قال ويعرفون أعمالهم – فإذا نظروا إلى عبد يعمل بطاعة الله ذكروه بينهم وسموه، وقالوا: أفلح الليلة فلان، نجا الليلة فلان، وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله ذكروه بينهم وسموه وقالوا: هلك الليلة فلان»[3]

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾

---

(١) أخرجه أحمد وابن ماجة.

(٢) أخرجه الحافظ البزار عن أنس بن مالك مرفوعاً. (٣) أخرجه البزار أيضاً وفي سنده سلام المدائني ليّن الحديث.

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم، وهم الذين أطاعوا الله عزَّ وجلَّ ولم يقابلوه بالمعاصي، ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم، ولهذا قال: ﴿يصلونها يوم الدين﴾ أي يوم الحساب والجزاء والقيامة، ﴿وما هم عنها بغائبين﴾ أي لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة، ولا يخفف عنهم من عذابها، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ولو يوماً واحداً، وقوله تعالى: ﴿وما أدراك ما يوم الدين﴾ تعظيم لشأن يوم القيامة، ثم أكده بقوله تعالى: ﴿ثم ما أدراك ما يوم الدين﴾، ثم فسره بقوله: ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً﴾ أي لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، وفي الحديث قال عليه السلام: «يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار لا أملك لكم من الله شيئاً»، ولهذا قال: ﴿والأمر يومئذ لله﴾ كقوله تعالى: ﴿لمن الملك اليوم * لله الواحد القهار﴾ قال قتادة: ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ والأمر والله اليوم لله، لكنه لا ينازعه فيه يومئذ أحد.

[آخر تفسير سورة الإنفطار، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة]





(٨٣) سورة المطففين مكية وآياتها ست وثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿ويل للمطفّفين﴾ فحسنوا الكيل بعد ذلك[1]، وروى ابن جرير، عن عبد الله قال: قال له رجل: يا أبا عبد الرحمن إن أهل المدينة ليوفون الكيل، قال: وما يمنعهم أن يوفوا الكيل، وقد قال الله تعالى: ﴿ويل للمطففين - حتى بلغ - يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾[2]، والمراد بالتطفيف ههنا البخس في المكيال والميزان، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس، وإما النقصان إن قضاهم، ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك بقوله تعالى: ﴿إذا اكتالوا على الناس﴾ أي من الناس ﴿يستوفون﴾ أي يأخذون حقهم بالوافي والزائد، ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾ أي ينقصون، والأحسن أن يجعل «كالوا ووزنوا» متعدياً ويكون (هم) في محل نصب. وقد أمر الله تعالى بالوفاء في الكيل والميزان فقال تعالى: ﴿وأوفوا الكيل إذا كلتم﴾، وقال تعالى: ﴿وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾، وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس في الميزان والمكيال، ثم قال تعالى متوعداً لهم: ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم﴾؟ أي ما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر، في يوم عظيم الهول، كثير الفزع جليل الخطب، من خسر فيه أدخل ناراً حامية؟ وقوله تعالى: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ أي يقومون حفاة عراة، في موقف صعب حرج، ضيق على المجرم، ويغشاهم من أمر الله تعالى ما تعجز القوى والحواس عنه، عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «يوم يقوم الناس لرب العالمين» حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»[3]، وفي رواية لأحمد عن النبي

---

(١) أخرجه النسائي وابن ماجة.

(٢) رواه ابن جرير.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم والإمام مالك.

ﷺ قال: «يوم يقوم النـاس لرب العالمين، لعظمة الرحمن عزَّ وجلَّ يوم القيامة، حتى إن العرق ليلجم الرجال إلى أنصاف آذانهم»[1]. **حديث آخر**: وروى الإمام أحمد عن المقداد بن الأسود الكِنْدي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين - قال - فتصهرهم الشمس فيكونون في العرق كقدر أعمالهم، منهم من يأخذه إلى عقبيه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من يأخذه إلى حقويه، ومنهم من يلجمه إلجاماً»[2]. **حديث آخر**: روى الإمام أحمد، عن عقبة بن عامر قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تدنو الشمس من الأرض فيعرق الناس، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبيه، ومنهم من يبلغ إلى نصف الساق، ومنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من يبلغ العجز، ومنهم من يبلغ الخاصرة، ومنهم من يبلغ منكبيه، ومنهم من يبلغ وسط فيه - وأشار بيده فألجمها فاه - رأيت رسول الله ﷺ يشير بيده هكذا - ومنهم من يغطيه عرقه» وضرب بيده، إشارة[3]؛ وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة، وعن ابن مسعود: يقومون أربعين سنة رافعي رؤوسهم إلى السماء لا يكلمهم أحد قد ألجم العرق برهم وفاجرهم.

كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى حقاً: ﴿إن كتاب الفجار لفي سجين﴾ أي ان مصيرهم ومأواهم ﴿لفي سجين﴾ فعّيل من السجن، وهو الضيق كما يقال: فسّيق وخمّير وسكّير ونحو ذلك، ولهذا عظّم أمره فقال تعالى: ﴿ما أدراك ما سجّين﴾؟ أي هو أمر عظيم، وسجين مقيم، وعذاب أليم، ثم قال قائلون: هي تحت الأرض السابعة، وقد تقدم في حديث البراء بن عازب يقول الله عزَّ وجلَّ في روح الكافر «اكتبوا كتابه في سجين»، وقيل: بئر في جهنم، والصحيح أن سجيناً مأخوذ من السجن وهو الضيق، فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق وكل ما تعالى منها اتسع، ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل السافلين، كما قال تعالى: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وقال هٰهنا: ﴿كلا إن كتاب الفجار لفي سجين وما أدراك ما سجين﴾ وهو يجمع الضيق والسفول كما قال تعالى: ﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبورا﴾، وقوله تعالى: ﴿كتاب مرقوم﴾ ليس تفسيراً لقوله: ﴿وما أدراك ما سجين﴾، وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين، أي مرقوم مكتوب مفروغ منه، لا يزاد فيه أحد ولا ينقص منه أحد، ثم قال تعالى: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ أي إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

(٢) رواه مسلم والترمذي وأحمد.

(٣) أخرجه الإمام أحمد.

السجن والعذاب المهين، ﴿ويل﴾ لهم والمراد من ذلك الهلاك والدمار كما يقال: ويل لفلان، ثم قال تعالى: مفسراً للمكذبين الفجّار الكفرة: ﴿الذين يكذبون بيوم الدين﴾ أي لا يصدقون بوقوعه، ولا يعتقدون كونه، ويستبعدون أمره، قال الله تعالى: ﴿وما يكذب به إلا كل معتد أثيم﴾ أي معتد في أفعاله من تعاطي الحرام، والمجاوزة في تناول المباح، والأثيم في أقواله إن حدث كذب، وإن وعد أخلف، وإن خاصم فجر.

وقوله تعالى: ﴿إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ أي إذا سمع كلام الله تعالى من الرسول يكذب به، ويظن به ظن السوء، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل، كما قال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم؟ قالوا أساطير الأولين﴾، وقال تعالى: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾ قال الله تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ أي ليس الأمر كما زعموا، ولا كما قالوا: إن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به، ما عليها من الرين الذي قد لبس قلوبهم، من كثرة الذنوب والخطايا، ولهذا قال تعالى: ﴿ما كانوا يكسبون﴾ والرين يعتري قلوب الكافرين، والغَيْن للمقربين، وقد روى الترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد زادت، فذلك قول الله تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾»[1] ولفظ النسائي: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فهو الران الذي قال الله تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾»[2]. وقال الحسن البصري: هو الذنب حتى يعمى القلب فيموت[3]، وقوله تعالى: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ أي ثم هم يوم القيامة محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم، قال الإمام الشافعي: وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عزَّ وجلَّ يومئذ، وهذا الذي قاله في غاية الحسن، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية، كما دل عليه منطوق قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾، وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة، في رؤية المؤمنين ربهم عزَّ وجلَّ في الدار الآخرة، قال الحسن: يكشف الحجاب فينظر إليه المؤمنون والكافرون، ثم يحجب عنه الكافرون، وينظر إليه المؤمنون كل يوم غدوة وعشية، وقوله تعالى: ﴿ثم إنهم لصالوا الجحيم﴾ أي ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن، من أهل النيران، ﴿ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون﴾ أي يقال لهم ذلك، على وجه التقريع والتوبيخ، والتصغير والتحقير.

كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾

---

(١) أخرجه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) هذا لفظ النسائي وقد رواه أحمد بنحوه.

(٣) وكذا قال مجاهد وقتادة وابن زيد.

يقول تعالى : حقاً إن كتاب الابرار – وهم بخلاف الفجار – ﴿لفي عليين﴾ أي مصيرهم إلى عليين وهو بخلاف سجين، روى الأعمش عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعباً – وأنا حاضر – عن سجين ؟ قال: هي الأرض السابعة وفيها أرواح الكفار ، وسأله عن عليين ؟ فقال: هي السماء السابعة وفيها أرواح المؤمنين(١) ، وقال ابن عباس: ﴿لفي عليين﴾ يعني الجنة ، وفي رواية عنه: أعمالهم في السماء عند الله، وقال قتادة: عليون ساق العرش اليمنى ، وقال غيره : عليون عند سدرة المنتهى ، والظاهر أن عليين مأخوذ من العلو ، وكلما علا الشيء وارتفع عظم واتسع ، ولهذا قال تعالى معظماً أمره ومفخماً شأنه: ﴿وما أدراك ما عليّون﴾ ؟ ثم قال تعالى مؤكداً لما كتب لهم: ﴿كتاب مرقوم يشهده المقربون﴾ وهم الملائكة قاله قتادة، وقال ابن عباس: يشهده من كل سماء مقربوها، ثم قال تعالى: ﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾ أي يوم القيامة هم في نعيم مقيم، وجنات فيها فضل عميم ﴿على الأرائك﴾ وهي السرر تحت الحجال ﴿ينظرون﴾ قيل: معناه ينظرون في ملكهم، وما أعطاهم الله من الخير ، والفضل الذي لا ينقضي ولا يبيد، وقيل: معناه ﴿على الأرائك ينظرون﴾ إلى الله عزَّ وجلَّ، كما تقدم في حديث ابن عمر : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه وإن أعلاهم لمن ينظر إلى الله عزَّ وجلَّ في اليوم مرتين » . وقوله تعالى: ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ أي تعرف إذا نظرت إليهم في وجوههم ﴿نضرة النعيم﴾ أي صفة الترافة والسرور ، والدعة والرياسة، مما هم فيه من النعيم العظيم. وقوله تعالى: ﴿يسقون من رحيق مختوم﴾ أي يسقون من خمر من الجنة، والرحيق من أسماء الخمر(٢) ، وفي الحديث: « أيما مؤمن سقى مؤمناً شربة ماء على ظمإ سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم ، وأيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، وأيما مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على عري كساه الله من خضر الجنة »(٣) ، وقال ابن مسعود في قوله: ﴿ختامه مسك﴾ أي خلطه مسك، وقال ابن عباس: طيب الله لهم الخمر ، فكان آخر شيء جعل فيها مسك ختم بمسك، وقال الحسن: عاقبته مسك، وقال ابن جرير ، عن أبي الدرداء : ﴿ختامه مسك﴾ قال: شراب أبيض مثل الفضة يختمون به شرابهم، ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها، لم يبق ذو روح إلا وجد طيبها(٤) ، وقال مجاهد: ﴿ختامه مسك﴾ طيبه مسك، وقوله تعالى: ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ أي وفي مثل هذا الحال فليتفاخر المتفاخرون، وليتباهى وليستبق إلى مثله المستبقون كقوله تعالى: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ومزاجه من تسنيم﴾ أي مزاج هذا الرحيق الموصوف ﴿من تسنيم﴾ أي من شراب يقال له تسنيم، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه، ولهذا قال: ﴿عيناً يشرب بها المقربون﴾ أي يشربها المقربون صرفاً، وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً(٥) .

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا

(١) وهكذا قال غير واحد من السلف أنها السماء السابعة .

(٢) وهو قول ابن مسعود وابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة .

(٣) أخرجه أحمد عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً .

(٤) أخرجه ابن جرير .

(٥) قاله ابن مسعود وابن عباس ومسروق وقتادة وغيرهم .

ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

يخبر تعالى عن المجرمين، أنهم كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين، أي يستهزئون بهم ويحتقرونهم، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم أي محتقرين لهم ﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين﴾ إي وإذا انقلب: أي رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم انقلبوا إليها فاكهين، أي مهما طلبوا وجدوا، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحقرونهم ويحسدونهم ﴿وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾ أي لكونهم على غير دينهم، قال الله تعالى: ﴿وما أرسلوا عليهم حافظين﴾ أي وما بعث هؤلاء المجرمون، حافظين على هؤلاء المؤمنين، ما يصدر منهم من أعمالهم وأقوالهم، ولا كلفوا بهم، فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم؟ كما قال تعالى: ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿فاليوم﴾ يعني يوم القيامة ﴿الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ أي في مقابلة ما ضحك بهم أولئك ﴿على الأرائك ينظرون﴾ أي إلى الله عزَّ وجلَّ، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته، وقوله تعالى: ﴿هل ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون﴾؟ أي هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين، من الاستهزاء والسخرية أم لا؟ يعني قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله.

[آخر تفسير سورة المطففين، ولله الحمد والمنة]

***



روى البخاري، عن أبي رافع قال: «صلَّيتُ مع أبي هريرة العتمة فقرأ: ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ فسجد، فقلت له، فقال: سجدت خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

يقول تعالى: ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ وذلك يوم القيامة، ﴿ وأذنت لربها ﴾ أي استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الإنشقاق، وذلك يوم القيامة ﴿ وحُقَّتْ ﴾ أي وحق لها أن تطيع أمره، لأنه العظيم الذي لا يمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شيء وذل له كل شيء، ثم قال: ﴿ وإذا الأرض مدَّت ﴾ أي بسطت وفرشت ووسعت، وفي الحديث «إذا كان يوم القيامة مد الله الأرض مد الأديم، حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه»[2]. وقوله تعالى: ﴿ وألقت ما فيها وتخلت ﴾ أي ألقت ما في بطنها من الأموات وتخلت عنهم، ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ كما تقدم، وقوله: ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً ﴾ أي إنك ساع إلى ربك سعياً وعامل عملاً ﴿ فملاقيه ﴾ ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر، عن جابر قال، قال رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي.

(٢) أخرجه ابن جرير عن علي بن الحسين مرفوعاً.

ﷺ: «قال جبريل: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه»[1]، ومن النـاس من يعيد الضمير على قوله ﴿ربك﴾ أي فملاق ربك ومعناه فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك، قال ابن عباس: تعمل عملاً تلقى الله به خيراً كان أو شراً، وقال قتادة: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً﴾ إن كدحك يا ابن آدم لضعيف، فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل ولا قوة إلا بالله. ثم قال تعالى: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ أي سهلاً بلا تعسير أي لا يحقق عليه جميع دقـائق أعماله، فإن من حوسب كذلك هلك لا محالة، روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ: «من نوقش الحساب عذب»، قالت، فقلت: أفليس قال الله تعالى: ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾، قال: «ليس ذاك بالحساب، ولكن ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامـة عذب»[2]. وروى ابن جرير، عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ: «إنه ليس أحـد يحاسب يوم القيامة إلا معذباً»، فقلت: أليس الله يقول ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾؟ قال: «ذاك العرض، إنه من نوقش الحساب عذب»، وقال بيده على إصبعه كأنه ينكت[3]. وفي رواية عن عائشة قالت: «من نوقش الحساب - أو من حوسب - عذب، ثم قالت: إنمـا الحساب اليسير عرض على الله تعالى وهو يراهم»[4]. وقوله تعالى: ﴿وينقلب إلى أهله مسروراً﴾ أي ويرجع إلى أهله في الجنة ﴿مسروراً﴾ أي فرحاً مغتبطاً بمـا أعطاه الله عزَّ وجلَّ، وقد روى الطبراني عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أنه قال: إنكم تعملون أعمالاً لا تعرف، ويوشك الغائب أن يثوب إلى أهله فمسرور أو مكظوم[5]. وقوله تعالى: ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره﴾ أي بشماله من وراء ظهره تثنى يده إلى ورائه، ويعطى كتابه بها كذلك ﴿فسوف يدعو ثبوراً﴾ أي خساراً وهلاكاً ﴿ويصلى سعيراً * إنه كان في أهله مسروراً﴾ أي فرحاً لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل، ﴿إنه ظنَّ ان لن يحور﴾ أي كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله، ولا يعيده بعد موته، قال ابن عباس وقتادة وغيرهما، والحَوْر هو الرجوع، قال الله: ﴿بلى إن ربه كان به بصيراً﴾ يعني بلى سيعيده الله كما بدأه ويجازيه على أعماله خيرها وشرها فإنه ﴿كان به بصيراً﴾ أي عليماً خبيراً.

فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ﴿٢١﴾ ۩ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي.

(٢) أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

(٣) أخرجه الشيخان وابن جرير.

(٤) رواه ابن جرير.

(٥) أخرجه الطبراني.

قال علي وابن عباس: ﴿الشفق﴾ الحمرة، وقال عبدالرزاق، عن أبي هريرة: ﴿الشفق﴾ البياض، فالشفق هو حمرة الأفق، إما قبل طلوع الشمس، كما قاله مجاهد، وإما بعد غروبها كما هو معروف عند أهل اللغة، قال الخليل: الشفق: الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة، فإذا ذهب قيل: غاب الشفق، وفي الحديث: «وقت المغرب ما لم يغب الشفق»[1]، ولكن صح عن مجاهد أنه قال في هذه الآية: ﴿فلا أقسم بالشفق﴾ هو النهار كله، وإنما حمله على هذا قرنه بقوله تعالى: ﴿والليل وما وسق﴾ أي جمع، كأنه أقسم بالضياء والظلام، قال ابن جرير: أقسم الله بالنهار مدبراً وبالليل مقبلاً، وقال آخرون: الشفق اسم للحمرة والبياض، وهو من الأضداد. قال ابن عباس ومجاهد: ﴿وما وسق﴾ وما جمع، قال قتادة: وما جمع من نجم ودابة، وقال عكرمة: ما ساق من ظلمة إذا كان الليل ذهب كل شيء إلى مأواه، وقوله تعالى: ﴿والقمر إذا اتسق﴾ قال ابن عباس: إذا اجتمع واستوى، وقال الحسن: إذا اجتمع وامتلأ، وقال قتادة: إذا استدار، ومعنى كلامهم إنه إذا تكامل نوره وأبدر جعله مقابلاً لليل وما وسق.

وقوله تعالى: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ قال البخاري، قال ابن عباس: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ حالاً بعد حال، قال: هذا نبيكم ﷺ[2]، وقال الشعبي ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ قال: لتركبنّ يا محمد سماء بعد سماء، يعني ليلة الإسراء، وقيل: ﴿طبقاً عن طبق﴾ منزلاً على منزل، ويقال: أمراً بعد أمر، وحالاً بعد حال[3]؛ وقال السدي: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ أعمال من قبلكم منزلاً بعد منزل، وكأنه أراد معنى الحديث الصحيح: «لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»، قالوا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟». وقال ابن مسعود: ﴿طبقاً عن طبق﴾ السماء مرة كالدهان، ومرة تنشق، وقال سعيد بن جبير ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ قال: قوم كانوا في الدنيا خسيسٌ أمرهم فارتفعوا في الآخرة، وآخرون كانوا أشرافاً في الدنيا فاتضعوا في الآخرة، وقال عكرمة: ﴿طبقاً عن طبق﴾ حالاً بعد حال فطيماً بعدما كان رضيعاً، وشيخاً بعد ما كان شاباً، وقال الحسن البصري: ﴿طبقاً عن طبق﴾ يقول: حالاً بعد حال، رخاء بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وغنى بعد فقر، وفقراً بعد غنى، وصحة بعد سقم، وسقماً بعد صحة. ثم قال ابن جرير: والصواب من التأويل قول من قال: لتركبن أنت يا محمد حالاً بعد حال، وأمراً بعد أمر من الشدائد، والمراد بذلك - وإن كان الخطاب موجهاً إلى رسول الله ﷺ - جميع الناس، وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأحواله أهوالاً، وقوله تعالى: ﴿فما لهم لا يؤمنون وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون﴾ أي فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وما لهم إذا قرئت عليهم آيات الله وهو هذا القرآن لا يسجدون إعظاماً وإكراماً واحتراماً؟ وقوله تعالى: ﴿بل الذين كفروا يكذبون﴾ أي من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق، ﴿والله أعلم بما يوعون﴾ قال مجاهد وقتادة: يكتمون في صدورهم، ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ أي فأخبرهم يا محمد بأن الله عزَّ وجلَّ

---

(١) أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن عمرو.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) هي رواية العوفي عن ابن عباس.

قد أعد لهم عذاباً أليماً، وقوله تعالى: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ هذا استثناء منقطع يعني لكن الذين آمنوا أي بقلوبهم ﴿وعملوا الصالحات﴾ أي بجوارحهم ﴿لهم أجر﴾ أي في الدار الآخرة ﴿غير ممنون﴾ قال ابن عباس: غير منقوص، وقال مجاهد: غير محسوب، وحاصل قولهما: أنه غير مقطوع، كما قال تعالى: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾، وقال السدي: قال بعضهم: غير ممنون: غير منقوص، وقال بعضهم: غير ممنون عليهم، وهذا القول قد أنكره غير واحد، فإن الله عزَّ وجلَّ له المنة على أهل الجنة، في كل حال وآن ولحظة، وإنما دخلوها بفضله ورحمته لا بأعمالهم، فله عليهم المنة دائماً سرمداً، والحمد لله وحده أبداً.

[آخر تفسير سورة الإنشقاق، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة]





(٨٥) سورة البروج مكية وآياتها اثنتان وعشرون

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠﴾

يقسم تعالى بالسماء وبروجها وهي النجوم العظام، قال ابن عباس: البروج النجوم، وقال يحيى بن رافع : البروج قصور في السماء، وقال المنهال بن عمرو : ﴿والسماء ذات البروج﴾ الخلق الحسن، واختار ابن جرير أنها منازل الشمس والقمر ، وهي اثنا عشر برجاً تسير الشمس في كل واحد منها شهراً، ويسير القمر في كل واحد منها يومين وثلثا، فذلك ثمانية وعشرون منزلة ويستسر ليلتين، وقوله تعالى: ﴿واليوم الموعود وشاهد ومشهود﴾ اختلف المفسرون في ذلك فروي عن أبي هريرة مرفوعاً﴿ واليوم الموعود﴾ يوم القيامة، ﴿ وشاهد﴾ يوم الجمعة، ﴿ ومشهود﴾ يوم عرفة[1] . روى الإمام أحمد، عن أبي هريرة أنه قال في هذه الآية ﴿ وشاهد ومشهود﴾ قال : الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، والموعود يوم القيامة[2] . وعن سعيد بن المسيب أنه قال، قال رسول الله ﷺ : « إن سيد الأيام يوم الجمعة، وهو الشاهد، والمشهود يوم عرفة »[3] . وروى ابن جرير عن ابن عباس قال:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ، والأشبه أنه موقوف على أبي هريرة .
(٢) أخرجه أحمد .
(٣) هذا من مراسيل سعيد بن المسيب .

الشاهد هو محمد ﷺ، والمشهود يوم القيامة . ثم قرأ : ﴿ذلك يوم مجموع له النـاس وذلك يوم مشهود﴾[١] .
وسأل رجل الحسن بن علي عن ﴿وشاهد ومشهود﴾ فقال: سألت أحداً قبلي؟ قال: نعم، سألت ابن عمر وابن الزبير فقالا: يوم الذبح ويوم الجمعة، فقال: لا ، ولكن الشاهد محمد ﷺ، ثم قرأ : ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ والمشهود يوم القيامة، ثم قرأ : ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يـوم مشهود﴾[٢] وهكذا قال الحسن البصري، وقال مجاهد والضحّاك: الشاهد ابن آدم، والمشهود يوم القيامة؛ وعن عكرمة: الشاهد محمد ﷺ ، والمشهود يوم الجمعة، وقال ابن عباس: الشاهد الله ، والمشهود يوم القيامة، وقال ابن أبي حاتم عن مجاهد عن ابن عباس ﴿وشاهد ومشهود﴾ قال: الشاهد الإنسان، والمشهود يوم الجمعة[٣] ، وقال ابن جرير ، عن ابن عباس: ﴿وشاهد ومشهود﴾ الشاهد يوم عرفة، والمشهود يوم القيامة، قال ابن جرير : وقال آخرون: ﴿المشهود﴾ يوم الجمعة، لحديث أبي الدرداء قال، قال رسول الله ﷺ : «أكثروا من الصلاة يوم الجمعة ، فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة»[٤] ؛ وعن سعيد بن جبير : الشاهد الله ، وتلا:﴿وكفى بالله شهيداً﴾ والمشهود نحن[٥] ، وقال الأكثرون على أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة .

وقوله تعالى : ﴿قتل أصحاب الأُخْدُود﴾ أي لعن أصحاب الأخدود، وجمعه أخاديد وهي الحفـر في الأرض، وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله عزّ وجلّ فقهروهم، وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أُخدوداً، وأججوا فيه ناراً، وأعدوا لهـا وقوداً يسعرونها به، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم، فقذفوهم فيها، ولهذا قال تعالى: ﴿قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود ۝ إذ هم عليها قعود ۝ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾ أي مشاهدون لـما يفعل بأولئك المؤمنين ۝ قال الله تعالى: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ أي وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله ﴿العزيز﴾ الـذي لا يضام من لاذ بجنابه، ﴿الحميد﴾ في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، ثم قال تعالى: ﴿الذي له ملـك السماوات والأرض﴾ من تمام الصفة أنه المالك لجميع السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، ﴿والله على كل شيء شهيد﴾ أي لا يغيب عنه شيء في جميع السماوات والأرض، ولا تخفى عليه خافية، وقـد اختلف أهل التفسير في أهل هذه القصة من هم؟ فعن علي أنهم أهل فارس، حين أراد ملكهم تحليل تزويج المحارم فامتنع عليه علماؤهم، فعمد إلى حفر أُخدود فقذف فيه من أنكر عليه منهم، واستمر فيهم تحليل المحارم إلى اليوم . وعن ابن عباس قال: ناس من بني إسرائيل خدوا أُخدوداً في الأرض ، ثم أوقدوا فيه ناراً ، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء ، فعرضوا عليها ، وزعموا أنه دانيال وأصحابه ، وقيل غير ذلك .

وقد روى الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن عبدالرحمن بن أبي ليلى عن صهيب الرومي أن رسول الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم ملك، وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قـال

---

(١) أخرجه ابن جرير .
(٢) أخرجه ابن جرير أيضاً .
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم .
(٤) أخرجه ابن جرير .
(٥) حكاه البغوي .

للملك : إني قـد كبر سني وحضر أجلي، فادفع إليّ غلاماً لأعلمه السحر ، فدفع إليه غلاماً كان يعلمه السحر ، وكان بين الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام على الراهب، فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه، وقال: ما حبسك ؟ وإذا أتى أهلـه ضربوه ، وقالوا ما حبسك ؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال : إذا أراد الساحر أن يضربك فقل: حبسني أهلي، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسني الساحر ، قال : فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة قـد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم : أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر ؟ قال، فأخذ حجراً، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز النـاس، ورماها فقتلها، ومضى الناس، فأخبر الراهب بذلك، فقال: أي بني أنت أفضل مني، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدلّ عليّ، فكان الغلام يبرئ الأكمـه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم، وكان للملك جليس، فعمي، فسمع به، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: اشفني ولك ما ههنا أجمع ، فقال: ما أنا أشفي أحداً، إنمـا يشفي الله عزَّ وجلَّ، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك، فآمن فدعا الله فشفاه، ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال الملك: يا فلان من رد عليك بصرك ؟ فقال: ربي ؟ فقال : أنا ! قال: لا ، ربي وربك الله، قال: ولك رب غيري ؟ قال: نعم، ربي وربك الله ، فلم يزل يعذبـه حتى دل على الغلام، فبعث إليه فقال: أي بني بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص وهذه الأدواء ؟ قال: ما أشفي أحداً إنمـا يشفي الله عزَّ وجلَّ . قال: أنا ؟ قال: لا، قال: أولك رب غيري ؟ قال: ربي وربك الله ، فأخذه أيضاً بالعذاب، فلم يزل به حتى دل على الراهب، فأتي بالراهب، فقال: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، وقال للأعمى: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه ، حتى وقع شقاه إلى الأرض، وقال للغلام: ارجع عن دينك فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال: إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه، فذهبوا به فلما علوا به الجبل قال: اللهم اكفنيهم بمـا شئت، فرجف بهم الجبل، فدهدهوا أجمعون، وجـاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك ، فقال: ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله تعالى، فبعث بـه مع نفر في قرقور، فقال: إذا لججتم بـه البحر ، فإن رجع عن دينـه وإلا فغرقوه في البحر ، فلججوا بـه البحر ، فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بمـا شئت فغرقوا أجمعون ، وجاء الغلام حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك ؟ فقال: كفانيهم الله تعالى، ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي، قال: وما هو ، قال: تجمع النـاس في صعيد واحـد، ثم تصلبني على جذع، وتأخذ سهماً من كنانتي، ثم قل: باسم الله رب الغلام، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، ففعل ووضع السهم في كبد قوسه، ثم رماه وقال: باسم الله رب الغلام، فوقع السهم في صدغه فوضع الغلام يده على موضع السهم، ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام. فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر ؟ فقد والله نزل بك ؛ قد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك فخدت فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران، وقال : من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها ، قال : فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست أن تقع في النار ، فقال الصبي: اصبري يا أُماه فإنك على الحق[1] .

---

(١) أخرجه احمد ورواه مسلم والنسائي بنحوه .

وروى ابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنس في قوله تعالى: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ قال: سمعنا أنهم كانوا قوماً في زمان الفترة، فلما رأوا ما وقع في الناس من الفتنة والشر، وصاروا أحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون، اعتزلوا إلى قرية سكنوها وأقاموا على عبادة الله مخلصين له الدين، فكان هذا أمرهم حتى سمع بهم جبار من الجبارين وحدث حديثهم فأرسل إليهم، فأمرهم أن يعبدوا الأوثان التي اتخذوا وأنهم أبوا عليه كلهم، وقالوا: لا نعبد إلا الله وحده لا شريك له، فقال لهم: إن لم تعبدوا هـذه الآلهة التي عبدت فإني قاتلكم، فأبوا عليه، فخد أخدوداً من نار، وقال لهم الجبار بعد أن وقفهم عليها، اختاروا هذه أو الذي نحن فيه، فقالوا: هذه أحب إلينا وفيهم نساء وذرية، ففزعت الذرية، فقالوا لهم - أي آباؤهم : لا نار من بعد اليوم، فوقعوا فيها، فقبضت أرواحهم من قبل أن يمسهم حرها، وخرجت النار من مكانها فأحاطت بالجبارين، فأحرقهم الله بهـا، ففي ذلك أنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿قتل أصحاب الأخدود ۝ النار ذات الوقود ۝ إذ هم عليها قعود ۝ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ۝ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ۝ الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات﴾ أي حرقوا، قاله ابن عباس ومجاهد ﴿ثم لم يتوبوا﴾ أي لم يقلعوا عما فعلوا ويندموا على ما أسلفوا ﴿فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل، قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين أن ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم، ولهذا قال: ﴿ذلك الفوز الكبير﴾، ثم قال تعالى: ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ أي إن بطشه وانتقامه من أعدائه، الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره، لشديد عظيم قوي، فإنه تعالى ذو القوة المتين، ولهذا قال تعالى: ﴿إنه هو يبدئ ويعيد﴾ أي من قوته وقدرته التامة، يبدئ الخلق ويعيده، كما بدأه بلا ممانع ولا مدافع ﴿وهو الغفور الودود﴾ أي يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه، و﴿الودود﴾ قال ابن عباس: هو الحبيب ﴿ذو العرش﴾ أي صاحب العرش العظيم العالي على جميع الخلائق. و﴿المجيد﴾ فيه قراءتان: الرفع على أنه صفة للرب عزَّ وجلَّ، والجر على أنه صفة للعرش، وكلاهما معنى صحيح، ﴿فعال لما يريد﴾ أي مهما أراد فعله لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقهره وعدله، كما روينا عن أبي بكر الصدّيق أنه قيل له وهو في مرض الموت: هل نظر إليك الطبيب،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وروى محمد بن اسحاق قصة أصحاب الأخدود بسياق آخر وأنها كانت مع عبدالله بن التـامر وأصحابه المؤمنين في نجران، والله أعلم.

قال: نعم، قالوا: فما قال لك؟ قال لي: إني فعال لما أريد، وقوله تعالى: ﴿هل أتاك حديث الجنود * فرعون وثمود﴾ أي هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس، وأنزل عليهم من النقمة التي لم يردها عنهم أحد؟ وهذا تقرير لقوله تعالى: ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ أي إذا أخذ الظالم أخذه أخذاً أليماً شديداً أخذعزيز مقتدر، عن عمرو ابن ميمون قال: مرَّ النبي ﷺ على امرأة تقرأ: ﴿هل أتاك حديث الجنود﴾ فقام يستمع فقال: «نعم قد جاءني»[١].

وقوله تعالى: ﴿بل الذين كفروا في تكذيب﴾ أي هم في شك وريب وكفر وعناد، ﴿والله من ورائهم محيط﴾ أي هو قادر عليهم قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه، ﴿بل هو قرآن مجيد﴾ أي عظيم كريم، ﴿في لوح محفوظ﴾ أي هو في الملأ الأعلى، محفوظ من الزيادة والنقص، والتحريف والتبديل، روى ابن أبي حاتم عن عبدالرحمن بن سلمان قال: «ما من شيء قضى الله، القرآن فما قبله وما بعده، إلا وهو في اللوح المحفوظ، واللوح المحفوظ بين عيني إسرافيل لا يؤذن له بالنظر فيه»[٢]. وقال الحسن البصري: إن هذا القرآن المجيد عند الله في لوح محفوظ، ينزل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه، وقد روى البغوي عن ابن عباس قال: «إن في صدر اللوح: لا إله إلا الله وحده، دينه الإسلام، ومحمد عبده ورسوله، فمن آمن بالله وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة»[٣]. وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء صفحاتها من ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، لله فيه في كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة، يخلق ويرزق ويميت ويحيي ويعز ويذل ويفعل ما يشاء»[٤].

[آخر تفسير سورة البروج، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه البغوي.

(٤) أخرجه الطبراني.



(٨٦) سورة الطارق مكية وآياتها سبع عشرة

روى النسائي عن جابر بن عبدالله قال: صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة والنساء، فقال النبي ﷺ: «أفتان أنت يا معاذ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق، والشمس وضحاها ونحوها؟»[1] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾

يقسم تبارك وتعالى بالسماء، وما جعل فيها من الكواكب النيرة، ولهذا قال تعالى: ﴿والسماء والطارق﴾، ثم قال: ﴿وما أدراك ما الطارق﴾، ثم فسَّره بقوله: ﴿النجم الثاقب﴾. قال قتادة وغيره: إنما سمي النجم طارقاً لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار، ويؤيده ما جاء في الحديث: «إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن». وقوله تعالى: ﴿الثاقب﴾ قال ابن عباس: المضيء، وقال السدي: يثقب الشياطين إذا أرسل عليها، وقال عكرمة: هو مضيء ومحرق للشيطان، وقوله تعالى: ﴿إن كل نفس لمّا عليها حافظ﴾ أي كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات، كما قال تعالى: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾، وقوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾ تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد، لأن من قدر على البداءة، فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، وقوله تعالى: ﴿خلق من ماء دافق﴾ يعني المني يخرج دفقاً من الرجل ومن المرأة، فيتولد منهما الولد بإذن الله عزَّ وجلَّ، ولهذا قال: ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ يعني صلب الرجل وترائب المرأة وهو (صدرها)، وقال ابن عباس: صلب الرجل وترائب المرأة أصفر رقيق لا يكون الولد إلا منهما، وعنه قال: هذه

---

(١) أخرجه النسائي .

الترائب ووضع يده على صدره، وعن مجاهد: الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر، وعنه أيضاً: الترائب أسفل من التراقي، وقال الثوري: فوق الثديين، وقال قتادة: ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ من بين صلبه ونحره، وقوله تعالى: ﴿إنه على رجعه لقادر﴾ فيه قولان: (**أحدهما**): على رجع هذا الماء الدافق إلى مقره الذي خرج منه لقادر على ذلك، قاله مجاهد وعكرمة وغيرهما. (**الثاني**): إنه على رجع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق، أي إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر، قال الضحاك واختاره ابن جرير، ولهذا قال تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ أي يوم القيامة تبلى فيه السرائر أي تظهر وتبدو، ويبقى السر علانية والمكنون مشهوراً، وقوله تعالى: ﴿فماله﴾ أي الإنسان يوم القيامة ﴿من قوة﴾ أي في نفسه، ﴿ولا ناصر﴾ أي من خارج منه، أي لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله، ولا يستطيع له أحد ذلك.

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾

قال ابن عباس: الرجع المطر، وعنه: هو السحاب فيه المطر، وقال قتادة: ترجع رزق العباد كل عام، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم، ﴿والأرض ذات الصدع﴾ قال ابن عباس: هو انصداعها عن النبات[1]، وقوله تعالى: ﴿إنه لقول فصل﴾ قال ابن عباس: حق، وقال غيره: حكم عدل، ﴿وما هو بالهزل﴾ أي بل هو جد حق، ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يكذبون به، ويصدون عن سبيله فقال: ﴿إنهم يكيدون كيداً﴾ أي يمكرون بالناس، في دعوتهم إلى خلاف القرآن، ثم قال تعالى: ﴿فمهل الكافرين﴾ أي أنظرهم ولا تستعجل لهم، ﴿أمهلهم رويداً﴾ أي قليلاً وسترى ماذا أحل بهم، من العذاب والنكال، والعقوبة والهلاك كما قال تعالى: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾.

[آخر تفسير سورة الطارق، ولله الحمد والمنة]

✲ ✲ ✲

(١) وهو قول ابن جرير وعكرمة والضحاك والحسن وقتادة والسدي وغيرهم.



روى البخاري، عن البراء بن عازب قال: «أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلا يقرئاننا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء حتى قرأت: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ في سور مثلها[1]. وروى مسلم وأهل السنن عن النعمان بن بشير أن النبي ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية، وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما[2]، وقد روى الإمام أحمد عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الوتر بسبح اسم ربك الأعلى، وقل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد، زادت عائشة: والمعوذتين[3].

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾

عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ قال: ﴿سبحان ربي الأعلى[4]. وقوله تعالى: ﴿الذي خلق فسوى﴾ أي خلق الخليقة وسوّى كل مخلوق في أحسن الهيئات، وقوله تعالى: ﴿والذي قدَّر فهدى﴾، قال مجاهد: هدى الإنسان للشقاوة والسعادة، وهدى الأنعام لمراتعها، وهذه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.
(٢) أخرجه مسلم وأهل السنن.
(٣) أخرجه الإمام أحمد.
(٤) أخرجه أحمد وأبو داود.

الآية كقوله تعالى ﴿ وقال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ أي قدّر قدراً وهدى الخلائق إليه، كما ثبت في صحيح مسلم: « إن الله قدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء »[1]. وقوله تعالى: ﴿ والذي أخرج المرعى ﴾ أي من جميع صنوف النباتات والزروع، ﴿ فجعله غثاء أحوى ﴾ قال ابن عباس: هشيماً متغيراً، وقوله تعالى: ﴿ سنقرئك ﴾ أي يا محمد ﴿ فلا تنسى ﴾ وهذا إخبار من الله تعالى ووعد منه له، بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ وهذا اختيار ابن جرير، وقال ابن قتادة: كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئاً إلا ما شاء الله، وقوله تعالى: ﴿ إنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾ أي يعلم ما يجهر به العباد، وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء، وقوله تعالى: ﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ أي نسهل عليك أفعال الخير، ونشرع لك شرعاً سهلاً سمحاً، لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر، وقوله تعالى: ﴿ فذكِّر إن نفعت الذكرى ﴾ أي ذكِّر حيث تنفع التذكرة، ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم فلا يضعه عند غير أهله، كما قال علي رضي الله عنه: ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم. وقال: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذّب الله ورسوله؟ وقوله تعالى: ﴿ سيذكّر من يخشى ﴾ أي سيتعظ بما تبلغه يا محمد من قلبه يخشى الله ويعلم أنه ملاقيه، ﴿ ويتجنبها الأشقى * الذي يصلى النار الكبرى * ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ أي لا يموت فيستريح، ولا يحيى حياة تنفعه بل هي مضرة عليه، لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب وأنواع النكال. عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: « أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن أناس تصيبهم النار بذنوبهم - أو قال بخطاياهم - فيميتهم إماتة حتى إذا ما صاروا فحماً أذن في الشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة فيقال: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة في حميل السيل »[2]، ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ﴾، وقال تعالى: ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى.

قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

يقول تعالى: ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ أي طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة، واتبع ما أنزل الله على الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ أي أقام الصلاة في أوقاتها ابتغاء رضوان الله وامتثالاً لشرع الله، روي عن جابر بن عبد الله يرفعه ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال: من شهد أن لا إله إلا الله، وخلع الأنداد، وشهد أني رسول الله ﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ قال: « هي الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بها »[3]، وكذا قال ابن عباس إن المراد بذلك الصلوات الخمس، واختاره ابن جرير، وعن عمر بن عبد العزيز أنه

(١) أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً.

(٢) أخرجه أحمد ومسلم.

(٣) أخرجه الحافظ البزار.

كان يأمر الناس بإخراج صدقة الفطر، ويتلو هذه الآية: ﴿قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى﴾، وقال قتادة في هذه الآية: ﴿قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى﴾ زكى ماله وأرضى خالقه، ثم قال تعالى: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ أي تقدمونها على أمر الآخرة، وتبدّونها على ما فيه نفعكم وصلاحكم في معاشكم ومعادكم، ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ أي ثواب الله في الدار الآخرة، خير من الدنيا وأبقى، فإن الدنيا دانية فانية، والآخرة شريفة باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويهتم بما يزول عنه قريباً ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»[1] عن عرفجة الثقفي قال: استقرأت ابن مسعود: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ فلما بلغ ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه وقال: آثرنا الدنيا على الآخرة، فسكت القوم، فقال: آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها، وزويت عنا الآخرة، فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل، وهذا منه على وجه التواضع والهضم، وفي الحديث: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى»[2]، وقوله تعالى: ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى﴾ كقوله في سورة النجم: ﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى * ألا تزر وازرة وزر أُخْرَى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وأن إلى ربك المنتهى﴾ الآيات إلى آخرهن؛ وهكذا قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى﴾ يقول: الآيات التي في ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾، وقال أبو العالية: قصة هذه السورة في الصحف الأولى، واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿إنّ هذا﴾ إشارة إلى قوله: ﴿قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى * بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى﴾، ثم قال تعالى: ﴿إن هذا﴾ أي مضمون هذا الكلام ﴿لفي الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى﴾ وهذا الذي اختاره حسن قوي، وقد روي عن قتادة وابن زيد نحوه، والله أعلم.

[آخر تفسير سورة سبح ؛ ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة]

* * *

(١) أخرجه أحمد عن عائشة مرفوعاً.

(٢) أخرجه أحمد عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً.



(٨٨) سورة الغاشية مكية وآياتها ست وعشرون

عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بسبح اسم ربك الأعلى والغاشية في صلاة العيد ويوم الجمعة(١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۝٦ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ۝٧﴾

الغاشية من أسماء يوم القيامة، لأنها تغشى الناس وتعمهم، روي عن عمرو بن ميمون أنه قال: مرَّ النبي ﷺ على امرأة تقرأ: ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ فقام يستمع، ويقول: «نعم قد جاءني». وقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾ أي ذليلة ، وقال ابن عباس: تخشع ولا ينفعها عملها، وقوله تعالى: ﴿عاملة ناصبة﴾ أي قد عملت عملاً كثيراً ونصبت فيه، وصليت يوم القيامة ناراً حامية، عن ابي عمران الجوني قال: مرَّ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بدير راهب، قال، فناداه: يا راهب، فأشرف، قال، فجعل عمر ينظر إليه ويبكي، فقيل له: يا أمير المؤمنين ما يبكيك من هذا ؟ قال: ذكرت قول الله عزَّ وجلَّ في كتابه: ﴿عاملة ناصبة ۔ تصلى ناراً حامية﴾ فذاك الذي أبكاني، قال ابن عباس: ﴿عاملة ناصبة﴾ النصارى، وعن عكرمة والسدي: عاملة في الدنيا بالمعاصي، ناصبة في النار بالعذاب والإهلاك . قال ابن عباس: ﴿تصلى ناراً حامية﴾ أي حارة شديدة الحر ، ﴿تسقى من عين آنية﴾ أي قد انتهى حرها وغليانها (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ قال ابن عباس : شجر من النار ، وقال سعيد بن جبير : هو الزقوم، وعنه أنها الحجارة ، وقال البخاري، قال مجاهد: الضريع نبت يقال له الشبرق يسميه أهل الحجاز الضريع إذا يبس، وهو سم، وقال قتادة: ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ من شر الطعام وأبشعه وأخبثه، وقوله تعالى: ﴿لا يسمن ولا يغني من جوع﴾ يعني لا يحصل به مقصود ولا يندفع به محذور .

---

(١) أخرجه مسلم وأصحاب السنن .

(٢) وهو قول ابن عباس ومجاهد والحسن والسدي .

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾

لما ذكر حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء فقال: ﴿وجوه يومئذ﴾ أي يوم القيامة، ﴿ناعمة﴾ أي يعرف النعيم فيها، وإنما حصل لها ذلك بسعيها، ﴿لسعيها راضية﴾ قد رضيت عملها، وقوله تعالى: ﴿في جنة عالية﴾ أي رفيعة بهية في الغرفات آمنون، ﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ أي لا تسمع في الجنة التي هم فيها كلمة لغو، كما قال تعالى: ﴿لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً﴾، وقال تعالى: ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾، ﴿فيها عين جارية﴾ أي سارحة وليس المراد بها عيناً واحدة وإنما هذا جنس يعني فيها عيون جاريات، وعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «أنهار الجنة تفجر من تحت تلال - أو من تحت جبال - المسك»[1]، ﴿فيها سرر مرفوعة﴾ أي عالية ناعمة، كثيرة الفرش مرتفعة السمك، عليها الحور العين، فإذا أراد ولي الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له، ﴿وأكواب موضوعة﴾ يعني أواني الشرب معدة مرصدة لمن أرادها، ﴿ونمارق مصفوفة﴾ قال ابن عباس: النمارق الوسائد[2]، وقوله تعالى: ﴿وزرابي مبثوثة﴾ قال ابن عباس: الزرابي البسط، ومعنى مبثوثة: أي ههنا وههنا لمن أراد الجلوس عليها، عن أسامة بن زيد قال، قال رسول الله ﷺ: «ألا هل من مشمر للجنة فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سليمة، وفاكهة وخضرة، وحبرة ونعمة، في محلة عالية بهية!»، قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها، قال: «قولوا: إن شاء الله» قال القوم إن شاء الله[3]

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى آمراً عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾؟ فإنها خلق عجيب وتركيبها غريب، فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تنقاد للقائد الضعيف، وتؤكل وينتفع بوبرها ويشرب لبنها، ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل، وكان شريح القاضي يقول: أخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت! أي كيف رفعها الله عزَّ وجلَّ عن الأرض هذا الرفع العظيم، كما قال تعالى: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾، ﴿وإلى الجبال كيف نصبت﴾ أي جعلت منصوبة فإنها ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها «وجعل

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك والسدي وغيرهم.

(٣) أخرجه ابن ماجة.

فيها ما جعل من المنافع والمعادن، ﴿وإلى الأرض كيف سطحت﴾! أي كيف بسطت ومدت ومهدت، فنبه البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته، على قدرة خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم الخالق المالك المتصرف، وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه، ، عن أنس قال: كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن كل شيء، فكان يعجبنا أن أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله، ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد إنا أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، قال: «صدق» قال: فمن خلق السماء؟ قال: «الله» قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «الله»، قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: «الله»، قال: فبالذي خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك؟ قال: «نعم». قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا؟ قال: «صدق»، قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا؟ قال: «صدق»، قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا، قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً؟ قال: «صدق»، قال: ثم ولى، فقال: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن شيئاً ولا أنقص منهن شيئاً، فقال النبي ﷺ: «إن صدق ليدخلن الجنة»[١].

وقوله تعالى: ﴿فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر﴾ أي فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾، ولهذا قال: ﴿لست عليهم بمسيطر﴾، قال ابن عباس ومجاهد: لست عليهم بجبار، أي لست تخلق الإيمان في قلوبهم، وقال ابن زيد: لست بالذي تكرههم على الإيمان، عن جابر قال، قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عزَّ وجلَّ» ثم قرأ: ﴿فذكِّر إنما أنت مذكِّر * لستَ عليهم بمسيطر﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿إلا من تولى وكفر﴾ أي تولى عن العمل بأركانه، وكفر بالحق بجنانه ولسانه، وهذه كقوله تعالى: ﴿فلا صدَّق ولا صلَّى * ولكن كذَّب وتولى﴾، ولهذا قال: ﴿فيعذِّبه الله العذاب الأكبر﴾، روى الإمام أحمد: أن أبا أمامة الباهلي مرَّ على خالد بن يزيد بن معاوية، فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا كلكم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير عن أهله»[٣]. وقوله تعالى: ﴿إن إلينا إيابهم﴾ أي مرجعهم ومنقلبهم، ﴿ثم إن علينا حسابهم﴾ أي نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ.

[آخر تفسير سورة الغاشية، ولله الحمد والمنة]

* * *

---

(١) أخرجه مسلم وأصحاب السنن والإمام أحمد، وجاء في بعض الروايات: «وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر».

(٢) أخرجه أحمد ورواه مسلم والنسائي والترمذي.

(٣) تفرد بإخراجه الإمام أحمد.



(٨٩) سورة الفجر مكية
وآياتها ثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾

أمّا الفجر فمعروف وهو الصبح، وعن مسروق: المراد بـه فجر يوم النحر خاصة، وهو خاتمة الليالي العشر، وقيل: المراد بذلك الصلاة التي تفعل عنده، والليالي العشر المراد بها عشر ذي الحجة[1]، وقد ثبت في صحيح البخاري «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام» يعني عشر ذي الحجة، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجُلاً خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء»[2].

وقيل: المراد بذلك العشر الأول من المحرم، عن ابن عباس: ﴿وليال عشر﴾ قال: هو العشر الأول من رمضان، والصحيح القول الأول. روي عن جابر يرفعه: «إن العشر عشر الأضحى، والوتر يوم عرفة والشفع يوم النحر»[3].

وقوله تعالى: ﴿والشفع والوتر﴾ الوتر يوم عرفة لكونه التاسع، والشفع يوم النحر لكونه العاشر، قاله ابن عباس: **قول ثان**: عن واصل بن السائب قال: سألت عطاء عن قوله تعالى: ﴿والشفع والوتر﴾ قلت: صلاتنا وترنا هذا؟ قال: لا، ولكن الشفع يوم عرفة والوتر ليلة الأضحى. **قول ثالث**: عن أبي سعيد بن عوف قال: سمعت عبدالله بن الزبير يخطب الناس فقام إليه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن الشفع والوتر؟ فقال: الشفع

---

(١) وهو قول ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وغير واحد من السلف.

(٢) أخرجه البخاري عن ابن عباس مرفوعاً.

(٣) أخرجه أحمد والنسائي وابن أبي حاتم، قال ابن كثير: إسناد رجاله لا بأس بهم والمتن في رفعه نكارة.

قول الله تعالى: ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه﴾، والوتر قوله تعالى: ﴿ومن تأخر فلا إثم عليه﴾[1]. وفي الصحيحين: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر»[2]. **قول رابع**: قال الحسن البصري: الخلق كلهم شفع ووتر، أقسم تعالى بخلقه[3]. وقال ابن عباس: ﴿والشفع والوتر﴾ قال: الله وتر واحد، وأنتم شفع، ويقال: الشفع صلاة الغداة، والوتر صلاة المغرب. **قول خامس**: عن مجاهد ﴿والشفع والوتر﴾ قال: الشفع الزوج، والوتر الله عزَّ وجلَّ[4]، وعنه: الله الوتر وخلقه الشفع الذكر والأنثى، وعنه: كل شيء خلقه الله شفع: السماء والأرض، والبر والبحر، والجن والإنس، والشمس والقمر، ونحو هذا، كقوله تعالى: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ أي لتعلموا أن خالق الأزواج واحد. **قول سادس**: قال الحسن: ﴿والشفع والوتر﴾ هو العدد منه شفع، ومنه وتر. **قول سابع**: قال أبوالعالية والربيع بن أنس؛ هي الصلاة منها شفع كالرباعية والثنائية، ومنها وتر كالمغرب، فإنها ثلاث، وهي وتر النهار، وكذلك صلاة الوتر في آخر التهجد من الليل، ولم يجزم ابن جرير بشيء من الأقوال في الشفع والوتر.

وقوله تعالى: ﴿والليل إذا يسر﴾ قال ابن عباس: أي إذا ذهب، وقال مجاهد وأبو العالية ﴿والليل إذا يسر﴾: إذا سار أي ذهب، ويحتمل إذا سار: أي أقبل، وهذا أنسب لأنه في مقابلة قوله: ﴿والفجر﴾ فإن الفجر هو إقبال النهار، وإدبار الليل، فإذا حمل قوله: ﴿والليل إذا يسر﴾ على إقباله كان قسماً بإقبال الليل وإدبار النهار وبالعكس، كقوله: ﴿والليل إذا عسعس * والصبح إذا تنفس﴾ وقال الضحّاك: ﴿والليل إذا يسر﴾ أي يجري، وقال عكرمة: ﴿والليل إذا يسر﴾ يعني ليلة جمع ليلة المزدلفة، وقوله تعالى: ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ أي لذي عقل ولب وحجى، وإنما سمي العقل (حجراً) لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال، وحجَر الحاكم على فلان إذا منعه التصرف، وهذا القسم هو بأوقات العبادة، وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب، التي يتقرب إليه عباده المتقون المطيعون له، الخائفون منه، المتواضعون لديه، الخاشعون لوجهه الكريم، ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال بعده: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾؟ وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين، خارجين عن طاعته مكذبين لرسله، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم، وجعلهم أحاديث وعبراً فقال: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد﴾؟ وهؤلاء (عاد الأولى) وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هوداً عليه السلام فكذبوه وخالفوه، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم وأهلكهم ﴿بريح صرصر عاتية﴾، وقد ذكر الله قصتهم في القرآن، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون، فقوله تعالى: ﴿إرم ذات العماد﴾ عطف بيان زيادة تعريف بهم، وقوله تعالى: ﴿ذات العماد﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد، وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشاً، ولهذا ذكّرهم (هود) بتلك النعمة، وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم فقال: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٣) وهو رواية عن مجاهد.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم.

وقال تعالى: ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة؟ أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾، وقال ههنا: ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ أي القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم، وقال مجاهد: إرم أمة قديمة يعني عاداً الأولى، قال قتادة والسدي: إن إرم بيت مملكة عاد، وكانوا أهل عمد لا يقيمون، وقال ابن عباس: إنما قيل لهم ذات العماد لطولهم، واختار الأول ابن جرير، وقوله تعالى: ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ الضمير يعود على القبيلة، أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد يعني في زمانهم، روي عن المقدام أنه ذكر ﴿إرم ذات العماد﴾ فقال: «كان الرجل منهم يأتي على الصخرة فيحملها على الحي فيهلكهم»[1]، وسواء كانت العماد أبنية بنوها، أو أعمدة بيوتهم للبدو، أو سلاحهم يقاتلون به، أو طول الواحد منهم، فهم قبيلة وأمة من الأمم، وهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع، المقرونون بثمود كما ههنا، والله أعلم. ومن زعم أن المراد بقوله: ﴿إرم ذات العماد﴾ مدينة إما دمشق، أو اسكندرية أو غيرهما، فضعيف لأنه لا يتسق الكلام حينئذ، ثم المراد إنما هو الاخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد، وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يرد، لا أن المراد الاخبار عن مدينة أو إقليم، وقول ابن جرير: يحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿إرم ذات العماد﴾ قبيلة أو بلدة كانت عاد تسكنها فلذلك لم تصرف، فيه نظر، لأن المراد من السياق إنما هو الإخبار عن القبيلة، ولهذا قال بعده: ﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾ يعني يقطعون الصخر بالوادي، قال ابن عباس: ينحتونها ويخرقونها، يقال: اجتاب الثوب: إذا فتحه، وقال تعالى: ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾، وقال ابن إسحاق: كانوا عرباً وكان منزلهم بوادي القرى، وقد ذكرنا قصة عاد مستقصاة في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته. وقوله تعالى: ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ قال ابن عباس: الأوتاد الجنود الذين يشدون له أمره، ويقال: كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها، وكذا قال مجاهد: كان يوتد الناس بالأوتاد، وقال السدي: كان يربط الرجل كل قائمة من قوائمه في وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فيشدخه، وقال ثابت البناني: قيل لفرعون ذي الأوتاد، لأنه ضرب لامرأته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت، وقوله تعالى: ﴿الذين طغوا في البلاد * فأكثروا فيها الفساد﴾ أي تمردوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالإفساد والأذية للناس، ﴿فصبّ عليهم ربك سوط عذاب﴾ أي أنزل عليهم رجزاً من السماء، وأحل بهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين، وقوله تعالى: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ قال ابن عباس: يسمع ويرى يعني يرصد خلقه فيما يعملون، ويجازي كلاً بسعيه في الدنيا والأخرى، وسيعرض الخلائق كلهم عليه فيحكم فيهم بعدله ويقابل كلاً بما يستحقه وهو المنزه عن الظلم والجور.

فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن المقدام مرفوعاً.

يقول تعالى منكراً على الإنسان، إذا وسع الله تعالى عليه في الرزق ليختبره، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له، وليس كذلك بل هو ابتلاء وامتحان، كما قال تعالى: ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له، قال الله تعالى: ﴿ كلا﴾ أي ليس الأمر كما زعم لا في هذا ولا في هذا، فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين، إذا كان غنياً بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيراً بأن يصبر، وقوله تعالى: ﴿ بل لا تكرمون اليتيم﴾ فيه أمر بالاكرام له كما جاء في الحديث: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه»[1]. وقال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» وقرن بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الابهام[2]، ﴿ ولا تحاضون على طعام المسكين﴾ يعني لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ويحث بعضهم على بعض في ذلك ﴿ وتأكلون التراث﴾ يعني الميراث ﴿ أكلاً لماً﴾ أي من أي جهة حصل لهم من حلال أو حرام ﴿ وتحبون المال حباً جماً﴾ أي كثيراً فاحشاً.

كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة فقال تعالى: ﴿ كلاً﴾ أي حقاً ﴿ إذا دكت الأرض دكاً دكاً﴾ أي وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال، وقام الخلائق من قبورهم لربهم ﴿ وجاء ربك﴾ يعني لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعد ما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق، محمد صلوات الله وسلامه عليه، فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً، وقوله تعالى: ﴿ وجيء يومئذ بجهنم﴾ روى الإمام مسلم في صحيحه: عن عبدالله بن مسعود قال رسول ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»[3]، وقوله تعالى: ﴿ يومئذ يتذكر الإنسان﴾ أي عمله وما كان أسلفه في قديم دهره وحديثه، ﴿ وأنّى له الذكرى﴾ أي وكيف تنفعه الذكرى، ﴿ يقول يا ليتني قدمت لحياتي﴾ يعني يندم على ما كان سلف منه من المعاصي إن كان عاصياً، ويود لو كان ازداد من الطاعات إن كان طائعاً، كما قال الإمام أحمد بن حنبل عن جبير بن نفير عن محمد بن عمرة، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ قال: لو أن عبداً خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت في طاعة الله لحقره يوم القيامة، ولود أنه رد إلى الدنيا

(١) أخرجه عن عبد الله من المبارك.

(٢) أخرجه أبو داود.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه.

كما يزداد من الأجر والثواب، وقال الله تعالى: ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد﴾ أي ليس أحد أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه، ﴿ولا يوثق وثاقه أحد﴾ أي وليس أحد أشد قبضاً ووثقاً من الزبانية لمن كفر بربهم عزَّ وجلَّ، وهذا في حق المجرمين من الخلائق والظالمين، فأما النفس الزكية المطمئنة وهي الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق، فيقال لها: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك﴾ أي إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده في جنته ﴿راضية﴾ أي في نفسها، ﴿مرضية﴾ أي قد رضيت عن الله، ورضي عنها وأرضاها، ﴿فادخلي في عبادي﴾ أي في جملتهم، ﴿وادخلي جنتي﴾ وهذا يقال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضاً، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره فكذلك ههنا، ثم اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية، فروي أنها نزلت في عثمان بن عفّان، وقيل: إنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾ قال: نزلت وأبو بكر جالس فقال: يا رسول الله ما أحسن هذا؟ فقال: «أما إنه سيقال لك هذا»[1]. وروى الحافظ ابن عساكر، عن أمامة أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «قل: اللهم إني أسألك نفساً بك مطمئنة، تؤمن بلقائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك»[2]

[آخر تفسير سورة الفجر، ولله الحمد والمنة]

* * *

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الحافظ ابن عساكر.



(٩٠) سورة البلد مكية وآياتها عشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾

هذا قسم من الله تبارك وتعالى بمكة (أم القرى) في حال كون الساكن فيها حلالاً، لينبّه على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها، قال مجاهد: ﴿ لا أُقسم بهذا البلد﴾ لا، رد عليهم . أقسم بهذا البلد، وقال ابن عباس: ﴿ لا أقسم بهذا البلد﴾ يعني مكة ﴿ وأنت حِلٌّ بهذا البلد﴾ قال: أنت يا محمد يحل لك أن تقاتل به، وقال مجاهد: ما أصبت فيه فهو حلال لك، وقال الحسن البصري: أحلها الله له ساعة من نهار، وهذا المعنى قد ورد به الحديث المتفق على صحته: « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شجره ولا يختلى خلاه، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب »[1]. وفي لفظ آخر: « فإن أحد ترخّص بقتال رسول الله فقولوا إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم »، وقوله تعالى: ﴿ ووالد وما ولد﴾ قال ابن عباس: الوالد الذي يلد ﴿وما ولد﴾ العاقر الذي لا يولد له، وقال مجاهد وقتادة والضحّاك: يعني بالوالد آدم ﴿ وما ولد﴾ ولده، وهذا الذي ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسن قوي، لأنه تعالى لما أقسم بأم القرى وهي المساكن، أقسم بعده بالساكن، وهو (آدم) أبو البشر وولده، واختار ابن جرير أنه عام في كل ولد وولدة وهو محتمل أيضاً، وقوله تعالى: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ روي عن ابن مسعود وابن عباس: يعني منتصباً، زاد ابن عباس: منتصباً في بطن أمه، والكبد: الاستواء والاستقامة، ومعنى هذا القول : لقد خلقناه سوياً مستقيماً ، كقوله تعالى : ﴿ الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك﴾، وكقوله تعالى: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ وقال ابن عباس ﴿ في كبد﴾ في شدة خلق،

(١) أخرجه الشيخان وأصحاب السنن .

ألم تر إليه وذكر مولده ونبات أسنانه، وقال مجاهد: ﴿في كبد﴾ نطفة، ثم علقه، ثم مضغة، يكبد في الخلق، وهو كانوله تعالى: ﴿حملته أمّه كرهاً ووضعته كرهاً﴾ فهو يكابد ذلك، وقال سعيد بن جبير: ﴿في كبد﴾ في شدة وطلب معيشة، وقال قتادة: في مشقة، وقال الحسن: يكابد أمر الدنيا وأمر من الآخرة، وفي رواية: يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة، واختار ابن جرير أن المراد بذلك مكابدة الأمور ومشاقها.

وقال تعالى: ﴿أيحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ قال الحسن البصري: يعني يأخذ ماله، وقال قتادة: يظن أن لن يسأل عن هذا المال من أين اكتسبه وأين أنفقه، وقال السدي: ﴿أيحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ قال: الله عزَّ وجلَّ يظن أن لن يقدر عليه ربه، وقوله تعالى: ﴿يقول أهلكت مالاً لبداً﴾ أي يقول ابن آدم: أنفقت ﴿مالاً لبداً﴾ أي كثيراً قاله مجاهد والحسن، ﴿أيحسب أن لم يره أحد﴾ قال مجاهد: أي أيحسب أن لم يره الله عزَّ وجلَّ، وكذا قال غيره من السلف، وقوله تعالى: ﴿ألم نجعل له عينين﴾ أي يبصر بهما ﴿ولساناً﴾ أي ينطق به فيعبر عما في ضميره ﴿وشفتين﴾ يستعين بهما على الكلام، وأكل الطعام، وجمالاً لوجهه وفمه. وقد روى الحافظ ابن عساكر عن مكحول قال، قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، قد أنعمت عليك نعماً عظاماً، لا تحصي عددها ولا تطيق شكرها، وإن مما أنعمت عليك أن جعلت لك عينين تنظر بهما، وجعلت لهما غطاء، فانظر بعينيك إلى ما أحللت لك، وإن رأيت ما حرمت عليك، فأطبق عليهما غطاءهما، وجعلت لك لساناً وجعلت له غلافاً، فانطق بما أمرتك، وأحللت لك فإن عرض عليك ما حرمت عليك فأغلق عليك لسانك، وجعلت لك فرجاً وجعلت لك ستراً، فأصب بفرجك ما أحللت لك، فإن عرض عليك ما حرمت عليك فأرخ عليك سترك، يا ابن آدم إنك لا تحمل سخطي ولا تطيق انتقامي»[1]. ﴿وهديناه النجدين﴾: الطريقين، قال ابن مسعود: الخير والشر، وعن أبي رجاء قال: سمعت الحسن يقول: ﴿وهديناه النجدين﴾ قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «يا أيها الناس إنهما النجدان: نجد الخير، ونجد الشر، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير»[2]، وقال ابن عباس ﴿هديناه النجدين﴾ قال: الثديين، قال ابن جرير: والصواب القول الأول، نظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾.

فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

روى ابن جرير عن ابن عمر في قوله تعالى: ﴿فلا اقتحم﴾ أي دخل ﴿العقبة﴾ قال: جبل في جهنم، وقال كعب الأحبار: هو سبعون درجة في جهنم، وقال الحسن البصري: عقبة في جهنم، وقال قتادة: إنها عقبة قحمة شديدة فاقتحموها بطاعة الله تعالى، ﴿وما أدراك ما العقبة﴾؟ ثم أخبر تعالى عن اقتحامها فقال: ﴿فك رقبة﴾

(١) أخرجه الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي الربيع الدمشقي.

(٢) أخرجه ابن جرير عن الحسن مرسلاً.

أو إطعام﴾، وقال ابن زيد: ﴿فلا أقتحم العقبة﴾ أي أفلا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير، ثم بينها فقال تعالى: ﴿وما أدراك ما العقبة * فك رقبة﴾، عن سعيد بن مرجانة عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرب - أي عضو - منها إرباً منه من النار حتى إنه ليعتق باليد اليد، وبالرجل الرجل، وبالفرج الفرج»، فقال علي بن الحسين: أنت سمعت هذا من أبي هريرة؟ فقال سعيد: نعم، فقال علي ابن الحسين لغلام له أفره غلمانه: ادع مطرفاً، فلما قام بين يديه، قال: اذهب فأنت حر لوجه الله»[1]. وعند مسلم أن هذا الغلام الذي أعتقه علي بن الحسين زين العابدين كان قد أعطي فيه عشرة آلاف درهم، وعن عمرو ابن عبسة أن النبي ﷺ قال: «من بنى مسجداً ليذكر الله فيه بنى الله له بيتاً في الجنة، ومن أعتق نفساً مسلمة كانت فديته من جهنم، ومن شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة»[2]. وفي الحديث: «من ولد له ثلاثة أولاد في الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم، ومن شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة، ومن رمى بسهم في سبيل الله بلغ به العدو أصاب أو أخطأ كان له عتق رقبة، ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار، ومن أعتق زوجين في سبيل الله فإن للجنة ثمانية أبواب يدخله الله من أي باب شاء منها»[3]. وهذه أسانيد جيدة قوية ولله الحمد.

وقوله تعالى: ﴿أو إطعام في يوم ذي مسبغة﴾ قال ابن عباس: ذي مجاعة[4]، والسغب: هو الجوع، وقال النخعي: في يوم الطعامُ فيه عزيز، وقال قتادة: في يوم مشتهى فيه الطعام، وقوله تعالى: ﴿يتيماً﴾ أي أطعم في مثل هذا اليوم يتيماً ﴿ذا مقربة﴾ أي ذا قرابة منه، كما جاء في الحديث الصحيح: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان، صدقة وصلة»[5]. وقوله تعالى: ﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾ أي فقيراً مدقعاً لاصقاً بالتراب، وهو الدقعاء أيضاً، قال ابن عباس: ذا متربة هو المطروح في الطريق، الذي لا بيت له ولا شيء يقيه من التراب. وفي رواية: هو الذي لصق بالدقعاء من الفقر والحاجة ليس له شيء، وقال عكرمة: هو الفقير المدين المحتاج، وقال سعيد بن جبير: هو الذي لا أحد له، وقال قتادة: هو ذو العيال، وكل هذه قريبة المعنى، وقوله تعالى: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ أي ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة مؤمن بقلبه، محتسب ثواب ذلك عند الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾، وقوله تعالى: ﴿وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾ أي كان من المؤمنين العاملين صالحاً. «المتواصين بالصبر على أذى الناس، وعلى الرحمة بهم»، كما جاء في الحديث: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء». وعن عبد الله بن عمرو يرويه قال: «من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا»[6]، وقوله تعالى: ﴿أولئك أصحاب الميمنة﴾ أي المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين، ثم قال:

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي والإمام أحمد.

(٢) أخرجه أحمد.

(٣) أخرجه أحمد أيضاً.

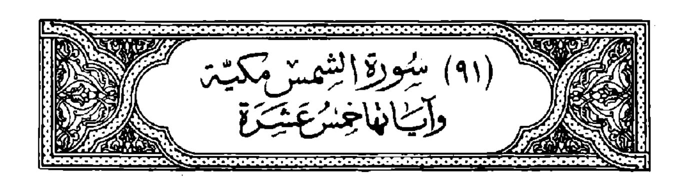
(٤) وكذا قال عكرمة ومجاهد والضحّاك وقتادة وغيرهم.

(٥) أخرجه أحمد ورواه الترمذي والنسائي وإسناده صحيح. (٦) أخرجه أبو داود.

﴿والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة﴾ أي أصحاب الشمال، ﴿عليهم نار مؤصدة﴾ أي مطبقة عليهم فلا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها، قال أبو هريرة ﴿مؤصدة﴾ أي مطبقة، وقال ابن عباس: مغلقة الأبواب، وقال مجاهد: أصد الباب أي أغلقه، وقال الضحّاك: ﴿مؤصدة﴾ حيط لا باب له، وقال قتادة ﴿مؤصدة﴾: مطبقة فلا ضوء فيها ولا فرج ولا خروج منها آخر الأبد، وقال أبو عمران الجوني: إذا كان يوم القيامة أمر الله بكل جبار وكل شيطان، وكل من كان يخاف الناس في الدنيا شره، فأوثقوا بالحديد، ثم أمر بهم إلى جهنم ثم أوصدوها عليهم أي أطبقوها، قال: فلا والله لا تستقر أقدامهم على قرار أبداً، ولا والله لا ينظرون فيها إلى أديم سماء أبداً، ولا والله لا تلتقي جفون أعينهم على غمض نوم أبداً، ولا والله لا يذوقون فيها بارد شراب أبداً[1].

[آخر تفسير سورة البلد . ولله الحمد والمنة]





(٩١) سُورَةُ الشَّمْسِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا خَمْسَ عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾

قال مجاهد ﴿والشمس وضحاها﴾: أي وضوئها، وقال قتادة: ﴿وضحاها﴾ النهار كله. قال ابن جرير: والصواب أن يقال: أقسم الله بالشمس ونهارها، لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار، ﴿والقمر إذا تلاها﴾ قال مجاهد: تبعها، وقال ابن عباس: ﴿والقمر إذا تلاها﴾ قال: يتلو النهار، وقال قتادة: إذا تلاها ليلة الهلال إذا سقطت الشمس رؤي الهلال. وقال ابن زيد: هو يتلوها في النصف الأول من الشهر، ثم هي تتلوه وهو يتقدمها

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

في النصف الأخير من الشهر، وقوله تعالى: ﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ قال مجاهد: أضاءها، وقال قتادة: إذا غشيها النهار، وتأول بعضهم ذلك بمعنى: والنهار إذا جلا الظلمة لدلالة الكلام عليها[١]. (قلت): ولو أن القائل تأول ذلك بمعنى ﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ أي البسيطة لكان أولى، ولصح تأويله في قوله تعالى: ﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ فكان أجود وأقوى، والله أعلم. ولهذا قال مجاهد: ﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ إنه كقوله تعالى: ﴿ والنهار إذا تجلى ﴾، وأما ابن جرير فاختار عود الضمير ذلك كله على الشمس لجريان ذكرها، وقالوا في قوله تعالى: ﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ يعني إذا يغشى الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق. وقال بقية: إذا جاء الليل قال الرب جلَّ جلاله: غشي عبادي خلقي العظيم، فالليل تهابه، والذي خلقه أحق أن يهاب[٢]. وقوله تعالى: ﴿ والسماء وما بناها ﴾ يحتمل أن تكون (ما) ههنا مصدرية بمعنى: والسماء وبنائها، وهو قول قتادة، ويحتمل أن تكون بمعنى (من) يعني: والسماء وبانيها، وهو قول مجاهد، وكلاهما متلازم والبناء هو الرفع كقوله تعالى: ﴿ والسماء بنيناها بأيد - أي بقوة - وإنا لموسعون ﴾، وقوله تعالى: ﴿ والأرض وما طحاها ﴾ قال مجاهد: ﴿ طحاها ﴾ دحاها، وقال ابن عباس: أي خلق فيها، وقال مجاهد وقتادة والضحّاك: ﴿ طحاها ﴾ بسطها، وهذا أشهر الأقوال، وعليه الأكثر من المفسرين وهو المعروف عند أهل اللغة، قال الجوهري: طحوته مثل دحوته أي بسطته، وقوله تعالى: ﴿ ونفس وما سوّاها ﴾ أي خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة كما قال تعالى: ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾، وقال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة». وفي صحيح مسلم: «يقول الله عزَّ وجلَّ: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم». وقوله تعالى: ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ أي فأرشدها إلى فجورها وتقواها أي بين ذلك لها وهداها إلى ما قدر لها، قال ابن عباس: بيّن لها الخير والشر، وقال سعيد بن جبير: ألهمها الخير والشر، وقال ابن زيد: جعل فيها فجورها وتقواها. وفي الحديث: أن رجلاً من مزينة أو جهينة أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون، أشيء قضي عليهم من قدر قد سبق، أم شيء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت به عليهم الحجة؟ قال: «بل شيء قد قضي عليهم»، قال: ففيم نعمل؟ قال: «من كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يهيئه لها، وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿ ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها ﴾[٣]

وقوله تعالى: ﴿ قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾ المعنى قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله، وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل، كقوله: ﴿ قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى ﴾ ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ أي دسسها أي أخملها حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله عزَّ وجلَّ، وقد يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكى نفسه، وقد خاب من دسّى الله نفسه، كما قال ابن عباس[٤]. وروى ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة

(١) ذكره ابن جرير عن بض أهل اللغة.

(٢) رواه ابن أبي حاتم.

(٣) رواه أحمد ومسلم.

(٤) هذا القول عن ابن عباس ورد به حديث مرفوع: «أفلحت نفس زكّاها الله عزَّ وجلّ» أخرجه ابن أبي حاتم ولكن في إسناده ضعف.

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ قال: « اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها »[1]، وفي رواية عن عائشة أنها فقدت النبي ﷺ من مضجعه، فلمسته بيدها فوقعت عليه وهو ساجد، وهو يقول: « رب أعط نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها »[2].

حديث آخر: روى الإمام أحمد، عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: « اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والهرم والجبن والبخل وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، وعلم لا ينفع، ودعوة لا يستجاب لها »[3]. قال زيد: كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكموهن.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾

يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي، فأعقبهم ذلك تكذيباً في قلوبهم بما جاءهم به رسولهم عليه الصلاة والسلام من الهدى واليقين ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ أي أشقى القبيلة وهو (قدار بن سالف) عاقر الناقة، وهو الذي قال الله تعالى: ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ الآية، وكان هذا الرجل عزيزاً شريفاً في قومه، نسيباً رئيساً مطاعاً، كما قال الإمام أحمد: خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة، وذكر الذي عقرها، فقال: « ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة »[4]. وروى ابن أبي حاتم، عن عمار بن ياسر قال، قال رسول الله ﷺ لعلي: « ألا أحدثك بأشقى الناس؟ » قال: بلى، قال: « رجلان أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذا -يعني قرنه- حتى تبتل منه هذه » يعني لحيته[5]. وقوله تعالى: ﴿ فقال لهم رسول الله ﴾ يعني صالحاً عليه السلام ﴿ ناقة الله ﴾ أي احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء، ﴿ وسقياها ﴾ أي لا تعتدوا عليها في سقياها فإن لها شرب يوم، ولكم شرب يوم معلوم، قال الله تعالى: ﴿ فكذبوه فعقروها ﴾ أي كذبوه فيما جاءهم به، فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة، التي أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم، ﴿ فدمدم عليهم ربهم بذنبهم ﴾ أي غضب عليهم فدمّر عليهم، ﴿ فسواها ﴾ أي فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء. قال قتادة: بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم، فلما اشترك القوم في عقرها دمدم الله عليهم بذنبهم فسواها، وقوله تعالى: ﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ قال ابن عباس: لا يخاف الله من أحد تبعة[6]. وقال الضحّاك والسدي: ﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ أي لم يخف الذي عقرها عاقبة ما صنع، والقول الأول أولى لدلالة السياق عليه، والله أعلم.

[آخر تفسير سورة والشمس وضحاها ولله الحمد والمنة]

* * *

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه أحمد.

(٣) أخرجه أحمد ومسلم.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من حديث عبد الله بن زمعة.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٦) وكذا قال مجاهد والحسن وبكر المزني وغيرهم.



(٩٢) سورة الليل مكية وآياتها إحدى وعشرون

تقدم قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ: «فهلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾

اقسم تعالى بالليل ﴿إذا يغشى﴾ أي إذا غشى الخليقة بظلامه، ﴿والنهار إذا تجلى﴾ أي بضيائه وإشراقه، ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ كقوله تعالى: ﴿وخلقناكم أزواجاً﴾، ﴿إن سعيكم لشتى﴾ أي أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة ومتخالفة، فمن فاعل خيراً ومن فاعل شراً، قال الله تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ أي أعطى ما أمر بإخراجه، واتقى الله في أموره، ﴿وصدّق بالحسنى﴾ بالمجازاة على ذلك أي بالثواب، وقال ابن عباس، ومجاهد: ﴿وصدّق بالحسنى﴾ أي بالخُلُف، وقال الضحّاك: بلا إله إلا الله، وقال أُبيّ بن كعب: سألت رسول الله ﷺ عن الحسنى قال: «الحسنى: الجنة»[1]. وقوله تعالى: ﴿فسنيسره لليسرى﴾ قال ابن عباس: يعني للخير، وقال زيد بن أسلم: يعني للجنة، ﴿وأما من بخل﴾ أي بما عنده ﴿واستغنى﴾ قال ابن عباس: أي بخل بماله واستغنى عن ربه عزّ وجلّ: ﴿وكذب بالحسنى﴾ أي بالجزاء في الدار الآخرة ﴿فسنيسره للعسرى﴾ أي لطريق الشر، كما قال تعالى ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة، ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾، والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله عزّ وجلّ يجازي من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخذلان، وكل ذلك بقدر مقدر، والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة. روى البخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار»، فقالوا: يا رسول الله أفلا نتكل؟ فقال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»، ثم قرأ: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى - إلى قوله - للعسرى﴾[1]، وفي رواية أخرى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتى رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس، فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: «ما منكم من أحد - أو ما من نفس منفوسة - إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة». فقال رجل: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى أهل الشقاء؟ فقال: «أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاء فييسرون إلى عمل أهل الشقاء»، ثم قرأ: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾[2]. وعن جابر بن عبد الله أنه قال: يا رسول الله أنعمل لأمر قد فرغ منه أو لأمر نستأنفه؟ فقال: «لأمر قد فرغ منه» فقال سراقة: ففيم العمل إذاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «كل عامل ميسر لعمله»[3]. وفي الحديث: «ما من يوم غربت فيه شمسه إلا وبجنبتيها ملكان يناديان يسمعهما خلق الله كلهم إلا الثقلين: اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً» وأنزل الله في ذلك القرآن: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾[4]. وذكر أن هذه الآية نزلت في (أبي بكر الصديق) رضي الله عنه كان يعتق على الإسلام بمكة، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن، فقال له أبوه: أي بني أراك تعتق أناساً ضعفاء، فلو أنك تعتق رجالاً جلداء يقومون معك، ويمنعونك ويدفعون عنك، فقال: أي أبت إنما أريد ما عند الله، فنزلت الآية: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿وما يغني عنه ماله إذا تردى﴾ قال مجاهد: أي إذا مات، وقال زيد بن أسلم: إذا تردى في النار.

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

قال قتادة ﴿إن علينا للهدى﴾: أي نبيّن الحلال والحرام، وقال غيره: من سلك طريق الهدى وصل إلى الله، وجعله كقوله تعالى: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾، وقوله تعالى: ﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾ أي الجميع ملكنا وأنا المتصرف فيهما، وقوله تعالى: ﴿فأنذرتكم ناراً تلظى﴾ قال مجاهد: أي توهج، وفي الحديث: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه» أخرجه البخاري. وفي رواية

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه البخاري وبقية الجماعة.

(٣) رواه مسلم وابن جرير.

(٤) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه ابن جرير.

لمسلم: «إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذاباً»[١]. وقوله تعالى: ﴿لا يصلاها إلا الأشقى﴾ أي لا يدخلها إلا الأشقى، ثم فسره فقال: ﴿الذي كذب﴾ أي بقلبه ﴿وتولى﴾ أي عن العمل بجوارحه وأركانه، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار إلا شقي»، قيل: ومن الشقي؟ قال: «الذي لا يعمل بطاعة، ولا يترك لله معصية»[٢]. وقال رسول الله ﷺ: «كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى»، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»[٣]. وقوله تعالى: ﴿وسيجنبها الأتقى﴾ أي وسيزحزح عن النار التقي النقي الأتقى، ثم فسره بقوله: ﴿الذي يؤتي ماله يتزكى﴾ أي يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾ أي ليس بذله في مكافأة من أسدى إليه معروفاً، وإنما دفعه ذلك ﴿ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾ أي طمعاً في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات، قال الله تعالى: ﴿ولسوف يرضى﴾ أي ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات. وقد ذكر المفسرون أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها فإنه كان صدّيقاً تقياً، كريماً جواداً، بذالاً لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسول الله ﷺ، وكان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له (عروة بن مسعود) وهو سيد ثقيف يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يدٌ لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، وكان الصدّيق قد أغلظ له في المقالة، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم؟ ولهذا قال تعالى: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى﴾. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «من أعتق زوجين في سبيل الله، دعته خزنة الجنة يا عبدالله هذا خير»، فقال أبو بكر: يا رسول الله ما على من يدعى منها ضرورة، فهل يدعى منها كلها أحد؟ قال: «نعم وأرجو أن تكون منهم»[٤].

[آخر تفسير سورة الليل، ولله الحمد والمنة]

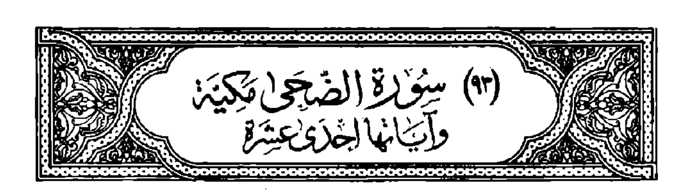
* * *

(١) أخرجه مسلم عن النعمان بن بشير.

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

(٣) أخرجه البخاري وأحمد عن أبي هريرة.

(٤) أخرجه الشيخان.



(٩٣) سورة الضحى مكية وآياتها إحدى عشرة

يستحب التكبير من آخر الضحى لآخر سورة الناس، وقد ذكر القراء أن ذلك سنّة مأثورة وذكروا في مناسبة التكبير من أول (سورة الضحى) أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ وفتر تلك المدة ثم جاء الملك فأوحى إليه: ﴿والضحى والليل إذا سجى﴾ السورة بتمامها كبّر فرحاً وسروراً[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

روى الإمام أحمد، عن جندب بن عبد الله قال: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿والضحى والليل إذا سجى ۝ ما ودعك ربك وما قلى﴾[2]. وفي رواية: أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ، فقال المشركون: ودع محمداً ربه، فأنزل الله تعالى: ﴿والضحى والليل إذا سجى ۝ ما ودعك ربك وما قلى﴾، وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء ﴿والليل إذا سجى﴾ أي سكن فأظلم وادلهم، وذلك دليل ظاهر على قدرته تعالى، كما قال تعالى: ﴿والليل إذا يغشى ۝ والنهار إذا تجلى﴾، وقال تعالى: ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم﴾، وقوله تعالى: ﴿ما ودعك ربك﴾ أي ما تركك ﴿وما قلى﴾ أي وما أبغضك، ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ أي وللدار الآخرة خير لك من هذه الدار، ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس في الدنيا وأعظمهم لها إطراحاً، كما هو معلوم بالضرورة من سيرته، ولما خيِّر عليه السلام في آخر عمره، بين الخلد في

---

(١) قال ابن كثير: لم يرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف فالله أعلم.

(٢) أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي.

الدنيا إلى آخرها ثم الجنة، وبين الصيرورة إلى الله عزَّ وجلَّ، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية، روى الإمام أحمد، عن عبدالله بن مسعود قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه، وقلت: يا رسول الله ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: « مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها »[١]. وقوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ أي في الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه في أمته، وفيما أعده له من الكرامة، ومن جملته نهر الكوثر الذي حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف وطينه مسك أذفر كما سيأتي. وروي عن ابن عباس أنه قال: عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزاً كنزاً فسرّ بذلك، فأنزل الله ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ فأعطاه في الجنة ألف ألف قصر في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم[٢]، وقال السدي عن ابن عباس: من رضاء محمد ﷺ أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار، قال الحسن: يعني بذلك الشفاعة، ثم قال تعالى يعدّد نعمه على عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾ وذلك أن أباه توفي وهو حمل في بطن أمه، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويوقره ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره، إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاء قريش وجهالهم، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى الله سنته على الوجه الأتم الأكمل، فلما وصل إليهم آووه ونصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه رضي الله عنهم أجمعين، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به.

وقوله تعالى: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ كقوله: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ الآية، ومنهم من قال: إن المراد بهذا أن النبي ﷺ ضلّ في شعاب مكّة وهو صغير ثم رجع، وقيل: إنه ضل وهو مع عمه في طريق الشام وكان راكباً ناقة في الليل، فجاء إبليس فعدل بها عن الطريق، فجاء جبريل فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة، ثم عدل بالراحلة إلى الطريق، حكاهما البغوي، وقوله تعالى: ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ أي كنت فقيراً ذا عيال فأغناك الله عمن سواه، فجمع له بين مقامي الفقير الصابر، والغني الشاكر، صلوات الله وسلامه عليه، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: « ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس »[٣]. وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو قال، قال رسول الله ﷺ: « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه »[٤]. ثم قال تعالى: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ أي كما كنت

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير، قال ابن كثير: إسناده صحيح، ومثل هذا لا يقال إلا عن توقيف.

(٣) أخرجه الشيخان.

(٤) أخرجه مسلم.

يتيماً فآواك الله، فلا تقهر اليتيم، أي لا تذله وتنهره وتهنه، ولكن أحسن إليه وتلطف به، وقال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم، ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ أي وكما كنت ضالاً فهداك الله، فلا تنهر السائل في العلم المسترشد، قال ابن إسحاق: ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ أي فلا تكن جباراً ولا متكبراً، ولا فحاشاً ولا فظاً على الضعفاء من عباد الله، وقال قتادة: يعني ردّ المسكين برحمة ولين، ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ أي وكما كنت عائلاً فقيراً فأغناك الله، فحدث بنعمة الله عليك، كما جاء في الدعاء المأثور: «واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك، قابليها وأتمها علينا». وعن أبي نضرة قال: كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدث بها[1]، وفي الصحيحين عن أنَس أن المهاجرين قالوا: يا رسول الله ذهب الأنصار بالأجر كله، قال: «لا، ما دعوتم الله لهم، وأثنيتم عليهم»[2]. وروى أبو داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[3]. وقال مجاهد: يعني النبوة التي أعطاك ربك، وفي رواية عنه: القرآن، وقال الحسن بن علي: ما عملت من خير فحدّث إخوانك، وقال ابن إسحاق: ما جاءك من الله من نعمة وكرامة من النبوة، فحدث بها واذكرها وادع إليها.

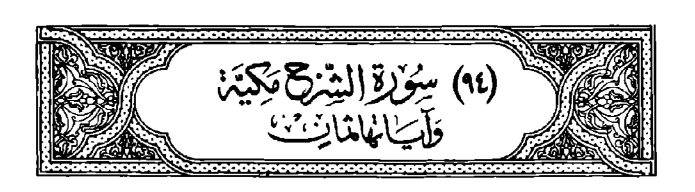
[آخر تفسير سورة الضحى ، ولله الحمد والمنة]



(١) رواه ابن جرير.

(٢) أخرجه الشيخان.

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ يعني قد شرحنا لك صدرك أي نورناه، وجعلناه فسيحاً رحيباً واسعاً كقوله: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾، وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحاً سمحاً سهلاً، لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق، وقيل: المراد بقوله: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ شرح صدره ليلة الإسراء، وهذا وإن كان واقعاً ليلة الاسراء ولكن لا منافاة، فإن من جملة شرح صدره الحسي الشرح المعنوي أيضاً، وقوله تعالى: ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ بمعنى ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾، ﴿الذي أنقض ظهرك﴾ الإنقاض الصوت أي أثقلك حمله، وقوله تعالى: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ قال مجاهد: لا اذكر إلا ذكرت معي «أشهد أن لا إلّه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله»، وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي بها، أشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله، روى ابن جرير عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أتاني جبريل فقال: إن ربي وربك يقول: كيف رفعت ذكرك؟ قال: الله أعلم، قال: إذا ذكرتُ ذكرتَ معي»[1]. وحكى البغوي عن ابن عباس ومجاهد أن المراد بذلك الأذان، يعني ذكره فيه، كما قال حسان بن ثابت:

وضم الإلّه اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

وقال آخرون: رفع الله ذكره في الأولين والآخرين، ونوه به حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به، وأن يأمروا أممهم بالإيمان به، ثم شهر ذكره في أمته، فلا يذكر الله إلا ذكر معه.

---

(١) رواه ابن جرير.

وقوله تعالى : ﴿ فإن مع العسر يسراً ۝ إن مع العسر يسراً﴾ أخبر تعالى أن مع العسر يوجد اليسر، ثم أكد هذا الخبر، بقوله ﴿ إن مع العسر يسراً﴾ ، قال الحسن: كانوا يقولون: لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين، وعن قتادة ذكر لنا أن رسول الله ﷺ بشّر أصحابه بهذه الآية فقال: « لن يغلب عسر يسرين »[1] ، ومعنى هذا أن العسر معرف في الحـالين، فهو مفرد، واليسر منكر، فتعدّد، ولهذا قال : « لن يغلب عسر يسرين » يعني قوله: ﴿ فإن مع العسر يسراً ۝ إن مع العسر يسراً﴾ فالعسر الأول عين الثاني، واليسر تعدّد، وممـا يروى عن الشافعي أنه قال :

صبراً جميلاً ما أقرب الفرجـا من راقب الله في الأمور نجا
من صـدّق الله لم ينلـه أذى ومن رجاه يكون حيث رجـا

وقال الشاعر :

ولرب نازلة يضيق بها الفتـى ذرعـاً وعند الله منها المخرج
كملت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكـان يظنها لا تفرج

وقوله تعالى : ﴿ فإذا فرغت فانصب ۝ وإلى ربك فارغب﴾ أي إذا فرغت من أُمور الدنيـا وأشغالهـا ، وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة ، وقم إليها نشيطـاً فارغ البال ، واخلص لربك النية والرغبة. قال مجاهد في هذه الآية : إذا فرغت من أمر الدنيا فقمت إلى الصلاة فانصب لربك . وعن ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل، وفي رواية عنه ﴿ فانصب﴾ بعد فراغك من الصلاة وأنت جالس، وقال ابن عباس ﴿ فإذا فرغت فانصب﴾ يعني في الدعاء، وقال الضحّاك ﴿ فإذا فرغت﴾ أي من الجهاد ﴿ فانصب﴾ أي في العبـادة ﴿ وإلى ربك فارغب﴾ قال الثوري: اجعل نيتك ورغبتك إلى الله عزّ وجلّ .

[آخر تفسير سورة ألم نشرح . ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) رواه ابن جرير



روى مالك عن البراء بن عازب قال: « كان النبي ﷺ يقرأ في سفره في إحدى الركعتين بالتين والزيتون، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه » أخرجه الجماعة .

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾

اختلف المفسرون ههنا على أقوال كثيرة فقيل: المراد بالتين دمشق، وقيل: الجبل الذي عندها، وقال القرطبي: هو مسجد أصحاب الكهف، وروي عن ابن عباس: أنه مسجد نوح الذي على الجودي، وقال مجاهد: هو تينكم هذا ﴿والزيتون﴾ قال قتادة: هو مسجد بيت المقدس، وقال مجاهد وعكرمة: هو هذا الزيتون الذي تعصرون، ﴿وطور سينين﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، ﴿وهذا البلد الأمين﴾ يعني مكة[1]، قاله ابن عباس ومجاهد، وقال بعض الأئمة: هذه محال ثلاثة، بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلاً من أولي العزم، أصحاب الشرائع الكبار . (**فالأول**) محلة التين والزيتون وهي (بيت المقدس) التي بعث الله فيها عيسى بن مريم عليه السلام، (**والثاني**) طور سينين وهو (طور سيناء) الذي كلم الله عليه موسى بن عمران، (**والثالث**) مكة وهو (البلد الأمين) الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ، قالوا: وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله من طور سيناء – يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران – وأشرق من ساعير – يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى – واستعلن من جبال فاران – يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ، فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجودي، بحسب ترتيبهم في الزمان، ولهذا أقسم بالأشرف ثم

(١) هو قول جمهور المفسرين، قال ابن كثير: ولا خلاف في ذلك .

الأشرف منه، ثم بالأشرف منهما، وقوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة وشكل؛ منتصب القامة، سويّ الأعضاء حسنها. ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ أي إلى النار[1]. أي بعد هذا الحسن والنضارة، مصيره إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل، ولهذا قال: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾، وقال بعضهم: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ أي إلى أرذل العمر[2]. واختار ذلك ابن جرير، ولو كان هذا هو المراد لما حسن استثناء المؤمنين من ذلك، لأن الهرم قد يصيب بعضهم، وإنما المراد ما ذكرناه كقوله تعالى: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾، وقوله: ﴿فلهم أجر غير ممنون﴾ أي غير مقطوع، ثم قال: ﴿فما يكذبك﴾ أي يا ابن آدم ﴿بعد بالدين﴾؟ أي بالجزاء في المعاد، ولقد علمت البدأة وعرفت أن من قدر على البدأة فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى: ، فأي شيء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا؟ روى ابن أبي حاتم عن منصور قال، قلت لمجاهد: ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾ عنى به النبي ﷺ؟ قال: «معاذ الله» عنى به الإنسان[3]، وقوله تعالى: ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ أي أما هو أحكم الحاكمين الذي لا يجور ولا يظلم أحداً، ومن عدله أن يقيم القيامة فينتصف للمظلوم في الدنيا ممن ظلمه، وقد قدمنا في حديث أبي هريرة مرفوعاً: فإذا قرأ أحدكم والتين والزيتون فأتى على آخرها ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين.

[آخر تفسير سورة التين والزيتون. ولله الحمد والمنة]

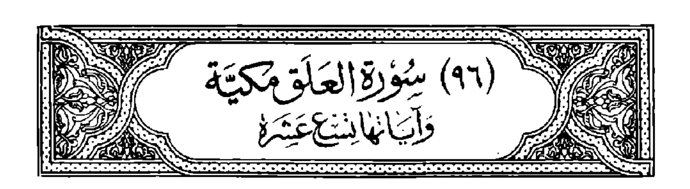


---

(١) قاله مجاهد والحسن وأبو العالية وابن زيد.

(٢) وروي هذا القول عن ابن عباس وعكرمة، حتى قال عكرمة: من جمع القرآن لم يردّ إلى أرذل العمر.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.



(٩٦) سورة العلق مكية وآياتها تسع عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾

عن عائشة قالت : أول ما بديء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبّب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث فيه – وهو التعبد – الليالي ذوات العدد ، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة ، فيتزود لمثلها حتى فجأه الوحي، وهو في غار حراء فجاءه الملك فيه، فقال: اقرأ، قال رسول الله ﷺ : « فقلت : ما أنا بقارئ – قال – فأخذني فغطّني، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطّني الثانية، حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطّني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق – حتى بلغ – ما لم يعلم » . قال: فرجع بها ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة فقال: « زمّلوني زمّلوني » ، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع فقال: يا خديجة: « مالي » ؟! وأخبرها الخبر ، وقال: « قد خشيت على نفسي » . فقالت له: « كلّا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق »، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به (ورقة بن نوفل) بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت خديجة : أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: ابن أخي ما ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ : « أو مخرجيّ هم ؟ » فقال ورقة: نعم لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي »[1] . فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات، وهن أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم

(١) أخرجه الشيخان والإمام أحمد واللفظ له .

الله بها عليهم، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأن من كرمه تعالى أن علّم الإنسان ما لم يعلم فشرّفه وكرّمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز بـه أبو البرية آدم على الملائكة؛ والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان[1]، ذهني، ولفظي، ورسمي، فلهذا قال: ﴿اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾، وفي الأثر: من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يكن يعلم.

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾

يخبر تعالى عن الإنسان، أنه ذو أشر وبطر وطغيان، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله، ثم تهدده وتوعده ووعظه فقال: ﴿إن إلى ربك الرجعى﴾ أي إلى الله المصير والمرجع، وسيحاسبك على مالك من أين جمعته وفيم صرفته، عن عبدالله بن مسعود قال: منهومان لا يشبعان: صاحب العلم وصاحب الدنيا، ولا يستويان، فأما صاحب العلم فيزداد رضى الرحمن، وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان، قال، ثم قرأ عبدالله: ﴿إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى﴾، وقال للآخر: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾، وقد روي هذا مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ: «منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا»[2]، ثم قال تعالى: ﴿أرأيت الذي ينهى * عبداً إذا صلَّى﴾ نزلت في (أبي جهل) لعنه الله، توعد النبي ﷺ على الصلاة عند البيت، فوعظه تعالى بالتي هي أحسن أولاً، فقال: ﴿أرأيت إن كان على الهدى﴾ أي فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه على الطريق المستقيمة في فعله ﴿أو أمر بالتقوى﴾ بقوله وأنت تزجره وتتوعده على صلاته؟ ولهذا قال: ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾؟ أي أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء، ثم قال تعالى متوعداً ومتهدداً ﴿كلا لئن لم ينته﴾ أي لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد ﴿لَنَسْفَعًا بالناصية﴾ أي لنسمنّها سواداً يوم القيامة، ثم قال: ﴿ناصية كاذبة خاطئة﴾ يعني ناصية (أبي جهل) كاذبة في مقالها، خاطئة في أفعالها، ﴿فليدع ناديه﴾ أي قومه وعشيرته أي ليدعهم يستنصر بهم، ﴿سندع الزبانية﴾ وهم ملائكة العذاب حتى يعلم من يغلب، أحزبنا أو حزبه؟ روى البخاري عن ابن عباس قال، قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «لئن فعل لأخذته الملائكة»[3]. عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام، فمرّ بـه أبو جهل بن هشام، فقال: يا محمد ألم أنهك عن هذا؟ وتوعدّه فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً، فأنزل الله: ﴿فليدع

---

(١) في الأثر: قيدوا العلم بالكتابة.

(٢) خرجه ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه البخاري.

ناديه * سندعُ الزبانية ﴾ وقال ابن عباس: لودعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته[١] وروى ابن جرير، عن أبي هريرة قال؛ قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا: نعم، قال، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له مالك ؟ فقال: إن بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة ! قال، فقال رسول الله ﷺ: « لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً »، قال: وأنزل الله: ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ﴾[٢] إلى آخر السورة، وقوله تعالى: ﴿ كلا لا تطعه ﴾ يعني يا محمد لا تطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها، وصلِّ حيث شئت ولا تبالِه، فإن الله حافظك وناصرك وهو يعصمك من الناس، ﴿ واسجد واقترب ﴾ كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء »[٣]. وتقدم أيضاً أن رسول الله ﷺ كان يسجد في ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ و ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ .

[آخر تفسير سورة اقرأ . ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة]





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

يخبر تعالى أنه أنزل القرآن ﴿ ليلة القدر ﴾ وهي الليلة المباركة التي قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ وهي من شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾، قال ابن عباس: أنزل

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي، وقال حسن صحيح .

(٢) رواه أحمد والنسائي وابن جرير واللفظ له .

(٣) رواه مسلم في صحيحه .

الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ، ثم قال تعالى معظماً لشأن ليلة القدر التي اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها، فقال: ﴿وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ . روى ابن أبي حاتم، عن مجاهد أن النبي ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، قال: فعجب المسلمون من ذلك قال: فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ التي لبس ذلك الرجل السلاح في سبيل الله ألف شهر[١]، وروى ابن جرير، عن مجاهد قال: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد العدوّ بالنهار حتى يمسي، ففعل ذلك ألف شهر، فأنزل الله هذه الآية ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل»[٢]. وقال سفيان الثوري: بلغني عن مجاهد ليلة القدر خير من ألف شهر قال: عملها وصيامها وقيامها خير من ألف شهر، وعن مجاهد: ليلة القدر خير من ألف شهر ليس في تلك الشهور ليلة القدر، وقال عمرو بن قيس: عملٌ فيها خير من عمل ألف شهر، وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر هو اختيار ابن جرير، وهو الصواب، كقوله ﷺ: «رباط ليلة في سبيل الله خير من ألف ليلة فيما سواه من المنازل»[٣]. وفي الحديث الصحيح في فضائل رمضان قال عليه السلام: «فيه ليلة خير من ألف شهر من حرم خيرها فقد حرم»[٤] ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر، ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[٥]. وقوله تعالى: ﴿تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر﴾ أي يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن، ويحيطون بحلق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم تعظيماً له، وأما الروح فقيل: المراد به ههنا جبريل عليه السلام، فيكون من باب عطف الخاص على العام، وقيل: هم ضرب من الملائكة كما تقدم في سورة النبأ، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿من كل أمر﴾ قال مجاهد: سلام هي من كل أمر، وقال سعيد بن منصور عن مجاهد في قوله: ﴿سلام هي﴾ قال: هي سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً، أو يعمل فيها أذى، وقال قتادة: تقضى فيها الأمور، وتقدر الآجال والأرزاق، كما قال تعالى: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ . وروى أبو داود الطيالسي، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «إنها ليلة سابعة، أو تاسعة وعشرين، وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى»[٦]. وقال قتادة وابن زيد في قوله: ﴿سلام هي﴾ يعني هي خير كلها ليس فيها شر إلى مطلع الفجر، وأمارة ليلة القدر أنها صافية بلجة، كأن فيها قمراً ساطعاً، ساكنة ساجية لا برد فيها ولا حر. والشمس صبيحتها تخرج مستوية ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه ابن جرير عن مجاهد موقوفاً
(٣) أخرجه أحمد.
(٤) أخرجه أحمد والنسائي.
(٥) أخرجه الشيخان.
(٦) رواه الطيالسي.

في ليلة القدر: « ليلة سمحة طلقة لا حارة ولا باردة وتصبح شمس صبيحتها ضعيفة حمراء »[١]، وعن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: « إني رأيت ليلة القدر/فأنسيتها وهي في العشر الأواخر من لياليها وهي طلقة بلجة لا حارة ولا باردة، كأن فيها قمراً لا يخرج شيطانها حتى يضيء فجرها ».

فصل

اختلف العلماء هل كانت ليلة القدر في الأمم السالفة أو هي من خصائص هذه الامة؟ فقال الزهري: حدثنا مالك أنه بلغه أن رسول الله ﷺ أريَ أعمار الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك، فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل الذي بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر خيراً من ألف شهر[٢]، وهذا الذي قاله مالك يقتضي تخصيص هذه الأمة بليلة القدر، وقيل: إنها كانت في الأمم الماضين كما هي في امتنا، ثم هي باقية إلى يوم القيامة وفي رمضان خاصة لا كما روي عن ابن مسعود ومن تابعه من علماء أهل الكوفة من أنها توجد في جميع السنة، وترتجى في جميع الشهور على السواء، وقد ترجم أبو داود في سننه على هذا فقال: (باب بيان أن ليلة القدر في كل رمضان)، ثم روى بسنده عن عبدالله بن عمر قال: سئل رسول الله ﷺ وأنا أسمع عن ليلة القدر؟ فقال: هي في كل رمضان »[٣]، وقد حكي عن أبي حنيفة رحمه الله رواية أنها ترتجى في كل شهر رمضان وهو وجه حكاه الغزالي.

فصل

ثم قد قيل: إنها تكون في أول ليلة من شهر رمضان، وقيل: إنها تقع ليلة سبع عشرة، وهو قول الشافعي، ويحكى عن الحسن البصري، ووجهوه بأنها ليلة بدر، وكانت ليلة جمعة هي السابعة عشرة من شهر رمضان، وفي صبيحتها كانت وقعة بدر، وهو اليوم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ يوم الفرقان ﴾. وقيل: ليلة تسع عشرة، يحكى عن علي وابن مسعود، وقيل: ليلة إحدى وعشرين لحديث أبي سعيد الخدري قال: اعتكف رسول الله ﷺ في العشر الأول من رمضان، واعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك، فاعتكف العشر الأوسط، فاعتكفنا معه، فأتا جبريل فقال: الذي تطلب أمامك، ثم قام النبي ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان، فقال: « من كان اعتكف معي فليرجع فإني رأيت ليلة القدر، وإني أنسيتها وإنها في العشر الأواخر في وتر، وإني رأيت كأني أسجد في طين وماء »، وكان سقف المسجد جريداً من النخل، وما نرى في السماء شيئاً، فجاءت قزعة، فمطرنا فصلّى بنا النبي ﷺ، حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤياه في صبح إحدى وعشرين »[٤]. قال الشافعي: وهذا الحديث أصح الروايات، وقيل: ليلة ثلاث وعشرين، وقيل: تكون ليلة خمس وعشرين لما رواه البخاري عن عبدالله بن عباس أن رسول الله ﷺ قال: « التمسوها في العشر الأواخر من

---

(١) أخرجه الطيالسي.
(٢) أخرجه مالك.
(٣) أخرجه أبو داود.
(٤) أخرجه الشيخان.

رمضان في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى »[1] فسره كثيرون بليالي الاوتار، وهو أظهر وأشهر، وحمله آخرون على الأشفاع . **وقيل**: إنها تكون ليلة سبع وعشرين، لما رواه مسلم في صحيحه عن أُبي بن كعب عن رسول الله ﷺ أنها ليلة سبع وعشرين، قال الإمام أحمد: عن زر : سألت أُبي بن كعب قلت: أبا المنذر إن أخاك ابن مسعود يقول: من يقم الحول يصب ليلة القدر، قال: يرحمه الله لقد علم أنها في شهر رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين، ثم حلف، قلت: وكيف تعلمون ذلك؟ قال: بالعلامة أو بالآية التي أخبرنا بها، تطلع ذلك اليوم لا شعاع لها يعني الشمس[2]. وهو قول طائفة من السلف، ومذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وهو رواية عن أبي حنيفة أيضاً، **وقيل**: إنها تكون في ليلة تسع وعشرين، روى الإمام أحمد بن حنبل عن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر، فقال رسول الله ﷺ: « في رمضان فالتمسوها في العشر الأواخر فإنها في وتر إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين أو سبع وعشرين أو تسع وعشرين أو في آخر ليلة »[3] . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر : « إنها في ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين، وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى »[4] . **وقيل**: إنها تكون في آخر ليلة لما تقدم من هذا الحديث آنفاً، ولما رواه الترمذي والنسائي من حديث عيينة بن عبدالرحمن عن أبيه عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال: « في تسع يبقين أو سبع يبقين أو خمس يبقين أو ثلاث أو آخر ليلة يعني التمسوا ليلة القدر »[5] . وفي المسند من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في ليلة القدر : « إنها آخر ليلة » .

فصل

قال الشافعي في هذه الروايات : صدرت من النبي ﷺ جواباً للسائل إذا قيل له: أنلتمس ليلة القدر في الليلة الفلانية؟ يقول : « نعم » ، وإنما ليلة القدر ليلة معينة لا تنتقل، وروي عن أبي قلابة أنه قال: ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر ؛ وهذا الذي حكاه عن أبي قلابة هو الأشبه، والله اعلم . وقد يستأنس لهذا القول بما ثبت في الصحيحين عن عبدالله بن عمر أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان، فقال رسول الله ﷺ : « أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر ، فمن كان متحريها، فليتحرها في السبع الأواخر »[6] . وفيهما أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: « تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان »[7] . ويحتج الشافعي أنها لا تنتقل وأنها معينة من الشهر بما رواه البخاري في صحيحه

---

(١) خرجه البخاري .
(٢) خرجه أحمد ورواه مسلم بنحوه .
(٣) خرجه أحمد .
(٤) خرجه أحمد .
(٥) أخرجه الترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حسن صحيح .
(٦) أخرجاه في الصحيحين .
(٧) أخرجه الشيخان ، واللفظ للبخاري .

عن عبادة بن الصامت قال: خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين فقال: «خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة»[1]، وجه الدلالة منه أنها لو لم تكن معينة مستمرة التعيين لما حصل لهم العلم بعينها في كل سنة، إذ لو كانت تنتقل لما علموا تعيينها إلا ذلك العام فقط، اللهم إلا أن يقال إنه إنما خرج ليعلمهم بها تلك السنة فقط، وقوله: «فتلاحى فلان وفلان فرفعت» فيه استئناس لما يقال: إن المماراة تقطع الفائدة والعلم النافع، كما جاء في الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» وقوله: «فرفعت» أي رفع علم تعيينها لكم، لا أنها رفعت بالكلية من الوجود، كما يقوله جهلة الشيعة، لأنه قد قال بعد هذا: «فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة»، وقوله: «وعسى أن يكون خيراً لكم» يعني عدم تعيينها لكم فإنها إذا كانت مبهمة اجتهد طلابها في ابتغائها في جميع محال رجائها، فكان أكثر للعبادة بخلاف ما إذا علموا عينها، فإنها كانت الهمم تتقاصر على قيامها فقط، وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر في ابتغائها، ويكون الاجتهاد في العشر الأخير أكثر، ولهذا كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عزّ وجلّ، ثم اعتكف أزواجه بعده. عن ابن عمر: كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان[2]. وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله، وشد المئزر، ولمسلم عنها: كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره، وهذا معنى قولها وشد المئزر، وقيل: المراد بذلك اعتزال النساء، ويحتمل أن يكون كناية عن الأمرين لما رواه الإمام أحمد، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا بقي عشر من رمضان شد مئزره، واعتزل نساءه، وقد حكي عن مالك رحمه الله أن جميع ليالي العشر في تطلب ليلة القدر على السواء، لا يترجح منها ليلة على أخرى، والمستحب الإكثار من الدعاء في جميع الأوقات وفي شهر رمضان أكثر، وفي العشر الأخير منه، ثم في أوتاره أكثر، والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني، لما رواه الإمام أحمد عن عبدالله بن بريدة أن عائشة قالت: يا رسول الله: إن وافقت ليلة القدر فما أدعو؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»[3].

[آخر تفسير سورة ليلة القدر، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجاه في الصحيحين.

(٣) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة.



(٩٨) سورة البينة مدنية
وآياتها ثمان

عن أنس بن مالك قال؛ قال رسول الله ﷺ لأُبيّ بن كعب: « إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ »قال: وسماني لك؟ قال: « نعم »، فبكى(١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

أما أهل الكتاب فهم اليهود والنصارى، والمشركون عبدة الأوثان والنيران من العرب ومن العجم، قال مجاهد: لم يكونوا ﴿منفكين﴾ يعني منتهين حتى يتبين لهم الحق ﴿حتى تأتيهم البينة﴾ أي هذا القرآن. ولهذا قال تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة﴾ ثم فسر البينة بقوله: ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة﴾ يعني محمداً ﷺ وما يتلوه من القرآن العظيم الذي هو مكتتب في الملأ الأعلى في صحف مطهرة، كقوله تعالى: ﴿في صحف مكرمة ۞ مرفوعة مطهرة ۞ بأيدي سفرة ۞ كرام بررة﴾. وقوله تعالى: ﴿فيها كتب قيمة﴾ قال ابن جرير: أي في الصحف المطهرة كتب من الله قيمة عادلة مستقيمة. ليس فيها خطأ لأنها من عند الله عزَّ وجلَّ، قال قتادة ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة﴾ يذكر القرآن بأحسن الذكر. ويثني عليه بأحسن الثناء. وقال ابن زيد: ﴿فيها كتب قيمة﴾ مستقيمة معتدلة. وقوله تعالى: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ كقوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾. يعني بذلك أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا. بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبينات تفرقوا.

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

واختلفوا في الذي أراده الله من كتبهم، واختلفوا اختلافاً كبيراً، كما جاء في الحديث المروي من طرق: «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى اختلفوا على اثنين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة»، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»، وقوله تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ كقوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدونِ﴾، ولهذا قال: ﴿حنفاء﴾ أي متحنفين من الشرك إلى التوحيد، كقوله: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾، وقد تقدم تقرير الحنيف في سورة الأنعام بما أغنى عن إعادته هاهنا، ﴿ويقيموا الصلاة﴾ وهي أشرف عبادات البدن، ﴿ويؤتوا الزكاة﴾ وهي الإحسان إلى الفقراء والمحاويج ﴿وذلك دين القيمة﴾ أي الملة القائمة العادلة، أو الأمة المستقيمة المعتدلة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

يخبر تعالى عن مآل الفجار من كفرة أهل الكتاب والمشركين، المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسلة، أنهم يوم القيامة في نار جهنم ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها لا يحولون عنها ولا يزولون، ﴿أولئك هم شر البرية﴾ أي شر الخليقة التي برأها الله وذرأها، ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بأبدانهم بأنهم خير البرية، وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة لقوله: ﴿أولئك هم خير البرية﴾، ثم قال تعالى: ﴿جزاؤهم عند ربهم﴾ أي يوم القيامة ﴿جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾ أي بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم القيم ﴿ورضوا عنه﴾ فيما منحهم من الفضل العميم، وقوله تعالى: ﴿ذلك لمن خشي ربه﴾ أي هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله واتقاه حق تقواه، وعبده كأنه يراه، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير البرية؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله كلما كانت هيعة استوى عليه، ألا أخبركم بخير البرية؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «رجل في ثلة من غنمه يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، «ألا أخبركم بخير البرية»؟ قالوا: بلى، قال: «الذي يسأل بالله ولا يعطي به»[1].

[آخر تفسير سورة البينة ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه الإمام أحمد.



روى الترمذي عن أنَس قال، قال رسول الله ﷺ: « من قرأ إذا زلزلت عدلت له بنصف القرآن »[1]. وعن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: « إذا زلزلت تعدل نصف القرآن، وقل هو الله أحـد تعدل ثلث القرآن، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن »[2]. وعن أنَس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: « هل تزوجت، يا فلان ؟ » قال: لا والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج، قال: « أليس معك قل هو الله أحد ؟ » قال: بلى، قال: « ثلث القرآن »، قال: « أليس معك إذا جاء نصر الله والفتح ؟ » قال: بلى، قال: « ربع القرآن » قال: « أليس معك قل يا أيها الكافرون ؟ » قال: بلى، قال: « ربع القرآن » قال: « أليس معك إذا زلزلت الأرض ؟ » قال: بلى، قال: « ربع القرآن ، تزوج »[3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

قال ابن عباس ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾: أي تحركت من أسفلها ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ يعني ألقت ما فيها من الموتى، كقوله تعالى: ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾، وكقوله: ﴿وألقت ما فيها وتخلت﴾، وفي الحديث: « تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول في هـذا قتلت. ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول في هذا قطعت يدي، ثم يدَعونـه

---

(١) أخرجه الترمذي ، وقال : حسن غريب .

(٢) أخرجه الترمذي ، وقال : غريب .

(٣) أخرجه الترمذي أيضاً ، وقال : حديث حسن .

فلا يأخذون منه شيئاً ﴾[١] ، وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وقال الإنسان مالها ﴾ أي استنكر أمرها بعدما كانت قارة ساكنة ثابتة، وهو مستقر على ظهرها أي تقلبت الحال، فصارت متحركة مضطربة، قد جاءها من أمر الله تعالى ما قد أعده لها، من الزلزال الذي لا محيد لها عنه، ثم ألقت ما في بطنها من الأموات من الأولين والآخرين، وحينئذ استنكر الناس أمرها، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات، وبرزوا لله الواحد القهار، وقوله تعالى: ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ أي تحدث بما عمل العاملون على ظهرها، عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ قال: « أتدرون ما أخبارها ؟ » قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا ، فهذه أخبارها »[٢] . وفي معجم الطبراني : « تحفظوا من الأرض فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً إلا وهي مخبرة »[٣] وقوله تعالى: ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ قال البخاري: أوحى لها، وأوحى إليها، ووحى لها، ووحى إليها، وكذا قال ابن عباس ﴿ أوحى لها ﴾ أي أوحى إليها، والظاهر أن هذا مضمن بمعنى أذن لها، وقال ابن عباس: ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ قال، قال لها ربها قولي، فقالت؛ وقال مجاهد ﴿ أوحى لها ﴾ أي أمرها، وقال القرظي: أمرها أن تنشق عنهم، وقوله تعالى: ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ﴾ أي يرجعون عن موقف الحساب ﴿ أشتاتاً ﴾ أي أنواعاً وأصنافاً ما بين شقي وسعيد، مأمور به إلى الجنة ومأمور به إلى النار، قال ابن جريج: يتصدعون أشتاتاً فلا يجتمعون آخر ما عليهم، وقال السدي ﴿ أشتاتاً ﴾ فرقاً .

وقوله تعالى: ﴿ ليروا أعمالهم ﴾ أي ليجازوا بما عملوه في الدنيا من خير وشر ، ولهذا قال: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ . روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « الخيل لثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر» الحديث . فسئل رسول الله ﷺ عن الحمر ؟ فقال: « ما أنزل الله فيها شيئا إلا هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ »[٤] . وروى الإمام أحمد عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ قال: حسبي أن لا أسمع غيرها[٥] ، وفي صحيح البخاري عن عدي مرفوعاً: « اتقوا النار ولو بشق تمرة ولو بكلمة طيبة » ، وله أيضاً في الصحيح: « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط »[٦] . وفي الصحيح أيضاً: « يا معشر نساء المؤمنات لا تحقرنَّ جارة لجارتها ولو فرسن شاة »[٧] يعني ظلفها، وفي الحديث الآخر: « ردوا السائل ولو بظلف محرق » . وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: « يا عائشة استتري من النار ولو بشق تمرة فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان »[٨] . وروي عن عائشة أنها تصدقت بعنبة وقالت: كم فيها من مثقال ذرة، وروى ابن جرير

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً .
(٢) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي .
(٣) أخرجه الحافظ الطبراني .
(٤) أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري .
(٥) أخرجه أحمد والنسائي .
(٦) أخرجه البخاري .
(٧) أخرجه البخاري أيضاً .
(٨) أخرجه أحمد .

عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه قال: لما نزلت: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه قاعد، فبكى حين أنزلت، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر»؟ قال: يبكيني هذه السورة، فقال له رسول الله ﷺ: «لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر الله لكم لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون فيغفر لهم»[1].

وروى ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في قول الله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ۝ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ وذلك لما نزلت هذه الآية: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾ كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه، فيجيء المسكين إلى أبوابهم، فيستقلون أن يعطوه التمرة والكسرة والجوزة ونحو ذلك فيردونه ويقولون: ما هذا بشيء إنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه، وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير: الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك، يقولون: إنما وعد الله النار على الكبائر، فرغّبهم في القليل من الخير أن يعملوه فإنه يوشك أن يكثر، وحذرهم اليسير من الشر، فإنه يوشك أن يكثر، فنزلت﴿فمن يعمل مثقال ذرة﴾[2] يعني وزن أصغر النمل ﴿خيراً يره﴾ يعني في كتابه ويسره ذلك قال: يكتب لكل بر وفاجر بكل سيئة سيئة واحدة وبكل حسنة عشر حسنات، فإذا كان يوم القيامة ضاعف الله حسنات المؤمنين أيضاً بكل واحدة عشراً ويمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات فمن زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة دخل الجنة. وروى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً، وأججوا ناراً، وأنضجوا ما قذفوا فيها[3]

[آخر تفسير سورة إذا زلزلت. ولله الحمد والمنة]

* * *

---

(١) أخرجه ابن جرير

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الإمام أحمد.



بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

يقسم تعالى بالخيل إذا أجريت في سبيله، فعدت وضبحت، وهو الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو، ﴿ فالموريات قدحاً﴾ يعني اصطكاك نعالها للصخر، فتقدح منه النار، ﴿ فالمغيرات صبحاً﴾ يعني الإغارة وقت الصباح كما كان رسول الله ﷺ يغير صباحاً ويستمع الأذان، فإن سمع أذاناً وإلا أغار، وقوله تعالى: ﴿ فأثرن به نقعاً﴾ يعني غباراً في مكان معترك الخيول، ﴿ فوسطن به جمعاً﴾ أي توسطن ذلك المكان كلهن جمع، روى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: بينا أنا في الحجر جالساً جاءني رجل فسألني عن: ﴿ العاديات ضبحاً﴾ فقلت له: الخيل حين تغير في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل فيصنعون طعامهم، ويورون نارهم، فانفتل عني، فذهب إلى علي رضي الله عنه وهو عند سقاية زمزم، فسأله عن العاديات ضبحاً، فقال: سألت عنها أحداً قبلي؟ قال: نعم سألت ابن عباس، فقال: الخيل حين تغير في سبيل الله، قال: اذهب فادعه لي، فلما وقف على رأسه، قال: أتفتي الناس بما لا علم لك؟ والله لئن كان أول غزوة في الإسلام بدر، وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد، فكيف تكون العاديات ضبحاً؟ إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى المزدلفة ومن المزدلفة إلى منى، وفي لفظ: إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى المزدلفة، فإذا أووا إلى المزدلفة أوروا النيران»[1]، فذهب ابن عباس أنها الخيل[2]، وقال (علي) إنها الإبل. قال عطاء: ما ضبحت دابة قط إلا فرس أو كلب، وقال عطاء: سمعت ابن عباس يصف الضبح: أح أح، وقال أكثر هؤلاء في قوله: ﴿ فالموريات قدحاً﴾ يعني

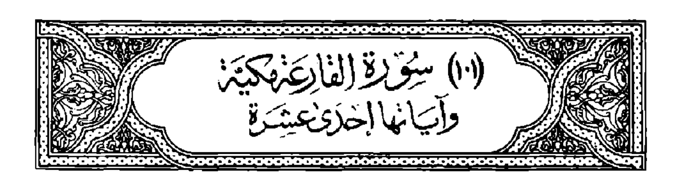
(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) وإلى قول ابن عباس ذهب جمهور المفسرين، منهم مجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة واختاره ابن جرير.

بحوافرها، وقيل: أسعرت الحرب بين ركبانهن، وقيل: هو إيقاد النار إذا رجعوا إلى منازلهم من الليل، وقيل: المراد بذلك نيران القبائل، قال ابن جرير: والصواب الأول: الخيل حين تقدح بحوافرها، وقوله تعالى: ﴿فالمغيرات صبحاً﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني إغارة الخيل صبحاً في سبيل الله، وقال: من فسرها بالإبل هو الدفع صبحاً من المزدلفة إلى منى، وقالوا كلهم في قوله: ﴿فأثرن به نقعاً﴾ هو المكان الذي حلت فيه أثارت به الغبار إما في حج أو غزو، وقوله تعالى: ﴿فوسطن به جمعاً﴾ قال ابن عباس وعطاء: يعني جمع الكفار من العدو. ويحتمل أن يكون فوسطن بذلك المكان جميعاً ويكون منصوباً على الحال المؤكدة، وقوله تعالى: ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ هذا هو المقسم عليه، بمعنى أنه لنعم ربه لكفور جحود، قال ابن عباس ومجاهد: الكنود الكفور. قال الحسن: الكنود هو الذي يعد المصائب وينسى نعم الله عليه، وقوله تعالى: ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ قال قتادة والثوري: وإن الله على ذلك لشهيد، ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان فيكون تقديره: وإن الإنسان على كونه كنوداً لشهيد، أي بلسان حاله، أي ظاهر ذلك عليه في أقواله وأفعاله كما قال تعالى: ﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ وقوله تعالى: ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ أي وإنه لحب الخير وهو المال ﴿لشديد﴾، وفيه مذهبان: (**أحدهما**): أن المعنى وإنه لشديد المحبة للمال، (**والثاني**) وإنه لحريص بخيل من محبة المال، وكلاهما صحيح، ثم قال تبارك وتعالى مزهداً في الدنيا، ومرغباً في الآخرة، ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال، وما يستقبله الإنسان من الأهوال ﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور؟﴾ أي أخرج ما فيها من الأموات، ﴿وحصّل ما في الصدور﴾ يعني أبرز وأظهر ما كانوا يسرون في نفوسهم، ﴿إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾ أي لعالم بجميع ما كانوا يصنعون، ومجازيهم عليه أوفر الجزاء، ولا يظلم مثقال ذرة.

[آخر تفسير سورة العاديات: ولله الحمد والمنة]





(١٠١) سورة القارعة مكية وآياتها إحدى عشرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ

مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴿١١﴾

القارعة من أسماء يوم القيامة، كالحاقة والطامة والصاخة والغاشية وغير ذلك . ثم قال تعالى معظماً أمرها ومهولاً لشأنها ﴿وما أدراك ما القارعة﴾ ؟ ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث﴾ أي في انتشارهم وتفرقهم وذهابهم ومجيئهم، من حيرتهم مما هم فيه كأنهم فراش مبثوث، كما قال تعالى: ﴿كأنهم جراد منتشر﴾ ، وقوله تعالى: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ يعني صارت كأنها الصوف المنفوش الذي قد شرع في الذهاب والتمزق، قال مجاهد: ﴿العهن﴾ الصوف، ثم أخبر تعالى عما يؤول إليه عمل العاملين. وما يصيرون إليه من الكرامة والاهانة بحسب أعمالهم، فقال: ﴿فأما من ثقلت موازينه﴾ أي رجحت حسناته على سيئاته ، ﴿فهو في عيشة راضية﴾ يعني في الجنة، ﴿وأما من خفت موازينه﴾ أي رجحت سيئاته على حسناته، ﴿فأمه هاوية﴾ **قيل**: معناه فهو ساقط هاو بأم رأسه في نار جهنم، وعبّر عنه بأمه يعني (دماغه) ، قال قتادة: يهوي في النار على رأسه، **وقيل** : معناه فأمه التي يرجع إليها ويصير في المعاد إليها ﴿هاوية﴾ وهي اسم من أسماء النار ، قال ابن جرير : وإنما قيل للهاوية أمه لأنه لا مأوى له غيرها، وقال ابن زيد: الهاوية النار هي أمه ومأواه التي يرجع إليها ويأوي إليها، وقرأ: ﴿ومأواهم النار﴾ . وروي عن قتادة أنه قال: هي النار وهي مأواهم، ولهذا قال تعالى مفسراً للهاوية: ﴿وما أدراك ما هيه * نار حامية﴾، روى ابن جرير عن الأشعث بن عبد الله الأعمى قال: إذا مات المؤمن ذهب بروحه إلى أرواح المؤمنين، فيقولون: روّحوا أخاكم، فإنه كان في غم الدنيا. قال: ويسألونه ما فعل فلان ؟ فيقول: مات أوما جاءكم ؟ فيقولون: ذهب به إلى أمه الهاوية[1] ، وقوله تعالى: ﴿نار حامية﴾ أي حارة شديدة الحر ، قوية اللهب والسعير ، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: « نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » ، قالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية ؟ فقال: « إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً »[2]. وفي رواية: « كلهن مثل حرها » . وروى الإمام أحمد، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد »[3]. وروى الترمذي وابن ماجة، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ : « أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة »[4] . وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: « اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون في الشتاء من بردها، وأشد ما تجدون في الصيف من حرها »[5] . وفي الصحيحين: « إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة فإن شدة الحر من فيح جهنم » .

[آخر تفسير سورة القارعة . ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه ابن جرير .
(٢) أخرجه مالك ورواه البخاري ومسلم بنحوه .
(٣) أخرجه الإمام أحمد .
(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجة .
(٥) أخرجاه في الصحيحين .



(١٠٢) سورة التكاثر مكية وآياتها ثمان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨ ﴾

يقول تعالى: أشغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر، وصرتم من أهلها، عن زيد بن أسلم قال، قال رسول الله ﷺ: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ عن الطاعة، ﴿حتى زرتم المقابر﴾ حتى يأتيكم الموت[1]. وقال الحسن البصري: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ في الأموال والأولاد، وعن أُبيّ بن كعب قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ يعني: «لو كان لابن آدم واد من ذهب»[2]. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن الشخير قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «﴿ألهاكم التكاثر﴾ يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟»[3]. وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «يقول العبد: مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدّق فأمضى، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس»[4]. وروى البخاري عن أنَس بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ: «يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد: يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله»[5]. وعن أنَس أن النبي ﷺ قال: «يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان: الحرص والأمل»[6]. وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة الأحنف بن قيس أنه رأى في يد رجل درهماً فقال: لمن هذا الدرهم؟ فقال الرجل: لي، فقال: إنما هو لك إذا أنفقته في أجر، أو ابتغاء شكر، ثم أنشد الأحنف متمثلاً قول الشاعر:

أنت للمال إذا أمسكته ... فإذا أنفقته فالمال لك

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) رواه البخاري في الرقاق.

(٣) أخرجه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي.

(٤) تفرد به مسلم.

(٥) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي.

(٦) أخرجاه في الصحيحين.

وقال ابن بريدة : نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار (بني حارثة) و (بني الحارث) تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحداهما : فيكم مثل فلان بن فلان وفلان، وقال الآخرون: مثل ذلك تفاخروا بالأحياء ، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين، تقول: فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبور، ومثل فلان . وفعل الآخرون مثل ذلك ، فأنزل الله: ﴿ ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ﴾[1] لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل، وقال قتادة: كانوا يقولون: نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعد من بني فلان، حتى صاروا من أهل القبور كلهم، والصحيح أن المراد بقوله: ﴿ زرتم المقابر ﴾ أي صرتم إليها ودفنتم فيها ، كما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعوده، فقال « لا بأس طهور إن شاء الله » ، فقال، قلت: طهور، بل هي حمى تفور، على شيخ كبير ، تزيره القبور ، قال: « فنعم إذن » . وعن ميمون بن مهران قال: كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز فقرأ : ﴿ ألهاكم التكاثر ۞ حتى زرتم المقابر ﴾ فلبث هنيهة ثم قال: يا ميمون ما أرى المقابر إلا زيارة وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله، يعني أن يرجع إلى منزله أي إلى جنة أو إلى نار ، وهكذا ذكر أن بعض الأعراب سمع رجلاً يتلو هذه الآية: ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ فقال: بعث اليوم ورب الكعبة، أي أن الزائر سيرحل من مقامه ذلك إلى غيره، وقوله تعالى: ﴿ كلا سوف تعلمون ۞ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ قال الحسن البصري هذا وعيد بعد وعيد، وقال الضحّاك ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ يعني أيها الكفار ، ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ يعني أيها المؤمنون، وقوله تعالى : ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين ﴾ أي لو علمتم حق العلم لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة حتى صرتم إلى المقابر ثم قال: ﴿ لترون الجحيم ۞ ثم لترونها عين اليقين ﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدم، وهو قوله: ﴿ كلا سوف تعلمون ۞ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ توعدهم بهذا الحال وهو رؤية أهل النار ، التي إذا زفرت زفرة واحدة، خرّ كل ملك مقرب ونبي مرسل على ركبتيه ، من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال، على ما جاء به الأثر المروي في ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ أي ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك، ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته . روى ابن جرير ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما أبو بكر وعمر جالسان إذ جاءهما النبي ﷺ فقال: « ما اجلسكما ههنا ؟ » ، قالا : والذي بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع، قال: « والذي بعثني بالحق ما أخرجني غيره » ، فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار ، فاستقبلتهم المرأة، فقال لها النبي ﷺ: « أين فلان ؟ » فقالت : ذهب يستعذب لنا ماء، فجاء صاحبهم يحمل قربته، فقال: مرحباً ما زار العباد شيء أفضل من نبي زارني اليوم، فعلق قربته بكرب نخلة، وانطلق فجاءهم بعذق، فقال النبي ﷺ: « ألا كنت اجتنيت » ، فقال: أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم، ثم أخذ الشفرة، فقال له النبي ﷺ: « إياك والحلوب » فذبح لهم يومئذ ، فأكلوا فقال النبي ﷺ: « لتسألن عن هذا يوم القيامة أخرجكم الجوع، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا، فهذا من النعيم »[2] . وروى الإمام أحمد عن جابر ابن عبدالله قال: أكل رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رطباً وشربوا ماء، فقال رسول الله ﷺ : « هذا من النعيم

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) أخرجه ابن جرير ورواه مسلم وأصحاب السنن الأربعة بنحوه .

الذي تسألون عنه »[١] . وروى الإمام أحمد عن محمود بن الربيع قال: لما نزلت ﴿ألهاكم التكاثر﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ قالوا : يا رسول الله عن أي نعيم نسأل ؟ وإنما هما الأسودان الماء والتمر ، وسيوفنا على رقابنا، والعدو حاضر ، فعن أي نعيم نسأل ؟ قال : « أما إن ذلك سيكون »[٢]

وروى الترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال النبي ﷺ : « إن أول ما يسأل عنه العبد من النعيم، أن يقال له ألم نصحّ لك بدنك ، ونروك من المـاء البارد »[٣] ؟ وروى ابن أبي حاتم، عن عبدالله بن الزبير قـال ، قال الزبير : لمّا نزلت ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ قالوا : يا رسول الله لأي نعيم نسأل عنه وإنما هما الأسودان التمر والماء ؟ قال: « إن ذلك سيكون »[٤] . وفي رواية عن عكرمة: قالت الصحابة : يا رسول الله، وأي نعيم نحن فيه ؟ وإنمـا نأكل في أنصاف بطوننا خبز الشعير ؟ فأوحى إلى نبيّه ﷺ : قل لهم : أليس تحتذون النعال، وتشربون الماء البارد ؟ فهذا من النعيم . وعن ابن مسعود مرفوعاً : « الأمن والصحة » . وقال زيد بن أسلم عن رسول الله ﷺ : ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ يعني شبع البطون، وبارد الشراب، وظلال المساكن، واعتدال الخلق ولذة النوم. وقال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا، وقال الحسن البصري: من النعيم الغداء والعشاء ، وقول مجاهد أشمل هذه الأقوال ، وقـال ابن عباس: ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ قال: النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار . يسأل الله العباد فيما استعملوها ، وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله تعالى: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ . وثبت في صحيح البخاري وسنن الترمذي عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من النـاس: الصحة والفراغ »[٥] . ومعنى هذا أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون .

[آخر تفسير سورة التكاثر . ولله الحمد والمنة]



(١) أخرجه أحمد والنسائي .
(٢) أخرجه أحمد .
(٣) أخرجه الترمذي وابن حبان .
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه الترمذي وابن ماجة .
(٥) أخرجه البخاري .



ذكر الطبراني عن عبيد الله بن حفص قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها، ثم يسلم أحدهما على الآخر. وقال الشافعي رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

العصر: الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم من خير وشر، وقال زيد بن أسلم: هو العصر. والمشهور الأول، فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفي خسر أي في خسارة وهلاك ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران، الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿وتواصوا بالحق﴾ وهو أداء الطاعات، وترك المحرمات، ﴿وتواصوا بالصبر﴾ أي على المصائب والأقدار، وأذى من يؤذي، ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر.

[آخر تفسير سورة العصر، ولله الحمد والمنة]

* * *



(١٠٤) سورة الهمزة مكية وآياتها تسع

بسم الله الرحمن الرحيم

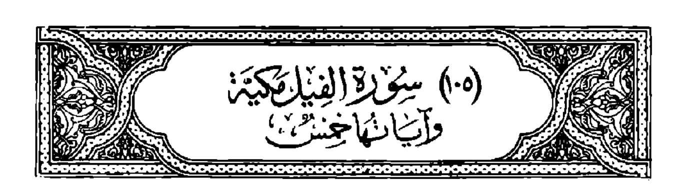
﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩ ﴾

الهماز بالقول، واللماز بالفعل، يعني يزدري الناس وينتقص بهم، قال ابن عباس: ﴿همزة لمزة﴾ طعان معياب، وقال الربيع بن أنس: الهمزة: يهمزه في وجهه، واللمزة: من خلفه، وقال قتادة: الهمزة واللمزة لسانه وعينه، ويأكل لحوم الناس ويطعن عليهم، وقال مجاهد: الهمزة باليد والعين، واللمزة باللسان؛ ثم قال بعضهم: المراد بذلك (الأخنس بن شريق)، وقال مجاهد: هي عامة. وقوله تعالى: ﴿الذي جمع مالاً وعدّده﴾ أي جمعه بعضه على بعض وأحصى عدده كقوله تعالى: ﴿وجمع فأوعى﴾ قال محمد بن كعب: ألهاه ماله بالنهار. فإذا كان الليل نام كأنه جيفة منتنة، وقوله تعالى: ﴿يحسب أن ماله أخلده﴾ أي يظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار، ﴿كلا﴾ أي ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب، ثم قال تعالى: ﴿لينبذن في الحطمة﴾ أي ليلقين هذا الذي جمع مالاً فعدده ﴿في الحطمة﴾ وهي اسم من أسماء النار، لأنها تحطم من فيها، ولهذا قال: ﴿وما أدراك ما الحطمة؟ نار الله الموقدة * التي تطلع على الأفئدة﴾ قال ثابت البناني: تحرقهم إلى الأفئدة وهم أحياء، وقال محمد بن كعب: تأكل كل شيء من جسده، حتى إذا بلغت فؤاده حذو حلقه ترجع على جسده، وقوله تعالى: ﴿إنها عليهم مؤصدة﴾ أي مطبقة كما تقدم تفسيره في سورة البلد. وقوله تعالى: ﴿في عمد ممددة﴾ أي عمد من حديد، وقال السدي: من نار، قال ابن عباس: ﴿في عمد ممددة﴾ يعني الأبواب هي الممددة، وعنه: أدخلهم في عمد ممددة عليهم بعماد، في أعناقهم السلاسل، فسدت بها الأبواب[1]، وقال قتادة: كنا نحدث أنهم يعذبون بعمد في النار، واختاره ابن جرير، وقال أبو صالح: ﴿في عمد ممددة﴾ يعني القيود الثقال.

[آخر تفسير سورة ويل لكل همزة لمزة. ولله الحمد والمنة]

---

(١) هذه رواية العوفي عن ابن عباس والأولى رواية عكرمة عنه.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش ، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله ، وأرغم آنافهم، وخيب سعيهم، وأضل عملهم، وردهم بشر خيبة ، هذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار . يروى أن أبرهة الأشرم بنى كنيسة هائلة بصنعاء، رفيعة البناء عالية الفِناء مزخرفة الأرجاء، سمتها العرب (القليس) لارتفاعها، لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها، وعزم أبرهة على أن يصرف حج العرب إليها كما يحج إلى الكعبة بمكة، ونادى بذلك في مملكته، فكرهت العرب ذلك، وغضبت قريش، لذلك غضباً شديداً، حتى قصدها بعضهم وتوصل إلى أن دخلها، فأحدث فيها وكرّ راجعاً، فلما رأى السدنة ذلك الحدث رفعوا أمره إلى ملكهم (أبرهة) وقالوا له: إنما صنع هذا بعض قريش غضباً لبيتهم الذي ضاهيت هذا به ، فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة وليخربنه حجراً حجراً، وذكر مقاتل أن فتية من قريش دخلوها، فأججوا فيها ناراً، وكان يوماً فيه هواء شديد فاحترقت، فتأهب أبرهة لذلك، وصار في جيش كثيف عرمرم لئلا يصده أحد عنه، واستصحب معه فيلاً عظيماً كبير الجثة لم ير مثله ، يقال له (محمود)، ويقال: كان معه اثنا عشر فيلاً غيره، فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جداً . ورأوا أن حقاً عليهم المحاجبة دون البيت، ورد من أراده بكيد، فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له (ذو نفر) فدعا قومه إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله، فأجابوه وقاتلوا أبرهة فهزمهم. ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم اعترض له (نفيل بن حبيب) الخثعمي في قومه فقاتلوه ، فهزمهم أبرهة وأسر نفيل بن حبيب، فأراد قتله ثم عفا عنه، واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز، فلما اقترب من أرض الطائف خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم الذي عندهم الذي يسمونه اللات، فأكرمهم وبعثوا معه (أبا رغال) دليلاً. فلما انتهى أبرهة إلى المغمس وهو قريب من مكة نزل به. وأغار جيشه على سرح أهل مكة من الإبل وغيرها.

فأخذوه، وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب، وبعث أبرهة حناطة الحِمْيَري إلى مكة، وأمره أن يأتيه بأشرف قريش، وأن يخبره أن الملك لم يجئ لقتالكم إلا أن تصدُّوه عن البيت، فجاء حناطة فدل على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال، فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخلي بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه . فقال له حناطة : فاذهب معي إليه، فذهب معه، فلما رآه أبرهة أجلّه - وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً حسن المنظر - ونزل أبرهة عن سريره وجلس معه على البساط، وقال لترجمانه: قل له ما حاجتك ؟ فقال للترجمان: إن حاجتي أن يرد عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي، فقال أبرهة لترجمانه: قل له : لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتهالك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك، قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ؟ فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيب رباً سيمنعه، قال: ما كان ليمتنع مني، قال: أنت وذاك، ويقال : إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب ، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت، فأبى عليهم، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله، ورجع عبد المطلب إلى قريش، فأمرهم بالخروج من مكة، والتحصن في رؤوس الجبال تخوفاً عليهم من معرة الجيش، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله، ويستنصرون على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

اللهم إن المرء يمنـع رحله فامنع رحالك
وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك
لا يغلبـنّ صليبهـم ومحالهم أبداً محالك

ثم خرجوا إلى رؤوس الجبال . وذكر مقاتل أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مقلدة ، لعل بعض الجيش ينال منها شيئاً بغير حق فينتقم الله منهم، فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ جيشه، فلما وجهوا الفيل نحو مكة، برك الفيل، وخرج (نفيل بن حبيب) يشتد حتى صعد في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم، فأبى، فضربوا في رأسه بالطبرزين وأدخلوا محاجن لهم في مراقه، فنزعوه بها ليقوم، فأبى، فوجهوه راجعاً إلى اليمن، فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك، وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس، لا يصيب منهم أحداً إلا هلك، وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق، ويسألون عن (نفيل) ليدلهم على الطريق، هذا ونفيل على رأس الجبل مع قريش، وعرب الحجاز ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة ، وجعل نفيل يقول :

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

وذكر الواقدي بإسناده: أنهم لما تعبأوا لدخول الحرم، وهيأوا الفيل جعلوا لا يصرفونه إلى جهة من سائر الجهات إلا ذهب فيها، فإذا وجهوه إلى الحرم ربض وصاح، وجعل أبرهة يحمل على سائس الفيل وينهره ويضربه ليقهر الفيل على دخول الحرم، وعبد المطلب وجماعة من أشراف مكة على حراء ينظرون ما الحبشة يصنعون، وماذا

يلقون من أمر الفيل وهو العجب العجاب، فبينما هم كذلك إذ بعث الله عليهم ﴿ طيراً أبابيل﴾ أي قطعاً قطعاً صفراً دون الحمام وأرجلها حمر، ومع كل طائر ثلاثة أحجار، وجاءت فحلّقت عليهم، وأرسلت تلك الأحجار عليهم فهلكوا، قال عطاء: ليس كلهم أصابه العذاب في الساعة الراهنة، بل منهم من هلك سريعاً، ومنهم من جعل يتساقط عضواً عضواً، وهم هاربون، وكان أبرهة ممن تساقط عضواً عضواً حتى مات ببلاد خثعم، قال ابن إسحاق: فلما بعث الله محمداً ﷺ، كان فيما يعد به على قريش من نعمته عليهم وفضله، ما رد عليهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم فقال: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ إلى قوله: ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾، وقوله: ﴿لإيلاف قريش * إيلافهم * رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾. قال ابن هشام: «الأبابيل» الجماعات ولم تتكلم العرب بواحدة قال: وأما «السجيل» فأخبرني يونس النحوي أنه عند العرب الشديد الصلب. «والعصف» ورق الزرع الذي لم يقضب واحدته عصفة. انتهى ما ذكره. وقال ابن عباس والضحاك: أبابيل يتبع بعضها بعضاً، وقال الحسن البصري وقتادة: الأبابيل الكثيرة، وقال مجاهد «أبابيل» شتى متتابعة مجتمعة، وقال ابن زيد: «الأبابيل» المختلفة تأتي من ههنا، ومن ههنا، أتتهم من كل مكان، وقال عكرمة: كانت طيراً خضراً خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع.

وعن ابن عباس ومجاهد: كانت الطير الأبابيل مثل التي يقال لها عنقاء مغرب، وقال عبيد بن عمير: لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف، كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار حجرين في رجليه وحجراً في منقاره، قال: فجاءت حتى صفت على رؤوسهم ثم صاحت وألقت ما في أرجلها ومناقيرها، فما يقع على رأس رجل إلا خرج من دبره، ولا يقع على شيء من جسده إلا خرج من الجانب الآخر، وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً. وقال ابن عباس ﴿حجارة من سجيل﴾ قال: طين في حجارة.

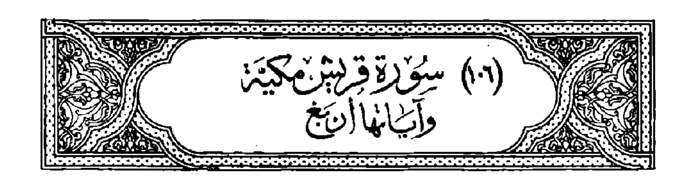
وقوله تعالى: ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾ قال سعيد بن جبير: يعني التبن الذي تسميه العامة هبور، وقال ابن عباس: العصف القشرة التي على الحبة كالغلاف على الحنطة، وقال ابن زيد: العصف ورق الزرع، وورق البقل إذا أكلته البهائم فراثته فصار دريناً، المعنى أن الله سبحانه وتعالى أهلكهم ودمّرهم وردهم بكيدهم وغيظهم، لم ينالوا خيراً، وأهلك عامتهم ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح، كما يروى لأمية بن أبي الصلت ابن ربيعة قوله:

إن آيات ربنا باقيات ... ما يماري فيهن إلا الكفور
خلق الليل والنهار فكل ... مستبين حسابه مقدور
ثم يجلو النهار رب رحيم ... بمهاة شعاعها منشور
حبس الفيل بالمغمّس حتى ... صار يحبو كأنه معقور
خلّفوه ثم ابذعرّوا جميعاً ... كلهم عظم ساقه مكسور
كل دِين يوم القيامة عند الله ... إلا دِين الحنيفة بور

وقد قدمنا في تفسير سورة الفتح أن رسول الله ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الثنية التي تهبط بـه على قريش بركت ناقته، فزجرها فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، أي حرنت، فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أجبتهم إليها»، ثم زجرها فقامت[1]. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «إن الله حبس عن مكة الفيل وسلّط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قـد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فيبلغ الشاهد الغائب».

[آخر تفسير سورة الفيل، ولله الحمد والمنة]





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَافِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾

هذه السورة مفصولة عن التي قبلها في المصحف الإمام، كتبوا بينهما سطر (بسم الله الرحمن الرحيم) وإن كانت متعلقة بما قبلها، كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد، لأن المعنى عندهما: حبسنا عن مكة الفيل، وأهلكنا أهله ﴿لإيلاف قريش﴾ أي لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين، **وقيل**: المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم، لعظمتهم عند الناس لكونهم سكان حرم الله، فمن عرفهم احترمهم ومن سار معهم أمن بهم، وهذا حالهم في أسفارهم ورحلتهم في شتائهم وصيفهم، وأما في حـال إقامتهم في البلد فكما قال الله تعالى: ﴿أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿لإيلاف قريش إيلافهم﴾ بدل من

(١) الحديث أخرجه البخاري.

الأول ومفسر له ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ وقال ابن جرير : الصواب أن اللام لام التعجب، كأنه يقول: اعجبوا لإيلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك، قال: وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان، ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال: ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت﴾ أي فليوحدوه بالعبادة كما جعل لهم حرماً آمناً وبيتاً محرماً، كما قال تعالى: ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها﴾ وقوله تعالى: ﴿ الذي أطعمهم من جوع﴾ أي هو رب البيت وهو الذي أطعمهم من جوع ﴿ وآمنهم من خوف﴾ أي تفضل عليهم بالأمن والرخص، فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا نداً ولا وثناً، ولهذا من استجاب لهذا الأمر ، جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبهما منه، كما قال تعالى: ﴿ ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ . عن أُسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿ لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾ ويحكم يا معشر قريش اعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف »[1] .

[آخر تفسير سورة لإيلاف قريش . ولله الحمد والمنة]

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

يقول تعالى : ﴿ أرأيت﴾ يا محمد ﴿ الذي يكذب بالدين﴾ وهو المعاد والجزاء والثواب ﴿ فذلك الذي يدع

---

(١) قال ابن كثير : صوابه عن أسماء بنت يزيد بن السكن (أم سلمة) الأنصارية رضي الله عنها ، لا عن أُسامة بن زيد ولعله وقع خطأ في النسخة أو في أصل الرواية .

اليتيم﴾ أي هو الذي يقهر اليتيم ولا يطعمه ولا يحسن إليه ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾ كقوله ﴿ولا تحاضون على طعام المسكين﴾، ثم قال تعالى: ﴿فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ قال ابن عباس: يعني المنافقين الذين يصلون في العلانية، ولا يصلون في السر، ولهذا قال: ﴿للمصلين﴾ الذين هم من أهل الصلاة ثم هم عنها ساهون، إما عن فعلها بالكلية، أو يخرجها عن وقتها، وقال عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: ﴿عن صلاتهم ساهون﴾ ولم يقل ﴿في صلاتهم ساهون﴾ فيؤخرونها إلى آخر الوقت، أو لا يؤدونها بأركانها وشروطها عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل ذلك كله، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً»[1]. فهذا أخّر صلاة العصر التي هي الوسطى – كما ثبت به النص – إلى آخر وقتها، وهو وقت كراهة، ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب، لم يطمئن ولا خشع فيها أيضاً، ولهذا قال: «لا يذكر الله فيها إلا قليلاً» ولعله إنما حمله على القيام إليها مراءاة الناس، لا ابتغاء وجه الله، فهو كما إذا لم يصل بالكلية، قال الله تعالى: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾، وقال تعالى ههنا: ﴿الذين هم يراؤون﴾، وروى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن في جهنم لوادياً تستعيذ جهنم من ذلك الوادي في كل يوم أربعمائة مرة، أعدّ ذلك الوادي للمرائين من أمة محمد: لحامل كتاب الله، وللمصدق في غير ذات الله، وللحاج إلى بيت الله، وللخارج في سبيل الله»[2] وروى الإمام أحمد عن عمرو بن مرة قال: كنا جلوساً عند أبي عبيدة، فذكروا الرياء، فقال رجل يكنى بأبي يزيد: سمعت عبدالله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ: «من سمّع الناس بعمله سمّع الله به سامع خلقه وحقّره وصغّره»[3]. ومما يتعلق بقوله تعالى: ﴿الذين هم يراؤون﴾ أن من عمل عملاً لله فاطلع عليه الناس فأعجبه ذلك أن هذا لا يعد رياء، لما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنت أصلي، فدخل عليّ رجل، فأعجبني ذلك فذكرته لرسول الله ﷺ فقال: «كتب لك أجران: أجر السر، وأجر العلانية»[4]. وفي رواية عنه قال: قال رجل: يا رسول الله! الرجل يعمل العمل يسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال، قال رسول الله ﷺ: «له أجران: أجر السر وأجر العلانية»[5]. وعن سعد بن أبي وقاص قال: سألت رسول الله ﷺ عن ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ قال: «هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها»[6]. قلت: وتأخير الصلاة عن وقتها يحتمل تركها بالكلية، ويحتمل صلاتها بعد وقتها شرعاً، أو تأخيرها عن أول الوقت.

وقوله تعالى: ﴿ويمنعون الماعون﴾ أي لا أحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم، فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى. وقد قال مجاهد ﴿الماعون﴾ الزكاة، وقال الحسن البصري: إن صلى راءى، وإن فاتته لم يأس عليها، ويمنع زكاة ماله، وفي لفظ: صدقة ماله. وقال

---

(١) أخرجه الشيخان.
(٢) أخرجه الطبراني.
(٣) أخرجه أحمد.
(٤) أخرجه الحافظ الموصلي.
(٥) أخرجه الترمذي والطيالسي وأبو يعلى الموصلي.
(٦) أخرجه ابن جرير الطبري.

زيد بن أسلم: هم المنافقون ظهرت الصلاة فصلوها، وخفيت الزكاة فمنعوها . وسئل ابن مسعود عن الماعون ؟ فقال: هو ما يتعاطاه الناس بينهم من الفأس والقدر والدلو وأشباه ذلك، وقال ابن جرير، عن عبد الله قال: « كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن الماعون الدلو والفأس والقدر لا يستغنى عنهن » ، ولفظ النسائي عن عبد الله قال: كل معروف صدقة، وكنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدلو والقدر ، وعن ابن عباس: ﴿ويمنعون الماعون﴾ يعني متاع البيت، وكذا قال مجاهد والنخعي انها العارية للأمتعة ، وقد اختلف الناس في ذلك، فمنهم من قال: يمنعون الزكاة ، ومنهم من قال: يمنعون الطاعة، ومنهم من قال: يمنعون العارية، وعن علي: الماعون منع الناس الفأس والقدر والدلو ، وقال عكرمة: رأس الماعون زكاة المال وأدناه المنخل والدلو والإبرة، وهذا الذي قاله عكرمة حسن ، فإنه يشمل الأقوال كلها، وترجع كلها إلى شيء واحد، وهو ترك المعاونة بمال أو منفعة، ولهذا جاء في الحديث: « كل معروف صدقة » .

[آخر تفسير سورة الماعون . ولله الحمد والمنة]

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾

روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذا أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسماً قلنا: ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال: « لقد أنزلت عليَّ آنفاً سورة » فقرأ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ۞ إنا أعطيناك الكوثر ۞ فصلِّ لربك وانحر ۞ إن شانئك هو الأبتر﴾، ثم قال: « أتدرون ما الكوثر ؟ » قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر في الجنة وعدنيه ربي عزَّ وجلَّ عليه خير كثير ، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم في السماء فيختلج العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك »[1] ، وقد استدل كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية، فأما قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ فقد

(١) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي .

تقدم في هذا الحديث أنه نهر في الجنة، وقد رواه الإمام أحمد عن أنس أنه قرأ هذه الآية: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ قال، قال رسول الله: «أعطيت الكوثر فإذا هو نهر يجري ولم يشق شقا، وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ فضربت بيدي في تربته، فإذا مسك أذفر، وإذا حصباؤه اللؤلؤ»[1]. وعن أنس بن مالك قال: لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر»[2]. وروى ابن جرير، عن أنس بن مالك قال: لما أسري برسول الله ﷺ مضى به جبريل في السماء الدنيا، فإذا هو بنهر عليه قصر من اللؤلؤ وزبرجد، فذهب يشم ترابه، فإذا هو مسك، قال: «يا جبريل ما هذا النهر؟» قال: هو الكوثر الذي خبأ لك ربك؛ وفي رواية عن أنس قال: سئل رسول الله ﷺ عن الكوثر؟ فقال: «هو نهر أعطانيه الله تعالى في الجنة ترابه مسك، أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، ترده طير أعناقها مثل أعناق الجزر»، قال أبو بكر: يا رسول الله إنها لناعمة؟ قال: «آكلها أنعم منها». وقال البخاري: حدَّثنا خالد بن يزيد الكاهلي. حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عائشة رضي الله عنها قال: سألتها عن قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ قالت: نهر أعطيه نبيكم ﷺ شاطئاه عليه در مجوف آنيته كعدد النجوم»[3]. وعن عائشة قالت: الكوثر نهر في الجنة شاطئاه در مجوف، وقال إسرائيل: نهر في الجنة عليه من الآنية عدد نجوم السماء، وعن مسروق قال، قلت لعائشة: يا أم المؤمنين حدِّثيني عن الكوثر؟ قالت: نهر في بطنان الجنة، قلت: وما بطنان الجنة؟ قالت: وسطها، حافتاه قصور اللؤلؤ والياقوت، ترابه المسك، وحصباؤه اللؤلؤ والياقوت[4]

وقال البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه، قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه[5]. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: الكوثر الخير الكثير، وهذا التفسير يعم النهر وغيره، لإن الكوثر من الكثرة وهو الخير الكثير، ومن ذلك النهر كما قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد، حتى قال مجاهد: هو الخير الكثير في الدنيا والآخرة، وقال عكرمة: هو النبوة والقرآن وثواب الآخرة، وقد صح عن ابن عباس أنه فسره بالنهر أيضاً، فقال ابن جرير: عن ابن عباس قال: «الكوثر نهر في الجنة، حافتاه ذهب وفضة، يجري على الياقوت والدر، ماؤه أبيض من الثلج، وأحلى من العسل». وعن ابن عمر أنه قال: الكوثر نهر في الجنة حافتاه ذهب وفضة، يجري على الدر والياقوت، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل[6]. وقد روي مرفوعاً فقال الإمام أحمد: عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، والماء يجري على اللؤلؤ، وماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل»[7]. وروى ابن جرير عن عطاء بن السائب قال: قال لي محارب بن دثار ما قال سعيد بن جبير في الكوثر. قلت: حدثنا عن ابن عباس أنه قال: هو الخير الكثير، فقال:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) أخرجه البخاري.
(٤) أخرجه ابن جرير.
(٥) أخرجه البخاري.
(٦) أخرجه الترمذي موقوفاً.
(٧) رواه الترمذي وبن ماجة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

صدق الله إنه للخير الكثير ، ولكن حدثنا ابن عمر قال: لما نزلت ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ قال رسول الله ﷺ: « الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب يجري على الدر والياقوت » . وهكذا روي عن أنَس وأبي العالية ومجاهد وغير واحد من السلف أن الكوثر نهر في الجنة، وقال عطاء: هو حوض في الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ فصلِّ لربك وانحر ﴾ أي كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة ومن ذلك النهر الذي تقدم صفته، فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة، ونحرك فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك نحر البدن ونحوها، **وقيل**: المراد بقوله: ﴿ وانحر ﴾ وضع اليد اليمنى على اليسرى تحت النحر، **وقيل**: ﴿ وانحر ﴾ أي استقبل بنحرك القبلة، والصحيح القول الأول: أن المراد بالنحر ذبح المناسك، ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلي العيد ثم ينحر نسكه ويقول: « من صلى صلاتنا ونسك نسكنا، فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له » الحديث . قال ابن جرير : والصواب قول من قال: إن معنى ذلك فاجعل صلاتك كلها لربك خالصاً، دون ما سواه من الأنداد والآلهة، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان، شكراً له على ما أعطاك من الكرامة والخير الذي لا كفاء له وخصك به، وهذا الذي قاله في غاية الحسن، وقوله تعالى: ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ أي إن مبغضك يا محمد . ومبغض ما جئت به من الهدى والحق، والبرهان الساطع والنور المبين ﴿ هو الأبتر ﴾ الأقل الأذل المنقطع ذكره، قال ابن عباس ومجاهد: نزلت في العاص ابن وائل، وقال يزيد بن رومان: قال، كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول: دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله هذه السورة، **وقيل**: **نزلت** في عقبة بن أبي معيط، وقال عطاء: نزلت في (أبي لهب) وذلك حين مات ابن لرسول الله ﷺ، فذهب أبو لهب إلى المشركين، فقال: بتر محمد الليلة فأنزل الله في ذلك : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾، وعن ابن عباس: نزلت في (أبي جهل) وعنه ﴿ إن شانئك ﴾ يعني عدوك، وهذا يعم جميع من اتصف بذلك ممن ذكر وغيرهم . وقال عكرمة: الأبتر الفرد، وقال السدي: كانوا إذا مات ذكور الرجل، قالوا: بتر ، فلما مات أبناء رسول الله ﷺ ، قالوا : بتر محمد، فأنزل الله : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ ، وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبتر الذي إذا مات انقطع ذكره، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره ، وحاشا وكلا، بل قد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمراً على دوام الآباد، إلى يوم المحشر والمعاد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد .

[آخر تفسير سورة الكوثر . ولله الحمد والمنة]

✲ ✲ ✲



(١٠٩) سورة الكافرون مكية وآياتها ست

ثبت في **صحيح مسلم**، عن جابر، أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة، وبقل هو الله أحد، في ركعتي الطواف[1]، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر، وقد تقدم في الحديث أنهـا تعدل ربع القرآن، وروى الطبراني أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مضجعه قرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ حتى يختمها[2]، وعن الحارث بن جبلة قال، قلت: يا رسول الله علمني شيئاً أقوله عند منامي، قال: «إذا أخذت مضجعك من الليل فاقرأ ﴿ يا أيها الكافرون ﴾ فإنها براءة من الشرك»[3]، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

هذه سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، فقوله تعالى: ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن الموجهون بهذا الخطاب هم (كفار قريش) دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة. ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية، فقال: ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ يعني من الأصنام والأنداد، ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ وهو الله وحده لا شريك له، ثم قال: ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ۞ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ أي ولا أعبد عبادتكم أي لا أسلكها ولا أقتدي بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه، ولهذا قال: ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ أي لا تقتدون بأوامر الله وشرعه، في عبادته، بل قـد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم، كما قال: ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه، ولهذا كان كلمة الإسلام «لا إلـه إلا الله محمد رسول الله» أي لا معبود إلا الله، ولا

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه الطبراني

(٣) أخرجه الإمام أحمد.

طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن الله بها، ولهذا قال: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾، كما قال تعالى: ﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم﴾، وقال: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾. وقال البخاري ﴿لكم دينكم﴾ الكفر. ﴿ولي دين﴾ الإسلام، ولم يقل: ديني، لأن الآيات بالنون فحذف الياء. كما قال: ﴿فهو يهدين﴾ ﴿ويشفين﴾. وقال غيره: ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ الآن ولا أجيبكم بما بقي من عمري ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾، ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أن ذلك من باب التأكيد كقوله: ﴿فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً﴾ فهذه ثلاثة أقوال: **أولها**: ما ذكرناه أولاً. **الثاني**: ما حكاه البخاري وغيره من المفسرين أن المراد: ﴿لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ في الماضي ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ في المستقبل. **الثالث**: أن ذلك تأكيد محض. وثمّ قول رابع: نصره ابن تيمية في بعض كتبه، وهو أن المراد بقوله: ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ نفي الفعل لأنها جملة فعلية، ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية، لأن النفي بالجملة الإسمية آكد، فكأنه نفى الفعل، وكونه قابلاً لذلك، ومعناه نفي الوقوع، ونفي الإمكان الشرعي أيضاً، وهو قول حسن أيضاً، والله أعلم.

[آخر تفسير سورة قل يا أيها الكافرون. ولله الحمد والمنة]





روى **الحافظ أبو بكر البزار**، عن ابن عمر قال: أنزلت هذه السورة ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع، فأمر براحلته القصواء فرحلت، ثم قام فخطب الناس فذكر خطبته المشهورة[١]، وروى الحافظ البيهقي، عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة، وقال: «إنه قد نعيت إليَّ نفسي» فبكت ثم ضحكت، وقالت: أخبرني أنه نعيت إليه نفسه، فبكيت، ثم قال: «اصبري فإنك أول أهلي لحاقاً بي» فضحكت[٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾

روى **البخاري**، عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم يدخل هذا معنا، ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في قول الله عزَّ وجلَّ ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له قال: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فسبِّح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾ فقال عمر بن الخطّاب: لا أعلم منها إلا ما تقول[٣]. وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ قال رسول الله ﷺ: «نعيت إليَّ نفسي»، وأنه مقبوض في تلك السنة، وهكذا قال مجاهد والضحّاك وغير واحد إنها أجل رسول الله ﷺ نعي إليه، وعن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ حتى ختم السورة قال: نعيت

(١) أخرجه البزار والبيهقي.

(٢) أخرجه البيهقي ورواه النسائي بنحوه بدون ذكر فاطمة. (٣) أخرجه البخاري في صحيحه.

لرسول الله ﷺ نفسه حين نزلت، قال: فأخذ بأشد ما كان قط اجتهاداً في أمر الآخرة، وقال رسول الله ﷺ بعد ذلك: «جاء الفتح ونصر الله، وجاء أهل اليمن»، فقال رجل: يا رسول الله وما أهل اليمن؟ قال: «قوم رقيقة قلوبهم، لينة طباعهم، الإيمان يمان والفقه يمان»[1]، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح: «لا هجرة ولكن جهاد ونية، ولكن إذا استنفرتم فانفروا»[2]، فالذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر رضي الله عنهم أجمعين من أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون، أن نحمد الله ونشكره ونسبِّحه، يعني نصلّي له ونستغفره، معنى مليح صحيح، وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى ثماني ركعات، فيستحب لأمير الجيش إذا فتح بلداً أن يصلي فيه أول ما يدخله ثماني ركعات، وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص يوم فتح المدائن، وأما ما فسر به ابن عباس وعمر رضي الله تعالى عنهما من أن هذه السورة نعي فيها إلى رسول الله ﷺ روحه الكريمة، وأعلم أنك إذا فتحت مكة وهي قريتك التي أخرجتك ودخل الناس في دين الله أفواجاً، فقد فرغ شغلنا بك في الدنيا فتهيأ للقدوم علينا والوفود إلينا فللآخرة خير لك من الدنيا، ولسوف يعطيك ربك فترضى، ولهذا قال: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾.

روى البخاري، عن مسروق، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن[3]، وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قول: «سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه»، وقال: «إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره إنه كان تواباً، فقد رأيتها ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً * فسبّح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾»[4]. والمراد بالفتح ههنا فتح مكة قولاً واحداً، فإن أحياء العرب كانت تتلوم بإسلامها فتح مكة يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ولله الحمد والمنة، وقد روى البخاري في صحيحه عن عمرو بن سلمة قال: لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ وكانت الأحياء تتلوم بإسلامها فتح مكة يقولون: دعوه وقومه، فإن ظهر عليهم فهو نبي[5]. الحديث. وقال الإمام أحمد بسنده: حدَّثني جار لجابر بن عبد الله قال: قدمت من سفر فجاءني (جابر بن عبد الله) فسلم عليَّ، فجعلت أحدِّثه عن افتراق الناس وما أحدثوا، فجعل جابر يبكي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً، وسيخرجون منه أفواجاً»[6]

[آخر تفسير سورة النصر، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه الطبراني والنسائي.

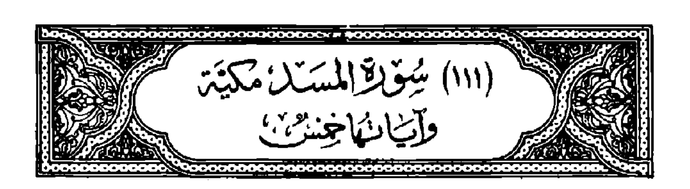
(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) أخرجه البخاري وبقية الجماعة إلا الترمذي.

(٤) أخرجه أحمد ورواه مسلم بنحوه.

(٥) أخرجه البخاري.

(٦) أخرجه الإمام أحمد.



(١١١) سُورَةُ المَسَدِ مَكِّيَّة وآياتها خمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

روى البخاري، عن ابن عباس أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: « يا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش، فقال: « أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني ؟ » قالوا: نعم، قال: « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد »، فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا ؟ تباً لك، فأنزل الله: ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ إلى آخرها[1]. وفي رواية: فقام ينفض يديه وهو يقول: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله: ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ الأول دعاء عليه، والثاني خبر عنه، فأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول الله ﷺ، واسمه (عبد العزى بن عبد المطلب) وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغض له، والتنقص له ولدينه، روى الإمام أحمد عن أبي الزناد قال: أخبرني رجل يقال له (ربيعة بن عباد) من بني الديل وكان جاهلياً فأسلم قال: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه، أحول ذو غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه، فقالوا: هذا عمه أبو لهب »[2]. وقال محمد بن إسحاق، عن ربيعة بن عباد قال: إني لمع أبي رجل شاب أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل، ووراءه رجل أحول وضيء الوجه ذو جمة، يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول: « يا بني فلان إني رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به »، وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له، ولا تتبعوه، فقلت لأبي: من هذا ؟ قال

---

(١) أخرجه البخاري .

(٢) أخرجه أحمد .

عمه أبو لهب[1] . فقوله تعالى: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ أي خسرت وخابت وضل عمله وسعيه، ﴿وتبّ﴾ أي وقد تبّ تحقق خسارته وهلاكه .

وقوله تعالى: ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ قال ابن عباس: ﴿وما كسب﴾ يعني ولده، يروى أن رسول الله ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي، فأنزل الله تعالى: ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ . وقوله تعالى: ﴿سيصلى ناراً ذات لهب﴾ أي ذات شرر ولهب وإحراق شديد، ﴿وامرأته حمالة الحطب﴾ وكانت زوجته من سادات نساء قريش، وهي (أم جميل) واسمها (أروى بنت حرب بن أمية) وهي أخت أبي سفيان، وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده، فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم، ولهذا قال تعالى: ﴿حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد﴾ يعني تحمل الحطب فتلقي على زوجها ليزداد على ما هو فيه، هي مهيأة لذلك مستعدة له ، ﴿في جيدها حبل من مسد﴾ قال مجاهد: من مسد النار، وعن مجاهد وعكرمة ﴿حمالة الحطب﴾ كانت تمشي بالنميمة[2] . وقال ابن عباس والضحاك : كانت تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ، وقال سعيد بن المسيب : كانت لها قلادة فاخرة ، فقالت: لأنفقنّها في عداوة محمد، فأعقبها الله منها حبلاً في جيدها من مسد النار، والمسد الليف، **وقيل**: هو قلادة من نار طولها سبعون ذراعاً، قال الجوهري: المسد الليف، والمسد أيضاً حبل من ليف أو خوص ، وقال مجاهد: ﴿حبل من مسد﴾ أي طوق من حديد، أخرج ابن أبي حاتم عن أسماء بنت أبي بكر قالت : لمّا نزلت : ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ أقبلت العوراء (أم جميل) بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول :

مذمّماً أبيْنا – ودينه قليْنا – وأمره عصينا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله قد أقبلتْ وأنا أخاف عليك أن تراك، فقال رسول الله ﷺ: « إنها لن تراني » ، وقرأ قرآناً اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ، ولم تر رسول الله ﷺ ، فقالت: يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني، قال: لا ورب هذا البيت ما هجاك، فولّت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها، قال: فعثرت أم جميل في مرطها وهي تطوف بالبيت، فقالت : تعس مذمم[3] . وقد قال بعض أهل العلم في قوله تعالى:﴿في جيدها حبل من مسد﴾ أي في عنقها حبل من نار جهنم ترفع به إلى شفيرها، ثم ترمى إلى أسفلها، ثم لا تزال كذلك دائماً .

قال العلماء : وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوّة، فإنه منذ نزل قوله تعالى : ﴿سيصلى ناراً ذات لهب ۝ وامرأته حمالة الحطب ۝ في جيدها حبل من مسد﴾ فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان لم يقيض لهما أن يؤمنا ولا واحد منهما لا باطناً ولا ظاهراً، لا سراً ولا علناً ، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة ، على النبوّة الظاهرة .

[آخر تفسير سورة المسد . ولله الحمد والمنة]

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني . (٢) واختاره ابن جرير . (٣) أخرجه ابن أبي حاتم .



(ذكر سبب نزولها وفضلها)

عن أُبيّ بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يا محمد انسب لنا ربك ، فأنزل الله تعالى: ﴿ قل هو الله أحدٌ * الله الصمدُ * لم يلد ولم يولدْ * ولم يكن له كفواً أحدٌ ﴾[1] ، زاد ابن جرير والترمذي، قال: ﴿ الصمد ﴾ الذي لم يلد ولم يولد لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت. وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله عزَّ وجلَّ لا يموت ولا يورث، ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ولم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شيء .

حديث آخر في فضلها : روى البخاري، عن عائشة رضي الله عنها : أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ، فلما رجعوا ذكروا ذلك النبي ﷺ فقال : « سلوه لأي شيء يصنع ذلك » ؟ فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال النبي ﷺ : « أخبروه أن الله تعالى يحبّه »[2] .

حديث آخر : قال البخاري في كتاب الصلاة ، عن أَنَس رضي الله عنه قال : كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء ، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ بـه ، افتتح بقل هو الله أحد حتى يفرغ منها ثم كان يقرأ سورة أُخْرَى معها ، وكان يصنع ذلك في كل ركعة ، فكلمه أصحابه، فقالوا : إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك، حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأُخْرَى، فقال : ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر ، فقال: يا فلان « ما يمنعك أن تفعل ما يأمركَ به أصحابك، وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة » ؟ قال: إني أحبها، قال: « حبك إياها أدخلك الجنة »[3]

حديث آخر : قال البخاري، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة » ؟ فشق ذلك عليهم ، وقالوا : أينا يطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال: « الله الواحد الصمد ثلث القرآن »[4] .

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وابن جرير .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة .

(٤) أخرجه البخاري .

حديث آخر : قال أحمد، عن أُبيّ بن كعب قال، قال رسول الله ﷺ: « من قرأ بقل هو الله أحد فكأنما قرأ بثلث القرآن »[١]

حديث آخر : عن أبي الدرداء رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « أيعجز أحـدكم أن يقرأ كل يوم ثلث القرآن ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله نحن أضعف من ذلك وأعجز ، قال : « فإن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فقل هو الله أحد ثلث القرآن »[٢] .

حديث آخر : عن عبدالله بن حبيب قال : أصابنا عطش وظلمة ، فانتظرنا رسول الله ﷺ يصلي بنا فخرج فأخذ بيدي فقال : « قُلْ » فسكت، قال : « قُلْ » ، قلت : ما أقول ؟ قال : « قل هو الله أحد والمعوذتين حـين تمسي ، وحين تصبح ثلاثاً . تكفيك كل يوم مرتين »[٣]

حديث آخر : عن سهل بن معاذ بن أنَس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: « من قرأ قُل هو الله أحد حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصراً في الجنة »، فقال عمر : إذاً نستكثر يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « الله أكثر وأطيب »[٤]

حديث آخر ، في فضلها مع المعوذتين : عن عقبة بن عامر قال: لقيت رسول الله ﷺ ، فابتدأته ، فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله بم نجاة المؤمن ؟ قال : « يا عقبة أخرس لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك عـلى خطيئتك » قال : ثم لقيني رسول الله ﷺ فابتدأني ، فأخـذ بيدي فقال: « يا عقبة بن عامر ألا أعلمك خـير ثلاث سور أنزلت في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن العظيم » ؟ قال، قلت : بلى، جعلني الله فداك ، قال : فأقرأني : ﴿ قل هو الله أحد – وقل أعوذ برب الفلق – وقل أعوذ برب الناس﴾، ثم قال: « يا عقبة لا تنسهن ولا تبت ليلة حتى تقرأهن » قال : فما نسيتهن منذ قال لا تنسهن، وما بت ليلة قط حتى أقرأهن، قال عقبة : ثم لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده ، فقلت: يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال فقال: « يا عقبة صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك »[٥]

حديث آخر : في الاستشفاء بهن، قال البخاري، عن عائشة، ان النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما ، وقرأ فيهما: ﴿ قل هو الله أحد﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الفلق﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات[٦]

---

(١) أخرجه أحمد .
(٢) رواه أحمد ومسلم والنسائي .
(٣) رواه أبو داود والترمذي والنسائي .
(٤) رواه أحمد والدارمي .
(٥) رواه أحمد والترمذي .
(٦) أخرجه البخاري وأهل السنن .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾

قال عكرمة : لما قالت اليهود : نحن نعبد عزير بن الله ، وقالت النصارى : نحن نعبد المسيح بن الله، وقالت المجوس : نحن نعبد الشمس والقمر ، وقالت المشركون: نحن نعبد الأوثان أنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿قل هو الله أحد﴾ يعني هو الواحد الأحد، الذي لا نظير له ولا وزير ، ولا شبيه ولا عديل، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله، وقوله تعالى: ﴿الله الصمد﴾ يعني الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم، قال ابن عباس : هو السيد الذي قد كمل في سؤدده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه، ليس له كفء وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار ، وقال الأعمش ﴿الصمد﴾ السيد الذي قد انتهى سؤدده، وقال الحسن وقتادة: هو الباقي بعد خلقه ، وقال الحسن أيضاً ﴿الصمد﴾ الحي القيوم الذي لا زوال له، وقال الربيع بن أنس : هو الذي لم يلد ولم يولد كأنه جعل ما بعده تفسيراً له ، وهو قوله : ﴿لم يلد ولم يولد﴾ وهو تفسير جيد، وقال ابن مسعود والضحاك والسدي: ﴿الصمد﴾ الذي لا جوف له ، وقال مجاهد ﴿الصمد﴾ المصمت الذي لا جوف له ، وقال الشعبي : هو الذي لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب . وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في كتاب السنة بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال في تفسير الصمد : وكل هذه صحيحة وهي صفات ربنا عزَّ وجلَّ، هو الذي يصمد إليه في الحوائج ، وهو الذي قد انتهى سؤدده، وهو الصمد الذي لا جوف له ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه، وقال البيهقي نحو ذلك، وقوله تعالى : ﴿لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾ أي ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة، قال مجاهد: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ يعني لا صاحبة له ، وهذا كما قال تعالى : ﴿بديع السماوات والأرض أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء﴾ أي هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه، أو قريب يدانيه ؟ تعالى وتقدس وتنزه، قال تعالى: ﴿وقالوا: اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدًّا﴾، وقال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ۝ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ . وفي صحيح البخاري: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم »[1]. وفي الحديث القدسي : « كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته . وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد »[2].

[آخر تفسير سورة الإخلاص . ولله الحمد والمنة]

---

(١) أخرجه البخاري . (٢) أخرجه البخاري أيضاً .



عن عقبة بن عامر قال، قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط: ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ و ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ »[1]. وروى الإمام احمد، عن عقبة بن عامر قال: بينا أنا أقود برسول الله ﷺ في نقب من تلك النقاب إذ قال لي: «يا عقبة ألا تركب؟» قال، فأشفقت أن تكون معصية، قال: فنزل رسول الله ﷺ، وركبت هنية، ثم ركب، ثم قال: «يا عقب، ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟» قلت: بلى يا رسول الله، فأقرأني: ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ و ﴿قل أعوذ برب الناس﴾، ثم أقيمت الصلاة فتقدم رسول الله ﷺ فقرأ بهما، ثم مر بي، فقال: «كيف رأيت يا عقب، اقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت»[2].

وتقدم حديث عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهن وينفث في كفيه ويمسح بهما رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، وروى الإمام مالك، عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين، وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه بالمعوذات، وأمسح بيده عليه رجاء بركتها[3]. وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنسان فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

قال ابن عباس ﴿الفلق﴾: الصبح، وقال ابن جرير: وهي كقوله تعالى: ﴿فالق الأصباح﴾. وقال

---

(١) أخرجه مسلم والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي.

(٣) أخرجه مالك ورواه البخاري وأبو داود والنسائي.

(٤) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجة، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ابن عباس : ﴿ الفلق﴾ الخلق، أمر الله نبيّه أن يتعوذ من الخلق كله، وقال كعب الأحبار : ﴿ الفلق﴾ بيت في جهنم، إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره، قال ابن جرير : والصواب القول، إنه فلق الصبح، وهذا هو الصحيح، وهو اختيار البخاري رحمه الله تعالى، ﴿ من شر ما خلق﴾ أي من شر جميع المخلوقات، قال الحسن البصري : جهنم وإبليس وذريته ممـا خلق، ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب﴾ قال مجاهد ﴿ غاسق﴾ الليل ﴿ إذا وقب » غروب الشمس[1] ، وقال الحسن وقتادة : إنه الليل إذا أقبل بظلامه، وقال الزهري: الشمس إذا غربت، وعن عطية وقتادة : ﴿ إذا وقب﴾ الليل إذا ذهب، وقال أبو هريرة ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب﴾ الكوكب، قـــال ابن جرير ، وقال آخرون: هو القمر . قالت عائشة رضي الله عنها: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأراني القمر حين طلع ، وقال: « تعوذي بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب »[2] ، ولفظ النسـائي: « تعوذي بالله من شر هذا، هذا الغاسق إذا وقب » ، قال الأولون: هذا لا ينافي قولنا، لأن القمر آية الليل، ولا يوجد له سلطان إلا فيه، وكذلك النجوم لا تضيء إلا بالليل، فهو يرجع إلى ما قلناه ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ ومن شر النفاثات في العقد﴾ قال مجاهد وعكرمة : يعني السواحر ، قال مجاهد : إذا رقـين ونفثن في العقد ، وفي الحديث : أن جبريل جاء إلى النبي ﷺ فقال اشتكيـت يا محمد ؟ فقال: « نعم » ، فقال : باسم الله أرقيك ، من كل داء يؤذيك ، ومن شر كل حاسد وعين، الله يشفيك . ولعل هذا كان من شكواه ﷺ حين سحر ، ثم عافاه الله تعالى وشفاه، ورد كيد السحرة الحساد من اليهود في رؤوسهم وجعل تدميرهم في تدبيرهم .

روى البخاري في كتاب الطب من صحيحه، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ سحر ، حتى كان يرى أنه يأتي النساء ، ولا يأتيهن . قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا فقال: « يا عائشة أعلمت أن الله قــد أفتاني فيما استفتيته فيه ؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجليَّ، فقال الذي عنـد رأسي للآخر : ما بال الرجل ؟ قال: مطبوب، قال : ومن طبه ؟ قال (لبيد بن أعصم) رجل من بني زريق حليف اليهود كان منافقاً ، قال: وفيم ؟ قال: في مشط ومشاطة، قال: وأين ؟ قال: في جف طلعة ذكر ، تحت راعوفة في بئر ذروان، ، قالت: فأتى البئر حتى استخرجه، فقال: « هذه بئر التي أُريتها وكأن ماءها نقاعة الحناء وكأن نخلها رؤوس الشياطين »، قال: فاستخرج، فقلت: أفلا تنشَّرت ؟ فقال: « أما الله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من النـاس شراً »[3] . وروى الثعلبي في تفسيره . قـال ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما : كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ . فدبت إليه اليهود . فلم يزالوا بـه حتى أخذ مشاطة رأس النبي ﷺ . وعدة من أسنان مشطه . فأعطاهـا اليهود فسحروه فيها ، وكان الذي تولى ذلك رجل منهم يقال له (ابن أعصم) ثم دسهـا في بئر لبني زريق، يقال له ذروان، فرض رسول الله ﷺ، وانتثر شعر رأسه ولبث ستة أشهر يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، وجعل يذوب، ولا يدري ما عراه، فبينما هو نائم إذ أتاه ملكان فجلس أحدهما عند رأسه والآخر عند

---

(١) حكاه البخاري عنه وهو قول ابن عباس والضحّاك .

(٢) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٣) أخرجه البخاري ورواه مسلم وأحمد بمثله .

رجليه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: ما بال الرجل؟ قال: طبٌّ، قال: وما طب؟ قال: سحر، قال: ومن سحره؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي، قال: وبم طبه؟ قال: بمشط ومشاطة، قال: وأين هو؟ قال: في جف طلعة ذكر تحت راعوفة في بئر ذروان، والجف قشر الطلع، والراعوفة حجر في أسفل البئر ناتيء يقوم عليه الماتح، فانتبه رسول الله ﷺ: مذعوراً، وقال: «يا عائشة أما شعرت أن الله أخبرني بدائي»، ثم بعث رسول الله ﷺ علياً والزبير وعمار بن ياسر، فنزحوا ماء البئر، كأنه نقاعة الحناء، ثم رفعوا الصخرة، وأخرجوا الجف، فإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان من مشطه، وإذا فيه وتر معقود فيه اثنا عشر عقدة مغروزة بالإبر، فأنزل الله تعالى السورتين، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد رسول الله ﷺ خفة حين انحلت العقدة الأخيرة، فقام كأنما نشط من عقال، وجعل جبريل عليه السلام يقول: باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من حاسد وعين، الله يشفيك، فقالوا: يا رسول الله أفلا نأخذ الخبيث نقتله؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما أنا فقد شفاني الله، وأكره أن يثير على الناس شراً»[1]





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

هذه ثلاث صفات من صفات الرب عزَّ وجلَّ: (الربوبية) و (الملك) و (الإلهية)، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له مملوكة، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات ﴿من شر الوسواس الخناس﴾ وهو الشيطان الموكل بالإنسان فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزيّن له الفواحش. ولا يألوه

(١) قال ابن كثير: هكذا أورده الثعلبي بدون إسناد وفيه غرابة، وفي بعضه نكارة شديدة، ولبعضه شواهد مما تقدم.

جهداً في الخبال، والمعصوم من عصمه الله، وقد ثبت في الصحيح: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه» قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير». وثبت في الصحيحين «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً - أو قال - شراً»[1]. وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي، عن أنس بن مالك، قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس»[2]. وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغلب، وإن لم يذكر الله تعاظم وغلب، قال ابن عباس في قوله: ﴿الوسواس الخناس﴾ قال: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس.

وقوله تعالى: ﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾ هل يختص هذا ببني آدم كما هو الظاهر، أو يعم بني آدم والجن؟ فيه قولان، ويكونون قد دخلوا في لفظ الناس تغليباً، وقوله: ﴿من الجنة والناس﴾ هل هو تفصيل لقوله: ﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾ ثم بيّنهم فقال: ﴿من الجنة والناس﴾ وهذا يقوي القول الثاني، وقيل قوله: ﴿من الجنة والناس﴾ تفسير للذي يوسوس في صدور الناس من شياطين الإنس والجن كما قال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾، وكما قال الإمام أحمد عن أبي ذر قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد فجلست فقال: «يا أبا ذر هل صليت؟» قلت: لا، قال: «قم فصل»، قال: فقمت فصليت، ثم جلست فقال: «يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن». قال، فقلت: يا رسول الله وللإنس شياطين؟ قال: «نعم»[3]، وروى الإمام أحمد، عن ابن عباس قال، جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني لأحدث نفسي بالشيء، لأن أخر من السماء أحب إليّ من أن أتكلم به، قال، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي ردّ كيده إلى الوسوسة»[4]

[آخر التفسير ، وقد تم والحمد لله رب العالمين]

* * *

استدراك: الحديث الوارد عند قوله تعالى ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ من سورة البقرة ص ٢٢٦/ج١ وهو قوله ﷺ: «الأبدال في أمتي ثلاثون، بهم ترزقون، وبهم تمطرون، وبهم تنصرون» لم تشر النسخ المطبوعة والمخطوطة إلى ضعفه. وقد أرشدني **فضيلة الشيخ عبد الله ابن حميد الرئيس العام للإشراف الديني بالمسجد الحرام** إلى أن الحديث ضعيف وأنه قد وجد ذلك

---

(١) أخرجه الشيخان في قصة زيارة صفية للنبي ﷺ وهو معتكف فلقيه رجلان فقال: «على رسلكما إنها صفية» الحديث.

(٢) أخرجه الحافظ الموصلي.

(٣) أخرجه الإمام أحمد وابن ماجة بلفظ أطول.

(٤) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي.

في نسخة مخطوطة في مكتبة الحرم الشريف، وقد رجعت بنفسي إلى المخطوطة فوجدت النص التالي : « روى أبو بكر بن مردويه بسنده عن ثوبان - رفعَ الحديث - قال : لا يزال بكم سبعة تنصرون وبهم تمطرون وبهم ترزقون حتى يأتي أمر الله » . ثم ذكر بسنده عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله ﷺ « لا يزال في أُمتي ثلاثون. بهم تقوم الأرض وبهم تمطرون وبهم تنصرون » قال قتادة : وإني لأرجو أن يكون الحسن منهم . وهذان الحديثان ضعيفان وإسناد كل منهما لا يثبت . هكذا ورد في النسخة المخطوطة ج١ ص٦٤٦ ومع ملاحظة الفرق بين اللفظين (الأبدال في أُمتي ثلاثون) في النسخة المطبوعة و (لا يزال في أُمتي ثلاثون) الخ في المخطوطة فقد رأينا التنبيه إلى ذلك **وشكر الله لفضيلة الشيخ بن حميد مسعاه، وجزاه الله على إرشاده الكريم خير الجزاء .**

وكتبه محمد علي الصابوني

محتويات المجلّد الثالث

فهارس

مفصلة لأهم محتويات المجلدات الثلاثة

تفصيل محتويات المجلد الأول

الصفحة	الموضوع

تفصيل محتويات المجلد الثاني

الصفحة	الموضوع

تفصيل محتويات المجلد الثالث

الصفحة	الموضوع

« تم ولله الحمد والمنة »



صدر

للشيخ محمد علي الصابوني

١ – **من كنوز السنّة**

« دراسات أدبية ولغوية من الحديث الشريف »

٢ – **التبيان في علوم القرآن**

٣ – **النبوة والأنبياء**

« دراسة تفصيلية لحياة الرسل الكرام المذكورين في القرآن »

٤ – **المواريث في الشريعة الإسلامية على ضوء الكتاب والسنّة**

٥ – **روائع البيان في تفسير آيات الأحكام (مجلدان)**

٦ – **شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول ﷺ**

٧ – **رسالة الصلاة**

صدر عن دار القرآن الكريم

١ - **القرآن الكريم (قياس وسط)** طبعة فاخرة بالألوان والذهب ضمن علبة موزاييك فاخرة
٢ - **القرآن الكريم (قياس وسط)** طبعة فاخرة بالألوان والذهب تجليد فني فاخر مع علبة من نوع الغلاف
٣ - **القرآن الكريم (قياس وسط)** طبعة فاخرة بالألوان والذهب بمحفظة ذات سحاب .
٤ - **القرآن الكريم (قياس وسط)** طبعة فاخرة بلونين على ورق أبيض بمحفظة ذات سحاب .
٥ - **القرآن الكريم (قياس وسط)** طبعة فاخرة بلونين على ورق أصفر بمحفظة ذات سحاب .
٦ - **القرآن الكريم (قياس وسط)** طبعة فاخرة بلونين على ورق شاموا تجليد فني .
٧ - **القرآن الكريم (قياس وسط)** طبعة فاخرة بلونين مجلد بغلاف بلاستيك سكاي بلسان .
٨ - **القرآن الكريم (قياس جيب)** طبعة فاخرة بالألوان والذهب بمحفظة ذات سحاب .
٩ - **القرآن الكريم (قياس جيب)** طبعة فاخرة بالألوان والذهب تجليد فني فاخر .
١٠ - **القرآن الكريم (قياس كبير)** (طبعة الملك) بالرسم العثماني على ورق شاموا تجليد فني
١١ - **ربع يس (قياس كبير)** (طبعة الملك) بالرسم العثماني على ورق أبيض فاخر
١٢ - **العشر الأخير من القرآن الكريم (قياس كبير)** (طبعة الملك) بالرسم العثماني على ورق أبيض فاخر
١٣ - **جزء تبارك (قياس كبير)** (طبعة الملك) بالرسم العثماني على ورق أبيض فاخر
١٤ - **جزء عم (قياس كبير)** (طبعة الملك) بالرسم العثماني على ورق أبيض فاخر .
١٥ - **روائع البيان تفسير آيات الأحكام ١ / ٢** (مجلدان) للشيخ محمد علي الصابوني .
١٦ - **عثرات المنجد في الأدب والعلوم والأعلام** (مجلد) للشيخ إبراهيم القطان .
١٧ - **مدخل إلى القرآن الكريم** للدكتور محمد عبد الله دراز
١٨ - **مقدمة في أصول التفسير للشيخ الإمام ابن تيمية** تحقيق الدكتور عدنان زرزور .
١٩ - **أحكام الصيام وفلسفته في ضوء القرآن والسنّة** للدكتور مصطفى السباعي
٢٠ - **البرهان في تجويد القرآن ورسالة في فضائل القرآن (مقرر في معاهد الأزهر)** للشيخ محمد الصادق قمحاوي (ورق أبيض فاخر) (ورق ميفان ممتاز) .
٢١ - **مقدمة في التفسير مع تفسير الفاتحة وأوائل سورة البقرة ، للإمام الشهيد حسن البنا**
٢٢ - **في رحاب القرآن (١)** للأستاذ عمر بهاء الدين الأميري .
٢٣ - **في رحاب القرآن (٢) عروبة وإسلام** ، للأستاذ عمر بهاء الدين الأميري .



دار القرآن الكريم
مؤسسة قرآنية
متخصصة بطبع القرآن الكريم ونشر علومه وترجمة معانيه إلى مختلف لغات العالم

تعمل على

نشر هداية القرآن الكريم وتعاليمه السمحة التي تقدم أفضل الحلول لجميع مشكلات الإنسان في كل زمان ومكان .

سبيلها إلى ذلك :

* العناية بطبع القرآن الكريم وتوزيعه في جميع أنحاء العالم .
* نشر علوم القرآن وتراثه .
* نشر الدراسات القرآنية وتسهيلها للناشئة وطلبة العلم .
* نشر وترجمة معاني القرآن الكريم إلى جميع لغات العالم .

كل ذلك بإشراف نخبة من العلماء المختصين وبمستوى لائق من العناية والاتقان .

بيروت : ساحة رياض الصلح - بناية شاكر وعويني - هاتف : ٢٩٧٧٢٢ - ص . ب ٧٤٩٢ - برقيًا : داقران

طُبع على نفقة
المحسن الكبير
معالي السيد حسن عباس الشربتلي
وجعله وقفاً لله تعالى
فجزاه الله كل خير
يُوزع مجاناً ولا يُباع